معالم الثقافة الإسلامية

في القرنين الأولين من الهجرة



تأليف

الدكتور عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح

قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

منشورات

محمد علي بيضون

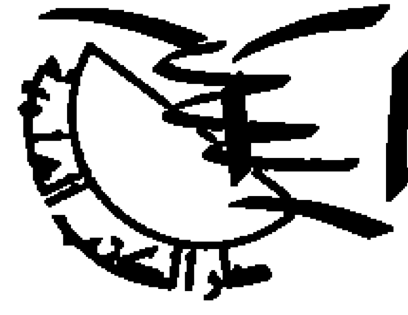
لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

مَعَالِمُ
الثَّقَافَةِ الإِسْلَامِيَّةِ
فِي القَرْنَيْنِ الأَوَّلَيْنِ مِنَ الهِجْرَة

تأليف
الدكتور عبد الفتّاح فتحي عبد الفتّاح
قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3512-0



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد أشرف الأنبياء، وخاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثم أما بعد،

فهذه مقدمة كتابى: **(معالم الثقافة الإسلامية فى القرنين الأولين من الهجرة)**. والحق أن هذه المقدمة ستعالج عدداً من الموضوعات المهمة، يمكن حصرها فيما يلى:

أولاً - مفهوم عنوان الكتاب:

يقصد بالعنوان المتقدم الاهتمام بدراسة مظاهر الحياة الثقافية فى العالم العربى فى الفترة الزمنية المذكورة. وتنصب الدراسة - فى الأساس - على مصر، ثم تمتد إلى بقية الأقاليم التى تضمها الدولة الإسلامية آنذاك، مثل: **(الحجاز، والشام، والعراق، واليمن)**، وذلك من خلال دراسة علاقات التأثير والتأثر المتبادلة بينها. ويُفهم من ذلك أن الكتاب يستعرض أبرز ملامح الثقافة الإسلامية فى تلك الفترة المبكرة من حياة المسلمين - فى القرنين: الأول، والثانى الهجريين - فى علوم القرآن الكريم (القراءات، والتفسير)، والحديث النبوى الشريف، والفقه، واللغة، والأدب، والتاريخ.

ثانياً - سبب اختيار الموضوع، وأهميته:

أعتقد أن قيمة الباحث ومنزلة كتاباته تحدد - أساساً - وفقاً لاختياره الدقيق الصائب للموضوعات التى تثرى المكتبة الثقافية العربية، ثم تحدد - بعد ذلك - من خلال المنهج المبتكر، الذى يبتدعه فى الدرس والتحليل. وأخيراً، فى النتائج الجديدة التى يتوصل إليها، والمفاهيم الخاطئة التى يصوبها، والقيم الصحيحة التى يؤسسها. وبناء عليه يمكن ذكر بعض دوافع اختيار موضوع هذا الكتاب فيما يلى:

١- أن هذا الموضوع موضوع منهجى فكرى عقلى فى المقام الأول. والموضوعات

من هذه النوعية، وعلى هذه الشاكلة قليلة فى المكتبة التاريخية إذا قيست بالموضوعات التقليدية التى تتناول الحياة السياسية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية لفترة ما من الفترات التاريخية، وفى مكان ما من الدولة الإسلامية. ولذلك، فالمجال رحب فسيح فى هذا الموضوع المنهجى غير التقليدى، الذى يستوجب التعامل مع المصادر بتمهل وتمعن، فيقرؤها الباحث صفحة صفحة، ويقف أمامها كلمة كلمة، ويقوم بمسح العشرات بل المئات منها؛ حتى يجمع - فى النهاية - شتات ما تناثر منها، فينظمه فى عِقْد متصل الحلقات؛ مما يسهل عمليات الدرس والتحليل، والوصول إلى نتائج دقيقة ما أمكن. أما الموضوعات التقليدية، فتعتمد على القراءة الخاطفة للظفر بالمعلومة المطلوبة وكفى.

٢- أن الأوضاع الثقافية فى مصر الإسلامية أهملها الباحثون، ومن قبل أهملها مؤلفو الطبقات والتراجم الأقدمون. فلم تُسلَّط على علماء مصر الأضواء الكافية، ولم يُنظر إلى منجزاتهم بعين الاعتبار، خاصة الفترة المبكرة التى يدرسها هذا الكتاب. ومن هنا كان لا بد من إضاءة جنبات هذه المدرسة، ونفض الغبار عن أعلامها، وإظهار منجزاتها بكل موضوعية وأمانة، دون تكلف أو مبالغة.

٣- أن من تمام هذه الدراسة ومظاهر الجِدّة فيها، ألا تكتفى ببيان الأوضاع الثقافية فى مصر فحسب، وإنما تبرز مكانة مصر الثقافية من خلال بيان علاقاتها بالأقاليم العربية الإسلامية الأخرى، فيتحدد بذلك موقعها من حيث الإسهام الحضارى، أخذاً وعطاء، وتأثراً وتأثيراً، وتقليداً وإبداعاً. وليس من السهولة بمكان الوصول إلى ذلك التحديد، فدونه عقبات كبيرة، ويتطلب خطوات وجهوداً عديدة قبل الوصول إلى النتائج المرجوة، التى تُظهر - فى النهاية - نموذج الوحدة الثقافية العربية فى ظلال الوحدة السياسية العامة لمسلمى ذلك الزمان، فيقدم للمسلمين المعاصرين الحد الأدنى من الوحدة والأخوة الإسلامية، بعدما عَزّت عليهم الوحدة السياسية، والاقتصادية.

ثالثاً - تخطيط الكتاب، وفلسفة تبويبه:

ينقسم هذا الكتاب إلى تمهيد، وستة أبواب، وخاتمة. ويمكن تفصيل ذلك على الوجه الآتى:

١- التمهيد: (السياسة وتأثيرها فى الحياة الثقافية المصرية حتى نهاية القرن الثانى الهجرى): وواضح من عنوانه أننا نقصد من معالجته إلى تحقيق غايات، منها:

أ) وضع الإطار السياسى العام الذى نشأت فى رحابه الحياة الثقافية بعامة فى مصر خلال القرنين الأولين للهجرة؛ لأن أية حركة فكرية بعامة (وتاريخية بخاصة) لا بد أن تنشأ فى ظل نظام سياسى، يؤثر فيها وتؤثر فيه.

ب) الربط بين حالة الاستقرار السياسى والأمنى من جهة، وحالة ازدهار العلوم والثقافات والفكر من جهة أخرى. والعكس صحيح، ففى فترات الصراع والحروب

الطاحنة يخبو نور العلم والفكر. ويلاحظ أن الأوضاع السياسية فى مصر متأثرة بأحداث دار الخلافة، والأخيرة لها مردودها وانعكاساتها على مصر، باعتبارها إحدى الولايات التابعة لها، شأنها فى ذلك شأن بقية الأقاليم العربية الأخرى.

وبناء على ما تقدم، قمت بانتقاء عددٍ من الأحداث السياسية، التى مرت بها مصر خلال حكم الراشدين، والأمويين، والعباسيين حتى نهاية القرن الثانى الهجرى، وقمت بالربط بين طبيعة الأحداث التى مرت بها مصر فى هذه الفترات، وبين الملامح العامة للحياة الثقافية فى كل فترة منها بإيجاز واختصار.

٢- الباب الأول - العلاقات الثقافية بين مصر والأقاليم العربية الأخرى فى القرنين الأولين الهجريين:

بعد أن أرسينا الأساس الذى تقوم عليه الدراسة فى هذا الكتاب **(خلال التمهيد)**، بدأنا نعالج مضمونها بهذا الباب، الذى هو أشبه ما يكون بدراسة التاريخ الفكرى والعقلى للأمة؛ فهو يتطلب الغوص فى عقلية مفكريها وعلمائها خلال فترة من الزمان المبكر، لا يمكن أن يُستهان بها. وكل ذلك يتم لأجل إقامة بحوث مضنية فى تتبع تاريخ عقلية الأمة فى نشوئها وارتقائها وتطوراتها. ولعمرى، إن البحث فى المجالات المادية الملموسة لهو أيسر منالاً، وأقل صعوبة؛ لأن مجال الأفكار عسير؛ إذ يتطلب تتبعاً للفكرة: كيف نمت؟ ومتى؟ وماذا طرأ عليها؟ وما السبب فى نشوء الظاهرة، وما ترتب عليها من نتائج؟ ثم ما يدخل فى تكوين ذلك كله من عوامل معقدة لا حصر لها: سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية شتى، نبحث من خلالها نشأة العلوم، ونقيس مدى ارتقائها وازدهارها[١].

وإن مما يَزيد الأمور صعوبة والبحث مشقة، وإن كانت صعوبة لذيذة ومشقة ميمونة، أن يكون البحث منذ دخول الإسلام مصر، أو قبل ذلك بقليل كلما اقتضت الضرورة ذلك. ومن المعروف أننا كلما بكّرنا بدراسة القرون الأوائل للإسلام، زادت الدراسة تعقيداً؛ نتيجة نضوب المادة العلمية، حتى لكأن الباحث يَمتاح من بئر عميقة غائرة، ثم هو لا يكاد يصل إلى الماء الذى يطفئ لهيب ظمئه المحرق، وينضاف إلى ذلك تداخل العلوم وتشابك الظواهر؛ مما يحتاج إلى صبر دءوب، وعمل لا يعرف الكلال أو الملال إلا لِماماً.

لقد كان لزاماً أن نوفى أعلام مدرسة مصر فى هذين القرنين حقهم كاملاً غير منقوص، قبل أن نَدْلِف إلى رجالات القرون التالية؛ إذ لا يصح أن ننسى دور هؤلاء الذين أفنوا الأعمار فى الإعداد، والغرس الطيب، والجود بالدماء والأرواح، ثم لا يذكرهم ذاكر، ولا يَحْفِل بهم - كما ينبغى - حافل، بينما ينال رجالات القرون التالية أسمى آيات العرفان والتقدير، وهم الذين جَنَوْا ثمرات هؤلاء المجاهيل!

(١) من مقدمة كتاب (ضحى الإسلام) للأستاذ أحمد أمين جـ١ ص(أ) بتصرف.

تم تقسيم هذا الباب إلى أربعة فصول: عن **القراءات والتفسير**، **والحديث**، **والفقه**، **واللغة والأدب**، انطلاقاً من مصر، وانتهاء برصد علاقاتها الثقافية بالأقاليم العربية الإسلامية الأخرى. وقد نهجت فى ذلك النهج الآتى:

١- دراسة فاحصة مركزة لمجموعة من العلوم تشكل - فى مجملها - محور الحياة الثقافية فى مصر خلال هذين القرنين. وكنت منطقياً مع نفسى، ومع طبائع الأشياء، عندما بدأت بـ (**القراءات**)؛ فإن القرآن العظيم وكيفية قراءته، والحرص على إقرائه الناس، يأتى فى مقدمة اهتمامات ذلك العصر. فإذا أجيدت التلاوة تيسر الفهم عن الله. ولذلك فقد ثنّيتُ بالتفسير وجهود العلماء فيه. فلما اكتمل الاهتمام بالقرآن، عرضت لاهتمام العلماء بالسنة، فكانت دراستى لعلم (**الحديث**). ثم أوضحت مواقف العلماء من القرآن والسنة فهماً واستنباطاً، فكان الحديث عن علم (**الفقه**). وبعد ذلك عرضت للغة، وللأدب (شعره، ونثره)، باعتبارهما ممثلَيْن لجانب العلوم العربية المكملة للثقافة الإسلامية آنذاك، وفى كل آن.

٢- حاولت عرض المادة العلمية بطريقة زمنية متسلسلة، فكنت أحرص على إبراز جهود الصحابة رضي الله عنهم فى مصر فى كافة هذه العلوم ما أمكن، وأتلو ذلك ببيان ثمار جهودهم ممثلة فيمن تتلمذ على أيديهم من التابعين ومَنْ بعدهم، حتى نهاية هذين القرنين.

٣- أننى أهتم - للغاية - بإبراز علاقات التأثير والتأثر بين مصر وغيرها من الأقاليم الأخرى فى كل علم من هذه العلوم سالفة الذكر.

٤- أننى لم أحاول - مطلقاً - أن أفتعل أو أغالى فى بيان دور مصر، وسمات مدرستها فى هذه العلوم، وإنما كنت أذكر ما أذكر فى ضوء المادة التى تنقلها لنا المصادر المعتمدة، دونما نقص أو زيادة. فإنْ كان لعلماء مصر مؤلفات ذكرت ذلك، وإن أبدعوا فى مجال أبرزته، وإن اقتصر دورهم على مجرد النقل حفظاً وصيانة لبعض التراث من الضياع، لم أستنكف عن التصريح بذلك، فأنا لا يعنينى أن تكون مدرسة مصر هى الآخذة أو المعطية، فالآخذ والمعطى- فى الإسهام الحضارى - مشتركان.

٥- أننى غلبت علىَ النزعة التاريخية باعتبارى مؤرخاً، يريد دراسة التاريخ والمؤرخين فى هذه الفترة وفق منهج جديد؛ لذلك حرصت على اتباع منهج كمى كيفى متوازن، بمعنى: أننى أعرض من القضايا المتعلقة بهذه العلوم ما يخدم هدفاً أصيلاً مستكناً فى نفسى، ألا وهو بيان علاقة (**التاريخ**) بها، ومدى تأثيره فيها وتأثره بها. ولذا كان الانتقاء والاختيار، وكان عرض المعلومات بقدر. وعلى سبيل المثال: كانت ترجمتى لأعلام هذه العلوم عامة غير مفصلة، وهى - فى الوقت ذاته - متخصصة. فالعالم الواحد يُلِمّ بشتى العلوم الإسلامية، فإذا ترجمت له قارئاً، أو مفسراً، أو محدثاً، أو فقيهاً إلى غير ذلك؛ اقتصرت الترجمة على ما يُجَلّى هذه الناحية فى مكانها.

حتى إذا ترجمت له - بعد ذلك - مؤرخاً، ذكرتُ ما يتصل بذلك العَلَم مفصلاً. ولم يَفُتْنى أن أعرض جهود العلماء عرضاً واضحاً محدداً، وأن تكون المقارنات بينهم جلية.

ويلاحظ القارئ أن مقدار الصفحات تفاوت بين علم وآخر، ولم يكن ذاك التفاوت اعتباطيًا، وإنما كان مقنناً، يتناسب مع حجم الإنجاز فى ذلك العلم، وأهمية ما ترتب عليه من نتائج، ومقدار ما بينه وبين علم التاريخ من صلات. ولذا، فالقراءات والتفسير واللغة والأدب نالت قدرًا من الصفحات أقل من الحديث والفقه؛ لأن صلة التاريخ بهما أوثق وأخطر مما سواهما.

وأحب أن أفرد علم **(الحديث)** بذكر خاص، فقد تناولت فيه عدداً من القضايا الخطيرة التى لا يمكن إغفالها، والتى لها - فى الوقت ذاته - نظائر تدرس فى علم التاريخ(١).

وكنت عند دراسة المحدثين أستقصى آراء علماء الجرح والتعديل فى كل محدّث مصرى، بحيث أقدم صورة أمينة شاملة مستقصية له بكل ماله وما عليه، وأخلص إلى تكوين رأى واضح فيه محدثاً؛ حتى تتضح صورته - بعد ذلك - مؤرخاً. ولم يفتنى أن أرصِّع ختام تناولى لكل محدث بذكر نموذج واحد من مروياته الحديثية بإسناد مصرى؛ إذ لا يجوز أن نتحدث عن أولئك الذين رووا آلاف الأحاديث النبوية، ثم نَنْكُص عن ذكر حديث واحد مما رووا.

وفى النهاية، فإن مصر لم تكن بمعزل عن المدارس الأخرى، ولذلك كنت حريصاً على مقارنة منجزات مدرسة مصر بغيرها من المدارس فى كل هاتيك العلوم؛ حتى لا تتحول الدراسة المقارنة إلى دعوى باطلة، وكلام هش، لا أساس له من الواقع التطبيقى الصحيح، وحتى نكون صادقين فى عنوان الكتاب الذى اخترنا أن يكون عن **(معالم الثقافة الإسلامية)**، لا عن **(علم التاريخ فقط)**، وأن يكون فى العالم العربى آنذاك(٢)، لا فى مصر وحدها.

---

(١) ولم يكن ذلك استطراداً لا داعى له؛ لأنى اخترت وانتقيت موضوعات محددة، قارنت بين التاريخ والحديث من خلالها. فمثلاً: أشرت إلى مراحل تدوين الحديث، وأشرت إلى الوضع على الحديث النبوى الشريف، وأوضحت جهود بعض العلماء واهتمامهم بسند الحديث ومتنه. وكان ذلك كذلك؛ لأنى عند الموازنة بين علمى التاريخ والحديث أشرت إلى مراحل تدوين علم التاريخ، وإلى دور القصاص فى تحريف الروايات، ومقاييس النقد التاريخى التى يختلف ويتميز بها عن مقاييس النقد الحديثى. وكانت هذه الأسس هى القاعدة التى قامت عليها دراستى للقرن الثالث الهجرى وهو موضوع كتابى التالى، إن شاء الله.

(٢) وفضلت أن يسمى (العالم العربى)، لا (العالم الإسلامى)؛ حتى لا يتبادر إلى ذهن القارئ ما تعنيه كلمة العالم الإسلامى الآن، من دول وشعوب تدين بالإسلام، وتتكلم بغير العربية. فهذا المعنى لم يكن موجوداً فى الفترة التى نكتب عنها، وفى الأقاليم التى نتناولها (أقاليم الحجاز، والشام، والعراق، واليمن، ومصر)، فهى أقاليم بها اللغة العربية موجودة ومعروفة .

وفى مقابل علوم القراءات والتفسير، والحديث، والفقه، واللغة والأدب **(شعراً، ونثراً)**، تعمدت أن أفرد لعلم **(التاريخ)** أبواباً خاصة به، أبين خلالها ــ جهود مؤرخى الدولة الإسلامية بعامة - ومصر بالذات فى هذه الفترة المنسية - مقارنة بجهود علماء العلوم الأخرى.

وقد انتهجت فى دراسة هذه المدارس نهجاً محدداً، تمثل فى ذكر أعلام مؤرخى تلك المدارس التاريخية، والترجمة لهم باختصار، مع توضيح جهد كل منهم، ومنهجه التاريخى العام، فيما بقى لنا من آثاره ومؤلفاته التاريخية، مع الاستشهاد ما أمكن. وفى النهاية عرض مركز للسمات العامة لكل مدرسة تاريخية منها كل على حدة. ويلاحظ أننى لم أفصّل فى دراسة تلك المدارس؛ لأن هناك دراسات سابقة تناولتها، بخلاف مدرسة **(مصر التاريخية)**، التى لم يلتفت إليها الباحثون، ولم تنل حظها من الدراسة. ومن هنا سيأتى الحديث عنها مفصلاً، ومقارناً بغيرها؛ لرصد أوجه الاتفاق والاختلاف بين المدارس التاريخية المختلفة.

ومن هنا قسمت بقية أبواب الكتاب على النحو الآتى:

الباب الثانى - التاريخ: نشأته - عوامل تدوينه - مدارسه فى الأقاليم الأخرى: وقسمته إلى ثلاثة فصول:

درست - فى الأول منها - مجموعة من القضايا المبدئية، حاولت أن أحدد من خلالها تعريف **(التاريخ)** لغة واصطلاحاً، وأبين بداية التاريخ فى عصر الإسلام، والعوامل التى دفعت المسلمين لكتابة تاريخهم، والمراحل التى مرت بها كتابة (التاريخ الإسلامى) فى ظل الإسلام بشئ من الإيجاز والتركيز دون إخلال أو إملال. وأفردت الفصل الثانى لمدرسة **(الحجاز التاريخية)**، بينما جمعت فى الفصل الثالث: **(المدارس التاريخية فى العراق، والشام، واليمن)**.

بعد أن رصدت حصيلة منجزات تلك المدارس التاريخية، فصّلتُ القول فى **(مدرسة مصر التاريخية)** فى الأبواب الثلاثة التالية:

الباب الثالث - مدرسة مصر التاريخية فى القرن الأول الهجرى (مرحلة التأسيس والبناء): وفيه تناولت بالدراسة أبرز مؤرخى القرن الأول الهجرى فى مصر، من أمثال: عبد الله بن عمرو بن العاص، وأبى قَبيل، ويزيد بن أبى حبيب، وعُبيد الله بن أبى جعفر.

الباب الرابع - المدرسة المصرية التاريخية فى القرن الثانى الهجرى (مرحلة الانطلاق): وفيه درست أعلام مؤرخى مصر فى القرن الثانى الهجرى، من أمثال: عبد الله بن لَهيعة، والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب. وقد راعيت فى دراسة البابين السابقين ما يلى:

أ) الترجمة المفصلة المستمدة من عشرات المصادر والمراجع لأبرز مؤرخى مصر

فى هذين القرنين، وما ذاك إلا لأن الأشخاص هم التاريخ الحى، والأفكار هى التاريخ الصامت الذى يرتبط وجوده بهذا التاريخ، متمثلاً فى هذه الشخصيات، هى التى تعمل وتمده بأسباب بقائه. والحق أن حياة الأشخاص والترجمة لهم أولى مراحل التاريخ العقلى للأمة، وهى تحتاج إلى دقة واعية، وخبرة نافذة، واستقصاء لطبيعة النفس البشرية، ونوازعها المضطربة، وأثرها فى البيئة والعكس(١).

ب) بيان أساتيذ هؤلاء المؤرخين من داخل مصر ومن خارجها، سواء عن طريق رحلة مؤرخى المدارس الأخرى إلى مصر، أم ارتحال مؤرخى مصر إلى الأقاليم الأخرى، وكذلك تلاميذهم من داخل مصر وخارجها؛ حتى تبرز علائق التأثير والتأثر المتبادلة.

ج) قمت - بعد ذلك - بدارسة مؤرخى مصر الإسلامية فى هذين القرنين دراسة تحليلية، تهدف إلى إبراز جهودهم فى إقامة دعائم هذه المدرسة، والتاريخ جزء من اختصاصهم، وبيان مقدار الأثر الذى تركه كل منهم، والسبل التى سلكها فى ذلك. وقد رأيت أن ذلك لا يتم أبداً، بأى حال من الأحوال، إلا إذا شققت بطون المصادر وأمهات كتب الحديث والتاريخ؛ من أجل تجميع بقايا التراث التاريخى المفقود لهؤلاء المؤرخين، ثم ترتيبه وتصنيفه، وإعادة تشكيله - قدر الطوق - من جديد. وهذا عمل طالب به العَلاَّمة سزكين، ورأى أنه ضرورى لإزالة الغموض الذى يلف قضية التطور التاريخى(٢)، كما أن الكتابة التاريخية النقدية متعذرة ما لم تقم على ذلك الصنيع، وهو عمل - كما عَبّر بعضهم بحق - شاق خطير وبطئ(٣).

وبعد ذلك أعملت الفكر والعقل فى ذلك التراث؛ لاستخلاص الملامح العامة لمنهج كل مؤرخ على حدة، مبرزاً تأثيره من خلال علاقاته بمؤرخى المدارس الأخرى، مع تحديد ما أخذ وما أعطى قدر الإمكان.

الباب الخامس - دور مؤرخى القبط فى كتابة تاريخ مصر:

وفيه راعيت اعتدال كفة الميزان التاريخى، فلم أكتف بعرض وجهة

النظر الإسلامية فى أحداث مصر التاريخية من خلال مؤلفات المؤرخين المسلمين فى مصر، وإنما أضفت إلى ذلك وجهة النظر المقابلة، وأعنى بها إسهام مؤرخى القبط فى كتابة تاريخنا المصرى عبر قرنين من الزمان. وهذا - على كل حال - ديدنى، ففى (الحديث) أبرزت جهود مَنْ أسلم من القبط فى رواية الحديث بمصر، وفى اللغة والأدب حاولت أن ألتمس دور القبط.

(١) الليث بن سعد فقيه مصر، للدكتور السيد أحمد خليل صـ١٤-١٥.

(٢) تاريخ التراث العربى ١/ ٣٩٥ (ط. الهيئة العامة للكتاب).

(٣) بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب، للدكتور عبد العزيز الدُّورى صـ٩، ١١. وهذا حق صُراح لا مِرْيَةَ فيه؛ فقد كلفنى هذا الجمع، وما أعقبه من تصنيف وترتيب وكتابة عدة مرات، قرابة العام.

لقد عالجت ما بقى من جهود هؤلاء ممثلة فى مؤرخهم (يُوحَنَّا النَّقْيوسى)، فوضعته فى الفترة الزمنية التى عاصرها وعايش أحداثها، إذ توفى أواخر القرن الأول الهجرى، أو فى بدايات القرن الثانى الهجرى، فأكون قد وضعته فى مكانه الصحيح وبجوار مؤرخينا. وهنا يتحقق الترابط المنهجى، وتصح المقارنة من حيث النشأة، والثقافة، والموضوعات المعالجة، والمنهج المُتَوَخَّى فى علاجها، ومدى الاتفاق أو الاختلاف فى وجهات النظر إزاء القضايا المشتركة.

الباب السادس والأخير - الموازنة بين مدرسة التاريخ المصرية والمدارس التاريخية الأخرى: وأخيراً، قمت بالموازنة بين سمات المدرسة المصرية التاريخية والمدارس التاريخية الأخرى فى هذين القرنين، وبينت من خلال ذلك علاقات علم التاريخ بالعلوم الإسلامية والعربية؛ حتى يتركز الهدف من الدراسة أمام القارئ فى باب مستقل، وفى كتلة واحدة، لا تقبل التفريع إلى فصول، كعادتنا مع الأبواب السابقة.

خـاتمـة: بها تركيز لنتائج الدراسة التى تم التوصل إليها، مستخلصة من التفاصيل الواردة فى أبواب الدراسة.

كلمـة عـرفـان:

وبعد، فإننى أشعر بكثير من الثناء والامتنان والعرفان لكل من خَطَّ فى هذا الموضوع حرفاً، سبقنى به وأضاء لى الطريق؛ لإضافة المزيد، سواء كان من الباحثين المعاصرين أم من المؤلفين الأقدمين، الذين يَدين لهم هذا البحث، وهم كثرة كاثرة، يطول مجال الحديث جداً، إذا حاولت تتبعهم وحصرهم. لكن أكتفى بقلة قليلة، أعتقد أن كتبهم تكرر النقل عنها فى هذا البحث المضنى أكثر من غيرهم، وهم:

١- **الإمام الذَّهَبى** فى كتابه: **(سير أعلام النبلاء).**

٢- **الإمام المِزِّى** فى كتابه: **(تهذيب الكمال).**

٣- **الإمام ابن حجر** فى كتابيه: **(تهذيب التهذيب، والتقريب).**

إنها كتب أئمة كبار، وأساتيذ أعلام، أفدت منها عظيم الاستفادة فى الإحاطة بأساتيذ وتلاميذ العلماء، ونقلت منها نصوصاً على درجة كبيرة من الأهمية. وتعلمت منها العفة فى اللسان، والنزاهة والحيدة فى الحكم على القضايا والرجال، والدقة والأمانة، والاستقصاء والتنظيم فى عرض المعلومات.

ولا يسعنى بعد هذا التطواف الكبير إلا أن أشهد - بعد هذه الرحلة التى لا يعلم مداها إلا الله ﷻ - بعظمة وضخامة إنجاز مؤرخينا وتفوقهم على غيرهم، وحسن إدراكهم أن التاريخ الإسلامى هو تاريخ هذا الدين، وتاريخ هذه الشريعة، وتاريخ تلك العقيدة، وأن الصلة بينه وبين العلوم الإسلامية جِدُّ وثيقة، وأن الذين ينظرون إليه بعيداً عن ذلك التصور يجردونه من المنظور العَقَدىّ الإسلامى، الذى فهمه أسلافنا، ويجب

أن نفهمه[1]. لقد سلَّم هؤلاء المؤرخون للأخلاف الثمرة التى جَنَوْها: كى يتم تمريس الزمان لها من بعدُ على أيدى مؤرخى القرون التالية، بإذن الله (تعالى).

وفى النهاية، لا يسعنى إلا أن أحمد الله - ﷻ - على عظيم نعمائه، وكثير آلائه، وأسأله أن يُتم علىّ النعمة والعافية والستر فى الدنيا والآخرة، وأسأله أن يُجزل لى المثوبة إن كنت قد أحسنت، وأن يتجاوز عن هفواتى وعثراتى إن كنت قد أسأت؛ فأنا بشر أخطئ وأصيب. وصدق العِماد الأصفهانى عندما قال: (**إنى رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتاباً فى يومه، إلا قال فى غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ كذا لكان يُستحسَن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر**). حسبى أنى بذلت كل ما أستطيع ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾.

" صدق الله العظيم " (سورة هود: من الآية ٨٨).

(١) سلسلة أخطاء ينبغى أن تصحح (منهج كتابة التاريخ الإسلامى لماذا؟ وكيف؟) للدكتور جمال عبد الهادى صـ١٧-١٩.

الفصــل التمهيــدى

السياسة وتأثيرها في الحياة الثقافية المصرية حتى نهاية القـرن الثـانـى الهجرى

مـدخـل:

ارتأيت - بتوفيق الله تعالى - وأنا أدرس موضوع: **(معالم الثقافة الإسلامية في القرنين: الأول، والثانى الهجريين)**، أن أقدم لهذا الموضوع بذلك التمهيد، الذى أحاول أن أعرض خلاله الإطار السياسى العام، الذى نشأت وتطورت في ظلاله هذه العلوم الإسلامية، وعلى رأسها **(علم التاريخ)**[١].

ولما كانت الظواهر الاجتماعية مترابطة ترابطاً وثيقاً، وكان على رأس هذه الظواهر الظروف السياسية ذات التأثير العميق في حركة المجتمع؛ رأيت أن أعرض لأهم الأحداث السياسية في مصر الإسلامية خلال فترة البحث، سواء ما اتصل بمصرنا خاصة، أم ما وقع بدولة الخلافة وكانت له انعكاساته على الوضع في مصر عامة. ومعنى ذلك: أننى رصدت - بإيجاز - ظروف مصر الداخلية والخارجية على السواء.

وقد حرصت - خلال الفترات المتواكبة التى تناولتها بالدراسة - على أن أربط بين الظروف السياسية القائمة، ومظاهر الاستقرار وعدمه من جهة، وبين التطورات الفكرية والثقافية الحادثة من جهة أخرى. ومن هنا تلتحم السياسة بالثقافة، ويتلاحم رجال الإدارة والحكم مع سدنة الفكر والعلم في وحدة وثيقة تبرز روح العصر، وطبيعته، ومدى تقدمه وتطوره.

هذا، وقد قسم الباحثون العصور، التى مرت بها مصر إلى عدة أقسام[٢]، منها:

(١) مصر في عصر الراشدين (٢٠-٤٠هـ).

(٢) مصر في عصر الأمويين (٤١-١٣٢هـ)

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن المؤرخ سواء أرّخ لفترة معاصرة له، أم لفترة سابقة عليه، فهو يتأثر بالظروف والأجواء السياسية المحيطة به.

(٢) تتصل بعصر الراشدين، والأمويين والعباسيين فى مصر إلى سنة ٢٥٤هـ، والطولونيين من سنة ٢٥٤-٢٩٢هـ، وما بين العصرين الطولونى والإخشيدى (٢٩٢-٣٢٣هـ)، ثم العصر الإخشيدى (من سنة ٣٢٣-٣٥٨هـ)، حين قدم الفاطميون إلى مصر، إلى غير ذلك من العصور التاريخية الأخرى. وقد فطن إلى ذلك التقسيم التاريخى الدقيق العلاّمة الكندى فى كتابه: (الولاة والقضاة)، وعرضه بدقة متناهية، فله فضل السبق والريادة. وقد نقل عنه الباحثون فى مصر الإسلامية ذلك، مثل: الدكتورة سيدة كاشف فى (مصر فى فجر الإسلام)، و(مصر فى عصر الإخشيديين)، وبالاشتراك مع الدكتور حسن أحمد محمود فى (مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين). كما أورد هذا التقسيم المستشرق النمساوى زامباور فى (معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى).

(٣) مصر في **عصر العباسيين** إلى نهاية القرن الثانى الهجرى.

وهأنذا أعرض لهذه العصور خلال الصفحات القادمة، موضحاً - بإيجاز - الخطوط الثقافية العامة لكل عصر منها، على وعد بشئ من التفصيل في الباب الأول الذى يلى هذا التمهيد، بإذن الله.

أولاً - مصر في عصر الراشدين (٢٠-٤٠هـ):

انطلق المسلمون من شبه جزيرة العرب يحملون إيمانهم في قلوبهم، تحدوهم آمال كبار لنصرة دين الله في الآفاق، ونشره بين ربوع العالمين.

انطلق هؤلاء المؤمنون انطلاقة المارد الجبار الذى لا يَلْوِى على شئ، فحاربوا أكبر إمبراطوريتين عرفهما العالم آنذاك، على امتداد جبهتين شاسعتين، ألا هما: إمبراطورية الفرس، وإمبراطورية الروم. هَبَّتْ جيوش المسلمين تحقق الانتصار تلو الانتصار، فما إن يتحقق نصر على الفرس، حتى يُعْقِبه فتح على جبهة الروم. هكذا تم هذا الأمر بسرعة فائقة، لا تسمح لأية واحدة منهما أن تنظم الصفوف، أو تلتقط الأنفاس، أو تتحالف مع الأخرى لصد ذلك الفتح الإسلامى العظيم[(١)].

وما إن تم للمسلمين فتح بلاد الشام، حتى اتجهت أنظارهم صوب مصر، يَرْنُون إلى أهمية موقعها، ويبصرون عظيم خطورة الاستيلاء عليها؛ من أجل تأمين فتوحاتهم في الشام، بالإضافة إلى أنهم يدركون عِظَم ثرائها وغناها، فكان أمر فتحها حتماً مقضّياً.

أحـداث الفتــح[(*)]:

تقدم عمرو بن العاص بجيشه عبر شبه جزيرة سيناء[(٢)] أواخر سنة ١٨هـ، وتمكن من الاستيلاء على العريش[(٣)] دون مقاومة تذكر، ومنها تقدم بجيشه نحو مفتاح مصر

(١) التاريخ الإسلامى (عصر الراشدين)، لمحمود شاكر، جـ٣ صـ١٤٣.

(*) من المصادر التى عرضت أحداث فتح مصر ما يلى: فتوح الشام (المنسوب للواقدى) ٢/ ٣٦-٩٦، و(فتوح مصر وأخبارها، ط.تورى) لابن عبد الحكم صـ٥٥-٩٠، وتاريخ الطبرى جـ٤ صـ١٠٢، ١٠٤-١١١. وكذلك عرض لأحداث فتحها، وعلق عليها المؤرخون المحدثون فى كتبهم، مثل: تاريخ الإسلام السياسى، للدكتور حسن إبراهيم حسن ١/ ٢٣٧-٢٤٣، و(مصر فى العصور الوسطى) للدكتور على إبراهيم حسن ٢١-٢٨، و(موسوعة التاريخ الإسلامى) للدكتور أحمد شلبى ١/ ٥٨٩-٥٩٢.

(٢) سار عمرو فى الطريق الطبيعى الذى داسته الأقدام قديماً، وسلكه هو قديماً كذلك، وهو أسهل من طريق الغرب، الذى فشل فى الدخول عن طريقه الفاطميون عدة مرات، قبل أن ينجحوا سنة ٣٥٨هـ فى الدخول عن طريقه (الهلينية فى مصر، لهارولد إدريس بل، من الترجمة العربية لزكى على صـ١٦).

(٣) مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم (الأبيض)، وتقع قرب نهاية الحد الشرقى لأرض مصر، بينها وبين رفح الواقعة على رأس الحد الفاصل بين مصر وفلسطين ٤٥ كيلو =

الشرقى (الفَرَما)[1]. وبعد حصار دام شهراً، وبمساعدة من القبط تمكن عمرو من فتحها في المحرم سنة ١٩هـ[2]. ثم انتقل عمرو إلى بُلْبَيْس[3]، ولقى بها مقاومة رومية، حيث كان أرطبون الروم بها، لكن عمراً فتح الله عليه هذه المدينة، وأظهر خلق الإسلام وشهامته ونبله، حينما رد أرمنوسة بنت المقوقس إلى أبيها سالمة دون أدنى أذى؛ مما كان له أثره - فيما بعد - في نفوس الأقباط.

= متراً. ويقال: سميت بذلك؛ لأن إخوة يوسف عملوا فيها عريشاً، يظلهم من الشمس، حتى يأذن لهم يوسف بدخول مصر زمن القحط. وهى تتميز بهواء طيب، وماء عذب. وكانت العريش من ثغور مصر، ثم اتخذت محافظة سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م، وكانت بها قوة عسكرية من قديم؛ لوقوعها قرب حدود مصر الشرقية. وبسبب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) أنشأت حكومة مصر أول سنة ١٩١٧م مصلحة لأقسام الحدود. وجعلت سيناء إحدى محافظات مصر، وغدت العريش مركزها (معجم البلدان لياقوت ٤/ ١١٣-١١٤، والقاموس الجغرافى لمحمد رمزى، القسم الثانى، جـ٤/ ٢٦٣).

(١) مدينة على الساحل من ناحية مصر، وهى حصن على ضفة البحر الأبيض، وهى مدينة قديمة بين العريش والفسطاط، على يمين القاصد مصر، وكانت ميناء صغيراً على البحر الأبيض لدى الروم. وهى فاسدة الهواء، وكل جهة حولها سباخ تتوحل، ولا تكاد تَنْضُب صيفاً ولا شتاء، ولا زرع فيها ولا ماء إلا ماء المطر، ويخزنون بها مياه النيل بعد أن يُحمل إلى سكانها. وأهلها نحاف، متغيرو اللون، وهم من القبط، وبعضهم عرب. وهى حصن مصر من جهة الشرق منذ عصر الفراعنة، واسمها المصرى القديم (برآمن) أى: مدينة الإله آمون، ومنه كان اسمها العبرى (برمون)، والقبطى (برما)، ومن الأخير أتى الاسم العربى (الفرما). وسماها الروم Pelusium (بيلوزيم) وتعنى: الوحلة؛ لأنها كانت واقعة فى منطقة الأوحال؛ بسبب تغطية ماء البحر الأبيض لأراضى تلك المنطقة. وكانت ميناء صغيراً لهم على البحر يصب بقربها فرع من فروع دلتا النيل، ويسمى (الفرع البيلوزى). وقد اندثرت هذه المدينة اليوم، وتعرف آثارها بـ (تل الفرما) على بعد ثلاثة كيلو مترات من ساحل البحر الأبيض، وكانت تقع قبل اندثارها شرقى بورسعيد الحالية (معجم البلدان لياقوت ٤/ ٢٥٥-٢٥٦، والقاموس الجغرافى، القسم الأول صـ٩١-٩٢، وأطلس التاريخ الإسلامى للدكتور حسين مؤنس صـ١٣٣)

(٢) ذكر هذه المساعدة ابن عبد الحكم فى (فتوح مصر. ط. تورى): صـ٥٩. وينفى بتلر - فى كتابه: (فتح العرب لمصر) من الترجمة العربية ط: (الهيئة العامة للكتاب): ١/ ١٨٧ - أن القبط ساعدوا العرب. ويرى صـ٢٥٩: أن الأهالى قاوموا الفاتحين، وأن الفتح العربى لم يكن سهلاً، وأن القبط لم يرحبوا بالمسلمين، ولم يروا فيهم الخلاص من بطش الرومان. والحق أن كلام بتلر غير مقبول على إطلاقه. وعلى كل، فسواء ساعد القبط العرب مبكراً، أم ساعدوهم بعد فتح حصن بابليون، فإن المسلمين لقوا مساعدة صادقة من القبط، ولم يكن القبط أعداء لهم، ولم يكونوا مجبرين على تقديم العون للفاتحين؛ لأن نكايات الروم بهم كانت تدفعهم لمعاونة المسلمين، الذين أظهروا كل عدالة وتسامح.

(٣) مدينة بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ على طريق الشام. وكانت قاعدة (الحَوْف الشرقى) أيام العرب. وأحياناً تُنطق (بِلْبيس)، والعامة تنطقها (بِلْبَيْس).(معجم البلدان: ١/ ٤٧٩، والقاموس الجغرافى: قسم٢، جـ١/ ١٠٠-١٠١).

انطلق عمرو بجيشه الباسل صَوْبَ (أُمّ دُنَيْن)[١]، فحاصرها حصاراً شديداً، لكن قواته لم تستطع الاستيلاء عليها، وطلب إلى الخليفة عمر بن الخطاب مدداً سريعاً، وبوصول المدد - وفيه جِلّة من الصحابة - نجح في السيطرة عليها، كما نجح في السيطرة على عين شمس. وقد فر الروم أمامه لاجئين إلى (حصن بَابِلْيُون)[٢] سنة ٢٠هـ، فقام عمرو وجنوده بمحاصرة الحصن مدة ستة أشهر، أيقن بعدها الروم بالهلاك، فقبلوا دفع الجزية، وسلموا الحصن للمسلمين.

بدأ عمرو يتطلع إلى الاستيلاء على عاصمة مصر أيام الروم، وثانى مدن الإمبراطورية بعد القسطنطينية ألا وهي(الإسكندرية)،وقد نجح عمرو في الاستيلاء على ما جابهه من قرى ومدن وحصون[٣]، وهو في الطريق إليها. وكان آخر الحصون وقوعاً في أيدى المسلمين هو حصن (الكِرْيَوْن)[٤]،وبعده أُلْفَى عمرو مدينة الإسكندرية قوية منيعة التحصينات، ملأها الروم بجند كثيف، وسلاح كثير لإدراكهم أهميتها، وخطورة سقوطها، الذى كان يعنى اندحار قوة الروم، وأنْ لابقاء لهم في مصر بعدها[٥].

وقد دار حصار طويل ضُرب حول الإسكندرية، وجرى على أبوابها قتالٌ دام، أثبت فيه الطرفان قدرات قتالية فائقة، وأفانين متعددة في طرق الهجوم ووسائل الدفاع. ولما طال الحصار دون طائل، أحس الخليفة عمر ابن الخطاب بالقلق، وأمر عمراً أن يولى عبادة بن الصامت قيادة القوات المقتحمة لتلك المدينة العتيدة، وبالفعل كتب الله لهم النصر فاخترقوا حصونها، وتمكنوا من دخولها، واستسلم جند الروم، واضطر المقوقس إلى عقد صلح مع المسلمين عرف بـ (صلح الإسكندرية)[٦]، وكان سنة ٢١هـ. وبتنفيذ بنود هذا الصلح يكون قد تم فتح مصر كلها على أيدى العرب المسلمين.

وهكذا، تم للمسلمين ما رغبوا فيه، ففتحوا مصر في زمن قياسى، وضموها إلى

---

(١) قرية كانت بين القاهرة والنيل، اختلطت بمنازل القاهرة، ولها اسم آخر هو (المَقْس). وكان - قديماً - يقف عندها العامل على (المَكْس)، فقُلبت الكاف قافاً. وقيل: أم دنين اسمها قبل الإسلام. (معجم البلدان: ١/ ٢٥١، ٥/ ١٧٥، والقاموس الجغرافى: (القسم الأول صـ١٢٨-١٢٩).

(٢) (٢) اسم عام لديار مصر بلغة القدماء. وقيل: هو اسم لموضع الفسطاط خاصة. (معجم البلدان ١/ ٣١١-٣١٢، والقاموس الجغرافى: القسم الأول صـ١٣٨). وقد عرض بتلر فتح ذلك الحصن، وشروط الصلح فى كتابه (فتح العرب لمصر)١/ ٢١٨-٢٣٩ .

(٣) المرجع السابق: ١/ ٢٤٠-٢٥٩.

(٤) اسم موضع قرب الإسكندرية، أوقع فيه عمرو بن العاص بالروم، وذُكر فيه شِعْر كثير. رواه بعضهم بالدال خطأ (معجم البلدان ٤/ ٤٥٨، والقاموس الجغرافى، القسم الثانى صـ٣١٨). وعرض ابن عبد الحكم هذا الموضع فى كتابه: (فتوح مصر) صـ٧٣.

(٥) فتوح مصر وأخبارها (ط.تورى) لابن عبد الحكم صـ٧٦.

(٦) ورد عدد من شروط ذلك الصلح فى:(فتوح مصر وأخبارها، ط.تورى)لابن عبد الحكم صـ٧٠-٧١، وكذلك فى:(فتوح البلدان، ط.د. المنجد)للبَلاَذُرِىّ جـ١/ ٢٦٠ .

الدولة الإسلامية الناشئة(١). والحق أن الحروب إنما دارت رحاها في مصر بين المسلمين وجند الروم، ولم يكن ثَمَّةَ عداء مع القبط، فهم والمسلمون هم الفائزون، وأما الروم فهم المغلوبون(٢).

ولاية عمرو بن العاص على مصر:

ولى عمرو بن العاص شئون مصر بعد أن تم الفتح الإسلامى لها بنجاح. ولأول مرة منذ عشرة قرون من تاريخ مصر يتعامل سكانها مع قوة خارجية تبسط نفوذها عليهم، بناء على أسس متفق عليها بين السكان وجيش الفتح(٣).

وواصل عمرو فتوحاته خارج مصر، ونجح في مد نفوذ مصر إلى أَنْطَابُلُس (بَرْقة)، وأخذها بصلح تم سنة ٢١هـ، كما انتزع أَطْرابُلُس عَنْوَةً سنة ٢٢هـ(٤).

ولم يهمل عمرو شئون مصر الداخلية؛ فقد عُنى بمصالح البلاد، وقام بالعديد من مشاريع الإصلاح بها من زراعة للأراضى واستصلاح لها، وإقامة الجسور، وشق الترع والقنوات، كما حفر خليج أمير المؤمنين؛ لييسر الاتصال التجارى بعاصمة الخلافة وما وراءها من بلدان. وقد تمتعت مصر في عهده بالسلام الداخلى، والطمأنينة والاستقرار، ونَعِمَ القبط في ظل حكمه بالعدل والإنصاف.ولا شك أن نشاط الصحابة في الدعوة إلى الإسلام، وقيامهم بواجبهم نحو دينهم برواية أحاديث رسول الله ﷺ في جامع عمرو ابن العاص، الذى غدا منارة علمية تشع في أرجائه أنوار العلم والتوحيد يتدارسه الصحابة فيما بينهم، ويدرسونه للتابعين من بعدهم، وضرب الجميع المثل الحى لأخلاق الإسلام والمسلمين وحسن معاملتهم للقبط كل ذلك تضافر ليشكل في النهاية دفعة كبرى على طريق نشر الإسلام واللغة العربية في مصر بين شعبها القبطى.

وقد بلغ حرص عمرو بن العاص على إصلاح أحوال مصر الاقتصادية، والتوسعة على أهلها درجة قل معها مقدار الخراج، الذى يرسله إلى دار الخلافة؛ مما أدى إلى نشوب خلاف بينه وبين عمر بن الخطاب، الذى ربما نُقل إليه أن الخراج في مصر

(١) لعله مما ساعد على سرعة الفتح، ومساعدة القبط للمسلمين ما عانَوْهُ من اضطهاد دينى على يد الروم؛ نتيجة اختلاف مذهبيهما الدينى؛ فالمصريون يعاقبة يرون أن للمسيح طبيعتين: لاهوت، وناسوت، وهما متحدتان فيه اتحاداً كاملاً.والروم يدينون بالمذهب المَلْكانى الذى يرى أن للمسيح طبيعتين مختلفتين غير متحدتين فيه تماماً.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى(السيرة والراشدون)١/٥٩٣-٥٩٤.

(٣) العلاقات بين مصر والإدارة الحكومية فى عصر الولاة، ماجستير للباحث حسن عبد الحميد جبر صـ٤٤.

(٤) فتوح مصر وأخبارها صـ١٧٠-١٧١، والولاة والقضاة (ط.جست)، للكندى صـ٩-١٠. برقة: اسم صُقْع كبير يشمل مدناً وقرى بين الإسكندرية وإفريقيّة (معجم البلدان ١/ ٣٨٨). أنطابلس: معناها بالرومية: خمس مدن، وهى بين الإسكندرية وبرقة، وقيل: مدينة ناحية برقة (السابق: ١/ ٢٦٦). أطرابلس: مدينة فى آخر أرض برقة، وأول أرض إفريقية (السابق: ١/ ٢١٧).

الغنية الثرية يمكن أن يكون أكثر من ذلك، فحاسب عمراً حساباً عسيراً، وأرسل إليه مَنْ قاسمه ماله(١).

ويذكر لنا ابن عبد الحكم، والكندى أن المصريين لم ينعموا بولاية عمرو طويلاً؛ إذ عزله عمر عن مصر العليا قبل وفاته بقليل، وجعل عليها عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح(٢). ويعرض لنا الطبرى رأياً آخر، حين يذكر أن عَمْراً ظل على مصر سنتين من خلافة عثمان بن عفان (٢٣-٢٥هـ)، ثم نزعه عثمان عن الخراج، واستعمل عبد الله بن سعد، فتنازعا معاً، فعزل عثمان عمراً، وانفرد ابن سعد بحكم مصر(٣).

ولاية عبد الله بن سعد على مصر:(٤)

لما ولى عبد الله بن سعد ولاية مصر، انتهز الروم فرصة غياب عمرو ابن العاص قاهر جيوشهم، وقاموا بهجوم على الإسكندرية(٥)، في محاولة مستميتة للسيطرة عليها، وإعادة نفوذهم إلى مصر ثانية. ويبدو أن غياب عمرو، إلى جانب قلة الجند الإسلامى المرابط بها، مع رسائل من الروم الباقين بها تحث قُسْطَنْطِين بن هِرَقْل على القدوم إليهم، وتَعِدُه العون الصادق في دخول المدينة، يبدو أن كل ذلك أغرى جيوش الروم بنقض المعاهدة، فقدموا بجيوشهم التى وصلت إلى الإسكندرية، وقامت بسلب ونهب ما جاورها.

وهنا ظهرت أولى بوادر رد فعل سكان مصر إزاء عزل عمرو بن العاص. لقد اجتمعت رغبة العرب المسلمين، والأقباط المصريين على مطالبة الخليفة عثمان بن عفان، والإلحاح عليه أن يعيد عمراً إلى قيادة الجيوش؛ لطرد الروم من الإسكندرية، فهو أقدر وأكثر خبرة وهيبة في نفوس الروم من الوالى عبد الله بن سعد(٦). ولعله كان

---

(١) أرسل إليه الصحابى محمد بن مَسْلَمة، فقاسمه ماله (فتوح مصر صـ١٤٦).

(٢) فتوح مصر صـ١٧٣، والولاة والقضاة صـ١١.

(٣) تاريخ الطبرى ٤/ ٢٥٣، ٢٥٦ (ويفيد تحريض عمرو على عثمان لما عزله). وللكندى رواية صـ(١٠)، أرى أنها الأصوب، وتذكر أن عثمان عزل عمراً بمجرد توليه الخلافة، لما سأله عمرو عزل ابن سعد عن الصعيد، وكان عمر بن الخطاب هو الذى وَلاّه قبل موته.

(٤) هو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، وله صحبة، وروى عن النبى -ﷺ- حديثاً واحداً. وقد كان يكتب - بعد إسلامه - لرسول اللهﷺ فأزَلّه الشيطان ولحق بالكفار، فأهدر النبى دمه، ثم عاد مسلماً تائباً يوم الفتح، واستوهبه عثمان وشفع له، فسامحه النبى. ولم يفعل ابن سعد بعد الفتح ما يُنقَم عليه. وقد كان بطلاً عظيماً، ولى لعمر على الصعيد، ولعثمان على مصر كلها، ولم يشترك فى فتنة عثمان، واعتزل بالرملة بفلسطين. ومات بها - على الصحيح - فى خلافة على (سير أعلام النبلاء للذهبى٣/ ٣٣-٣٥).

(٥) عرض ابن عبد الحكم لأحداث انتقاض الإسكندرية، ودور عمرو فى استردادها فى: (فتوح مصر) صـ١٧٥-١٧٦، والطبرى فى (تاريخه): ٤/ ٢٥٠.

(٦) فتوح البلدان (ط.د.المنجد) للبلاذرى ١/ ٢٦٢-٢٦٣.

هناك عدم رضاء عن عزل عمرو، وأتت أحداث الإسكندرية فترجمت ذلك عمليّاً، وحولته إلى واقع ملموس. وبالفعل أجاب عثمان تلك الرغبة الشعبية العارمة، وبالفعل - أيضاً - لم يخيب عمرو رجاء المصريين، فأتم الله على يديه طرد الروم من مصر نهائيّاً سنة ٢٥هـ.

ورسخت أقدام عبد الله بن سعد بعد طرد الروم من الإسكندرية، وقد وضع في اعتباره الاهتمام بزيادة حصيلة الخراج من مصر. ويبدو أنه نجح في ذلك؛ إذ بلغ في عهده أربعة عشر مليون دينار بزيادة قدرها مليونَا دينار عما كان عليه الوضع في عهد عمرو[١]. ويبدو أن الزيادة لم تكن مجحفة بالمصريين فرَضُوا بها، ولم نسمع بثورات أو اعتراضات في ذلك العصر. وعلى كل، فقد أثر ذلك في الإصلاحات الداخلية في عهد عبد الله بن سعد، فلم نسمع أنه بلغ مبلغ عمرو في العناية بشئون مصر الداخلية.

ووجَّه عبد الله بن سعد بن أبى سرح جُلَّ اهتمامه لمواصلة الفتوح الإسلامية، فنجح في غزو إفريقية[٢] سنة ٢٧هـ، وكان تحت قيادته كثير من الصحابة، ولعب عبد الله بن الزبير دوراً كبيراً في تلك الفتوح، فحقق المسلمون انتصاراً مؤزراً، عظمت معه غنائمهم حتى بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، والراجل ألف دينار[٣].

وغزا عبد الله بن سعد - كذلك - بلاد النوبة[٤] سنة ٣١هـ، ولم يستطع فتحها، رغم ضراوة القتال الذى دارت رحاه بها، وانتهت المعارك بعقد هدنة أشبه ما تكون بمعاهدة اقتصادية، تعطى مصر بموجبها شيئاً من قمح وعدس لبلاد النوبة، وتأخذ في المقابل رقيقاً.

وتَوّج عبد الله بن سعد انتصاراته العسكرية بتحقيق نصر بحرى كبير سنة ٣٤هـ على أسطول الروم في موقعة ذات الصَّوَارى[٥]، وكان على الروم ملكهم قسطنطين بن

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم صـ١٦١.

(٢) اسم لبلاد واسعة قُبالة جزيرة صقلية شرقاً، وتنتهى قبالة جزيرة الأندلس غرباً. ويقال: إنها تنسب إلى بانيها إفريقيش بن صيفى. وقيل: إنها سميت بذلك: لأنها تفرق بين مصر والمغرب، وهى من طرابلس إلى بِجابة (أى: تمثل تونس الحالية) (معجم البلدان ١/ ٢٨٨).

(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ١/ ٢٦٨. والولاة والقضاة للكندى صـ١٢.

(٤) بلاد واسعة عريضة جنوبى مصر، وهم نصارى أهل شدة فى العيش، وأول بلادهم بعد أسوان، وكانوا يُجلبون إلى مصر ويُباعون بها. وتمتاز هذه البلاد بالإبل والبقر والغنم (معجم البلدان ٥/ ٣٠٨-٣٠٩). وقد عرضت لمعاهدة الصلح التى وقعت معهم مصادر كثيرة، منها: فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٨٨-١٨٩، وفتوح البلدان للبلاذرى (ط.د.المنجد) ١/ ٢٨٠-٢٨١. والولاة والقضاة للكندى صـ١٢-١٣.

(٥) فتوح مصر صـ١٩٠، وتاريخ الطبرى ٤/ ٢٨٨، ٢٩٠: وقد اعتبرها فى أحداث سنة ٣١هـ، والصحيح أنها وقعت سنة ٣٤هـ، وهو ما ذكره الكندى فى (الولاة والقضاة): صـ١٣. ومعلوم أن هذه الموقعة سميت (ذات الصوارى)؛ لكثرة السفن المشتركة فى هذه الموقعة البحرية المحتدمة. والصوارى جمع: (الصارى)، و(الصارية)، وهو عمود يقام فى السفينة يُشَدّ عليه الشراع. والصارى =

هرقل، وقد نجح المسلمون في هذه الموقعة في اكتساب خبرة طيبة في المجال البحرى العسكرى، مما فتح لهم آفاقاً جديدة لميادين الامتياز والتفوق في مجابهة دولة الروم المتربصة بهم.

مشاركة مصر في أحداث الفتنة:(١)

ولى عثمان بن عفان الخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب، فاتخذ لنفسه سبيلاً ونهجاً خالف به أسلافه بعض الشئ، فسمح للصحابة بالخروج من المدينة، والتفرق للإقامة في الأقاليم المختلفة من الدولة، وكانت له اجتهاداته وتصرفاته الشخصية الخاصة به، إلى جانب طبيعته اللينة الهادئة التى تخالف طبيعة سلفه الحازمة، إلى جانب حبه أقاربه وتعيينه لهم في المناصب المتعددة، مع كبر سنه وتقدم العمر به، كل ذلك أعطى الفرصة لأعداء الإسلام بقيادة عبد الله بن سبأ، أن ينفثوا سمومهم، ويثيروا القلاقل والفتن والاضطرابات في عهده في مختلف أمصار الدولة الإسلامية.

ونجح الملعون ابن سبأ في التنقل بين البصرة والكوفة والشام، واستقر في مصر، وتطورت الأحداث سِراعاً، وتأججت نيران الفتنة(٢)، وساهمت فيها مصر بدور كبير. وحاول ابن سعد تنبيه عثمان إلى خطورة الموقف، فخرج إليه في رجب سنة ٣٥هـ على رأس وفد يُحَذِّره جُموعَ الثائرين القادمين إليه من مصر. وترك الصحابى الجليل فقيه مصر عُقْبَة بن عامر الجُهَنِيّ نائباً عنه في مصر.

انتهز محمد بن أبى حُذَيْفَة(٣) فرصة خروج الوالى، وجو الفتنة والغضب المسيطر

= هو المَلاَّح أيضاً، ويُجمع على (صُرَّاء). (المعجم الوسيط. مادة صـ.ر.ى): ١/ ٥٣٣-٥٣٤.

(١) قد يكون من العجيب مشاركة مصر مبكراً فى تلك الفتنة العارمة، بذلك الدور القيادى، وقد عُرف عن شعبها أنه مسالم يكره العنف، وأنهم "عبيد مَنْ غَلَب" كما وصفهم أبو سليمان أيوب بن زيد بن قيس، المعروف بابن القِرِّيَّة، وهو اسم جدته). (وفيات الأعيان لابن خلكان ط.صادر ١/ ٢٥٢). والحق أن المصرى يثور على الظلم إذا لم يرتدع، وتاريخ أقباط مصر وتضحياتهم معروفة عبر التاريخ. وأحب أن أوضح أن الذين شاركوا فى الفتنة منها هم العرب المسلمون الوافدون عليها، وفيهم صحابة وأبناء صحابة؛ إذ ليس للأقباط رأى أو دور فى ذلك الوقت المبكر. (الثورات الشعبية فى مصر الإسلامية للدكتور حسين نصار ٨-٩).

(٢) وردت أحداث الفتنة مفصلة فى تاريخ الطبرى: ٤/ ٢٩١-٢٩٢، ٣١٧، ٣٢٦-٣٢٩، ٣٤٠-٣٤١، ٣٥٣-٣٥٦ وغيرها، والولاة والقضاة ١٤-٢٠.

(٣) هو محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة. قيل: اسم والده (مِهْشَم)، وقد أسلم والده مبكراً، وهاجر إلى الحبشة مرتين. وولد ابنه محمد هذا فى هجرة الحبشة الأولى، ويعد أبو حذيفة هذا خالاً لمعاوية، وقد استشهد يوم اليمامة سنة ١٢هـ. وكان محمد ابن إحدى عشرة سنة عند وفاة الرسول ﷺ، ونشأ فى حِجْر عثمان، ثم خرج عليه، وساهم فى قتله. (سير أعلام النبلاء للذهبى) ١/ ١٦٤-١٦٧، ٤٧٩-٤٧٨). ومن الواضح أن هناك تحريفاً فى سن ابن أبى حذيفة عند وفاة الرسول؛ إذ لو افترضنا مولده سنة خمس من البعثة، فيكون عمره ثمانى عشرة سنة.

على البلاد، وقلة الجند الموالين لابن سعد في مصر، فقام بالسيطرة على مجريات الأمور في مصر، وأخذ يحرض الناس على عثمان، ويكتب الكتب الملفقة على لسان أمهات المؤمنين وكبار الصحابة في الطعن على عثمان[١]. وكان أهل مصر كرهوا عبد الله بن سعد وبعد عمرو بن العاص. وربما كان سر اعتراضهم على ابن سعد انشغاله عنهم بالفتوح الخارجية على حساب الإصلاحات الداخلية[٢]. ولعلهم آثروا الراحة. وزهدوا في غنائم الحروب.

وعلى كل حال، فقد بلغت سطوة ابن أبى حذيفة على مصر حَدّاً، منع به دخول عبد الله بن سعد مصر بعد عودته من لقاء عثمان بالمدينة، واضطر ابن سعد للرجوع إلى عَسْقَلان[٣]، حيث أقام هناك وإلى أن بلغه أن الخليفة مُحاصَر بالجنود الثائرين من مختلف الأمصار. قام الثائرون باغتيال عثمان ﷺ مرتكبين في حق خليفة المسلمين جريمة نكراء. هذا، وقد اعتزل ابن سعد الفتنة، ولم يشارك في أحداثها حتى مات.

دخل محمد بن أبى حذيفة وأتباعه مصر وهم يفخرون بقتل عثمان، فثار عليهم جماعة من العرب المؤيدين لعثمان في مصر، يقودهم معاوية بن حُدَيْج، الذى سار بهم إلى الصعيد، وهزم جيش ابن أبى حذيفة هناك، ومضى إلى برقة، ثم عاد إلى الإسكندرية[٤]، ولقى جيش ابن أبى حذيفة ثانية في (خِرْبِتَا)[٥]، وهزمه مرة أخرى.

وكان معاوية بن أبى سفيان والى الشام يتطلع إلى اليوم، الذى يتولى فيه خلافة المسلمين، وقد انتهز فرصة مقتل عثمان ليطالب بدمه كستار يَنْفُذ من ورائه إلى سيطرة حزب بنى أمية على مقاليد الأمور في دولة الخلافة. وقد انتهز فرصة الصراع العلوى العثمانى في مصر، وتمكن من دخول البلاد، ونزل سَلَمَنْت[٦] من كورة عين شمس في شوال سنة ٣٦هـ، واحتال على ابن أبى حذيفة حتى أخرجه من مصر إلى فلسطين، ومعه وجوه قَتَلَة عثمان، وحبسهم في فلسطين. فلما هَمُّوا بالفرار، تَعَقَّبهم واليها من قبل معاوية، وقتل ابن أبى حذيفة، وعبد الرحمن بن عُدَيْس البَلَوِىّ، وغيرهما ممن شارك في قتل عثمان[٧].

وبادر علىّ إلى تعيين قيس بن سعد بن عُبادة الأنصارى والياً على مصر سنة ٣٧هـ؛

---

(١) كتاب الولاة للكندى: صـ١٤-١٥.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى: ١/ ٥٨٠.

(٣) مدينة بالشام من أعمال فلسطين على الساحل. (معجم البلدان ٤/ ١٢٢).

(٤) الولاة والقضاة للكندى صـ١٨-١٩.

(٥) كُورة من كُوَر مصر القديمة فى البحيرة، تبعد عن الإسكندرية ٩٠ كيلو متراً على خط مستقيم (معجم البلدان ٢/ ٣٥٥، والقاموس الجغرافى، القسم الثانى جـ٢ صـ٣٣٤).

(٦) موضع قرب عين شمس من نواحى مصر (معجم البلدان ٣/ ٢٣٨. وضبطها ياقوت سَلْمُنْت)؛ والقاموس الجغرافى، القسم الثانى ١/ ١٠٢، وقد ضبطها نقلاً عن ابن عبد الحكم كما فى المتن).

(٧) تاريخ الطبرى ٤/ ٥٤٦-٥٤٧.

حماية لها من غزو جديد يقوم به معاوية في جولة من جولات صراعه مع علي. وحاول معاوية استقطاب قيس واستمالته إلى حزبه الشامي، فلما لم تُجْدِ الحيلة والدهاء، أوقع بينه وبين علي، إذ أرجف في المدينة أن قيساً يؤيده ويراسله ويحمي العثمانيين في مصر، فأمر عليّ قيساً باتخاذ موقف من هؤلاء العثمانيين بقيادة معاوية بن حديج بمصر، ورفض قيس ذلك؛ لئلا تثور القلاقل في مصر.عندئذ، شك علي فيه، وعزله بإيعاز من الثوار.

ولّى عليّ الأشْتَرَ النَّخَعي[١] أمور مصر، فنزل القُلْزُم[٢] في مستهل رجب سنة ٣٧هـ، ويقال: إن معاوية دس له مَنْ سقاه عسلاً مسموماً، فمات قبل أن يدخل مصر.

وولى علي بعده محمد بن أبي بكر في منتصف رمضان سنة ٣٧هـ، فلم يحسن معاملة الحزب العثماني في مصر، وأساء إلى أفراده، ونكّل بهم، ثم استرضاهم، وسمح لهم بالخروج إلى معاوية بالشام، فضعفت بذلك جبهة علي في مصر، وقدم جيش عمرو بن العاص (حليف معاوية)، وهزم جيش محمد بن أبي بكر بعد معارك ضارية، وقُتل محمد بن أبي بكر شَرَّ قِتْلَة في ١٤ من صفر سنة ٣٨هـ[٣]. ومن يومها دخلت مصر تحت نفوذ الحزب الأموي، وولي شئونها عمرو بن العاص، الذي كافأه معاوية على خدماته بجعل مصر طُعْمَةً له ولأولاده من بعده، فظل عليها عمرو والياً من ربيع الأول ٣٨هـ حتى وفاته سنة ٤٣هـ. وهكذا، تم القضاء على ولاة عليّ في مصر، وكان ذلك قضاء مؤقتاً على العلويين بها؛ إذ لم تَقُمْ لهم قائمة طوال العصر الأموي[٤]

---

(١) هو مالك بن الحارث النخعي، أحد الأشراف والأبطال. فُقئتْ عينه في (اليرموك)، وكان من المحرضين على عثمان، وقاتله. كان فصيحاً بليغاً، شهد صفين مع علي، وكاد يهزم جيش معاوية، لولا رفع المصاحف على أسنة الرماح. كان عليّ يتبرّم به؛ لأنه قوي الشكيمة، صعب المِراس، غير سَلِس القِياد. (سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤-٣٥). وذكر ابن سعد في (طبقاته، ط.بيروت): ٦/ ٢١٣: أنه في الطبقة الأولى من تابعي أهل الكوفة، وأنه من أصحاب علي. وشهد معه الجمل وصِفِّين، ومشاهده كلها (ولم يرد فيه ذكر لتأليبه على عثمان ﷺ، وشهوده حَصْرَه). أما ابن حجر، فيورده في كتاب (الإصابة) جـ٦ صـ٢٦٨ (رقم ٨٣٤٧) في القسم الثالث من طبقات الصحابة عنده (من كان على عهد النبي، ويمكنه أن يسمع منه، ولكن لم ينقل أنه سمع منه سواء كان رجلاً، أم مراهقاً، أم مميزاً). ويذكر أنه ممن ألّبَ على عثمان، وشهد حصره.والراجح أنه من التابعين الأوائل، ولم تثبت له الصحبة (رغم أنه أدرك الجاهلية، وأدرك - بالتالي-النبيﷺ، وتؤثر عنه روايته عن أصحاب رسول الله ﷺ من أمثال علي، وعمر، وخالد، وأبي ذر، كما ورد في(تهذيب التهذيب): ١٠/ ١٠-١١.

(٢) مدينة في الطرف الشمالي للبحر الأحمر بأرض مصر، وإليها ينسب بحر القلزم (الأحمر). (معجم البلدان ٤/ ٣٨٧، والقاموس الجغرافي، القسم الأول صـ٩٩). وفي(تاج العروس للزَّبيدي، ط.دار ليبيا)٩/ ٣٢: خَرِبَتْ القلزم، وبُنِيَ موضعها(السويس).

(٣) الولاة والقضاة للكندي صـ٣١ (وقد أورد أحداث سلمنت، والأشتر، وحرب عمرو ضد محمد بن أبي بكر صـ١٩-٢٠، ٢٣، ٢٨-٢٩).

(٤) الثورات الشعبية في مصر الإسلامية للدكتور حسين نصار صـ١٥.

في مصر. وانقضت صفحة من صفحات تاريخ الإسلام في مصر، التى لولا أحداث الفتنة لكانت أنصع الفترات بها، وبدولة الخلافة كلها؛ فهى الفترة المثالية للحكم الإسلامى الصحيح، الذى ينبغى للأجيال التالية أن تحذو حذوه، وتسير على نهجه وهداه؛ لأنه نهج الرسول الكريم، وصاحبيه العظيمين: أبى بكر، وعمر ﷺ.

الوضع الثقافى في مصر في عصر الراشدين:

دخل صحابة رسول الله ﷺ مصر على رأس الجيش الذى فتحها، وكان على رأس الجيش - كما نعلم - عمرو بن العاص، وابنه عبد الله، والزبير ابن العوام، والمِقْداد ابن الأسود، وعُبادة بن الصامت، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح، وعُقْبة بن عامر الجُهَنىّ، وغيرهم كثير ممن لا يتسع المجال لذكرهم وحصرهم(١).

ولا شك أن هؤلاء الصحابة البررة كانوا لا يتطلعون إلى التنعم بغنى مصر وثرواتها، والتقلب في نعمائها، وإنما كانت لهم أهداف أغلى وأسمى من ذلك كله، ألا وهى تبليغ دعوة الإسلام نقية خالصة إلى العالمين. ومن هنا ندرك عظم الدور الحضارى الذى لعبوه، والذى يتمثل في تعليم المصريين الكتاب والسنة.

ولقد اهتم عمرو بن العاص بإنشاء المسجد الجامع في الفسطاط، وقد ضَمَّتْ أرْوِقَته هؤلاء الصحابة الأعلام يتلون كتاب الله ويقرئونه الناس، ويروون حديث رسول الله ﷺ ويشرحونه ويُبَصِّرون الناس بفقه الإسلام وأحكامه(٢).

لقد استوطن كثير من الصحابة أرض مصر الطيبة، وانقطعوا لتعليم الناس أمور دينهم يخالطون الناس ويخالطونهم؛ ليضربوا لهم أروع الأمثلة على أخلاق الإسلام، وحسن معاملاته، وحقيقة تعاليمه ومبادئه، فيرى الناس - عمليّاً - ما يسمعونه من مواعظ وتوجيهات نظرية، فيكون لذلك أكبر الأثر في نشر الإسلام ولغته عن طريق

---

(١) من أبرز المصادر التى عرضت للصحابة الذين دخلوا مصر، ورووا بها حديث رسول الله - ﷺ - (فتوح مصر، لابن عبد الحكم، وذلك فى القسم السابع، والأخير منه (صـ٢٤٨-٣١٩). ثم نهج السيوطى فى ذلك نهجاً آخر حين ذكر الصحابة الذين دخلوا مصر، وترجم لهم باختصار، ورتبهم ترتيباً هجائياً حسب أسمائهم، ووضعهم تحت عنوان: (دَرّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة) فى كتابه: (حسن المحاضرة جـ١ صـ١٦٦-٢٤٥).

(٢) لا شك أن الصحابة كانوا يتذاكرون فى مسجد عمرو بن العاص آيات القرآن العظيم، ويتدارسون حديث الرسول الكريم - ﷺ - فيكمل بعضهم بعضاً، ويعلمون من شارك فى فتح مصر من غير الصحابة، ويفقهون من دخل فى الإسلام - حديثاً - من القبط فى أمور دينهم، وقد كان لهم - رضوان الله عليهم - مصاحفهم التى يقرأون بها، ويُقرئون الناس فيها، كما أنهم نسخوا من مصحف عثمان - ﷺ - نسخاً عديدة؛ لتعليم الناس القرآن وتحفيظهم إياه (عرض الدكتور عبد الله خورشيد البرى لتاريخ المصحف فى مصر على يد الصحابة فى كتاب: (القرآن وعلومه فى مصر) صـ١٣-١٧). ورجح أن يكون مصحف عثمان قد بدئ فى نسخه سنة ٣٠هـ، وأن الصحابة والتابعين نسخوا منه نُسَخًا فى مصر (صـ ٥٨).

العلم الصحيح، والقدوة الحقة.

أقبل الصحابة على نشر العلوم الدينية من قرآن وسنة، وكان على رأس هؤلاء: عبد الله بن عمرو بن العاص، الذى راد المدرسة المصرية[(١)]، وروى العديد مما حفظه عن رسول الله ﷺ فيما يتصل بالعبادات والجهاد والأخلاق، كما فسر لهم ما سمع تفسيره من فم رسول الله ﷺ لبعض آيات القرآن الكريم، مما يمكن أن نعتبره أوليات علم التفسير في مصر.

وممن أسهم بدور فعال في إثراء الحركة العلمية في مصر في تلك الفترة الصحابى الجليل الفقيه المقرئ المفسر[(٢)] المجاهد عقبة بن عامر الجهنى (ت ٥٨هـ)، الذى أثرى الحياة الفكرية في مصر، وروى عنه المصريون كثيراً من أحاديثه عن النبى ﷺ التى تغلب عليها المِسْحة الفقهية؛ مما جعلهم يعدونه **(مفتى مصر)** آنذاك.

لم تزدهر الحركة العلمية في مصر في عهد عمرو بن العاص فحسب، وإنما استمر ازدهارها وإيناعها، وآتت أكلها كذلك في عهد عبد الله بن سعد بن أبى سرح، الذى كثرت فيه الفتوحات الخارجية، ووفد إلى مصر الكثير من الصحابة والتابعين، الذين مروا بها، وهم في طريقهم إلى المغرب للجهاد في سبيل الله، وكانوا ينتهزون الفرصة، فيروون على مسامع الناس في مصر أحاديث الرسول ﷺ وكذلك أثناء رباطهم بالإسكندرية وأثناء الفتوح بالمغرب، وكذلك عند عودتهم منها إلى مصر، ومنها إلى الجزيرة العربية ثانية. ويذكر السيوطى أن حبر الأمة عبد الله بن عباس دخل مصر في خلافة عثمان بن عفان ﷺ وروى المصريون عنه أحاديث بها، كما أنه شارك في فتح المغرب[(٣)].

وإذا كان الصحابة قد شاركوا في حركة الفتوح الإسلامية، فقد شارك بعضهم في أحداث الفتنة، وكان لوقعها في مصر آثار سلبية على الحركة العلمية بها في الفترة من سنة ٣٥-٣٨ هـ، خاصة وقد قَيّدت أحداثها حركة التنقل والترحال بين الأقاليم الإسلامية؛ مما كان له تأثيره في هدوء النهضة العلمية نسبيًا عن ذى قبل.

وإذا كانت النهضة في مصر دينية خالصة، فإننا لم نر أثراً للنهضة اللغوية والأدبية في ذلك العصر، فلم يصل إلينا سوى قدر يسير من الشعر يعود تاريخه إلى القرن الأول الهجرى، ولا يمكن تمييز خصائصه وميزاته، ومدى تأثره بالبيئة المصرية آنذاك. ولا شك أن التوجه للعلوم الدينية أضعف الدراسات الأدبية، وشغل الناس عن الشعر

---

(١) يذكر المقريزى فى: (الخطط) ٢/ ٣٣٢: أن أول من أقرأ القرآن بمصر الصحابى أبو أمية عُبيد بن مُخْمِر المَعافِرِىّ، الذى شهد فتح مصر.

(٢) عرض الدكتور عبد الله خورشيد البرى لمكانة عقبة مفسراً فى كتابه: (القرآن وعلومه فى مصر) صـ ٢٧٠-٢٧١.

(٣) حسن المحاضرة ١/ ٢١٤.

والأدب بعامة في تلك الفترة. وربما وجدت أشعار تؤرخ لتلك الفترة، خاصة سنوات الفتنة، لكنها فُقدت وضاعت؛ لضعف الاهتمام بروايتها وتسجيلها[١].

وهكذا، يمكن أن نلمح معالم هذه الفترة من الناحية الثقافية على النحو التالى:

أولاً - أن الحركة العلمية كانت مزدهرة في فترة الاستقرار الداخلى، والفتوحات الخارجية، وكانت ذات طابع دينى، تمثل في القرآن **(قراءة، ونسخاً، وإقراء، وتفسيراً)**، وفى الحديث النبوى **(رواية، وسماعاً، وفهماً، وتطبيقاً)**.

ثانياً - قيام الصحابة بالعبء الأكبر في قيادة النهضة العلمية في تلك الفترة.

ثالثاً - أن الحركة اللغوية والأدبية تكاد تكون منعدمة في تلك المرحلة المبكرة.

رابعاً - أن هناك أجيالاً من التابعين تتلمذوا على أيدى الصحابة، وسيقودون الحركة العلمية في المراحل التالية.

ثانياً - مصر في العصر الأموى (٤١-١٣٢هـ):

مضى عصر عمرو بن العاص في ولايته على مصر من قبل معاوية (٣٨-٤٣هـ) في هدوء وسكينة واستقرار. وكان الوالى بعده عُتْبَة ابن أبى سفيان[٢] الذى استدعاه الخليفة معاوية إلى الشام، فاستخلف على مصر عبد الله بن قيس بن الحارث حتى يرجع، فعامل هذا النائب الناس بقسوة وأساء إليهم؛ مما دفعهم إلى الاعتراض عليه، ومقاطعة التعامل معه. وتلكم كانت أولى ظواهر نضوج الشخصية في مصر، وقد احترمها عتبة بعد عودته إلى مصر، فأحسن إلى الناس، وأزال آثار قسوة نائبه.

وبعد وفاة عتبة ولى معاوية عقبة بن عامر الجهنى[٣] على مصر سنة ٤٤هـ، ثم بدا له - بعد فترة من الزمن - أن يولى غيره، وربما رأى معاوية بثاقب فكره أن عقبة نال الحُظْوَة والمكانة في قلوب أهل مصر باعتباره فقيهاً، وعالماً نِحْريراً، ومجاهداً عظيماً له دور فَعّال في نشر الإسلام وتفقيه المصريين في دينهم، فأراد عزله في هدوء؛ لئلا

(١) فى الأدب المصرى الإسلامى، لمحمد كامل حسين صـ٦٥، ١١٦-١١٧. وقد احتفظ لنا الكندى فى: (الولاة والقضاة) صـ٢٥ بأبيات شعرية فيها رثاء للأشتر النخعى بعد موته مسموماً قبل دخول مصر، حينما قدم إليها والياً من قبل علىﷺ.

(٢) أخو الخليفة معاوية بن أبى سفيان، وقدم مصر والياً عليها فى ذى القعدة ٤٣هـ، وتوفى مرابطاً بالإسكندرية فى ذى الحجة سنة ٤٤هـ بعد ولاية دامت سنة وشهراً. (الولاة والقضاة صـ٣٤-٣٦)، و(الخطط للمقريزى ١/ ٣٠١).

(٣) صحابى شهير، وفقيه عظيم، شهد فتح مصر واختط بها. ولى بعد وفاة عتبة حتى صرفه معاوية عنها فى العشرين من ربيع الأول سنة ٤٧هـ، بعد ولاية دامت عامين وثلاثة أشهر (الولاة والقضاة: صـ٣٦-٣٨).

يثير الناس، فولى مَسْلَمة بن مُخَلَّد[١] مكانه، وأمره ألا يخبر عقبة بذلك، ثم أمر عقبة بتولى إمرة البحر في الإسكندرية، وبمجرد رحيله إليها اعتلى مسلمة عرش ولاية مصر[٢].

ولئن تصرف معاوية بهدوء وحذر عند عزله عقبة بن عامر عن ولاية مصر، فقد تصرف بعنف وشدة عند أخذه البيعة لابنه يزيد، إذ انتزع البيعة ليزيد - من بعده - من وجوه الناس في كافة الأمصار تحت الوعيد والتهديد. لقد صدرت الأوامر إلى مسلمة بأخذ البيعة ليزيد من وجوه الناس بمصر، وكان مسلمة - وقتها - بالإسكندرية، فكلف صاحب شرطته عابس بن سعيد بذلك، فبايع الجند ليزيد إلا عبد الله بن عمرو بن العاص، فما كان من عابس إلا أن دعا بالنار؛ ليحرق عليه بيته، فاضطر ابن عمرو إلى المبايعة[٣]. وفى محاولة لتفسير موقف مسلمة أقول: لعله كان يرى صلاحية يزيد للخلافة، ولعله كان رجلاً مسالماً لا يريد الاصطدام بالخلافة، خاصة أن يزيد ثبته على ولاية مصر: صلاتها وخراجها، وربما وجد حرجاً في إرغام ابن عَمرو على المبايعة، فكلف عابساً بذلك، ثم لما عاد من الإسكندرية كافأه بضم القضاء إليه.

وأظهر أهل مصر[٤] - للمرة الثانية - الاعتراض السلمى على شخصية الوالى سعيد ابن يزيد الأزدِىّ، الذى ولاه الخليفة يزيد بن معاوية في رمضان ٦٢هـ، وكان سبب ذلك أنهم رأوه لا يتمتع بمزايا الوالى المطلوب. ولعل صغر سنه دفع أهل مصر إلى ازدرائه والإعراض عنه والتكبر عليه، فعزل نفسه بنفسه خاصة بعد هجوم الخوارج عليه بمصر[٥].

وإذا كانت المعارضة في مصر أُخرست ألسنتها بإجبار ابن عمرو على المبايعة ليزيد ابن معاوية[٦]، فقد عادت بصورة قوية لتشارك في أحداث حركة عبد الله بن الزبير. ويبدو أن مصر كانت ملاذاً للخوارج، الذين خرجوا على علىّ بعد التحكيم من أمثال:

---

(١) صحابى جليل ساهم بدور فعال فى فتح مصر، وروى عنه المصريون، ويعد ممن وُلُوا مصر لفترة طويلة، استمرت من عزل عقبة، حتى توفى مسلمة فى الخامس والعشرين من رجب سنة ٦٢هـ (خمس عشرة سنة، وأربعة أشهر).(المصدر السابق: صـ٣٨-٤٠).

(٢) الولاة والقضاة: صـ٣٨، والخطط للمقريزى ١/ ٣٠١.

(٣) الولاة والقضاة صـ٣٩.

(٤) أعنى بهذا التعبير: العرب المسلمين الذين استقروا فى مصر، وعلى رأسهم قادة الجند. ولا أقصد القبط؛ إذ لم يظهر لهم دور فى تلك المرحلة المبكرة.

(٥) الولاة والقضاة: صـ٤٠، والخطط ١/ ٣٠، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (ط.دار الكتب) جـ ١/ ١٥٧-١٥٨.

(٦) لعله وجد آخرون معارضون لتولى يزيد الخلافة، وربما لم يستطيعوا الجهر برأيهم، ولم يكونوا فى مثل شجاعة ابن عمرو.

حُجْر بن عمرو (أبى الوَرْد)، وغيره[١]. ولما أعلن ابن الزبير البيعة لنفسه سنة ٦٣هـ، ثار الخوارج - كعادتهم - مع كل ثائر، وأيدوا ابن الزبير وربما اعتبروه مثلهم، وربما أوهمهم هو بذلك؛ ليكسبهم في صفه، ولم يكن - في الحقيقة - واحداً منهم.

لقد لحق العديد منهم بابن الزبير في مكة، وطلبوا إليه أن يرسل إليهم والياً على مصر من لدنه. وانتهز ابن الزبير الفرصة المواتية، فولى عليهم بمصر عبد الرحمن بن عُتْبَة بن جَحْدَم الفِهْرِيّ، وذلك في شعبان سنة ٦٤هـ.

ويبدو ان هؤلاء الخوارج بلغوا درجة كبيرة من السيطرة والسطوة والتحكم في مقدرات الأمور بمصر، لدرجة أن نُصَراء بنى أمية لم يقووا على مواجهتهم علانية، وعلى رأسهم عدد من الأشراف، مثل: كُريب بن أبْرَهة بن الصبّاح، وعابس بن سعيد وغيرهم، لدرجة أنهم تظاهروا أنهم مؤيدون لابن الزبير، وأرسلوا إلى مروان بن الحكم، الذى بويع في الشام بعد وفاة يزيد في ذى القعدة سنة ٦٤هـ؛ لكى يأتى إليهم لتخليص مصر من حكم هؤلاء الموالين لابن الزبير المعادى للحزب الأموى الحاكم[٢].

لم يتوان مروان بن الحكم في إنقاذ مصر من أيدى أتباع ابن الزبير، فقدم على رأس جيش كبير ومعه وجوه قواد أهل الشام، وعلى قواته ابنه عبد العزيز. واستعد ابن جحدم للدفاع عن الفسطاط فحفر خندقاً حولها، ودخل مع الأمويين في معارك عديدة هُزمت فيها جيوشه[٣]، واضطر إلى طلب المصالحة مع الأمويين.

عادت مصر إلى حظيرة الخلافة الأموية مرة ثانية، واستقرت بها الأمور، وأقام مروان فيها شهرين يوطد خلالهما نفوذه، ويأخذ البيعة لنفسه من وجوه القوم، سواء كان ذلك عن طواعية وانقياد، أم عن قَسْر وإكراه. لقد أمر مروان بضرب أعناق ثمانين من قبيلة المَعافِر أبوا المبايعة له، وعلى رأسهم: سيد لَخْم (الأكْدَر بن حِمام اللَّخْمى)، الذى شارك في فتح مصر مع أبيه، وكان فيمن سار إلى عثمان في الفتنة. وثارت بنو لخم لهذه المجزرة الجماعية ثورة عارمة، وتقدم من دار مروان ثلاثون ألفاً من اللخميين مدججين بالسلاح، وتكهرب الجو في الفسطاط، إلا أن كريب بن أبرهة أصلح بينهم حتى عاد الجند من حيث أتوا، بعد أن بلغت حالة الاضطراب - نتيجة هذا الحادث - حدًّا تعذر معه الخروج بجنازة عبد الله بن عمرو، الذى مات في اليوم نفسه

---

(١) تتابع على مصر عدد من الخوارج، طردهم والى البصرة (زياد بن أبيه ٤٥-٥٣هـ)، حين اتهم قوماً من الأزد بأنهم خوارج، وقام بنفيهم إلى مصر، فنزلوا الفسطاط، وسكنوا مكاناً يسمى (الظاهر). (معجم البلدان، ط. دار صادر ١/ ٣١٢) عند التعريف بـ (بابليون).

(٢) الولاة والقضاة: صـ٤٢، والنجوم الزاهرة ١/ ١٥٨.

(٣) عرض الطبرى فى: (تاريخه) لتولية ابن جحدم مصر فى جـ٥ صـ٥٣٠، وذكر تفاصيل هزيمته صـ٥٤٠. كما عرض هاتيك التفاصيل الكندى فى: (الولاة والقضاة) صـ٤٢-٤٤، والمقريزى فى: (الخطط) ٢/ ٣٣٨، وابن تغرى بردى فى: (النجوم الزاهرة، ط.دار الكتب) ١/ ١٧١.

سنة ٦٥هـ، واضطر مشيعو جنازته إلى دفنه في داره[١].

بعد أن مهد مروان بن الحكم مصر تمهيداً، وأرسى دعائم الملك بها لابنه عبد العزيز لم يَفُتْه - وهو الرجل المحنَّك - أن يرسخ أسس الحكم الصحيح لابنه في مصر من تقوى الله ﷻ، وأداء الطاعات، والوفاء بالعهود، وإقامة صرح الشورى خَفَّاقاً في البلاد. وقد أحسن عبد العزيز بن مروان[٢] التنفيذ والتطبيق، فحَظِيَتْ مصر في عهده بالأمان والاستقرار، والثروة والرفاهية، فأقام مشاريع الري، وبنى مدينة حُلْوان، وكان له اهتماماته العظيمة بالأدباء، يتذوق الشعر ويُثيب عليه. ولا شك أن ذلك كله انعكس على الحركة الثقافية آنذاك[٣].

وخَلَفَ عبدَ العزيز في ولاية مصر عبدُ الله بن عبد الملك بن مروان، الذى ولى صلاة مصر وخراجها (فى يوم الاثنين ١١من جُمادَى الآخرة سنة ٨٦هـ، وهو ابن ٢٧ سنة). ولم يلبث والده عبد الملك حتى قَضَى نَحْبَه (يوم الخميس ١٤ من شوال سنة ٨٦هـ)، وبويع الوليد بن عبد الملك بالخلافة، فأقر أخاه عبد الله على صلاة مصر وخراجها. وقد بدأ عبد الله ولايته بعملين جليلين؛ إذ أمر بالدواوين فنُسخت بالعربية، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية، وصرف أشْنَاس عن الديوان، وجعل عليه ابن يَرْبُوع الفَزارى من أهل حمص، كما أنه بنى مسجده الذى عرف بمسجد عبد الله[٤]. إلا أن عبد الله لم يكن - رغم ذلك - يتمتع بمزايا سَلَفه العظيم في مهارته الإدارية، ولا هيبته الشخصية، فانفرط عِقْد الأمور من بين يديه، وغَلَت الأسعار في عهده بصورة لم يعهدها الناس من قبل، وكانت تلك أولى الشدائد التى يتعرض لها المصريون تحت الحكم الأموى، فتشاءموا به، واتهموه - كذلك - بالاستيلاء على أموال الخراج، وأخْذ الرُّشا منهم. لقد استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق، فقدم عليه في شهر صفر سنة ٨٨هـ[٥]، لكن عزله إياه من منصبه تأخر إلى سنة ٩٠هـ.

---

(١) الولاة والقضاة صـ٤٦، والخطط ١/ ٣٠١-٣٠٢، والنجوم الزاهرة (ط.دار الكتب) ١/ ١٦٦، ١٧١.

(٢) ولى عبد العزيز مصر فى رجب سنة ٦٥هـ، ومات وهو عليها فى ١٣ من جمادى الأولى سنة ٨٦هـ، وهو بهذا أطول ولاة بنى أمية عهداً فى مصر. وكان والده قد توفى أول رمضان سنة ٦٥هـ بعد عودته من مصر.

(٣) عرض لفترة حكم عبد العزيز، وأسس ولايته وإدارته، وإنجازاته كل من: الكندى فى: (الولاة والقضاة) صـ٤٧-٥٥، والمقريزى فى (الخطط) ١/ ٣٠٢، وابن تغرى بردى فى (النجوم الزاهرة، ط.دار الكتب) ١/ ١٦٦، ١٧١، وما بعدها .

(٤) الولاة والقضاة: صـ٥٨-٥٩، والخطط ١/ ٣٠٢، والنجوم (ط.دار الكتب)١/ ٢١٠ .

(٥) إلى هنا - والحق يقال - ظننت أن الوليد استدعاه إلى دار الخلافة، عازلاً إياه عن ولاية مصر؛ لِما اتُّهم به من اتهامات خطيرة تستوجب سرعة عزله، خاصة أنه لما توجه للقاء الوليد، كان الناس فى شدة عظيمة، وأزمة اقتصادية طاحنة (الولاة والقضاة صـ٥٩). ومن ضَنْك العيش الذى يقاسيه الناس هجاه أحد الشعراء وتمنى ألا يعود إلى مصر ثانية، لكن فوجئت بالكندى يورد صـ٦٠ خبراً مفاده: أن عبد الله ابن عبد الملك لا يزال فى منصبه، وأنه عزل عمران بن عبد الرحمن بن شُرَحْبيل بن =

وولى مصر قُرَّة بن شَرِيك العَبْسىّ (يوم الاثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ٩٠هـ)، وكان والياً حازماً، ونجح في القضاء على حركة الخوارج بالإسكندرية، وهم الذين كانوا يتآمرون لقتله، فأمكن منهم، واستشار وجوه القادة بشأنهم فأشاروا بقتلهم(١). ولا شك أن محاولة الخوارج قتل الوالى عمل خطير، كان لا بد من ردعه؛ حتى تُحفظ هيبة الحاكم في النفوس، ويُستتب الأمن في البلاد، ولا تتحول الأمور إلى فوضى يصعب السيطرة عليها.

وجدير بالذكر أنه قد أشيع عن هذا الوالى أنه ظلوم غشوم، فيه قسوة واضطهاد. وبودى أن أوضح الحقائق التالية:

١- لم يذكر لنا ابن عبد الحكم شيئاً من ظلمه، بل عَدّد له إنجازات عظيمة قام بها في فترة ولايته(٢).

٢- أن الكِنْدىّ في كتابه: (الولاة والقضاة)، وهو مصدر أساسى في هذا الشأن، لم يورد نصّاً واحداً يفيد شيئاً من ذلك الاتهام، بل ما سجله الكندى يشهد له بالخير، فهو يستشير قادة الجند بشأن من ثبت تآمرهم على قتله شخصياً، ولو كان ظالماً لأخذ الولىّ بالمَوْلَى، والمقيم بالظاعن، والبرىء بالمذنب. لقد ذكر له الكندى إصلاحات إدارية وعمرانية طيبة، مثل: تدوين الدواوين وهو عمل تنظيمى مالى خطير، إلى جانب توسيعه المسجد الجامع، وغيرها من الإصلاحات(٣).

٣- خلال عهده الذى امتد من ٩٠-٩٦هـ، لم نسمع بثورات قامت في عهده احتجاجاً على ظلم وقع، وكانت الخلافة راضية عنه، فَولّتْه مكان عبد الله بن عبد الملك، أخى الخليفة الوليد لما ساءت سيرته، ولم تعزله، بل مات وهو في منصبه. والخيانة الخارجية التى ذكرت كانت موجهة لشخصه في محاولة لإشاعة الفوضى في البلاد، ولم تكن لشكوى عامة.

= حَسَنَة عن الشرطة والقضاء، بل سجنه، وذلك فى صفر سنة ٨٩هـ، وأنه قام بإصلاحات فى المسجد الجامع فى العام نفسه. ويخبرنا الكندى صـ٦٢-٦٣: أنه ظل فى منصبه، حتى قدم عليه قرة بن شريك والياً على مصر بدلاً منه، وذلك سنة ٩٠هـ (صـ٦٤). ومعنى ذلك أن الوليد لم يبادر إلى عزله رغم ما نُسب إليه، وربما كان ذلك التأخير، لمكانة عبد الله منه، أو لتشككه فيما نسب إليه، أو لأنه لم يجد البديل المناسب الحازم فى حينها. وعلى كل حال، فقد ولى عبد الله شئون مصر قرابة ٤ سنوات (من جمادى الآخرة سنة ٨٦هـ إلى ربيع الأول سنة ٩٠هـ)، ولا أجد أى وجه صحيح لِما يذكره الكندى (صـ٦٣)، من أن ولايته على مصر كانت عشرة شهور! وتتفق المصادر التاريخية: الخطط ١/٣٠٢، والنجوم الزاهرة (ط.دار الكتب)، ١/٢١٠-٢١١، وحسن المحاضرة ١/٥٨٧) على أن عبد الله بن عبد الملك ولى مصر ثلاث سنوات، وعشرة شهور.

(١) الولاة والقضاة صـ٦٤.

(٢) فتوح مصر: صـ١٢٦، ١٣١، صـ٢٣٨-٢٣٩.

(٣) الولاة والقضاة: صـ٦٥، والخطط: ١/٣٠٢، والنجوم الزاهرة (ط.دار الكتب): ١/٢١٧.

٤- لعل نجاحه وحزمه في إدارة شئون مصر أوغر صدور أعدائه عليه، فرَوَّجوا عنه، وأشاعوا، وأرجفوا[١].

٥- قيل: أن قرة بن شريك كان يشرب الخمر، ويلهو في مسجد مصر بعد انصراف الصُنَّاع من بنائه[٢].

وإن كان لنا من تعليق على هذا النص، فإنّا نقول: لا يُعْقَل أن يُجاهر الوالى بذلك والخوارج يتربصون به الدوائر، وكيف يقول مستهتراً: لنا الليل ولهم النهار، ويأتى بالشراب والمَعازف والقِيان داخل المسجد؟! وهل يتركه الخليفة العظيم الوليد على انحرافه هذا؟! وكيف سكت عنه العلماء؟!

إن هذه المقولة تحمل في طياتها دلائل بطلانها، خاصة أن ابن يونس حكاها بصيغة الظن، وهى أقرب إلى التكذيب منها إلى التصديق.

٦- ولا أدرى مصدر السيوطى[٣]، الذى اعتمد عليه في اتهام قرة بالظلم والعسف، ولعله نقله عن ابن يونس، ولم يَعْزُه إليه. وأخيراً، فأنا أميل إلى تكذيب ورفض ما أشيع عن قرة بن شريك؛ إذ لا دليل عليه[٤].

وشهدت مصر في خلافة عمر بن عبد العزيز[٥] القصيرة (٩٩-١٠١هـ) ما انعكس

---

(١) نُقل عن عمر بن عبد العزيز قول، يَذُمّ فيه قرة بن شريك، ويقرنه بولاة آخرين عرفوا بالبطش وسفك الدماء، وهذا القول هو: ملئت الأرض - والله - جَوْرًا: الحجاج بن يوسف فى العراق، ويزيد بن مسلم بالمغرب، وقرة بن شريك فى مصر (سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن عبد الحكم؛ نشرة أحمد عبيد صـ١٤١). والحق أن هذا القول يجوز قبوله فى حق الحجاج (ت ٩٥هـ) وفظائعه بالعراق معروفة، ويجوز قبوله فى يزيد كاتب الحجاج وتلميذه، الذى حاول تبنى سيرته ونهجه فى المغرب، فكان القتل جزاءه سنة ١٠٢هـ.

(٢) تاريخ الغرباء لابن يونس المصرى (ط.دار الكتب العلمية - بيروت) صـ١٧٦.

(٣) حسن المحاضرة ١/ ٥٨٧.

(٤) ممن سلموا باتهام قرة، ولم يذكروا مصدرهم فى ذلك الباحث حسن عبد الحميد جبر فى رسالته للماجستير عن (العلاقات بين مصر والإدارة الحكومية فى عصر الولاة) صـ٢٥٤. أما الدكتور أحمد شلبى، فذكر فى موسوعة التاريخ الإسلامى ٥/ ٣٨: أن قرة سمح عادل، شدد على المتهربين من الجزية، والخراج، وردهم إلى أراضيهم؛ حفاظاً على موارد الدولة. ولعل المبطلين من أهل الذمة هم الذين نسبوا الظلم والاضطهاد إليه. وتذكر دكتورة سيدة كاشف الكلام نفسه؛ مدافعة عن قرة فى كتابها: (مصر فى فجر الإسلام) صـ٣٠، وتعضد دفاعها عنه بما نشره الألمانى بيكر من أوراق البردى فى مصر بما يفيد عدالته ورحمته: Becker : neue Arabische Pupyri, PP. 247-248.

(٥) أشاع هذا الخليفة الراشد جو التسامح والحب فى الدولة الإسلامية، فلم يَثُرِ الخوارج فى عهده، واطمأن العلويون فى ظل حكمه بعد أن ألغى لعن على فوق المنابر، وجعل مكانه، آخر خطبة الجمعة، قول الله (تعالى): " رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ " (سورة الحشر: من الآية العاشرة).وكذلك قوله (تعالى): " إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " (سورة النحل: الآية ٩٠). (مروج الذهب للمسعودى ٣/ ١٦٩).

عليها وعلى غيرها من الأمصار من العدالة والرحمة والرفاهية، فقد كانت توجيهاته إلى أيوب بن شُرَحْبيل والى مصر (فى ربيع الأول ٩٩هـ)أن يلتزم العدل في الحكم، وأن يوسع على الناس فيزيد أَعْطِياتهم، وأن يُشيع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في المجتمع، فقام بتعطيل الحانات، وتحريم تناول الخمور.

وقد خطا عمر بن عبد العزيز ﷺ خطوة طيبة على طريق الإدارة الإسلامية، حين أمر بأن يحل المسلمون محل حكام القبط في القرى وغيرها[١]، فكان ذلك تكملة لما بدأه عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) من تعريب الدواوين[٢]، فكان لذلك كله أثره في انتشار اللغة العربية والإسلام؛ليضمن أهل الذمة وظائفهم، كما انعكس ذلك على الحركة العلمية في البلاد، فأدى ذلك إلى ازدهار الفكر والثقافة في مصر.

وفى عهد الحُرّ بن يوسف كتب عُبيد الله بن الحَبْحَاب صاحب الخراج في مصر إلى الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥هـ، يعلمه أنه يمكن زيادة الخراج على الناس في مصر، فكان ذلك إيذاناً بثورات عارمة شَبَّتْ في عدة كور بمصر، وعلى رأسها قرى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، لعبد الله بن عبد الحكم (نشرة: أحمد عبيد) صـ٧٣-٧٤، ٧٧-٧٨، ٨٣-٨٦، وتاريخ الطبرى ٦/ ٥٦٩، ٥٧٢ وغيرها، والولاة والقضاة ٦٨-٦٩. ولا يُفهم من ذلك أن المسلمين كانوا يستخدمون تلك الوسيلة؛ لإكراه القبط على الدخول فى الإسلام. فالمسلمون تركوا القبط فى إدارة شئون البلاد، ريثما يتعرفون حقيقة الأوضاع بها. وكان من الطبيعى أن تأتى مرحلة تالية، يعربون فيها الدواوين، فيتعلم القبط العربية؛ حفاظاً على وظائفهم. وقد يكون عصر عمر بن عبد العزيز - وهو قصير على كل حال - هو الذى أضاف شرط الإسلام إلى العربية؛ لبقاء من كانوا قبطاً فى وظائفهم. فلعل البعض اعتنق الإسلام لأجل الوظيفة، ولا أعتقد أنهم كثيرون، فليس من المعقول أن يكون معظم القبط عمالاً فى الدواوين؛ إذ لم تكن جيوش الموظفين التى نراها الآن موجودة أيامها. ثم إن عمر بن عبد العزيز - كما تشير النصوص - نزع مَوازيتَ القبط عن الكُوَر، أى: رؤساء القرى. وهذا يتمشى مع عدم جواز أن يكون لغير المسلم ولاية على المسلم، فالمناصب الكبرى للمسلمين، ويجوز أن يكون تحت أيديهم بعض من القبط. وعلى كل، فقد عاد هؤلاء إلى وظائفهم بعد موت عمر بن عبد العزيز، كما دَلّت. عليه أوراق من البردى ترجع إلى سنة ١٧١هـ (مصر فى فجر الإسلام)، للدكتورة سيدة كاشف صـ٢٠١.

(٢) يقترن اسم عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين فى أنحاء الدولة الإسلامية، فقد كان ديوان العراق بالفارسية، وديوان الشام بالرومية، وكُتَّاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين، حتى جاء عبد الملك واستحال الأمر مُلْكاً، وانتقل العربُ من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، وظهر منهم مهرة الكُتّاب والحُسْبان. أمر عبد الملك سليمان بن سعيد والى الأردن بنقل ديوان الشام إلى العربية سنة ٨١هـ (فتوح البلدان للبلاذرى، ط.المنجد ١/ ٢٣٠). وقام صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج بتحويل دواوين العراق من الفارسية إلى العربية بعد سنة ٨٠ هـ. أما فى مصر، فقد تم تعريب دواوينها عام ٨٧هـ على يد ابن يربوع الفزارى فى ولاية عبد الله بن عبد الملك إبان خلافة الوليد بن عبد الملك، فكان ذلك العمل تتمة لما بدأه عبد الملك بن مروان فى أنحاء الخلافة. (الكامل لابن الأثير ٤/ ٥٢٢، ومقدمة ابن خلدون ٢/ ٦٧٦-٦٧٧، والخطط ١/ ٩٨، ومصر فى فجر الإسلام صـ١٩٩-٢٠٠، وأزمنة التاريخ الإسلامى مج١ جا صـ١١٥، ومج٢ جا صـ٧٤٧).

الحَوْف الشرقى[١]، وشارك فيها القبط لأول مرة بصورة حقيقية واضحة سنة ١٠٧هـ، لما أحسوا الظلم الواقع بهم. وقد واجههم الوالى بقسوة، فاستحَرَّ القتل في كثير من الثائرين، وظل الوالى مرابطاً في دمياط ثلاثة أشهر؛ تَحَسُّباً لاندلاع ثورات جديدة[٢]. ولم تُشر المراجع إلى رد فعل الخلافة إزاء ذلك الظلم، لكن الظاهر أنها كانت راضية عن زيادة الخراج مهما كانت النتائج؛ مما كان يؤذن بتدهور حالة الاستقرار في مصر.

وفى عهد مَرْوان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ) عانت الخلافة الأموية من مظاهر البؤس والشقاء والثورات، وكانت الخلافة الأموية تترنح تحت نِير العصبية القبلية، التى أجَّج الخلفاء نيرانها لعوامل شخصية. فبينما كان مُعْتَمَد الخلفاء على اليمنية ومعظم ولاتهم منهم، اتجه مروان إلى القيسية، وولاهم الأمصار المختلفة، فجلب على نفسه عداء اليمنية.

وانعكس تزعزع مكانة مروان في دار الخلافة على هيبته وهيبة ولاته في مصر، فقد استعفى حَفْص بن الوليد من منصبه سنة ١٢٧هـ، وولى بعده حَسَّان بن عَتاهِيَة، الذى تجرأ عليه الجند، وطالبوا بإعادة حفص، ووصل التجرؤ بهم إلى خلع الخليفة نفسه[٣]، وأيد الجند نفر من اليمنية، واضطر مروان إلى النزول على رغبتهم صاغراً فأعاد حفصاً. ورغم ذلك أصر المصريون على خلع مروان بن محمد ذاته[٤].

وثار رجل من القبط في عهد الوالى عبد الملك بن مروان بن موسى بن نُصَيْر سنة ١٣٢هـ، وخرج على الوالى المذكور أحد أبناء البيت الأموى نفسه، وهو عمرو بن سُهيل بن عبد العزيز بن مروان، وأيده بعض المناصرين من قيس، وتمكن الوالى من إلحاق الهزيمة بهم، واعتقل عمرو بن سهيل، وحبسه في الفسطاط[٥].

ولما ساءت الأحوال إلى ذلك الحد، أتى الخليفة مروان بن محمد إلى مصر، ودخلها يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شوال سنة ١٣٢هـ، فقابله أهل الحَوْف الشرقى بالثورات، وانفجر الموقف في كل مكان بمصر[٦]. حاول مروان تهدئة الأوضاع، لكنه

---

(١) الحوف: معناه الجانب والناحية، والجمع: أحواف. وبمصر حُوف شرقى، وآخر غربى متصلان: أول الشرقى جهة الشام، وآخر الغربى دمياط. ويشتملان على بلدان وقرى كثيرة(معجم البلدان: ٢/ ٣٢٢).وفى القاموس الجغرافى،القسم الأول صـ٥٠: وهو القرى الواقعة على الجانب الشرقى من الوجه البحرى.

(٢) الولاة والقضاة: صـ٧٣-٧٤، والخطط ١/ ٣٠٢.

(٣) الولاة والقضاة: صـ٨٥. عرض ابن تغرى بردى لوالى مصر حفص بن الوليد فى: (النجوم الزاهرة ط.دار الكتب) ١/ ٢٦٣-٢٦٤.

(٤) توجد ثورات أخرى ضارية، قاوم فيها الوالى حَوْثَرة بن سُهيل الباهِلىِ الثائرين سنة ١٢٨هـ (الولاة والقضاة صـ٨٨-٩٢).

(٥) المصدر السابق: صـ٩٤.

(٦) التفاصيل فى (الولاة والقضاة) صـ٩٥-٩٧.

فشل ووصل إلى مرحلة اليأس القاتل، الذى دفعه إلى إحراق الفسطاط، فكتب بتلك الفعلة نهاية خلافته.

وكان لا بد مما ليس منه بُدٌّ، فأقبل العباسيون بقواتهم بقيادة صالح بن على بن عبد الله بن العباس، الذى تتبع مروان بن محمد، وقتله فى(بُوصِير)[١] يوم الجمعة الثالث والعشرين من ذى الحجة ١٣٢هـ، وتمت له بذلك السيطرة على الفسطاط، وبعث برأس مروان بن محمد إلى العراق. وهكذا، سقطت الدولة الأموية، ودخلت مصر في طور جديد كولاية تابعة للعباسيين.

الأوضاع الثقافية في مصر في العصر الأموى:

١- عاشت مصر في ظل العصر الأموى متمتعة بشخصية فريدة؛ إذ كان لها دور كبير في رسم سياستها الداخلية، ولها علاقتها بعاصمة الخلافة تنفعل بأحداثها، وتنعكس عليها أوضاعها قوة وضعفاً. ففى عصر عمر بن عبد العزيز الخليفة العالم الزاهد، حظيت مصر بالاستقرار، والازدهار والرخاء، وأرسل إليهم عمر نافعاً مولى عبد الله بن عمر ﷺ؛ ليعلمهم السنن، ويفقههم في الدين[٢]. كما جعل فُتْيا مصر عالمين جليلين من أهلها، نبغا في الفقه والحديث والأخبار هما: يَزيد بن أبى حبيب (ت ١٢٨هـ)، وعُبيد الله بن أبى جعفر (ت ١٣٦هـ).

وفى عصر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، رأينا كيف تدهورت الأحوال في مصر تبعاً لتدهورها في دار الخلافة، وكيف عَمَّتْ الاضطرابات والثورات والمنازعات، لدرجة أن الأقباط الذين لم يكن لهم في الفترة السابقة دور ملموس، ولا رأى معروف في صراعات دار الخلافة، ربما شاركوا العرب في ثوراتهم ضد مروان بن محمد[٣]؛ آملين أن يكون العصر العباسى أفضل وأقوم. وبَدَهِىّ أن يسود الجمود والركود الحركة الثقافية في مصر مؤقتاً إبان هاتيك الثورات والاضطرابات.

٢- كان الولاة في مصر يُعَيَّنون من قِبَل الخلفاء، ويخضعون لهم مباشرة، وحرصت الخلافة على كثرة تغييرهم، تبعاً للظروف المحيطة بهم[٤]. وكان بعض

---

(١) قرية قديمة من قرى الجيزة (سماها صاحب القاموس الجغرافى أبوصير جـ٣ من القسم الثانى صـ٣). وفى المعجم البلدان ١/ ٥١٠: بُليدة من كورة الجيزة تعرف بـ (بُوصِيرالسِّدْر). والظاهر أن هذه الناحية ربما كثر بها شجر السدر (النَّبْق)، فاشتهرت به.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٢٩٧-٢٩٨. وقد ظل فى مصر مقيماً بين أهلها فترة (ت ١٢٠هـ). وهكذا، كان عصر عمر بن عبد العزيز عدلاً وسماحة وفقهاً وعلماً (تاريخ الخلفاء للسيوطى صـ٢٢٨-٢٤٦).

(٣) مصر فى فجر الإسلام، للدكتورة سيدة كاشف (الطبعة الأولى) صـ١٤٦.

(٤) ذكر إلياس الأيوبى فى: (تاريخ مصر الإسلامية) ١/ ٢٢١: أن ولاة مصر فى العصر الأموى بلغوا واحداً وثلاثين والياً، بمعدل والٍ كل ثلاث سنوات تقريباً. والحق أنهم ثلاثة وعشرون والياً فقط، =

الولاة يَشْتَطُّون في تقدير الخراج، ولا يسوسون الأمور الإدارية والمالية بالحكمة الواجبة؛ مما كان يتسبب في اشتعال الثورات والفتن التى تؤثر - بلا شك - في مسيرة الحركة الثقافية في البلاد، كما حدث - مثلاً - في عهد الوالى الحر بن يوسف، وصاحب الخراج عبيد الله بن الحبحاب؛ مما نتج عنه ثورة الأقباط للمرة الأولى عام ١٠٧هـ.

ووُجد ولاة أكْفاء عُمِّروا طويلاً في مناصبهم، وازدهرت في أيامهم الحركة العلمية في مصر، مثل: مسلمة بن مخلد (٤٧-٦٢هـ)، وعبد العزيز بن مروان (٦٥-٨٦هـ). أما عن مسلمة الصحابى الجليل، فقد روى عن النبى ﷺ أحاديث حفظها عنه أهل مصر، وشارك في فتحها، واختط بها وسكنها، وتولى أمرها في عهد معاوية بن أبى سفيان، وابنه يزيد من بعده. ولم يكن محدثاً فقط، بل كان قارئاً جيداً كذلك، فقد صلى وراءه التابعى مجاهد، فقرأ مسلمة سورة البقرة كلها، ما ترك ألفاً ولا واواً[(١)]. وها هو ذا عبد العزيز بن مروان كان عالماً محدثاً. روى عن أبيه مروان بن الحكم، وعن الصحابى عبد الله بن الزبير، وعقبة بن عامر، وأبى هريرة. وتتلمذ على يديه في رواية الحديث ابنه عمر بن عبد العزيز، والزُّهْرِىّ، وعُلَىّ بن رَباح، وغيرهم. فكان تابعيّاً ثقة. (رحمه الله)[(٢)]. وعلى هذا، فقد ولى مصر ولاة مثقفون، علماء أجلاء، نعمت البلاد في ظل حكمهم بالتقدم العلمى، والازدهار الثقافى؛ لأنهم باركوه وشجعوه وأسهموا في تحقيقه ونمائه[(٣)].

٣- وأخيراً، فإن العصر الأموى شهد أجيالاً من كبار التابعين وأئمتهم، الذين

= منهم من ولى مرتين كعبد الملك بن رِفاعة (سنة ٩٦، ١٠٩هـ)، وحنظلة بن صفوان: (سنة ١٠٢، ١١٩هـ) ومنهم من ولى ثلاث مرات، وهو: حفص بن الوليد (سنة ١٠٨، ١٢٤، ١٢٧هـ)، وبعضهم ولى مدة طويلة، مثل: عبد العزيز بن مروان (٦٥-٨٦هـ)، ومسلمة بن مخلد (٤٧-٦٢هـ)، وقرة بن شريك (٩٠-٩٦هـ). (عن جدول الولاة للأستاذ جست محقق الولاة والقضاة للكندى صـ١-٢). وأعتقد أن عدد ولاة مصر فى العصر الأموى معقول، وأنهم كانوا يعينون لأهداف معينة غالباً، وأن الوضع سيتغير - كما سنرى - فى العصر العباسى (وذلك يتضح مثلاً من ملاحظة جدول الولاة وغيرهم آخر كتاب (مصر فى فجر الإسلام) للدكتورة سيدة كاشف نقلاً عن جدول الأستاذ (فييت).

(١) الولاة والقضاة للكندى صـ٣٩.

(٢) النجوم الزاهرة: ١/ ١٧٢.

(٣) وجد ولاة آخرون يتمتعون بتلك المواهب العلمية، والقدرات الثقافية الطيبة، مثل: حفص بن الوليد (ولى ١٠٨هـ ولايته الأولى)، الذى كان من القُرَّاء المَجيدين، وروى عن الزهرى وغيره. روى عنه الليث بن سعد، وجماعة آخرون من العلماء. قتله الحوثرة بن سهيل والى مصر سنة ١٢٨هـ (النجوم الزاهرة، ط.دار الكتب) ١/ ٢٦٣. وهناك عبد الرحمن بن خالد بن مُسافر الفَهْمى (ولى ١١٧هـ) الذى كان راوية للحديث، وكان عنده من الزهرى كتاب فيه مائتا أو ثلاثمائة حديث، وكان الليث يحدث عنه. توفى سنة ١٢٧هـ (المصدر السابق ١/ ٢٧٧).

تتلمذوا في الفترة الماضية على أيدى الصحابة، رضوان الله عنهم أجمعين، فامتلأ العصر بهم في شتى مناحى العلوم والثقافات على النحو التالى:

أ) في مجال القراءات:

ظهر القارئ المحدث أبو تميم الجَيْشانى، عبد الله بن مالك (ت ٧٧هـ)، وهو من أئمة التابعين بمصر. ونبغ - كذلك - عبد الرحمن بن هُرْمُز الملقب بـ (الأعْرَج ت ١١٧هـ) بالإسكندرية، فكان يقرأ القرآن وينسخ المصاحف، وتوفى مرابطاً بالإسكندرية. ولا ننسى وَرْشاً صاحب القراءة المعروفة، الذى نشأ بمصر وبها ولد سنة ١١٠ هـ، وتفتحت مواهبه، وعبقريته خلال ذلك العصر، وتجلت زعامته وأستاذيته في العصر الذى يليه.

ب) وفى مجال التفسير:

ظهر رائد مدرسة التفسير المصرية عطاء بن دينار الهُذَلِىّ (ت ١٢٦هـ).

جـ) وفى مجال الملاحم والقصص[1]:

ظهر موسى بن وَرْدان المصرى (ت ١١٧هـ)، وتَوْبَة بن نَمِر الحَضْرَمِىّ صاحب القضاء والقَصَص (ت ١٢٠هـ)، وعُقبة بن مسلم التُّجِيبىّ: قاضى مصر وإمام جامع الفُسْطاط (ت ١٢٠هـ)، وخير بن نُعَيْم الحضرمى (ت ١٣٢هـ)، وغيرهم كثير.

د) وفى مجال الحديث والأخبار والفقه:

نجد فقيه مصر يزيد بن أبى حبيب (ت ١٢٨هـ)، وعبيد الله بن أبى جعفر (ت ١٣٦هـ)، وأبا قَبيل الأخبارى المعروف (ت ١٢٨هـ). وهناك المحدث ابن لهيعة (ولد سنة ٩٧هـ)، ومعاصره الليث بن سعد (ولد سنة ٩٤هـ) فقيه مصر وعالمها، وعمرو بن الحارث المصرى (ولد ٩٠هـ)، والحارث بن يزيد الحضرمى (ت ١٣٠هـ)، وغير هؤلاء كثير.

هـ) وفى مجال الشعر:

نما الشعر قليلاً عن الفترة السابقة، واحتفظت لنا بعض المصادر بنماذج أدبية منه، واكبت الأحداث وسجلتها وعَبّرت عنها. وكان أكثر الولاة تشجيعاً للشعر عبد العزيز بن مروان، الذى عُرف بتذوقه الشعر، والإحسان إلى الشعراء، فأقبلوا على مصر في عهده يمدحونه، ويحظون بجزيل نَواله، مثل: أيمن بن خُرَيْم الأسدى، ونُصَيْب بن رَباح، كما تردد على مصر في عصره الشاعر المشهور كُثَيِّر عَزَّة. وجميل بن مَعْمَر.

(١) يُعَدّ سُلَيم بن عِتْر التُّجِيبىّ رائد القَصّ فى مصر (ت ٧٥هـ). (كتاب القضاة للكندى صـ٣٠٣).

وإذا كانت العلوم الأخرى تتعرض لشئ من الاهتزاز في فترات الاضطرابات، فإن الشعر ينمو ويزداد خلالها؛ لُيعبّر عن مُجْرَيات الأمور والأحداث، كما في أواخر عصر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين[(١)].

هكذا، عرضت الخطوط العامة لثقافة هذه الفترة، وسأعرض تفاصيلها -فيما بعد- إن شاء الله.

ثالثاً - مصر في عصر العباسيين (١٣٢-٢٠٠هـ):

بعد أن نجح العباسيون في السيطرة على مقاليد الأمور في مصر، قام قائدهم صالح ابن على باستئصال شأفة من بقى من الأمويين في مصر، فأسر من أسر، وشَرَّد من شرد، وقتّل من قتل، حتى بدا له أن مصر قد صَفتْ لهم تماماً[(٢)]. وتوجه وفد من مصر برئاسة الوليد بن عبد العزيز بن المطلب إلى العراق لتقديم البيعة إلى الخليفة العباسى الأول، عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الملقب بـ (السفّاح) ١٣٢-١٣٦هـ. وهذا نظام جديد استحدث في البيعة يخالف ما تُعورِف عليه في العصر الأموى، حين كانت البيعة تؤخذ من وجوه القادة وهم في مصر.

قبض ولاة العباسيين على نواصى الأمور في مصر بيد من حديد، فمضت السنوات هادئة لا يعكر صفو استقرارها شئ ذو بال، إلى أن حانت سنة ١٤٣هـ (ولاية حُمَيْد بن قَحْطَبَة للمنصور على مصر)، إذ قدم إليها علىّ بن محمد بن عبد الله يدعو لأبيه محمد بن عبد الله (النفس الزكية)، ولعمه إبراهيم بن عبد الله كذلك[(٣)]. ونزل علي رجل مناصر للعلويين هو عَسَّامة بن عمرو المَعافرى، وعلم بذلك صاحب السِّكّة، فأبلغ الوالى به، لكن حميداً أظهر نوعاً من التعاطف مع العلويين، وكذّب صاحب السكة، ثم احتال وقام بإخفاء على، وزعم أنه غير موجود في مصر، فأرسل صاحب السكة إلى المنصور يعلمه بما حدث، وقد فَطِن إلى حيلة الوالى، فسخط المنصور على حميد وعزله، وولى مكانه يزيد بن حاتم المُهَلَّبىّ (منتصف ذى القعدة سنة ١٤٤هـ).

---

(١) الولاة والقضاة: صـ٨٧، ٩٠-٩١، ٩٥.

(٢) أورد الكندى تفاصيل فظائع صالح بن على فى مصر فى كتاب (الولاة والقضاة) صـ٩٨-١٠٠. والواقع أن صالح بن على - رغم كل ما ارتكب - لم يحقق القضاء المبرم على أنصار الأمويين فى مصر؛ إذ أفلت من أفلت، واحتبس من احتبس فى صدره تأييده للأمويين، منتظراً فرصة سانحة للتعبير عن رأيه، وستأتى ثورة دِحْيَة ابن مصعب؛ لتدلل على ذلك. وعلى كل حال، فقد أنشأ صالح بن على مدينة العَسْكَر شمال شرقى الفُسْطاط كعاصمة لمصر فى العصر العباسى، ووسّع مسجد عمرو بالفسطاط، ووزع العطاء على الجند وعيالهم (المصدر السابق: صـ١٠٠).

(٣) مراحل حركة على بن محمد بن عبد الله تفصيلاً فى: الولاة والقضاة صـ ١١١-١١٥، والخطط ٢/ ٣٣٨.

نَمَتِ الدعوة العلوية في عهد يزيد بن حاتم في مصر، ووجدت لها صدى في قلوب المصريين الذين يَهْوَوْن آل البيت، فكثر أتباع عليّ، وساعده على نشر دعوته خالد بن سعيد الصَّدَفِيّ، الذى كان جده من خاصة رجال على ابن أبى طالب ﷺ كما انضم إليهم بعض الأمويين، الذين أفلتوا من تنكيل صالح ابن على، يريدون الثأر من العباسيين، وكان على رأس هؤلاء الأمويين دِحْيَة ابن مُصْعَب بن الأَصْبَغ بن عبد العزيز ابن مروان[١] وغيره، وقد أشار دحية بحرق دار الوالى، ثم استقر الرأى على نهب بيت المال، ودخلوا في معارك عديدة مع جند الوالى، سقط فيها كُثُر من الأسرى والقتلى، ولم يحسمها سوى مجئ أنصار العباسيين برأس إبراهيم بن عبد الله في ذى الحجة سنة ١٤٥هـ، فتفرق شمل العلوية في مصر بفشل ثورة النفس الزكية بالحجاز[٢].

نعمت مصر في بدايات خلافة المهدى (الذى ولى ١٥٨هـ) بالاستقرار والثروة والغنى، فيذكر الطبرى أن الخليفة وزع على أهل مكة في موسم الحج عام ١٦٠هـ ثلاثين ألف درهم، ثم وصلت إليه من مصر ٢٠٠ ألف دينار، فقسمها كذلك[٣]. وهذا الرقم - وإن كان مبالغاً فيه - إلا أنه يعكس - في الأساس - ما تمتعت به مصر من الازدهار آنذاك.

ولا عجب في ذلك، فقد عرفت مصر في عهد المهدى والياً، يدعى أبا صالح يحيى بن داود الخُرْسِيّ[٤]، ولى صلاتها وخراجها في ذى الحجة سنة ١٦٢هـ، وكان من أشد الناس سلطاناً، وأعظمهم هيبة، فقد تحدى المجرمين، وأمر الناس بترك بيوتهم مُفَتَّحة الأبواب ليلاً، وأن يدعوا حوانيتهم دون إغلاق، حتى إنهم وضعوا شرائج[٥] القصب لمنع الكلاب من دخولها، وألغى الحراسة على الحمامات، فكان الرجل يضع ثيابه على باب الحَمَّام، ثم يقول: يا أبا صالح، احفظها. وهكذا، عَمَّت الطمأنينة وانتشر الأمان في ربوع مصر على عهده، وما لبث أن عزله المهدى في المحرم ١٦٤هـ، ولا أدرى سر هذا العزل، رغم ما وصفت لنا المراجع من مزايا

---

(١) ترجم له المؤرخ المصرى ابن يونس، وأشار إلى ثورته تلك التى انتهت بمقتله سنة ١٦٩هـ. (تاريخ المصريين، ط.دار الكتب العلمية - بيروت) ص١٦٠ .

(٢) لم تكن تلك هى الثورة الوحيدة الواقعة فى عصر يزيد بن حاتم، فقد ثار عليه القبط سنة ١٥٠هـ، وطردوا عماله في قرية (سَخا)، وتحالفوا مع غيرهم من أهل البُشْرود وغيرهم، وألحقوا بجيش يزيد هزيمة منكرة، وَلّى على أثرها إلى الفسطاط. (الولاة والقضاة: ص١١٦-١١٧).

(٣) تاريخ الطبرى: ٨/ ١٣٣.

(٤) أورد الكندى أعماله فى الولاة والقضاة ص١٢٢-١٢٣.

(٥) جمع شَريجة. ويقال: شَرَّجَ اللَّبِنَ أى: نَضَّد بعضه إلى بعض، وكل ما ضُمَّ بعضه إلى بعض فقد شُرِج وشُرِّج. والشريجة: قطع من قصب تتخذ للحَمَّام. (لسان العرب لابن منظور) ٤/ ٢٢٢٦ مادة: ش.ر.ج). وفى القاموس المحيط للفَيْرُوزابادى ١/ ١٩٦ (باب الجيم فصل الشين): الشريجة: شئ من سَعَف يُحمل فيه البِطِّيخ ونحوه. والمقصود: أنهم صنعوا من أعواد القصب أبواباً للدكاكين.

عصره، لكن يبدو أنها سياسة العباسيين، الذين يخشون الولاة الأقوياء، فيعزلونهم سريعاً؛ لئلا يفكروا في الاستقلال عن دار الخلافة.

ولم يدم الاستقرار طويلاً، فقد خرج دحية بن مصعب في ثورة عارمة في منطقة الصعيد سنة ١٦٧هـ، وأعلن العصيان ومنع الخراج، ودعا لنفسه بالخلافة. ورغم هذا الخطر الداهم لم يعبأ به الوالى إبراهيم بن صالح، وتراخى في التصدى لثورته؛ مما دفع دحية وشجعه للسيطرة على أقاليم الصعيد عامة. ونتج عن إهمال الوالى أن عزله المهدى، وولى موسى بن مصعب مكانه[١]، فصادر أموال الوالى السابق وأموال عماله، ثم تشدد في تحصيل الخراج، وضاعفه على كل فدان من الأرض الزراعية، وابتدع ضرائب جديدة على الأسواق والدواب، فكان رد الفعل كالآتى:

١- تعاطف الجند مع الشعب، وأظهر الجميع الغضب والكراهية للوالى الظالم الذى أساء إلى الرعية.

٢- ثار المصريون وقاموا بطرد عمال الوالى من الحوف، وتحالفت ضده قبائل القيسية واليمنية، وولوا عليهم معاوية بن مالك. وبلغ من تآلف الجند والشعب أن اتفق الأهالى في الحوف مع جند الفسطاط وأهلها أن ينخذلوا عن الوالى، ولا ينفذوا أوامره عند خروجه بهم للحرب، وتم تنفيذ الخطة بإحكام، وأسلم الجند الوالى الظالم إلى الأهالى، فقتلوه سنة ١٦٨هـ[٢].

وكان لزاماً على الخلافة أن تدحض هذه الثورة العنيفة، التى أَقَضَّت مضاجعها، ومُنيت جيوشها على يديها بهزيمة منكرة، ولذلك جَيَّش المهدى جيشاً بقيادة الفضل بن صالح بن على العباسى، الذى أقره الهادى - من بعد - والياً على مصر سنة ١٦٩هـ، فقدم إليها وهى تضطرم بنيران ثورة أهل الحوف، وقد قويت شوكة دحية بن مصعب، وكثر أنصاره، ودعاه الناس أن يأتى إلى الفسطاط. ووقعت معارك عنيفة بين دحية الثائر وجيش الفضل بن صالح، وتمكن الأخير من إلحاق هزيمة محدودة بجيوش مصعب الذى اندفع يعزز قواته عن طريق ضم أهل الواحات إليه، وكانوا من البربر، ويدينون بمذهب الخوارج، وقد وافقهم دحية بن مصعب على عقيدتهم تَقِيّةً، واستطاع بهم هزيمة جيش آخر للخلافة بقيادة عبد الله بن على. ثم وقع دحية في خطأ جسيم لما فَضّل جنده العربى، ومَيّزهم على جند البربر، فغضبوا عليه، وطالبوه بالتبرؤ من عثمان ابن عفان، فرفض، فتركوه وحده فظَفِر به جيش الفضل وهزمه، وقبض عليه، فضُربت عنقه[٣].

وهكذا، تم القضاء على ثورة أموية دموية عنيفة قامت ضد العباسيين، مما يدل

---

(١) الولاة والقضاة: صـ١٢٤، والخطط ١/ ٣٠٧-٣٠٨، والنجوم (ط.دار الكتب) ٢/ ٤٩.

(٢) الولاة والقضاة: صـ١٢٥-١٢٧، والنجوم ٢/ ٥٤-٥٥.

(٣) الولاة والقضاة: صـ١٢٨-١٣١.

على إن أتباع الأمويين كثيرون أقوياء، ثاروا من قبل لأجل عثمان بن عفان، وهاهم - الآن - يثورون لمُلْكهم الزائل في محاولة منهم لإقامة خلافة أموية مصرية[١].

توفى الخليفة موسى الهادى في منتصف ربيع الأول سنة ١٧٠هـ، وكان على مصر الوالى على بن سليمان، فأقَرَّه - بعدُ - الخليفة هارون الرشيد. وقد سلك هذا الوالى مسلكاً طيباً تمثل في القضاء على المفاسد الخلقية، ومظاهر الانحلال، كحانات الخمور وأماكن اللهو وغيرها، كما أنه كان كثير التصدق على الرعية ليلاً. وقد كان له موقف من القبط، إذ هدم لهم ما استحدثوه من كنائس في العصر الإسلامى[٢]، ورفض المغريات المادية التى حاولوا عن طريقها ثَنْيَه عن ذلك العمل[٣]. والملاحظ أنه لم تقم ثورات قبطية تعترض على صنيعه هذا، ولعله كان مقنعاً ومنطقيّاً في ذلك؛ إذ لا ضرورة لبناء مزيد من الكنائس، فالموجود منها يكفى. ولعل حزمه وحسمه منعا القبط من الثورة في عصره.

وفى عهد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) ولى مصر موسى بن عيسى بن موسى الهاشمى ولايته الأولى عليها سنة ١٧١هـ[٤]، وكان له اتجاه يخالف سلفه على بن سليمان، إذ أذن للنصارى في بناء الكنائس التى هدمها علىّ، ووافقه على ذلك الليث ابن سعد، وعبد الله بن لهيعة، واحتجا بأن عامة الكنائس في مصر بُنيت في عهد الصحابة والتابعين، ولم يعترض على ذلك أحد منهم ولم ينكره.واعتبر كل من الليث

(١) الثورات الشعبية فى مصر الإسلامية، للدكتور حسين نصار ٣٥-٣٦.

(٢) ولعل من سبقه من الولاة تساهلوا فى السماح للقبط بإنشاء كنائس جديدة، رغم أن ظاهر وثيقة الصلح التى عقدها عمرو معهم - بعد فتح بابليون - يشير إلى عدم التعرض لكنائسهم (أى: المقامة فعلاً)، ولم يشر إلى موضوع استحداث، أو ترميم، أو إنشاء كنائس جديدة. (تاريخ الطبرى ٤/ ١٠٩).

(٣) الولاة والقضاة: صـ١٣١.

(٤) ولى هذا الوالى شئون مصر ثلاث مرات: الأولى - من منتصف ربيع الأول سنة ١٧١هـ إلى ١٤ من رمضان ١٧٢هـ (أى: لمدة سنة، وخمسة أشهر ونصف). والثانية - من السابع من صفر ١٧٥هـ إلى ٢٨ من صفر ١٧٦هـ (أى: لمدة سنة واحدة). والثالثة والأخيرة - من آخر ذى القعدة ١٧٩هـ إلى جمادى الآخرة ١٨٠هـ (أى: حوالى ستة أشهر. (الولاة والقضاة: صـ١٣٢، ١٣٤، ١٣٧). وهذا الوالى يعد نموذجاً لاضطراب الخلافة العباسية فى تعيين الولاة وعزلهم؛ حرصاً منها على عدم إستقلالهم بمصر، فقد كان الخلفاء يعتبرونها منعزلة وبعيدة عن حاضرة الخلافة (بغداد)، ويخافون أن يُحرموا خراجها إذا استقل الولاة بها. ومن هنا كان هَمّ الخلافة جباية خراجها، ولو كان ذلك على حساب إعمارها أو استقرارها، وإقامة الإصلاحات لأهلها. ولم يجد الولاة فرصة لإقامة مشاريع نافعة، فعلى سبيل المثال: لم يذكر لنا الكندى شيئاً ذا بال صنعه موسى بن عيسى فى ولاياته الثلاث بمصر، ولا أدرى من أين استنبط الدكتور حسن إبراهيم حسن فى كتابه: (تاريخ الإسلام السياسى) ٢/ ٢٠٠، أنه كان عادلاً فى إدارته! هل استند فى ذلك إلى سماحه ببناء ما تهدم من كنائس؟ إن ذلك وحده لا ينهض دليلاً للعدالة فى الإدارة، بل هو إجراء مرجوح من هذا الوالى.

وابن لهيعة ذلك البناء نوعاً من عمارة البلاد(١).

ومضت الأحداث هادئة في مصر في ظل خلافة الرشيد وولاته فيها، حتى ولى إسحاق بن سليمان أول رجب سنة ١٧٧هـ، فزاد الخراج على المزارعين زيادة أثارت أهل الحوف، ويبدو أن حروباً دارت بينهم وبين ذلك الوالى، الذى أرسل يستنجد بالخلافة، فبعث إليه هارون الرشيد بجيش عظيم على رأسه هَرْثَمَة بن أَعْيَن، فلما رآه أهل الحوف علموا أنهم لا قبل لهم به، فأعلنوا الطاعة، وأذعنوا له، ودفعوا الخراج كاملا(٢).

وفى عهد الليث بن الفضل (ولى مصر ١٨٢هـ) أرسل المَسَّاحين يمسحون الأراضى الزراعية؛ ليقدروا خراجها، فجار هؤلاء في إحصائهم للأراضى، فشكا الناس إلى الوالى، فتجاهل شكواهم، ولم يسمع لهم، فعسكروا وساروا إلى الفسطاط، واشتبكوا مع جند الوالى في معارك شديدة ساهم فيها - كالمعتاد - أهل الحوف بنصيب وافر في رمضان سنة ١٨٦هـ. ورغم تخاذل جند الوالى إلا أنه ثبت في المعركة مع خاصة رجاله، حتى ألحق الهزيمة بالثائرين، وعاد إلى الفسطاط(٣).

ويبدو أن الهزيمة لم تكن حاسمة؛ بدليل أن أهل الحوف عادوا أدراجهم ومنعوا الخراج، فاضطر الليث بن الفضل للتوجه إلى هارون الرشيد في مستهل المحرم ١٨٧هـ؛ لإبلاغه عجزه عن استخراج الخراج من أهل الحوف، ويعلمه حاجته الماسّة إلى جيش تبعثه الخلافة إليه. وعرض محفوظ بن سليمان على الرشيد أن يوليه جباية خراج مصر، وتعهد أن سيقوم بذلك بلا سوط ولا عصا(٤). ويظهر أنه أزال الظلم الواقع على أهل الحوف، فأدوا ما عليهم نحو الخلافة دون ثورات، أو حروب.

قد يبدو مما تقدم أن الحروب والفتن والثورات التى قامت في مصر كانت فيها الخلافة جانية وولاتها ظالمين، وكان أهل مصر - خاصة أهل الحوف - مَجْنِيًّا عليهم مغبونين. لكن الإنصاف يقتضى أن أذكر أن ذلك لم يكن بصفة دائمة، وإن كان هو الأغلب والأعم. فأحياناً كانت الثورات تندلع، لا بسبب اضطهاد ولا إجحاف، وإنما كَلَوْن من ألوان المماطلة والتسويف والتمرد عند دفع الخراج. ومثال ذلك: ما شَبّ من ثورات في عصر الوالى الحسين بن جميل (١٩٠-١٩٢هـ)، تلك التى تحولت إلى لون من ألوان الإرهاب الدموى المتمثل في النهب والقتل، وقطع الطريق ليس في مصر وحدها، بل امتد خطر العصابات المسلحة إلى بعض قرى الشام؛ مما أفزع هارون

(١) الولاة والقضاء: صـ١٣٢.

(٢) المصدر السابق: صـ١٣٦، والكامل لابن الأثير ٦/ ١٤١ (عزل إسحاق ١٧٨هـ)، والنجوم الزاهرة (ط.دار الكتب) ٢/ ٨٧-٨٨.

(٣) الولاة والقضاة: ١٤٠.

(٤) المصدر السابق: ١٤٠، والنجوم الزاهرة (ط.دار الكتاب) ٢/ ١١٤.

الرشيد، وحثه على إرسال جيش بقيادة يحيى بن معاذ، اشترك مع جيش الحسين بن جميل في القضاء على هؤلاء الخارجين، وأعادوا الأمن والهدوء إلى البلاد مرة أخرى[١].

مصر وموقفها من أحداث فتنة الأمين والمأمون:

ولي حاتم بن هَرْثَمَة مصر في عهد محمد الأمين، فنزل بلبيس، ولقى أهل الحوف هناك، فصالحوه على دفع ما عليهم من خراج، ثم ثارت بعد ذلك عدد من القبائل العربية، فأرسل إليهم حاتم بقوات عليها السَّرِيّ بن الحَكَم وعبد العزيز بن الوزير الجَرَوِيّ، وتمكنت هذه القوات من إلحاق الهزيمة بتلك القبائل، وأخذت مائة رهينة من القبائل اليمنية الثائرة لضمان استقرار الأوضاع، وذلك في شوال سنة ١٩٤هـ.

ثم عُيِّنَ جابر بن الأشعث الطائى في ٢٥ من جمادى الآخرة ١٩٥هـ، وكان محبباً إلى الناس عامتهم وخاصتهم. فلما وردت الأنباء بأن الخليفة الأمين خلع أخاه المأمون من ولاية العهد، وجعلها لابنه موسى ودعا له؛ تكلم بعض الجند في مصر بخلع الأمين؛ غضباً للمأمون. ومن أوائل من سعى في ذلك السرى بن الحكم، وبايع على ذلك نفريسير، ثم ازداد الكلام على هذا الخلع، ووصل إلى مسامع الوالى، فحذر من الخوض في ذلك، ومن سوء عاقبته ومغبته[٢]، لكن السرى بن الحكم - وكان وقد دخل مصر مع جند الوالى الليث ابن الفضل سنة ١٨٢هـ، وكان خامل الذكر - أراد أن يتزعم حركة الدعوة للمأمون، لعله يرفع بذلك خَسيسته.

وأدرك المأمون أهمية أخذ البيعة من وجوه الناس في مصر، ولعله علم أن له بها مناصرين، فكتب إليهم ليدعوا له، فأجابوه كلهم سراً، ووصل كتاب هرثمة بن أعين إلى وكيل ضياعه على مصر عَبّاد بن محمد بن حَيَّان بخلع الأمين ومبايعة المأمون، فوافق الجند وتمت المبايعة في ٨ من رجب ١٩٦هـ، وانقض الجند على والى الأمين (جابر بن الأشعث) وأخرجوه من مصر، وغدا عباد بن محمد والياً من قبل المأمون على مصر[٣].

ولم يقف الأمين موقف المتفرج إزاء تطورات الأوضاع في مصر، فأراد إقامة جبهة مناصرة له، ومضادة لمؤيدى المأمون في مصر، فأرسل إلى ربيعة بن قيس زعيم قبيلة قيس بالحوف؛ ليتولى أمر مصر، فانضم اليمنية إليه، وقاموا بخلع المأمون، وتقدموا نحو الفسطاط يريدون الإجهاز على والى المأمون، ودارت بينهم مناوشات على حافَّتَىْ

(١) الولاة والقضاة: صـ١٤٣-١٤٤، والخطط ١/ ٣٠٩-٣١٠، والنجوم الزاهرة (ط.دار الكتب) ٢/ ١٣٥.

(٢) الولاة والقضاة: صـ١٤٨، والخطط ١/ ٣١٠، والنجوم(ط.دار الكتب) ٢/ ١٤٨-١٤٩ .

(٣) الولاة والقضاة: صـ١٤٨-١٤٩، والخطط ١/ ٣١٠، والنجوم (ط.دار الكتب) ٢/ ١٥٣.

خندق الفسطاط، لكنها لم تؤد إلى نصر حاسم لأى من الطرفين. ولما عادوا إلى موطنهم، أرسل إليهم الوالى عبد العزيز بن الوزير لمحاربتهم هناك، لكنه هُزم في ذى القعدة ١٩٧هـ[١].

ولا شك أن ابن الجَرَوىّ دخل في غمار هذه الأحداث، لعله يظفر برئاسة أو بزعامة يتطلع إليها خلال هذه الاضطرابات. والدليل أنه بمجرد أن قومه من لَخْم وجُذام عرضوا عليه أن يدعو لنفسه أجابهم، ومضى إلى بلبيس، وأرسل عماله يَجْبُون الخراج من أسفل الأرض (شمالى البلاد). وقد حاول ربيعة بن قيس والى الأمين أن يتصدى له[٢]، وربما لم يظفر منه بشئ.

وكرر أهل الحوف صدامهم مع عباد بن محمد والى المأمون، فساروا إلى الفسطاط في المحرم سنة ١٩٨هـ، فعقد عباد للسرى بن الحكم على جيش يصدهم به، ووقع بين الطرفين كثير من القتلى، وحَلّت الهزيمة بأهل الحوف، وتفرقوا بعد وصول الأنباء بمقتل الأمين في المحرم سنة ١٩٨هـ. وصرف المأمون عباداً عن مصر في صفر سنة ١٩٨هـ، فكانت ولايته عليها سنة وسبعة أشهر[٣].

شارك الجند بسهم كبير في فتنة الأمين والمأمون، وهذا هو ديدنهم بشأن الخلافات والصراعات التى تنشب في الولايات، وكذلك في العلاقة بين الولايات ودار الخلافة. لقد اشتركوا في الفتنة المذكورة، ولم يكن لهم بها علاقة ولا أدرى الدافع الحقيقى وراء ذلك؛ فالفتنة لا علاقة لها بالعصبية العربية! ويبدو أن الجند مرتبطون بدار الخلافة برابطة الدم أكثر من ارتباطهم بمصر نفسها[٤]؛ بدليل أن مصر كانت راضية عن واليها جابر الطائى قبل وقوع الفتنة. وعلى كل، فربما كان فراغ الجند الذى يحسون به، وعدم وجود أهداف محددة واضحة، أو غايات سامية يلتقون عليها، وينافحون في سبيلها (مثل: حركة الفتوح الأولى)، إلى جانب اهتزاز الأوضاع الاقتصادية أحياناً، مما دفعهم إلى الاشتراك في الثورات لإثبات وجودهم فيها، وبيان قوة تأثيرهم في مجريات الأمور. لقد انتهز السرى بن الحكم فرصة الاضطراب السائد في مصر، وسعى إلى الاستقلال بها، حيث أصبحت مصر نُهْبَةً لمَنْ غَلَبَ[٥]. كل ذلك في غياب المأمون، وانشغاله عن مصر بتوطيد ملكه في الشرق. لم تكد مصر تستريح من عناء الفتنة السابقة، حتى هَبَّتْ رياح فتنة أخرى في دار الخلافة، تمثلت في صراع المأمون مع

(١) الولاة والقضاة: صـ١٤٩-١٥١، والنجوم (ط.دار الكتب) ٢/ ١٥٤.

(٢) الولاة والقضاة: صـ١٥١.

(٣) الولاة والقضاة: صـ١٥١. ورد فى النجوم الزاهرة (ط.دار الكتب) ٢/ ١٥٤: أن عباد بن محمد هُزم على يد الحوف، وحمُل إلى الأمين، فقتله فى صفر ١٩٨هـ.

(٤) تاريخ الإسلام السياسى، للدكتور حسن إبراهيم حسن ٢/ ٢٠٠.

(٥) مصر فى فجر الإسلام (الطبعة الأولى)، للدكتورة سيدة كاشف صـ١٦٣-١٦٤ .

عمه إبراهيم بن المهدى على الخلافة[1]. وقد انعكس ذلك الصراع على مصر، فرأينا زَعيمَىْ مصر البارزيْن آنذاك يتجه كل منهما مُتَّجهًا، فالسرى بن الحكم ناصر المأمون، بينما أيّد عبد العزيز بن الوزير الجروى إبراهيم بن المهدى. ودار صراع مرير بين الرجلين يبغي كل واحد منهما السيطرة على مقاليد الأمور في مصر، ويتصالحان أحياناً، ويتعاديان أحياناً أخرى. وانتهز جماعة الأندلسيين الفرصة، وقدموا بمراكبهم إلى الإسكندرية واستولوا عليها، وكان لزاماً طردهم منها، إلا أن ذلك تأخر كثيراً؛ نتيجة للصراع الداخلى الدائر بين السرى وابن الجروى. ومما يجدر ذكره أن المأمون اضطر - نتيجة انشغاله بعاصمة الخلافة - أن يُقِرّ السرى بن الحكم على ولاية مصر سنة ٢٠٠هـ، ثم ثار الجند بالسرى فعزله المأمون، فلما استعاد مركزه عاد فولاّه ثانية ٢٠١هـ، وكأنها إجراءات مؤقتة لجأ إليها المأمون، حتى يفرغ لولاية مصر التى امتدت اضطراباتها سنوات متوالية، حتى كادت لا تعرف الاستقرار؛ مما أثر سلبيًّا في المناخ الفكرى والثقافى بها، بخاصة أن الاضطراب ساد معظم الأقاليم، وأحياناً كعبة العلماء في مصر (الفُسْطاط).

الحالة الثقافية العامة في مصر في ظل الخلافة العباسية (١٣٢-٢٠٠هـ):

سبق أن أوضحنا أن ثمة تأثيراً للوضع السياسى بعامة في النواحى الثقافية المرتبطة به. وخلال دراستنا للأوضاع السياسية في مصر خلال العصر العباسى لاحظنا **ملاحظتين مهمتين هما**:

١- أن الخلافة العباسية وقعت في أخطاء جسيمة تتصل بإدارتها، وبسياسة تعيين الولاة في مصر، **وذلك على النحو الآتى**:

أ) أسرف الخلفاء في زعزعة الاستقرار الإدارى في مصر عن طريق كثرة تولية الولاة؛ مما أضعف الاستقرار الداخلى، والإصلاحات الاقتصادية. وقد أدى ذلك إلى طمع الولاة في تكوين ثروات طائلة في مدة يسيرة قبل أن يجرى عليهم العزل؛ مما أدى إلى سوء الوضع المالى والمعيشى في مصر، وإلى انتشار مشاعر السخط لدى الناس.

ب) ظهرت الخلافة وظهر ولاتها في مصر بصورة جَشِعة نَهِمة، كل هدفها ابتزاز الأموال وزيادة الخراج دون مراعاة لإمكانات الشعب المحدودة. وقد أدى ذلك إلى الإضرار بالوضع الأمنى والاستقرارى في مصر، فشَبّتِ العديد من الثورات الشعبية،

(١) بويع إبراهيم بن المهدى من قبل القادة فى بغداد سنة ٢٠٢هـ، وكان سر سخطهم على المأمون أنه ولى عليًا الرضا ولاية العهد من بعده، فنقل بذلك الخلافة من ولد العباس إلى ولد على، كما أنه خلع السواد شعار العباسيين، ولبس الخضرة (تاريخ الطبرى ٨/ ٥٥٧). وقد ظفر المأمون بعمه إبراهيم بن المهدى، ثم عفا عنه سنة ٢١٠هـ (تاريخ الطبرى ٨/ ٦٠٣-٦٠٦).

التى اتحد فيها العرب والقبط أحياناً، أو خاضها كل فريق على حدة أحياناً أخرى(١). فهى - إذن - ثورات لم تكن قومية قبطية، بل كانت ضد فساد الإدارة الحكومية، وفساد الولاة والعمال، وسوء تخطيط الخلافة وسياستها في مصر. ودليل صحة ذلك أن حركة تعريب مصر ظلت مستمرة مطردة، وغدا المسلمون أغلبية مع نهاية عصر الولاة(٢). وقد يقال: إن مقادير الخراج وأساليب جمعه لم تزد عما كان المصريون يدفعونه للرومان(٣). وأبادر، فأقول: ولِمَ يسلك المسلمون الفاتحون العادلون مع أهل البلاد مسلكاً يقاس بالرومان من قريب أو من بعيد؟! لم لا يراعون العدل والقسطاس المستقيم في جباية وتقدير الخراج؛ ليضمنوا لمصر وأهلها الرخاء والاستقرار، ولدينهم سرعة الانتشار؟!

لقد عانت مصر خلال حكم العباسيين كثرة الاضطرابات والفتن والثورات، التى غاص الخلفاء - كالمأمون مثلاً - في دماء الناس خلالها؛ لأجل السيطرة على مجريات الأمور، وتهدئة الأوضاع في البلاد. لقد أثرت حالة عدم الاستقرار تأثيراً سلبياً في حركة اتصال العلماء، ورحلاتهم من وإلى مصر، مما لو انتفى لكان لمصر شأن أرقى وأعظم في مجال الفكر والثقافة. ونحمد الله أن العلماء كانوا فوق الاضطرابات، فسَمَوْا فوق أحداثها، ونأوا بأنفسهم عن سَفاسِف الجند الوضيعة، ومحاولاتهم الغِرّيرة للاستقلال عن الخلافة، فالعلماء ينشغلون بالنافع المفيد من العلم درساً وتدريساً وتأليفاً، ولا ينساقون وراء صراع سياسى مريض. كما نحمد الله أن معظم الاضطرابات كانت تعم الصعيد وقبائل الحوف، وقليلاً ما كانت تشمل الفسطاط العاصمة وبها مسجد عمرو بن العاص، الذى يعد مَوْئِل الحركة العلمية آنذاك. كما أن للعلماء جلسات خاصة في بيوتهم يتذاكرون فيها العلم مع نظرائهم وتلاميذهم، ويتراسلون عن طريق الخطابات مع علماء البلدان الأخرى، إن لم تسمح الحالة الأمنية بالسفر والترحال. وتأسيساً على ما مضى ذكره، فإننا نسمع أسماء علماء أعلام، ساهموا في حركة النهضة الثقافية في مصر، رغم أنهم عايشوا فترة الاضطرابات خاصة ما وقع بين السَّرِىّ بن الحَكَم، وابن الجَرَوِىّ. وأبرز مثال على ذلك: هو الإمام الشافعى، الذى قضى في مصر من سنة ١٩٩-٢٠٤هـ، ووضع خلال - تلك الفترة المحدودة - مذهباً فقهيًا جديداً ممثلاً في كتاب (الأم)، وأسس علماً جديداً هو (أصول الفقه) ممثلاً في كتابه: (الرسالة)، وعاصر زعيمى المدرسة المالكية في مصر: أَشْهَب بن عبد العزيز (ت ٢٠٤هـ)، وعبد الله ابن عبد الحَكَم (ت ٢١٤هـ).

٢- يقتضينى الإنصاف أن أذكر وجود بعض فترات الاستقرار في مصر تحت حكم العباسيين. ومن أبرز نماذج هذا الاستقرار:

(١) عرض المقريزى لثورات القبط فى مصر عرضاً طيباً فى: (الخطط) ١/ ٧٩-٨٠ .

(٢) العلاقات بين مصر والإدارة الحكومية، ماجستير حسن عبد الحميد صـ٣٣١ .

(٣) دولة بنى العباس، لشاكر مصطفى ٢/ ١٥٦.

عصر الوالى أبى صالح يحيى بن داود الخُرَسِىّ (١٦٢-١٦٤هـ)، الذى عَمَّ فيه الأمن والهدوء والاستقرار. فلا عجب إذا علمنا أن فترة حكمه شهدت مقدم عثمان بن الحكم الجُذامىّ[١]، وعبد الرحيم بن خالد[٢]، وهما تلميذا الإمام مالك، ويُعَدّان أول من نشر المذهب المالكى في مصر، وعنهما تلقفه علماء مصر وفقهاؤها، الذين درسوه ونشروه وألَّفوا فيه، وأضافوا إليه، من أمثال: الليث بن سعد، وعبد الرحمن بن القاسم، وعبد الله بن وهب، وغيرهم كثير.

والآن، وبعد ربط السياسة بالثقافة من حيث الاستقرار وعدمه، أذكر أبرز نواحى الحركة العلمية في مصر تحت الحكم العباسى:

أ) في مجال القراءات، والتفسير: نبغ في القراءات ورش (١١٠-١٩٧هـ)، الذى تعلم العربية، وقرأ على نافع بالمدينة، وكان زعيم الإقراء في مصر.كما ظهر في مصر- أيضاً-معاصره عبد الرحمن بن مَيْسَرة (ت١٨٨هـ)، الذى كان يقرىء الناس بقراءة نافع في مصر.

وفى التفسير برزت جهود عبد الله بن وهب (١٩٧هـ)، وعبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد (ت ٢٢٣هـ).

ب) في مجال الحديث والفقه: شهدت هذه الفترة كلاً من: ابن لهيعة (ت ١٧٤هـ)، والليث بن سعد (ت ١٧٥هـ)، اللذيْن نَضِجا علمياً آنذاك، وتأصَّلت علومهما، وأسهما في إثراء مدرستى: الحديث، والفقه في مصر. وكذلك نبغ عبد الرحمن بن القاسم (ت ١٩١هـ)، وعبد الله بن وهب (ت ١٩٧هـ) في علمى الحديث، والفقه المالكى.

ج) في مجال التاريخ: ازدهرت المدرسة المصرية التاريخية على يدى: ابن لهيعة، والليث بن سعد، وصُقلت هذه المدرسة بالاحتكاك مع مؤرخى المدارس التاريخية في البلدان الأخرى. كما ورد إلى مصر محمد بن إسحاق صاحب السيرة (ت ١٥١هـ)، وعبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ) راويها.

د) في مجال الأدب: كانت حالة عدم الاستقرار في مصر، وكثرة الفتن والاضطرابات والثورات دافعاً قوياً لازدهار الشعر في مصر،تأريخاً للأحداث، وتعبيراً عن تطورات الأمور بها، فظهر عدد من الشعراء المصريين، مثل: سعيد بن عُفَيْر (ت ٢٢٦هـ)، ومعاصره المُعَلَّى الطائىّ، إلى جانب عدد من الشعراء الوافدين إلى مصر مما سنوضحه في موضعه بإذن الله (تعالى).

وهكذا، كان في مصر نهضة علمية مزدهرة في شتى المجالات الفكرية، على الرغم من حالة انعدام الاستقرار التى شاعت كثيراً في ذلك العصر، والذى كانت

(١) راجع ترجمته فى: (تهذيب التهذيب، ط.دار الفكر - بيروت) لابن حجر جـ٧ صـ١٠٢ (رقم ٢٣٧).

(٢) توفى فى الإسكندرية أثناء ولاية أبى صالح على مصر سنة ١٦٣هـ. (الخطط للمقريزى) جـ٢ صـ٣٣٤.

الخلافة تحرص على عدم التمكين للولاة خلاله؛ لكيلا يستقلوا دونها. لقد حرصت الخلافة على ضآلة القوة العسكرية لدى الولاة، وجعلت الولاة تابعين لها - غالباً - دون قيادات العرب المقيمة في مصر[١]. وأدى ذلك كله إلى التفكير الجدى في الاستقلال بمصر، فكانت حركة السرى وأسرته التى حكمت مصر نحو عشر سنوات، سيطرت - خلالها - على الفسطاط دائماً، وعلى الوجه القبلى غالباً[٢]. فساهمت الخلافة من حيث لا تدرى في التعجيل بما كانت تخشاه من استقلال مصر عنها. وقد تحقق ذلك كاملاً، عندما توفرت العناصر اللازمة للاستقلال - أواسط القرن الثالث الهجرى - على يد أحمد بن طُولون مؤسس الدولة الطولونية.

---

(١) العلاقات بين مصر والإدارة الحكومية، لحسن عبد الحميد ص٢٨٤.

(٢) مصر فى فجر الإسلام، للدكتورة سيدة كاشف ص١٧٧.

الباب الأول

العلاقات الثقافية بين مصر والأقاليم العربية الأخرى في القرنين الأولين الهجريين

مـــدخـــل

نحن - في هذا الباب - أمام موضوع تتشابك فيه العلوم، وتتداخل خلاله الاختصاصات، ذلك هو موضوع: (العلاقات الثقافية بين مصر والأقاليم العربية الأخرى في القرنين الأولين الهجريين)، على أن يوضع في الحسبان التركيز على دراسة التاريخ الإسلامى في هذه الحِقْبَة.

وقد رأيت أن خير معالجة يمكن أن تتم لهذا الباب تتمثل في تقسيمه إلى أربعة فصول:

الفصل الأول - القراءات والتفسير:

أ) وقد بدأت بـ (القراءات)؛ لأن القرآن العظيم، وكيفية قراءته، والحرص على إقرائه الناس يأتي في مقدمة اهتمامات ذلك العصر. وقد عالجت من خلالها عدداً من الصحابة القراء في مصر، مثل: عُقْبَة بن عامر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، باعتبارهما ذَوَيْ تأثير علمى كبير في مصر وتاريخها وأحداثها. ثم عالجت عدداً من التابعين القُرّاء بها، مثل: أبى تَميم الجَيْشانى، وعبد الرحمن بن جُبَيْر المصرى.

ثم درست علاقة مدرسة مصر للقراءات مع كل من: مدرسة مكة، والمدينة، والشام باختصار شديد؛ لبيان أوجه التأثير والتأثر بينها في ذلك المجال. وقمت بعرض سريع لقراءتى: (نافع) و(وَرْش)، وتلاميذهما في مصر. وفى النهاية، عرضت للسمات العامة التى تتسم بها مدرسة القراءات في مصر في تلك الفترة.

ب) وثَنَّيت بـ (التفسير)، فعرضت لجهود الصحابة والتابعين المفسرين في مصر، وركزت على مرحلة التصنيف في ذلك العلم مبيناً علاقة :(عَطاء بن دينار الهُذَلى المصرى) بتفسير (سعيد بن جُبَيْر الكوفى)، وعلاقة (عبد الله بن وهب المصرى) بتفسير (عبد الرحمن بن زيد المدنى)، وتفسير (عبد الله بن صالح المصرى)، وعلاقته بتفسير: (عبد الله بن عباس المكى). وحرصت على بيان منهج كل تفسير من هذه التفاسير، ودور علماء مصر فيه. وأخيراً، ركزت السمات العامة لمدرسة التفسير في مصر في ق ٢٠١هـ.

ج) الفصل الثانى - الحديث النبوى الشريف:

وهو رافد من أهم روافد الثقافة في مصر، ودرست فيه قضية (تدوين الحديث النبوى)، وأهمية تلك القضية، ومراحل تدوينه التى مر بها في الدولة الإسلامية بعامة

على يَدَيْ: أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم الأنصارى، ومحمد بن شِهاب الزُّهْرى، مبيناً أخص الجهود التى بذلها العلماء في التصنيف الحديثى، والحفاظ على السنة المطهرة ضد أباطيل الوَضَّاعين والكذابين.

وعَرّجت على مدرسة الحديث في مصر الإسلامية، فأشرت إلى أبرز جهود الصحابة في ذلك المجال خاصة عبد الله بن عمرو، وأبا هريرة (ثم تناولت جهود العلماء من بعدهما، كأبى قبيل، ويزيد بن أبى حبيب، وعبيد الله ابن أبى جعفر، وذلك في سطور قليلة. ثم ركزت على أبرز من بعدهم ممن لهم بصمات واضحة على علمى الحديث والتاريخ من بعد، وهم: عبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب.

وأخيراً، قمت برصد سمات مدرسة الحديث في مصر الإسلامية في هذين القرنين رابطاً بينها وبين المدارس الأخرى باختصار.

د) الفصل الثالث - الفقه:

وقد أعطيت إلماحات مركزة عن الصحابة الفقهاء، كابن عمرو، وعقبة بن عامر، ومن بعدهم من التلاميذ، مثل: مَرْثَد اليَزَنِىّ، ويزيد بن أبى حبيب، وابن لهيعة، والليث بن سعد، وابن القاسم، وابن وهب، مبيناً بعضاً من فتاواهم، وصلاتهم بفقهاء المدارس الأخرى خاصة مالك بن أنس بالمدينة. وفى النهاية عرضت أهم سمات مدرسة الفقه في تلك الحقبة.

هـ) الفصل الرابع والأخير - اللغة والأدب:

تناولت اللغة في مصر في هذين القرنين، والصلات اللغوية القديمة بين العرب والمصريين، والاختلاط بين المسلمين والقبط بعد الفتح الإسلامى لمصر، ومراحل الصراع بين اللغتين: العربية والقبطية، وملاحظات عامة على اللغة في ذلك العصر.

و) **وأخيراً**، تناولت الأدب، وإسهام المسلمين في مجالَى النثر (رسائل، وخطب، ووصايا)، والشعر في كل من هذين القرنين، وعرضت لنماذج من شعراء تلك الفترة سواء كانوا وافدين، أم مستقرين. وفى النهاية، رصدت أهم سمات الأدب المصرى في هذين القرنين الأولين من الهجرة.

الفصل الأول

القراءات والتفسير

أولاً: القراءات

تكفل الله - ﷻ - بإرسال المرسلين إلى عباده، يدعونهم إلى الخير، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر. وقد أرسل خاتمهم محمداً ﷺ بالكتاب المعجز الخالد، الذى هيأ له البقاء على أيدى الناس أجمعين، فحفظه الصحابة الأجلاء في أيامه الأولى عندما دَوَّنوه، وحفظوه في الصدور في عهده ﷺ، وقاموا بجمعه في عهد خليفته أبى بكر الصديق ﷺ، ثم جُمع المسلمون على مصحف واحد في خلافة عثمان بن عفان ﷺ؛ اتقاء للفتن والخصومات والجدل حول كتاب الله (تعالى)، الذى هو المصدر الأول للتشريع الإسلامى. والآن، ما هى جهود الصحابة في إدخال القرآن إلى مصر؟ وعلى يد مَنْ تم إقراء المصريين إياه[1]؟ ثم ما هو دور التابعين، ومن بعدهم، فيما يسمى بالقراءات القرآنية؟ وأخيراً، ما طبيعة الصلات التى قامت بين مدرسة مصر في القراءات، وغيرها من المدارس الأخرى؟ الإجابة عن ذلك كله خلال السطور التالية:

أولاً: الصحابة القُرَّاء في مصر(*):

١- **عُقْبَة بن عامر الجُهَنى (ت ٥٨هـ)**: وهو صحابى جليل، زاهد، عالم مقرىء،

(١) أقصد بالمصريين: العرب الذين في مصر سواء كانوا قبطاً، ودخلوا مصر قبل الإسلام وأسلموا بعد الفتح، أم كانوا مشاركين في فتح مصر، وقدموا مع عمرو ابن العاص في جيشه، أم في المدد الذى جاء بعده، أو القبط الذين أسلموا في المراحل الأولى من الفتح وحسن إسلامهم، وأقبلوا على القرآن يتعلمونه، وإن كان هؤلاء قلة في تلك المرحلة المبكرة، ويحتاجون لتعلم العربية أولاً.

(*) ذكر الدكتور عبد الله خورشيد البرى في كتابه: (القرآن وعلومه في مصر) صـ٩٥: أن عبد الرحمن بن مُلْجَم المُرادىّ صحابى من القراء في مصر، وأنه اشتهر بعد قتله على بن أبى طالب (ت٤٠هـ). والحق أن هذا كلام غير مُسَلَّم به؛ لأن هذا المرادى لم يصح أنه من الصحابة. وقال فيه الإمام الذهبى في (ميزان الاعتدال) ٢/ ٥٩٢: ليس أهلاً أن يُرْوَى عنه، وما أظنه تكون له رواية. وقد =

ممن لازم النبى ﷺ، وتعلم منه قراءة القرآن بالمدينة[١]، وتتلمذ على عدد من الصحابة يأتى في مقدمتهم عمر بن الخطاب ﷺ. وقد تتلمذ عليه من الصحابة: أبو أُمامة، وابن عباس. ومن التابعين: ثُمامة بن شُفَىّ، وعبد الرحمن بن شِماسة، وعُلَىّ بن رَباح ومَرْثَد اليَزَنىّ، وغيرهم كثير في مصر.

وقد كانت لعقبة سابقة إلى الإسلام وهجرة، وكان للقرآن قارئاً، بل من أحسن الناس صوتاً بالقرآن[٢]، حتى قال له عمر: اعْرِضْ علىّ. فقرأ، فبكى عمر ﷺ[٣]. وكان عقبة أحد من جمع القرآن، وكان له مصحف خاص كتبه بيده[٤] دخل به مصر، ويبدو أنه كان يقرئ منه المصريين قبل أن يجتمعوا على مصحف الإمام.

٣- عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥هـ): وهو صحابى جليل، وأحد الذين حفظوا القرآن في حياة النبى ﷺ. وكان تَلاَّءً لكتاب الله. وورد عنه في رواية أنه جمع القرآن في ليلة واحدة، فطلب إليه الرسول ﷺ تلاوته في شهر، فأخبر الرسول أنه يقوى على أكثر من ذلك، فتدرَّج معه الرسول، حتى أوقفه عند سبع ليالٍ لا يُقرأ القرآن كله في أقل من ذلك[٥].

= رجعت إلى ما أحال عليه دكتور البرى في (مروج الذهب) للمسعودى، والنجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى، فلم أعثر على ما يفيد صحبته، أو إقراءه القرآن بمصر. كما أن السيوطى لم يذكره في (حسن المحاضرة) تحت (أئمة القراءات في مصر) ١/ ٤٨٥ وما بعدها، ولا في (الصحابة) مطلقاً (فى حرف العين ١/ ٢١٠-٢٢٥). وإذا كان الشئ بالشئ بذكر، فإنى أُنَبِّه إلى رجل كان صحابياً (عبد الرحمن بن عُدَيْس البَلَوى) قد يظن البعض أن وجود دار له بجوار المسجد الجامع بالفسطاط (فتوح مصر: ١٠٧-١٠٨) يجعله في عِداد العلماء والقراء في مصر. والحق أنه لم يؤثر عنه ذلك، بل المعلوم أنه خُتم له بسوء، وكان من المارقين ،الذين اشتركوا في قتل عثمان ﷺ. (الاستيعاب، لابن عبد البر: ٢/ ٨٤٠).

(١) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم صـ. ٢٩١ وقد أورد بسنده حديثاً عن عُلَىّ ابن رَباح قال: سمعت عقبة بن عامر قال: كنا في المسجد نتعلم القرآن، فدخل علينا رسول الله ﷺ، فسلّم علينا، فرددنا عليه السلام، فقال: " تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَاقْتَنُوهُ". وحسبتُ أنه قال: " وَتَغَنَّوا بِهِ. والذى نَفْسِى بيده، لَهُوَ أَشدُّ تَفَلُّتًا مِنَ المَخَاضِ (النُّوق الحَوامِل) فِى العُقُل " (جمع عِقال: الرباط تُعْقَل به الناقة). أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ١٤٦، ١٥٠، ١٥٣، والطبرانى في (المعجم الكبير) ١٧/ ٢٩٠-٢٩١، حديث ورد برقمى (٨٠٠، ٨٠١)، وأبو يَعْلَى في مسنده ٣/ ٢٨٠-٢٨١، والهَيْثَمِىّ في (مَجْمَع الزوائد) باب (تَعَاهُد القرآن) ٧/ ١٦٩، وعلَّق قائلاً: ورجال أحمد رجال الصحيح " صحيح الإسناد ".

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووى، قسم١ ج١ صـ٣٣٦.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢/ ٤٦٨.

(٤) تهذيب التهذيب (ط. دار الفكر) لابن حجر ٧/ ٢١٦.

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبى ٣/ ٨٣، والوفى بالوَفَيات للصفدى ١٧/ ٣٨١، وفضائل القرآن لابن كثير ١٦٩، وطبقات القراء لابن الجَزَرى ١/ ٤٣٩.

وقد صح - في رواية أخرى - أن النبى ﷺ نهاه عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث[١] . ويعلق الإمام الذهبى على ذلك بقوله: إن المحافظة على النوافل، والعلم النافع، والأمر بالمعروف وغير ذلك مفيد ومطلوب، إلى جانب ترتيل القرآن في سبع لَيالٍ - مثلاً - أثناء قيام الليل، فلا يطغى شئ على حساب جملة أشياء[٢] .

ونخرج من مجموع ما سبق - بخصوص ابن عمرو - بحقيقة مفادها: أن القرآن العظيم قد شغفه حبًا، ونتوقع وهو ممثل المدرسة العلمية في مصر الإسلامية أن يكون له باع كبير في إقراء المصريين القرآن، وتحفيظهم إياه في الفسطاط، وفى رباطه بالإسكندرية، وأثناء اشتراكه في الفتوح.

وهكذا، عرضنا - بإيجاز - لدور أبرز الصحابة في مصر في مجال القراءات، ويكمل هذا العرض الملاحظات الآتية:

١- أن الذين رادوا هذه المدرسة في المجال القرآنى صحابة ذوو إيمان وزهادة وعلم عظيم، وأنه لا دور لأولئك المزعومين كابن عديس ،وابن ملجم.

٢- أن لهؤلاء الصحابة مصاحفهم الخاصة بهم، تلك التى نقلوا ما فيها عن فم رسول ﷺ، وكانوا يقرئون الناس منها قبل ظهور مصحف عثمان بن عفان ﷺ، وأنهم بذلك أسسوا مدرسة القراءات الحرة في مصر.

٣- طور التابعون من بعدهم هذه المدرسة من خلال النظر في مصحف عثمان، الذى التزمه المسلمون بعد صدوره سنة ٣٠هـ، فنظر فيه هؤلاء، ورأوا خلوه من الضبط والنَّقْط، فدخلوا في مرحلة جديدة هى (مرحلة الاختيار)، وفيه تعددت أوجه القراءات، وامتدت تلك المرحلة حتى القرن الرابع الهجرى. وكانت القراءة تحظى بالقبول مادامت موافقة لرسم المصحف العثمانى، وصحيحة لغة ونحواً، وصح إسنادها إلى رسول الله ﷺ[٣] .

ثانياً - التابعون القراء في مصر: ومن أبرز هؤلاء ما يلى:

١) عبد الله بن مالك (أبو تَميم الجَيْشانىّ المصرى)[٤] :

وهو من أئمة التابعين في مصر، وممن شهد فتح مصر وهو من أصل يمانى، وولد

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ٣/ ٨٤، وطبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٤٣٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٨٤.

(٣) القرآن وعلومه في مصر، للدكتور البرى صـ١٦٦.

(٤) اعتمدت في ترجمته على: طبقات ابن سعد (ط. ليدن) جـ٧ قسم٢ صـ ٢٠٠، والكاشف للذهبى (ط. دار الكتب الحديثة) جـ٢ من مج١ صـ ١٢٢، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٤/ ٧٣-٧٤، والوافى بالوفيات للصفدى ١٧/ ٤١٨، وتهذيب التهذيب لابن حجر (ط. دار الفكر ١٩٨٤) ٥/ ٣٣٢ (ترجمة رقم ٦٤٩).

هو وأخوه سيف في حياة النبى ﷺ، وقدما إلى المدينة في خلافة عمر ابن الخطاب ﷺ. وقد تلقى القراءة على معاذ بن جبل ﷺ؛ بدليل قول أبى تميم: أقرأنى معاذ القرآن، حين بعثه النبى ﷺ إلى اليمن(١) . ومن المعلوم أن معاذاً تلقى القراءة على ابن مسعود بأمر من رسول الله ﷺ، حتى إذا أقرأه ابن مسعود ما معه من القرآن، توجه كلاهما إلى رسول الله ﷺ يقرئهما القرآن معاً. ولعل أبا تميم أفاد من قراءة معاذ، ونقلها إلى مصر.

ولم يكن معاذ بن جبل هو الأستاذ الأوحد لأبى تميم، فقد تتلمذ-كذلك - على أيدى عدد من الصحابة الآخرين، منهم: عمرو بن العاص، وعلى، وأبو ذر. وتتلمذ على يدى أبى تميم عدد من علماء مصر، منهم: مَرْثَد بن عبد الله اليَزَنِيّ، وبَكْر بن سَوادة، وجعفر بن ربيعة. وتوفى أبو نميم سنة ٧٧هـ.

٢) عبد الرحمن بن جُبَيْر المصرى(٢) :

وهو من التابعين ذوى المواهب والكفاءات العلمية المتعددة، حتى قال عنه ابن لهيعة: عالم بالفرائض (المواريث)، وكان ابن عمرو به معجباً. وكان - إلى جانب فقهه - عالماً بالقراءة، خاصة بعد شهوده فتح مصر، وأخذه عن عماليق القراءة بها، ونقله عن عدد من الصحابة، مثل: ابن عمرو، وعقبة بن عامر، وأبى الدرداء. ومن أبرز تلاميذه في مصر: بكر بن سوادة، ويزيد بن أبى حبيب. توفى سنة ٩٧، أو ٩٨هـ.

٣) جُعْثُل بن هاعان المصرى(٣) :

وهو من علماء القراءات في مدرسة مصر، وأحد تلاميذ أبى تميم الجيشانى، ولعله امتداد لقراءة معاذ بن جبل في اليمن، فقد نقلها - فيما يبدو - عن أبى تميم في مصر. وقد كان لجعثل دوره الطيب داخل مصر وخارجها، فتتلمذ على يديه في مصر عُبيد الله بن زَحْر الإفريقى، وبكر بن سوادة. ويظهر أن تفوقه في القراءات دفع عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى أن يوفده إلى المغرب لإقراء أهلها القرآن، فكان له أثره بينهم قارئاً وفقيهاً كذلك، بدليل تولية هشام بن عبد المالك له قضاء الجند بإفريقّية. وأخيراً، فقد كان جُعْثُل من ثقات العلماء في مصر، وتوفى في عهد هشام بن عبد الملك قريباً من سنة ١١٥هـ.

العلاقة مع مدرسة مكة للقراءات:

لم يكن أمر القراءات في مصر مقتصراً على صحابة دخلوها وأقاموا بها، وتابعين

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٧٤، والعلل ومعرفة الرجال، لأحمد بن حنبل (ط. تركيا) ١/ ٢٨٢.

(٢) اعتمدت في ترجمته على: تهذيب التهذيب، لابن حجر ٦/ ١٤٠ (رقم ٣١٥).

(٣) رياض النفوس، للماكى (ط.دار الغرب الإسلامى): ١/ ١١٤ (رقم ٣٧)، وتهذيب التهذيب (ط.دار الفكر) لابن حجر ٢/ ٦٨-٦٩.

تتلمذوا على أيديهم فنشروا قراءاتهم بين أهلها، وإنما مر بمصر بعض الصحابة، الذين يغلب على الظن أنهم قاموا بإقراء المصريين القرآن، كما دخل إلى مصر عدد من علماء القراءات في المدارس الأخرى، وعلى رأسها: مدرسة مكة، ممن كان لهم دور بارز في تنمية ودعم مدرسة القراءات فى مصر، ومن هؤلاء الأعلام المكيين ما يلى:

١- عبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ بالطائف)[(١)] :

وهو حبر هذه الأمة العظيم، ذو العلم النبوى الغزير ،الذى استقاه عن النبى ﷺ، وعن عدد من كبار صحابته كأبى بكر، وعثمان، وعلى، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل، وغيرهم. ورغم حداثة سن ابن عباس وصغره؛ إذ توفى الرسول ﷺ وهو ابن ١٣ سنة، إلا أن ذاكرته الحافظة، وعقليته الواعية جعلت صحابيًا كابن عمر يتتلمذ عليه. وخَلَّف من بعده عدداً من العلماء الذين نقلوا عنه القراءات وغيرها، مثل: عِكْرِمة، وعطاء، وطاووس، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهد، وغيرهم.

وقد دخل ابن عباس إلى مصر، وأقم بها بعض الوقت في خلافة عثمان ابن عفان (٢٣-٣٥هـ)[(٢)] ، ومر بها للغزو والجهاد مع جيشها في إفريقية سنة ٢٧هـ[(٣)] ، كما اشترك مع جيشها في غزو القُسْطَنْطِينيّة سنة ٤٩هـ[(٤)] . ومن الجائز جدّاً أن يكون جلس إلى المصريين أثناء ذلك فقرأ لهم القرآن، وأقرأهم.

٢- مجاهد بن جبر المكى (٢١-١٠٤هـ)[(٥)] :

وهو من أبرز تلاميذ ابن عباس الذين أفادوا منه، ويكفى أن أذكر أنه تلقى القرآن من فم ابن عباس، وعرضه عليه ثلاثين مرة[(٦)] ، وكفاه بذلك علماً وتبحراً ودقة نالها - عن قرب - من هذا الصحابى الجليل، ومن غيره من الصحابة كعلى، وسعد بن أبى وقاص. وتذكر الروايات أنه دخل مصر ما بين سنة ٦٠ إلى ٦٢هـ في عهد الوالى مَسْلَمة بن مُخَلَّد الصحابى المعروف، وصلى وراء مسلمة أمير مصر، الذى قرأ سورة البقرة كاملة بدقة متناهية، لم يترك فيها ألفاً ولا واواً[(٧)] . ولا شك أنه قام بدوره في تعليم المصريين تلاوة القرآن الكريم خلال هذه الفترة التى دخل فيها مصر.

٣- عِكْرِمَة مولى ابن عباس (ت ١٠٥هـ)[(٨)] :

(١) تهذيب التهذيب: ٥/ ٢٤٢-٢٤٤.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى (ط.دار التحرير) ١/ ٢١٤.

(٣) الإصابة لابن حجر ٤/ ١٤-١٤٢.

(٤) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١/ ١٣٥.

(٥) تهذيب التهذيب (ط.دار الفكر) لابن حجر ١٠/ ٣٨-٤٠.

(٦) المصدر السابق: ١٠/ ٣٩.

(٧) الولاة والقضاة للكندى ص٣٩-٤٠، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١/ ١٣٥.

(٨) تهذيب التهذيب لابن حجر ٧/ ٢٣٤ وما بعدها.

وأصله من البربر، وكان عبداً لحُصَيْن بن أبى الحُرّ، فوهبه لابن عباس لما ولى البصرة لعلى. وقد لازم عكرمة مولاه ابن عباس، وأخذ عنه علوماً شتى، منها: القراءات، والفقه، والتفسير. وقد ذكر ابن بُكَيْر أنه قدم إلى مصر وهو في طريقه إلى المغرب ،وكان أول من وضع هناك رأى الخوارج(١). وقد كان لعكرمة أثره في مدرسة مصر، ويكفى أن نذكر أن قارئ مصر المشهور(قُباث بن رُزَيْن ت ١٥٦هـ) كان تلميذاً له.وولى إمامة مسجد مصر بعد ذلك،وكان يقرئ الناس القرآن في المسجد الجامع(٢)، فلعله وصل ما بين مدرستى مصر ومكة في القراءات.

العلاقة مع مدرسة المدينة للقراءات:

ولم تقف صلة مصر في القراءات عند حدود مدرسة مكة فحسب وإنما تجاوزتها إلى مدرسة المدينة. ومن أبرز أعلامها الذين أتوا إلى مصر:

١- عُروة بن الزُّبَيْر (ت ٩٤هـ):

وهو من أعلام مدرسة المدينة في القراءات وغيرها، وتلقى علومه على أيدى أبويْه، والسيدة عائشة خالته، ونقل العلم لأبنائه ولغيرهم من العلماء كالزهرى وغيره(٣).وقد ورد أنه قدم إلى مصر،وأقام بها سبع سنين في الفترة ما بين ٥٨-٦٥هـ(٤)، وهى فرصة عريضة لنقل علمه بالقراءات إلى المصريين.

٢- عبد الرحمن بن هُرْمُز (الأعْرَج)(*):

وهو تابعى جليل من الملازمين للصحابى أبى هريرة ﷺ، فنقل إلى جانب حديثه، علمه بالقراءات(٥) ، كما حفظ ذلك عن ابن عباس وغيره من الصحابة

---

(١) المصدر السابق: ٧/ ٢٣٧، ٢٣٩. وقد أحسن ابن حجر فيه القول (صـ٢٤١)، فذكر أنه روى عنه زهاء ٣٠٠ رجل من البلدان الأخرى، فمنهم أكثر من سبعين رَجُلاً من خيار التابعين ورفعائهم، وهى منزلة لا تكاد توجد لدى كثير من التابعين. على أن من جَرّحه لقوله برأى الخوارج، لم يمسك عن التتلمذ عليه، والرواية عنه في الحديث وفى غيره. ورغم ذلك، فإن المصادر التى اتهمته بأنه خارجى كثيرة، منها: (طبقات ابن سعد (ط.دار التحرير) ٥/ ٢١٦، ومعجم الأدباء لياقوت ١٢/ ١٨٤، وطبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥١٥).

(٢) الكاشف للذهبى(ط.دار الكتب الحديثة)ج٢مج١صـ٣٩٥،وتهذيب التهذيب لابن حجر٨/٣٠٨ .

(٣) طبقات القراء، لابن الجزرى ١/ ٥١١.

(٤) فُتوح البُلْدان، للبلاذرى (ط.رضوان محمد رضوان) صـ٢١٩.

(*) اعتمدت في ترجمتى له على: تهذيب الأسماء واللغات للنووى، القسم الأول، الجزء الأول صـ٣٠٥-٣٠٦،ومعرفة القراء الكبار ١/ ٦٣-٦٤، والكاشف (ط.دار الكتب الحديثة ج٢ من مج١ صـ١٨٩-١٩٠،والعبر١/ ١١١، وسير أعلام النبلاء للذهبى٥/ ٦٩-٧٠،وطبقات القراء لابن الجزرى١/ ٣٨١،وتهذيب لابن حجر ٦/ ٢٦٠.

(٥) طبقات ابن سعد (ط.دار التحرير) ٥/ ٢٠٩.

الأجلاء[1] . وقد كان الأعرج إلى جانب تجويده القرآن يكتب المصاحف بيده، والطلاب يقرأون عليه[2] . وقد كان من الصالحين المتقين العابدين. وصف زمانه، فقال: أدركتُ الناس وهم يُصَلُّون بالبقرة في ثمانى ركعات، فإذا صُلِّى بها في اثنتى عشرة ركعة يرون الإمام قد خَفَّف[3] .

وقد زار الأعرج مصر، فنزل بالفسطاط أولاً، لكنه لم يمكث بها طويلاً، فسرعان ما خرج إلى الإسكندرية. يقول الليث: رأيته بمصر عند المنبر في المسجد الجامع، وقد سئل عن حروف القرآن، ولكنى لم أكن أعرفه، ولا أدرى من هو[4] . وعلى كل، فقد كان الرجل مغرماً بالجهاد والمرابطة في سبيل الله، فلم تمنعه سنه التى كانت قد قاربت الثمانين من الرحيل إلى الإسكندرية، وظل بها مرابطاً حتى وفاته عن عمر مبارك يُناهز السابعة والسبعين، وذلك سنة ١١٧هـ. ولعله - رحمه الله - كان يقرئ الناس في رباطه بالإسكندرية كما كان يفعل بالمدينة. ويكفى أن نعرف أن القارئ المدنى المشهور نافعاً أخذ عليه القراءة عَرْضاً، وهو الذى كان له تأثيره العميق في مدرسة القراءات في مصر، كما سنرى بعدُ.

العلاقة مع مدرسة الشام في القراءات:

ويمثل حلقة الوصل هذه رجل اختُلف في صحبته، وقيل: إنه تابعى، ألا وهو: عبد الرحمن بن غَنْم الأشعرى (ت ٧٨هـ)، حيث وضعه ابن سعد[5] فى الطبقة الأولى من تابعى أهل الشام. وذكر ابن عبد البر[6] أنه كان مسلماً على عهد رسول الله ﷺ، ولم يره.

هذا، وقد تتلمذ على أيدى كثير من الصحابة، مثل: عمر، وعثمان، وعلى، وأبى ذَرّ، وأبى الدَّرْداء، وغيرهم. لكن أبرز هؤلاء كان معاذ بن جبل؛ إذ لازمه حتى مات سنة ١٨هـ. ومن هنا فقد أخذ عنه قراءته، خاصة أن مصحف معاذ اشتهر بين أهل حمص ودمشق. ولا بد أنه سمع أبا الدَّرْدَاء (ت ٣٢هـ)، وهو مقرىء أهل الشام ومؤسس مدرستهم العلمية[7] . ولما كان له هذا الفضل والعلم، والجلال والسبق، اصطحبه مروان بن الحكم معه، لما قدم إلى مصر بجيوشه سنة ٦٥هـ، وقد أقام بها معه

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ٥/ ٦٩، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٦/ ٢٦٠.
(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٦٩.
(٣) طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٣٨١.
(٤) المعرفة والتاريخ، للفَسَوِىّ ٢/ ٤٤٢.
(٥) الطبقات (ط.دار التحرير) ٧/ ٢/ ١٥٢.
(٦) الاستيعاب، القسم الثانى، ص٨٥٠ رقم ١٤٤٩.
(٧) ترجم له فى: طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٦٠٦-٦٠٧.

شهرين[١] . ويذكر الدكتور البرى[٢] أنه لا يبعد أن يكون قد تحدث بشيء من قراءة الشام خلال تلك الفترة. والحق أنها فترة غير كافية، خاصة إذا عرفنا أنها كانت فترة فتن وحروب وصراع، وجولات في أقاليم مصر، ولا شك أنه اصطحبه فيها مروان؛ ليظهر أمام الناس أن بطانته من العلماء الأجلاء والتابعين الأخيار، إن لم يكونوا من الصحابة الأبرار. وعلى كل، فالرواية لا تذكر رجوعه مع مروان إلى الشام، فلعله أقام بمصر يقرئ أهلها القرآن.

قراءة نافع وأثرها في مصر (ت ١٦٩هـ):

تدخل مدرسة القراءات في مصر بعد ذلك طوراً جديداً من أطوار ازدهارها، إذ خرج عدد من جهابذتها إلى المدينة، لتلقى القرآن على أحد أعلام القراءات هناك، ألا وهو (نافع)، ذلك القارئ، الذى اختار لنفسه قراءة خاصة، ذات خصائص معينة، كُتب لها الذيوع والانتشار.

التعريف به[*]: هو نافع بن عبد الرحمن بن أبى نُعيم القارئ المدنى المعروف، الذى طبقت شهرته الآفاق. وهو من أصل أصبهانى، أخذ القراءة عرضاً على كبار التابعين بالمدينة. مثل: الأعرج. ويزيد بن رُومان (ت ١٢٠هـ)، وغيرهما. قال نافع: قرأت على سبعين من التابعين. وقال عنه الأَصْمَعِيّ: كان من القراء الفقهاء العباد. وقد كان الأصمعى من تلاميذه، وكذلك سعيد بن أبى مريم، والقارئ قالُون، والقَعْنَبِيّ، وآخرون. ولعل مما يبين عظيم مكانة هذا القارئ أن كبار المحدثين والفقهاء تلقوا على يديه، وعلى رأسهم: مالك بن أنس، والليث بن سعد، وابن وهب، وغيرهم.

تلاميذ نافع من المصريين:

١) الليث بن سعد (٩٣-١٧٥هـ):

وهو أحد أعلام المدرسة الدينية في مصر، ويبدو أنه التقى بنافع بالمدينة في رحلته الأولى إليها، وهو ابن عشرين ربيعاً سنة ١١٣هـ، وأخذ عليه القرآن عرضاً. ومن يومها والليث يقرأ بقراءة أهل المدينة[٣] ، التى قال عنها: أدركتُ أهل المدينة وهم يقولون: قراءة نافع سُنَّة[٤] .

(١) الولاة والقضاة، للكندى ص٤٨، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٦/ ٢٢٦.

(٢) القرآن وعلومه في مصر ١٦٩-١٧٠.

(*) اعتمدت ترجمتى له على: معرفة القراء الكبار للذهبى ١/ ٨٩، وطبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ٣٣٠-٣٣٤، وتهذيب التهذيب لابن حجر ١٠/ ٣٦٣-٣٦٤(رقم ٧٣٣).

(٣) صلى الليث بن سعد بأصحابه صلاة المغرب أثناء مرابطته بالإسكندرية، فقرأ بسورة الشمس، فقال في آخرها: " فَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا " كما يقرؤها أهل المدينة (طبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ٣٤).

(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر ١٠/ ٣٦٤.

٢) مُعَلَّى بن دِحْيَة المصرى:

يبدو أنه تلقى القرآن على الليث بعد عوده من المدينة، لكنه أراد أن يأخذ من المنبع ذاته، فسافر إلى المدينة؛ ليقرأ القرآن ويُجَوِّده على نافع. وقد ذكر أنه سافر بكتاب الليث إلى نافع يوصيه به خيراً، فإذا به يجد نافعاً يقرئ بكل القراءات، فطلب إليه المعلى أن يقرئه بحرفه ففعل[١]. وقد عاد بعد ذلك معلى، وتتلمذ على يديه كثيرون أهمهم: يونس بن عبد الأعلى (ت ٢٦٤هـ) الفقيه الشافعي المعروف، وأبو يعقوب الأزرق (يوسف بن عمر بن يَسار المدنى ثم المصرى) المُتَوَفَّى سنة ٢٤٠هـ، والذى لازم وَرْشًا طويلاً، وأتقن عليه الأداء[٢].

٣) عبد الله بن وهب (ت ١٩٧هـ):

وهو تلميذ مالك العظيم، وعَلَم مصر الأشْهَر. ولعله درس على نافع خلال رحلته الطويلة التى قضاها بالمدينة، من سنة ١٤٨هـ حتى وفاة مالك سنة ١٧٩هـ. وقد روى عنه يونس بن عبد الأعلى قوله: أقرأنى نافع بن أبى نعيم فهو قد أخذ القراءة عنه عرضاً، ورواها عنه عدد من علماء مصر، مثل: الإمام الثقة أحمد بن صالح المصرى (ت ٢٤٨هـ)، ويونس بن عبد الأعلى، وغيرهما[٣].

ولم تقف براعة ابن وهب عند حد القراءة، بل تميز بشئ جديد هو أنه نقل إلينا ما يفيد إدراكه طبيعة ترتيب سور القرآن الكريم، وذلك من صميم علوم القرآن. فقد أورد ابن وهب في (جامعه) أن عالم المدينة ربيعة الرأى (ت ١٣٦هـ) سُئل: لِمَ قُدِّمَتْ سورة البقرة، وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة، وإنما أُنزلتا بالمدينة؟! فقال ربيعة: قُدِّمَتا، وأُلِّف القرآن على عِلْم مِمَّنْ أَلَّفَه، وقد اجتمعوا على العلم بذلك، فهذا مما لا ننتهى إليه، ولا نُسأل عنه[٤]. وهذا يعنى أن ترتيب السور توقيفى من الله - ﷻ - ولا يجوز الخوض في هذا الشأن، فهو مالا يُجادَل فيه، ولا يُستفسَر عنه.

وإذا كان معظم من مضوا قد انتقلوا إلى المدينة، وتعلموا قراءة نافع، ولم يشتهر عنهم إقراؤهم المصريين بها؛ لغلبة الحديث والفقه عليهم، خاصة الليث بن سعد، وعبد الله بن وهب؛ فهناك من عاد إلى مصر، وجلس مجلس الأستاذية، وأقرأ طلاب العلم بقراءة نافع، ونافع لا يزال حيًا، ومن هؤلاء بخلاف معلى بن دحية ما يلى:

(١) معرفة القراء الكبار للذهبى ١/ ١٣٢-١٣٣، وطبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ٣٠٤.

(٢) معرفة القراء الكبار للذهبى ١/١٤٩-١٥٠. وقد بين الدكتور البرى في تعليقه بهامش ص١٨٨ من كتابه: (القرآن وعلومه في مصر) أن القراءة تعنى: الأصول العامة للأداء القرآنى، وأن الحروف هى: طريقة أداء كلمات مفردة بأعيانها.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ٩/ ٢٢٥، وطبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٤٦٣.

(٤) لم أجد هذا النص في المنشور الموجود من جامع ابن وهب، وإن كنت عثرت عليه - منقولاً عن جامع ابن وهب - في كتاب ابن عبد البَرّ (جامع بيان العلم وفضله) ٢/ ١٢٠.

١) عبد الرحمن بن مَيْسَرَة الحَضْرَمِيّ المصرى (١١٨-١٨٨هـ) (*):

وهو أول من أقرأ بمصر بحرف نافع، وكان تقيًا عفيفاً، واسع الاطلاع مُلِماً بعلوم عصره خاصة الحديث؛ إذ رواه عن أبى هانىء الخَوْلانيّ، وعُقَيْل ابن خالد. وتتلمذ عليه ابن وَهْب، وابن عُفَيْر، وابن بُكَيْر، وسواهم.

٢) سَقْلاب بن شَيْبَة المصرى (ت ١٩١هـ) (**):

قرأ القرآن على نافع بن أبى نُعَيْم، وكان يُقرئ مع وَرْش. وروى القراءة عنه يوسف بن عمرو المصرى، ويونس بن عبد الأعلى.

قراءة وَرْش (***):

صاحب هذه القراءة هو أبو سعيد عثمان بن سعيد بن عبد الله بن عمرو.وقيل: إن اسم جده عَدِيّ بن غَزْوان القِبْطِيّ الإفريقى مولى آل الزبير. فلعله كان عربيًا قبطى الأصل (نصرانيًا)، ممن أقام أجداده في مصر قبل مجئ الإسلام إليها، ثم أسلم أبوه، فنشأ مسلماً. ولد ١١٠هـ، وكان يعمل في تجارة الرقيق، ثم رفعه حسن صوته، وحبه للعلم إلى دراسة القرآن والنحو، حتى تهيأ له السفر إلى المدينة؛ لتلقى القرآن على نافع نفسه، وذلك بعد أن بلغ ورش ٤٥ سنة (سنة ١٥٥هـ).

توجه عثمان بن سعيد هذا مخترقاً الزحام الشديد، والصفوف المتلاحمة لطلاب العلم حول نافع، فجذب انتباه أستاذه إليه، وما ذاك إلا لأنه " جيد القراءة، حسن الصوت، إذا قرأ يَهْمِز وَيمُدّ ويُشَدِّد، ويُبيّن الإعراب، لا يَمَلُّه سامعه "[١] . وقد بلغ من إقبال نافع عليه، واحتفائه به، رغم تزاحم الطلاب حوله، أن استمع منه إلى عدة ختمات قرأها عثمان عليه، لعلها أربع في شهر واحد؛ مما يدل على جدية ومثابرة الطالب، ورحابة صدر الأستاذ، الذى من حبه له، ودُعابته معه لقّبه بوَرْش[٢] . هذا، وقد انتهت رئاسة مدرسة الإقراء في مصر إليه؛ إذ كان ثقة في الحروف حجة فيها،

(*) تهذيب التهذيب لابن حجر ٦/ ٢٥٤-٢٥٥ (رقم ٥٥٧). وقد ذكره رغم عدم رواية أصحاب الكتب الستة للحديث عنه؛ وذلك تمييزاً بينه وبين غيره من المشتركين معه في الاسم نفسه.

(**) معرفة القراء الكبار للذهبى ١/ ١٣٢، وطبقات القراء لابن الجزرى ١/٣٠٨-٣٠٩.

(***) اعتمدت في الترجمة له على: الثقات لابن حبان ٨/ ٤٥٢، ومعجم الأدباء لياقوت ١٢/١١٦-١٢١، ومعرفة القراء الكبار للذهبى ١/١٢٦-١٢٨، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٩/ ٢٩٥-٢٩٦، وطبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥٠٢-٥٠٣، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٤٨٥.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ٩/ ٢٩٦.

(٢) الوَرْش: لبن يُصْنَع. وسمى بذلك؛ لشدة بياضه، فقد كان أبيض أشقر أزرق، سميناً مربوعاً، يلبس ثياباً قِصاراً. ويقال: لَقَّبه وَرْشَان، وهو اسم طائر، ثم خُفِّف. وقد كان ورش يعتز بلقبه، ويقول: نافع أستاذى سَمَّانى به (المصدر السابق ٩/ ٢٩٥، والنجوم الزاهرة، لابن تَغْرِى بَرْدِى ٢/ ١٥٥-١٥٦).

قَصَرَ نفسه على قراءة القرآن، فلم يشغل نفسه بالدخول في غِمار الحديث مثلاً؛ ولذا قال الذهبى: لم نر له شيئاً في الحديث[١].

وهكذا، غدا ورش شيخ المرتلين في مصر؛ لما تمتع به من مواهب ومزايا في الصوت واللغة والنحو، إلى جانب شئ مهم جدّاً أدخل به مدرسة القراءات في مصر مرحلة جديدة على طريق التطور، فإنه لما تعمق في النحو وأحكمه، اتخذ لنفسه مما قرأ به على نافع مقرأ خاصاً، يسمى مقرأ ورش، خالف فيه نافعاً[٢]. وأخيراً، فقد نجحت قراءته بين المصريين نجاحاً عظيماً؛ مما يدل على موافقتها للمزاج اللغوى عندهم، وتناغمها مع الذوق الفنى لديهم، وهى - في النهاية - مثلت خروجاً من مرحلة التبعية لمدرسة المدينة، لتجد مدرسة مصر لنفسها شخصية علمية مستقلة[٣].

مدرسة ورش للقراءات:

ظل ورش يقرئ طلاب العلم الذين أقبلوا عليه من داخل مصر وخارجها، سواء كان مقيماً بالفسطاط، أم كان مرابطاً بالإسكندرية هناك، وذلك حتى وافته منيته بمصر سنة ١٩٧هـ. وإن كان ورش قد غادر دنيا الناس، فقد خَلّف بعده تلاميذ كثيرين، حملوا على أكتافهم لواء تلك المدرسة[٤].

ومن هؤلاء:

١ - داود بن أبى طيبة (ت ٢٢٣هـ) [*]:

مصرى الأصل، نحوى، قرأ على ورش، وهو من جِلّة أصحابه. كان ماهراً محققاً في الرواية. روى عنه ابنه عبد الرحمن (ت ٢٧٣هـ)، وغيره. ولعله كان أول المصريين تأليفاً في القراءات، فله كتاب اللامات (الذى يعالج فيه مواضع تغليظ اللام، وترقيقها في القرآن). والأقرب أنه قد اتبع منهج ورش في قراءته. ويعد هذا الكتاب أول تأليف مبكر في موضوعه سبقت به مصر الآخرين[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٩٦.
(٢) معرفة القراء الكبار للذهبى ١/ ١٢٧، وطبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥٠٢-٥٠٣، ٢/ ٤٠٢.
(٣) القرآن وعلومه في مصر للدكتور البرى صـ٢١٥.
(٤) لم تقف أهمية قراءة ورش عند مجرد وجود تلاميذ قاموا بنشرها والحفاظ عليها بعد موت مؤسسها، وإنما قامت دراسات عديدة دارت حول هذه القراءة، امتدت حتى القرن السادس الهجرى، منها: الكشف عن شرح رواية ورش من طريق أبى يعقوب الأزرق، وهو مخطوط من القرن السادس الهجرى، ورسالة ذكر ما بين قالون وورش من الخلاف لمؤلف مجهول من القرن السادس الهجرى أيضاً (تاريخ التراث العربى لسزكين ١/ ٢٢-٢٣).
(*) معرفة القراء الكبار للذهبى ١/ ١٥١.
(٥) القرآن وعلومه في مصر للدكتور البرى صـ٢١٧.

٢- عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم (ت ٢٣١هـ) (*):

صحب مالكاً كأبيه، وعُنى بالقراءة على معلى بن دحية، ثم ورش. واهتم بأخذ القراءة عن ورش عرضاً، بل نسخ منها نسخة. ولعله أول مقرئ بحث في القراءة المقارنة، إذ ورد أنه جمع مصنفاً عن قراءة نافع وحمزة، وما وقع من الاختلاف بينهما.

٣- يوسف بن عمرو بن يسار المدنى (ت حوالى ٢٤٠هـ):

هو أبو يعقوب الأزرق، قرأ على ورش عشرين ختمة تحقيقاً وحَذْراً فى الفسطاط والإسكندرية (أى: قراءة متأنية حيث الإقامة الهادئة بالفسطاط، وقراءة سريعة حيث ظروف الرباط والحراسة والترقب بالإسكندرية).لقد أتقن يوسف بن عمرو الأداء القرآنى، وجلس في ثقة يقرئ الآخرين، فقد كان ضابطاً محققاً، مكنته علومه وكفاءاته من تزعم مدرسة ورش من بعده. ولم لا ؟! وقد نقل هو ويونس بن عبد الأعلى دقائق الأداء القرآنى عن ورش مما انفردا بروايته عنه دون غيرهما، مثل :تغليظ اللامات، وترقيق الراءات[١].

سمات مدرسة القراءات في مصر:

١- شخصية القارئ المصرى ومكانته في المجتمع:

تميز قراء مصر منذ عهد الصحابة (رضوان الله عليهم) بأنهم يتصفون بالعبادة والزهد والعلم والفقه ورواية الحديث، وينضاف إلى ذلك أنهم - في معظمهم - يتسمون بالإيجابية والقدرة على المشاركة والإسهام في أحداث المجتمع، إلى جانب تمتع بعضهم بالثراء المادى، والوجاهة الاجتماعية، وتولى المناصب الحكومية المهمة. فقد كان عبد الله بن عمرو، وعقبة بن عامر يتمتعان بكثير من الصفات سالفة الذكر، وهما على رأس القراء في مصر. فقد كان ابن عمرو ثرياً عالماً، له مكانته في المجتمع المصرى. وكان عقبة فقيه أهل مصر ومفتيهم الذى يلجئون إليه في الملمات[٢] ، وكان الليث بن سعد ذا نفوذ يفوق الوالى والقاضى. ولا ننسى أن ورشاً كان يعمل كاتباً لقاضى مصر عبد الملك بن محمد الأنصارى (١٧٠-١٧٤هـ)[٣] . ولم يقف الأمر عند رموز مدرسة القراءات في مصر، بل تجاوز ذلك إلى عامة القراء الآخرين، الذين يشاركون في الثورات خلال القرن الثانى الهجرى،

(*) ترجم له: الذهبى في طبقات القراء (معرفة القراء الكبار) ١/ ١٥٠-١٥١، وطبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٢٣، ٣٨٩.

(١) طبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ٤٠٢.

(٢) وقد ولى عقبة حكم مصر من سنة ٤٤ إلى سنة ٤٧هـ.

(٣) كتاب الولاة والقضاة للكندى صـ٣٨٤، والكواكب السيارة لابن الزيات صـ١٩١، (ولكنه جعل اسم القاضى عبد الحكم، على سبيل التحريف).

ضد ما يرونه عَسْفاً واضطهاداً[(١)].

٢- المراحل التى مرت بها مدرسة القراءات في مصر:

من المعلوم أن المدرسة المصرية للقراءات مرت بمراحل ثلاث هى:

أ- مرحلة القراءة الحرة:

إذ كانوا يأخذون القراءة عن أكثر من صحابى ممن نزلوا مصر، وكانت لهم مصاحفهم الخاصة، التى أقرأهم إياها رسول الله ﷺ. وكان على رأس هؤلاء: ابن عمرو، وعقبة بن عامر. ولا شك أن قراءة ابن عمرو كانت الغالبة فهو مؤسس مدرستهم، وأكثر الصحابة إقامة واستقراراً في مصر.

ب- مرحلة الاختيار:

وتمثلت في رحيل عدد من علماء مصر إلى المدينة كالليث، وابن وهب، وغيرهما. فتلقوا على يد نافع، واختاروا قراءته، ونشروها في مصر دون سواها.

جـ- مرحلة الاستقلال:

وكانت على يد ورش، الذى جعل لمدرسة مصر مكانتها وشخصيتها الخاصة بها فانتشرت قراءته داخل مصر وخارجها على أيدى علماء مصريين، تولوا أمرها بعد رحيل ورش، وكانت لهم - كما رأينا - ريادتهم وتآليفهم التى سبقوا بها المدارس الأخرى في مجال القراءات.

٣- علاقة مصر بالمدارس الأخرى:

رأينا - سلفاً - صلات مدرسة مصر بمكة عن طريق ابن عباس، وتلميذيه: عكرمة، ومجاهد. وكذلك لمسنا علاقاتها بالشام عن طريق عبد الرحمن بن غنم الأشعرى. والملاحظ أن صلات مصر بالمدينة ورحلات المدنيين إلى مصر والعكس لم تنقطع؛ لقرب المسافة من جهة، ولمكانة المدينة وغزارة وكثرة علمائها من جهة أخرى، وهو الحال في مختلف فروع الثقافة، كما سنرى بعد ذلك.

والحق أنه رغم وجود عبد الله بن عامر مقرئ الشام، لم يأخذ المصريون عنه، واكتفوا بابن غَنْم وما نقله إليهم من قراءة معاذ، وأبى الدرداء؛ ولذلك فاتهم الأخذ عن العراق، وله علماؤه في القراءات من أمثال: الحسن البصرى، وعاصم، والأعمش، وأبى عمرو بن العلاء، وغيرهم[(٢)].

---

(١) وكانت آخر ثورات القراء واحتجاجاتهم في القرن الثانى الهجرى ضد القاضى عبد الرحمن العُمَرى (١٨٥-١٩٤هـ)، حين وشكلوا وفداً منهم؛ للقاء هارون الرشيد، حيث بيّنوا مظالم وانحراف هذا القاضى، وطالبوا بعزله. لكن الخليفة تجاهلهم وصرفهم، ولم يستجب لهم (الولاة والقضاة للكندى صـ٤١٠).

(٢) القرآن وعلومه في مصر للدكتور البرى صـ١٩٤.

إلا أن ذلك لا يعنى انفصام عرى الاتصال مع العراق، فهناك (يحيى ابن سَلاَّم البصرى)، وهو إمام عَلاَّمة، نَزيل إفريقية، أخذ القراءات عن أصحاب الحسن البصرى، وجمع وصَنَّف، وأتى إلى مصر بعد أن حج، وأقام بها حتى توفى سنة ٢٠٠هـ عن عمر يناهز ستة وسبعين عاماً. وكانت إقامته في مصر مثمرة، فعلمه دفع ابن وهب إلى الرواية عنه، وهما متعاصران.

وبناء على ما تقدم، فلعله كان همزة الوصل بين مدرستى مصر والعراق في مجال القراءات، خاصة أن له كتاب (الجامع)، الذى ربما ضَمَّنه علمه بالكتاب والسنة والعربية[١]. إلا أننى أعود، فأقول: إن الصلات مع الشام والعراق لا تُقاس بصلات مصر مع المدينة.

٤- أنه قد وردت عن مدرسة مصر قراءة لبعض الحروف، انفردت بها مدرستها، وحكم عليها بالشذوذ؛ لمخالفتها قواعد العربية، وصحة الرسم العثمانى، مثل ﴿متكئين على رَفارِفٍ خُضْرٍ وعَبَاقِرِىِّ حِسَانٍ﴾ وفى قوله (تعالى): ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦﴾[٢]. وكذا قراءة: ﴿يالذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ في قوله (تعالى): ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾[٣].

٥- أن علماء القراءات لم يكونوا بالفسطاط والإسكندرية وحدهما، بل انتشر القراء في كافة أقاليم مصر، وإن لم تُسلَّط الأضواء عليهم، كما سُلِّطت على قراء المدن الكبرى. فمثلاً: هناك أبو سلامة زياد بن يونس الحضرمى بالإسكندرية (ت ٢١١هـ)، وخالد بن نِزار في أَيْلة (بالزاوية الشمالية الشرقية من خليج العقبة)، وعامر بن سعيد بالدلتا، والقارئ الجِيزى أبو الأشعث، وغيرهم[٤].

ثانياً - التفسير

اهتم الصحابة (رضوان الله عليهم) في المقام الأول بكيفية قراءة كتاب الله (تعالى)، ثم أعقبوا ذلك بمحاولة تفسير القرآن العظيم، ومعرفة مقاصد آي الذكر الحكيم؛ كى يتسنى لهم الفهم، ومن ثم العمل.

ولم يُؤْثَر عن النبى ﷺ أنه فسر القرآن كله، آية بعد آية، ولعله لم يفعل ذلك؛ لئلا يلتزم المسلمون بمعنى واحد حرفى لآيات القرآن المجيد، فالقرآن عطاؤه لا يَنْفَد،

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبى ٩/ ٣٩٦-٣٩٧.

(٢) سورة الرحمن: آية ٧٦. وقد عرض ذلك الشذوذ تفصيلاً الدكتور البرى في (القرآن وعلومه في مصر) صـ١٧٤-١٨٣.

(٣) سورة محمد: الآية الأولى. وقد أورد القراءة الشاذة في هذه الآية ابن عبد الحكم في (فتوح مصر وأخبارها) صـ٣١٤. وأدار الدكتور البرى نقاشاً طويلاً حول مدى صحة هذه القراءة، وتحديد موضعها في القرآن، وذلك في كتاب: (القرآن وعلومه في مصر) صـ١٤٩-١٥٠.

(٤) ذكر ذلك بشئ من التفصيل الدكتور البرى في كتابه (القرآن وعلومه في مصر) صـ٢٥٦-٢٦٣.

وجِدَّتُه لاتَبْلَى، وكل قوم في كل آن ومكان يَنْهَلُون من مورده الجديدَ والجديد، مما لم تدركه العصور السالفة[١] . لكن ذلك لا ينفى أن رسول الله ﷺ قد فسر بعض الآيات، التى سئل عنها بواسطة الصحابة، أو التى فسرها هو لهم دون سؤال.

أولاً - التفسير في عهد الصحابة:

وتلك هى المرحلة الأولى من المراحل التى مر بها، ويمكن إبرازها على النحو الآتى:

١- تفاسير نبوية على هيئة روايات حديثيه متفرقة، رويت في مناسبات معينة:

أ- ذكر ابن عبد الحكم في كتابه[٢] بسنده إلى أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في قوله (تعالى): ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٣]، قال: "هم الذين يضربون في الأرض، يبتغون من فضل الله"[٤] .

ب- وذكر الطبرى في تفسيره[٥] بسنده إلى عقبة بن عامر الصحابى، أنه تلا على المنبر قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[٦]، ثم قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ثلاثاً[٧] .

---

(١) ومما يمكن إضافته إلى ما مضى من أسباب عدم تفسير الرسول للقرآن كله ما ذكره بعض الباحثين، من أن الصحابة كان لديهم تصور عام لمعنى آيات القرآن خاصة ما أشكل عليهم فهمه وفسره لهم الرسول، فلم يكونوا بحاجة لتفسير آيات القرآن كاملة، كما هو الحال بالنسبة لنا اليوم. كما أن انشغالهم بالجهاد والغزوات أيام الرسول، ثم بالفتوح من بعده لم يترك للرسول ولا لهم فرصة للتبحر في تفسير القرآن كاملاً. (الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبى شهبة صـ٧٠-٧١).

(٢) فتوح مصر وأخبارها صـ٢٨١.

(٣) سورة النور: جزء من الآية ٣٧.

(٤) أخرجه السيوطى في تفسيره (الدُّرّ المنثور) ٥/ ٥٢، وقال: أخرجه ابن أبى حاتم، وابن مَرْدَوَيْه، عن أبى هريرة بنصه.

(٥) تفسير الطبرى (ط.أحمد محمد شاكر) ١٤/ ٣٢ (أثر رقم ١٦٢٢٥).

(٦) سورة الأنفال: جزء من الآية ٦٠.

(٧) وقد ذكر الطبرى في (تفسيره) ١٤/ ٣٧: أن الرمى المذكور في الحديث هو أحد وسائل القوة المستخدمة ضد أعداء الله والدين. إلا أن الطبرى ضَعَّفَ سند هذه الرواية؛ لوجود عبد الله بن لهيعة به. والحق أن هذا السند يقويه ويدعمه طرق أخرى ورد بها الحديث بالمعنى نفسه، فصح بذلك سنداً ومتناً. وممن أخرجه بطريقة صحيحة: الإمام مسلم في (صحيحه) في كتاب (الإمارة) باب (فضل الرمى والحث عليه) ٣/ ١٥٢٢ (رقم ١٩١٧)، وابن ماجة في (سننه) كتاب (الجهاد) باب (الرمى في سبيل الله) ٢/ ٩٤٠ (رقم ٢٨١٣)، والحاكم في (مستدركه) في كتاب (التفسير) باب (تفسير سورة الأنفال) ٢/ ٣٢٨، وصححه الإمام الذهبى .

٢- تفاسير ذاتية للصحابة:

وفيها يجتهد الصحابى في إدراك معنى الآية، مستعيناً على ذلك بحسن فهمه عن رسول الله ﷺ، وطول ملازمته ومصاحبته إياه، بحيث لا يصطدم تفسير الصحابى مع توجيهات الإسلام. ومن أمثله ذلك:

أ- ما أورده الطبرى[١] بسنده إلى عبد الله بن عمرو حول تفسير قوله (تعالى): ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾[٢]. قال ابن عمرو: يعنى: يُهْدَم عنه (أى: عن المجروح الذى عفا عمن جرحه) مثلُ ذلك من ذنوبه.

ب- وعن قوله (تعالى): ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[٣]، قال عقبة بن عامر: كثير الذكر لله[٤].

ويؤكد صحة هذا التأويل الذى ذكره الصحابى عقبة بن عامر ما أورده ابن عبد الحكم[٥] بسنده من أن الرسول ﷺ قاله لرجل يقال له: ذو البِجادَيْن[٦]؛ لرفع صوته بالذكر والدعاء، وكثرة ذلك منه[٧].

---

(١) تفسير الطبرى (ط.أحمد شاكر): ١٠/ ٣٦٢ (رقم ١٢٠٧٣).

(٢) بداية الآية: " وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ .." سورة المائدة: جزء من الآية ٤٥.

(٣) سورة التوبة: ذيل الآية ١١٤.

(٤) تفسير الطَّبَرِىّ (ط.أحمد شاكر) ١٤/ ٥٣٣ (رقم ١٧٤١٨).

(٥) فتوح مصر وأخبارها صـ٢٩١.

(٦) البِجاد: الكِساء المُخَطَّط. وذو البجادين صحابى من صحابة رسول الله ﷺ، ذكروا أنه لما أسلم جَرَّدَه عمه، وكان وصياً عليه، من كل شئ، فشقّتْ له أمه بِجاداً إزاراً ورداء. ويقال: بل وضع على عورته بجاداً من شَعْر، ولحق بالرسول آخذاً زمام ناقته. ويذكر ابن منظور في (لسان العرب) مادة (بجد) - ط.دار المعارف - ١/ ٢١١: أنه كان دليل رسول الله ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة. والحقيقة أن هذا كلام غير مسلم به؛ إذ لم يذكره ابن هشام في سيرته، والمعروف والمتواتر أن دليل الرسول في هجرته هو عبد الله بن أُرَيْقِط الكافر المُسْتَأجر. (وترجم لهذا الصحابى: ابن عبد البر في (الاستيعاب) تحت اسم (عبد الله ذى البجادين المُزَنِىّ)، القسم الثالث صـ١٠٠٣، رقم ١٦٩٢، وابن الأثير في (أسْد الغابة) تحت الاسم نفسه جـ ٣/ ٢٢٧-٢٢٨، رقم(٢٩٢٨)، وابن حَجَر في (الإصابة) تحت اسم (عبد الله بن عبد نهم المزنى) ٤/ ١٦١-١٦٣ رقم (٤٨٠٧ز).

(٧) أخرج هذا الحديث أحمد في (مسنده) ٤/ ١٥٩، والبَيْهَقِىّ في (الجامع لشُعَب الإيمان)، فصل (فى إدامة ذكر الله ﷻ) ٢/ ٤٧٢-٤٧٣ (رقم ٥٧٥)، والطبرانى في (المعجم الكبير) ١٧/ ٢٩٥ (رقم ٨١٣)، والحاكم في (مستدركه) كتاب الجنائز ١/ ٣٦٨ (وإن جعله عن الصحابى جابر بن عبد الله، وبه زيادة: أنهم رأوا في قبره ناراً بعد موته، لرفعه صوته بالذكر. وسكت الذهبى ولم يعلق عليه). وأخيراً، أورده الهيثمى في (مجمع الزوائد) باب (ما جاء في عبد الله بن أبى البجادين) ٩/ ٣٦٩، وقال: رواه أحمد والطبرانى، وإسنادهما حسن.

ثانياً - التفسير في عهد التابعين:

بعد أن كان التفسير في المرحلة السابقة على هيئة مرويات حديثية متناثرة، ومحاولات جزئية متفرقة، دخل التفسير بعد ذلك في مرحلة منظمة هدفها التفسير ذاته. وقد أدخل مصر في المرحلة اثنان من أنبغ تلاميذ مدرسة ابن عباس في التفسير هما:

١- عِكْرِمَة مولى ابن عباس:

وقد كانت له مكانة طيبة عند مولاه ابن عباس، إذ نقل عنه القرآن والسنن[(١)]، وإلى جانب ذلك حباه ابن عباس علم التفسير. ولذلك كان سعيد بن جُبير، ومجاهد بن جبر يلقيان على عكرمة تساؤلاتهما في التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما. فلما فرغ ما لديهما، جعل يزيدهما مما معه من أسباب النزول، فيقول: أُنزلت آية كذا في كذا، وأُنزلت آية كذا في كذا[(٢)].

وقد شهد لعكرمة علماء عصره-ومن بعدهم-بالمكانة السامية في علم التفسير. فالحسن البصرى كان يعرف له قدره وتفوقه في ذلك العلم؛ ولذلك كان يتحرج من مواصلة التفسير عند دخول عكرمة إلى البصرة[(٣)]. كما أن سفيان الثورى نصح بأن يؤخذ التفسير عن أربعة، وعَدّ منهم عكرمة[(٤)].

وبناء على ما تقدم، فإننى أعتقد أن المصدر الأساسى - وربما الأوحد - لتفسير عكرمة هو الصحابى ابن عباس، الذى مدحه ابن مسعود بقوله: نعم ترجمان القرآن ابن عباس[(٥)]. وخير دليل على ذلك ما ذكره السيوطى من قول عكرمة: كل شئ أحدّثكم في القرآن فهو عن ابن عباس[(٦)].

ومن المعلوم أن هذا الحبر مر بمصر أواسط القرن الأول الهجرى، وهو في طريقه إلى المغرب، وروى عن عقبة بن عامر، وابن عمرو. وروى عنه يزيد بن أبى حبيب، وغيره. وقد نقل الطبرى في تفسيره[(٧)] بعض روايات نقلها العلماء المصريون عنه في

(١) طبقات ابن سعد (ط.دار التحرير) ٥/ ٢١٢، وطبقات المفسرين للداودى ١/ ٣٨٠.
(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ٧/ ٢٣٦.
(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر: ٧/ ٢٣٦.
(٤) المصدر السابق: ٧/ ٢٣٦.
(٥) السابق ٥/ ٢٤٣.
(٦) الإتقان في علوم القرآن ٤/ ٢١١.
(٧) من ذلك مثلاً: تفسير قوله(تعالى): " وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً "، وقال: السبيل هو: الصحة. (الآية ٩٧ من سورة آل عمران، بالجزء الرابع من القرآن، مج ٣ صـ١٨ (ط.دار الفكر). وكذلك تفسير الآيات أرقام ٩٠-٩٣ من سورة (الإسراء) بالجزء الخامس عشر من القرآن، مج٩ صـ١٦٤، بالطبعة نفسها. وكذلك تفسير الآيتين ١-٢ من سورة الكهف، بالجزء الخامس عشر من القرآن، مج٩ صـ٩١، بالطبعة نفسها.

التفسير، فلعلها من بقايا تفسيره، الذى ربما لم يشتهر بين المصريين؛ لشبهة اتهامه بأنه من الخوارج.

٢- مجاهد بن جبر المكى (*):

وهو من أنجب تلاميذ ابن عباس، ولا يقل عن عكرمة شأناً وعلماً. ويقول مجاهد: قرأت على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله: فيم نزلت؟ وكيف كانت؟[١]. ولذا ورد أن أصح وجوه التفسير قديماً هو ما جاء عن طريق مجاهد، وأنه إذا جاءك التفسير عن مجاهد، فَحَسْبُكَ به[٢].

هذا، وقد نزل مجاهد مصر - كما سبق أن ذكرت - فيما بين سنتى ٦٠-٦٢هـ، فروى عن مسلمة بن مخلد الصحابى، وكتب عنه من المصريين جعفر بن ربيعة الكِنْدِىّ (ت ١٣٦هـ) في تفسير قوله (تعالى): " صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ "[٣]. قال مجاهد: الصبغة هو الفِطْرة[٤]. ويضيف الدكتور البرى[٥] أن عبد الله بن وهب المصرى أفاد بعد ذلك من بعض مرويات مجاهد في تفسيره، وأن ذلك ورد في بعض روايات تفسير العَلاَّمة الطبرى[٦].

ثالثاً - مرحلة التصنيف:

بعد أن قام التابعون - ومن قبلهم الصحابة في مصر - بتأصيل جذور المدرسة المصرية للتفسير، دخلت مدارس التفسير مرحلة جديدة تمثلت في وضع مصنفات في تفسير القرآن الكريم، قام علماء مصر بحفظها من الضياع، ونقلها عن مفسرى المدارس الأخرى.

ومن أبرز مَنْ أسهموا في حفظ ذلك التراث التفسيرى من الضياع العلماء المصريون الآتى ذكرهم:

١) عَطاء بن دينار الهُذَلىّ المصرى (ت ١٢٦هـ) (**):

هو محدث ومفسر مصرى تتلمذ على أيدى عدد من الأساتيذ من أمثال: شُفَىّ بن

(*) ترجم له: ابن حجر في (تهذيب التهذيب) ١٠/ ٣٨-٤٠، والداودى في (طبقات المفسرين) ٢/ ٣٠٥-٣٠٨.

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ١٠/ ٤٠، والإتقان في علوم القرآن للسيوطى ٤/ ٢١٠.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢١٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

(٤) تفسير الطبرى (ط.أحمد شاكر) ٣/ ١١٩.

(٥) القرآن وعلومه في مصر صـ٢٧٩.

(٦) كما ورد - مثلاً - في تفسير سورة الجمعة: الآية ٢، ٤ (الجزء الثامن والعشرون من القرآن صـ٩٤-٩٥، من طبعة دار الفكر).

(**) ترجم له ابن حجر في (تهذيب التهذيب) ٧/ ١٧٩ (رقم ٣٨٣).

مَاتِع الأصْبَحِىّ، وحكم بن شريك الهذلى، وعامر بن سعد التُّجِيبىّ، وغيرهم. وتتلمذ على يديه: عمرو بن الحارث، وسعيد بن أبى أيوب، وحَيْوَة ابن شُرَيْح، وابن لَهِيعة، وآخرون. وقد وثقه العلماء، وتلقوا عنه مروياته بالقبول.ومن هؤلاء: الإمام أحمد بن حنبل، وأبو داود، وأحمد بن صالح المصرى.

علاقته بالمفسر سعيد بن جُبَيْر الكوفى (*):

أ- كان ابن جبير من أعلم التابعين في علم التفسير، وكان طلاب العلم يقبلون عليه ويأخذون منه تفسيره[1]، فذاع صيته، وبزغ نجمه بين العلماء حتى إن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) طلب إليه أن يضع له تفسيراً شاملاً للقرآن الكريم. ويبدو أن ذلك الأمر حدث قبل ثورة ابن جبير على عبد الملك، وانضمامه إلى عبد الرحمن بن الأشعث في فتنته (٨١-٨٣هـ). والمهم أن ابن جبير ألَّف ذلك التفسير، الذى لا نعلم بالتحديد زمان الانتهاء من تأليفه، ولا مدى إفادة الخليفة منه ولا اطلاعه عليه، لكن الشئ المؤكد أنه تم عمله، وكان موجوداً داخل القصر الأموى في ديوان الأمويين، وأن عطاء ابن دينار المصرى تمكن - بطريقة ما - من العثور عليه، وقام بروايته عن سعيد ابن جبير مُؤَلِّفه الأصلى[2].

ب- من الثابت - كما يذكر أحمد بن صالح المصرى - أن عطاء بن دينار من ثقات المصريين، وأن التفسير الذى رواه أخذه عن سعيد بن جبير صحيفة، وليس هناك ما يدل على أنه سمعه من ابن جبير[3]. وهذا يعنى: أنه نقله من صحيفة تفسير ابن جبير، فأخذه وِجادة[4] دون أن يسمع منه شيئاً على ابن جبير، أو يجيز له روايته عنه. وتُقبل رواية عطاء، عن سعيد بن جُبير وِجادة، ما دام عطاء ثقة. ولا بد أن عطاء تأكد وتيقن صحة نسبة هذا التفسير إلى ابن جبير. وقد لخص لنا السيوطى[5]- نقلاً عن

(*) هو أحد الأئمة التابعين الثقات الفقهاء المفسرين العابدين. روى عن ابن عباس، وابن عمر، وأبى سعيد الخُدْرِىّ، وأبى هريرة، وأبى موسى الأشعرى، وعائشة، وغيرهم. وروى عنه: منصور بن المُعْتَمِر، وأبو إسحاق السَّبيعى، والمِنْهال بن عمرو، وغيرهم. كتب لعبد الله بن عُتْبَة بن مسعود وهو على قضاء الكوفة، ثم كتب لأبى بردة بن أبى موسى الأشعرى، ثم خرج مع ابن الأشعث في جملة القراء والمفسرين، فهرب إلى مكة بعد هزيمة ابن الأَشْعَث، لكن رجال خالد القَسْرىّ قبضوا عليه، فقتله الحَجَّاج سنة ٩٥هـ عن ٤٩ سنة. ومات الحجاج بعده بأيام. (طبقات ابن سعد، ط.دار التحرير) ٦/ ١٨٣، ١٨٦، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٤/ ١١-١٢).

(١) الإتقان، للسيوطى ٤/ ٢١١.

(٢) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم في (ترجمة عطاء بن دينار) ٣/ ١/ ٣٣٢.

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر ٧/ ١٧٩.

(٤) وتعنى: رواية الراوى كتاباً وجده لأحد العلماء دون أن يسمعه منه، وذلك لا يجوز في عرف المحدِّثين إلا إذا كان الراوى ثقة.

(٥) الإتقان ٤/ ٢٠٨.

الخليلي-[(١)] هذه القضية في كلمات واضحات محددات، إذ قال: " تفسير عطاء بن دينار يُكتب، ويُحتج به ".

١ - منهج سعيد بن جبير في التفسير:

قبل التعرض لمنهج هذا المفسر أحب أن أطرح سؤالاً مفاده: هل بقى من تفسير ابن جبير من شئ بين أيدينا اليوم؟ والجواب كالآتى:

١- لم يسجل الطبرى في تفسيره سوى روايات قليلة جدّاً من هذا التفسير، لا تصلح لإعطاء فكرة ذات قيمة عنه[(٢)] . ولعل مما يؤيد ذلك قول العلامة سزكين: إن هذا التفسير ربما كان لطيف الحجم، وإن الطبرى أفاد منه بالإسناد الآتى: أحمد بن عبد الرحيم البرقى، عن سعيد بن أبى مريم، عن ابن لهيعة، عن عطاء بن دينار. كما أفاد منه الثعلبى في (الكشف والبيان)[(٣)] .

٢- لحسن الحظ أن المحدث المفسر عبد الرحمن بن أبى حاتم (ت ٣٢٧هـ)، الذى جاء إلى مصر مرتين: الأولى - مع والده المحدث الكبير (أبى حاتم الرازى المتوفى ٢٧٧هـ)، والثانية - وحده سنة ٢٦٢هـ[(٤)] . لقد سمع هذا التفسير من المحدِّث أبى زُرْعَة الرَّازِىّ (ت ٢٦٤هـ)، والذى كان قد تلقّاه بدوره على محدّث مصر يحيى بن عبد الله بن بكير (ت ٢٣١هـ)، والذى كان قد نقله بدوره عن ابن لهيعة (ت ١٧٤هـ)، الذى حدّث به عن عطاء بن دينار (ت ١٢٦هـ).فاحتفظ لنا ابن أبى حاتم بما سمع من هذا التفسير،وضَمَّنَه تفسيره[(٥)]، الذى وضعه خاصة في الجزء الأول والسابع منه، فكثرت نماذج هذا التفسير عند ذلك[(٦)] .

---

(١) الإرشاد ١/ ٣٩٣.

(٢) القرآن وعلومه في مصر، للدكتور البرى ص٢٨٤.

(٣) تاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) ١/ ٥٣-٥٤.

(٤) تذكرة الحفاظ (ط.دار إحياء التراث العربى) للذهبى ٣/ ٨٣١.

(٥) هناك طرق أخرى توصل عن طريقها ابن أبى حاتم إلى تفسير عطاء هذا. فمثلاً: لم يكن ابن لهيعة هو الوحيد الذى سمع هذا التفسير عن عطاء، ولم يكن يحيى بن بكير العالم الأوحد في سماعه على ابن لهيعة، وإلا كان هناك شك في مدى صحة روايات هذا التفسير؛ لتضعيف البعض لابن لهيعة. وإنما روى عن ابن لهيعة آخرون، مثل: عبد الله بن المبارك (وهو عالم ثقة له من الكتب: السنة، والتفسير، والزهد، والتاريخ كما يذكر الداودى في (طبقات المفسرين ١/ ٢٤٣-٢٤٤). وروايته عن ابن لهيعة صححها المحدثون ووثقوها. وكذلك روى هذا التفسير عن عطاء سعيد بن أبى أيوب (ت ١٦١هـ)، وغيره من العلماء، مما يوثق هذا التفسير ويقوى رواياته. (القرآن وعلومه في مصر، للدكتور البرى ص٢٨٥-٢٨٦).

(٦) طالع الدكتور البرى تفسير ابن أبى حاتم خاصة ج١، ج٧ منه مخطوطاً بدار الكتب المصرية برقم ١٥ تفسير خط.

ومن خلال بقايا هذا التفسير خرج الدكتور البرى[1] بعدد من الملاحظات المنهجية عليه، منها:

أ- أنه تفسير شخصى مبسط تبسيطاً تاماً، وواضحاً وضوحاً كاملاً في تفسير الألفاظ والآيات، ولا يعمد إلى استخدام النصوص المأثورة إلا لِماماً.

ب- عدم الركون إلى ذكر وجوه القراءات، وعدم الجنوح إلى الاتجاه النحوى أو البلاغى أو الجدلى في التفسير، والاكتفاء بإعطاء المعنى اللغوى الواضح للمفردات.

جـ- قد نَشْتَمُّ - أحياناً - رائحة القصص والنقل عن الإسرائيليات، وذلك في حالات نادرة، كما ورد في قصة أصحاب الجنة في سورة الفرقان[2].

وأخيراً، فلعل ابن جبير أراد أن يكون تفسيره مناسباً للخليفة، الذى تمنعه شواغله من مطالعة تفسير مطول. هذا إلى جانب أن التفسير في القرن الأول لم يكن قد تعقد أو تعمق، أو تأصلت مناهجه بعد، فكان على بساطته الأولى التى عرفت في تفسير ابن عباس. ولعله أخذ عنه كثيراً، ثم ربما قصد ابن جبير أن يفيد منه عوام الناس بعد ذلك. وهكذا، اقتصر دور عطاء بن دينار على مجرد حفظ هذا الأثر التفسيرى القديم

---

(١) القرآن وعلومه في مصر ص٢٨٦-٢٩٩.

(٢) والمقصود بذكر ما ورد في تفسير الطبرى - ط.دار الفكر - ج١٠ ص١٨٣-١٨٤) بسنده إلى ابن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس: أن المشركين اجتمعوا ليلة بظهر الكعبة، وعرضوا على رسول الله ﷺ أشياء وآيات، ثم قالوا: إن لم تفعل لنا هذا (يقصدون تسيير جبال مكة بعيداً عنهم، وإحياء آبائهم، ومجئ الله والملائكة قَبيلاً، وغيره مما ورد في سورة الإسراء في الآيات من ٩٠-٩٣)؛ فسل ربك يجعل لك قصوراً أو جنات وكنوزاً .وهنا نزلت الآيتان: السابعة والثامنة من سورة (الفُرْقان) تَقُصَّان قولهم: " وَقَالُوا: مَا لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً، أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا، وقال الظَالِمُونَ: إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً ". وقد رَدّ الله عليهم - كما يذكر الطبرى في تفسيره - ط.دار الفكر - ج١٠ ص١٨٤-١٨٥ في الآيتين: التاسعة، والعاشرة في السورة نفسها: " أنظُرْ كيف ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً. تَبَارَكَ الَّذى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهاَ الأنهارُ وَيَجعَلْ لَكَ قُصُورًا ".

والحق أن سبب النزول الذى يرويه لنا سعيد بن جبير، عن ابن عباس ليست فيه رائحة القصص كما قال الباحث، بالإضافة إلى أنه سمى المشركين في هذه الحادثة(أصحاب الجنة)، فأحدث للقارئ لبساً؛ لأن هذه التسمية ليست واضحة في هذا المقام، كما تتضح في (أصحاب الجنة) المذكورين في سورة القلم (الآيات ١٧-٣٣). وجدير بالذكر أن هناك أيضاً (صاحب الجنة)، وهو المذكور في " سورة الكهف: الآيات من ٣٢-٤٣". وفى هذه المواضع الأخيرة لا توجد روايات تفسيرية لسعيد بن جبير (فالموجود في تفسير الطبرى، سورة القلم ج١٤ ص٢٩-٣٥، عن سعيد عن قتادة). فلعله يقصد: عن سعيد بن المُسَيِّب (ت ٩٤هـ)، عن قَتادة بن دِعامة السَّدُوسِيِّ (٦١هـ - ت ١١٧هـ). والله أعلم. فيكون قصد الباحث محصوراً في سورة الفرقان كما ذكر، وإن خانته الدقة المطلوبة في الاستنباط من جهة، وفى التعبير الذى أطلقه من جهة أخرى.

النادر من الضياع، وأسهم ابن أبى حاتم بدور كبير، والطبرى بدور كبير، والطبرى بدور ضئيل في حفظ جهد عطاء بن دينار من الاندثار[(١)] .

٢) عبد الله بن وهب المصرى (ت ١٩٧هـ):

هو أحد الأئمة الأعلام في مدرسة مصر الإسلامية، وأحد تلاميذ الإمام مالك بن أنس الملازمين له في الفترة ما بين ١٤٨-١٧٩هـ، سنة وفاة مالك، كما تتلمذ على ابن جُرَيْج المكى (ت ١٥٠هـ)، وعلى أكثر من عشرين رَجُلاً من أصحاب الزهرى؛ فقد ولد بعد وفاة الزهرى بعام (١٢٥هـ)، فلم يدركه. وكذا تتلمذ على الثورى، وابن عُيَيْنَة، وغيرهم. وكان مُبَرِّزاً في علوم شتى كالحديث والفقه، والتفسير. ومكّنه تحصيله العلمى الغزير المتنوع من وضع مؤلفات عديدة في مختلف العلوم، منها - بالطبع - ما يتصل بالتفسير[(٢)] .

ويذكر الدكتور البرى[(٣)] أن تفسير ابن وهب في صورته المستقلة التى كان عليها، قد ضاع، إلا أنه يمكن استخراجه استخراجاً شبه كامل من تفسير الطبرى، الذى له فضل حفظ العديد من التفاسير القديمة، ومنها: تفسير ابن وهب .

ملاحظات منهجية على تفسير ابن وهب:

أ- يلاحظ أن مصادر تفسير ابن وهب[(٤)] متنوعة وثرية، فمنها ما يعود إلى أحاديث مرفوعة إلى النبى ﷺ، وبعضها يعود إلى تفسير بعض الصحابة وأقوالهم في معانى بعض الآيات بالمدينة، مثل: أبى بكر (ت ١٣هـ)، وعُبادة بن الصامت (ت ٣٥هـ)، وعلىّ (ت ٤٠هـ)، وغيرهم. وبعض روايات هذا التفسير تعود إلى علماء المدينة من التابعين من أمثال: سعيد بن المسيب (ت ٩٢هـ)، والزهرى (ت ١٢٤هـ)، وزيد بن أسْلَم (ت ١٢٦هـ)، وابنه عبد الرحمن (ت ١٨٢هـ)، ومالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)، وغيرهم كثير. وترجع بعض الروايات إلى علماء أهل مكة، وعلى رأسهم: الصحابى ابن عباس (ت ٦٨هـ)، وتلميذاه: مجاهد (ت ١٠٤هـ)، وعطاء بن أبى رباح (ت ١١٤هـ)، وغيرهم. وبعض الروايات تعود إلى أهل الكوفة ممثلة في ابن مسعود الصحابى (ت ٣٢هـ)، وابن جبير (ت ٩٥هـ)، والشعبى (ت ١٠٤هـ)، وغيرهم.ومن البصريين: قتادة بن دعامة السدوسى (ت ١١٧هـ).

ومن الشاميين: الصحابى أبو الدرداء (ت ٣٢هـ)، وعلىّ بن أبى طَلْحة (ت

(١) القرآن وعلومه في مصر: ص٢٩٨.
(٢) ذكر حاجّ خليفة مؤلفاته في (كشف الظنون) رقم. ٤٤.
(٣) القرآن وعلومه في مصر ص٣٠٢.
(٤) أفاض في ذكر هذه المصادر الدالة على شمول واستقصاء ثقافة ابن وهب التفسيرية الدكتور البرى: المرجع السابق، وذكر إحالتها-من خلال تفسير الطبرى-ومواضعها فيه ص ٣٠٢-٣٠٦.

١٤٣هـ). أما مصادره التفسيرية من علماء مصر، فمنهم: عقبة ابن عامر (ت ٥٨هـ)، وابن عمرو (ت ٦٥هـ)، ويزيد بن أبى حبيب (ت ١٢٨هـ)، وغيرهم.

ب- بالرجوع إلى هذه المرويات التفسيرية ذاتها تبين أن مروياته عن العراق والشام قليلة. وعن علماء مصر لا بأس بها. أما مصادره التفسيرية عن المدينة، فتبلغ حوالى ٩٠ ./. من مجموع تفسيره، وبالتحديد نقل ابن وهب معظمها عن (عبد الرحمن بن زيد بن أسْلَم المدنى، المتوفى ١٨٢هـ)[١] ، صاحب كتاب (الناسخ والمنسوخ) ،وكتاب (التفسير)[٢] . ومعنى ذلك أن ابن وهب لازمه ونقل عنه تفسيره كله، كما لازم مالكاً في علم الفقه. وبالنظر في ترجمة ابن زيد هذا، ألفيناه رجلاً ضَعّفه نقاد الحديث، وعَدُّوه واهى الحديث، سئ الحفظ، سئ الأخذ، وإن كان في نفسه صالحاً عابداً زاهداً متقشفاً، إلا أنه لا يقوى على صنعة الحديث فلها رجالاتها[٣] . وأحب أن أُنَبِّه -هنا -على أننا في مقام التفسير لا الحديث، كما أن الرجل لا يحكم عليه بالضعف على إطلاقه، وإنما ينظر في حديثه، فقد يكون ورد عن طرق أخرى يقوى بها، ولا ننسى أن الترمذى وابن ماجة أخرجا له بعض الأحاديث في سننهما، فلعلهما وجدا فيها ما يفيد القبول.

جـ- يلاحظ على تفسير ابن وهب أنه يعتمد على التفسير بالمأثور قليلاً، ويغلب عليه التفسير بالرأى[٤] . وما ذلك إلا لأن المصدر الأساسى لهذا التفسير هو ابن زيد، وهو متأثر بأبيه في وجود نزعة الرأى لديه.

وبناء على ما تقدم، فإن ما فُسِّر بالمأثور يدرس ويُفحص ويُنقد. ونحن لا نشك في حصافة ابن وهب، الذى يغلب على الظن أنه غربل هذه الروايات، وانتقى منها ما يصح، وهذا دَيْدَنُه عند النقل عن الضعفاء كابن لهيعة مثلاً، كما سنرى فيما بعد. أما ما اعتمد على الرأى، أو غلب في تفسيره الجانب اللغوى[٥] مثلاً، فيقاس بمقاييس نقدية غير حديثية؛ إذ

---

(١) القرآن وعلومه في مصر: ص٣٠٦.

(٢) ذكر مؤلفاته: ابن النديم في (الفهرست)ص٢٨١، والداودى فى(طبقات المفسرين)١/ ٢٦٥.

(٣) ترجم له: ابن حبان في (المجروحين) ٢/ ٥٧-٥٨، والذهبى في (ميزان الاعتدال) ٢/ ٥٦٤-٥٦٦، وابن حجر في تهذيب التهذيب ٦/ ١٦١-١٦٢ رقم (٣٦١).

(٤) ومن ذلك تفسيره " وَلاَ الضَّالِّينَ " في سورة الفاتحة، بأنهم النصارى (تفسير الطبرى ١/ ١٩٥. ط.أحمد شاكر). وكذلك تفسير ابن زيد قوله (تعالى): " وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ " .(سورة البقرة: جزء من الآية ٦١) قال: هم يهود بنى إسرائيل، واعترض على سؤال ابن وهب: هل هم، قبط مصر، فرد عليه قائلاً: وما لِقبط مصر وهذا ؟! والله ما هم هم، ولكنهم اليهود يهود بنى إسرائيل (تفسير الطبرى، ط.أحمد شاكر) ٢/ ١٣٧.

(٥) ومن أمثلة التفسير اللغوى لديه تفسيره كلمة (خُبْراً) بمعنى: علماً (تفسير الطبرى، ط. دار الفكر) الجزء السادس عشر من القرآن، مج٩ ص١٥، سورة الكهف آية ٩٠. وكذلك ما ورد في تفسير الآية ١٨٢ من سورة البقرة: " فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ". قال الطبرى: حدثنى يونس قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: "جنَفاً": =

لا نقيس الأمور المتباينة بمقياس واحد، إن صلح لبعضها لم يصلح للآخر.

د- اهتم - أحياناً - ببيان سبب نزول الآيات، كما هو الحال - مثلاً - في الآيتين ٨٠-٨١ من سورة البقرة، عندما سأل اليهود الرسول عن أصحاب النار، فزعموا أن المسلمين سيخلفونهم فيها، ردّاً على قول الرسول لهم بأنهم هم أصحاب النار، فنزلت الآيتان الكريمتان: " وَقَالُوا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُل : أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لاَ تَعْلَمُونَ. بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "[1] .

وأخيراً، فإن هذا التفسير المدنى الذى وضعه ابن زيد، واحتفظ لنا به ابن وهب، وحفظ لنا الطبرى ما تيسر منه بعد ذلك في تفسيره، كان تطوراً في ذلك العلم باعتباره من أوائل التفاسير التى تتسم بوضوح المنهج، وبروز الرأى فيها، إلى جانب وصولها إلينا شبه كاملة بفضل أولئك الذين احتفظوا لنا به؛ مما جعل له قيمة ذاتية، مما ساعده على أن يُكتب له البقاء.

٣) عبد الله بن صالح المصرى (١٣٧-٢٢٣هـ):

تلميذ الليث وكاتبه، وأحد دعائم المدرسة المصرية العلمية، وقد اختلف العلماء حوله ما بين مُعَدِّل ومُجَرِّح، ولذلك تفصيل سيأتى في الفصل الخاص بـ (الحديث). وعلى كل، فقد احتفظ لنا الطبرى في (تفسيره)، والبخارى في صحيحه في كتاب (التفسير)، وابن أبى حاتم في تفسيره المخطوط بروايات تفسيرية للقرآن كله تقريباً، رواها عبد الله بن صالح هذا.

والملاحظ أن هذه الروايات تعود كلها إلى مفسر مكة العظيم: عبد الله

ابن عباس، وتأتى معظمها بالإسناد الآتى[2] :

(عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس).

تحقيق هذا الإسناد:

١- من المعلوم أنه روى عن ابن عباس في التفسير مالا يُحْصَى كثرة، وكثير منها

= حَيْفاً. والإثم: ميله لبعض على بعض، وكله يصير إلى واحد. (تفسير الطبرى، ط.أحمد شاكر ٣/ ٤٠٧، رقم ٢٧١٧).

(١) تفسير الطبرى (ط.أحمد شاكر) ٢/ ٢٧٧ (رقم ١٤٠٩).

(٢) وردت روايات تفسيرية رواها عبد الله بن صالح ليست عن هذا الطريق، لكنه رواها عن أستاذه الليث، فقد يكون لليث هو الآخر تفسير ضاع. وعلى كل، فقد عثرت على رواية تفسيرية له، ولعل غيرها كثير. وردت هذه الرواية في (تفسير الطبرى: ط. أحمد شاكر، سورة البقرة الآية ١٧٧، ج٣ صـ٣٤١، رقم ٢٥٢٤)، وهى مرفوعة إلى ابن مسعود في قوله (تعالى): " وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى " قال: حريصاً شحيحاً يأمل الغنى، ويخشى الفقر.

طرقه ضعيفة، أسندوها إلى ابن عباس زوراً، وهى غير مرضية، ورواتها مجاهيل، مثل: تفسير جُوَيْبِر، عن الضَّحَّاك، عن ابن عباس[١].

٢- إن الذى صحت نسبته إلى ابن عباس في التفسير قليل، يُعَبّر عنه الشافعى بقوله: لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث[٢]. وقد ثبت أن أفضل طريق صحيح نُسب لابن عباس في التفسير هو الذى نقله إلينا عبد الله

ابن صالح، وهو الطريق الذى قال عنه أحمد بن حنبل: " بمصر صحيفة في التفسير رواها على بن أبى طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً "[٣].

٣- لكن البعض أثار شبهة عدم سماع علىّ بن أبى طلحة[٤] من ابن عباس. والسؤال - الآن - كيف نقل عنه ذلك التفسير؟

والجواب: أن ذلك القول صحيح، فهو لم يسمع منه. هكذا أجمع الحفاظ[٥]. لكن لا يجوز أن يتخذ ذلك سبيلاً للطعن في هذه الطريقة الجيدة، ولا أن يكون ذلك مثار غمز ولمز وتشكيك[٦]. إن الذين شككوا يجهلون أو يتجاهلون ما ذكره إمام الحفاظ ابن حجر من أن على بن أبى طلحة أخذ تفسير ابن عباس عن مجاهد، وهو ثقة بلا مدافعة، وأجمعت الأئمة على الاحتجاج به[٧]، أو عن سعيد بن جُبير وهو أنبغ تلاميذ ابن عباس. وما دامت الواسطة ثقة، وعلىّ ثقة، فلا ضير في ذلك، والرواية

---

(١) ذكرها الخليلى في (الإرشاد) ١/ ٣٩٤، ونقلها عنه السيوطى في (الإتقان) ٤/ ٢٠٨. ولى ملاحظة على محقق كتاب (الإتقان) الذى أتى بهذا الاقتباس في بداية فقرة جديدة؛ مما أوهم أنه من عبارة السيوطى، بادئا إياه بلفظة (قال)، وبالعودة إلى (الإرشاد) نفسه وجدت أنها عبارة الخليلى، والسيوطى نقلها عنه. وقصد السيوطى بلفظة (قال) أى: قال الخليلى. وبذا يكون النص من كلام الخليلى لا من كلام السيوطى كما فهم المحقق .ولو كان السيوطى يقصد نفسه، لأتى تعبيره بلفظة: قلتُ.

(٢) مناقب الشافعى للبيهقى ٢/ ٢٣.

(٣) الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٧.

(٤) ترجم له الذهبى في ميزان الاعتدال ٣/ ١٣٤ (رقم ٥٨٧٠)، فقال: روى عن مجاهد، وراشد بن سعد، وغيرهما. أخذ تفسير ابن عباس عن مجاهد، فلم يذكره، وأرسله عن ابن عباس. هذا، وقد حدث عنه معاوية بن صالح، والثورى. وقال النسائى عنه: لا بأس به. وأخرج أحاديثه مسلم، وأبو داود، والنسائى. وهو يعد في أهل حمص. وأخيراً، قال الذهبى: روى معاوية بن صالح عنه، عن ابن عباس تفسيراً كبيراً ممتعاً.

(٥) الإرشاد للخليلى ١/ ٣٩٣-٣٩٤، ونقله عنه السيوطى في (الإتقان) ٤/ ٢٠٧ .

(٦) كما فعل جولد تسيهر في (مذاهب التفسير الإسلامى ص٩٨، من الترجمة العربية للدكتور عبد الحليم النجار).

(٧) ميزان الاعتدال للذهبى ٣/ ٤٣٩-٤٤٠ (رقم ٧٠٧٢). وعضّد ذلك ابن تيمية في (الفتاوى) ١٣/ ٣٦٨-٣٦٩، نقلاً عن الثورى في قوله: إذا جاءك التفسير عن مجاهد، فحَسْبُك به.

مقبولة[١] . أما معاوية بن صالح الحضرمى (ت ١٥٨هـ)[٢] الذى نقل عنه عبد الله بن صالح هذا التفسير، فقد حج مرة واحدة عام ١٥٤هـ، ومر خلالها بمصر، وحوله التف علماؤها كالليث، وابن وهب، وأسد بن موسى، وعلى رأسهم كاتب الليث عبد الله بن صالح، الذى نقل عنه التفسير خلال هذا المقام.

وجملة القول أن هذه الطريقة هى أصح الطرق في التفسير عن ابن عباس، وكفى بتوثيق البخارى لها، واعتماده عليها في كتاب التفسير من (صحيحه)[٣] . كفى بذلك وحده شاهداً على صحتها.

مميزات هذا التفسير[٤]:

١- تفسير لغوى بحت غاية في الإيجاز والدقة.

٢- قد يتجاوز الحرفية الجزئية في التفسير إلى شئ من التحليل اللغوى، كما ورد في تفسير الآية ١٢٨ من سورة الشُّعراء: " أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ " قال: الرِّيع: الأيْفاع من الأرض. جمعه: رِيَعَة، وأرْياع. واحده: الرِّيَعة[٥] .

٣- وقد يتجاوز هذا التفسير إلى شرح الآية كلها، مثل قوله (تعالى): "﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾"[٦]. أى: هـــم - الـــيـــوم - لا يسمعون ولا يبصرون، فهم في ضلال مبين. يعنى قوله: أَسْمِعْ بهم وأبْصِرْ: الكفار - يومئذ - أسْمَع شئ وأبْصَره[٧] .

٤- يضاف - إلى ما سبق - اهتمامه بالتفسير بالمأثور عن النبى ﷺ وعن الصحابة، مع الاهتمام بأسباب النزول، والنسخ، وبعض القصص[٨] .

وهكذا، كان هذا التفسير مناسباً لمرحلة البساطة، بعيداً عن التكلف، فكان له تأثيره في الأجيال من بعد.

---

(١) الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٧.

(٢) طبقات ابن سعد (ط.دار التحرير) ٧/ ٢/ ١٦٤، ٢٠٧، وتهذيب التهذيب لابن حجر ١٠/ ١٨٩-١٩٠ (ترجمة ٣٩١).

(٣) ضُحَى الإسلام لأحمد أمين٢/ ١٤١-١٤٢، والتفسير والمفسرون للشيخ الذهبى ١/ ٧٨.

(٤) عرض ذلك الدكتور البرى في (القرآن وعلومه في مصر) ص٣٩٠، ٣٩٢.

(٥) صحيح البخارى (ط.دار ابن كثير - بيروت) كتاب (التفسير) باب (تفسير سورة الشعراء)٤/ ١٧٨٦. وورد في (لسان العرب) مادة: (ر.ى.ع) ٣/ ١٧٤٩: أن الرِّيع هو الجبل.

(٦) سورة مريم: الآية ٣٨.

(٧) صحيح البخارى (ط.دار ابن كثير - بيروت)، كتاب (التفسير) باب (تفسير سورة مريم) ٤/ ١٧٥٩.

(٨) القرآن وعلومه في مصر، للدكتور البرى ص٣٨٤.

رابعاً - السمات العامة لمدرسة التفسير في مصر:

١- لا نستطيع الزعم أن مصر ابتكرت جديداً، أو يمكن أن ينسب لها في التفسير في هذا الوقت عمل فريد، فدورها اقتصر على حفظ التفاسير الأولى من الضياع (تم ذلك على يد عطاء بن دينار مع تفسير ابن جُبَيْر، وابن وهب مع تفسير ابن زَيْد، وأخيراً عبد الله بن صالح مع تفسير ابن عباس). وهو دور مهم في حفظ التراث التفسيرى النادر، وبه كانت مصر همزة الوصل بين مدارس العراق، والمدينة، ومكة، وبقية المدارس الأخرى. وربما كانت هناك تفاسير صَنّفها علماء مصر بأنفسهم لكنها فُقدت، مثل: التفسير الذى يُنسب إلى عُبَيْد بن سَوِيَّة الأنصارى (المتوفى سنة ١٣٥هـ)[١] .

٢- أن مراحل تطور التفسير في مصر ليست متمايزة، بل فيها تداخل كبير، فهى في آخر مراحلها - كما رأينا - تعتمد - فيما تعتمد - على التفسير بالمأثور عن الرسول والصحابة، وقد كان ذلك موجوداً في أولى مراحله، فالتطور الحادث فيه لا يعد من قبيل الطفرة الكبيرة.

٣- أن علاقة مصر وثيقة مع مدرستى مكة والمدينة بالحجاز[٢] ، وكانت مصر هى الآخذة غير المعطية. أما أثر العراق والشام، فلا يكاد يذكر في مصر، اللهم إلا نقل عطاء بن دينار تفسير سعيد بن جبير الكوفى.

٤- أن وجود الإسرائيليات في التفاسير بمدرسة مصر موجود، وإن كان يظهر على قلة واستحياء. أما التفاسير المزعومة المزيفة التى تُنسب إلى ابن عباس، فقد وجد في مصر ما يشبهها كتفسير نُسب إلى عبد الغنى بن سعيد الثَّقَفِيّ (ت ٢٢٩هـ)، عن موسى بن محمد، عن ابن جُرَيْج. قال فيه السيوطى: هذا تفسير فيه نظر[٣].

٥- كان لعلم التفسير وللمفسرين مكانتهم السامية في ذلك الزمان، ويكفى ما ذكره ابن حجر[٤] من أن ابن عباس ومعاوية خرج كلاهما حاجاً، فكان لمعاوية موكب (من الحاشية، ورجال البَلاط)، ولابن عباس موكب من الطلاب. وفى مصر كان احتشاد

(١) ترجم له ابن حجر في (تهذيب التهذيب) ٧/ ٦٢-٦٣، وأشار إليه د.البرى في كتابه (القرآن وعلومه في مصر) ص٢٩٩.

(٢) لم تقف صلة مصر بالحجاز عند جهود ابن وهب، وعبد الله بن صالح، وإنما وجد عالم آخر جدير بالذكر هو يزيد بن أبى حبيب، الذى له مروياته التفسيرية عن علماء المدينة، منها: ما أخبر به ابن المبارك، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب: أن أهل المدينة يقولون: " من خرج فاصلاً، وجب سهمه " أى: من خرج من بيته ينوى الغزو والجهاد، فمات قبل ذلك؛ فله أجره. وتأوَّلوا قوله (تبارك وتعالى) في سورة النساء: آية ١٠٠: " وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ". (تفسير الطبرى، ط.أحمد شاكر، ٩/ ١٢٢، أثر رقم ١٠٣٠٩).

(٣) الإتقان ٤/ ٢٠٨.

(٤) تهذيب التهذيب ٥/ ٢٤٤.

العلماء لتلقى التفسير بمنزلة موكب عظيم، يعطى لهذا العلم مكانته وسط العلوم. وكان ابن وهب، وابن صالح، ويزيد بن أبى حبيب، وهم من رجال التفسير في مصر، لهم مكانتهم وثقلهم في مجتمعهم.

الفصل الثاني

الحديث النبوى الشريف

أهمية دراسة الحديث النبوى الشريف:

أحاول إلقاء نظرة شاملة مركزة على المراحل التى مر بها علم الحديث في الدولة الإسلامية بعامة، وفى مصر الإسلامية على وجه الخصوص، وذلك خلال القرنين الأولين للهجرة. وهذه النظرة - كما يقول سزكين - لا غَناء عنها لكل من أراد فهماً دقيقاً لطبيعة المكتبة العربية في نشأتها وازدهارها، وإن الحكم الصائب على نتاج هذه المرويات الأول لا يتحقق إلا بعد تفهم دقيق لخصائصها(١) .

قضية تدوين الحديث النبوى الشريف:

وهذه القضية من أولى القضايا التى شغلت الباحثين قديماً، ولا يحسن البعض فهمها حديثاً، فتباينت الآراء بخصوصها ما بين مؤيد لها ومعارض، ومثبت لها ونافٍ. وقبل الحديث عن أهمية هذا الموضوع أقرر الحقائق الآتية:

١- أن العرب عرفوا فن الكتابة قبل الإسلام وكان فيهم قراء، وأنهم لم يكونوا - كما هو الشائع - يعتمدون كلية على ذواكرهم، وما يودعونه في الصدور من محفوظات تُتناقل شفاهاً فحسب، وإنما أضافوا إلى ذلك التسجيل والتدوين والكتابة(٢) .

٢- أن الإسلام حث على تعلم القراءة والكتابة، فهو دين العلم الذى حث عليه القرآن الكريم مع أولى آيات التنزيل(٣) ، ورفع العلماء درجات سامية(٤) ، ودعا إليه

(١) تاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) ١/ ٨٧.

(٢) وقد عرض لتلك القضية تفصيلاً بمصادرها ومراحلها، التى تثبت كافة مظاهر النشاط الثقافى في العصر الجاهلى من تقييد الأشعار، وتسجيل الديون في الصحف، وكتابة العهود والمواثيق والأحلاف في كثير من حواضر شبه جزيرة العرب؛ مما يدل على وجود الكتابة، عرض ذلك الدكتور الأعظمى في كتابه: دراسات في الحديث النبوى وتاريخ تدوينه) صـ٤٣-٤٦.

(٣) " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ". (الآية الأولى من سورة العَلَق).

(٤) مثل قوله (تعالى): " يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمنوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ". (سورة المُجَادَلَة: =

الرسول ﷺ في أقواله[(١)] ، وأفعاله[(٢)] .

٢- أن التابعين ومَنْ بعدهم ناقشوا قضية جواز تدوين الحديث من عدم جواز تدوينه، وأزالوا ما وجدوا من تعارض ظاهرى بين النصوص المبيحة لذلك والمانعة منه[(٣)] ، وانتهوا إلى نتيجة قاطعة حاسمة بهذا الشأن، وهى: " قد حُكى إجماع العلماء في الأعصار المتأخرة على تسويغ كتابة الحديث. وهذا أمر مستفيض شائع ذائع، من غير نَكير "[(٤)] ، وعلل ذلك السيوطى[(٥)] فيما ينقله عن ابن الصلاح[(٦)] بأنه " لولا تدوينه في الكتب لدُرِس في الأعْصُرِ الأخيرة ".

أهمية دراسة قضية تدوين الحديث النبوى:

أولاً - إن القول بأن المسلمين ظلوا يتناقلون الحديث النبوى عن طريق الرواية الشفهية فقط طوال القرن الأول الهجرى، ثم بدأوا تدوينها أيام عمر بن عبد العزيز، جعل المغرضين من المستشرقين (مثل: شاخت، وجولدتسيهر)، ومن تبعهم من المستغربين، يطعنون في صحة ودقة نسبة الأحاديث إلى رسول الله ﷺ؛ بحجة أن الذاكرة لا تعى هذا العدد الهائل من الأحاديث عبر قرن كامل دون تدوين؛ مما يهدم السنة كلها.

والحق أن الوهم الذى وقع فيه هؤلاء يرجع لأسباب هى:

أ- الأحاديث التى ورد فيها نَهْى عن تدوين حديث الرسول ﷺ، وما يروى عن بعض الصحابة من التحرج من كتابة الحديث أدى إلى ذلك الوهم. وقد رُدّ على ذلك بأن العلماء رفعوا التعارض الظاهرى بين النصوص، وأن الراجح وما كان عليه خاتمه ﷺ هو السماح بكتابة الحديث، وأن النهى - في البداية - كان لئلا يختلط الحديث بالقرآن. فمن أنكر ذلك فهو لا يحسن فهم النصوص، وليس مُلِمّاً إلماماً كافياً

= جزء من الآية ١١).

(١) من أقواله ﷺ: " .. وَمَنْ سَلَكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً، سَهَّلَ اللهُ له به طريقاً إلى الجنة ... " أخرجه الإمام مسلم في (صحيحه)، كتاب (الذكر والدعاء) باب (فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر) ٤/ ٢٠٧٤ (رقم ٢٦٩٩).

(٢) ومن أفعاله: تعليم كل واحد من أسرى بدر عدد عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، إلى جانب وجود كتاب للوحى لدى رسول الله ﷺ كعلىّ، وعثمان، وأُبَىّ بن كَعْب، وزيد بن ثابت ،ووجود آخرين يكتبون له في أغراض شتى(تاريخ الطبرى ٦/ ١٧٩).

(٣) ومن أحسن مَنْ فَصّل القول في تلك القضية، وأحسن عرضها بأدلتها المختلفة الخطيب البغدادى في كتاب: (تقييد العلم)صـ٢٩-٤٢ ، صـ٤٥-٤٨، صـ٦٤-٨٦.

(٤) اختصار علوم الحديث لابن كثير صـ١١١.

(٥) تدريب الراوى ٢/ ٦٥.

(٦) مقدمة ابن الصلاح (ط.الهيئة العامة) صـ٣٠٢.

بأخبار التدوين المبكر(١) .

ب- قولة مشهورة أُثِرَتْ عن الإمام مالك بن أنس، يقول فيها: " إن أول مَنْ دَوَّنَ العلمَ ابنُ شهاب الزُّهْرِيّ "(٢) . فقال هؤلاء: إن ابن شهاب توفى ١٢٤هـ، فيكون قد دَوّن العلم أواخر القرن الأول الهجرى مثلاً.

ومعلوم أن مقصد مالك هو أن الزهرى أول من جمع الحديث ورَتّبه في مجاميع، ولا يقصد بالتدوين مجرد التسجيل للأحاديث.

جـ- ما ورد عن ابن حجر(٣) من أن العرب لم يُدانِهم أحد في سعة حفظهم، وسيلان أذهانهم؛ لأن أكثرهم يعتمدون على الحفظ ولا يعرفون الكتابة. ثم حدث أواخر عصر التابعين أن قاموا بتدوين الآثار وترتيب الأخبار؛ إذ لم تكن آثار النبى ﷺ في عصر أصحابه، وكبار مَنْ تَبِعَهم مدونة في الجوامع ولا مرتبة. وأول من جمع ذلك: الربيع بن صَبيح، وابن أبى عَروبة.

وقد عَلَّق الدكتور الأعظمى(٤) على عبارة ابن حجر السابقة بقوله: إنه يرجح أن يكون قَصْد ابن حجر إنكار كتابة الحديث مطلقاً حتى ذلك الوقت. ومما يرجح ذلك ويؤكده لديه ما ذكره ابن حجر نفسه في موضع آخر(٥) من أن جماعة من الصحابة والتابعين كرهوا كتابة الحديث، واستحبوا أن يؤخذ عنهم حفظاً كما أخذوه حفظاً، لكن الهمم قَصُرَتْ، وخشى الأئمة ضياع العلم فدونوه. وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهرى على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين ثم كثر التصنيف، وحصل بذلك خير كثير. ثم شرع الدكتور الأعظمى يرد على ابن حجر بناء على المفهوم المتقدم، فقال: إن العرب كان منهم من يعرف الكتابة، وإن الذاكرة القوية لا تمنع من تدوين الحديث، وإن ذلك ما انتهى إليه العلماء.

وأنا أختلف مع الدكتور الأعظمى في فهمه، الذى خرج به من عبارة ابن حجر، فابن حجر يقصد بالتدوين تدوين الجوامع المرتبة الشاملة مما يعد جمعاً لشتات ما دُوّن من أحاديث. ولا يُعْقَل أن ابن حجر - وهو من هو في فن الحديث والرواية - يَغْفُل عن الأدلة العديدة، التى تؤكد شيوع كتابة الحديث منذ عهد الصحابة.

د- ظن الباحثون تأخر كتابة الحديث النبوى إلى نهاية القرن الأول الهجرى، أو إلى

(١) مثل: جولدتسيهر الذى جعل مصادر كتب الحديث كلها شفوية (تاريخ التراث العربى) لسزكين ١/ ٨٨ (ط.الهيئة العامة)، وكذلك قول مارجليوث بتأخر التأليف النثرى (تدوين الحديث) عند المسلمين (دراسات عن المؤرخين العرب، من الترجمة العربية للدكتور حسين نصار) صـ٥٤-٥٥.

(٢) جامع بيان العلم، لابن عبد البر ١/ ٨٨.

(٣) هَدْى السَّارِى مقدمة فتح البارى شرح صحيح البخارى، لابن حجر صـ٦ .

(٤) دراسات في الحديث النبوى وتاريخ تدوينه: صـ٧٣، وما بعدها.

(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر ١/ ٢٠٨.

منتصف القرن الثانى الهجرى[١] ؛ نتيجة عدم فهم بعض المصطلحات التى استعملها المحدّثون في نقل الرواية. ولهم عذرهم في ذلك، فالمتقدمون لم يخصصوا كتاباً يذكرون فيه مَنْ كتب الأحاديث. وعلى ذلك فمعلومات كتابة الحديث متناثرة في ثنايا الكتب، وتظهر عن غير قصد منهم، ولعبتْ مصطلحاتهم دوراً كبيراً في إخفاء معالم الكتابة، فالذى يهمهم ذكر لفظ السماع (حدثنا، أو أخبرنا) حتى في حالة الكتابة؛ لأن مجرد النقل دون سماع مسبق لا يُعْتَدُّ به لديهم[٢] .

وقد ضرب الدكتور الأعظمى على ذلك عشرات الأمثلة[٣] ، التى تثبت وجهة نظره الجديدة سالفة الذكر، وأكتفى أنا بذكر نموذجين اثنين صارخين للدلالة على هذه القضية:

النموذج الأول - قال عبد الله بن أحمد بن حنبل في (مقدمة مسند والده)[٤]: حدثنى أبى أحمدُ بن محمد بن حنبل من كتابه قال: ثنا.... إلخ.

والمعلوم أن عبد الله حدث عن والده الإمام أحمد بأحاديث المسند كله، لكن عبد الله يذكر في الكتاب كله بعد ذلك، ومع كل حديث يرويه عن أبيه: حدثنى أبى، ولا يشير - مطلقاً - إلى أن أباه كان يحدثه من كتاب مدون[٥] . فمن لم يكن لديه علم بمدلول مصطلح (حدثنى)، ظن أن الرواية كانت تعتمد على المشافهة فقط.

النموذج الثانى - قال عبد الله: حدثنى أبى، حدثنا عَبَّاد بن العَوَّام، حدثنا سفيان بن حسين ... إلخ. قال أبى: ثم أصابتنى علة في مجلس عباد بن العوام (شيخ أحمد بن حنبل الذى نقل عنه هذا الحديث). فكتب تمام الحديث، فأحسبنى لم أفهم بعضه، فشككت في بقية الحديث، فتركته[٦] . فهنا ترى أن الإمام أحمد أخذ هذا الحديث عن شيخه إملاء في الدرس، ومع ذلك استعمل مصطلح (حدثنا)[٧] .

ثانياً - أن تمحيص قضية تدوين الحديث النبوى يعيد إلينا الثقة بتراثنا الحديثى، وبعظمة مناهج علمائنا، وحفظهم للسُّنَّة، وصيانتهم لها منذ قديم.

ثالثاً- أن الثقة بالتراث الحديثى تنعكس على الثقة ببقية فروع التراث العربى والإسلامى، التى كان للحديث تأثيره الكبير فيها، سواء على مستوى الموضوعات أم

(١) بل إن جولدتسيهر يَشْتَطّ، فيجعل بداية جهود جمع الحديث ترجع إلى أواخر القرن الثانى الهجرى، وأوائل القرن الثالث الهجرى. وكأن الحديث ظل مبعثراً حتى ذلك الوقت المتأخر. (تاريخ التراث العربى، لسزكين) ١/ ٨٨.

(٢) دراسات في الحديث النبوى، للدكتور الأعظمى ص٨٩.

(٣) المرجع السابق ص٩٠-٩١، ٥٨٧-٥٩٤.

(٤) مسند أحمد: ج١ ص٢.

(٥) دراسات في الحديث النبوى، للدكتور الأعظمى ص٥٩٠.

(٦) مسند أحمد ٢/ ١٤.

(٧) دراسات في الحديث النبوى، للدكتور الأعظمى ص٥٨٩.

المنهج؛ مما يطمئننا على تراثنا اللغوى والأدبى بعامة، والتاريخى بخاصة؛ لأنه تأثر - أساساً - بالتراث الحديثى، كما سنرى.

مراحل تدوين الحديث النبوى الشريف خلال القرنين الأولين من الهجرة (*):

أولاً - مرحلة الكتابة الشخصية للأحاديث:

تمثلت هذه المرحلة في عصر الصحابة، وأوائل التابعين. وفيها كانت الأحاديث تسجل في صحائف، أو في أجزاء صغيرة بصفة فردية، يعنى: يكتبها الصحابى لنفسه؛ حتى لا ينسى الأحاديث التى يحفظها، ولم يكن قصدهم جمع الأحاديث ونشرها بصفة رسمية، وإن كان ذلك لا يمنع أن يستعير بعض التابعين من الصحابة مدوناتهم. ومن الصحابة الذين كانوا يدونون الأحاديث لأنفسهم عبد الله بن عمرو بن العاص بموجب إذن صريح من الرسول. وكذلك ابن عباس ﷺ، إذ يُرْوى عن موسى بن عقبة أنه قال: " وضع عندنا كُرَيْبٌ(١) حِمْلَ بَعير، أو عِدْلَ بعير مِنْ كُتُب ابن عباس. فكان على بن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتاب كتب إليه: ابعثْ إليَّ بصحيفة كذا وكذا فينسخَها، ويبعث إليه إحداهما "(٢). وهذا يدل على أن ابن عباس كان يكتب الحديث، ويحتفظ لدى مولاه كريب بنُسَخ منه، يستعيرها منه مَنْ يريد.

ملاحظة:

وأحب أن أشير - هنا - إلى محاولة رائدة غفل عن ذكرها بعض الباحثين، كاد أن يقوم بها عمر بن الخطاب ﷺ لجمع الأحاديث النبوية جمعاً شاملاً في هذه المرحلة المبكرة، وذلك قبل أن يأمر بهذا حفيده وسَمِيُّه عمر ابن عبد العزيز ﷺ، كما سنرى بعد. لكن عمر تراجع عن هذه المحاولة، إذ ينقل لنا السيوطى رواية منسوبة إلى عروة بن الزبير، أن عمر بن الخطاب أراد كتابة السنن، واستشار الصحابة في ذلك، فأشاروا عليه أن يكتبها. فطَفِق عمر يستخير الله، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: " إنى كنتُ أردتُ أن أكتب السنن، وإنى ذكرتُ قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً

(*) أدين في تحديد هذه المرحل إلى العَلاَّمة سزكين في (تاريخ التراث العربى، ط.الهيئة العامة) ١/ ٩٨.

(١) هو كُرَيْب بن أبى مسلم الهاشمى العباسى الحجازى، أبو رِشْدِين. إمام وحُجَّة، أدرك عصر الخليفة عثمان بن عفان، وحدّث بأحاديث مرسلة عن الفضل بن عباس، كما حدّث عن مولاه ابن عباس، وأمه أم الفضل، وأختها ميمونة، وأسامة بن زيد، وأم سلمة، وغيرهم. روى عنه أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، ومكحول. كما روى عن كريب ولداه: محمد، ورشدين، وغيرهما. قال ابن معين: ثقة. توفى ٩٨هـ. سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٧٩-٤٨٠، والبداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف) جـ٩ صـ١٩٤، وتهذيب التهذيب ٨/ ٣٨٨).

(٢) طبقات ابن سعد (ط.دار التحرير) ٥/ ٢١٦، وتقييد العلم للخطيب البغدادى صـ١٣٦، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٤٨٠، وتهذيب التهذيب ٨/ ٣٨٨.

فأكَبُّوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني - والله - لا أُلَبِّسُ كتابَ الله بشيء أبداً[١] .

ثانياً - مرحلة تجميع الحديث:

وحددها سزكين في الربع الأخير من القرن الأول الهجرى حتى الرُّبْع الأول من القرن الثانى الهجرى. وفيها جُمعت شتات الأحاديث على يد عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ)، وذلك نلمسه من خلال النصين الآتيين:

أ- أمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى[٢] أن يكتب العلم - أي: الحديث - من عند عَمْرَة بنت عبد الرحمن[٣] ، والقاسم بن محمد[٤] ، فكتبه له[٥] .

ب- كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يأمره: "انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سُنَّة ماضية، أو حديث عَمْرَة، فاكتبه؛

(١) طبقات ابن سعد (ط.بيروت) ٣/ ٢٨٧، وجامع بيان العلم لابن عبد البر ١/ ٧٧، وتدريب الراوى للسيوطى ٢/ ٦٧-٦٨.

(٢) بعد أن ذكر هوروفتس في (المغازى الأولى ومؤلفوها) هذه المعلومة ص٣٨، حدث اضطراب ص٦٤ من الكتاب نفسه، عندما ذكر المؤلف أن الذى أمر بجمع الحديث هو عبد الله بن أبى بكر. ولعله سَبْق قلم لم يفطن إليه المترجم الدكتور حسين نصار ولم يعلق عليه. والحق أن آل حزم علماء قضاة. أخص منهم أبا بكر بترجمة قصيرة: قاضى المدينة وأميرها، وأحد الأئمة الأثبات، وأعلم أهل زمانه بالقضاء. قال مالك عنه: هو الأنصارى الوحيد الذى ولى المدينة، وكان صالحاً متهجداً. وجعله النووى في تابعى التابعين. ويقال: اسمه كنيته، لا اسم له غيرها. ويقال: اسمه أبو بكر، وكنيته أبو محمد، فللكنية كنية. حدث عن أبيه محمد بن عمرو بن حزم ،وخالته عَمْرَة، وغيرهما. وروى عنه: ابناه: عبد الله، ومحمد. وروى عنه الأوزاعى، وآخرون. توفى ١١٧هـ، أو ١٢٠هـ عن ٨٤ سنة. (تهذيب الأسماء واللغات للنووى ج٢ من القسم الأول ١٩٥-١٩٦، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٣١٣-٣١٤، والوافى بالوفيات للصفدى ١٠/ ٢٤٧).

(٣) هى عَمْرَة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زُرارة الأنصارية المدنية. كانت في حِجْر عائشة، وروت عن عائشة، وعن أختها لأمها أم هشام بنت حارثة. وروى عنها ابن أختها أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وابنه عبد الله، وعروة بن الزبير، والزهرى، وغيرهم. كانت ثقة حجة، وذكر عمر بن عبد العزيز أنه لم يبق أعلم منها بحديث عائشة. توفيت ١٠٦هـ. (تهذيب التهذيب لابن حجر ١٢/ ٤٦٦. وقد ورد فيه تصحيف: أن أبا بكر هو ابن أخيها. والصواب ما ذكرتُه فهى خالته؛ بدليل ما ذكره ابن حجر نفسه في (المصدر نفسه ١٢/ ٤١).

(٤) القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق. روى عن أبيه، وعن عمته عائشة، وعن العبادلة، وأبى هريرة، وغيرهم. وروى عنه ابنه عبد الرحمن، والشعبى، وسالم ابن عبد الله بن عمر، والزهرى، وآخرون، كان أشبه الناس بأبى بكر، ومن أعلمهم بالسنة، وأحد ثلاثة هم أعلم الناس بحديث عائشة: هو، وعروة، وعمرة. ذكر مالك أنه من فقهاء الأمة، وأنه من سادات التابعين (تهذيب التهذيب ٨/ ٢٩٩-٣٠١، وذكر أنه توفى ١٠٢هـ).

(٥) تقدمة المعرفة، لابن أبى حاتم ٢١.

فإني قد خِفْتُ دروسَ العلم، وذهاب أهله "[١] .

ويلاحظ على النصين السابقين ما يلي:

أ- أن النص الأول حدد فيه الخليفة لأبي بكر روايات حديثية معينة خاصة بعالمي المدينة: القاسم، وعمرة. وربما كانت لها صلة قريبة بالقضاء، باعتبار أبي بكر أعلم أهل المدينة به، وهو ما دفع الخليفة لتوليته منصب القضاء.

ب- أن النص الثاني يفيد أن جمع الحديث كان عامّاً شاملاً في كل الأقطار، جامعاً بين السنة القولية والفعلية، خاصة أحاديث عمرة بالمدينة. وبالجمع بين النصين نقول: كان أمر عمر شاملاً وجامعاً لعلماء الأمصار المختلفة بتجميع أحاديث رسول الله ﷺ كلها، خاصة أحاديث المدينة[٢] . ولعله خص أبا بكر بن حزم بالإشراف على هذا العمل الضخم؛ لأجل حفظ السنة من الضياع.

طعن وتشكيك:

هذا، وقد شك بعض المستشرقين[٣] في عملية جمع عمر بن عبد العزيز للحديث، وجعلوا ذلك من قبيل المبالغة في نسبة هذا العمل إليه على سبيل المدح والثناء والإعجاب بهذا الخليفة الورع. وإذا فرض أنه أمر بهذا العمل، فإن القدر لم يمهله ليطالع إنجاز أبي بكر بن حزم، بدليل أن أبا بكر لما سأله مالك بن أنس عن الأحاديث، التي جمعها عمر بن عبد العزيز، شكا إليه أبو بكر ضياعها.

مناقشة هذا الطعن:

١- بالعودة إلى المصدر[٤] الذي اعتمد عليه جولدتسيهر في مقولته السابقة، تبين لي أن النص الوارد به كالآتي:

"وقال أبو ثابت، عن ابن وهب، عن مالك: لم يكن عندنا أحد بالمدينة عنده من علم بالقضاء ما كان عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. وكان ولاه عمر بن عبد العزيز، وكتب إليه أن يكتب له من العلم عند عمرة بنت عبد الرحمن، والقاسم بن محمد. ولم يكن بالمدينة أنصاري أمير غير أبي بكر بن حزم، وكان قاضياً.

" زاد غيره: فسألت ابنه عبد الله بن أبي بكر عن تلك الكتب، فقال: ضاعت " .

---

(١) تقييد العلم، للخطيب البغدادي صـ١٠٦، والرسالة المستطرفة، للكتاني صـ٣-٤.

(٢) بعض الباحثين لم يطالع إلا النص الأول، الذي يحدد لأبي بكر عمله بالمدينة، فاستنتجوا أنه كتب أحاديث كانت لدى بعض الناس، وأن جمعه للحديث لم يكن شاملاً (الدكتور الحوفي في مقال: تيارات الثقافة في العصر الأموي، مجلة المجلة، ع٨٢-أكتوبر ١٩٦٣م صـ١١، والدكتور العمري في(بحوث في تاريخ السنّة المشرفة صـ ٢٢٧).

(٣) مثل: جولدتسيهر فيما نقله إلينا سزكين في (تاريخ التراث العربي) صـ٩٠وهامشها، وصـ٩١.

(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر ١٢/ ٤١ (ترجمة رقم ١٥٤).

واخرج منه بما يلى:

أ- أن مجموعات الحديث التى أشرف على جمعها أبو بكر بن حزم بأمر من عمر بن عبد العزيز، قد جمعت بالفعل، وتم تحديد مصادرها كذلك، خلافاً لما يراه أحمد أمين من أن النص يقول: أمر عمر، ولم يقل: تم جمع الحديث[(١)].

فيبدو أنه لم يطالع نص ابن حجر هذا.

ب- لم يكن جولدتسيهر دقيقاً في فهمه للنص، حين زعم أن أبا بكر شكا لمالك ضياع ما جمع من حديث، والصحيح أن الذى أخبر بضياعها هو ابنه عبد الله ابن أبى بكر، وذلك بعد وفاة والده. وأخطأ المستشرق نفسه كذلك، عندما نسب ما نقله إلى (ابن وهب فيما يرويه عن مالك). والصواب: أن رواية ابن وهب وقفت عند بيان الجمع ومصادره، ومكانة أبى بكر العلمية. أما خبر ضياع ما جمع فهو زائد عن رواية ابن وهب، ولم يحدد ابن حجر مصدر هذه الزيادة، واكتفى بقوله: زاد غيره (أى: غير ابن وهب). ودقة ابن حجر هذه نستشف منها أن خبر الجمع ثابت بطرق أخرى كثيرة عن غير ابن وهب؛ مما ينفى الأُحادية التى زعمها جولدتسيهر، كما أن هذه الزيادة ثبتت عن كثيرين آخرين، ربما كانت كثرتهم قعدت به عن ذكرهم، وإن لم يكن ابن وهب ممن نقلها.

٢- ليس معنى أن مجموعات الحديث التى أشرف عليها أبو بكر قد ضاعت أن يدعو ذلك جولدتسيهر إلى التشكيك في القضية برمتها، فكم من كتب كانت موجودة في تراثنا، ثم فُقدت.

وهكذا، لعب عمر بن عبد العزيز وأبو بكر دوراً بارزاً في هذه المرحلة لجمع ما تيسر من أحاديث الرسول ﷺ وتدوينه، ومن ثَمّ يثبت خطأ من يزعم أن القرن الأول الهجرى مضى دون شيوع تدوين الحديث، وأنه كان يُرْوَى شفاهاً، وأن من كان يدونه كان يكتب لنفسه بصفة فردية[(٢)].

وأيّاً ما كانت الأسباب الداعية إلى ضياع جهود أبى بكر بن حزم؛ لموت الخليفة وضعف الهِمَّة بعده في إكمالها والحفاظ عليها[(٣)]، أو لانشغال عبد الله بن أبى بكر

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين ٢/١٠٦-١٠٧. وذكر هذا النص في معرض رده على منكرى خبر جمع عمر بن عبد العزيز الحديث، وقال: لعل الجمع لم يُنَفَّذ لموت عمر بن عبد العزيز.

(٢) فجر الإسلام، لأحمد أمين صـ٢٢٢.

(٣) خاصة أن أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم فقد منصب الولاية والقضاء على المدينة بوفاة عمر بن عبد العزيز، وعمل ضخم كهذا الذى نيط به يحتاج إلى قوة سلطان، حتى تشارك فيه بقية أقاليم الدولة الإسلامية. ويبدو أن أبا بكر يئس من إتمام هذا العمل، وقضى السنوات العشرين بعد وفاة عمر بن عبد العزيز في رواية الحديث.

بجمع المغازى وإهماله هذه المجموعات بعد وفاة والده[١] . فالذى يعنينا هو الحديث عن محاولة للجمع أرقى وأشمل تمت على يد محمد بن شهاب الزهرى.

جهود الزهرى في تجميع السنة النبوية:

وقبل الحديث عن هذه الجهود يحسن تركيز مقومات الزهرى الحديثية التى أهَّلَته للاضطلاع بهذا العمل كالآتى:

١- ولد الزهرى سنة ٥٠هـ على الأرجح، فتتلمذ على أيدى بعض الصحابة الأجلاء، مثل: عبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وسهل بن سعد، وأنس ابن مالك ﷺ. كما تلقى الحديث على أيدى عدد من كبار التابعين، مثل: عروة ابن الزبير، والأعرج، وسعيد بن المسيب الذى جالسه ثمانى سنوات[٢] .

٢- صَبْر الزهرى على العلم، ومثابرته عليه، وطلبه من كافة مَظانّه، فقد كان يأتى مجالس العلم من صدورها، ولا يَدَعُ أحداً إلا سأله[٣] ، ولم يكن يكتفى

بأن يستوعب ويعى من خلال ذاكرته الحافظة التى لا تكاد تنسى[٤]، والفهم الجيد الذى يدعم الحفظ[٥] ، وإنما جمع إلى ذلك المراجعة المستمرة لمحفوظاته[٦] ، والحرص التام على تسجيل ما يسمع من أحاديث مرفوعة وآثار مروية[٧] .

ونتيجة لما تقدم، فقد شهد العلماء له بالسبق والتفرد والعلم الغزير، والفهم العظيم، فقال عنه سفيان بن عيينة: " لم يكن في الناس أعلم بالسنة منه "[٨] . وعرف الخليفة عمر بن عبد العزيز له مكانته في الحديث النبوى الشريف، فقال: " عليكم

(١) تبدو الأسباب التى ذكرتها لتفسير ضياع عمل أبى بكر أقوى مما ذكره الدكتور الأعظمى في (دراسات في الحديث النبوى ص١٦٩) إذ قال: يبدو أنها ضاعت؛ لأن أبا بكر لم يحتفظ بنسخة من كتبه. وأقول: إن الجمع تم في نطاق محدود؛ لقصر فترة حكم عمر بن عبد العزيز. ولا يعقل ألا يبقى أبو بكر على نسخة لنفسه. وعلى كل، فلا نستطيع تحديد كَمّ هذا العمل ولا حجمه الذى تحقق بالفعل، لكننا نوقن أنه كان مدخلا طيباً لدور الزهرى.

(٢) الثقات لابن حبان ٤/ ٣٤٩-٣٥٠، وحلية الأولياء للأصفهانى (م.السعادة) ٣/ ٣٦٠، والوافى بالوفيات ٥/ ٢٤.

(٣) تهذيب التهذيب ٩/ ٣٩٧.

(٤) قال عن نفسه: " ما استعدتُ حديثاً أبداً، ولا شككت إلا في حديث واحد سألت صاحبى عنه، فإذا به كما أحفظه ". (سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٤٤).

(٥) يقول مالك: روى الزهرى حديثاً، فلما هَمَّ بالانصراف استفهمتُه، فقال: تستفهمنى؟ ما استفهمتُ عالماً أبداً (سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٣).

(٦) وهو القائل: " يذهب العلم بالنسيان، وترك المذاكرة ". (المصدر السابق: ٥/ ٣٣٧).

(٧) تهذيب التهذيب ٩/ ٣٩٧. وتقييد العلم للخطيب البغدادى ١٠٦-١٠٧، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٤٠٥.

(٨) تقدمة المعرفة، لابن أبى حاتم ص٤٢.

بابن شهاب هذا، فإنكم لا تلقون أحداً أَعْلَمَ بالسنة الماضية منه "[١] .

ولم يكتف الخليفة بمدحه، وإنما شرفه باختياره لمهمة من أخطر وأَجَلّ المهام، وهى مهمة تجميع الحديث النبوى الشريف تجميعاً شاملاً مستقصياً[٢] .

ولعله كلف بهذا العمل في وقت معاصر لمهمة أبى بكر بن حزم؛ ليحدث التنافس والاجتهاد المطلوبان لتنفيذ هذا العمل الضخم.

والحق أن محاولة الزهرى كُتب لها البقاء، من خلال ما روى في دواوين السنة عن الزهرى من أحاديث، ولم تَضِعْ نتائجها كما حدث لنظيره أبى بكر، كما يبدو أن الزهرى كان متفرغاً لأعباء العلم ومتطلباته، فكان أعظم إنجازاً من أبى بكر، وقد عَبّر العلماء عن ذلك بقولهم: " أول مَنْ دَوَّنَ العلم وكتبه ابن شهاب "[٣] . ولعلهم يقصدون أنه أول من جمع الحديث جمعاً مستقصياً شاملاً موثقاً بأسانيده.

ثالثاً - مرحلة تصنيف الحديث:

وهذه المرحلة تبدأ مع الربع الثاني من القرن الثانى الهجرى، وهى تطوير للمرحلة السابقة؛ إذ تم فيها تبويب وتنظيم الأحاديث المشتركة في الموضوع، ووضعها تحت باب واحد. وهى المرحلة التى سبق أن سماها ابن حجر مرحلة (الأحاديث المُدَوَّنة في الجوامع المُرَتَّبة). وقد شهدت بدايات هذه المرحلة مجموعة من العلماء الذين فُقدت كتبهم، ولم يبق إلا مجرد إشارات إلى أسمائها. ويبدو أن كل كتاب منها مخصص لأحاديث باب معين.

ومن هؤلاء:

١- عبد الملك بن عبد العزيز بن جُرَيْج (٨٠-١٥٠هـ) (*):

وهو محدث قرشى مكى مكثر، له تآليف. تتلمذ على أيدى علماء كثيرين، أشهرهم: عطاء بن أبى رباح، إذ لازمه ثمانى عشرة سنة، ونافع مولى ابن عمر، والزهرى، وغيرهم. وتتلمذ عليه الأوزاعى، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وابن المبارك، وغيرهم.

سأل عبد الله بن أحمد بن حنبل والده: من أول من صنف الكتب؟ قال: ابن جريج، وابن أبى عَروبة[٤] . ويبدو أنه كانت له كتب كثيرة فقدت؛ فقد قال سفيان بن

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٦.

(٢) بحوث في تاريخ السنة المشرفة للدكتور العمرى صـ٢٢٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٤، والرسالة المُستطرفَة للكِتَّانى صـ٤.

(*) اعتمدت في ترجمته على: الثقات لابن حبان ٧/ ٩٣-٩٤، ووفيات الأعيان لابن خلكان (ط.إحسان عباس) ٣/ ١٦٣، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٣٢٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٢٦، وتهذيب التهذيب ٦/ ٣٥٨.

عُيَيْنَة فيما ينقله عنه: " ما دَوّن العلمَ تدوينى أحدٌ "[١] . فهو أول من دون العلم بمكة.

ويبدو أن ابن جريج كان يصنف الأحاديث المتصلة بكل باب من أبواب الفقه في كتاب على حدة، فيذكر ابن النديم[٢] أن له كتاب " السنن "، وأنه فيه الطهارة والصيام وغير ذلك. وورد أن له كتاباً يسمى " الجامع "[٣]، كان يضم فيه العديد من الأحاديث المرتبطة بكثير من الأبواب الفقهية.

٢- مَعْمَر بن راشد (ت ١٥٣هـ) (*):

كتب الأحاديث، وصنّف الكتب، وعلى رأسها كتابه :(الجامع)، وهو فى السنن، وأقدم من موطأ مالك بن أنس[٤] ، وقد بَيّن الإمام الذهبى في ترجمة (مَعْمَر بن راشد)[٥] أنه عثر على ثلاثة أجزاء من هذا الكتاب. وبَيّن العلامة سزكين[٦] أن هذا الكتاب كتاب حديث، رُتِّب وَفْقاً لأبواب فقهية غير أساسية، ورواه عنه تلميذه عبد الرزّاق بن هَمَّام الصنعانى (ت ٢١١هـ)[٧] .

٣- سعيد بن أبى عَروبة البصرى (ت ١٥٦هـ):

قيل: إنه كان يحفظ ولم يكن له كتاب[٨] . ولا يمنع كونه جيد الحفظ متينه، أن يكتب في مرحلة تالية لحفظه؛ بدليل ورود نصوص، تذكر أنه أول من ألف الأبواب (أى: الأحاديث موزعة على أبواب فقهية) بالبصرة[٩] . وقد صرح ابن النديم بأن له

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٥٨.

(٢) الفهرست (ط.طهران) صـ٢٨٢.

(٣) تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٤ (ترجمة رقم ٤٢٩).

(*) بصرى الأصل، نزيل اليمن. إمام حافظ ولد ٩٥هـ أو ٩٦هـ، وتوفى - غالباً- ١٥٣هـ. يعد من أوعية العلم مع التحرى والورع، وحسن التأليف. روى عن قتادة، والزهرى، وهَمّام بن مُنَبِّه، وغيرهم. وروى عنه ابن أبى عروبة، وعبد الرزاق، وغيرهم.لقى الزهرى بالرصافة وأخذ عنه، وهو أول من رحل إلى اليمن من العلماء؛ طلباً للحديث.وتزوج هناك، وأقام حتى مات.(طبقات ابن سعد (ليدن) ٥/ ٣٩٧، وطبقات فقهاء اليمن للجَعْدى٦٦ ، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٥-١٤).

(٤) طبقات فقهاء اليمن للجعدى ٦٦.

(٥) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٤.

(٦) تاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) ١/ ٤٦٥.

(٧) وقد عَلّق شعيب الأرنؤوط في الهامش من (سير أعلام النبلاء) جـ٧ صـ١٤ ، فقال: إن (الجامع) لمعمر بن راشد طبع محققاً آخر كتاب (المصنف) لعبد الرزاق في ج١٠ صـ٣٧٩ إلى نهاية ج١١ ، لكن محقق المصنف لم يشر إلى ذلك.

(٨) تهذيب التهذيب ٤/ ٥٧.

(٩) المُحَدِّث الفاصل بين الراوى والواعى، للرَّامَهُرْمُزِىّ صـ٦١١ (رقم ٨٩٢)، والكِفاية في علم الرواية للخطيب البغدادى ٣٢٤، وتذكرة الحفاظ للذهبى ١/ ١٧٧.

كتاب (السنن)[١].

أخيراً، فقد عاصر من سبق ذكرهم من العلماء آخرون ساروا على الدرب نفسه، مثل: الربيع بن صَبيح البصرى (ت ١٦٠هـ)، وشُعْبَة بن الحَجَّاج بن الورد البصرى (٨٠-١٦٠هـ)، وسعيد بن سفيان الثَّوْرىّ الكوفى (٩٣-١٦١هـ)، وحَمَّاد بن سَلَمة البصرى (ت ١٦٧هـ)، ويحيى بن زكريا ابن أبى زائدة (١٢٠-١٨٣هـ).

دور مالك بن أنس في هذه المرحلة:

طَوَّر الإمام مالك (٩٣-١٧٩هـ) التصنيف الحديثى من خلال كتابه: (المُوَطَّأ)[٢]، الذى جمع فيه الأحاديث مرتبة على أبواب الفقه المختلفة في عمل شامل جامع، يعد من أقدم وأفضل مجموعات الحديث التى بين أيدينا إلى اليوم. وقد امتدحه الشافعى في عصره - قبل أن يخرج إلى الناس صحيح البخارى وصحيح مسلم - فقال: " لا أعلم كتاباً في العلم أكثر صواباً من كتاب مالك ". وإذا علمنا أنه وجدت في السنن مصنفات عديدة عاصرت الموطأ، مثل: كتب ابن جريج وغيره؛ دل ذلك على مكانة الموطأ وقيمته[٣].

المسانيد:

وهذا تطور أخير شهدته تلك الفترة في مجال التصنيف الحديثى، وفيه قام بعض العلماء بوضع مصنفات أشمل وأرقى للحديث، جعلوها مرتبة على أسماء الصحابة، فيقولون - مثلاً -: مسند أبى بكر، ويجمعون فيه الأحاديث التى رواها أبو بكر، وهكذا. ومن نماذج هذا النوع من التأليف: مسند أبى داود الطَّيَالِسِيّ (المتوفى بالبصرة ٢٠٢هـ)، ومُسَدَّد بن مُسَرْهَد البصرى (١٥٠- ٢٢٨هـ). وأخيراً، أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ)، ولعله وضع بعضاً من مسنده في القرن الثانى الهجرى، إلا أنه أدخل في القرن الثالث الهجرى.

وهكذا، تطور التصنيف في هذه المرحلة الثالثة من تأليف للأحاديث على باب فقهى واحد على يد ابن جريج ومعاصريه، إلى عدة أبواب تُضَمّ إلى بعضها، مثل: (الجامع) لمعمر بن راشد، ثم موطأ مالك، وأخيراً المسانيد. ومن الملاحظ أن علماء البصرة بالذات ومعهم علماء الكوفة كان لهم نصيب الأسد في مصنفات وجهود تلك المرحلة وإنجازاتها، ويأتى بعدهم علماء الحجاز كابن جريج، ومالك بن أنس. فكانت

(١) الفهرست (ط.طهران) صـ٢٨٣.

(٢) ذكر السيوطى في (تدريب الراوى) جـ١ صـ٨٩: أن محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة المدنى، المعروف بابن أبى ذئب (ت ١٥٩هـ) له موطأ أكبر من موطأ مالك، ولعله وضعه قبل مالك؛ بدليل قولهم لمالك: ما الفائدة في تصنيفك؟ قال: ما كان لله بقي.

(٣) اختصار علوم الحديث لابن كثير ٢٤-٢٥، وأصول التخريج ودراسة الأسانيد للطحان ١٣٥-١٣٦.

تلك الجهود مجتمعة موصلة للموسوعات الحديثية الضخمة في القرن الثالث الهجرى على أيدى البخارى ومسلم، وغيرهما من أصحاب السنن.

الوضع على الحديث النبوى الشريف (*):

يرجع اهتمامى بإثارة هذه القضية؛ نظراً لما يترتب عليها من نتائج خطيرة، أبرزها الاهتمام بالإسناد في روايات الحديث، وانعكاس أثر الإسناد في العلوم الإسلامية بعامة، وعلم التاريخ على وجه الخصوص.

متى ظهر الوضع على حديث الرسول ﷺ ؟:

يرى الأستاذ أحمد أمين(١) أن الوضع كان في زمن النبى ﷺ. ويستدل على ذلك بقوله ﷺ: " مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ "(٢) . وأعتقد أن هذا الرأى لا أساس له من الصحة لما يلى:

أ- أن النص الذى استنبط منه الباحث ما استنبط لا يعنى بالضرورة حدوث الوضع في حياته ﷺ؛ لأن الحديث ما هو إلا تنبيه وتحذير مما سيقع في المستقبل بعد وفاة الرسول، وارتفاع الوحى، وشيوع الفساد، وكثرة الوَضّاعين. ومن المعلوم أن الصحابة(٣) عدول ثقات أمناء يتحرون الصدق فيما يروونه عن رسول الله، فهم خارجون عن هذا الاتهام، وزائلة عنهم هذه التهمة(٤) . وقد عَبّر عن ذلك - بصدق، وأمانة - البَراء بن عازِب في قوله: " ما كل ما نحدثكم عن رسول الله ﷺ سمعناه منه، منه ما سمعنا، ومنه ما حدثنا أصحابنا، ونحن لا نكذب "(٥).

ب- لو حدث وضع في عهده ﷺ على لسان الكفار أو المنافقين، لفضح الرسول كذبهم على رءوس الأشهاد.

ج- لم يَرِد في السنة، ولا في السيرة، ولا في أى مصدر - على قدر علمى - ما

(*) الحديث الموضوع هو المختلق المصنوع، وهو شر الضعيف وأقبحه، ولا يروى إلا مُبَيّناً أنه موضوع.(اختصار علوم الحديث، لابن كثير صـ٦٥، وتدريب الراوى للسيوطى١/ ٢٧٤، وتيسير مصطلح الحديث للطحان٦٦).

(١) فجر الإسلام صـ٢١١.

(٢) أخرجه البخارى في (صحيحه ط.دار ابن كثير - بيروت) في كتاب (العلم) باب (إثم من كذب على النبى) ١/ ٥٢ رقم (١٠٧).

(٣) وأعنى بالصحابى: من جالس الرسول ﷺ، وعاشره، وتتلمذ على يديه، وأخذ منه عن قرب. فليس الصحابى من رأى النبى مجرد رؤية عابرة، أو لقيه مرة واحدة، فإن هذا لا أعتقد انطباق لفظ (الصحابى) عليه بالمفهوم الصحيح .

(٤) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم مج١ قسم١ صـ١٤.

(٥) معرفة علوم الحديث، للحاكم النَّيْسَابُورِىّ صـ١٤.

يدل على حادثة واحدة من هذا القبيل في عهده ﷺ، ولا في عهد أبي بكر، وعمر. فالصحابة في عهدهما كانوا يدققون في الرواية عن الرسول، بل كان عمر بن الخطاب يتهدد الصحابة الذين يكثرون من الحديث، ويطالبهم ببيّنة على صدقهم(١)، ولم يكن ذلك تشكيكاً في صدقهم، بل زجراً لمن سواهم من باب أولى.

ويظل السؤال قائماً: إذن متى بدأ الوضع على رسول الله ﷺ؟ والجواب تلقفه الباحثون من نص مشهور نُسب إلى محمد بن سِيرين قال فيه: " لم يكونوا يسألون عن الإسناد. فلما وقعت الفتنة، قالوا: سَمُّوا لنا رجالكم. فيُنظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم "(٢).

وقف الباحثون أمام هذا النص، وحاولوا فهمه على النحو الآتى:

أ- فسر (شاخت) لفظة (الفتنة) بأنها الحرب الأهلية التى بدأت بمقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ(٣). وبناء عليه فإن نص ابن سيرين مدسوس عليه؛ لأنه توفى ١١٠هـ، فكيف يخبر عن أشياء وقعت بعد وفاته بستة عشر عاماً ؟!

ب- أثناء حديث هوروفتس عن عروة بن الزبير (٢٢-٩٤هـ) ذكر أنه كان يستعمل الإسناد، وأنه ظهر بصورته البسيطة سنة ٧٥هـ، وأن عروة كان لا يذكره أحياناً؛ لأنه كان عادة في عصره، وإن لم يكن ضربة لازِب(٤).

جـ- يرى روبسون(٥) أن المقصود بالفتنة في كلام ابن سيرين هو: فتنة ابن الزبير (ت ٧٣هـ)، فذلك مما يدركه ابن سيرين جيداً؛ إذ ولد ٣٣هـ، كما أنه يتفق مع رأى هوروفتس السابق من أن الحديث أُدخل فيه الإسناد - كرد فعل لمظاهر الوضع والفتنة - في الثلث الأخير من القرن الأول الهجرى.

د- يرى الدكتور عَجَّاج الخطيب(٦) أن المقصود بالفتنة فتنة عثمان بن عفان، وهى التى نتج عنها الوضع.

---

(١) مثال ذلك: مطالبة عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعرى أن يقيم بينة على صحة حديث: " من استأذن ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع ". (أخرجه البخارى في صحيحه، ط.دار ابن كثير-بيروت)، كتاب(الاستئذان) باب (التسليم والاستئذان ثلاثاً) ٥/ ٢٣٠٥(رقم٥٨٩١).

(٢) مقدمة صحيح مسلم، باب (بيان أن الإسناد من الدين) ١/ ١٥، وتدريب الراوى للسيوطى ١/ ٢٠٣.

(٣) ولعله اعتمد في مفهومه ذلك على ما أورده الطبرى في (تاريخه) ٧/ ٢٦٢، حيث قال: " في هذه السنة اضطرب حبل بنى مروان، وهاجت الفتنة ". وقد أورد رأيه كل من: بشار عواد معروف في مقال: (مظاهر تأثير علم الحديث في علم التاريخ عند المسلمين)، مجلة الأقلام البغدادية ج٥. السنة الأولى، ١٩٦٥م صـ٢٣، والدكتور العمرى في (بحوث في تاريخ السنة المشرفة) صـ٤٦، وكلاهما نقل عن شاخت في كتابه: The origins of muhammadam jurisprudence, P. 36-37.

(٤) المغازى الأولى ومؤلفوها صـ٢٣.

(٥) بحوث في تاريخ السنة المشرفة، للدكتور العمرى صـ٤٩ (وهامشها بمراجعه الأجنبية).

(٦) السنة قبل التدوين صـ٢٢٠.

هـ- يذكر الدكتور بَشّار عواد[١] أنه لا يوجد تاريخ محدد لاستعمال الإسناد في الحديث، فلفظة (الفتنة) الواردة في نص ابن سيرين تحتمل افتراضات عديدة، منها: فتنة عثمان، وصفين، والاضطرابات الناتجة عن تنازل معاوية الثانى عن الخلافة، ووقعة مرج راهط، وثورة ابن الزبير. ولا يوجد بعد ذلك فتنة بالمعنى الصحيح حتى وفاة ابن سِيرين ١١٠هـ. ويرفض الدكتور بشار الرأى القائل بأن الفتنة هى فتنة عثمان، فذلك ظن لا دليل عليه، ويرفض رأى شاخت الذى يفسر الفتنة تفسيراً لغويّاً ضيقاً. وينتهى إلى أن الفتنة هى وجود عوامل تساعد على الوضع أيّاً ما كانت، وأن الإسناد لم يوجد بصورته الواضحة قبل بداية القرن الثانى الهجرى، وأن عمل عمر بن عبد العزيز هو البداية الواضحة للإسناد عند التدوين، وأن الإسناد تمركز بصورته الأخيرة في النصف الأول من القرن الثانى الهجرى.

و- خلاصة رأى الدكتور العمرى[٢] : أن الاختلاف في التحديد الزمنى لبدء استعمال الأسانيد ليس مهمّاً، فالإسناد كان معروفاً للصحابة والتابعين من الحفاظ، لكن الالتزام بذكره ظهر بعد الوضع، والوضع كان في أعقاب فتنة عثمان. وكلام ابن سيرين ورد في مصادر موثقة معتمدة، فلا يجوز التشكيك فيه، ولفظة الفتنة عامة في الدلالة على الانشقاقات بعامة.

رأيى في قضية الوضع على الحديث:

١- من الطبيعى أن يكون التدقيق في الإسناد قد وقع لما توفرت أسباب الوضع وشاع وانتشر؛ فالوضع سابق على التدقيق في الإسناد.

٢- عبارة ابن سيرين وردت بأسلوب الغائب لا المتكلم، فهو يرصد ظاهرة وقعت قبل أيامه. كل ما في الأمر أن الاستفسار لزم بعد الفتنة، وقبلها كان الراوى بالخيار يذكر إسناده، أو لا يذكره[٣] .

٣- الفتنة لفظ شائع يصدق على الظروف المهيئة للوضع[٤] ، ولا داعى للتحديد الدقيق لها. وقد عثرت على نص يمكن أن يعد بداية الوضع، إذ كان أثناء فتنة عثمان

---

(١) مقال: مظاهر تأثير علم الحديث في عام التاريخ عند المسلمين، مجلة الأقلام البغدادية، ج٥، السنة الأولى ص٢٢-٢٤.

(٢) بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص٤٦-٥٥.

(٣) دراسات في الحديث النبوى للأعظمى ص٣٩٦-٣٩٧.

(٤) عوامل الوضع كثيرة تخصصت فيها كتب كاملة، مثل: الموضوعات لابن الجوزى، وهذه العوامل ترجع لأسباب سياسية وخلافات وصراعات داخلية، وتناحر الفرق الكلامية، ورغبة بعض الوعاظ في الترغيب والترهيب، فاخترعوا الأحاديث بحسن نية؛ لترغيب الناس في الخير وصرفهم عن الشر، إلى جانب أحاديث وضعت لأهداف شخصية كفضائل بعض الأطعمة، أو بعض المدن، أو بعض الحكام .. إلخ.

إثر الخلافات السياسية والتمرد الحاصل ضد خلافته، والذى تتابعت بعده الفتن. روى السيوطى[(١)] أن عبد الرحمن بن عُدَيْس البَلَوىّ - وهو من أكبر معارضى عثمان، وممن شارك في قتله - وضع حديثاً رفعه إلى رسول الله ﷺ زوراً وبهتاناً، يزعم فيه أن الرسول وصف عثمان بأنه بلغ الغاية في الضلال. وقد أُخبر عثمان بما قاله ابن عديس، فكذّبه أمام الناس. فلعل هذا المثال النادر بداية سيل الوضع.

النتائج المترتبة على الوضع:

إذا اعتبرنا ما كان يحدث في عهد الصحابة من سؤال بعضهم البعض عن الأحاديث عملاً وقائياً، وممهداً للمرحلة الأولى من مراحل توثيق السنة المطهرة؛ فإن ما وقع من الوضع بعد ذلك ترتبت عليه نتائج مهمة، منها: تشدد العلماء في مطالبة الرواة بأسانيد أحاديثهم، ووضع مقاييس لنقد الرواة، ومحاولات جيدة لنقد متون الأحاديث. كل ذلك للتصدى لخطر الوضع الداهم بأساليب تناسبه. لكن هذه النتائج المترتبة على الوضع كانت على مراحل متوالية، نعرضها على النحو الآتى:

١- مرحلة كبار التابعين:

لما فشا الوضع على حديث الرسول ﷺ، قَيّض الله لحفظ السنة رجالاً أفذاذاً، هم الذين عَبّر عنهم الحديث القائل: " يحمل هذا العِلْمَ من كل خَلَفٍ عُدُولُه، يَنْفُون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويل الجاهلين "[(٢)].

هذا، وقد ظهر في هذه الفترة المبكرة عدد من نَقَدة الحديث النبوى الشريف، منهم:

أ- سعيد بن المُسَيِّب (١٣-٩٤هـ) [(*)]:

وكان له باع كبير في السنة النبوية المطهرة، حريصاً على ذكر الأسانيد إلا أنه كان يروى عن التابعى مرفوعاً إلى النبى ﷺ دون أن يذكر الصحابى، الذى رفع الحديث إلى النبى ﷺ، وذلك ما يسمى بـ (المراسيل)، لكن العلماء - ومنهم: أحمد بن حنبل- مدحوا مراسيله وصححوها. قال أحمد: مرسلات سعيد صحاح، لا نرى أصح من

---

(١) اللآلئ المصنوعة ١/٣١٨.

(٢) ورد في (الجرح والتعديل) لابن أبى حاتم ١/ ١/ ١٧، والكامل لابن عَدِىّ ٣/ ٩٠٢ (وإن كان ذكره بإسناد فيه راوٍ ضعيف صاحب موضوعات هو خالد بن عمرو السعيدى). وذكر ابن كَثِير في البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف) ٦/ ٢٥٦: أنه ورد بطرق مرسلة، وغير مرسلة.

(*) سعيد بن المسيب بن حَزْن القرشى المدنى. أحد الفقهاء السبعة في المدينة، وسيد التابعين من الطراز الأول. جمع بين الفقه والحديث والزهد والورع والعبادة. لقى بعض الصحابة، وسمع منهم، مثل: سعد بن أبى وقاص، وأبى هريرة. وكانت له مواجهة مع عبد الملك بن مروان، حين رفض المبايعة لابنه الوليد، وتعرض للجلد والسجن من جَرّاء ذلك. (وفيات الأعيان لابن خلكان، ط.إحسان، ٢/ ٣٧٥، وتهذيب التهذيب ٤/ ٧٤).

مرسلاته.كما جعلها الشافعى حسنة[1].

ب- الحسن البصرى (٢١-١١٠هـ):

هو من التابعين الكبار الذين صحبوا كثيراً من الصحابة. وكان عالماً ذا هيبة وجلال، وصلاح وورع، وكان فصيحاً تتفجر الحكمة من جوانبه، وتنطق من نواحيه[2]. وكان ثقة يدقق في الرواية عن رسول الله ﷺ، ويشتد في تحريه، حتى قال أبو زُرْعَة: كل شئ يقول فيه الحسن البصرى: قال رسول الله ﷺ، وجدت له أصلاً ثابتاً ما خلا أربعة أحاديث[3]. وإذا لم يصح منها شئ، فذلك ليس منه، وإنما من بعض الرواة غير الثقات، الذين يخطئون في الرواية عنه[4].

ج- محمد بن سيرين الأنصارى البصرى (٣٣-١١٠هـ):

كان إمام وقته. روى عن مولاه أنس بن مالك، وزيد بن ثابت، والحسن بن على، وحُذَيْفَة بن اليَمَان، ورافع بن حُدَيْج، وغيرهم. وكان ثقة دقيقاً يحدث بالحديث على حروفه[5]. وقد بلغ الإسناد لديه أهمية فائقة، فأوجب النقل عن الأمناء الثقات؛ مدركاً أهمية ذلك لصحة الحديث. وعَبّرَ عن الإسناد بأنه دين، والدين لا يقوم إلا على دعائم صحيحة لا يتطرق إليها خلل. قال ابن سيرين: " إن هذا الحديث دين، فانظروا عمن تأخذونه "[6].

والخلاصة:

هذه المرحلة لم يكن فيها الإسناد لازماً، فأحياناً يلتزم به وأحياناً لا يلتزم، وإن كان السؤال عنه موجوداً وإن لم يبلغ الذروة. وكان بعض المحدّثين يرسلون الأحاديث وهم واثقون بصحتها، فلا يتطرق إليها شك؛ لتدقيق ناقليها وصحة مصادرهم. وقد كان نقد الرجال في هذه المرحلة قليلاً، وكان في الرجل بعد الرجل؛ لقلة الضعفاء في ذلك العصر[7].

٢- مرحلة الزهرى:

رأينا دور الزهرى في تجميع الحديث النبوى الشريف في عهد عمر بن عبد

(١) المصدر السابق ٤/ ٧٦.
(٢) تهذيب التهذيب: ٢/ ٢٣١.
(٣) المصدر السابق: ٢/ ٢٣٣.
(٤) المصدر السابق: ٢/ ٢٣٢.
(٥) تهذيب التهذيب ٩/ ١٩٠.
(٦) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم ١/ ١/ ١٥.
(٧) مقدمة صحيح مسلم باب (بيان أن الإسناد من الدين) ١/ ١٤، ومقدمة محقق (تدريب الراوى) صـ٣.

العزيز ﷺ، ولا شك أنه جَمْع راعى فيه شروط الرواية، وهو أمر طبيعي؛ نظراً لوثاقة المصادر التى استقى منها الزهرى أحاديثه بالمدينة. والحق أن الزهرى لعب دوراً كبيراً في إرساء دعائم الإسناد[١] الحديثى، عندما حَرَصَ عليه، وغدا ضرورة لا مَنَاصَ منها، واعتبر الزهرى إغفال السَّنَد جرأة على الله[٢]. وبلغ من حرصه على الإسناد أن قال عنه مالك تلميذه بعد ذلك: " أول من أسند الحديث ابن شهاب "[٣]. وشهد له الإمام أحمد بن حنبل، فقال: " الزهرى أحسن الناس حديثاً، وأجود الناس إسناداً "[٤].

وقد انعكس أثر الزهرى في نقد الحديث، فأدى إلى:

أ- أنه نشر الإسناد بين العلماء، وجعل له مكانة ممتازة، لا يمكن إهدارها، وجعل الحديث بدون الإسناد مهدر القيمة. قال ابن عيينة: " حدث الزهرى يوماً بحديث، فقلت: هاته بلا إسناد. قال: أترقى السطح بلا سُلَّم " ؟![٥] وكان الزهرى إذا حدث أسند، وقال: " لا يصلح أن ترقى السطح إلا بدرجة "[٦].

ب- أنه أدى إلى طغيان الإسناد أوائل القرن الثانى الهجرى، ودفع المحدثين إلى التزامه، وإليه يرجع الفضل في التزام محدثى الشام للأسانيد في أحاديثهم بعد أن كانوا يتساهلون في ذلك. قال الوليد بن مسلم: جمع الزهرى أهل الشام بالمسجد، فسمعهم يقولون: قال رسول الله ﷺ ويكررونها. فقال لهم: مالى لا أرى لأحاديثكم أزِمَّةً[٧]، ولا خُطُماً[٨] ؟! قال: فَتَمَسَّك أصحابنا بالأسانيد من يومها[٩].

جـ- كان للزهرى دوره الطيب في معرفة رجال الإسناد في الحديث، إذ كان على علم بالنسب. ويقال: إنه ترك كتاباً بعنوان: (نسب قريش)، أفاد منه مصعب الزبيرى في كتابه الذى وضعه بالاسم نفسه[١٠]. وكان الزهرى قد تتلمذ على ابن المسيب

---

(١) السند: الإخبار عن طريق المتن، أو هو سلسلة الرجال الموصّلة للمتن. الإسناد: رفع الحديث إلى قائله مُسْنَداً. والمحدّثون يستخدمون السند والإسناد لشئ واحد(مقدمة السيوطى لكتابه: تدريب الراوى١/ ٤١-٤٢، وتيسير مصطلح الحديث للطحان١٣-١٤).

(٢) معرفة علوم الحديث، للحاكم صـ٦.

(٣) تقدمة المعرفة لابن أبى حاتم ٢٠.

(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٥.

(٥) مناقب الشافعى للبيهقى ٢/ ٣٤، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٣٤٧.

(٦) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ١/ ١/ ١٦.

(٧) أزِمَّة: جمع زِمام، وهو ما زُمَّ به. ويكون حبلاً يُجعل في الخشبة، وغيرها. (لسان العرب لابن منظور، مادة: (ز.م.م.) ٣/ ١٨٦٥.

(٨) خُطُم: جمع خِطام. والفعل: خَطَمَ، يَخْطِمُ، خَطْمًا. وهو ما يُوضَع في أنف البعير؛ ليُقادَ به (المصدر السابق: مادة (خ.ط.م) ٢/ ١٢٠٤). والمعنى: ليس لأحاديثكم أسانيد تُشَدّ إليها، وتُضْبَط متونها.

(٩) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٨٨، ٥/ ٣٣٤.

(١٠) تاريخ التراث العربى، لسزكين (ط.الهيئة العامة) ١/ ٤٥٣.

وغيره، وكان علمه بالنسب مدخلاً لاتصاله بعبد الملك ابن مروان، الذى كان يوفده إلى علماء النسب في الأمصار، مثل: خارجة بن يزيد وغيره؛ وذلك للأخذ عنهم[١].

ولا شك أن علم الأنساب كان قاسماً مشتركاً بين المحدثين في القرون الأولى؛ لأهمية الأنساب في معرفة رواة الحديث وتاريخهم، ونشأتهم ومواليدهم ووفياتهم، ومعرفة آبائهم وأجدادهم وأمهاتهم، ومعرفة الطابع النفسى والخلقى لهم من خلال معرفة قبائلهم التى ينتسبون إليها. كل ذلك يساعد على إدراك حال الرجال.

د- لعب الزهرى دوراً كبيراً في اتصال الأسانيد؛ فقد كان يبحث عن الصحابة الرواة للأحاديث، ويبحث - كذلك - عن أوائل التابعين؛ ليعرف ما نسب إليهم من الأحاديث. وذكر الذهبى - نقلاً عن أبى داود - أن أحاديث الزهرى بلغت ألفيْن ومائتى حديث نصفها مسند. وقد أتى كثيرون إليه ومعهم أحاديث مدونة، يريدون إثبات أسانيدها حتى يرووها بالإسناد. وكان للزهرى منهجه الذى يدل على معرفته المبكرة بقواعد مصطلح الحديث، إذ كان يرى - على كثرة الأحاديث - جواز رواية الحديث، سواء قُرئ على العالم، أم سُمع منه[٢]. وعلى كل، فإن عدداً من أحاديث الزهرى لم يُتوصّل إلى أسماء الصحابة الراوين لها، فرُوِيَتْ على أنها مراسيل.

٣- مرحلة ما بعد الزهرى:

لقد تعمق الاهتمام بمصطلح الحديث، وجرح الرجال وتعديلهم، كذلك دراسة المتون في هذه المرحلة، وظهرت نخبة من العلماء تصدوا بصورة واضحة لهذه المهام الجسام. ولا ننتظر في هذه المرحلة أن نجد مصنفات في (الجرح والتعديل)؛ لأن العلماء كانوا يكتفون بمعرفة أحوال الرواة فيما بينهم؛ لقرب زمانهم من الصحابة والتابعين. وعلى هذا، فأمر تسجيل ذلك النقد في مصنفات يعود إلى القرن الثالث الهجرى، لَمَّا مات العالمون بأحوال الرواة، وخُشى أن يضيع تراثهم النقدى، فحمل أعباءه مَنْ بعدهم.

ملامح هذه المرحلة:

١) فيما يتصل بالسند تمت الإنجازات الآتية:

أ- وضع شروط الراوى المحدِّث:

كان المحدّثون يرفضون الرواية عن أى أحد، وإنما يتحرون عن أخلاقه وورعه. قال عبد الرحمن بن مهدى (١٣٥-١٩٨هـ)[٣] : " لا يكون إماماً من أخذ الحديث عن

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٠-٣٣١.

(٢) ورد في سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٨ عن معمر، عن الزهرى قال: " القراءة على العالم، والسماع منه سواء، إن شاء الله ".

(٣) أبو سعيد، عبد الرحمن بن مهدى البصرى. إمام من أئمة الحديث. روى عن مالك، وشعبة، =

كل أحد " . وفى رواية: أنهم إذا أرادوا الأخذ من أحد، نظروا إلى صلاته، وإلى هيئته وسَمْتِه[(١)] . وكانوا لا يكتفون بالخُلُق، بل يضيفون إليه: العقل، والحفظ، والضبط. فكان مالك ﷺ يقول: أدركتُ سبعين ممن يقول: قال فلان، وقال رسول الله ﷺ، وكلهم أمناء، ولم آخذ عن أحد منهم؛ لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن[(٢)] .

ب- رسوخ مصطلحات تحمل الأحاديث، ومعرفة دلالاتها بدقة:

فمثلاً: كان يحيى بن أبى كثير (ت ١٢٩هـ) يفْرق بين ما أخذه سماعاً على الشيوخ، وبين ما أخذه من كتاب ولم يسمعه، قال: " إذا قلتُ: بلغنى، فإنه من كتاب "[(٣)] .

وكان سفيان الثورى (٩٧-١٦١هـ) يملى عليه عكرمة بن عَمَّار اليَمَامِىّ، ويوقفه عند كل حديث، ويقول له: قل: سمعتُ، حدثنى[(٤)] .

جـ- استخدام عبارات جرح وتعديل الرواة:

وكان ذلك شائعاً في هذا العصر دون أن تضمه دَفَّتا كتاب، تذكر فيه تراجم الرجال وتجريحهم وتعديلهم، وكأن ذلك العصر نواة لما صُنِّف بعد على يد البخارى وغيره. فهناك مصطلح (واهى الحديث) أطلقه مالك، وشعبة بن الحجاج، ويحيى بن سعيد القطان، وقالوا: ينبغى بيان أمر هذا الواهى، أى: وجه ضعفه[(٥)] . وكان مالك يعرف مصطلح (التدليس)[(٦)] . فقد نقم على هشام ابن عروة (٦١-١٤٦هـ) حديثه لأهل العراق، وكان لا يرضاه؛ لأنه انبسط في الرواية، فأرسل عن أبيه أشياء مما كان سمعه من غير أبيه، عن أبيه[(٧)] .

وهكذا، ثبت أن القرن الثانى الهجرى شهد إنجازاً طيباً وتمهيداً جيداً لمصنفات

= وسفيان بن عيينة. روى عنه ابن المبارك، وابن معين، ويحيى بن يحيى الليثى، وغيرهم. كان غزير الرواية في الحديث، رغم أنه لا يحدث إلا عن الثقات، وكان ممن جمع وتفقه وَصنّف. (طبقات ابن سعد، ط.ليدن ٧/ ٢/ ٥٠، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٦/ ٢٥٠).

(١) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ١/ ١/ ١٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٤٣.

(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٠.

(٤) تقدمة المعرفة لابن أبى حاتم ١١٧.

(٥) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ١/ ١/ ٢٣-٢٤.

(٦) التدليس نوعان: تدليس الإسناد: وفيه يروى الراوى عمن عاصره ما لم يسمع منه موهماً سماعه قائلاً: قال فلان، أو عن فلان، ونحوه. وهذا مكروه مذموم (وهو ما فعله هشام بن عروة). وتدليس الشيوخ: فيه يسمى الراوى شيخه، أو يكنيه، أو ينسبه، أو يصفه بما لا يعرف عنه. وهو مكروه إذا كان الشيخ ثقة. أما إذا كان غير ثقة ودلسه؛ حتى يخفى على نقاد الحديث فهذا محرم .(اختصار علوم الحديث لابن كثير ٤٥-٤٦، وتدريب الراوى ١/ ٢٢٤، ٢٢٨، وتيسير مصطلح الحديث للطحان ص٥٩ وما بعدها).

(٧) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٥.

الجرح والتعديل، خلافاً لما يذكره عبد الحميد بخيت[١] من أن تدوين وجمع الحديث في القرنين: الأول، والثانى الهجريين كان عبارة عن رواية للحديث فقط دون وجود بحوث في الجرح والتعديل، والإسناد وقواعده.

فالحق أنه لولا جهود هؤلاء المعدّلين المجرّحين ما كان إنجاز القرن الثالث الهجرى.

٢) فيما يتصل بالمتن:

رأينا - فيما مضى - أن حجم اهتمام المحدثين. ينقد أسانيد الأحاديث النبوية بلغ شأواً كبيراً، فهل كانوا يهتمون بمتن الحديث اهتمامهم بالإسناد، علماً بأن الحديث لا يصح إلا إذا صح كل من الإسناد والمتن معاً؟

والجواب: أن علماءنا تركز اهتمامهم على نقد الإسناد، ولم يناقشوا متن الحديث إلا في القليل النادر، فقلما تظفر بنموذج رَدَّه النقاد من ناحية المتن وإن صح إسناده، كأن يكون غير متفق مع الظروف المَقُول فيها، أو متناقضاً مع الحوادث التاريخية الثابتة، أو متضارباً مع القرآن ومنطق الأشياء التى يقرها الإسلام، أو أن العبارة غير مألوفة ومغايرة للفصاحة أو لقواعد اللغة، إلى آخر ما يمكن أن يشكك في المَتْن[٢].

ولعل مما ساهم في ندرة نماذج نقد المحدثين للمتون أن بعض النقاد كان ينظر إلى الإسناد، وربما لا يلتفت إلى المتن، أو على أحسن الفروض يجعله المحك الأخير في الحكم على الحديث. ومن هؤلاء: يحيى بن سعيد القَطّان[٣] البصرى، فقد كان يقول: " لا تنظروا إلى الحديث (لعله يقصد: إلى مَتْن الحديث)، ولكن انظروا إلى الإسناد. فإن صَحّ الإسناد، وإلا فلا تَغْتَرُّوا بالحديث، إذا لم يصح الإسناد[٤].

ونتيجة لما تقدم، فإن الإمام الشافعى ﷺ يعترف بهذه الحقيقة، حقيقة ندرة الاعتماد

---

(١) دراسات تاريخية في رجال الحديث ص١٦-١٧.

(٢) السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامى، للدكتور مصطفى السباعى ص٢٧٠-٢٧٢.

(٣) سمع هشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وابن أبى عروبة، وشُعْبَة، والثورى، وغيرهم. عُنِى بالحديث أشد العناية، ورحل فيه وساد الأقران، وتكلم في العِلَل والرجال، وبلغ المنتهى في التثبت. قال عنه ابن المَدِينىِ: لم أر أعلم منه بالرجال. ولد ١٢٠هـ، وتوفى ١٩٨هـ. (طبقات ابن سعد، ط.ليدن، ٧/ ٢/ ٤٧، وتهذيب التهذيب ٩/ ١٧٥-١٨٨).

(٤) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٨٨. ونصه هذا يمكن أن يحمل على فهمين: الأول - أنه يرى الإسناد هو المحك الأول - وليس الأخير، وليس الأوحد - للحكم على الحديث، فكأنه رأى أن إدراك مخالفة الحديث وضعفه من جهة المتن أمر ميسور، لكن الذى يحتاج إلى خبرة وصبر وتدقيق وبحث هو الإسناد، فيبحث أولاً. والحق أن هذا الفهم مرجوح؛ لأنه لو كان الأمر على ما نقول، لبُدئ بالسهل وهو المتن، فإن لم يصح لا ننظر في السند؛ لأن عدم صحة المتن كافٍ لرد الحديث. الثانى - أنه يهتم بالإسناد فقط ويهمل المتن، وهذا هو الراجح في مفهوم نصه. ولا شك أنه منهج غير صحيح، ربما دفعه إليه تمكنه في الرجال وتشدده في ذلك، ولم يؤثر عنه أنه فقيه يهتم بالمعانى في الحديث.

على المتن في نقد الحديث، فيقول: " ولا يُسْتَدَلُّ على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق المُخْبِرِ وكذبه، إلا في الخاص القليل من الحديث، وذلك أن يستدل على الصدق والكذب فيه بأن يُحَدِّث المحدّث ما لا يجوز أن يكون مثله، أو ما يخالفه ما هو أثبت وأكثر دلالات بالصدق منه "(١) .

وعلى الرغم مما تقدم، فإننا لا نَعْدَم أن نجد مظاهر مباشرة، أو غير مباشرة، قديمة أو معاصرة للاهتمام-ولو قليلاً-بنقد متون الأحاديث، كما يلى:

أ- تجويز السيدة عائشة رضي الله عنها لابن أختها المحدث عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ) أن يروى أحاديث رسول الله ﷺ بالمعنى، وأنه لا داعى لأن يشق على نفسه برواية الأحاديث بنصها وحروفها، ما دام يحافظ على دلالاتها(٢) . وهذا هو ما

استقر عليه المحققون من جواز رواية متن الحديث بمعناه، ما دام الراوى لا يُحِلّ حراماً ولا يُحَرِّم حلالاً(٣) . وهذا يقتضى حسن فهم المتن والنظر فيه والاهتمام بمعناه، وهو نوع ما من الاهتمام بالمتن.

ب- تفضيل الأحاديث التى يرويها فقهاء علماء يفهمون الحديث ويقفون على معانيه، على الرواة الذين يكتفون بالحفظ وإن علا إسنادهم. فقد فَضّل وَكيع بن الجَرَّاح الكوفى (١٢٨-١٩٦هـ) إسناداً فيه فقهاء على آخر فيه الشيوخ (رواة غير فقهاء)(٤) .

جـ- كان بعض النقاد الواعين يجعل النظر إلى المتن مساوياً للنظر إلى الإسناد. ومن هؤلاء: على بن المَدِينىّ البصرى (١٦١-٢٣٤هـ) الذى قال: " التفقه في معانى الحديث نصف العلم، ومعرفة الرجال نصف العلم "(٥) .

د- حاول بعض الباحثين المعاصرين(٦) دراسة نقد المتون، لكن الكفة مالت به، فحَكّم في المتون مقاييس قاصرة جَنَحَتْ به إلى الهوى، فرَدَّ أحاديث صحيحة وردت في صحيح البخارى - مثلاً - كما ذكر هو نفسه(٧) ، ورَدّ أحاديث لسوء فهمه لمعناها وهى صحيحة(٨) ، ورَدّ ما ظنه يتعارض مع الطب الحديث رغم أن الطب لم ينكره

(١) الرسالة (تحقيق: أحمد شاكر) للشافعى ص٣٩٩ (رقم ١٠٩٩).

(٢) الكفاية في علم الرواية للخطيب ص٣٠٩-٣١٠.

(٣) الكفاية في علم الرواية للخطيب ص٣٠٠-٣٠٦.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٥٨/٩، ومقدمة تدريب الراوى للسيوطى ص٤٤.

(٥) سير أعلام النبلاء ٤٨/١١.

(٦) هو الدكتور حسين الحاج حسن في كتابه: (نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية).

(٧) مثل: حديث البقرة التى أخبر النبى ﷺ أنها تكلمتْ، فاعتبرها - في (كتابه السابق) ج٢ ص٣٥ - من السخافات التى تُصان منها العقول. سامحه الله.

(٨) مثل حديث: " لا تأتى المائةُ وعلى ظهرها أحَدٌ باقٍ ". وهو صحيح كما سأوضحه في مدرسة =

وأيده[١] . ولا نغمطه حقه، فقد وُفِّق - أحياناً - في رد أحاديث ربما لُفِّقَتْ لها أسانيد صحيحة، لكن متونها فاسدة[٢] .

وعلى كل، ينبغى لرجال الحديث الآن، أن يبحثوا هذه القضية بحثاً جديداً مستقصياً لسد ما فيها من ثُلْمَة لا يسدها إلا العالمون.

وبعد، فها هو الحديث - في المدارس العلمية سوى مصر - قد حظى بالاهتمام الكبير سنداً ومتناً، وجرحاً وتعديلاً، وحفظاً ورواية، وتدويناً وتصنيفاً. ووقف العلماء للوَضّاعين بالمرصاد حتى في أكثر الأماكن قلاقل واضطرابات وانحرافات (العراق)، فكان معظم النقاد من البصرة والكوفة، كما رأينا. وما أحسن قولة ابن المبارك لما سئل: هذه الموضوعات؟ قال: " تعيش لها الجَهَابِذَة "[٣] .

وأخيراً، ماذا كان دور مصر في الحديث؟ وما علاقتها بالمدارس الأخرى؟ نجيب عن ذلك في الصفحات المطوّلات التاليات.

مدرسة الحديث في مصر الإسلامية:

إذا كان الصحابة (رضوان الله عليهم) حرصوا على رواية الحديث في حياة الرسول ﷺ، فإن حرصهم على ذلك زاد بعد وفاته، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى. وما ذاك إلا لتبليغ الناس دعوة الإسلام وتعاليم الله ورسوله. ولم يلبث الصحابة أن انتشروا خارج الجزيرة العربية خاصة مع الفتوحات الإسلامية، وكونوا مدارس علمية في مختلف أقاليم الدولة الإسلامية، فها هى مدرسة ابن عباس في مكة، ومدرسة ابن مسعود بالكوفة، ومدرسة أبى موسى الأشعرى بالبصرة، ومدرسة معاذ بن جبل وأبى الدرداء بالشام، ومدرسة عبد الله بن عمرو بن العاص في مصر.

جهود الصحابة في مصر لنشر الحديث النبوى:

دخل مصر عدد كبير من الصحابة[٤] ، شاركوا في أحداث فتوحها، فاستقر بعضهم

= مصر، فهو مَرْوِيّ بإسناد مصرى، وله معنى غاب عن الباحث. وقد تصدى لإنكار البعض له الدكتور مصطفى السباعى في كتابه: (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامى) ص٢٧٩.

(١) مثل حديث: " إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فَلْيَغْمِسْه كله، فإن في أحد جَنَاحَيْه داء، والآخر شفاء ". واعتبره مخالفاً لقواعد النظافة الصحية، والتوجيهات النبوية (كتاب نقد الحديث ٢/ ٢٥). رغم أنه صحيح سنداً ومتناً، ورواه البخارى وغيره. " كتاب بدء الخلق " باب " إذا وقع الذباب في شراب أحدكم " ٤/ ٢٦٣ (حديث رقم ١٢٤ ط.عالم الكتب). وقد أثبت الطب اليوم ما كان ينفيه بالأمس.

(٢) مثل حديث: " وَلَدُ الزِّنَا لا يدخل الجنة إلى سبعة أبناء " (ذكره في المرجع السابق ٢/ ٣٣)، وذكر أنه يتعارض مع قوله (تعالى): " ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى ". وهذا رَدّ طَيِّب، وصحيح من الباحث.

(٣) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ١/ ١/ ١٨.

(٤) أورد ابن عبد الحكم عدداً لا بأس به من الأحاديث التى رواها الصحابة في مصر. وذلك في القسم السابع والأخير من كتابه: (فتوح مصر وأخبارها) ص٢٤٨-٣١٩.

وطاب لهم المقام بها. ورحل آخرون بعد الفتح مواصلة للغزو والجهاد في بلاد أخرى، وأقبل آخرون عليها للمرابطة في ثغورها خاصة الإسكندرية، بينما اتخذها بعضهم معبراً يجتازونه عند ذهابهم إلى إفريقية والمغرب، وعند رجوعهم منها.

وقد تنوعت إسهامات وجهود هؤلاء الأطهار في مصر في مختلف الفروع والعلوم، وعلى رأسها الحديث النبوى الشريف.

والآن مع أبرز جهودهم في مصر:

١) عبد الله بن عمرو بن العاص:

تعريف عام به:

صحابى جليل، وابن صحابى جليل، كان ذا قدم ثابتة في الخلق والورع والعلم والعمل، وكان ممن لازم رسول الله ﷺ، وأخذ عنه علماً غزيراً.

كتابته الحديث النبوى الشريف:

كان ابن عمرو حريصاً على الجمع بين السماع من رسول الله ﷺ، والكتابة عنه في مجلسه، لا يفوته من ذلك شئ. وورد عنه أنه قال: كنت أكتب كل شئ أسمعه من رسول الله ﷺ، فنهتْه قريش عن ذلك، وتعللوا بأن الرسول ﷺ يتكلم في الرضا والغضب. فأمسك عن الكتابة فترة، ثم ذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال له: " اُكْتُبْ فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنِّى إلاَّ حَقٌّ "[(١)]. وهكذا، أذن له الرسول في الكتابة، ورَخّص له في ذلك بعد أن كان كرهها مِنْ قبلُ لآخرين؛ مما يدل على ثقة الرسول بقوة فهم وإدراك ابن عمرو، وعظيم مقدرته العلمية والذهنية ،فهو لا يُخْشَى عليه خلط بين القرآن والحديث.

مصادره الحديثية:

جمع ابن عمرو ما سمعه من الرسول ﷺ في صحيفة سَمّاها (الصادقة)[(٢)] ، كان يعتز بها، ويفخر بأن ما دَوّنه فيها سمعه من رسول الله ﷺ ليس بينه وبينه أحد[(٣)] .

(١) ذكره ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١/ ٨٥، وأخرجه أحمد في (مسنده) ٢/ ١٦٢، ١٩٢.

(٢) سماها (الصادقة)؛ تمييزاً لها عن الصحيفة التى وجدها يوم اليرموك، وبها فتن وملاحم وغيبيات رواها عن أهل الكتاب، حتى كان بعض أصحابه يطلبون إليه أن يحدثهم عن رسول الله من صحيفته (الصادقة)، لا من (الصحيفة)، أى: التى وجدها يوم اليرموك. (فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقى) ١/ ١٢٤-١٢٥.

(٣) طبقات ابن سعد، ط.ليدن ٢/ ٢/ ١٢٥، وصفة الصفوة لابن الجوزى ١/ ٦٥٥، وأسد الغابة لابن الأثير ٣/ ٣٥٠، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٨٩. وذكر سزكين في (تاريخ التراث العربى، ط.الهيئة العامة) ١/ ١١٩: أن مضمون هذه الصحيفة - إن لم يكن كلها وصل إلينا - في (مسند أحمد) ٢/ ١٧٨-٢٢٧. وقد صدرت دراسة جيدة بعنوان: (عبد الله بن عمرو بن العاص وصحيفته الصادقة)، لمحمد سيف الدين عليش. نشرتها: الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة أعلام العرب رقم =

وقد ذكر العلماء أن عدد أحاديث عمرو التى رواها بلغت ٧٠٠ حديث، منها: ثمانية أحاديث وردت في صحيح البخارى، وعشرون في صحيح مسلم، وسبعة وردت في كليهما معاً[١] . هذا إلى جانب ما روته عنه كتب السنن الأخرى، والمسانيد وغيرها من مصادر السنّة.

ولما لم يكن بإمكان ابن عمرو أن يكون قد دَوّن كل ما نطق به الفم الشريف - خاصة فترة مكة والأعوام الخمسة الأولى بالمدينة قبل إسلامه - فقد كان يستكمل معارفه من مصادر أخرى[٢] كأبى بكر، وعمر، ومعاذ بن جبل، وابن عوف، ووالده عمرو بن العاص فيما سمعه من الرسول ولم يحضره ابنه، أو فيما ينقله عن الصحابة الآخرين ... إلخ.

دور ابن عمرو في مدرسة الحديث بمصر:

أ- مروياته في مصر:

يعد ابن عمرو مؤسس الحركة العلمية في مصر الإسلامية، ويأتى على رأس روافد هذه الحركة حديث رسول الله ﷺ. وقد ذكر له المؤرخ والمحدث المصرى عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحَكَم (ت ٢٥٧هـ) أن ابن عمرو روى عنه علماء مصر حوالى مائة حديث[٣] (أى: ما يساوى سبع ما رواه عن النبى ﷺ). ولا شك أن هذه النسبة لا تتوافق مع إقامة ابن عمرو شبه الكاملة التى قضاها في مصر، بين الفسطاط مقيماً، والإسكندرية مرابطاً، والمغرب غازياً في صحبة تلاميذه من مصر، لكن إذا علمنا أن ابن عبد الحكم ربما فاتته أحاديث لم تدخل تحت هذا الحصر، إلى جانب تنقل ابن عمرو بين المدينة ومكة والكوفة، بحيث لم يستقر في مصر إلا بعد وفاة والده (٤٣هـ) فيما أظن؛ أدركنا سر هذه النسبة غير الكبيرة

= ١٢٢)، ١٩٨٦م. وهذه الدراسة موثقة، وبها إحصاءات قام بها الباحث المذكور عن عدد أحاديث هذه الصحيفة الواردة فى(المسند، ولدى أصحاب السنن الأربع)، صـ١٤٢-١٦٤.

(١) مسند بَقِىّ بن مخلد صـ٨٠ (رقم ٩)، وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى صـ٣٦٣، (تجريد أسماء الصحابة للذهبى ١/ ٣٢٦، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٨٠. والملاحظ أن الخزرجى فى: (خلاصة تذهيب تهذيب الكمال) ٢/ ٨٣، واليمنى فى: (الرياض المستطابة) صـ١٩٧، ذكرا أن الشيخين اتفقا في ١٧ حديثاً من رواية ابن عمرو. والصواب: أنهما اتفقا في سبعة فقط. وجدير بالذكر أن أبا هريرة أقر لعبد الله بن عمرو بالسبق والتفوق في عدد ما روى من حديث رسول الله ﷺ إذ يقول: " ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منى، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب ". (صحيح البخارى، كتاب العلم، باب (كتابة العلم) - ط.عالم الكتب - ج١ صـ٦٥ (رقم ٥٤).

(٢) تهذيب الكمال للمزى ١٥/ ٣٥٨-٣٥٩، وتهذيب التهذيب ٥/ ٢٩٤.

(٣) فتوح مصر وأخبارها صـ٢٥٤.

من أحاديثه المروية في مصر.

ب- تلاميذه الذين كتبوا عنه في مصر:

تلقى الحديث النبوى على يد ابن عمرو عدد من التابعين في مصر، رووا عنه شفاهاً، وبعضهم سجل ما كان يرويه من إملائه على طلاب العلم. وكان له كاتب يكتب عنه الحديث ويلازمه، وهو صَبيح مولى عبد الله ابن رباح(١).

ومن أبرز تلاميذه:

واهب بن عبد الله المَعَافِرىّ المصرى(٢)، ومَرْثَد بن عبد الله اليَزَنِىّ(٣)، وشُفَىّ بن مَاتِع الأَصْبَحِىّ(٤).

التواصل العلمى في أسرته، وأثره في مرويات ابن عمرو الحديثية لدى نُقّاد الحديث:

١- كان لابن عمرو ولد يدعى محمداً، يبدو أنه كانت له اهتماماته بالحديث النبوى الشريف، وأنه كان يرويه عن والده. لكن العلماء ذكروا أنه كان قليل الرواية، ومما ذكروه له (حديث البيع والسلف)، وحديث (النهى عن لحوم الحُمُر الأَهْلِيَّة). ويبدو أنه مات في حياة والده(٥).

٢- أنجب محمد بن عبد الله بن عمرو - قبل وفاته- ولداً سماه شُعَيْباً(٦). يبدو أنه ولد في خلافة على، أو قبل ذلك بقليل. والغالب أنه لازم جده عبد الله بن عمرو،

---

(١) الثقات، لابن حِبّان ٤/ ٣٨٢: وفيه ورد أنه كان كاتباً لعبد الله بن عمر، ولعله من قبيل التحريف، إذ المعلوم أن الذى كان يكتب هو عبد الله بن عمرو، وطبيعى أن يكون له كاتب ينقل عنه.

(٢) روى عن الصحابة كابن عمرو، وأبى هريرة، وعقبة بن عامر، وغيرهم. وتتلمذ عليه كثير من علماء مصر، مثل: ابن لهيعة، والليث، وسواهما. ثقة في الحديث، خَرّج له البخارى أحاديث في كتاب (الأدب المُفْرَد). توفى سنة ٣٧هـ ببرقة. (سير أعلام النبلاء ٦/ ١٤٧).

(٣) اليَزَنى: بطن من حِمْيَر. حدث عن عدد من الصحابة، مثل: ابن عمرو، وعقبة ابن عامر، وأبى أيوب الأنصارى. وتتلمذ عليه: يزيد بن أبى حبيب، وعبيد الله ابن أبى جعفر، وغيرهما. توفى ٩٠هـ، وكان ثقة لدى العلماء. (المصدر السابق: ٤/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٤) روى عن أبن عمرو، وأبى هريرة. من تلاميذه: ابنه حسين، وأبو قبيل، وحميد ابن هانى ء. وثقة النسائى، وابن حبان. وكان ممن نقلوا علماً غزيراً عن ابن عمرو. ولديه أحاديث مكتوبة عنه. وكان ابن عمرو يعرف له قدره، ويقول عنه: هو أَعْلَمُ مَنْ عَلَّمْنَا. توفى ١٠٥هـ. (الكاشف للذهبى (ط.دار الكتب الحديثة) ج٢ من مج١ صـ١٤، وتهذيب التهذيب ٤/ ٣١٥).

(٥) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٨٢.

(٦) اعتمدت في ترجمته على: الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٢/ ١/ ٣٥١-٣٥٢، والثقات لابن حبان ٦/ ٤٣٧، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى، القسم الأول (الجزء الأول) صـ٢٤٦، وسير أعلام النبلاء ٥/ ١٧٣.

وكان يسافر معه، ونشأ في حِضْنه يتيماً بعد وفاة والده[(١)] . وشعيب يعد من التابعين الثقات الذين تتلمذوا على يد ابن عمرو جده. ويقال: إنه روى عن أبيه محمد قبل موته، وكذلك روى عن ابن عباس وغيره. توفى بعد سنة ٨٠هـ في خلافة عبد الملك بن مروان[(٢)] .

٣- أنجب شعيب هذا ولدين: أشهرهما عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص (المتوفى سنة ١١٨هـ بالطائف)[(٣)] ، الذى وجد صحيفة لدى أبيه شعيب، بها أحاديث عبد الله بن عمرو، فكان شعيب يُحَدِّث بها، وذلك في مرويات كثيرة بإسناد يقول: عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ. وقد أثار هذا الإسناد قضية أدت إلى اختلافات العلماء حول توثيق هذا السند. ونظراً لشيوع هذا السند في مرويات ابن عمرو الحديثية والتاريخية، فإنى أعرض وجهات النظر فيه، حتى ننتهى إلى رأى نرجحه، ونطمئن إليه بخصوص هذه المرويات.

المعارضون لهذا الإسناد:

أ- يتهم المعارضون لهذا الإسناد عمرو بن شعيب بأنه واهٍ، وحديثه فيه شئ، وأنه كان لا يدقق عمن يروى فهو لا يسمع شيئاً إلا حدّث به (ذكر ذلك على الترتيب: يحيى بن سعيد، وابن عيينة، وأبو عمرو بن العلاء[(٤)] .

ب- ذكر ابن عدى أن عمرو بن شعيب ثقة في نفسه، إلا إذا روى عن أبيه عن جده، فالمقصود بجده: محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو تابعى وليس بصحابى، فإذا رفع الحديث مباشرة إلى النبى ﷺ - دون ذكر الصحابى - كان الحديث مرسلاً. ومن هنا لم يذكر الأئمة هذا الإسناد في كتب الحديث الصحاح، وقالوا: هى صحيفة[(٥)] . ويعضد هذا الكلام ما نقله ابن حجر[(٦)] عن ابن معين وأبى زرعة، من أن عمرو بن شعيب إذا حدث عن أبيه عن جده، فهو كتاب وجده لم يسمعه، وحدث به. ومن هنا جاء ضعفه، فهو لم يسمع من أبيه الصحيفة، ودَلَّس ما فيها بلفظة (عن).

جـ- للدارقطنى رأى مفصل في هذا الإسناد، أذكر الجانب المعارض منه هنا،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٧٣.

(٢) السابق ٥/ ١٨١.

(٣) روى عن أبيه (شعيب) معظم رواياته، وكذا سمع من ابن المسيب، وعروة، وغيرهم. روى عنه الزهرى، وهشام بن عروة، وغيرهما. تابعى ثقة إمام، محدث حسن الحديث. سكن مكة، وكان يخرج إلى الطائف، وبها مات. (تاريخ خليفة بن خياط ط ٢. ، ١٩٧٧) ص٣٤٩، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ج٢ من القسم الأول ص٢٨، والعِبَر للذهبى ١/ ١١٣-١١٤، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٥/ ١٦٥-١٦٦، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤٣).

(٤) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٦٦.

(٥) السابق: ٥/ ١٧٣، ١٧٧.

(٦) تهذيب التهذيب ٨/ ٤٤-٤٥.

وهو: أن لعمرو بن شعيب أجداداً ثلاثة:

الأدنى: محمد. الأوسط: عبد الله. الأعلى: عمرو بن العاص.

فعندما يقال: عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، يفهم الدَّارَقُطْنِيّ أن المقصود بجده هو الأدنى: محمد، وهو تابعى، فالحديث مرسل[١].

د- أما ابن حِبَّان، فيذكر أن شعيباً والد عمرو لم يلق عبد الله بن عمرو، ولم يصح سماعه منه، ومن ثم فالخبر منقطع، وإن قصد جده الأدنى محمداً فهو لا صحة له، فالحديث مرسل[٢].

المتوقفون في هذا الإسناد:

أ- يتردد البعض في قبول رواية عمرو بن شعيب، فأحياناً يحتجون به، وأحياناً يتوقفون عنده. ومن هؤلاء: ابن معين الذى يقول: ليس حجة مطلقاً[٣]. وابن حنبل الذى يرى في رواية له: أن عمرو بن شعيب يروى كثيراً بعض المناكير[٤] فى حديثه، فهو يكتبه ولا يحتج به[٥].

ب- قلت في رأى لابن حجر سابق: إن العلماء وضعوا رواية عمرو بن شعيب؛ لأنها من صحيفة يُخْشَى كثرة التصحيف بها. ولهذا الرأى شق آخر يمثل التوقف، وفيه تصح الرواية إذا صرح عمرو بن شعيب، وقال: حدثنى أبى[٦].

ج- الشق الآخر من رأى الدارقطنى السابق: أن عمرو بن شعيب إذا صرح في السند بأنه حدث عن أبيه الذى حدث عن جده عبد الله بن عمرو، فالرواية صحيحة (وبالطبع لم يسمع شعيب من الجد الأعلى عمرو بن العاص)[٧].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٧٦.

(٢) الثقات ٦/ ٣٤٧، والضعفاء والمجروحين ٢/ ٧٢، ونقل عنه السمعانى في (الأنساب) ٧/ ٣١٣-٣١٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٦٨-١٦٩.

(٤) الحديث المُنْكَر: هو ما رواه الضعيف مخالفاً لما رواه الثقة، أو هو الحديث الفرد الذى لا يعرف متنه عن غير راويه، أو من كان في سنده راوٍ فاحش الغلط، أو كثير الغفلة، أو ظاهر الفِسْق. ومعنى ذلك أنه إذا روى راوٍ كثير الخطأ حديثاً، وجعله مرفوعاً إلى النبى ﷺ، بينما روى الحديث نفسه رواة ثقات، لكنهم جعلوه موقوفاً (أى: من قول الصحابى)، فهذا حديث منكر. ولذا فهو يأتى في الأحاديث الضعيفة جداً بعد الحديث المتروك. (الباعث الحثيث لابن كثير ص٤٩، وتدريب الراوى للسيوطى ١/ ٢٣٨-٢٤٠، وتيسير مصطلح الحديث للطحاوى ٧١-٧٢).

(٥) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٦٧.

(٦) تهذيب التهذيب ٨/ ٤٥.

(٧) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٧٦.

مناقشة آراء المعارضين:

١- أما بالنسبة للتشكيك في وثاقة عمرو بن شعيب نفسه، فقد وثقه عدد من أئمة الجرح والتعديل ممن عُرفوا بالتشدد ،وأحياناً بالتعنت في نقد الرجال، مثل: ابن مَعين في قول له إذ قال: ثقة، بُلِيَ بكتاب أبيه عن جده[١] . فهو - هنا - ثقة في نفسه إلا إذا روى صحيفة جده. كما وثقه النسائى، وغيره[٢] .

٢- وأما بخصوص ما زعموا من عدم احتجاج أئمة الصحاح به، فهو غير صحيح. فقد ذكر ابن حجر أن ابن خزيمة خَرّج له في صحيحه، وأخرج له البخارى في جزء القراءة خلف الإمام واحتجَّ به، وكذا النَّسائى[٣] .

٣- وبخصوص الصحيفة والأحاديث المناكير، فالحق ما قاله ابن حجر[٤] من أن عمرو بن شعيب سمع بعض ما في الصحيفة من جده، والباقى أخذه وِجادة[٥] . ومع كل، فكما قال الذهبى[٦] : لا تعد نسخة عمرو عن أبيه عن جده من قبيل الصحيح الذى لا نزاع فيه؛ بسبب الوجادة وبعض الأحاديث المناكير. وعلينا - إذن - تأمل حديث عمرو بن شعيب، فنترك المنكر، ونروى ما عداه في السنن والأحكام، ونُحَسِّنُ أسانيده.

٤- أن عمرو بن شعيب سمع من والده شعيب، وأن شعيباً سمع من جده عبد الله بن عمرو، فقد نشأ في حِضْنه - كما رأينا سلفاً - وهو الذى رَبَّاه، فلعله سَمّاه أباه في نص البيهقى[٧] باعتباره أباه الأعلى. ويؤيد ذلك الذهبى[٨] ، فيرى أنه لقى ابن عمرو، وصحبه، وحمل عنه. والحق أنه إذا كان قد ثبت سماع شعيب من معاوية الذى توفى ٦٠هـ (قبل ابن عمرو بخمس سنوات)، فلا غرو أن يسمع شعيب من جده الذى كفله ورَبّاه.

---

(١) المصدر السابق ٥/ ١٦٩.
(٢) تهذيب التهذيب ٨/ ٤٥.
(٣) المصدر السابق: ٨/ ٤٦.
(٤) المصدر السابق: ٨/ ٤٦.
(٥) الوِجادة: مصدر مُوَلّد غير مسموع عن العرب، مأخوذ من الفعل (وجد). وتعنى أن يجد الطالب أحاديث بخط شيخ يرويها يعرفه ذلك الطالب، فيرويها عنه دون أن يسمعها منه، أو يجيز له روايتها. ولا يُعمل بالوجادة لدى بعض المحدثين، بينما قطع المحققون بوجوب العمل بها عند حصول الثقة براويها. (الباعث الحثيث ١٠٧، وتدريب الراوى ٢/ ٦٠-٦٣، وتسير مصطلح الحديث للطحان ١٢٥).
(٦) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٧٥.
(٧) السنن الكبرى للبيهقى في (كتاب الحج)، باب (الملتزم) ٥/ ٩٢، وفيه: عن عمرو ابن شعيب عن أبيه قال: كنت أطوف مع أبى عبد الله بن عمرو.
(٨) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٧٤.

وبناء على ما تقدم ذكره، فإن عمراً روى عن أبيه شعيب الذى روى عن جده (وهو عبد الله بن عمرو لا سواه)؛ وذلك لأنه بالتتبع والاستقراء وجد العلماء أن الضمير في (جده) يعود على (عبد الله)، لا على (محمد، ولا عمرو). ويؤكد ذلك وجود أحاديث صُرِّح في أسانيدها بقول: عن جده عبد الله ابن عمرو، فالمطلَق يُحْمَل على المُقَيَّد(١).

والخلاصة:

أن عمرو بن شعيب احتج به أئمة كبار، ووثَّقوه في الجملة، ومن توقف فيه قليل، ولا يُعلم أحد تركه. والأحاديث التى أنكروها عليه ليست منه، وإنما من رواة ضعفاء رووها عنه. إذاً، إسناد عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده من أصح الأسانيد إذا روى عنه الثقات(٢).

وأخيراً، إليكم نموذجاً من أحاديث ابن عمرو بإسناد مصرى(٣):

حديث نافع بن يزيد وابن لهيعة، عن أبى هانئ الخولانى، أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبُلِىّ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: " كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائَقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَواتِ وَالأرضَ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْماءِ، بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ "(٤). حدثنا أبو صَدَقة محمد بن عبد الأعلى.

٢) أبو هريرة:

تعريف عام به: هو الصحابى الجليل عبد الرحمن بن صخر الدَّوْسىّ اليمانى.

حافظ الصحابة. أسلم عام خَيْبَر سنة ٧هـ، وكان حريصاً على ملازمة رسول الله ﷺ، فيذكر فيما يرويه الأعرج عنه، أنه كان أمرأ مسكيناً، يصحب الرسول ﷺ على ملء بطنه. وكان المهاجرون يشغلهم السعى في الأسواق، وكذلك الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، فكان أبو هريرة يسمع من رسول الله ﷺما لم يسمع غيره، كما دعا له الرسول بأن يحفظ العلم، فلا ينساه(٥).

دوره العلمى في مصر الإسلامية:

اهتم أبو هريرة ﷺ بالرواية عن النبى ﷺ. ولما كان إسلامه متأخراً، فقد روى ما فاته

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٧٣.

(٢) المصدر السابق: ٥/ ١٦٦-١٦٧، ١٦٩-١٧٠، ١٧٧-١٧٨.

(٣) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ص٢٥٦.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في (صحيحه) عن أبى هانئ الخولانى، عن الحبلى، عن ابن عمرو في كتاب (القدر) باب (حِجاج آدم وموسى عليهما السلام) ج٤ ص٢٠٤٤ (رقم ٢٦٥٣) باختلاف يسير في اللفظ. والمراد: أن الله - تعالى - حدد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ، أو في غيره. أما أصل التقدير، فذلك أزلى لا أول له.

(٥) تهذيب التهذيب، لابن حجر ١٢/ ٢٩٠.

من حديث رسول الله ﷺ عن عدد من الصحابة السابقين، مثل: أبي بكر، وعمر، وأبى بن كعب، وأسامة بن زيد، وعائشة رضي الله عنها، وغيرهم[١]. ولم يدخر أبو هريرة وسعاً، ولم يأل جهداً في نقل العلم النبوى إلى الأجيال التالية، فيروى أنه تلقى العلم على يديه نحو من ٨٠٠ رجل أو أكثر من أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم. وعلى رأس هؤلاء: ابنه المُحَرَّر بن أبي هريرة، والصحابى ابن عباس، وكذا ابن عمر، وأنس بن مالك، وجابر، ومروان بن الحكم، وابن المسيب، والأعرج، وعروة، وغيرهم[٢].

وقد دخل أبو هريرة مصر مع جيوش الفتح الإسلامى. صحيح أنه لم يُطِلِ المقام بها؛ لاستقراره بالمدينة حيث تولى الرواية والإفتاء هناك[٣]، إلا أن الفترة التى مكثها في مصر تَخَرّج على يديه خلالها عدد من التابعين في مصر، الذين تخرج على أيديهم زعماء الحركة العلمية بها، إلى جانب من ساهم منهم في تعدية أثر مدرسة مصر العلمية إلى المدارس الأخرى. ومن أبرز هؤلاء: مسلم بن يَسَار المصرى[٤]، وأبو يُونُس[٥]، وحَنَش بن عبد الله الصنعانى[٦].

نموذج من مرويات أبى هريرة في مصر:

ذكر ابن عبد الحكم[٧] أن أبا هريرة روى في مصر حوالى عشرين حديثاً، منها

(١) المصدر السابق: ١٢/ ٢٨٨-٢٨٩.

(٢) المصدر السابق: ١٢/ ٢٨٩-٢٩٠.

(٣) كما أنه كان أميراً على المدينة عدة مرات في عهد معاوية بن أبى سفيان، وظل بها حتى توفى - على ما رجح ابن حجر - سنة ٥٧هـ في نفس عام وفاة السيدة عائشة (رضى الله عنها). (تاريخ خليفة بن خَيَّاط، ط٢-١٩٧٧م ص٢٢٥، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٢٩٠-٢٩١).وذكر الذهبى فى (العِبَر) نقلاً عن ابن بُكَير، وأبى مَعْشَر ج١ ص٤٦: أن أبا هريرة توفى ٥٨هـ، وهو على خلاف ما رجح ابن حجر.

(٤) حدث عن ابن عمر، وأبى هريرة، وهو رضيع عبد الملك بن مروان. وعلى يديه تخرج حميد بن هانئ، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقى صاحب التأثير الكبير في إفريقية، وغيرها. وهو صدوق قليل الحديث. توفى بإفريقية زمن هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ). (ميزان الاعتدال للذهبى ٤/ ١٠٧، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥١٤، وتهذيب التهذيب ١٠/ ١٢٨).

(٥) هو مولى أبى هريرة، واسمه: سليم بن جبير. كان والده مُكاتَباً لأبى هريرة فعجز، فرده إلى الرق، ثم شفع له مسلمة بن مخلد، فأعتقه أبو هريرة هو وولده، فسكنا مصر. حدث عن سيده أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى، وأبى أسيد الساعدى. وتتلمذ عليه ابن لهيعة، والليث، وعمرو بن الحارث، وحيوة بن شريح. وثقه النسائى. توفى ١٢٣هـ. (سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٠٠، والعبر للذهبى ١/ ١٢١، والوافى بالوفيات للصفدى ١٥/ ٣٣٦).

(٦) حدث عن أبى هريرة، وابن عباس، وفضالة بن عبيد، وغيرهم. كان ثقة في الحديث، وله دوره في نقل أثر المدرسة المصرية إلى إفريقية، إذ نزلها مرابطاً، وظل بها حتى توفى ١٠٠هـ (تاريخ علماء الأندلس، لابن الفَرَضِيّ ص١٢٥، وتهذيب الكمال للمزى ٧/ ٤٢٩، والوافى بالوفيات ١٣/ ٢٠٦).

(٧) فتوح مصر وأخبارها ص٢٨٠-٢٨١.

الحديث الآتى:

" حديث موسى بن عُلَىّ، عن أبيه، عن عبد العزيز بن مروان، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: شَرُّ مَا فِى رَجُلٍ: شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ "[١]. حدثنا المقرئ، وعبد الله بن صالح.

مدرسة مصر في الحديث بعد عصر الصحابة:

تتلمذ على أيدى الصحابة في مصر عدد من التابعين، الذين تتلمذ على أيديهم علماء كثيرون، تزعموا المدرسة المصرية التاريخية خاصة، والعلمية بوجه عام. وهكذا، يسلم علماء كل عصر راية وأمانة العلم لمن بعدهم من المخلصين، حتى تزدهر شجرة العلم، وتثمر أيّما إثمار.

وأخص من هؤلاء العلماء ما يلى:

١) أبو قَبيل (ت ١٢٨هـ):

تعريف عام به: هو حُيَىّ بن هانئ اليمانى المصرى. رجل محدث عالم من أهل العلم والدين والفضل. قدم مصر من اليمن قديماً في خلافة معاوية بن أبى سفيان (٤١-٦٠هـ)، فلحق بعدد من صحابة رسول الله ﷺ بها، ونهل من علومهم، وروى عن بعضهم أحاديث رسول الله ﷺ. ونظراً لأنه في الطبقة الثالثة، وهى الوسطى، من التابعين[٢]، فقد لحق بابن عمرو، وروى عنه وعن أبيه عمرو ابن العاص (ت ٤٣هـ)؛ مما يدل على أنه أتى إلى مصر في أوائل خلافة معاوية. وكذلك تلقى على عبادة بن الصامت، وعقبة بن عامر إذ روى عنه حديثاً واحداً، ويعد أبو قبيل آخر من روى عنه في مصر[٣]. كذلك حدث عن الصحابى مسلمة بن مخلد الذى ولى مصر من سنة

(١) أخرجه ابن أبى شَيْبَةَ في مصنفه، كتاب (الأدب)، باب (ما ذكر في الشح) ٩/ ٩٨ (رقم ٦٦٦٠) بلفظه، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٠٢، ٣٢٠ بلفظه، وأبو داود في سننه، كتاب (الجهاد) باب (فى الجرأة والجبن) ٣/ ٢٦-٢٧ رقم ٢٥١١ بلفظه، والبيهقى في (السنن الكبرى) كتاب (السير) باب (الشجاعة والجبن) ٩/ ١٧٠ بلفظه، والترغيب والترهيب للمُنذرى (فصل الترهيب من البخل والشح، والترغيب في الجود والسخاء) ٣/ ٣٧٩ حديث رقم (٥)، وابن بُلْبان في (الإحسان بترتيب صحيح ابن حِبّان (باب الوعيد لمانع الزكاة) ٥/ ١٠٣ رقم ٣٢٣٩ بلفظه، والعَجْلونى في (كَشْف الخَفَا) ٢/ ٧، وقال: جاء بسند جيد، وذكره ناصر الدين الألبانى في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) ٢/ ٩٨ رقم ٥٦٠ بلفظه، وقال: رجاله ثقات رجال صحيح مسلم إلا عبد العزيز بن مروان فهو ثقة، وإن لم يكن من رجال مسلم.

(٢) وهى التى يوضع فيها من أُفرد بصفة، مثل: ثقة، أو متقن، أو ثَبت، أو عَدْل. وذكر ابن حجر أن في هذه الطبقة الحسن البصرى، وابن سيرين. (مقدمة تقريب التهذيب، ط.دار المعرفة - بيروت) ١/ ٤-٥. وترجم له في (المصدر نفسه): ١/ ٢٠٩. وإن جعل لقبه (البصرى) على سبيل التحريف، ولم يفطن المحقق إلى ذلك.

(٣) النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى ١/ ١٢٧.

٤٧-٦٢هـ.

وتَعَدَّى أبو قبيل حدود الرواية عن الصحابة، فروى عن عدد من التابعين أيضاً، مثل: شُفَيّ بن مَاتِع، وعبد الرحمن بن غَنْم الأشعرى، وعالم دمشق على بن حَوْشَب الفَزارى[١].

أقوال نقاد الحديث فيه:

١- ذكر الدَّارِمِيّ في (تاريخه): أنه ثقة[٢].

٢- وثقه كل من: أحمد بن حنبل، وأبى زرعة الرازى[٣].

٣- ذكره ابن حبان في (الثقات)[٤]، وأضاف: أنه كان يخطئ.

٤- أورد ابن حجر[٥] عدداً من آراء العلماء فيه، فقال: إن أحمد بن صالح المصرى وَثّقه، وإن أبا حاتم الرازى قال عنه: صالح الحديث. وعلى الجانب الآخر حكى تضعيف الساجى له، وكذا تضعيف ابن معين له.

٥- انتهى ابن حجر في (التقريب)[٦] إلى أنه صدوق يَهِم.

من خلال أقوال العلماء السابقة نلحظ ما يلى:

أ- أن معظمهم قد وثقه، ورضى عن حديثه.

ب- إذا كان البعض ذكر أن له أخطاء وأوهاماً في الحديث، فهى قليلة لم تصل إلى الدرجة والتى يُطعن بسببها في مروياته الحديثية.

جـ- أن من ضعفه (الساجى، وابن معين) قد وردت صيغة تضعيفهما له بلفظة: (حُكِيَ) وهى تفيد التمريض، أى: الشك، ولم يذكرا وجه أو علة التضعيف، فلا يُلتفت إليه كثيراً.

وفى النهاية: نميل إلى توثيق أبى قبيل، ونقول: يكفى أن البخارى أخرج له أحاديث في كتاب (الأدب المفرد)، و(خَلْق أفعال العباد)، وكذلك أصحاب السنن[٧].

---

(١) من المصادر التى ذكرت أساتيذ أبى قبيل: التاريخ الكبير، للبخارى ٣/ ٧٥، والمعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٥٠٧، وتهذيب الكمال للمزى ٧/ ٤٩١، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٣/ ٤٢٤، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٣/ ٦٤.

(٢) تاريخ الدارمى ص٢٣٨ رقم (٩٢٣).

(٣) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٣/ ٣٧٥ (رقم ١٢٢٧).

(٤) ٤/ ١٧٨.

(٥) تهذيب التهذيب ٣/ ٦٤.

(٦) ١/ ٢٠٩ (رقم ٦٦٤).

(٧) تهذيب الكمال للمزى ٧/ ٤٩٣، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٣/ ٦٤.

تلاميذه:

تتلمذ على يَدَىْ أبى قبيل كثير من العلماء في مصر، مثل: حُمَيْد بن هانئ الخَوْلانى، وعبد الرحمن بن شُرَيْح، ويحيى بن أيوب الغافقى المصرى، وبَكْر بن مُضَر المصرى، وضِمام بن إسماعيل المعَافِرىّ، ويزيد بن أبى حبيب معاصره وأحد أقرانه، والليث بن سعد. وأخص - الآن - بعضهم بكلمة قصيرة:

١- يحيى بن أيوب الغافقى المصرى (*):

تتلمذ على يزيد بن أبى حبيب، وأبى قبيل، ومالك بن أنس ،وغيرهم.

وتتلمذ عليه الليث وهو من أقرانه، وابن وهب، وعبد الله بن صالح المصرى، وغيرهم.

وخلاصة القول فيه:

أنه له غرائب ومناكير في الحديث، يتجنبها في رواياتهم أصحاب الحديث الصحيح، ويعدون أحاديثه من قبيل الحسن (وهو دون الصحيح درجة). توفى سنة ١٦٨هـ.

٢-ضِمام بن إسماعيل المعافرى المصرى (٩٧-١٨٥هـ) (**):

وهو خَتَنُ أبى قَبيل (زوج أخته). روى عن أبى قبيل، ويزيد بن أبى حبيب، وغيرهما.

روى عنه: ابن وهب، والنضر بن عبد الجبار، وأبن بُكير، وسواهم.

وثقه كثير من المحدثين، وحكموا بصدقه وتعبده، وإن لَيّنَه بعض الحفاظ(١)، وهو ليس بصحيح؛ فقد أخرج البخارى له في (الأدب المفرد).

نموذج من مروياته في مصر:

" أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، أنبأ محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أنبأ ابن وهب، أخبرنى مالك بن خير الزِّبَادىّ، عن أبى قبيل، عن عُبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا "(٢).

(*) له ترجمة فى: سير أعلام النبلاء، للذهبى ٨/ ٥-٦، وتذكرة الحفاظ للذهبى (ط.دار الفكر العربى) ج١ من مج١ صـ٢٢٧-٢٢٨، والكاشف للذهبى (ط.دار الكتب الحديثة) ج٣ من مج٢ صـ٢٥٠.

(**) له ترجمة فى: ذيل الكاشف للعراقى ١٤٤، وميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٣٢٩-٣٣٠، والعبر للذهبى ١/ ٢٢٥، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٤/ ٤٠٢.

(١) ذكره الذهبى في (المغنى في الضعفاء) ١/ ٣١٣ (وهذا من أوهامه فهو صدوق).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ٣٢٣ عن ابن وهب به، والبيهقى في (المدخل إلى السنن الكبرى) ٢/ ٣٨٣ (رقم ٦٦٦). والمقصود: ويعرف لعالمنا قدره.

١) يزيد بن أبى حبيب المصرى (ت ١٢٨هـ):

تعريف عام به: هو الإمام الحجة الثبت الثقة المصرى. أحد صغار التابعين[١]. ولد عام ٥٣هـ. وهو يعد من كبار رجال مدرسة الحديث في مصر الإسلامية، وله مكانته السامية بين علمائها، حتى قال عنه الليث بن سعد - على جلالته وإمامته -: " يزيد بن أبى حبيب سيدنا وعالمنا "[٢].

آراء نقاد الحديث فيه:

أ- قال محمد بن سعد: كان يزيد ثقه، كثير الحديث[٣].

ب- ذكر ابن معين: أنه رجل صالح من خيار الناس[٤].

جـ- قال العِجْلِىّ: تابعى مصرى ثقة[٥].

د- وسئل أبو زرعة عن يزيد، فقال: مصرى ثقة[٦].

هـ- ذكره ابن حبان في (الثقات)[٧].

وخلاصة القول فيه: أن العلماء أجمعوا على الاحتجاج به، ويكفى أن نعرف أن يزيد من رجال صحيح البخارى[٨] وصحيح مسلم، وهما الإمامان المدققان في اختيار رواة أحاديث صحيحيهما. كما أخرج له - كذلك - أصحاب السنن: أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة[٩].

من مصادره الحديثية:

١) من المصريين:

أ- الصحابى الجليل عبد الله بن الحارث بن جَزْءِ الزُّبَيْدِىّ:

هو شيخ للمصريين مُعَمَّر. سكن مصر بعد أن شارك في فتوحها، وظل مقيماً بها

---

(١) معنى صغار التابعين: الرواة الذين رأوا الواحد والاثنين من الصحابة، وإن لم يثبت لبعضهم سماع منهم كالأعمش (مقدمة ابن حجر لكتابه: تقريب التهذيب ١/ ٥-٦). وقد وضع ابن حجر يزيد في الطبقة الخامسة (طبقة.صغار التابعين)، وإن كان يزيد لقى الصحابى ابن جَزْء، وروى عنه كذلك. وترجم له تبعاً لذلك ابن حجر فى(المصدر السابق ٢/ ٣٦٣).

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٢، وتهذيب التهذيب ١١/ ٢٧٩.

(٣) طبقات ابن سعد (ط.دار التحرير) ٧/ ٢/ ٢٠٢.

(٤) معرفة الرجال لابن معين ١/ ١٥١ (رقم ٨٢٩).

(٥) تاريخ الثقات صـ٤٧٨ (رقم ١٨٣٧)، ومعرفة الثقات ٢/ ٣٦٢ (رقم ٢٠١٠).

(٦) الضعفاء (فى قسم خاص لمن عَدَّلَهم أبو زرعة) ٣/ ٩٥٤ (رقم ٧٨٠)، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم مج٤ قسم٢ صـ٢٦٧.

(٧) ٥/ ٥٤٦.

(٨) رجال صحيح البخارى، للكُلاباذى ٢/ ٨٠٧-٨٠٨ (رقم ١٥٣٦).

(٩) تهذيب التهذيب ١١/ ٢٧٨.

حتى كان آخر الصحابة بها موتاً (٨٦هـ)[١] . ويذكر ابن عبد الحكم[٢] أن المصريين رووا عنه حوالى عشرين حديثاً، ذكر منها أحد عشر حديثاً، منها: حديث رواه يزيد عن ابن جزء فيه نهى عن استقبال القبلة أثناء قضاء الحاجة[٣].

ب- أبو الخير مَرْثَد بن عبد الله اليَزَنِيّ[٤] المصرى (ت ٩٠هـ):

عالم مصرى تابعى روى عن عدد من الصحابة في مصر، مثل: أبى أيوب الأنصارى، وزيد بن ثابت، وأبى بصرة الغفارى، وعقبة بن عامر.

وروى عنه: يزيد بن أبى حبيب، وعُبيد الله بن أبى جعفر، وغيرهما. وقد وثقه كثير من العلماء، منهم: ابن حِبَّان في (الثقات)[٥] .

فلا غرو - بعد ذلك - أن يخرج له أصحاب الكتب الستة في كتبهم، ولا غَرْوَ - أيضاً - أن يروى يزيد بن أبى حبيب عن مرثد هذا عدداً كبيراً من الأحاديث النبوية التى ذُكرت عنه في مصر[٦] . ويلاحظ أن عدداً من هذه الأحاديث ورد بإسناد هو أثبت أسانيد المصريين: الليث، عن يزيد، عن أبى الخير، عن عقبة بن عامر[٧] .

٢) أساتيذه من غير المصريين:

عمرو بن شعيب، ويعقوب بن عبد الله بن الأشَجّ المدنى[٨]، وغيرهما.

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم مج٢ قسم٢ صـ٣٠، ومج٤ قسم٢ صـ٢٦٧، والاستيعاب لابن عبد البر ٣/ ٨٨٣ (رقم ١٤٩١)، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٣٨٧، ٦/ ٣١، والباعث الحثيث لابن كثير ١٦١، وتدريب الراوى للسيوطى ٢/ ٢٣١.

(٢) فتوح مصر وأخبارها ٢٩٩.

(٣) ذكره قاسم بن قَطْلُوبُغَا في كتاب (عوالى الليث بن سعد) رقم ٤٠ صـ٩١.

(٤) يَزَن: بطن من حِمْيَر، وترجم له: ابن حبان في (الثقات) ٥/ ٤٤٠، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٢٨٤-٢٨٥، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٧٤.

(٥) ٥/ ٤٤٠.

(٦) وقد أورد ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) لمرثد ١٤ حديثاً (وذلك بعد استبعاد المكرر منها، وعدم احتساب الأحاديث ذات الأسانيد المتعددة). وبعد النظر في هذه الأحاديث بأسانيدها ظهر لى أن يزيد روى عن مرثد ١١ حديثاً منها، وذلك في صفحات: ١١٤، ١٣٨، ٢٧١، ٢٨٧، ٢٨٨ (بها ثلاثة أحاديث)، ٣٠٣، ٣٠٦ (بها حديثان)، ٣١٠.

(٧) التبصرة والتذكرة للعراقى ١/ ٣٤ (ووقف فيه عند أبى الخير)، وتدريب الراوى للسيوطى ١/ ٨٤ (وأضاف إليه عقبة بن عامر). وقد روى يزيد عن مرثد ثلاثة أحاديث بهذا الإسناد العالى، وذلك في (فتوح مصر) لابن عبد الحكم صـ٢٨٨ (عن الأضحية، وحق الضيف، ونهى الرجال عن لبس الحرير).

(٨) روى عن أبى أمامة بن سهل، وسعيد بن المسيب، وكريب مولى ابن عباس، وغيرهم. روى عنه يزيد بن أبى حبيب، وابن إسحاق، وغيرهما. وثقه عدد من العلماء، مثل: ابن معين، والنسائى. مدنى الأصل ثقه، نزل مصر، أخرج له البخارى حديثه في كتاب (خلق أفعال العباد). وأخرج له =

تلاميذه:

أ- من المصريين:

حَيْوَة بن شُرَيْح التُّجِيبىّ(١)، وعبد الله بن عَيَّاش بن عَبَّاس القِتْبَانىّ المصرى(٢)، وابن لهيعة، والليث، وغيرهم.

ب- من غير المصريين:

عمرو بن الحارث المدنى الأصل، ثم المصرى(٣).

وهكذا، تعددت صلات يزيد بن أبى حبيب بالعلماء داخل مصر وخارجها. لكنى قبل إنهاء الكلام على موضوع: (أساتيذ، وتلاميذ يزيد بن أبى حبيب)، أشير إلى ملاحظات ثلاث مهمة، ترتبط بعدد من أساتيذ يزيد المزعومين:

أ- إذا كان يزيد بن أبى حبيب قد رأى الصحابى ابن جَزْء، وروى عنه؛ فإنه لم يرو عن عقبة بن عامر مباشرة. ولذا قال ابن أبى حاتم: إنه سمع أباه يقول: يزيد بن أبى حبيب، عن عقبة بن عامر مرسل(٤). أى: إن يزيد روى عن تابعى روى عن عقبة بن عامر. وهذا صحيح؛ فالمصادر التى ترجمت ليزيد لم تذكر من أساتيذه عقبة بن عامر من قريب ولا من بعيد، وهو ما تؤيده الأحاديث الثلاثة، التى رواها يزيد بأصح أسانيد المصريين، فكنا نجد يزيد يروى عن عقبة بواسطة تمثلت في (أبى الخير مرثد اليزنى)(٥).

ب- لم يسمع يزيد بن أبى حبيب عن الزهرى شيئاً ولم يقابله، وإنما كتب إليه

= مسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة. (سير أعلام النبلاء ٦/ ١٧٤، وتهذيب التهذيب ١١/ ٣٤٢).

(١) حدث عنه ابن المبارك، وابن وهب، وغيرهما. روى عن عقبة بن مسلم، ويزيد ابن أبى حبيب، وأبى يونس مولى أبى هريرة. وثقه أحمد، وغيره. توفى ١٥٨هـ. (العبر للذهبى ١/ ١٧٦، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٢) حدث عن الأعرج، ويزيد بن أبى حبيب، وغيرهما. روى عنه عبد الله بن يزيد المقرئ، وابن وهب، وغيرهما. احتج به مسلم والنسائى، وحديثه في عِداد الحَسَن. توفى سنة ١٧٠هـ. (سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٣) مولى قيس بن سعد بن عُبادة. علامة حافظ ثبت، غزير الحديث، قلما يخرج حديثه عن مصر. روى عن عمرو بن شعيب، وابن شهاب، ويزيد بن أبى حبيب، وعبيد الله بن أبى جعفر، وهشام بن عروة، وغيرهم. بارع في العلم مشهور. روى عنه شيخه قَتادة، وكذا بُكير بن عبد الله شيخه، وأسامة بن زيد الليثى. وثقه النسائى، وابن معين، وغيرهما. وكان مالك يسميه (الثقة). ولد بعد ٩٠هـ، وتوفى بمصر سنة ١٤٨هـ. (المصدر السابق ٦/ ٣٤٩-٣٥٢).

(٤) المراسيل، لابن أبى حاتم صـ٢٣٩ (رقم ٤٤١ في التراجم)، وتهذيب التهذيب ١١/ ٢٧٩، وتقريب التهذيب ٢/ ٣٦٣ (رقم ٢٣٧).

(٥) فتوح مصر وأخبارها صـ٢٨٨.

الزهرى، وأجاز له الرواية عنه. ولذا يقول يزيد: كتب إلىَّ الزهرى[١]. وهذا يؤكد أن الزهرى لم يدخل مصر، ولم يرحل يزيد خارج مصر.

جـ- ورد في كتاب (التاريخ الكبير) للبخارى[٢]، وهو يترجم ليزيد بن أبى حبيب أنه قال: " يزيد بن أبى حبيب: عن أنس بن مالك ". أى: روى يزيد عن الصحابى أنس بن مالك. وأنا أعتقد أن هذه المقولة وَهْم من البخارى.

وقد ظننت في البداية أن البخارى ربما يقصد: مالك بن أنس، وأنه حدث تقديم وتأخير. وبعد البحث والتحرى ظهر لى أن يزيد لم يتلق شيئاً عن مالك، وكذلك لم يرو شيئاً عن الصحابى أنس بن مالك، فيزيد لم يرحل خارج مصر، وأنس لم يدخل مصر. وأدركت أن هناك سقطاً في عبارة البخارى لعله من النساخ، ولم يفطن إليه ناشرو الكتاب، وتحدد هذا السقط بعد أن طالعت رواية عن الليث بن سعد، عن يزيد بن أبى حبيب عن سعد بن سِنان[٣]، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: " التَّأَنِّى مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ "[٤].

وهكذا، ثبت أن رواية يزيد عن أنس مرسلة، وأنه يروى عنه بواسطة هذا الراوى المسمى سعد بن سنان، كما يظهر لنا من الرواية.

نموذج من مروياته في مصر:

" روى الذهبى[٥] بسنده إلى الليث، عن يزيد بن أبى حبيب، عن أبى الخير، عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أُحُد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المِنْبَرِ، فقال: " إنى فَرَطُكم على الحوض، وأنا شهيد عليكم. وإنى - والله - لأنظر إلى حوضى الآن، وإنى قد أُعْطِيتُ مفاتيحَ خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض. وإنى - والله - ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى، ولكن أخاف عليكم أن

(١) التاريخ، لابن معين ٢/ ٦٦٩، والمعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٣١، والمراسيل لابن أبى حاتم ص٢٣٩، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٣١.
وبناء على ما تقدم من إجماع العلماء على عدم سماع يزيد من الزهرى، فإن الدارقطنى يكون قد أخطأ في كتابه: (علل الدارقطنى): ١/ ٢٤٩، عندما جعل يزيد يروى عن الزهرى حديث ميراث الجدة، الذى لم يسمعه أبو بكر، وسمعه المغيرة، ومحمد بن مسلمة.

(٢) ٨/ ٣٢٤ (رقم ٣١٨١).

(٣) ورد في (تهذيب التهذيب) ٣/ ٤٠٩: أن هناك اختلافاً حول الاسم هل هو: سعد ابن سنان، أو سنان بن سعد؟ وثار خلاف كبير بين العلماء حول ذلك. وعلى كل، فسعد ابن سنان الكندى المصرى روى عن أنس بن مالك. وروى عنه يزيد بن أبى حبيب وحده، كما ذكر الليث بن سعد. واختلف العلماء في شأنه، فوثقه ابن معين، وقال النسائى عنه: منكر الحديث.

(٤) المعرفة والتاريخ، للفسوى ٣/ ٤١١، والمدخل إلى السنن الكبرى، للبيهقى ٢/ ٤٣٨(رقم ٨١٩).

(٥) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٢-٣٣. وعلق عليه الذهبى بقوله: هذا حديث صحيح عالٍ، أخرجه البخارى، ومسلم، وأبو داود، والنسائى من وجوه عن يزيد.

تَنَافَسُوا فيها "[١] .

١)عُبيد الله بن أبى جعفر (توفى حوالى سنة ١٣٦هـ):

تعريف عام به: هو الإمام الحافظ المصرى، الذى رأى الصحابى الجليل المُعَمَّر عبد الله بن الحارث بن جَزْءٍ الزُّبَيْدِيّ[٢]، وهو أحد مؤسسى المدرسة الحديثية في مصر، ومن أعلام المحدثين بها، وعلى يديه تخرجت أجيال من العلماء كعمرو بن الحارث، وابن لهيعة، والليث.

آراء علماء الجرح والتعديل فيه:

أ- قال ابن سعد: ثقة بقية في زمانه[٣].

ب- وقال أحمد بن صالح العجلى الكوفى[٤] : عبيد الله بن أبى جعفر المصرى لا بأس به. ونقل ذلك عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه في روايته[٥] . وفى رواية أخرى قال أحمد بن حنبل: ليس بالقوى[٦] .

---

(١) أخرجه البخارى في (صحيحه، ط.دار ابن كثير - بيروت)، كتاب (الجنائز)، باب (الصلاة على الشهداء) : ١/ ٤٥١ (رقم ١٢٧٩) كاملاً، وكذلك أخرجه مسلم فى (صحيحه)، كتاب (الفضائل)، باب (إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته) ٤/ ٧٩٥ (رقم ٢٢٩٦)، وأخرجه أبو داود في (سننه)، كتاب (الجنائز)، باب (الميت يصلى على قبره بعد حين) ٤/ ٤٠ (رقم ٣٢٢٣) حتى عبارة: (ثم انصرف)، وأخرجه النسائى في (سننه)، كتاب (الجنائز) باب (الصلاة على الشهداء) ٤/ ٦١-٦٢ (رقم ١٩٥٤) حتى قوله: إنى فرطكم وأنا شهيد عليكم.

(٢) بدليل ما أورده ابن سعد في (الطبقات، ط.دار التحرير) ٧/ ١٩١ من قول عبد الله بن صالح، عن ابن لهيعة، عن عبيد الله بن أبى جعفر، أنه قال: رأيت على ابن جزء عِمامة حَرْقَانِيَّة (أى: سوداء).

(٣) المصدر السابق (ط.ليدن) ٧/ ٢/ ٢٠٢.

(٤) معرفة الثقات ٢/ ١٠٩ (رقم ١١٥٢). وجدير بالذكر أنه قد ورد في (المصدر نفسه) ٢/ ٢٥ (ترجمة رقم ٨٦٧) لمن يسمى: عبد الله بن أبى جعفر، وقال عنه العجلى: بصرى ثقه. وذكر محقق (معرفة الثقات) في الهامش ما يلى: " قال المُعَلِّمِيّ: لم أجد هذا الرجل في غير هذا الكتاب ". وعقّب المحقق قائلاً: فلعله هو هذا. ومعنى هذا الكلام وتوضيحه أن المعلمى محقق كتاب (الجرح والتعديل) لابن أبى حاتم وجد ترجمة لعبد الله بن أبى جعفر به (٢/ ٢/ ٢٤)، (رقم ١٠٦)، فذكر أنه لا توجد ترجمة لهذا الراوى إلا في (الجرح والتعديل). فلما رأى محقق (معرفة الثقات) ترجمة له فيه، قال: لعله هو الذى ورد في (الجرح والتعديل). وقد ترجم ابن حجر له في (تهذيب التهذيب ٧/ ٧) نقلاً عن العجلى، لكن الجديد في صنيع ابن حجر أنه ترجم لشخصين: (عبد الله) وجعله بصرياً، و(عبيد الله) وجعله مصرياً. والسؤال الآن: هل هما شخصان؟ يجيبنا عن ذلك المؤرخ المصرى ابن يونس في (تاريخ المصريين) صـ٢٦٣ (ترجمة رقم ٧٢٣)، حيث ترجم له (عبد الله)، و(عبيد الله) على أنهما أخوان مصريان.

(٥) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٢/ ٢/ ٣١١، وميزان الاعتدال للذهبى ٣/ ٤، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٩.

(٦) ميزان الاعتدال للذهبى ٣/ ٤، وسير أعلام النبلاء ٦/ ١٠.

جـ- قال النسائى: ثقه[١] .

د- قال ابن أبى حاتم: سألت أبى عنه، فقال: ثقة بابة يزيد بن أبى حبيب، روى عن المتقدمين والمتأخرين[٢] .

هـ- جعله ابن حبان في (الثقات)[٣] .

و- ذكره الذهبى في كتابه: (المغنى في الضعفاء)[٤]، ونقل فيه قول أحمد: ليس بقوى. وذُكر- كذلك - أنه وُثِّق.

والخلاصة:

أن العلماء يوثقونه ولا يطعنون في نزاهته، وإن تفرد أحمد بن حنبل - في رواية ما عنه - بتليينه على حد تعبير ابن حجر[٥]، فإنه يبدو أن معرفة أحمد بعبيد الله ليست بالقوية؛ بدليل تفرده برأيه هذا فيه، وتردده في تليينه، وقول الذهبى فيه: صدوق مُوَثَّق[٦] . ولا أدل على استدلال الذهبى على خطأ ابن حنبل في موقفه من عبيد الله، من أن ابن حنبل (ت ٢٤١هـ)، استنكر لعبيد الله هذا حديثاً أورده - بعد ذلك - البخارى (ت ٢٥٦هـ)، ومسلم (ت ٢٦١هـ) في الصحيحين[٧]، وهو حديث: " مَنْ مات وعليه صيام، صام عنه وَلِيُّه "[٨] . ومعنى ذلك أنه من رجال صحيح البخارى[٩] ومسلم، بالإضافة إلى إيراد أصحاب الكتب الستة أحاديث له في كتبهم[١٠] . فلا عجب -بعد ذلك - إذا وثقه إمام الحفاظ ابن حجر[١١] .

---

(١) تهذيب التهذيب ٧/ ٦.

(٢) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم: ٢/ ٢/ ٣١١. بابة: أى: مثل (أى: في وزنه ومنزلته). والبَابَةُ عند العرب: الوجه. يقولون: ليس هذا من بابتك. يعنى: ليس مما يصلح لك. (اللسان، مادة: (ب.و.ب) جـ١ صـ٣٨٣.

(٣) ٢/ ٤١٤ رقم (٣٩١٦).

(٤) ٧/ ١٤٢-١٤٣.

(٥) ميزان الاعتدال للذهبى ٣/ ٤.

(٦) تقريب التهذيب ١/ ٥٣١ (رقم ١٤٣٢).

(٧) ورد ذلك الرد في (سير أعلام النبلاء) ٦/ ١٠.

(٨) أخرجه البخارى في صحيحه (ط.دار ابن كثير - بيروت)، كتاب (الصوم)، باب (من مات وعليه صوم) ٢/ ٦٩٠ (رقم ١٨٥١)، ومسلم في (صحيحه)، كتاب (الصيام) باب (قضاء الصيام عن الميت) ٢/ ٨٠٣ (رقم ١١٤٧)، وأبو داود في (سننه)، كتاب (الصوم) باب (فيمن مات وعليه صوم) ٢/ ٧٩١-٧٩٢ (رقم ٢٤٠٠).

(٩) رجال صحيح البخارى، للكلاباذى ١/ ٤٧٠ (رقم ٧١٣).

(١٠) ذكر ذلك الذهبى في (ميزان الاعتدال) ٣/ ٤، وابن حجر في (تهذيب التهذيب) ٧/ ٦.

(١١) تقريب التهذيب ١/ ٥٣١ (رقم ١٤٣٢).

أساتيذه:

لعبيد الله أساتذة كثيرون، تلقى عنهم العلم ورواية الحديث، ويمكن ذكر بعضهم كما يلي:

١) من مصر:

سالم بن أبى سالم الجَيْشانى[١]، وأبو الأزهر المصرى[٢]، وعُبيد الله بن المغيرة المصرى[٣].

٢) من خارج مصر:

أبو سَلَمة بن عبد الرحمن بن عوف[٤]، وعبد الرحمن بن هُرْمُز الأعرج[٥]، ونافع مولى ابن عمر المدنى[٦].

---

(١) اسم والده (أبى سالم) هو سفيان بن هانئ، فيكون اسمه: سالم بن سفيان بن هانئ الجيشانى المصرى. روى عن أبيه، وعن الصحابى ابن عمرو، وغيرهما. روى عنه ابنه عبد الله، وعبيد الله بن أبى جعفر، ويزيد بن أبى حبيب، والحارث ابن يعقوب. وهو من الثقات، وجعله ابن حجر مقبول الرواية، ووضعه في الطبقة الرابعة (وهى الطبقة الوسطى من التابعين). وجُلّ رواية مَنْ فيها عن كبار التابعين. وخرج أحاديثه مسلم، وأبو داود، والنسائى. (تهذيب التهذيب ٣/ ٣٧٦، وتقريب التهذيب ١/ ٢٧٩).

(٢) جعله ابن حجر مقبول الرواية، ووضعه في الطبقة الثانية (كبار التابعين)؛ مما يدل على تقدمه الزمنى. ولذا فقد روى عن عمر، وحذيفة بن اليمان، وسلمان الفارسى. ولعله خرج إليهم قديماً بالمدينة، وروى عنهم هناك، فهم ليسوا ممن اشتهروا بالتحديث في مصر، ولم يُعرف دخولهم إياها. وروى عنه عبيد الله بن أبى جعفر، وغيره. ووردت أحاديثه في سنن ابن ماجة. وعلى كل، فأحادثيه قليلة، ولا يوجد فيها ما يُترك من أجله، وإن كان يحتاج إلى مرويات أخرى يتابع عليها حديثه، فيتقوى بها. (تهذيب التهذيب ١٢/ ٩، والتقريب ١/ ٥، ٢/ ٣٩٠).

(٣) عبيد الله بن المغيرة بن مُعَيْقيب المصرى: ترجم له ابن أبى حاتم في (الجرح والتعديل) ٢/ ٢/ ٣٣٣، وإن كان سماه عبد الله، وجعله من مهاجرة الحبشة. وهذا وهم منه. والغالب أن جده (مُعيقيباً) هو الذى كان من مهاجرة الحبشة، وهو الذى أسلم قديماً بمكة، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً، وكان على خاتم النبىﷺ، وكان على بيت المال لأبى بكر ثم لعمر، وتوفى ٤٠هـ، (كما ورد في تهذيب التهذيب في ترجمة معيقيب ١٠/ ٢٢٧-٢٢٨). أما حفيده عبيد الله، فقد روى عن ابن جزء، وأبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وغيرهما. وروى عنه ابن إسحاق، وابن لهيعة، وعبيد الله بن أبى جعفر، وعمرو بن الحارث، وغيرهم. مصرى صدوق، توفى ١٣١هـ (المصدر السابق ٧/ ٤٥-٤٦).

(٤) أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف القرشى الزهرى المدنى. روى عن كثيرين، منهم: أنس، وجابر، وأسامة بن زيد. وممن روى عنه: بكير بن عبد الله بن الأشج، والأعرج، وعبيد الله بن أبى جعفر. مُدح لكثرة حديثه وتوازيه مع عروة ابن الزبير، وروى له الجماعة. توفى سنة ٩٤هـ. (المصدر السابق جـ١٢ صـ١٢٧-١٢٨).

(٥) روى عن أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى، وابن عباس، ومعاوية، وغيرهم وممن روى عنه: زيد بن أسلم، والزهرى، وعبيد الله بن أبى جعفر، وابن لهيعة، وابن إسحاق. وثقه العلماء، وروى له الجماعة. توفى سنة ١١٧هـ بالإسكندرية. (تهذيب التهذيب ٦/ ٢٦٠).

(٦) روى عن ابن عمر، وأبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى، وعائشة، وغيرهم. وروى عنه يزيد بن أبى =

تلاميذه:

١) من مصر:

إبراهيم بن نَشيط الوَعْلانى[١]، وعمر بن مالك الشَّرْعَبِىّ[٢].

٢) من خارج مصر:

حَجَّاج بن شَدَّاد الصنعانى[٣]، وعُمارة بن غَزِيَّة بن الحارث المدنى[٤].

نموذج من مروياته[٥]:

" حديث سعيد بن أبى أيوب، عن عبيد الله بن أبى جعفر، عن سالم بن أبى سالم الجيشانى، عن أبيه، عن أبى ذَرّ أنه قال: " إن رسول الله ﷺ قال: " إنى أراك ضعيفاً، وإنى أُحب لك ما أحب لنفسى. لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم "[٦] حَدَّثَناه المقرئ.

= حبيب، والزهرى، وعبيد الله بن أبى جعفر وغيرهم، روى له الجماعة. توفى سنة ١١٧هـ .(السابق ١٠/٣٦٨-٣٦٩.

(١) رأى ابن جزء، وروى عنه الزهرى، وبكير بن الأشج، وعبيد الله بن أبى جعفر. روى عنه الليث، وابن المبارك، وابن وهب. ثقه، توفى سنة ١٦٣هـ. (السابق ١/ ١٥٣).

(٢) روى عن يزيد بن الهاد، وخالد بن أبى عمران، وعبيد الله بن أبى جعفر. وروى عنه حيوة بن شريح، وضمام بن إسماعيل، وغيرهما. وثقه بعض العلماء، وقال آخرون: لا بأس به. جعله ابن حجر في الطبقة السابعة من كبار أتباع التابعين المعاصرين لمالك بن أنس، والثورى (تهذيب التهذيب ٧/ ٤٣٤، والتقريب ٢/ ٦٢).

(٣) يبدو أنه قدم إلى مصر، وقيل: هو من صنعاء الشام. ثقه. روى عن سعيد بن عبد الرحمن الغفارى، وعبيد الله بن أبى جعفر. وروى عنه حيوة بن شريح، وابن لهيعة، ويحيى بن أزهر المصريون. ووثقه ابن حبان، وهو يعد في المصريين بعد إقامته بينهم. (تهذيب التهذيب ٢/ ١٧٧، وتقريب التهذيب ١/ ١٥٣).

(٤) روى عن أنس بن مالك، وأبيه غزية، وعبيد الله بن أبى جعفر، وغيرهم. روى عنه: عمرو بن الحارث، ويحيى بن أيوب المصرى، وغيرهما. وثقه عدد من العلماء. توفى سنة ١٤٠هـ. (تهذيب التهذيب ٧/ ٣٧٠، والتقريب ٢/ ٥١).

(٥) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ص٢٨٥-٢٨٦.

(٦) أخرجه مسلم في (صحيحه)، كتاب (الإمارة) باب (كراهية الإمارة بغير ضرورة) ٣/ ١٤٥٧-١٤٥٨ (رقم ١٨٢٦)، وأبو داود في (سننه)، كتاب (الوصايا) باب (ما جاء في الدخول في الوصايا) ٣/ ٢٨٩-٢٩٠ (رقم ٢٨٦٨)، وقال أبو داود: تفرد به أهل مصر. والنسائى في (سننه) كتاب (الوصايا) باب (النهى عن الولاية على مال اليتيم) ٦/ ٢٥٥ (رقم ٣٦٦٧)، والبيهقى في (السنن الكبرى) كتاب (آداب القاضى) باب (كراهية الإمارة، وكراهية تولى أعمالها) جـ١٠ صـ٩٥، والحاكم في (مستدركه)، كتاب (الأحكام) جـ٤ صـ٩١، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى. و(الترغيب والترهيب) للمنذرى جـ٣ صـ١٦٠ (رقم ١٥). وأخيراً ذكره علاء الدين الهندى في كتاب (كنز العمال) جـ٦ صـ١٨ (رقم ١٤٦٤٦).

٤) عبد الله بن لهيعة المصرى (ت ١٧٤هـ) (*):

تعريف عام به:

إمام مُحَدِّث عَلاَّمة. يعد رأس مدرسة الحديث في مصر الإسلامية مع الليث بن سعد في القرن الثانى الهجرى، وقد كان ابن لهيعة طَلاَّبة للعلم، جَمّاعة له منذ صباه، غزير الرواية، عظيم الأثر فيمن عاصره، وفيمن أتى بعده من أجيال العلماء الكبار، مثل: ابن وهب وغيره، داخل مصر وخارجها.

منهج في دراسة ابن لهيعة محدثاً:

قبل أن أتعرض لهذا المنهج أحب الإشارة إلى صعوبة الوقوف على رأى قاطع محدد بخصوص الحكم على ابن لهيعة محدثاً، وذلك يرجع إلى ما يلى:

أ- كثرة النقول الموجودة عن العلماء بخصوصه، وتنوع هذه الآراء وتشعبها: وكما يقول صاحب (الكشف الحثيث)[١] : الكلام في ابن لهيعة كثيرٌ فَاشٍ جرحاً وتعديلاً. وهذا يعنى - ببساطة - تضارب آراء العلماء فيه ما بين موثق له، ومُتوقف في الحكم عليه، وناقد له.

ب- اضطراب آراء الناقد الواحد: فتروى عدة روايات عنه، بعضها موثق، وبعضها متوقف متحفظ، وتشم منها رائحة للنقد والرفض معاً؛ مما يثير نوعاً من الحيرة للباحث، أيها يقبل وأيها يرجح[٢] .

جـ- إطلاق بعض الأئمة عبارات التجريح والتعديل دون ذكر الأسباب، أو ضرب الأمثلة الكافية لتوضيح هذه الأحكام[٣] .

(*) ويلاحظ وجود رسالة ماجستير مسجلة بقسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم بتاريخ: ١٢/٨/١٩٨٩م باسم الباحثة (حياة سعيد عبد الدايم) بعنوان: مرويات ابن لهيعة - جمع وترتيب ودراسة. إشراف: الأستاذ الدكتور رفعت فوزى عبد المطلب (دليل رسائل الماجستير والدكتوراه بدار العلوم صـ١٠٨). ومبلغ علمى أن هذه الرسالة لم تنجز حتى الآن، فلعل المشتغلين بهذا الفرع من فروع الشريعة الإسلامية يلتفتون إلى هذا الموضوع المهم.

(١) الحلبى: صـ٢٤٩.

(٢) حتى قال السيوطى، نقلاً عن الذهبى - وهو من أهل الاستقراء التام في نقد الرجال -: " لم يجتمع اثنان من علماء هذا الشأن - قط - على توثيق ضعيف ولا على تضعيف ثقه ". (تدريب الراوى ١/ ٣٠٨).

(٣) للعلماء آراء متعددة فيما يتصل بالتعديل والتجريح المفسَّر على النحو الآتى:
أ-منهم من يقبل تعديل نقاد الحديث لراوٍ ما دون ذكر سبب التعديل، وذلك على الصحيح المشهور. أما الجرح، فلا بد من بيان سببه حتى يقبل، فالتعديل أسبابه كثيرة، والجرح يكفى فيه سبب واحد.
ب- رأى آخر يرى قبول الجرح غير مُفَسَّر، وأنه لا تعديل إلا بسبب؛ حتى لا يُعَدَّل من لا يستحق.
=

د- غموض واضطراب الأسس التى أقام عليها نقدة الحديث رأيهم في هذا المحدث. فقضية اختلاط ابن لهيعة، واحتراق كتبه وداره، التى أدت إلى تحير بعضهم وتوقفهم في الحكم عليه، قضية مُخْتَلَف فيها من الضد إلى الضد (ما بين مثبت ومؤكد وقوعها، وما بين نافٍ نفياً قاطعاً لها).

والآن، مع عناصر المنهج الذى اتبعته للتغلب على أسباب الصعوبة سالفة الذكر، للوصول إلى دراسة ابن لهيعة محدثاً:

أ- إجراء عملية مسح شامل، واستقصاء شبه كامل لتراجم هذه الشخصية؛ لمعرفة ما قاله العلماء عنها من زاوية الحديث، وترتيبها وتصنيفها إلى: موثقين، ومتوقفين، وناقدين (مع مراعاة الترتيب الزمنى لهم).

ب- الجمع بين الآراء المختلفة المتناقضة للناقد الواحد، ومحاولة التوفيق بينها؛ لإزالة التداخل والغموض.

جـ- محاولة معرفة الأسس التى بنى عليها الناقدون نقدهم ومناقشتها، والموثقون توثيقهم، إلى جانب مناقشة قضية (الاختلاط والاحتراق)، التى أدت إلى وجود طائفة المتوقفين المتحفظين. وكل ذلك من أجل الوصول إلى رأى محدد في ابن لهيعة محدثاً؛ فلذلك انعكاسه الخطير عليه مؤرخاً.

آراء نقاد الحديث في ابن لهيعة:

أولاً - الموثِّقُون:

١- قال سفيان الثورى (٩٧-١٦٤هـ):

عند ابن لهيعة الأصول، وعندنا الفروع[(١)] . وقال: حججتُ حِجَجاً؛ لألقى ابن لهيعة[(٢)] .

= ج- ورأى ثالث يرى ضرورة تفسيرهما معاً، فلا يُقبل تعديل راوٍ ولا تجريحه إلا بعد ذكر السبب. والمختار أنه إذا وَثّق إمام ذو شأن راوياً، لم يُقْبَل جَرْحُ مُجَرِّح له، إلا إذا كان مُفَسَّراً؛ لأن الأئمة النقاد يدققون فيما يقولون. (تدريب الراوى للسيوطى ١/ ٣٠٥-٣٠٨).

أما الرأى عندى فهو النظر في كل الآراء، والنظر في كل الاعتبارات وتفهم الدوافع والأسباب لكل من التعديل والتجريح من خلال التراجم؛ للوصول إلى رأى سديد مقبول. ويا ليت المشتغلين بالحديث يجمعون مرويات الرواة ويدرسون نصوصها سنداً ومتناً، ويقارنونها بأقوال الأئمة فيهم؛ للوصول إلى الحق. - وبخصوص عدد المُعَدِّلين والمُجَرِّحين للراوى الواحد، ففيه رأيان: ١- الجرح المفسَّر مُقَدَّم على التعديل، حتى ولو زاد عدد المعدلين؛ لأن المجرِّح يعرف ما لا يعرفه المعدل من بواطن الأمور، إلا إذا نَصّ المعدل على أن الراوى تاب، وحسنت حاله مما جُرِّح به.
٢- وقيل: إذا زاد عدد المعدِّلين، قُدِّم التعديل. والرأى الأول هو الأصح عند الفقهاء والأصوليين، والرأى الثانى غير راجح؛ إذا يُقَدِّم رأى الأحفظ وبوجود مُرَجِّح.(المصدر السابق ١/ ٣٠٩-٣١٠).

(١) تهذيب الكمال، للمزى ١٥/ ٤٩٥، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٣، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٩.

(٢) تهذيب الكمال للمزى ١٥/ ٤٩٥، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٩، وشرح علل التِّرْمِذِيّ، لابن رجب الحنبلى صـ١٣٩.

٢- **لما توفى ابن لهيعة (١٧٤هـ)، قال الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ):** ما خَلَّفَ مثله[(١)] .

٣- **قال ابن وهب (١٢٥-١٩٧هـ):** حدثنى - والله - الصادق البار عبد الله ابن لهيعة. قال أبو الطاهر: فما سمعته يحلف بهذا قط[(٢)] .

٤- **قال عنه أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ):** من كان مثله بمصر كثرة حديث، وضبط وإتقان ؟![(٣)] .

وقال أيضاً: ما كان مُحَدِّثَ مصر إلا هو[(٤)] .

٥- **قال أحمد بن صالح المصرى (١٧٥-٢٤٨هـ):** كان صحيح الكتاب، طَلاَّباً للعلم[(٥)] .

٦- **قال ابن عَدِىّ (ت ٣٦٥هـ):** حسن الحديث يكتب حديثه. وقد حدث عنه الثقات، مثل: الثورى، وشعبة، ومالك، وعمرو بن الحارث، والليث بن سعد[(٦)] . وبعد أن سرد عدداً من مرويات ابن لهيعة قال: هذا الذى ذكرتُ لابن لهيعة من حديثه وبيَّنتُ، جزء من أجزاء كثيرة مما يرويه ابن لهيعة عن مشايخه. وحديثه حسن كأنه يُستبان عمن روى عنه، وهو ممن يكتب حديثه[(٧)].

٧- **ذكر كل من الخَفاجىّ (ت ١٠٦٩هـ)[(٨)]، والأعْلَمِىّ[(٩)]:** أنه أحد الأعلام، ثقة خلافاً لما ذكره الذهبى من تضعيفه.

ثانياً - الناقدون:

١- كان يحيى بن سعيد القطان(١٢٠-١٩٨هـ) لا يرى ابن لهيعة شيئاً[(١٠)].

٢- وردت عن عبد الرحمن بن مهدى (١٣٥-١٩٨هـ) روايات عديدة، تفيد تطوراً

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٤.
(٢) تهذيب الكمال للمزى ١٥/ ٤٩٥، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٧، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٩.
(٣) الكاشف للذهبى (ط.دار الكتب العلمية) ٢/ ١٠٩ (رقم ٢٩٧١)، وتذكرة الحفاظ للذهبى (ط.دار إحياء التراث) ١/ ٢٣٧ (رقم ٢٢٤)، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٣، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٩.
(٤) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٣.
(٥) العبر للذهبى ١/ ٢٠٤-٢٠٥ (رقم ١٧٤)، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٣، وشَذَرات الذهب ١/ ٢٨٣.
(٦) الكامل ٤/ ١٤٧٠.
(٧) المصدر السابق: ٤/ ١٤٧٢.
(٨) نسيم الرياض ٢/ ٣١٦، وسَمّاه ابن أبى لهيعة. وهذا تحريف.
(٩) دائرة معارف الأعلمى ٢١/ ٢٢٤.
(١٠) الضعفاء الصغير للبخارى صـ٦٦ (رقم ١٩٠)، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٢/ ٢/ ١٤٦، وميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٤٧٦ (رقم ٤٥٣٠)، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٨، وطبقات الحفاظ للسيوطى صـ١٠١.

في طبيعة نظرته إلى ابن لهيعة. ويبدو أن أولى هذه المراحل هى التى قال فيها: لا أحمل عن ابن لهيعة قليلاً ولا كثيراً. وبرهن على عدم ضبط ابن لهيعة للأسانيد بقوله: كتب إليَّ ابن لهيعة كتاباً فيه حديث عمرو بن شعيب، فقرأتُه على ابن المبارك، فأخرجه إليّ من كتابه عن ابن لهيعة، وكان فيه: أخبرنى إسحاق بن أبى فَرْوَة، عن عمرو بن شعيب[١]. وهذا يعنى: أن ابن لهيعة أسقط راوياً من الإسناد في أحاديث عمرو بن شعيب، ألا وهو إسحاق بن أبى فروة.

٣- قال ابن سعد (ت ٢٣٠هـ): ابن لهيعة ضعيف، ولديه حديث كثير، ومن سمع منه - أول أمره - أحسن حالاً في روايته ممن سمع منه بآخره[٢].

٤- كان لدى النسائى (ت ٣٠٣هـ) أحاديث ابن لهيعة ترجمة ترجمة (حديثاً حديثاً)، فما حدّث بها. وكان لا يرى أن يُحَدث بحديث ابن لهيعة، ويرى أنه ليس بثقة[٣]، بل إنه وصفه بالضعف صراحة[٤].

٥- قال ابن معين (ت ٢٣٣هـ) في رواية: ابن لهيعة لا يحتج به[٥]. وإن كان ابن معين فَضّل ابن لهيعة على رِشْدين بن سعد (ت ١٨٨هـ)[٦]، وذكر أن حديث ابن لهيعة يجوز أن يُكتب، وأنه هو نفسه قد كتبه[٧].

٦- قال أبو إسحاق الجُوزَجانىّ (ت ٢٥٩هـ): لا نور على حديثه، ولا ينبغى أن يُحتج به، ولا أن يُعتد به[٨].

٧- قال ابن حبان[٩]: قال أبو حاتم[١٠]: سَبَرْتُ أخبار ابن لهيعة من رواية

---

(١) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم ٢/ ٢/ ١٤٦، وتهذيب الكمال للمزى ١٥/ ٤٩١، وميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٤٧٦. وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥. وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٨.

(٢) ورد ذلك في (طبقات ابن سعد)، ط.ليدن، ٧/ ٢/ ٢٠٤، والمغنى في الضعفاء للذهبى صـ٣٥٢ (رقم ٣٣١٧).

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢١، وتهذيب التهذيب ١/ ٣٣، ٥/ ٣٣١.

(٤) كتاب الضعفاء والمتروكين، للنسائى صـ١٥٣ (رقم ٣٦٣)، وورد فيه بلقب (البصرى). وهو تحريف عن اللقب الصحيح (المصرى).

(٥) التاريخ لابن معين ٢/ ٣٢٧، ومعرفة الرجال لابن معين ١/ ٦٧، وتاريخ الدارمى صـ ١٥٣ (رقم ٥٣٣).

(٦) ضَعّفه ابن سعد في (الطبقات، ط.ليدن) ٧/ ٢/ ٢٠٤.

(٧) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم ١/ ٢/ ٥١٣، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٩.

(٨) أحوال الرجال صـ ١٥٥ (رقم ٢٧٤)، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٣٠. وذكر ابن أبى حاتم في (الجرح والتعديل ٢/ ٢/ ١٤٨): أنه كان لا يضبط، وليس ممن يحتج بحديثه مَنْ أجْمَلَ القولَ فيه.

(٩) الضعفاء والمجروحين ٢/ ١٢.

(١٠) رجعت إلى كتاب ابن أبى حاتم (الجرح والتعديل)، والذى ينقل فيه مؤلفه عن أبيه؛ لتوثيق هذا النص منه، وذلك في ترجمة (عبد الله بن لهيعة) به ٢/ ٢/ ١٤٥-١٤٨، فلم أجده. وأميل إلى أن =

المتقدمين والمتأخرين عنه، فوجدت التخليط في رواية المتأخرين عنه موجوداً، وما لا أصل له من رواية المتقدمين كثيراً، كما أنه يُدَلِّس عن أقوام ضَعْفَى على أقوام رآهم ابن لهيعة ثقات، فالتزقتْ تلك الموضوعات به، ومعنى ذلك: أن ابن لهيعة ضعيف مضطرب قبل احتراق كتبه وبعده، وأنه مدلس يروى عن رواة ثقات ما لم يُرْوَ عنهم، فنُسبتْ إليه أحاديث موضوعة.

٨- أورد الإمام الذهبى (ت ٧٤٨هـ)[١] حديثاً بخصوص الإمام على ﷺ مفاده: أنه دخل على الرسول ﷺ، فلما خرج سئل: ماذا فعل له؟ قال: " علمنى ألف باب، تفتح كل باب ألف باب " . ثم نقد الذهبى هذا الحديث قائلاً: لعل البلاء في هذا الحديث من ابن ليهعة، فهو مُفْرِط في التشيع، ولم يُعْلَمْ عنه أنه غير مُفْرِط فيه[٢] .

٩- قال العراقى (ت ٨٠٦هـ) عنه: ضعفه الجمهور[٣] .

١٠- قال ابن رجب الحنبلى (ت ٧٩٥هـ): ابن لهيعة كثير الاضطراب، واختلف حوله الأئمة، فالبعض ضَعّفه دَوْماً من قِبَلِ حفظه، مثل: يحيى بن سعيد القطان[٤] .

١١- قال ابن حجر (ت ٨٥٢هـ): اختلط آخر عمره، وكثرت عنه المناكير في روايته[٥] .

ثالثاً - المتحفظون المتوقفون:

١- عبد الرحمن بن مهدى: ذكرت له رأياً ناقداً لابن لهيعة فيما مضى، وها هو - الآن - يستثنى من حديث ابن لهيعة ما رواه عبد الله بن المبارك عنه، فهو لا يَعْتَدّ بشئ سمعه من حديث ابن لهيعة إلا سماع ابن المبارك ونحوه، ممن دققوا في الأخذ عن ابن لهيعة، ونقلوا عنه ما صَحّ[٦] .

= النص من كلام ابن حبان الأصيل، وأن عبارة: (قال أبو حاتم) هذه زائدة في النص.

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٤.

(٢) المصدر السابق ٨/ ٢٦، وميزان الاعتدال، للذهبى ٢/ ٤٨٣.

(٣) التبصرة والتذكرة: ١/ ٢٢٠.

(٤) شرح علل الترمذى: صـ١٣٦-١٣٧، ١٤١.

(٥) طبقات المُدَلِّسين، لابن حجر صـ٨٣ (رقم ١٢)، وذكره في المرتبة الخامسة من المدلسين، وهى مرتبة ضمت ٢٤ مدلساً. وذكره السيوطى - أيضاً - في (أسماء المدلسين) صـ٩٩ (رقم ٢٩). والتدليس - اصطلاحاً - يعنى: إخفاء عيب في الإسناد، وتحسين لظاهره. ولا شك أن ابن لهيعة، لم يكن يصرح بالسماع، أو التحديث عن شيخ لم يسمع منه ولم يقرأ عليه، وإلا صار كاذباً فاسقاً. وإنما الذى كان يفعله أنه كان يُسقط - ربما عن وَهْم وغفلة - من الإسناد راوياً غير ثقه؛ حتى لا يُرَدّ حديثه من جهة هذا الراوى، فهو نوع من الإرسال. وجدير بالذكر أن وصف بعض العلماء له بالتدليس ينفى الدقة عن القول القائل: إن علماء مصر لا يُعلم أحد من علمائهم مدلساً .(نقله السيوطى عن الحاكم في تدريب الراوى ١/ ٢٣٢).

(٦) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٥، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٨.

ومما يؤيد تراجع ابن مهدى عن رفضه المطلق لأحاديث ابن لهيعة قول أُثِر عنه هو: " وددت لو أنى سمعت من ابن لهيعة ٥٠٠ حديث، وأنى غَرِمْتُ مُؤَدَّى ". يعنى: دِيَة[١].

٢- سعيد بن أبى مريم (١٤٤-٢٢٤هـ): كان سئ الرأى في ابن لهيعة، ولما رأى إقبال العلماء على ابن لهيعة وكتابتهم عنه، سكت عن نقده[٢].

٣- وقد رأينا في آراء الناقدين رأياً لابن معين، وها نحن - الآن - ننقل عنه رأياً أقل تشدداً، فيه يقول: يُكتب عن ابن لهيعة ما كان قبل احتراق كتبه[٣].

٤- رأينا أحمد بن حنبل - من قبل - مادحاً مثنياً على ابن لهيعة، وهنا نذكر له رواية أخرى يبدو فيها متحفظاً إذ يقول: ما حديثه بحجة، وإنما أكتبه للاعتبار[٤]، فهو يَقْوَى بعضه ببعض، وإن مَنْ كتب عن ابن لهيعة قديماً، فسماعه صحيح[٥].

٥- أبو زُرْعَة الرازى (ت ٢٦٤هـ): يرى أن ابن لهيعة لا يُحتج به، وجعل سماع القدماء والمحدثين منه سواء، إلا أنه مَيّز عبد الله بن وهب، وعبد الله ابن المبارك عن الباقين، فوثّق ما كتباه عن ابن لهيعة؛ لأنهما كانا ينقلان نقلاً صحيحاً من أصوله، بينما يأخذ الآخرون من النسخ[٦].

٦- قال ابن حِبَّان (ت ٣٥٤): من أصحابنا من يقول: من سمع من ابن لهيعة قبل احتراق كتبه، مثل: العبادلة (ابن المبارك، وابن وهب، وعبد الله ابن يزيد المقرئ، وعبد الله بن مَسْلَمة القَعْنَبِى)، فسماعه صحيح. ومن سمع بعد احتراقها، فليس بشئ[٧].

٧- قال ابن شاهين (ت ٣٨٥هـ) نقلاً عن أحمد بن صالح: ابن لهيعة ثقة ووقع به. فما رُوى عنه من الأحاديث، وثبت أن بها تخليطاً، يطرح ذلك التخليط[٨].

---

(١) تهذيب الكمال، للمزى ١٥/ ٤٩٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣١.

(٤) أى: يتتبع طرق حديث انفرد بروايته ابن لهيعة؛ ليعرف هل شاركه في مضمون روايته غيره من الثقات أو لا، فإن وُجِدَتْ هذه الطرق قَوَّتْ حديث ابن لهيعة وإلا فلا. (اختصار علوم الحديث لابن كثير) ص٤٩-٥٠ (وتعليق أحمد شاكر بالهامش).

(٥) المعرفة والتاريخ، للفَسَوِىّ ٢/ ١٨٥. وممن سمع من ابن لهيعة قديماً عبد الله بن يزيد المقرئ، فقد سئل عنه ابن حنبل، فقال: ثقة، صحيح السماع من ابن لهيعة (طبقات الحنابلة لأبى يَعْلَى ص٢٥٥).

(٦) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم ٢/ ٢/ ١٤٧-١٤٨، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٢١.

(٧) ذكر الذهبى قريباً من هذا النص عن عبد الغنى بن سعيد الأزدى، والساجى في (تهذيب التهذيب ٥/ ٣٣٠)، وورد كذلك في (الضعفاء والمتروكين) للدارقطنى ص٣٦٥. (رقم٣٢٢) والأنساب للسمعانى ١٠/ ٧ (رقم ٢٨٦٢).

(٨) تاريخ أسماء الثقات، لابن شاهين ص١٨٥ (رقم ٦٠١).

٨- بعد أن ذكر ابن تَيْمِيَة (ت ٧٢٨هـ) قول أحمد بن حنبل عن ابن لهيعة من أنه يُكتب حديثه للاعتبار، قال ابن تيمية: هو قاضي مصر، وكان من أكثر الناس حديثاً، ومن خيار الناس، لكنه بسبب احتراق كتبه وقع في حديثه المتأخر غلط، فصار يُعتبر بذلك، ويُستشهد به.وغالب حديثه صحيح[١].

٩- قال الذهبي: ما رواه عنه ابن وهب، والمقرئ (ت ٢١٣هـ)، والقدماء أجود[٢].

١٠- قال ابن كثير: ابن لهيعة يخشى من تدليسه أو سوء حفظه، فإذا صرح بالسماع (أي: قال: حدثنا) قُبل منه. وهو من أئمة العلماء بالديار المصرية في زمانه، وكان ذا إسناد قوى حسن[٣].

١١- قال ابن حجر: صدوق، اختلط بعد احتراق كتبه، ورواية ابن المبارك، وابن وهب عنه أعدل من غيرها[٤].

١٢- قال الشَّوْكَانِيّ: فيه ضعف يسير، وحديثه - في الغالب - حسن[٥].

١٣- الشيخ أحمد محمد شاكر: وَثَّق ابن لهيعة في حديث، رواه عنه ابن المبارك الثقة، وصرح فيه ابن ليهعة بالسماع من أبى النَّضْر، واعتبر الإسناد صحيحاً، ليست له علة[٦].

١٤- وعلّق الشيخ ناصر الدين الألبانى على حديث في إسناده ابن لهيعة قائلاً عنه: هو ثقة في نفسه، وإنما يُخْشَى من سوء حفظه، فإذا ما تابعه ثقة، فذلك دليل أنه قد حفظ[٧].

١٥- أما سزكين، فيرى أنه ضعيف الرواية على عكس صديقه المدقق الليث ابن سعد[٨]. وفَصّل القول في موضع آخر، فقال: إنه محدّث ضعيف بصفة عامة، وأن كل ما روى عنه ضعيف، إلا ما رواه عبد الله بن المبارك، وابن وهب؛ فقد كانا يفحصان ما يرويان عنه[٩].

---

(١) فتاوى ابن تيمية: ١٣/ ٣٥٢، ١٨/ ٢٦.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٤، وديوان الضعفاء للذهبى صـ١٧٥ (رقم ٢٢٧٤).
(٣) فضائل القرآن: صـ١٧١.
(٤) تقريب التهذيب ١/ ٤٤٤ (رقم ٥٧٤).
(٥) دَرّ السحابة صـ٢٧١.
(٦) كتاب الرسالة، للشافعي (تعليق المحقق أحمد شاكر في الفقرة الأخيرة من حاشية صـ٩٠).
(٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١/ ١٥٦ (تعليقه على حديث رقم ٤١٤).
(٨) تاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) لسزكين: ١/ ١٣٦.
(٩) المرجع السابق: ١/ ١١١.

المناقشة:

١) مناقشة آراء الناقدين:

أ- إذا كان القطان لا يصرح بسبب عدم أخذه عن ابن لهيعة[(١)]، فهناك من رَدُّوا روايته، وبينوا سبب ذلك، مثل: عبد الرحمن بن مهدى الذى ذكر أن عدم ضبط ابن لهيعة لأسانيده في أحاديث بعث بها إليه، دفعه لتركه. ونعتقد أن ابن لهيعة لم يكن يعتمد إسقاط الضعفاء من أسانيده، كما بينت سلفاً، لكنه نسيان طرأ عليه، وتقادُمُ للعهد تعرض له. لقد روى عن إسحاق بن أبى فروة عن عمرو بن شعيب، وعن المُثَنَّى بن الصبَّاح عن عمرو بن شعيب. هكذا، كان يروى في البداية، ثم بعد ذلك كان يحدث عن عمرو بن شعيب نفسه مباشرة[(٢)]. ولا يعنى ذلك أن ابن لهيعة لم يرو عن عمرو بن شعيب مباشرة، فهو ممن روى عنه بالفعل، لكن ذلك لم يكن دوماً في روايته، فهو - أحياناً - يروى عنه بالواسطة. فكان ابن لهيعة لا يدقق في الحالين؛ مما عرضه للاتهام بالتدليس[(٣)].

ب- أما بخصوص قول ابن سعد، فهو متناقض مع نفسه، ففى الوقت الذى يطلق فيه لقب (ضعيف) بإطلاق دون إبداء الأسباب، إذا به يذكر بعدها أن حديث ابن لهيعة في البداية أحسن منه في آخر حياته؛ مما يدل على أن حديثه بين حسن وأحسن، مما يتناقض مع إطلاقه الأول عليه، وذلك كله يجعلنا لا نلتفت إليه كثيراً؛ فهو رأى غير مدعوم بدليل.

جـ- عَلَّلَ ابن معين عدم الاحتجاج بحديث ابن لهيعة بأنه كان يتساهل في الأخذ عن الرواة، فكان من شاء يقول له: حدثنا[(٤)]. وهذا اتهام صحيح لابن لهيعة لكنه لم يكن دَيْدنَه، ولا يدفع إلى عدم الاحتجاج به كلية. أما نقد الجوزجانى، وابن رجب الحنبلى، والعراقى له، فهو نقد انطباعى عام غير معلل، فلا يُلتفت إليه.

د- أما اتهام ابن حجر له بالتدليس، فهو صحيح. أما اتهامه بكثرة المناكير في المرويات، فهو نابع من تساهله في الأخذ عن الرواة دون تمحيص، فيُقرأ عليه ما ليس

(١) وكذلك ذكر الإمام مسلم في (مخطوطة الكنى والأسماء) له ص٦٨: أن ابن لهيعة تركه ابن مهدى، ويحيى، ووكيع. ولم يذكر السبب.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٥، وتهذيب التهذيب ٥/٣٢٨. ومعلوم أن العلماء ضَعَّفوا بعض أحاديث عمرو بن شعيب رغم أنه ثقة في نفسه؛ نتيجة ضعف مَنْ نقلوا عنه كالمثنى بن الصباح، وابن لهيعة (سير أعلام النبلاء ٥/ ١٦٩، ١٧٧، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤٤).

(٣) وهو تدليس الإسناد: وفيه أخفى ابن لهيعة - عن سوء حفظ وغلبة النسيان - شيخه الضعيف من الإسناد، وروى عن شيخ شيخه الموثوق به مباشرة. (تيسير مصطلح الحديث، للطحان: ص٥٩).

(٤) تهذيب التهذيب ٥/ ٣٣١. ومعلوم أن التساهل في السماع والإسماع يؤدى إلى رد الرواية وعدم قبولها (تدريب الراوى للسيوطى ١/ ٣٣٩).

من حديثه، فضعف بسبب ذلك(١).

هـ- وبناء على ما تقدم، فإن ناقدى ابن لهيعة لما ذَمُّوه، وعللوا ذلك ودللوا عليه بتساهله في الأخذ والسماع كانوا محقين، لكن الذى لا حق لهم فيه أن يضعفوه على إطلاقه وفى كل الحالات، ثم لا يبرهنون على ذلك التضعيف. إذاً ابن لهيعة يُضَعَّف في حدود ما تساهل فيه. ومما يدل على أنه له أحاديث صحيحة أنه كاتب أئمة آخرين كعبد الرحمن بن مهدى، وابن جريج، وأخذ عنه الثورى بالفعل. بل إن الإمام مالكاً ﷺكان يتمنى سماعه ومشافهته، فيذكر لنا إبراهيم بن إسحاق (٢٠٤-٢٠٥هـ) قاضى مصر، وحامل رسالة الليث بن سعد المشهورة في الفقه إلى مالك، وعاد بجوابها ثانية - سأله مالك عن ابن لهيعة، فأخبره بحاله، فقال مالك: ألا يأتى للحج؟ ففهم إبراهيم أن مالكاً يريد سماع ابن لهيعة، ومشافهته(٢).

ثم إن الذين نقدوه، وتركوه، ورفضوا الأخذ عنه مطلقاً مخالفون لمذهب كبار المحدثين وهو: أنهم لا يتركون حديث محدث، حتى يجمع أهل مصره على ترك حديثه(٣). وهذا لم يحدث في حق ابن لهيعة، بل إن أكثر محدثى مصر، وهم أعْرَف به من غيرهم، أثنوا على علمه، وبينوا المداخل التى أسئ إلى حديثه بسببها.

و- لا ينبغى أن نلقى بالتبعة كلها على محدثنا ابن لهيعة (سواء في اتهامه بالتساهل في الأخذ، أم في تدليسه في الرواية)؛ فإن الناقلين عنه يتحملون جزءاً من المسئولية، فقد كان ابن لهيعة ذا كتاب صحيح يُمْلِى منه على الناس، كما ذكرنا عن أحمد بن صالح المصرى ذلك فيما مضى. فمن ضبط منهم، وأحسن النقل، كان صحيح الكتاب، مثل: محمد بن رُمْح، وغيره. وقد كان قُتَيْبَة ابن سعيد يقول: كنا لا نكتب

(١) وعلى ذلك عديد من الأمثلة، منها: قول ابن أبى مريم: إنه حضر ابنَ لهيعة - آخر عمره - فوجده لا يهتم كثيراً بما يسمع ولا يدقق، فتوقف ابن أبى مريم عن الكتابة عنه (الجرح والتعديل ٢/ ٢/ ١٤٦). وكذلك نَقْله عن عامة الحُجَّاج حديثاً موضوعاً يقول: إذا رأيتم الحريق، فكَبِّروا. نقله ابن لهيعة دون تدقيق ولا تمحيص. وقد سأله رجل: هل سمعت هذا الحديث ؟! قال: ما أدرى، قرئ على. فقال: إنما هو عن القاسم بن عبد الله بن عمرو، وهو كذاب يضع الحديث. (التاريخ، لابن معين ٢/ ٣٢٧، والمعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ١٨٥). هذا إلى جانب نماذج أخرى لتساهله، عرضها ابن عدى في (الكامل) ٤/ ١٤٦٢.

(٢) تهذيب الكمال، للمزى ١٥/ ٤٩٥ ،وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٧. وقد ذكر ابن حجر في (تهذيب التهذيب) ٥/ ٢٣٠: أن الذى في (الموطأ) لمالك بن أنس في كتاب (البيوع)، باب (ما جاء في بيع العُرْبان) ٢/ ٦٠٩ (الحديث الأول)، الذى ورد في إسناد هذا الحديث، وعُبِّر عنه بالثقة: هو ابن لهيعة. وتوضيح ذلك كالآتى: جاء في موطأ مالك أنه روى عن الثقة عنده، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبىﷺ نهى عن بيع العُرْبون. ويحتمل أن يكون هذا الثقة هو ابن وهب (وهو الأرجح في نظرى).

(٣) المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٣٥، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٨، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٣٠.

حديث ابن لهيعة إلا من كتب ابن أخيه، أو كتب ابن وهب، إلا حديث الأعرج[(١)] (فلعله كان لديهم). وهكذا، كان بعض التلاميذ يدققون ويمحصون في النقل عن ابن لهيعة من خلال أصول حديثه الصحيحة، فكانت أحاديثهم لا غبار عليها. ويدل على ذلك قول أحمد بن حنبل لقتيبة بن سعيد: أحاديثك عن ابن لهيعة صِحاح. فرد عليه: لأنّا كنا نكتب من كتاب ابن وهب[(٢)]، ثم نسمعه من ابن لهيعة[(٣)] . وهكذا يكون التلقي.

أما البعض الآخرون، فكانوا يجلسون للسماع فقط، ثم لا يكتبون إلا من خلال نسخ الآخرين، فمن نقل عن نسخة غير مضبوطة، كان حديثه عن ابن لهيعة غير مضبوط[(٤)] . والحق أن التحليل السابق يخفف من تبعة ابن لهيعة، ويُحَمِّل طلاب العلم جزءاً من المسئولية، لكن ذلك لا يُعْفِى ابن لهيعة من تهمة تساهله في الإملاء على كل مَنْ هَبَّ ودَبَّ في مجلس علمه، فكان يجب عليه ألا يجيز لأحد الرواية عنه، إلا إذا عارض نسخته على الأصل، وتأكد من صحة ما كتب عنه،لكنه-للأسف-لم يكن يفعل،فكان ما كان مما ليس يدركه.

ز- وفيما يتصل باتهام ابن لهيعة بالتشيع، فقد انفرد بذلك الذهبى كما رأينا. والحق أن الذهبى إمام من أئمة الحديث ونقد الرجال، إلى جانب تحليه بالروح العلمية في إيراد الأدلة التى يدعم بها أقواله، فلا يطلقها إطلاقاً. وقد ذكرت حديثاً، أورده الذهبى لابن لهيعة، يدل على تشيع فيه. وقد أورد الذهبى لابن لهيعة أحاديث أخرى[(٥)]،يُفهم منها أنه مُفْرِط في التشيعُ.وعلى كل، فإن المُحَدِّثين رأوا أن المبتدع الذى لا يدعو إلى بدعته لا ترد مروياته بخلاف الداعى لها؛فهو ربما يخترع من الأحاديث ما يوافق هواه[(٦)].وعند تطبيق ذلك على ابن لهيعة نجد أنه وإن كان مفرطاً في التشيع،فإنه لم يكن فيه غلو ولا رفض كامل،ولم يُؤْثَر عنه حَطٌّ مِنْ قَدْر أبى بكر وعمر،ولم يَدْعُ إلى شئ من ذلك.وهذا هو حال كثير من التابعين،وتابعيهم (سواء كانوا من المغالين في تشيعهم،أم غير مغالين).ولو رددناهم لذهبت جملة الآثار النبوية،وتلك مفسدة واضحة[(٧)].فلا يضر شدة حبهم لآل البيت وإفراطهم في ذلك،ما داموا لا ينحرفون ولا يفترون على صحابة رسول الله ﷺ.ولا يمكن أن يكون ابن لهيعة وَضَّاعاً

(١) تهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٩.
(٢) وهو ثقة في النقل عن ابن لهيعة، كما هو معلوم.
(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٧.
(٤) المعرفة والتاريخ، للفسوى ٢/ ١٨٤، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٨.
(٥) ميزان الاعتدال، للذهبى ٢/ ٤٨٢-٤٨٣.
(٦) اختصار علوم الحديث، لابن كثير صـ٨٣، وتدريب الراوى للسيوطى ١/ ٣٢٥ .
(٧) من تعليق الشيخ أحمد شاكر بحاشيته صـ٨٤ من (الباعث الحثيث).

كذاباً[١]، ولعل الرافضة دسوا عليه كما دسوا على غيره أحاديث التشيع[٢].

٢) مناقشة آراء المتحفظين:

أ- وبعد أن رددنا على الناقدين، ووضعنا نقداتهم في القالب الصحيح دون إطلاق غير محدد، ولا جرح غير مُسَبَّب، نُعَرِّج على أقوال المتوقفين. والحق أنهم يبنون توقفهم وتحفظهم على أساس اختلاط ابن لهيعة[٣]، أو احتراق كتبه[٤]، أو هما معاً؛ مما

---

(١) وحاشاه أن يكون كذلك فهو ما لم يقله أحد من ناقديه، وإن كان ابن حبان نسب إليه موضوعات، فذلك مما انفرد به، ولم يؤيده فيه ثقات نقاد الحديث.

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي ٨/ ٢٦. وهذا هو الأرجح؛ إذ لا يجوز أن نتهمه في علمه كله بسبب أربع سنوات من الخلط (الحركة العلمية في جامع عمرو في مصر في القرنين الأول والثاني) للدكتور أبي سعدة ٢٥٣-٢٥٤.

(٣) الاختلاط: فساد في العقل، أو عدم انتظام الأقوال؛ نتيجة ضعف في العقل، أو عمى، أو احتراق كتب وغيرها. (تيسير مصطلح الحديث للطحان) ص١٧٦-١٧٧. وممن قالوا باختلاط عقله:
أ- ذكر ابن حجر - نقلاً عن الطبري في (تهذيب الآثار) - في (تهذيب التهذيب) ٥/ ٣٣١: أن ابن لهيعة اختلط عقله في آخر عمره.
ب- ذكر ابن كثير في (اختصار علوم الحديث) ص٢٠٨: أن ابن لهيعة لما ذهبت كتبه، اختلط عقله. فمن سمع منه قبل اختلاطه قبلت روايته، ومن سمع - بعد ذلك، أو شَكَّ في ذلك - لم تقبل.
ج- وذكر في (كتاب الاغتباط بمن رُمي من الرواة بالاختلاط) لسبط ابن العجمي ص١٩٠ (رقم ٥٨): أن ابن لهيعة نُسب إليه الاختلاط، والعمل على تضعيف حديثه. وممن قال بعدم اختلاطه:
أ- ذكر أهل مصر أنه لم يختلط، وأن أول أمره وآخره سواء، لكنه كانت تُقرأ عليه كتب، ليس بها حديثه فيسكت. فلما سئل، قال: وما ذنبي؟ إنما يقرأون عليّ من كتاب، ولو سألوني أخبرتهم أنه ليس من حديثي (طبقات ابن سعد (ط.ليدن) ٧/ ٢/ ٢٠٤، والمعارف لابن قتيبة ص٥٠٥، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٢٠).
ب- ذكر ابن معين في(معرفة الرجال)١/ ٦٨ رقم ١٣٤، ١/ ١٠١ (رقم ٤٣٨): أن النضر بن عبد الجبار قال - وهو ثقة -: ما اختلط ابن لهيعة - قط - حتى مات.

(٤) هناك خلاف حول احتراق كتب ابن لهيعة:
١) ممن قال باحتراقها:
أ- عثمان بن صالح السهمي، وابن بكير: أقَرّا باحتراق داره، وبعض نسخ من كتبه ١٧٠هـ. أما الأصول التي كتبها بيده، فقد سَلِمَتْ؛ إذ لم يكن يعطي الأصول لأحد، ونجت من الحريق. ويذكر عثمان بن صالح أنه كتب مرويات عمارة بن غزية من أصل كتب ابن لهيعة، وذلك بعد الحريق. (الضعفاء الكبير للعقيلي ٢/ ٢٩٤ (رقم ٨٦٧)، والكامل لابن عدي ٤/ ١٤٣٦، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٣، ٢١، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٩).
ب- قال قتيبة بن سعيد: لما احترقت كتب ابن لهيعة، أرسل إليه الليث من الغد بألف دينار. (سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٦).
٢) وممن نفى حدوث الاحتراق: يحيى بن حسان (ت ٢٠٨هـ) إذ قال: ما غاب له كتاب (الجرح والتعديل ٢/ ٢/ ١٤٨). وثمة رواية عن أهل مصر تذكر أنه لم يحترق له كتاب، وظل ابن وهب يكتب عنه، حتى مات ابن لهيعة (سير أعلام النبلاء ٨/ ١٩). وذكر ابن أبي مريم أنه لم يحترق له أي =

جعلهم يقبلون منه ما رواه قبلهما، ويردون مروياته بعدهما.

ب- الحق أننى أميل إلى الموافقة على حدوث الاحتراق؛ لأن الذين قالوا به معاصرون له (عثمان بن صالح السَّهْمِىّ ١٤٤-٢١٩هـ)، ويحيى بن عبد الله ابن بُكَيْر (١٥٤-٢٣١هـ)، وأيدهم علماء ثقات كالذهبى. كما أن النافين للاحتراق غير معاصرين له، وأدلتهم غير مقنعة، بل هى أقوال مرسلة مُعَرَّاة من الدليل.

جـ- ولا شك أن ابن لهيعة احترقت بعض أصوله، وكثير من النسخ المنقولة عن هذه الأصول. ولما كان ابن لهيعة سئ الحفظ، كبير السن (فقد احترقت داره، وكتبه ١٧٠هـ)؛ أضعف ذلك قدرته على الضبط.

د- وبخصوص الاختلاط ،فلا نستطيع تحديد وقته بالضبط؛ فقد سكتت المراجع عن ذلك،وإن كان المرجح أنه وقع أواخر حياته(ت ١٧٤هـ)؛ نتيجة كبر السن، ومرض الفالِج الذى أصابه.

والخلاصة:

١- لم تكن أقوال العلماء المعدلين لابن لهيعة انطباعية، وإنما قيلت على أساس الفترة الأولى من حياة ابن لهيعة قبل تساهله، وحريق داره وكتبه.

٢- بالنسبة للناقدين كانت لهم مواقف وحجج، أوضحناها وفَنَّدْناها.

٣- بالنسبة للمتحفظين، سواء احترقت بعض أصول ابن لهيعة، أم احترقت نسخ منها، فالنتيجة أنه تساهل آخراً. فكان التوقف والتحفظ وهو مقبول، فابن لهيعة كان أمره في البدء منضبطاً، فأفسد نفسه بعد التساهل[(١)] .

٤- أن ابن لهيعة لا يعيبه هذا الجدل المثار والخلاف الواسع حوله، فهكذا الشخصيات العلمية العظيمة، تصطرع حولها الآراء، وتحتاج إلى أولى العزم ممن أوتوا الطاقة على البحث والتدقيق، لا أولئك الذين يُعْرِضون عن القضايا قبل الولوج فيها. أما الخاملون، فلا يثيرون الالتفات أو الانتباه قِيدَ أُنْمُلَة، أو طَرْفَة عين.

٥- أن ابن لهيعة كان من بحور العلم رغم لين في حديثه، فقد قابل ٧٢ تابعياً، حتى لقى بعض أصحاب أبى هريرة، وابن عمرو، وعقبة بن عامر[(٢)] . لقد كان - ولا ريب - عالم الديار المصرية هو والليث معاً، كما كان الإمام مالك عالم المدينة في ذلك العصر، وكان الأوزاعى عالم الشام، ومَعْمَر بن راشد عالم اليمن، وشعبة والثورى عالِمَى العراق ،وإبراهيم بن طَهْمان عالم خراسان.

= كتاب، وأنه ربما أشيع ذلك حتى يقدم له الأمير عطاء، وبالفعل أرسل إليه ٥٠٠ دينار (المصدر السابق ٨/ ١٦، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٩).

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢١.

(٢) تهذيب الكمال للمزى ١٥/ ٤٩٠ (رقم ٣٥١٣)، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٣، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٨.

لكن ابن لهيعة تهاون بالإتقان وروى مناكير، فانحط عن رتبة الاحتجاج به عندهم. وبعض الحفاظ يروى حديثه ويذكره في الشواهد والاعتبارات والزهد والملاحم (أحاديث المغازى)، لا في الأصول. وبعضهم يبالغ في وَهْنه، لكنه لا ينبغى إهداره، وتُتجنب مناكير رواياته، فهو عدل في نفسه[(١)] . وقد خَرّج مسلم حديثه، لكنه يقرنه بحديث عمرو بن الحارث. أما البخارى والنسائى، فإذا ذكرا إسناداً فيه ابن لهيعة وغيره، سَمّيا الغير وكَنّيا عن ابن لهيعة، ولم يُصَرِّحا باسمه[(٢)] ؛ لِمَا ثار حوله من جدل وخلافات.

وأخيراً، فمرويات ابن لهيعة تحتاج إلى دراسة مستقصية، تجمع كل مروياته، وتدرس أسانيدها ومتونها[(٣)]؛ للحكم عليه بناء على ذلك، وَفْقَ ما صحت نسبته إليه، فنصل - بعد ذلك - إلى رأى قاطع في الرجل محدّثاً، وتلك مهمة (المحدّثين).

أساتيذه: تمتع ابن لهيعة بموهبة الصبر على طلب العلم، فهو من الكَتّابين له، الرحَّالين فيه، حتى إنه كانت له خريطة معلقة في عنقه، يجوب بها مصر، ويمر على

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٤.

(٢) الكامل لابن عدى ٤/ ١٤٧٠، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال، للخزرجى ٢/ ٩٢ (رقم ٣٧٦٠).

(٣) فلا يحكم على كل حديث فيه ابن لهيعة بالضعف مباشرة؛ نتيجة التسرع في إطلاق الحكم على ابن لهيعة بأنه ضعيف. وقد وقع في ذلك القدماء، حتى قال الذهبى في (الكاشف .ط.دار الكتب العلمية) ٢/ ١٠٩: العمل على تضعيف حديث ابن لهيعة. والصحيح أن تُستقصى طرق هذا الحديث، فإن وافقته طرق أخرى عن رواة ثقات، لم يتعرضوا لما تعرض له ابن لهيعة، قَوّت هذه الطرق حديث ابن لهيعة، فصار متابعاً أو شاهداً، ونفينا عنه الضعف. وهكذا، فإن تعدد طرق الحديث الواحد يوجب العلم بمضمون المنقول، لكن هذا ينتفع به كثيراً في علم أحوال الناقلين (الرواة). ففى مثل هذا يستفاد برواية المجهول، وسيئ الحفظ، والمرسل، ونحوها. وكان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث، ويقولون: يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره (فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٣٥٢). وقد وردت مصطلحات في الكلام السابق أُعَرِّف بها كالآتى: الاعتبار: تتبع طرق حديث انفرد بروايته راوٍ؛ ليعرف هل شاركه في روايته غيره أو لا. (تيسير مصطلح الحديث صـ١٠٤).

المتابع: هو الحديث الذى يشارك فيه رواته رواة الحديث الفرد لفظاً ومعنى، أو معنى فقط مع الاتحاد في الصحابى (تدريب الراوى للسيوطى ١/ ٢٤٢-٢٤٥).

الشاهد: هو الحديث الذى يشارك فيه رواته رواة الحديث الفرد لفظا ومعنى، أو معنى فقط مع الاختلاف في الصحابى.(تيسير مصطلح الحديث ١٠٤).قال ابن كثير فى(اختصار علوم الحديث)صـ٤٩-٥٠ : "ويغتفر في باب الشواهد والمتابعات من الرواية عن الضعيف القريب الضعف ما لا يغتفر في الأصول، كما يقع في الصحيحين وغيرهما مثل ذلك.ولذا يقول الدارقطنى في بعض الضعفاء: يصلح للاعتبار".-وأخيراً، فإذا روى العبادلة (ابن وهب، وابن مسلمة القعنبى، وابن يزيد المقرئ، وابن المبارك) عن ابن لهيعة حديثاً، ولم يكن بالإسناد راوٍ ضعيف، قبلنا حديث ابن لهيعة؛ لأن هؤلاء العبادلة دققوا في الأخذ عن ابن لهيعة.

ديار المحدثين، ويسألهم عمن لقوا من الشيوخ، وعمن كتبوا، فإذا حدثوا كتب عنهم؛ ولذا كُنّى بأبى خريطة[(١)] .

أ- من المصريين:

كان لابن لهيعة أساتذة كثيرون تلقى عليهم الحديث النبوى الشريف في مصر، من أمثال: أبى قَبيل شيخه[(٢)]، وعُبيد الله بن أبى جعفر[(٣)]، ويزيد بن أبى حبيب[(٤)] . هذا إلى جانب آخرين، مثل: يحيى بن مَيْمُون الحَضْرَمِىّ، وعبد الله ابن هُبَيْرَة المصرى، وبكر بن عمرو المَعَافِرِىّ.

ب- من غير المصريين:

كان لابن لهيعة رحلاته الطيبة إلى مكة والمدينة، وكان العلماء يلتقون هناك من كل صوب وحدب في موسم الحج، يحدثهم ويحدثونه، ويراسلهم بعد ذلك ويراسلونه. ومن هؤلاء: الثورى، وابن مهدى، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وعطاء بن أبى رباح[(٥)]، ومحمد بن المُنْكَدِر[(٦)]، وغيرهم.

تلاميذه:

عاش ابن لهيعة عمراً مديداً بلغ حوالى ٧٩ سنة، تمكن خلالها من رواية الكثير من الأحاديث داخل مصر وخارجها، وتتلمذ عليه كثير من التلاميذ قديماً وحديثاً. فمثلاً: روى عنه عمرو بن الحارث (ت ١٤٨هـ)، وروى عنه كذلك آخر تلاميذه محمد بن رُمْح التُّجِيبىّ (ت ٢٤٢هـ)، فبين وفاتيهما ٩٤ سنة، وكلاهما تلميذ لابن لهيعة[(٧)] ؛ مما يدل على عظيم تأثيره في أجيال التلاميذ المتتالية.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٣.

(٢) المشتبه للذهبى٢/ ٥٣٦.واختار ابن عبد الحكم ثلاثة أحاديث رواها ابن لهيعة عن أبى قبيل، وأوردها في كتاب(فتوح مصر وأخبارها): صـ٢٥٧، ٢٨٦، ٢٩٣.

(٣) وأورد ابن عبد الحكم في (المصدر السابق) حديثين، رواهما ابن لهيعة عن عبيد الله صـ٢٦٢، ٢٧١.

(٤) وقد حرص ابن لهيعة على الرواية عن يزيد حرصاً بالغاً، حتى قال: ما تركت ليزيد حرفاً (الكامل لابن عدى ٤/ ١٤٦٣، وتهذيب الكمال للمزى ١٥/ ٤٩٤). وقد اختار ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) أن يذكر ٣٤ رواية رواها ابن لهيعة عن يزيد ابن أبى حبيب، منها: ١٨ حديثاً مرفوعاً صـ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦، وغيرها.

(٥) قرشى مكة، من سادات التابعين ورعا وفضلاً. روى عن ابن عباس، وابن عمرو، وابن الزبير، ومعاوية، وأسامة بن زيد، وسواهم. روى عنه ابن لهيعة، ويزيد ابن أبى حبيب، وابن أبى ليلى، وغيرهم. ثقة عالم كثير الحديث. ولد ٢٧هـ، وتوفى ١١٤هـ. (تهذيب التهذيب ٧/ ١٧٩ وبعدها).

(٦) محمد بن المنكدر التيمى. أحد الأئمة الأعلام. روى عن أبيه، وأبى هريرة، وعائشة، وابن عباس، وغيرهم. وروى عنه ابن لهيعة وموسى بن عقبة، وهشام ابن عروة وغيرهم. كان من معادن الصالحين. ثقة. توفى ١٣٠هـ (المصدر السابق ٩/ ٤١٧-٤١٩).

(٧) السابق واللاحق، للخطيب البغدادى صـ٢٥١-٢٥٢ (رقم ٩٨).

أ- ومن أبرز تلاميذه المصريين:

النَّضْر بن عبد الجبار(١)، ومحمد بن رمح المصرى(٢).

ب- ومن أبرز تلاميذه غير المصريين:

عبد الله بن المبارك(٣)، وقتيبة بن سعيد(٤).

نموذج من مروياته في مصر(٥):

" حديث ابن لهيعة قال: سمعت مِشْرَح بن هاعان يقول: سمعت عقبة ابن عامر يقول: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، فُضِّلَتْ سورة الحج على القرآن؛ لأن فيها سجدتين؟ فقال رسول الله ﷺ: " نعم، ومن لم يسجدهما، فلا يقرأ بها "(٦). حدثناه أبى، وأبو الأسود، وأسد بن موسى.

٥) الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ):

تعريف عام به: هو الإمام الحافظ، شيخ الإسلام، عالم الديار المصرية ومحدثها

(١) أبو الأسود النضر بن عبد الجبار. كان ملازماً لابن لهيعة راوية عنه، صادقاً شيخاً. قال عنه أحمد بن صالح: ما أحسن حديثه عن ابن لهيعة. روى عن الليث، ومفضل ابن فضالة، وغيرهما. وروى عنه ابن معين، وأحمد بن صالح، وأبو حاتم، وغيرهم. ولد ١٤٥هـ، وتوفى ٢١٩هـ(المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٣٤، وتهذيب الكمال للمزى ١٥/ ٤٩٨، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٩، ١٠/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٢) سمع الليث، وابن لهيعة. وحدث عنه مسلم، وابن ماجة. ثقة متقن حافظ. أثنى العلماء على دقته وأمانته. ولد ١٥٠هـ، وتوفى ٢٤٢هـ. (المصدر السابق ١١/ ٤٩٨-٤٩٩).

(٣) أحد الأئمة عالم زمانه، وأمير الأتقياء في عصره. طلب العلم وهو ابن عشرين سنة. ممن سمع منهم: حميد الطويل، ويحيى بن سعيد الأنصارى، ومالك، والليث، وابن لهيعة. وممن روى عنه: الثورى، ومعمر، وابن وهب. ولد ١١٨هـ، وخرج للعلم أول مرة ١٤١هـ. ورحل إلى كافة الأقاليم، وأعتقد مجيئه مصر في بداية رحلاته قبل اختلاط واحتراق كتب ابن لهيعة(قبل ١٦٠هـ). (طبقات ابن سعد، ط. ليدن ٧/ ٢/ ١٠٤-١٠٥) (فى محدثى خراسان)، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ط. إحسان عباس ٣/ ٣٢-٣٤، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٩، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٣٦).

(٤) قتيبة بن سعيد الثقفى. روى عن مالك، والليث، وابن لهيعة، وغيرهم. روى عنه الجماعة - سوى ابن ماجة - وغيرهم. صدوق ليس أحد من الكبار إلا حمل عنه بالعراق. ثقة مأمون الحديث. ذكر أحمد أنه آخر من سمع من ابن لهيعة. ولد ١٥٠هـ، وتوفى ٢٤٠هـ. (المصدر السابق ٨/ ٣٢١، وما بعدها).

(٥) فتوح مصر وأخبارها ص٢٨٩.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ١٥١، ١٥٥، وأبو داود في (سننه) كتاب (الصلاة) باب (تفريع أبواب السجود وكم سجدة في القرآن) ٢/ ١٢٠-١٢١ رقم(١٤٠٢)، والترمذى في (سننه) كتاب (الصلاة) باب (ما جاء في السجدة في الحج) ٢/ ٤٧٠-٤٧١ رقم (٥٧٨)، والطبرانى في (المعجم الكبير) ١٧/ ٣٠٧ (رقم ٨٤٦-٨٤٧)، والحاكم في (مُسْتَدْرَكه) كتاب (الصلاة) ١/ ٢٢١، وقال الحاكم: هذا حديث لم نكتبه مسنداً إلا من هذا الوجه، وروى بهذا المعنى بأقوال صحابة عديدين.

قال الترمذى: حديث ليس إسناده بذاك القوى. ورَدّ أحمد شاكر: الحديث صحيح، وابن لهيعة ومشرح ثقتان.

الأكبر، الذى تدين له مصر بمكانتها السامية العلمية المتميزة في الحديث النبوى الشريف خلال القرن الثانى الهجرى.

آراء نقاد الحديث الموثقين له:

١- رأى مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ): ذكر ابن وهب أن كل ما كان في كتب مالك ﷺ من قوله: وأخبرنى من أرضى من أهل العلم، فهو الليث بن سعد(١).

٢- قال ابن سعد (ت ٢٣٠هـ): ثقة، كثير وصحيح الحديث(٢).

٣- قال ابن معين (ت ٢٣٣هـ): الليث ثقة، وأثبت من روى عن المَقْبُرِىّ(٣).

٤- على بن المدينى (ت ٢٣٤هـ): ثقة ثبت(٤).

٥- قال أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ): الليث كثير العلم صحيح الحديث(٥).

وقال - أيضاً -: ليس في حديث أهل مصر أصح حديثاً من الليث. وعمرو بن الحارث يقاربه(٦).

٦- قال عبد الله بن صالح العجلى (ت ٢٦١هـ): الليث بن سعد المصرى ثقة(٧).

٧- قال أبو زرعة الرازى (ت ٢٦٤هـ) في الضعفاء (قسم الرواة الذين عدلهم): أخرج له الستة، وهو صدوق، ويحتج بحديثه(٨).

٨- ذكر الدارمى (ت ٢٨٠هـ) في تاريخه(٩)، عن ابن معين لما سئل عن حديث الليث، عن نافع، قال: صالح ثقة.

٩- قال النسائى (ت ٣٠٣هـ): ثقة(١٠).

١٠- قال ابن شاهين (ت ٣٨٥هـ): ثقة، ونقل قول ابن معين فيه: ثقة صدوق(١١).

١١- قال الخليلى (ت ٤٧٦هـ): إمام وقته بلا مُدافَعة، مُخَرَّج في الصحيحيْن(١٢).

---

(١) مخطوط (تهذيب الكمال) للمزى ٣/ ١١٥٣.

(٢) طبقات ابن سعد (ط.ليدن) ٧/ ٢/ ٢٠٤.

(٣) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم ٧/ ١٧٩-١٨٠ (رقم ١٠١٥)، والتعديل والتجريح للباجى ٢/ ٦١٥ (رقم ٤٤٨).

(٤) الجرح والتعديل: ٧/ ١٧٩(ثبت)، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٤.

(٥) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم ٧/ ١٧٩.

(٦) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٥٠، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٣.

(٧) تاريخ الثقات ص٣٩٩ (رقم ١٤٣٠)، ومعرفة الثقات ٢/ ٢٣٠ (رقم ١٥٦٥).

(٨) ٣/ ٩٢٦ (رقم ٥٩٢).

(٩) ص١٥١ (رقم ٥٢٤).

(١٠) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٥، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٤.

(١١) تاريخ أسماء الثقات (ط.الدار السلفية) ص١٩٦ (رقم ١١٨٨).

(١٢) الإرشاد ١/ ٢٠٢ (رقم ٣١).

١٢- قال ابن حجر: ثقة ثبت[١] .

ملحوظة:

وتقتضينى الأمانة العلمية أن أذكر بعض النقد الخفيف، الذى وُجِّه لليث ابن سعد بخصوص رواياته الحديثية، مثل:

أ- قول يعقوب بن شَيْبَة:

فى حديث الليث بن سعد، عن الزهرى بعض الاضطراب[٢] .

ب- وفى قول لابن معين:

الليث ثقة، ولكن في أخذه سهولة[٣] . أي: لم يكن يدقق في السماع، ويتساهل في أساتيذه أكثر مما تعورف عليه. ويذكر أبو صالح تلميذه وجهاً آخر للتساهل: أنه كان يجيز كَتْبَ العلم لمن يسأله، ويراها جائزاً واسعاً[٤] .

وعلى كل، فإن هذا التساهل أو ذاك الاضطراب لا يؤثر في توثيقات جهابذة نقدة الحديث لليث بن سعد، فهو غير مُدَلَّل عليه، كما أنه لم يكن بالكَمّ أو الكَيْف الذى يوقعه في الغلط والغفلة؛ بدليل قول ابن معين له بعد العبارة السابقة: " وكان من أهل المعرفة "[٥] .

وبناء على ما تقدم، فإن هذه الهَنَاتِ لا تنقص قيمته، ولا تَغُضّ من قَدْره؛ فقد شهد العلماء له بصحة حديثه، ورفضوا تضعيفه[٦] . ويضيف الإمام الذهبى[٧] : وما تساهل فيه الليث فهو دليل على الجواز؛ لأنه قدوة. ويكفى أن نذكر أن الجماعة روت له أحاديثه، وأن نسبة أحاديثه التى خَرّجها له البخارى بلغت ٣٩٨ حديثاً، ومسلم ٢٨٥ حديثاً، والنسائى ٢٣٣ حديثاً[٨] . وهذا يدل على عظمة الليث بن سعد محدثاً، ومكانته وغزارة علمه، وعظيم توثيق العلماء له.

أساتيذه:

تمتع الليث بن سعد بقدرة فائقة على الدرس والتحصيل، فتلقى على أيدى علماء عصره ومشايخ بلده متنقلاً بين أرجائها، كما كان يرحل خارج مصر، يأخذ من مشايخ

(١) تقريب التهذيب ٢/ ١٣٨ (رقم ٨).

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٥، وطبقات الحفاظ للسيوطى صـ٩٥ (رقم ٢٠٠).

(٣) تهذيب التهذيب ٨/ ٤١٣، ٤١٦.

(٤) تهذيب التهذيب ٨/ ٤١٦.

(٥) ميزان الاعتدال، للذهبى ٣/ ٤٢٣ (رقم ٦٩٩٨).

(٦) الإمام المصرى الليث بن سعد، للدكتور عبد الله شحاته صـ٣٢.

(٧) ميزان الاعتدال، للذهبى ٣/ ٤٢٣.

(٨) ذكر هذه الإحصاءات، ووزعها على أجزاء هذه الكتب الدكتور عبد الله شحاته في كتابه: (الإمام المصرى الليث بن سعد) صـ٣٨-٤٤.

الحجاز، والعراق، وغيرها. وممن نقل عنهم العلم من بلده: يزيد بن أبى حبيب، وعبيد الله بن أبى جعفر[١]، وأبو قَبيل، وابن لَهيعة (وهو من أقرانه)[٢]، وبكر بن عمرو المَعَافِرِىّ، وسعيد بن أبى هلال، وغيرهم.

ومن خارج مصر نقل العلم عن نافع مولى ابن عمر، وسعيد المَقْبُرِىّ، وعبد العزيز بن الماجَشُون، والزهرى، وزُهْرَة بن مَعْبَد، وغيرهم. وكان الليث ينقل عمن يصغره كإبراهيم بن سعد، وكاتبه عبد الله بن صالح، الذى روى عنه الليث حديثاً واحداً[٣].

والآن، نخص بعض أساتيذه بشئ من البيان والتوضيح:

أ- من مصر: سعيد بن أبى هلال، وبكر بن عمرو المعافرى.

١- أما سعيد، فهو إمام مصرى حافظ، أحد الثقات. أخرج له أحاديثه أصحاب الكتب الستة. روى عن زيد بن أسلم، والزهرى، ونافع مولى ابن عمر، وربيعة الرأى، وابن أبى الزِّناد، وغيرهم. روى عنه سعيد المقبرى وهو أكبر منه، وعمرو بن الحارث، والليث، ويزيد بن أبى حبيب، وسواهم. ولد ٧٠هـ بمصر، ونشأ بالمدينة، ثم عاد إلى مصر في عهد هشام بن عبد الملك. توفى ١٣٥هـ[٤].

٢- وأما بكر، فهو أحد الأعلام في مصر، وإمام جامع الفسطاط. ثقة ثبت، فاضل عابد. روى عن أبى عبد الرحمن الحبلى، ومشرح بن هاعان، وبكير ابن عبد الله بن الأشج، وغيرهم. قدم الشام وروى عن الأوزاعى. روى عنه يزيد بن أبى حبيب، والليث، وابن لهيعة، وغيرهم. توفى بعد سنة ١٤٠هـ[٥].

ب ـ من خارج مصر:

١- بُكَير بن عبد الله بن الأشَجّ المدنى [*]:

---

(١) قال الليث بن سعد: حدثنا يزيد بن أبى حبيب، وعبيد الله بن أبى جعفر، وهما جوهريا هذا البلد (مصر). (تهذيب التهذيب ١١/ ٢٧٩).

(٢) لكن الليث بن سعد كان يفضل ابن لهيعة؛ لأنه كان أعظم حفظاً وضبطاً. أما ابن لهيعة - كما رأينا - فكان سيئ الحفظ، وخلط لما ضاعت كتبه. أما الليث، فكان يحدثهم بالحديث ليس في كتبه، ويعلل ذلك بأن ما في صدره أكثر بكثير مما في كتبه، وأنه لو كتبه ما وسعه هذا المركب (مخطوطة تهذيب الكمال للمزى ٣/ ١١٥٤، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٨/ ١٥٣). وقد أقر العلماء لليث بذلك، فأثنوا عليه؛ لحفظه ولضبطه (الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية) لابن حجر ص٦-٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٦٣.

(٤) ترجمته فى: سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٠٣-٣٠٤، والوافى بالوفيات ١٥/ ٢٦٩، وتهذيب التهذيب ٤/ ٨٣-٨٤.

(٥) ترجمته فى: تاريخ ابن عساكر (ط.المنجد): ١٠/ ٢٥٣-٢٥٤، وميزان الاعتدال ١/ ٣٤٧، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٢٠٣، وتهذيب التهذيب ١/ ٤٢٦.

(*) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٧٠-١٧٤، وتهذيب التهذيب ١/ ٤٣١-٤٣٢.

هو أحد الأعلام المحدثين المدنيين. والد المحدث مخرمة بن بكير، وأخو يعقوب بن عبد الله بن الأشج. يعد في صغار التابعين، ونزل بمصر قديماً قبل سماع مالك منه. روى عن ابن المسيب، وسليمان بن يسار، ونافع مولى ابن عمر، وغيرهم. وممن روى عنه: الليث، وعبيد الله بن أبي جعفر، ويزيد بن أبي حبيب، وابن إسحاق. وثقه العلماء، وأخرج له أصحاب الكتب الستة. توفى ١٢٧هـ.

٢- زُهْرَة بن مَعْبَد المدنى (*):

روى عن جده عبد الله بن هشام الصحابى، وابن عمر، وابن الزبير، وغيرهم. نزل مصر، وسكن الإسكندرية. صالح وثّقه النسائى .توفى ١٢٧هـ،وقد شاخ.

تلاميذه:

كانت لليث بن سعد مجالس علمية كثيرة، يحدث فيها طلاب العلم في مصر وخارجها. ومن تلاميذه في مصر: ابن لهيعة، وابن وهب، وأشهب، وابن أبي مريم، وابن عفير، وعبد الله بن صالح كاتبه[١] . وآخر من حدث عنه في مصر من الثقات: عيسى بن حَمَّاد[٢] .

أما تلاميذه في خارج مصر، فكثيرون، مثل: هُشَيْم الواسطى[٣]، وقتيبة بن سعيد، والوليد بن مسلم[٤]، وغيرهم.

(*) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٤٧-١٤٨، وتهذيب التهذيب ٣/ ٢٩٥.

(١) هو أبو صالح المصرى، شيخ المصريين، وكاتب الليث بن سعد، وملازم له في حِلّه وتَرحاله. روى عن موسى بن عُلَىّ، ومعاوية بن صالح، والليث، ويحيى بن أيوب، وغيرهم. روى عنه الليث حديثاً واحداً، وروى عنه كذلك ابن معين، والبخارى، وغيرهم. أدخل بعض الناس عليه ما ليس من أحاديثه، وهو صدوق في نفسه. ومن أوعية العلم، لكنه تغير آخر حياته، فلَيّنه العلماء. ولد ١٣٧هـ، وتوفى ٢٢٣هـ. (سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٠٥ وما بعدها).

(٢) عيسى بن حَمَّاد بن مسلم التُّجِيبى (لقبه زُغْبَة). روى عن الليث، وابن وهب، وابن القاسم، وآخرين. روى عنه مسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجة، وغيرهم. وثقه بعضهم كالنسائى، والدارقطنى. توفى ٢٤٨هـ. (تهذيب التهذيب ٨/ ١٨٧-١٨٨).

(٣) هشيم بن بشير الواسطى. روى عن أبيه، وسليمان التيمى، والليث، وحميد الطويل، وآخرين. روى عنه: ابنه سعيد، وابن المبارك، ومالك، وابن مهدى. ولد ١٠٤هـ، وتوفى ١٨٣هـ .(المصدر السابق ١١/ ٥٣ وما بعدها).

(٤) الوليد بن مسلم الدمشقى. عالم الشام الذى روى عن الأوزاعى، وابن جريج، والليث، وبكر بن مضر، وموسى بن أيوب الغافقى، وآخرين. روى عنه الليث وهو من شيوخه، وبقية بن الوليد وهو من أقرانه، والحميدى، وأحمد بن حنبل، وابن المدينى. ثقة كثير الحديث. ولد ١١٩هـ، وتوفى ١٩٥هـ. أخرج له الجماعة أحاديثه. (تهذيب التهذيب ١١/ ١٣٣-١٣٦).

نموذج من مروياته في مصر:[١].

"... أنبأ الليث، عن نافع، عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " ألا كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته، والرَّجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ،وامرأة الرجُل راعية على بيت بَعْلِها ووَلَدِه وهىَ مسئولة عنهم، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته "[٢].

٦- عبد الله بن وهب (ت ١٩٧هـ) (*):

تعريف عام به :هو شيخ الإسلام، إمام مصر ومحدثها الحافظ، وديوان العلم بها، ووريث علم أئمتها الأولين: ابن لهيعة ،والليث بن سعد، وهو الذى جمع علم مصر والحجاز والعراق، فإليه يرجع الفضل في حفظ أحاديثهم وتجميعها، وإليه المنتهى في الضبط والإتقان وكثرة المرويات، وبه دخلت مصر عالم التأليف والتصنيف الحديثى في القرن الثانى الهجرى.

آراء علماء الجرح والتعديل فيه:

١- أبو زُرْعَة: نظرت في حوالى ٨٠ ألف حديث لابن وهب، ولم أجد - فيما أعلم - له حديثاً لا أصل له. وهو ثقة[٣].

٢- الدارمى: سأل في (تاريخه) ابن معين عن ابن وهب، فقال له ابن معين: أرجو أن يكون صدوقاً[٤].

٣- وقال ابن شاهين: عالم صالح كثير العلم[٥]. وذكر رواية أخرى عن ابن معين أنه قال: ابن وهب ثقة[٦].

---

(١) ذكره قاسم بن قطلوبغا في (عوالى الليث بن سعد) صـ٧١ (رقم ١٢).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في (صحيحه) في كتاب (الإمارة) باب (فضيلة الإمام العادل) ٣/ ١٤٥٩ (رقم ١٨٢٩).

(*) يحتاج هذا المحدث المصرى المهم إلى دراسة مستقصية، تجمع مروياته الحديثية، وتدرس أسانيدها ومتونها في ضوء المتبقى من مؤلفاته.

(٣) الضعفاء لأبى زرعة الرازى (قسم الرواة الذين عدلهم أبو زرعة) ٣/ ٨٩٧ (رقم ٣٩٦)، والجرح والتعديل، لابن أبى حاتم ٥/ ١٨٩ (رقم ٨٧٩). وقد ذكر الذهبى في (سير أعلام النبلاء) ٩/ ٢٢٥: أنها ثلاثون ألفاً بدل (ثمانين).

(٤) صـ١٧٥ (رقم ٦٣٠).

(٥) تاريخ أسماء الثقات صـ١٨٧-١٨٨ (رقم ٦١٦).

(٦) وكذا وثقه ابن معين في كتابه: (التاريخ) ٢/ ٣٣٦، ونقل ذلك صاحب (الجرح والتعديل) عن ابن معين أيضاً: ٥/ ١٩٠، والباجى في (التعديل والتجريح) ٢/ ٨٥٠، وابن عبد البر في (الانتقاء) صـ٤٨.

٤- وذكره ابن حبان في الثقات[١] .

٥- وقال أبو حاتم الرازى عنه: صالح الحديث صدوق، وأَحَبّ إلى من الوليد بن مسلم، وأصح حديثاً منه بكثير[٢] .

٦- وقال العجلى: ثقة[٣] .

٧- قال أحمد بن حنبل[٤] : ابن وهب صحيح الحديث.

٨- وذكر الخليلى أنه إمام حافظ، اتفقوا على تقدمه في أصحاب الليث[٥] . وقال في موضع آخر: ثقة متفق عليه، مخرج في الصحيحين. يروى البخارى، وأبو زرعة، وأبو حاتم عن جماعة من أصحابه، عنه[٦] .

٩- ابن سعد: كثير العلم ثقة فيما قال: حدثنا. وكان يُدَلِّس[٧] .

١٠- قال ابن حجر عنه: ثقة حافظ، في الطبقة التاسعة[٨]. أخرج له الستة[٩].

وهكذا، نلمح تعديلاً تامّاً لابن وهب، وإطباقاً من العلماء على ذلك. وإن انفرد ابن سعد باتهامه بالتدليس، فهو قول لم يوضحه، ولم يدلل عليه، فلا نلتفت إليه كثيراً.

والحق أن الأمانة تقتضينى أن أشير إلى ملاحظات، لاحظها العلماء على ابن وهب، وهى لا تؤثر في عدالته،لكنها قد تثير ذرات من الغبار عليها ،نريد ألا تشوبه منها شائبة، وأن نبرئ ساحته منها، وهى:

أولاً - أنه كان يسئ الأخذ، ويتساهل في الرواية عن الآخرين تساهلاً شديداً[١٠].

ثانياً - أن في حديثه عن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المكى (ت ١٥٠هـ) شيئاً، كما يقول أحمد بن حنبل، أو أن ابن جريج كان يستصغر شأن ابن وهب، كما يقول ابن معين. وصدّق على قوله ابن حجر فيما ينقل عن أبى عَوَانة،معللاً ذلك بأن

---

(١) ٨/٣٤٦.

(٢) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم ٥/ ١٨٩ (رقم ٨٧٩).

(٣) تاريخ الثقات صـ٢٨٣ (رقم ٩٠٦)، ومعرفة الثقات ٢/ ٦٥ (رقم ٩٩٠).

(٤) الجرح والتعديل ٥/ ١٨٩، والانتقاء لابن عبد البر ٤٨-٤٩، وميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٥٢٣ (ترجمة رقم ٤٦٧٧).

(٥) الإرشاد ١/ ٣٩٩.

(٦) المصدر السابق: ١/ ٢٥٥.

(٧) طبقات ابن سعد (ط.ليدن) ٧/ ٢/ ٢٠٥.

(٨) هى الطبقة الصغرى من أتباع التابعين، وفيها: الشافعى، وعبد الرزاق بن همام، وغيرهما (مقدمة ابن حجر لتقريب التهذيب ١/ ٦).

(٩) تقريب التهذيب ١/ ٤٦٠ (رقم ٧٢٨).

(١٠) مخطوطة تهذيب الكمال للمزى ٢/ ٧٥٤، والانتقاء لابن عبد البر ٤٩، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٥.

ابن وهب يأتي عن ابن جريج بأشياء لا يأتي بها غيره[١].

ثالثاً - أن ابن وهب كان ينام في مجلس حديث سفيان بن عيينة، ثم يكتب الكتب من بعضهم[٢]، أو كان يبدو متشاغلاً عن المجلس[٣]، أو ينام ابن وهب في مجلس علم جرير الرازى، كذا ينام صاحب المجلس، ثم يكتفى ابن وهب - بعد ذلك - بقراءة وراقة أَصْبَغ بن الفَرَج، الذى لا يتأنى في القراءة، بل يمر مروراً سريعاً كالسهم[٤].

مناقشة هذه الشبهات:

أولاً - فيما يتصل بتساهل ابن وهب، فيبدو أنه قول لا يستند إلى دليل. وقد سبق الرد على هذا القول على لسان أحمد بن حنبل أثناء مدحه ابن وهب، بأننا لو نظرنا في حديثه، وما روى عن مشايخه، وجدناه صحيحاً[٥]. إذاً، لو كان ابن وهب ينقل عن أى شخص ولا يتحرى في نقله، ما كانت أحاديثه صحاحاً. بل إن ابن وهب عندما كان يروى عن ابن لهيعة - وهو الذى اضطربت وتشعبت حوله الآراء كما رأينا - ألفيناه مدققاً غاية التدقيق في الرواية عنه، متتبعاً أصوله، عالماً بما صح منها قبل احتراق كتبه وبعدها وما لم يصح، مميزاً ما كان مرفوعاً من الأحاديث وما لم يرفع[٦]. لذلك وثق العلماء بروايته عن ابن لهيعة، وصححوا حديثه عنه ما صحت بقية الإسناد.

وقد يكون المقصود بتساهله ما رُوى عنه من أنه كان يأتي إلى سفيان بن عيينة بجزء من حديث ابن عيينة لم يسمعه ابن وهب منه، فيطلب إليه إجازته له وروايته عنه، فيجيزه له ابن عُيَيْنَة[٧]. والصواب: أن يسمع من الشيخ وينسخ ما سمعه، ثم يعرض على شيخه ما نسخه قبل أن يرويه عنه. والحق أنه لولا ثقة ابن عيينة في ابن وهب، وحسن ودقة نسخه، وضبطه وحفظه، ما سمح له بذلك، كما أنه - لا بد - معطيه

(١) ميزان الاعتدال، للذهبى ٢/ ٥٢٢، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٦.

(٢) التاريخ، لابن معين ٢/ ٣٣٦، والكامل لابن عدى ٤/ ١٥١٨، وترتيب المدارك، للقاضى عياض ٢/ ٤٣٠.

(٣) التعديل والتجريح، للباجى ٢/ ٨٥١.

(٤) المعرفة والتاريخ، للفسوى ٢/ ١٨٣.

(٥) الانتقاء، لابن عبد البر ص٤٩، ومخطوطة تهذيب الكمال، للمزى ٢/ ٧٥٤، وميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٥٢٣، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٥.

(٦) يذكر خالد بن خِداش أن ابن وهب رآه يكتب عنه حديث ابن لهيعة، فقال له ابن وهب مطمئنًا: اَكْتُبْها؛ فإنى لست كغيرى في ابن لهيعة. وقال له كذلك في حديث عقبة بن عامر الذى رواه ابن لهيعة: لو كان القرآن في إهاب ما مَسَّته النار.قال له ابن وهب عن هذا الحديث: لم يرفعه لنا ابن لهيعة.(ميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٤٧٦).فدل ذلك على إحاطته بما صح، وما لم يصح عن رسول الله ﷺ مما رواه ابن لهيعة.

(٧) الكامل لابن عدى ٤/ ١٥١٨.

أصلاً من أصوله، أو نسخة دقيقة مكتوبة عن الأصل، لا مجرد نسخة نسخها أحد الطلاب غير المجيدين، فهذه تصح أو لا تصح. وقد ثبت - بالفعل - أنه كان يأتيه بنسخة طالب دقيق، عرض نسخته من قبل على ابن عيينة[(١)] . ويقول الساجى: ما فعله ابن وهب مساير لمذهب أهل مصر في أن الإجازة لديهم جائزة، ويقال فيها: حدثنى فلان. وهو صدوق ثقة من العُبَّاد[(٢)] .

ثانياً - وفيما يتعلق بحديثه عن ابن جريج، فلعله روى عنه ما لم يدركه الآخرون، خاصة أن ابن وهب كان من المكثرين (روى مائة ألف حديث).

ثالثاً - أما نومه في مجلس العلم، ثم أخذه عن الآخرين، فلعل ذلك يحدث - أحياناً - وهو خارج عن إرداته؛ لشدة أرقه وسهره في طلب العلم ليلاً، ثم هو يأخذ ما فاته عن قوم ثقات.

والخلاصة: أنه حجة مطلقاً، وحديثه كثير في الصحاح وفى دواوين الإسلام[(٣)] . ويكفى أن النسائى - رغم تعنته في النقد - يقول عنه: ابن وهب ثقة، لا أعلم أنه روى عن الثقات حديثاً منكراً. ويتابع النسائى كلامه، فيقول :تَمَعْقَلَ[(٤)] بعض الأئمة على ابن وهب في أخذه للحديث، وأنه كان يترخص في الأخذ. وسواء ترخص، ورأى ذلك سائغاً، أم تشدد، فمن يروى مائة ألف حديث، ويندر الحديث المنكر في سَعَة ما روى، فإليه المنتهى في الإتقان[(٥)].ولعل هذا الإكثار كان مثار دَهَش العلماء ونقدهم إياه، وتوقفهم أمام بعض حديثه. وقد وَدّ الإمام مالك أن لو لم يكثر ابن وهب كل هذا الإكثار؛ لكيلا يكون هدفاً للانتقاد. قال مالك - وقد نظر إليه مرة - فقال: " أىُّ فَتًى لولا الإكثار "[(٦)] .

هذا، وقد لام الذهبى[(٧)] ابن عدى؛ لإيراده ابن وهب في كتابه (الكامل في الضعفاء)، وعَدّ ذلك من تعجلات ابن عدى وسقطاته؛ إذ لا يجوز أن يذكر أحداً من الأثبات والأئمة الأعلام في (الضعفاء). وقد عاد ابن عدى في (الكامل) عن سقطته في حق ابن وهب، فقال: " من أجِلّة الناس، ومن ثقاتهم. وحديث الحجاز ومصر وما

---

(١) التاريخ لابن معين ٢/ ٣٣٦، ومعرفة الرجال، لابن معين كذلك ١/ ١٤٨ (ترجمة ٨١٣). ومذهب الجماعة - كما يقول الذهبى - في قبول الرواية بالإجازة. وإن أُخذ على ابن وهب عدم سماعه ما يجيزه بعض العلماء له، فابن عيينة شريكه في ذلك، فهو الذى قبل به (ميزان الاعتدال ٢/ ٥٢١).

(٢) تهذيب التهذيب ٦/ ٦٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٢٨.

(٤) تكلفوا، وتظاهروا بإعمال العقل (لسان العرب، مادة: ع.ق.ل) ٤/ ٣٠٤٦.

(٥) تذكرة الحفاظ للذهبى ١/ ٣٠٦، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٧.

(٦) الدِّيباج المُذْهَب، لابن فَرْحُون ١/ ٤١٤.

(٧) المغنى في الضعفاء للذهبى ١/ ٣٦٢، وميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٥٢١، وديوان الضعفاء والمتروكين للذهبى صـ١٨٠ (رقم ٢٣٤٤).

إلى تلك البلاد يدور على رواية ابن وهب، وجمع لهم مسندهم ومقطوعهم ... ولا أعلم له حديثاً منكراً، إذا حدث عنه ثقة من الثقات "[١].

أساتيذه:

ولد ابن وهب (١٢٥هـ)، وطلب العلم مبكراً نسبيّاً (وهو ابن ١٧ سنة)، لكنه قبل أن يطلب العلم كان منشغلاً بالعبادة، فلعب الشيطان به في كيفية خلق عيسى، فأشار إليه شيخ أن يطلب العلم[٢] ؛ ليتغلب على وساوس الشيطان الرجيم، فاستجاب ابن وهب، وانغمس في بحار العلم.

لقى ابن وهب بعض صغار التابعين، وتتلمذ على أيدى جلة من كبار علماء مصر، وعلى رأسهم: ابن لهيعة[٣]، وعمه عَيَّاش بن عُقْبَة الحضرمى، وبكر بن مُضَر، وحَرْمَلَة بن عِمْران التُّجِيبِىّ، وحُمَيْد بن هانئ الخَوْلانى، وحَيْوَة بن شُرَيْح، وسعيد بن أبى أيوب، والليث بن سعد، وحُيَىّ بن عبد الله المَعَافرى وهو آخر من حدث عنه.

أ- وهاكم اثنين من أساتيذ ابن وهب المبرزين من المصريين:

١) **حُمَيد بن هانئ الخولانى** (*): روى عن عمرو بن حُرَيْث، وأبى عبد الرحمن الحُبُلِىّ، وعُلَىّ بن رَبَاح، وغيرهم. روى عنه سعيد بن أبى أيوب، وحيوة بن شريح، وعبد الرحمن بن شريح، والليث، وابن لهيعة، وابن وهب، وسواهم. وثقه عدد من العلماء، وقطع أحمد بن صالح المصرى بأنه أكبر شيخ لابن وهب. توفى سنة ١٤٢هـ.

٢) **سعيد بن أبى أيوب** (**): روى عن يزيد بن أبى حبيب، وعقيل بن خالد، وكعب بن علقمة، ومن في طبقتهم.

روى عنه ابن جريج وهو أكبر منه، وابن المبارك، وابن وهب، وغيرهم.إمام حافظ ثقة،وهو وعاء من أوعية العلم.ولد ١٠٠هـ،وتوفى١٦١هـ.

ب- أساتيذه غير المصريين:

لم يكتف ابن وهب بالاغتراف من ينابيع العلم في مصر، وإنما رحل إلى البلاد المختلفة (العراق، والحجاز)، يروى عن علمائها، ويضيف إلى ذاته علوماً ومعارف جديدة غزيرة. فجمع إلى جانب ما حَصّل من علوم في مصر على يد الليث وابن لهيعة

---

(١) الكامل لابن عدى ٤/ ١٥٢١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ١/ ٣٢، وترتيب المدارك للقاضى عِياض ٢/ ٤٢٨، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٩/ ٢٢٤.

(٣) وعند الإشارة - فيما بعد - إلى مصنف ابن وهب الحديثى المسمى بـ (الجامع)، سنجد أن معظم اعتماده في مروياته به على ابن لهيعة.

(*) له ترجمة فى: الكاشف للذهبى (ط.دار الكتب الحديثة): مج١ ج١ صـ٢٥٨، وتهذيب الكمال، للمزى ٧/ ٤٠١، وتهذيب التهذيب ٣/ ٤٥.

(**) تُرجم له فى: سير أعلام النبلاء للذهبى ٧/ ٢٢-٢٣.

وعمرو بن الحارث وغيرهم، علم مالك بالمدينة. وكذا أفاد من علم ابن جريج، وعبد العزيز بن أبى حازم المدنى، والثورى، وابن عيينة، وأنس بن عياض، وعبد الحميد بن جعفر الأنصارى، وابن مهدى، وغيرهم.

أعرف - الآن - باثنين منهم:

١- **أنس بن عِياض بن ضَمْرَة المدنى** (*): روى عن الأوزاعى، وابن جريج، وموسى بن عقبة، وغيرهم. وروى عنه: الشافعى، ويونس بن عبد الأعلى، وابن وهب المصرى (مات قبله) وغيرهم. وهو ثقة كثير الحديث. ولد ١٠٤هـ، وتوفى ٢٠٠هـ.

٢- **عبد العزيز بن أبى حازم** (**): روى عن مالك بن أنس، وزيد بن أسلم، وابن هرمز. وهو من أصحاب مالك. وروى عنه: ابن مهدى، وابن وهب، وجماعة. صدوق ثقة، إمام في العلم بعد مالك. ولد ١٠٧هـ، وتوفى ١٨٤هـ.

تلاميذه: بعد أن تلقى ابن وهب على أيدى هؤلاء العماليق من الأساتيذ، وجمع علوماً جَمَّة، كان لزاماً عليه أن يجلس لتعليم الناس، وتحديثهم حديث رسول الله ﷺ، فقد ذكر أحمد بن صالح المصرى أنه حدث بمائة ألف حديث[1]، سمعها من ٣٧٠ شيخاً[2]. ويذكر أحمد بن صالح - أيضاً - وهو تلميذ ابن وهب: أن لديه نصف أحاديث أستاذه، وأن حرملة بن يحيى لديه كل أحاديثه - فهو راويته - إلا حديثين اثنين: أحدهما - لدى أبى الطاهر بن السَّرْح وحده. والآخر - ينفرد به الغرباء عن ابن وهب[3]. ومن أرْوَى الناس - أيضاً - عنه: أصبغ بن الفرج، وسَحْنُون، وابن بكير. وآخر من روى عنه من المصريين: الربيع المُرَادِيّ، ويونس بن عبد الأعلى، وابن أخيه: أحمد ابن عبد الرحمن بن وهب.

والآن، أعرف باثنين من أهم تلاميذه في مصر:

١- **أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن السَّرْح** (***): أبو الطاهر. روى عن ابن وهب، وابن عيينة، وغيرهما من جِلَّة العلماء. روى عنه: مسلم، وأبو داود،

(*) تهذيب الكمال، للمزى ٣/ ٣٤٩-٣٥٣.

(**) الديباج المذهب، لابن فرحون ٢/ ٢٣.

(١) تذكرة الحفاظ، للذهبى ١/ ٣٠٥، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٥.

(٢) ذكر ابن عبد البر في (الانتقاء) ص٤٨، والقاضى عياض في (ترتيب المدارك) ٢/ ٤٢١: أنه روى عن حوالى ٤٠٠ رجل من شيوخ المحدثين بمصر والحجاز والعراق. ولذا قال الخطيب البغدادى في (المُحَدِّث الفاصل) ص٦٢٢ (رقم٩٠٠)، نقلاً عن ابن عقدة: ليس في الإسلام أكثر حديثاً خروجاً إلى الناس من رَجُلَيْن، لم يرحلا كثيراً، ذكر منهما ابن وهب.

(٣) الكامل لابن عدى ٤/ ١٥٢٠.

(***) له ترجمة فى: الثقات لابن حبان ٨/ ٢٩، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٦٢-٦٣.

والنسائى، وابن ماجة ثقه.ولد ١٧٠هـ، وتوفى ٢٥٠هـ.

٢- أحمد بن عبد الرحمن بن وهب المصرى (الملقب ببَحْشَل)(*): ابن أخى ابن وهب. أكثر من الأخذ عن عمه جداً، وروى عن الشافعى وغيره.وروى عنه مسلم محتجّاً به، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازى، وغيرهم.ويوجد اختلاف طويل حول توثيقه وتضعيفه بين العلماء.توفى ٢٦٤هـ.

ب- تلاميذه من غير المصريين:

وهم كثيرون، منهم: قتيبة بن سعيد، ويعقوب بن محمد الزهرى(١)، وابن مهدى، وعلى بن المدينى(٢)، وغيرهم.

نموذج من مروياته في مصر(٣): " روى البيهقى بإسناده إلى بحر بن نصر، أنبأ ابن وهب، أخبرنى يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن حمزة بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: " بينما أنا نائم إذ رأيتُ قدحاً، أُتيتُ به فيه لبن، فشربتُ منه حتى إنى لأرى الرِّىَّ، يجرى في أظفارى، ثم أعطيتُ فضلى عمر بن الخطاب ﷺ. قال: فما أوَّلْتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: " العِلْم "(٤).

سمات مدرسة الحديث في مصر الإسلامية في القرنين الأولين من الهجرة:

أولاً - فيما يتصل بكتابة الحديث النبوى الشريف في مصر:

ليس - فيما بين أيدينا من نصوص - ما يفيد وجود أية مشاكل بخصوص جواز كتابة الحديث النبوى الشريف في مصر، كما كان الحال في المدارس الأخرى إذ أُثير بها جدل كبير حول جواز كتابة الحديث من عدمها. أما مصر، فقد عرفت المرحلة الأولى من مراحل التدوين الحديثى، ألا وهى الكتابة بصفة شخصية، عرفتها مبكراً، خاصة أن مؤسس مدرسة الحديث في مصر عبد الله بن عمرو بن العاص كان ممن دَوَّنُوا

(*) تُرجم له فى: سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣١٧.

(١) يعقوب بن محمد الزهرى المدنى، نزيل بغداد. روى عن إبراهيم بن سعد، وابن أخى الزهرى، وابن وهب، وغيرهم. روى عنه: إبراهيم الحربى، وعَبَّاس الدُّورى، وغيرهما. وثَّقه بعض العلماء. توفى ٢١٣هـ (مخطوطة تهذيب الكمال للمزى ٢/ ٧٥٤، وتهذيب التهذيب ١١/ ٣٤٧).

(٢) هو على بن عبد الله بن جعفر بن نَجيح البصرى، المشهور بالمدينى. كان أبوه محدثاً مشهوراً لين الحديث (ت ١٧٨هـ). روى عن عبد الله بن دينار ومعاصريه من أهل المدينة، وأبيه، وابن وهب، والوليد بن مسلم، وسواهم. روى عنه ابن حنبل، والبخارى كثيراً، وأبو حاتم، وغيرهم. برع في هذا الشأن، وساد الحفاظ، وعرف علل الحديث. ولد ١٦١هـ، وتوفى ٢٣٤هـ. (سير أعلام النبلاء ١١/ ٤١).

(٣) المدخل إلى السنن الكبرى، للبيهقى ١/ ١٢١ (رقم ٥٩).

(٤) أخرجه البخارى في (صحيحه) (ط.دار ابن كثير - بيروت) كتاب (فضائل الصحابة) باب (مناقب عمر بن الخطاب) ٣/ ١٣٤٦ رقم(٣٤٧٨) بلفظ مقارب. وأخرجه مسلم في (صحيحه) كتاب (فضائل الصحابة) باب (من فضائل عمر بن الخطاب) ٤/ ١٨٥٩-١٨٦٠ رقم (٢٣٩١).

حديث رسول الله ﷺ كما رأينا، وقد دون ما سمعه من الرسول مباشرة في صحيفته (الصادقة) التي كانت معه في مصر. وقد نقل عنه من صحيفته بعض التابعين من أمثال: شُعَيْب حفيده، وشُفَيّ بن مَاتِع الأَصْبَحِيّ[(١)].

ثانياً - فيما يتصل بالمرحلة الثانية للتدوين الحديثى (وهى مرحلة التجميع):

عرفنا - فيما مضى - أن هذه المرحلة بدأت في المدينة في عهد عمر ابن عبد العزيز، لما أصدر أوامره لكل من: أبى بكر بن حزم، والزهرى بالقيام بتجميع الأحاديث من الآفاق. أما في مصر، فقد عرفت تلك المرحلة قبل مدرسة الحجاز نفسها، فأحرزت مصر بذلك سبقاً وريادة في هذا المجال. لكن كيف كان ذلك؟ الجواب كالآتى:

من المعلوم أن عبد العزيز بن مروان[(٢)] ولى شئون مصر مدة طويلة (٦٥-٨٦هـ)، وأنه خلال هذه الفترة المديدة كانت له بصماته الواضحة في جنبات مصر كلها، ومن هذه الإنجازات اهتمامه بالنواحي الفكرية وعلى رأسها: الحديث. وقد قام بمحاولة مبكرة لتجميع الحديث النبوى الشريف في مصر، إذ أرسل إلى التابعى كثَير بن مُرَّة الحضرمى الحِمْصِىّ[(٣)] - وكان في مصر - أن يكتب إليه بما سمع من أحاديث

(١) يرى الدكتور أبو سعدة في رسالته للدكتوراه عن (الحركة العلمية في جامع عمرو في مصر في ق١، ٢هـ) صـ٢٣٦: ان حركة تدوين الحديث (وتعنى عنده: جمعه، وكتابته على يد الصحابة) ترجع إلى حوالى منتصف القرن الأول الهجرى في مختلف الأمصار، التى نزلها صحابة علماء كالعراق والشام ومصر. وجعل أول تابعى مصرى دَوّن الحديث في مصر هو: شفى بن ماتع (ت ١٠٥هـ)، وذلك في العقد السادس من ق١هـ، ومن بعده تتابعت الكتابة. والحق أن الجمع بصورته الشاملة لم يعرف في المدينة إلا في عهد عمر بن عبد العزيز، أو قبله بقليل، عن طريق جهود الزهرى. أما في مصر، فحركة التجميع بمعناه الشامل لم تعرف إلا على يد عبد العزيز بن مروان، كما سنرى. أما مجرد الكتابة والنقل عن الصحابة، أو عمن كتب عن الصحابة، فذلك كان منذ دخولهم مصر فاتحين، ولم يتأخر-كما يزعم الباحث-إلى ٦٠هـ ثم لم خَصّ شفى بن ماتع بالذات، وهناك من هو أقدم منه وأولى بذلك، وهو مرثد بن عبد الله اليزنى (ت ٩٠هـ) ؟! وبالعودة إلى (الخِطَط) للمَقْرِيزىّ ٢/ ٣٣٢-٣٣٣، الذى اعتمد عليه الباحث، لم نجد فيه ما ذهب إليه.

(٢) عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية المدنى، أبو الأصبغ. أمير مصر. روى عن أبيه، وأبى هريرة، وابن الزبير، وعقبة بن عامر. وروى عنه: ابنه عمر، وعُلَىّ بن رباح، وكثير بن مرة، والزهرى، وغيرهم. وثقه النسائى، وغيره، وقالوا: ثقة قليل الحديث. روى له أبو داود حديثاً واحداً. وحكم مصر من ٦٥-٨٦هـ حين وفاته. (العبر للذهبى ١/ ٥٢، وميزان الاعتدال ٢/ ٦٣٥، وتهذيب التهذيب ٦/ ٣١٧).

(٣) روى عن النبى مرسلاً، وعن معاذ بن جبل، وعمر بن الخطاب، وعبادة بن الصامت، وأبى الدرداء، وعقبة بن عامر وابن عمرو، وغيرهم. وأدرك ٧٠ بدريّاً. روى عنه: خالد بن معدان، ومكحول، ويزيد بن أبى حبيب، وغيرهم. الطبقة الثانية لتابعى الشام، وهو ثقة. أخرج له أبو داود وغيره. توفى بين سنة ٧٠ إلى ٨٠ هـ. (تهذيب التهذيب ٨/ ٣٨٣-٣٨٤).

الصحابة لديه، إلا ما كان من حديث أبي هريرة، فقد كان مجموعاً لدى عبد العزيز[١] . ويذكر الدكتور العُمَرِيّ أننا لا ندرى نتيجة هذه المحاولة[٢]، لكنى أتفق مع الدكتور الأعظمى[٣]فى الميل إلى أن كثيراً قد استجاب لطلب عبد العزيز بن مروان والى مصر المحدث. صحيح أن هذه المحاولة ليست في شمول ولا دقة محاولة الزهرى، لكن يكفى أنها شملت - على الأقل - مرويات الصحابة في مصر والشام؛ فقد كان كثير يتنقل بينهما. ونحن لا ندرى نتائج هذه المحاولة الرائدة؛ فليس بين أيدينا كتاب به مرويات هذا العمل، لكن يكفى أن لمصر فضل السبق والريادة، وللمدينة من بعدها فضل التجويد والإضافة. وهكذا، حَلّت بركات مروان بن الحكم، وابنه عبد العزيز، وحفيده - من بعده - عمر بن عبد العزيز، على العلم الحديثى الشريف، وسوف نرى مزيداً من جهود عبد العزيز في فهم (متون الحديث)، ودور عمر بن عبد العزيز البارز في الفقه، إن شاء الله.

ثالثاً - وفيما يتصل بالتصنيف الحديثى:

فقد رأينا ان هذه المرحلة من مراحل التدوين الحديثى شهدت إنجازات طيبة في المدارس الأخرى على يد ابن جريج، وابن أبى عروبة، ومعمر بن راشد، ومالك بن أنس من محدثى الحجاز والعراق. فهل ساهم محدثو مصر في إثراء المكتبة الحديثية بمؤلفات تنسب إليهم؟ الجواب: نعم.

وهاكم الأدلة الآتية:

١- أبو قبيل محدث مصر لم يكن يكتفى بمجرد سماعه للحديث، بل كانت له مرويات مكتوبة مدونة كشأن المحدثين الواعين، الذين يسجلون الأحاديث؛ لمذاكرتها ومراجعتها؛ خشية خيانة الذاكرة لهم. وهناك نص نادر يفيد أن ابن لهيعة (ت ١٧٤هـ) كان يحصل على بعض نسخ مكتوبة من أحاديث أبى قبيل (ت ١٢٨هـ)، وأن هذه الأحاديث ظلت موجودة متداولة تباع نسخها لطلاب العلم، حتى أفاد منها عثمان بن صالح السهمى (ت ٢١٩هـ). وهاك النص: قال عثمان بن صالح: ضاع لى كتاب، عن ابن لهيعة، عن أبى قبيل. ثم دُلِلْتُ على صاحب ناطف[٤]، فاشتريت منه بكذا فلساً،

(١) ولعله احتفظ بأحاديث أبى هريرة التى كتبها عنه مروان بن الحكم أبوه، إذ استدعى مروان الصحابى أبا هريرة أثناء ولاية مروان على المدينة، وطلب إليه أن يروى الحديث، وأجلس مروان كاتباً، فكتب ما رواه أبو هريرة بدقة وإتقان. ولعله سمع منه كثيراً من حديثه ﷺ في جلسات كثيرة مطولة. (مستدرك الحاكم ٣/ ٥٠٩-٥١٠، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٥٩٨).

(٢) بحوث في تاريخ السنة المشرفة صـ٢٢٦.

(٣) دراسات في الحديث النبوى وتاريخ تدوينه صـ١٦٤.

(٤) ناطِف: نوع من الحَلْوَاء (مختار الصحاح) للرازى مادة (ن.ط.ف) صـ٦٦٦. والمقصود: أن عثمان بن صالح كانت لديه كتب عن أبى قبيل، نقلها بواسطة ابن لهيعة، فضاع منها كتاب، فخرج =

أو قال: كذا حبة[١] .

٢- أعتقد أن يزيد بن أبى حبيب (ت ١٢٨هـ) قد ترك أحاديث مكتوبة، قام بجمعها خلال رحلته العلمية الطويلة. وقد ورد أن الليث بن سعد لديه نسخة من أحاديث يزيد[٢] . ولا ندرى شيئاً عن طبيعة هذه الأحاديث، ولا طريقة تنظيمها، ولا الأساس الذى بنى عليه تنظيمها؛ فهى نسخة مفقودة.

٣- وبالنسبة لابن لهيعة، فإنه تتضافر العديد من النصوص على إثبات وجود كتب مؤلفة لابن لهيعة في الحديث، منها:

أ- قول الذهبى عن النَّضْر بن عبد الجَبَّار (١٤٥-٢١٩هـ) - كاتب ابن لهيعة وراويته: روى عن ابن لهيعة مؤلفاته[٣] . فيبدو أنها أكثر من كتاب مؤلَّف؛ ومن ثم تقوم على نوع من التجميع والتنسيق؛ بدليل استخدام لفظة (مؤلفات)، فهى ليست مجرد نسخ منقولة في الحديث، كما كان الحال لدى أبى قبيل، ويزيد بن أبى حبيب.

ولا يطعن في ذلك ما ورد عن النضر بن عبد الجبار نفسه من أنه سئل: هل كانت لابن لهيعة كتب؟ فقال: ما علمت[٤] . فلعله يقصد: هل كانت لابن لهيعة كتب أصول احترقت، فنفى علمه بذلك، مما يتسق مع القول بأن ما احترق هو بعض نسخ منقولة عن الأصول. ومما يؤكد هذا الفهم تناقض أن يكون كاتباً له، ثم ينفى وجود كتب لابن لهيعة، بالإضافة إلى ورود النص السابق عقيب الحديث عن قضية احتراق كتب ابن لهيعة.

ب- ما ذكرته سلفاً من وجود كتب لابن لهيعة في الحديث كتبها عنه كاتبه النضر، وتلميذه ابن وهب. وكذلك كلام عثمان بن صالح السهمى عن النسخ التى احترقت من كتب ابن لهيعة وما نقله هو من كتبه. هذا إلى جانب ما كتبه علماء خارج مصر من كتبه كابن المبارك، وابن مهدى[٥] . كل هذا يدل دلالة قاطعة على أن له كتباً في الحديث.

ملحوظة:

صرح العلامة فؤاد سزكين[٦] بأنه توجد صحيفة بها أحاديث من تأليف ابن لهيعة، وهى مكتوبة على ورق البَرْدى، محفوظة في هايدلبرج بألمانيا. وقد أكد الدكتور أبو

= يتلمسه، فيبدو أنه دُلّ على رجل يبيع الحلواء (ولعله وَرَّاق في الوقت ذاته)، فاشترى منه ما ضاع منه.

(١) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم ٣/ ١٥٤.

(٢) تهذيب التهذيب ٣/ ٩٥، والكامل لابن عدى ٣/ ٩٠٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٦٧.

(٤) الجرح والتعديل ٢/ ٢/ ١٤٧.

(٥) تهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٩.

(٦) تاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) ١/ ١٣٦.

سعدة[١] بعد اطلاعه على صورة من البردية نفسها - أن هذه الصحيفة التى ينسبونها إلى ابن لهيعة ليست له، وإنما هى من تأليف تلميذه عثمان بن صالح السهمى المصرى (١٤٤-٢١٩هـ)، نقلها عن شيوخه المصريين الثلاثة: ابن لهيعة، والليث، ويزيد بن أبى حبيب.

٤- أما الليث بن سعد، فالمنطقى أن تكون له تصانيف في الحديث؛ نتيجة مسموعاته الكثيرة، واهتماماته الفقهية الكبيرة التى تحتاج إلى الاتكاء على حديث غزير.

ومما يدل على وجود تصانيف له:

أ- أنه كان له كاتب يلازمه في حله وترحاله يكتب له الحديث، وهو عبد الله بن صالح المصرى، الذى كان يقرأ على الليث ما يكتبه له من كتب، فيجيزها له الليث[٢].

ب- قول الذهبى في ترجمته لعبد الله بن صالح: لازم الليث، وحمل عنه تصانيفه[٣]، مما يدل على وجود مؤلفات حديثية عديدة لليث. وللأسف فقدت هذه التصانيف، ولم يبق إلا نتف من حديثه، أو مروياته في ثنايا كتب السنة، فخسرنا إنجازاً حديثياً عظيماً عالى السند، موثوقاً بصحته ما صحت نسبته إليه. ولعل تأليفه الحديثى كان على أساس فقهى فهو الشائع آنذاك، خاصة أن الرجل كان صاحب مذهب فقهى، كما سنرى بعد ذلك.

وممن نوافقه من المعاصرين - في أن للرجل تصانيف في الحديث - الدكتور العمرى[٤]، وفؤاد سزكين[٥]، الذى ذكر وجود نسخ مخطوطة من بقايا تصانيفه الحديثية في المكتبة الظاهرية بدمشق، ودار الكتب بالقاهرة، وغيرها.

٥- وبالنسبة لعبد الله بن وهب، فنحن نعلم أنه من أنبل وألصق وأشد تلاميذ الإمام مالك حظوة وعناية ورعاية، وأنه كانت له صلاته وعلاقاته مع محدثى المدارس الأخرى، تلك التى كانت لها أعظم الأثر في تشكيله العلمى. والحق أن ابن وهب الذى حفظ على أهل الحجاز ومصر حديثهم، قد جمع الحديث فأوعى، وقد صنف فأوفى. ويكفى أن نذكر كلمة القاضى عياض عنه[٦] : إنه ألّف تآليف كثيرة، جليلة

(١) (الحركة العلمية في جامع عمرو في مصر في ق١، ٢هـ) رسالة دكتوراه صـ٢٧٤، وما بعدها.
(٢) تهذيب الكمال، للمزى ١٥/١٠٢.
(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبى ١٠/٤٠٦.
(٤) المعرفة والتاريخ، للفسوى (مقدمة المحقق في دراسته لموارد الفسوى) ١/ ٤٥.
(٥) تاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) ٢/ ٢٢٦.
(٦) ترتيب المدارك ٢/ ٤٣٢-٤٣٣. وذكر ابن النديم في (الفهرست) صـ٢٥٢ : روى ابن وهب عن مالك كتبه، وسننه، وُموَطَّأه. وذكر ذلك - أيضاً - بروكلمان في (تاريخ الأدب العربى) ٣/ ٢٠١.

المقدار، عظيمة المنفعة، منها: سماعه على مالك (ثلاثين جزءاً)، إلى جانب الموطأ الكبير، والجامع الكبير، والأهوال. وقد تكون هذه الكتب ما هى إلا أبواب داخل كتاب (الجامع)، ومنها: كتاب (لاهَامَ، ولا صَفَر)، وغير ذلك من الكتب.

ومن خلال استعراض هذه الأسماء يتضح لنا تنوع وثراء الموضوعات، التى صنف فيها ابن وهب[١]، إذ لا شك أنه قد دون ما سمعه من أستاذه الأثير، (مالك بن أنس). ولعل ابن وهب ألف موطأ خاصّاً به قائماً على أساس سماعه من مالك، عُرف بـ (موطأ ابن وهب). قيل: إنه يزيد على ما روى عن مالك[٢]. ومما يدل على وجود هذا الموطأ لديه واكتماله عنده أن هناك عالماً أندلسياً هو عمر بن يوسف بن عمر سمع هذا الموطأ من ابن وهب، وأن ابن الفرضى (ت ٤٠٣هـ) رأى نسخة هذا العالم الأندلسى من ذلك الموطأ[٣]. كما نلمح تأليف ابن وهب في الرقائق ممثلة في كتابه: (أهوال يوم القيامة)، الذى تواترت الروايات على أنه لمَّا قُرِئ عليه، انصدع قلبه خوفاً وهلعاً، وما لبث بعد ذلك حتى مات[٤].

التعريف بكتاب (الجامع في الحديث) لابن وهب:

إن أعظم منجزات ابن وهب كتابه: (الجامع في الحديث)[٥]. وأعتقد أنه أكبر كتبه، وأنه ضم شتات ما ألف بدليل أن ما عَدّه القاضى عياض كتاباً لابن وهب بعنوان: (لا هام، ولا صفر)[٦]، وجدته مجرد جزء داخل الجامع، فهو وغيره مجرد أبواب داخل هذا الكتاب[٧].

(١) سبق أن رأينا له كتاباً في (التفسير). والآن نلمس أن له كتباً في الحديث، وسنرى بعد ذلك تراثه وآثاره في كل من: الفقه، والتاريخ.

(٢) الإرشاد للخليلى ١/ ٢٥٥. وهذا يعنى: أن مالكاً تتلمذ عليه طلاب كثيرون من مختلف الأمصار سمعوا منه موطأه، فرُوى موطأ مالك بروايات متعددة حسب التلاميذ، الذين سمعوه ونقلوا عنه، مثل: يحيى بن يحيى الليثى، وعبد الله بن مسلمة القعنبى، وابن وهب، وابن القاسم، وغيرهم. فلما نُظر في مرويات ابن وهب عن مالك في (موطئه)، وُجد أن فيه مرويات تزيد على مرويات غيره عنه؛ مما يدل على سعة حفظه وإحاطته، واختصاص مالك له بما لم يخص به غيره. وقد ذكر الصفدى في (الوافى بالوفيات) ١٧/ ٦٦٥: أن موطأ ابن وهب كبير للغاية.

(٣) تاريخ علماء الأندلس (القسم الأول)، لابن الفَرَضِىّ صـ٣٢٥.

(٤) ترتيب المدارك للقاضى عياض ٢/ ٤٣٣، وصِفَة الصَّفْوَة لابن الجَوْزى ٤/ ٣١٤ (رقم ٨٣٧)، والكواكب السيارة لابن الزيات ٤٥، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٦.

(٥) ذكره القاضى عياض في (ترتيب المدارك) ٢/ ٤٣٣، وابن الزيات في (الكواكب السَّيَّارة) صـ٤٥، وحَاجّ خليفة في (كشف الظنون) رقم ٥٧٦، وكَحَّالة في (معجم المؤلفين) ٦/ ١٦٢، والزِّرِكْلِىّ في (الأعلام) ٤/ ١٤٤ (وذكر أنه مطبوع في مجلدين).

(٦) ذكره القاضى عياض في ترتيب المدارك ٢/ ٤٣٣.

(٧) لاحظ (الجامع) لابن وهب ١/ ١٠٣-١١٠، ولاحظ - كذلك - أن عدداً من أجزاء الكتاب سمى =

وهذا (الجامع) كان في عداد مخطوطاتنا العلمية النفيسة، التى كنا نظن أنها قد عدا عليها الزمن، أو اغتالتها أيدى اللصوص، أو سرقتها بأبخس الأثمان، حتى مَنَّ الله علينا، واكتُشف في العَقْد الرابع من القرن الحالى جزء منه بأُدْفو بصعيد مصر[١] .

ويلاحظ على ما نشر منه ما يلى:

أ- أنه عبارة عن مجموعة من الأبواب، كل باب مستقل بذاته، وتتضمن محتوياته من الآثار والأحاديث ما له صلة موضوعية وثيقة بعنوان الباب. وهذه الأبواب ليست مرتبة ترتيباً موضوعياً. والدليل على ذلك استعراض عناوينها المتوالية فلا نجد هذا الترتيب، مثل: باب النسب، ثم باب الأسماء، ثم باب البر والعقوق، ثم باب الإخاء في الله، وهجرة الرجل أخاه، ثم حديث عن البَغْى والصمت والعزلة، والكذب، والغِيبة والنهى عنها، ثم الجلوس إلى القاصّ، ثم حديث عن غزوة حُنَيْن، ثم أحكام لُبْس الخاتم الذهب، ثم حديث عن الطِّيَرة والعَدْوَى والخاتم والرُّقَى.

ب- أن المؤلِّف لم يُرَتِّب على أساس فقهى، ولا أساس عَقَدَىّ. وعلى كل، فالكتاب ليس بكامله بين أيدينا[٢]، ولا نستطيع أن نحكم إلا على ضوء ما بقى منه وطُبع، وإن كان الجانب الأخلاقى فيه بارزاً وواضحاً في الأبواب التى عرض لها، كالنهى عن الكذب والغيبة وبيان مخاطر اللسان، وفضيلة الصمت عن النطق الحرام، إلى آخر ما ذُكر من الموضوعات.

جـ- أن معظم مرويات ابن وهب في هذا الكتاب، والتى جمعت بين الأحاديث النبوية، وآثار الصحابة والتابعين، أسهم في نقل كثير منها إلى ابن وهب شيخه عبد الله بن لهيعة[٣] . هذا إلى جانب مرويات عن يزيد بن أبى حبيب، والليث، ويحيى بن أيوب، وحيوة بن شريح، وحُيَىّ بن عبد الله المعافرى من مصر، ومالك[٤]، والثورى،

= باباً أو كتاباً، وكان يبدأ فيها بقوله: هذا كتاب كذا، وعندما ينتهى يقول: انتهى كتاب كذا، مثل: آخر كتاب البغى، وأوائل كتاب الصمت (١/ ٤٧).

(١) يذكر الدكتور أبو سعدة أنه قد عثر على جزء كبير من كتاب الجامع (رسالته للدكتوراه صـ٢٥١). والحق أن جزءاً كبيراً منه لا يزال مفقوداً. فبعد الاطلاع على ما طبع منه، يتضح للقارئ أن الحجم المتبقى لا يتناسب مع ضخامة الكتاب، وغزارة علم ابن وهب، الذى نعتقد أنه أراد جمعه في كتابه هذا.

(٢) بدليل وجود سواقط عديدة في الأسانيد (١/ ٣٠ مثلاً)، والصفحات (كالفرق بين صفحات نهاية ج١، وبداية ج٢)، وتكرار بعض الأحاديث، واضطراب وتداخل في بعض الأبواب دون سابق تحديد لعنوان الباب، مثلما حدث في ج١ صـ٩١ عندما عرض أحاديث تتصل بحرمة الرضاع، وخلق السموات والأرض، بعد أن كان يحدثنا في باب (الجلوس إلى القاصّ).

(٣) الجامع في الحديث لابن وهب ١/ ٢، ٣، ٤، ٧، ١٠، ١٢، وغيرها كثير (مع ملاحظة أن الصفحة الواحدة بها عدة أحاديث).

(٤) السابق: ٢٢، ٣٥، ٣٦، ٣٨، وغيرها.

وابن عيينة، وابن مهدى[(١)]، وغيرهم من أساتيذ المدينة والبصرة والكوفة.

وهكذا، كان عبد الله بن وهب ذا دور طيب في عالم التصنيف الحديثى في مصر، وكانت له تأثيراته الطيبة في العلماء من بعده كالآتى:

أ- أن علماء عصره كانوا يحرصون على اقتناء كتبه للإفادة منها، فقد اشترى أحمد بن عيسى المصرى (ت ٢٤٣هـ) كتب ابن وهب، وحدّث بها إلى جانب كتاب القاضى والمُحَدِّث المُفَضَّل بن فَضَالة[(٢)].

ب- أن الإمام الشافعى (ت ٢٠٤هـ) - على جلالة قدره - لما أتى إلى مصر، نظر في كتب ابن وهب، ونسخ أكثرها[(٣)].

جـ- أن الفسوى صاحب (المعرفة والتاريخ) المتوفى ٢٧٧هـ أفاد من كتب ابن وهب، فنقل عنه في كتابه ١٢٠ نصّاً[(٤)].

وأخيراً، فإذا كانت المدارس الأخرى قد عرفت تصنيف المسانيد في الحديث، كمسند أحمد بن حنبل، وابن رَاهَوَيْه، وابن أبى شَيْبَة[(٥)]؛ فهؤلاء إنما اقتفوا أثر أصحاب المسانيد في مصر، وعلى رأسهم: أول مَنْ صَنَّفَ المُسْنَد بمصر: أسد بن موسى (١٣٢-٢١٢هـ)[(٦)]، وبعده نَزيل مصر نُعَيْم ابن حَمَّاد الخُزاعى (ت ٢٢٨هـ). لكن آثار المدارس الأخرى بقيت في مجملها، بينما ضاع مسند أسد، ومسند نعيم في مصر.

رابعاً - فيما يتعلق بقضية الوَضْع على النبى ﷺ في مصر:

ولا أعتقد أننى بحاجة لإعادة القول في بداية الوضع، أو في الحديث عن علله وظروفه الداعية إليه؛ فقد ذكرتها سلفاً، وهى أسباب وظروف عامة تنطبق على أقاليم الدولة الإسلامية مع اختلاف نسبة تركزها وتأثيرها. وقد سبق أن بينت أن أقدم حادثة وضع على الحديث النبوى الشريف، ونسبتها إلى ابن عُدَيْس البَلَوىّ في مصر في أحداث فتنة عثمان بن عفان ﷺ.

وقد حاولت تلمس بعض النماذج التى تعرض من خلالها عدد من أئمة الحديث في مصر للوضع، فخرجت بما يلى:

---

(١) السابق: صـ٤، ١٨، ١٩، وغيرها.
(٢) ميزان الاعتدال للذهبى ١/ ١٢٥-١٢٦.
(٣) الإرشاد للخليلى ١/ ٢٥٥.
(٤) مقدمة المحقق ١/ ٤٦-٤٧.
(٥) تدريب الراوى للسيوطى ١/ ٨٩.
(٦) المصدر السابق: ٢/ ١٥٤.

١- عبد الله بن لهيعة، وصلته بقضية (الوضع) تنفرع فرعين:

أ- تحذيره مما يضع الخوارج على النبى ﷺ من أحاديث: بدليل ما نقل عن ابن لهيعة أنه سمع شيخاً من الخوارج يقول: إن هذه الأحاديث دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، فإنَّا كنا إذا هَوِينا أمراً صَيَّرْناه حديثاً[١]. ويعقب الدكتور العمرى: إن ذلك لو صَحَّ، لكان دور الخوارج في الوضع ضئيلاً جدّاً، ومجرد هوى فردى لا صفة عامة فيهم[٢].

ب- تعرض ابن لهيعة نفسه لمن يضع عليه الأحاديث، وينسبها إليه زوراً وبهتاناً، وهو لم يروها ولم يروها غيره، مثل: الوَضَّاع عبد الله بن مسلم بن رشيد الذى اتهمه النقاد بوضع الحديث، والذى ذكر الإمام الذهبى أنه كان يضع الحديث على ابن لهيعة والليث ومالك، وأنه لا يَحِلُّ كَتْبُ حديثه[٣].

٢- الليث بن سعد: وقد تعرضت بعض أحاديث هذا الإمام المحدث لوضع مَنْ لا خَلاق لهم، وهاكم الأمثلة على ذلك:

أ- عرفنا - فيما مضى - أنه كان لليث بن سعد كاتب صالح، يكتب له الأحاديث هو (أبو صالح عبد الله بن صالح المصرى)، لكن هذا الرجل جَرّحه بعض النقاد في أحاديث، رواها آخر عمره أنكروها عليه. وحقيقة الأمر أن ما بُلِيَ به حديث الليث - مما كتبه أبو صالح - إنما يرجع إلى رجل وَضَّاع كَذَّاب هو (خالد بن نَجيح)، كان يجلس في مجالس الحديث يملى على الحضور ما لم يسمعوا من الشيخ، فَبُلوا به، وبُلى به أبو صالح معهم، ومن ثم بُلى به بعض حديث الليث، خاصة أن خالداً هذا كان يستغل سلامة ناحية أبى صالح، ويصطحبه، ويدس في كتبه وكتب غيره الكذب[٤].

ب- نموذج ثان أورده ابن الجوزى في كتابه: (الموضوعات)[٥] بسنده إلى محمد بن معاوية النيسابورى، قال: ثنا الليث، عن يزيد بن أبى حبيب، عن أبى الخير مرثد بن عبد الله اليزنى، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: " من أسلم على يديه رجل، وجبتْ له الجنة ". وعلّق ابن الجوزى على الحديث بأنه لم يرفع هذا الحديث عن الليث إلا محمد بن معاوية النيسابورى هذا. ويضيف ابن الجوزى أن

---

(١) أورده ابن الجوزى في (مقدمته للموضوعات) ١/ ٤ من طريق عبد الله بن يزيد المقرئ، عن ابن لهيعة. وأورده ابن حجر في (لسان الميزان) ١/ ١٠-١١ من حديث ابن مهدى عن ابن لهيعة. والطريق الأول صحيح، فيقوى الطريق الثاني.

(٢) بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص٢٩. وجدير بالذكر أن الدكتور عجاج الخطيب ضعف الروايات التي تنسب الوضع إلى الخوارج في كتابه: (السنة قبل التدوين) ص٢٠٥. والراجح أنهم كانوا يضعون الحديث، ولو في نطاق ضيق.

(٣) ميزان الاعتدال، للذهبى ٢/ ٥٠٣.

(٤) تهذيب الكمال، للمزى ١٥/ ١٠٤-١٠٦.

(٥) ١/ ١٣٧-١٣٨.

محمداً هذا كان ابن معين يرميه بالكذب، وكذلك ابن حنبل والدارقطني، وترك النسائي حديثه. واعتبر ابن معين ذلك الحديث ليس بشيء، وأنه من الأحاديث الكثيرة التي حدث بها هذا الراوي، وليس لها أصل.

والذي أحب أن أضيفه هنا، أن هذا الحديث ورد بأصح صيغ الإسناد في مصر: (عن الليث، عن يزيد، عن أبي الخَيْر، عن عقبة)[١]، ورغم ذلك حكم عليه النقاد بأنه لا أصل له، لماذا؟ لأن هذا النيسابوري الكذاب، وإن كان ماكراً خبيثاً في انتحال هذا الإسناد، الذي أراد أن يوهم به النقاد، فيعتقدوا أنه حديث صحيح عالي السند، فإن جهابذة النقد الحديثي لم يَنْطَلِ عليهم ذلك؛ لأنهم نظروا في بقية رجال الإسناد، فكانت الآفة من النيسابوري نفسه. ومن هنا كانت دراسة كافة رجال الإسناد مهمة وواجبة؛ حتى لا يقعوا في أحابيل المحتالين. أضف إلى ما تقدم أن متن هذا الحديث لا يصح، فقد يُسْلِم على يد الواحد عشرات من الناس، ثم يَضِلّ بعد ذلك، ويُخْتَم له بسوء، والعياذ بالله (تعالى)، فلا تنفعه هدايته للناس، بالضبط كالذي يدعو الناس إلى الخير وينهاهم عن الشر، ثم هو لا يمتثل ما أمرهم به، ولا ينتهي عما نهاهم عنه.

جـ- هناك رجل يدعى خالد بن عمرو بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن العاص الأموي، السَّعيديّ الكوفي[٢]، قال عنه ابن عدي في (الكامل): روى عن الليث وغيره أحاديث مناكير. وأورد ابن عدي له أحاديث من روايته عن الليث ابن سعد، عن يزيد بن أبي حبيب، ثم قال: وهذه الأحاديث كلها باطلة، وعندي أنه وضعها على الليث. ونسخة الليث عن يزيد عندنا (عند ابن عدي) من حديث يحيى بن بكير، وليس فيها من هذا شيء. وله (أي: لهذا الوضاع) غير ما ذكرت (أي: من أحاديثه الموضوعة)، وعامتها أو كلها موضوعة، وهو بيّن الأمر من الضعفاء[٣].

د- وكذلك ما يرويه صَخْر بن محمد الحَاجِبِيّ الوَضَّاع الكذاب، عن الليث، عن الزهري، عن أنس مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: اللهم، أْتِني بأحب خَلْقك إليك يأكل معي هذا الطير. فجاء عليّ، فأكل معه[٤].

هـ- روى الليث بن سعد عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة الأموي المدني (ت

---

(١) التبصرة والتذكرة، للعراقي ١/ ٣٤: وفيه ذكر أن أثبت صيغ الإسناد في مصر: ما يرويه الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير. وتدريب الراوي، للسيوطي ١/ ٨٤: وأضاف - إلى أبي الخير - عقبة بن عامر.

(٢) روى عن يونس بن أبي إسحاق، والثوري والليث، وغيرهم. روى عنه: يوسف ابن عدي، وسليمان بن داود الواسطي، وأبو نعيم الحلبي، وغيرهم .وصفه العلماء بأنه منكر الحديث، وأنه يروي أحاديث بواطيل. وعَدّه آخرون في الكذابين. (الكامل لابن عدي ٣/ ٩٠٢، وتهذيب التهذيب ٣/ ٩٤-٩٥).

(٣) الكامل لابن عدي ٣/ ٩٠٢.

(٤) الإرشاد، للخليلي ١/ ٢٠٤.

١٤٤هـ)[(١)]، رغم أن معظم النقاد تركوه وضعفوه، ووصفوا أحاديثه بالنكارة، وأعلنوا عن عدم الاحتجاج بحديثه. ومن هنا وجب التنبه للأحاديث التى رواها الليث عنه. ولعل الليث رواها عنه؛ للسبب الذى روى من أجله علىّ ابن المدينى عن هذا الضعيف، إذ قال: أعرفها لا تُقْلَب[(٢)] أى: بهدف معرفتها وإدراك عللها؛ ليكون منها على حذر، وليحذر الناس منها.

٣- عبد الله بن وهب:

ذكر الذهبى في (المغنى في الضعفاء)[(٣)] أن عبد الأول بن عبد الله المصرى روى عن ابن وهب بلايا هو آفتها. ونقل ابن حجر قول الساجى: سمعت الربيع بن سليمان يقول: سمعت ابن وهب، وقيل له: إن فلاناً حدث عنك، عن النبى ﷺ قال: لا تكرهوا الفتن؛ فإن فيها حصاد المنافقين. فقال ابن وهب: أعماه الله إن كان كاذباً. فأخبرنى أحمد بن عبد الرحمن (لعله ابن أخى ابن وهب) أن الرجل قد عَمِىَ[(٤)].

وهكذا، كان الوضع موجوداً في مدرسة مصر، على كبار علمائها. فهل كان لدى علماء الحديث في مصر معرفة بأصول الجرح والتعديل لمواجهة الوضاعين؟ نعم.

خامساً - جهود مدرسة الحديث في مصر في مواجهة الوضع:

أولاً - فيما يتصل بالإسناد:

١-التأكيد العملى على استخدام الأسانيد في الروايات الحديثية:

إذا عدنا إلى نماذج من تصانيف المحدثين المصريين في تلك الفترة، أو إلى الأحاديث المروية عنهم؛ وجدنا حرصهم التام على ذكر الأسانيد. وأقرب مثال على ذلك ما أوردناه من نماذج حديثية مروية عنهم في مصر، وكذا ما نشر من كتاب ابن وهب (الجامع في الحديث)، وكذلك صحيفة عثمان بن صالح السهمى البردية[(٥)].

---

(١) تهذيب التهذيب ١/ ٢١٠-٢١١.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٢١١.

(٣) ١/ ٣٦٥.

(٤) تهذيب التهذيب ٦/ ٦٧. وقد يكون التعبير بـ (إن) الدالة على الشك، إشارة إلى عدم وثوق ابن وهب بصحة نسبة ما روى إلى فلان هذا، وقد يشير إلى عدم تيقنه من مدى صحة نسبة الحديث إليه. ولكنى أعتقد أن الصواب: (أعماه الله أن كان كاذباً)؛ لأن ابن وهب على ذُكْر وخُبْر تام مما يروى، فهو لا يشك في حديث مكذوب عليه. ثم إن الواقع أثبت كذب الرجل، فلعله كان معتاد الكذب؛ ولذا دعا عليه ابن وهب دعاءه القاسى السابق.

(٥) وبالإضافة إلى استخدام هذه الصحيفة البردية للأسانيد، استعمل عثمان بن صالح رمز ح اختصاراً لـ (حدثنى)، أو (حدثنا). (الحركة العلمية في جامع عمرو في مصر في =ق١، ٢ هـ) رسالة دكتوراه صـ٢٧٤. وأقول: إن استخدام هذا الرمز يختلف عن المعروف في صحاح القرن الثالث الهجرى كالبخارى ومسلم مثلاً، إذ يرمزان برمز ح إلى تحويل الإسناد لإسناد آخر للحديث نفسه. إما اختصار حدثنى، فهو (ثنى)، واختصار (حدثنا) هو (ثنا).

٢- رسوخ مصطلحات تحمل الحديث واستخدامها بدقة، ومعرفة مقياس قبول الحديث:

أ- بالنسبة ليزيد بن أبى حبيب: رأيناه وهو يذكر روايته عن الزهرى يقول: كتب إليَّ الزهرى[١] . وذلك دليل على أنه لم يره، ولم يسمع منه مباشرة، وإنما كانت المكاتبة هى الوسيلة المتبعة بينهما.

- وكان يزيد بن أبى حبيب من المتقدمين الذين يدركون إمكانية رواية الحديث عن الصحف وِجادة، مع الأمانة في الرواية والدقة فيها، فلا يستخدم مصطلح السماع ولا الإجازة فيما روى عن طريق الوِجادة. والنص الذى يبين ذلك يرويه لنا الخطيب البغدادى[٢] بسنده عن احمد بن عبد الرحمن بن وهب، عن عمه (عبد الله بن وهب) قال: ثنا حيوة بن شريح، عن يزيد بن أبى حبيب قال: أودعنى فلان كتاباً - أو كلمة تشبه هذه - فوجدت فيه عن الأعرج، قال: وكان يحدثنا بأشياء مما في الكتاب، ولا يقول: أخبرنا، ولا حدثنا.

- وكان يزيد بن أبى حبيب - فيما ينقله عنه أبو داود - يقول: " إذا سمعتَ الحديثَ فانْشُدْه كما تُنْشَدُ الضالَّة، فإنْ عُرف وإلا تَدعْه "[٣] . وهذا يعنى: أن الحديث الصحيح مشهور ومعروف، ومتداول بين العلماء. أما الغريب، فهو مشكوك فيه؛ لأنه لو صح لعرفه الثقات من الرواة وحدثوا به. وهذا المقياس يوافق قول مالك: " شر العلم الغريب، وخير العلم الظاهر الذى قد رواه الناس ". ويؤكد المعنى نفسه ابن المبارك في قوله: " العلم الذى يجيئك من هاهنا وهاهنا ". يعنى: المشهور[٤] .

ب- أما الليث بن سعد، فقد كان من العلماء المتقدمين الذين يرون جواز العمل بالأحاديث، التى تُرْوَى عن طريق الإجازة[٥] .

وكان يدرك أهمية السماع: قال عبد الله بن صالح: قدم معاوية بن صالح علينا، فجالس الليث بن سعد فحدثه، فقال لى: يا عبد الله، ائتِ الشيخ، واكتب ما يملى عليك. قال: فأتيته، فكان يمليها عليَّ، ثم نصير إلى الليث، فيقرؤها عليه، فسمعتُها من معاوية مرتين[٦] .

---

(١) المراسيل، لابن أبى حاتم صـ٢٣٩.

(٢) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادى صـ٥٠٧.

(٣) ورد في رسالة أبى داود إلى أهل مكة المنشورة في مقدمة (المراسيل) لأبى داود ج١ صـ٢٠ (هدية مجلة الأزهر- رمضان ١٤٠٩هـ).

(٤) تدريب الراوى للسيوطى ٢/ ١٨٢.

(٥) فيها يجيز الشيخ للتلميذ رواية نص سمعه منه، أو حتى رواية كتاب نسخ عن الشيخ بعد سماعه منه. (اختصار علوم الحديث، لابن كثير صـ٩٩ وما بعدها، وتدريب الراوى للسيوطى ٢/ ٢٩ وما بعدها).

(٦) تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرضى ٢/ ١٣٧، نقلاً عن: تاريخ أبى زرعة الدمشقى ٢/ ٣٩٩ (رقم ٩١٢).

وكان الليث يرى إمكانية الرواية عن طريق المناولة[١] . قال الليث: لم أسمع من عُبيد الله بن أبي جعفر، إنما هي مناولة[٢] .

وكذلك كان يرى جواز الرواية بالكتابة وهو مشهور، وهي أقوى من الإجازة المجردة. وأجاز الليث وغيره أن يقال فيها: أخبرنا، وحدثنا مطلقاً. لكن الأحسن والألْيَق تقييده بالمكاتَبة[٣] . أي: تقول: حدثنا، أو أخبرنا عن طريق الكتابة. وكان الليث ممن يجيز العمل بأحاديث الإجازة، ويرى قبولها[٤].

وكان الليث بن سعد، وابن لهيعة وغيرهما يرون ترجيح القراءة[٥] على السماع[٦] . وإن كان بعض العلماء يقولون - في مجال التفاضل بين القراءة، والسماع - بمساواتهما. وقال جمهور العلماء في الشرق: السماع مرجح على القراءة. وهو الصحيح[٧] .

- وقد كان كاتب الليث بن سعد (عبد الله بن صالح) يعرف مصطلح (العَرْض)[٨]، إذ كان يأتي إلى شعيب بن الليث بن سعد (ت ١٩٩هـ)، فيعرض عليه حديث أبيه، ثم يأذن له بعد ذلك بالتحديث عنه[٩] .

جـ- عبد الله بن وهب: وكان له دور كبير في إرساء معالم (مصطلح الحديث) على النحو الآتي:

١- قال عنه أحمد بن حنبل: ما أصح حديثه وأثبته، يفصل السماع عن العرض، والحديث من الحديث[١٠] . بمعنى: أنه يفرق بين مراتب السماع الدقيقة، فيفرق بين ما

(١) فيها يعطى الشيخ ما يرويه، سواء كان أصلاً أم نسخة صحيحة عن الأصل؛ ليمتلكها التلميذ، أو ينسخها لنفسه. (تدريب الراوى للسيوطى ٢/ ٤٤، وتيسير مصطلح الحديث للطحان صـ١٢٣).

(٢) مراسيل الرازى صـ١٨٠ (رقم ٦٥٤)، مخطوطة تهذيب الكمال للمزى ٣/ ١١٥٣، وجامع التحصيل للعَلائى صـ٣٢٠ (رقم ٦٦٢)، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٤.

(٣) اختصار علوم الحديث، لابن كثير صـ١٠٥.

(٤) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادى صـ٤٤٩.

(٥) فيها يقرأ التلميذ، أو القارئ، الحديث على شيخه من واقع محفوظاته، أو من خلال كتاب كتبه التلميذ عن شيخه. والشيخ يقارن ما يقرأ عليه بما لديه في الذاكرة، أو في نسخته الخاصة (تسير مصطلح الحديث، للطحان صـ١٢١) .

(٦) وفيه يسمع التلميذ مرويات شيخه التى يتلوها، سواء كان الشيخ يتلوها من ذاكرته أم من كتابه (المرجع السابق: صـ١٢١).

(٧) تدريب الراوى للسيوطى ٢/ ١٤-١٥.

(٨) القراءة على الشيخ حفظاً، أو من كتاب عند الجمهور. والرواية بها سائغة عند العلماء، إلا عن شُذّاذ لا يُعْتَدّ بخلافهم (اختصار علوم الحديث، لابن كثير ٩٢، وتدريب الراوى، للسيوطى ٢/ ١٢).

(٩) تهذيب الكمال، للمزى ١٥/ ١٠١.

(١٠) الانتقاء لابن عبد البر ٤٨-٤٩، وميزان الاعتدال ٢/ ٥٢٣ ،وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٥.

سمع شفاهاً من الراوى، وما قرئ من حفظ أو من كتاب على الشيخ. كما أنه لا يخلط بين أسانيد الأحاديث، فلكل إسناده الخاص به.

٢- الدقة في رواية الحديث في مجلس علمه:

وكان الطلاب يميزون لديه بين أمرين: التحديث عن ابن وهب بحديث قرأه الحضور، أو قُرئ على ابن وهب وهم حضور. قالوا: إنّا إنْ قرأنا عليك، قلنا: قرأنا على أبى محمد. وإنْ قُرئ ونحن حضور، قلنا: قُرئ على أبى محمد ونحن حضور[١].

٣- دور ابن وهب الرائد في التمييز بين (أخبرنا) و(حدثنا) في رواية الحديث: فهو أول مَنْ فَرّق بينهما[٢]، وأول من فعله بمصر. إذ يجعل الأولى للعرض (القراءة)، والثانية (للسماع). وبهذا الرأى قال الشافعى، ومسلم، والنسائى، وجمهور علماء المشارقة، ونقل عن أكثر المحدثين[٣].

وبناء على ذلك، فرق بين ما يقوله الراوى فيما قُرئ على الشيخ وهو وحده، وفيما إذا كان معه غيره. ففى الأولى: (حدثنى)، وفى الثانية: (حدثنا). وفيما قرأه على الشيخ وحده، أو قرأه غيره وهو حاضر.

ففى الأولى: (أخبرنى)، وفى الثانية (أخبرنا)[٤]. وقد عَلّق ابن الصلاح على قول ابن وهب قائلاً: وهذا حسن فائق[٥]. ونقل ابن كثير قول الخطيب: ما قاله ابن وهب متسحب لا مستحق عند أهل العلم كافة[٦]. يعنى: ليس من قبيل الواجب.

---

(١) ترتيب المدارك، للقاضى عياض ٢/٤٢٨.

(٢) وإن كان ابن الصلاح قال: سبقه إلى ذلك ابن جريج، والأوزاعى، وهو الشائع الغالب على أهل الحديث. (مقدمة ابن الصلاح، ط.الهيئة العامة) صـ٢٥١.

(٣) اختصار علوم الحديث، لابن كثير ٩٣-٩٤، وتدريب الراوى للسيوطى ٢/ ١٤، ١٧.

(٤) اختصار علوم الحديث، لابن كثير ٩٣-٩٤. وأرى أن الشق الأول من العبارة غير دقيق وغامض، فهو يجعل لفظة (حدثنى) فيما قُرئ على الشيخ وهو وحده.

والصواب: أنها تستخدم فيما سمعه الراوى وحده من الشيخ؛ حتى لا تختلط مع مفهوم (أخبرنى) المذكورة بعد قليل. وقد عبّر القاضى عياض بدقة عن هذين المصطلحين بجانبيهما في (الإلماع) صـ١٢٧ قائلاً: قال ابن وهب: ما قلت: (حدثنا) فهو ما سمعت مع الناس. وما قلت: (حدثنى) فهو ما سمعت وحدى. وما قلت: (أخبرنا) فهو ما قُرئ على العالم وأنا شاهد. وما قلت: (أخبرنى) فهو ما قرأتُ على العالِم. وجدير بالذكر أن مالكاً لم يكن يفرق هذه التفرقة، فقد سأله ابن وهب: إذا سمعتُ الأحاديث منك تقرأ على، وأقرأ عليك، كيف أقول؟ قال: إن شئتَ، فقل: حدثنا، وإن شئت، فقل: أخبرنا. (السابق صـ١٢٣).

(٥) مقدمة ابن الصلاح (ط.الهيئة العامة) صـ٢٥٤.

(٦) اختصار علوم الحديث، لابن كثير صـ٩٦. وقد علق الشيخ أحمد شاكر في حاشية(١) بقوله: إن كتب المتقدمين لا يحق لمن يرويها أن يُغَيّر منها ما يجده من ألفاظ المؤلف، أو شيوخه في قولهم: =

٤- عدم التفريق بين السماع والمناولة: إذا كان الليث فرق - من قبل - بين السماع والمناولة. فإن ابن وهب يختلف معه في ذلك، ويشاركه العديد من الأئمة في عدم التفرقة بينهما، واعتبار المناولة سماعاً. ومن هؤلاء: مالك، والزهرى، وربيعة، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وابن القاسم، وأشهب من مصر[(١)].

٥- جواز المسامحة: وحُكيت المُسَامَحة في مجالس الإملاء، وتبليغ المستملين عن الشيخ لِمَنْ بعدُ، وتذكير السامعين بعضهم من بعض، عن ابن عيينة، وعبد الله بن وهب، ومَنْ بعدهما[(٢)].

٦- جواز رواية الكتب: وكان ابن وهب يجيز رواية كتبه عنه، ما دام الراوى صحح، وقابل هذه الكتب. وكان يتأسَّى في ذلك بفعل مالك بن أنس ﷺ[(٣)].

ملاحظة:

وتقتضينى أمانة البحث وموضوعيته وحياده الخالص أن أوضح أن هذه الدقة وذلك الحرص لم يكونا دَيْدَن كل محدثى مصر، بل عُرف عن بعضهم شئ من التساهل المُخِلّ. وهاك المثالين الآتيين:

أ- من المعلوم أن ابن وهب نقل عن ابن لهيعة حديثه، وتحرى في أخذه عنه من خلال أصوله الصحيحة. ولما كان ابن لهيعة في أواخر حياته، تساهل في الرواية، فكان يحدث عن عمرو بن شعيب بأحاديث لم يذكرها له عمرو، ولم يسمعها منه ابن لهيعة مباشرة، ولكن من خلال واسطة بينهما. فلما سمع ابن وهب بما صنع ابن لهيعة، لم يُقِرَّه على ذلك الصنيع، فقيل ذلك لابن لهيعة، فقال في ضيق: وما يدرى ابن وهب. سمعت هذه الأحاديث قبل أن يلتقى أبواه[(٤)]. فهو يفصح عن تساهل ابن لهيعة، وسوء حفظه بعد اختلاطه، واحتراق نسخ من كتبه، وضيقه بنقد ابن وهب.

ب- قال خلف بن تَميم: أتيت حَيْوَة بن شُريح، فسألته، فأخرج إليَّ كتاباً. قال: اذهب، فانسخ هذا، واروه عنى. قلت: لا نقبله إلا سماعاً. فقال: هكذا نفعل بغيرك، فإنْ أردتَه وإلا فذَرْه. قال: فتركته[(٥)]. وهذا يدلل على تساهل حيوة، واعتباره الإجازة كالسماع، وهو غير صحيح.

= حدثنا، أو أخبرنا، أو نحوها بغيره. وإن كان الراوى يرى التسوية بين هذه الألفاظ؛ لاحتمال أن يكون المؤلف أو شيوخه ممن يرى التفرقة بينهما، ولأن التغيير ينافى الأمانة في النقل.

(١) اختصار علوم الحديث، لابن كثير صـ١٠٣.

(٢) الإلماع: صـ١٤٢.

(٣) رياض النفوس (ط.دار الغرب الإسلامى): ١/ ٣٨٧.

(٤) تهذيب الكمال، للمزى ١٥/ ٤٩٣.

(٥) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادى صـ٤٥٢.

٣- نقد الرجال (الكلام على الرواة):

وما وجدته من نصوص - في هذا الشأن - محدود، وينْصَبّ على (ابن وهب) في جانب تعديل الرواة فيما ينقله عن مالك، أو ينقله مالك عنه، أو يطلقه هو، وذلك كما يلي:

أ- فيما ينقله عن مالك: قال ابن وهب: ثنا مالك قال: سليمان بن يسار من أعلم هذه البلدة (المدينة) بالسنن، وكان من علماء الناس[١].

ب- فيما ينقله عنه مالك: قال ابن وهب: سألنى مالك عن الليث، فقال: كيف صدقه؟ قلت: إنه لصدوق. قال: أما إن فعل، مُتِّع بسمعه وبصره[٢].

جـ- ما يطلقه ابن وهب دون سؤال: قوله: لو جُعِل يزيد بن أبى حبيب، وعبيد الله بن أبى جعفر في ميزان، ما رجح أحدهما على الآخر[٣].

ومثال آخر يدل على معرفة ابن وهب برجال الحديث، ما يحدث به عَوْن ابن يوسف[٤] قال: كنت عند ابن وهب وهو يقرأ عليه، فَمرّ حديث ليحيى بن السلام (ت ٢٠٠هـ)، فقال: امحه، فقال عون: لِمَ تمحوه، أصلحك الله؟! فقال: بلغنى أنه يقول بالإرجاء[٥]. فقلت له: وأنا كشفته (أكرهته على إظهاره) عن ذلك. فقال لى: أنت؟ فقلت له: نعم. فقال لى: فما قال لك؟ قال: قلت له، فقال: معاذ الله أن يكون ذلك رأيى، أو أَدِينَ الله به، ولكن أحاديث رويتها عن رجال يقولون: الإيمان قول. وآخرين يقولون: قول، وعمل. فحدثنا بما سمعنا منهم. قال ابن وهب: فَرَّجْتَ عنى، فَرَّج الله عنك. قال عون: فلمّا قدمت القيروان، وكان يحيى باقياً بعدُ، أتانى، فسلّم عليّ، وقال لى: يا أبا محمد، قد بلغنى محضرك، فجزاك الله خيراً، والله ما قلتَ إلا حقّاً، وما دِنْتُ الله به قط[٦] (أى: بالإرجاء).

ثانياً - فيما يتصل بالمَتْن:

أ- كان دخول المحدث المدنى المشهور عروة بن الزبير مصر بين ٥٨-٦٥هـ، يعنى: دخول رجل حمل علم عائشة بالحديث. ولما كانت عائشة عَلَّمَتْ عروة أنه يجوز رواية الحديث بالمعنى، ما دام لا يغيره الراوى، فلذلك أثره في مصر من انتشار

(١) المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٥٤٩.
(٢) مخطوطة تهذيب الكمال ٣/ ١١٥٣، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٤.
(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٠ (وفيه أنه نقل ذلك عن عمرو بن الحارث)، وتهذيب التهذيب ١١/ ٢٧٩.
(٤) عَوْن بن يوسف الخُزاعى، أبو محمد. صالح ثقة مأمون. قال: قدمت المدينة سنة ١٨٠هـ، وأدركت بها أربعين رجلاً من معلمى ابن وهب (رياض النفوس-ط.دار الغرب الإسلامى) ج١ صـ٣٨٥ (رقم ١٢٨).
(٥) هو تأخير القول في الحكم على مرتكب الكبائر بالنار (تدريب الراوى: ١/ ٣٢٨).
(٦) رياض النفوس (ط.دار الغرب الإسلامى): ١/ ١٩١-١٩٢.

ذلك بين محدثيها، إذ ينظرون في المتن ويفهمونه، حتى إذا رووا الحديث بالمعنى، كان للراوى بصر بالألفاظ ومدلولها، والمترادف منها[١].

ب- يأتى - هنا - دور بارز لعبه عبد العزيز بن مروان، يضاف لأياديه البِيض السوالف في دراسة الحديث في مصر، وهو ما يختص بنظره في الحديث من جهة متنه، وذلك يتضح في هذا المثال[٢]: " حديث ابن وهب، عن عبد الرحمن بن شُرَيْح، قال: سمعت سعيد بن أبى شَمِر السَّبَائىّ يقول: سمعت سفيان بن وهب الخولانى يقول: سمعت رسول الله ﷺ: " لا تأتى المائةُ وعلى ظهرها أَحَدٌ باقٍ "[٣]. فحدثت بها ابن حُجَيْرة، فدخل على عبد العزيز بن مروان. قال: فحُمل سفيان وهو شيخ كبير، فسأله عبد العزيز عن الحديث فحَدّثه، فقال عبد العزيز: فلعله يعنى: لا يبقى أحد ممن كان معه إلى رأس المائة. فقال سفيان: هكذا، سمعت رسول الله ﷺ. قال (أى: ابن عبد الحكم): حدثناه عمرو بن سَوَّاد.

ونلحظ من ذلك ما يلى:

أ- اهتمام عبد العزيز بن مروان بالحديث، وسماعه له من العلماء، ودخولهم عليه.

ب- اهتمامه بالفهم، وحسن النظر في متن الحديث، ومحاولة تفسيره[٤].

---

(١) اختصار علوم الحديث، لابن كثير ١١٩، وتدريب الراوى للسيوطى ٢/ ١٠١.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ص٣٠٧.

(٣) أخرجه الفسوى في (المعرفة والتاريخ) ٢/ ٥١١-٥١٢ بلفظه وسنده، والطبرانى في (المعجم الكبير) ٧/ ٧١-٧٢ (رقم ٦٤٠٦) بلفظه، والحاكم في (مستدركه)، كتاب (الفتن والملاحم) ٤/ ٤٩٩ بلفظه، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يُخَرّجاه. وسكت الذهبى. وذكره الهيثمى في (مجمع الزوائد) كتاب (العلم) باب (التاريخ) ١/ ١٩٨، وقال: رواه الطبرانى في الكبير، ورجاله موثقون.

(٤) والحق أن فهم عبد العزيز بن مروان لمعنى الحديث فهم صائب ودقيق. ويؤيده حديث صحيح آخر، رواه جابر بن عبد الله ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول قبل موته بشهر: " يسألون عن الساعة، وإنما علمها عند الله. وأقسم بالله ما على الأرض نفس مَنْفُوسَة - اليوم - يأتى عليها مائة سنة ". أخرجه الإمام مسلم في (صحيحه) عن ابن عمر بمعنى مقارب من عدة طرق في كتاب (فضائل الصحابة) باب قوله ﷺ: " لا تأتى مائة سنة، وعلى الأرض نَفَس منفوسة اليوم " ٤/ ١٩٦٥-١٩٦٧ (حديث ٢٥٣٧-٢٥٣٩). وأخرجه الحاكم في (مستدركه) كتاب (الفتن والملاحم) ٤/ ٤٩٩. وعلق الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجه الشيخان بهذا اللفظ. وأكد شرحه، فقال: إنما أراد: ما على الأرض - ذلك اليوم مولود قد ولد يأتى عليه مائة عام من ذلك الوقت، الذى خاطبهم فيه الرسول. وليس المعنى أن من يولد بعد ذلك العام لا يعيش مائة سنة. وذكر المعنى نفسه الإمام النووى في (شرح صحيح مسلم) ١٦/ ٣٢٤. وأخرجه - كذلك - الإمام أحمد في (مسنده) من عدة طرق ٣/ ٣٠٥-٣٠٦، ٣٢٦، ٣٤٥. وأخرجه أبو يَعْلَى في مسنده ٣/ ٤٣٣، حديث (١٩٢٢). وأخيراً، أخرجه ابن أبى شَيْبَة في (مُصَنَّفِه) كتاب (الفتن) ١٥/ ١٦٩ (رقم ١٩٤٠٦).

جـ- تَحَقُّق عبد العزيز بن مروان بنفسه من رواية الحديث، وذلك بإحضاره راوى الحديث ذاته.

وهكذا، كان لمدرسة مصر دور طيب، لا يقل عن دور الحجاز والعراق، في خدمة السنة المطهرة جمعاً وتدويناً وتصنيفاً، وحفظاً، ودراسة وفهماً. لكننا نشكو نُدْرة - وربما انعدام - النماذج، التى تثبت مزيداً من الاهتمام المباشر من المحدثين ونقاد الحديث بالمتون. وتلك شكوى عامة في المدارس كلها. ولعل المحدثين كانت لهم وجهة نظر في هذا الشأن. وقد عَبّر السيوطى عن ذلك - نقلاً عن ابن حبان - قال: النظر إن كان للسند فالشيوخ به أوْلَى، وإن كان للمتن فللفقهاء[١]. فلعلهم عَدُّوا النظر للإسناد من عمل المحدث، الذى قد لا يكون متعمقاً في المتن ونقده. أما مهمة الفقيه، فهى دراسة متون الأحاديث والترجيح بينها. وأعتقد أن ذلك الفهم غير صحيح، فالمحدث ينبغى أن يكون فقيهاً والعكس صحيح، وإن غلب اتجاه على الآخر حسب الاهتمام الأصيل.

سادساً، وأخيراً - التأثير والتأثر المتبادل بين مدرسة مصر والمدارس الأخرى في علم الحديث:

كانت مصر تعيش في اتصال دائم وثيق بعلماء المدارس الأخرى في (الحجاز، والشام، والعراق) عن طريق رحلة أبنائها؛ طلباً للعلم هناك، أو من خلال مجئ الآخرين إلى مصر؛ لاستكمال ما يريدون استكماله، أو لتعليم أهل مصر ورواية الحديث لهم. وبناء عليه فالتأثير والتأثر متبادل.

ومن المعلوم أن طالب العلم - في ذلك العصر - كان يستنفد علوم بلده أولاً قبل الرحيل خارجها، فيجوب مدنها ونواحيها؛ لتحصيل العلم من شتى أرجائها. ونذكر ابن لهيعة الذى كان يحمل خريطة في عنقه، ويمسك أدوات كتابته في يده، ويرحل لسماع الشيوخ، لا في الفسطاط وحدها، وإنما في كل مكان به علماء مصر[٢]. ونذكر الليث بن سعد وغيره ممن كانوا يذهبون للرباط في الإسكندرية يسمعون ويحدثون هناك. وكثيراً ما ارتحل الليث من الفسطاط إلى الإسكندرية لغرض التحديث[٣]، بل ذهب خصيصاً لسماع الأعرج هناك، غير أنه وجده قد مات، فصلى عليه، وقد أسِف أنْ لم يسمع منه شيئاً[٤].

والخلاصة:

أنه " ينبغى لطالب الحديث، ومَنْ يُعْنَى به أن يبدأ بكَتْب حديث بلده ومعرفة

(١) تدريب الراوى للسيوطى ٢/ ١٧٢.
(٢) الأنساب (ط.الهند) للسمعانى ١٠/ ٧-٨، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢/ ٧٨.
(٣) الأنساب (ط.الهند) للسمعانى ١/ ٢٨٣.
(٤) المراسيل للرازى صـ١٨٠ (رقم ٦٥٥)، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٥.

أهله، وبفهمه وضبطه، حتى يعلم صحيحه وسقيمه، ويعرف أهل الحديث به، وأحوالهم معرفة تامة إذا كان في بلده علم وعلماء قديماً وحديثاً، ثم يشتغل بعدُ بحديث البلدان والرحلة فيه "[١].

الرحلة في طلب الحديث في عصر الصحابة:

كانت هناك رحلات مبكرة إلى مصر، قام بها صحابة أجلاء أتوا لسماع ما فاتهم من حديث، علموا أن صحابة في مصر قد سمعوه، أو للاستيثاق مما يحفظون، ولا يوجد في بلدهم مَنْ يحفظه.

ومن النوع الأول:

ما يروى من أن جابر بن عبد الله قال: بلغنى حديث عن رسول الله ﷺ لم أسمعه، فابتعتُ بعيراً، فشددتُ عليه رَحْلى، وسِرْتُ شهراً حتى قدمتُ الشام[٢]. وقيل: رحل في حديث القِصاص إلى مصر؛ ليسمعه من عبد الله بن أُنَيْس[٣].

ومن النوع الثانى:

وما يذكره ابن عبد الحكم[٤] بسنده من أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من الأنصار، قدم على الصحابى مَسْلَمة بن مُخَلَّد، فوجده نائماً، فأيقظوه له، وطلب إليه أن يرسل إلى عقبة بن عامر الصحابى الجليل، فأتى عقبة. فقال له الرجل[٥]: هل سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: " مَنْ وجد مسلماً على عورة فستره، فكأنما أحيا مَوْءودَةً من قبرها "[٦]؟ فأجاب عقبة: أنه سمعه من رسول الله ﷺ. وهكذا، كانت مصر رائدة

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (ط.المنجد) ١/٤٦، واختصار علوم الحديث لابن كثير صـ١٣٣، وتدريب الراوى للسيوطى ٢/ ١٤٢.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٤٢-١٤٣ (نقلاً عن المدخل للبيهقى، والجامع للخطيب البغدادى). وذكر البخارى في (صحيحه، ط.عالم الكتب): ١/ ٥٠ ما نصه: " باب الخروج في طلب العلم: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد " (أى: لأجل حديث واحد).وهنا أثبت البخارى لجابر هذه الرحلة، وإن لم يحدد مكانها، وأفصح عن قوة عزم جابر في الرحيل،ولو لأجل حديث واحد. ولا عجب في هذا، فذلك ديدنه الذى حرص عليه، حتى آخر عمره (فقد أورد الذهبى) في السير (٣/ ١٩١): أنه رحل آخر عمره إلى مكة في أحاديث سمعها، ثم انصرف إلى المدينة.

(٣) ورد ذلك في (سير أعلام النبلاء) ٣/ ١٩١-١٩٢. ورَدّ ذلك القول محقق (السير)، وقال: إن هذه الرحلة كانت إلى الشام، لا إلى مصر. واستدل بما ورد في بعض المصادر، مثل: مسند أحمد ٣/ ٤٩٥. وهذا هو الصواب؛ لأن هذا الصحابى لم يُعْرَف دخوله مصر.

(٤) فتوح مصر وأخبارها صـ٢٧٥.

(٥) حددت روايات أخرى أنه هو (أبو أيوب الأنصارى).

(٦) أخرجه أحمد في (مسنده) ٤/ ١٤٧، والحميدى في مسنده ١/ ١٨٩-١٩٠ (رقم ٣٨٤): وفيه حدد شخصية الصحابى أنه أبو أيوب الأنصارى.وزاد: أنه انصرف-بعد تأكده من الحديث - إلى المدينة. =

في الرحلة إليها، والإفادة منها منذ عصر الصحابة.

الرحلة بعد الصحابة:

لم تقف الرحلة لطلب الحديث عند عصر الصحابة وحده، وإنما امتدت بعد ذلك وازدهرت في قرون تالية، وكانت لها انعكاساتها خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين. والذى يعنينا - الآن - أنها زادت في عصر التابعين، الذين رحلوا إلى الأقطار المختلفة؛ ليأخذوا عن الصحابة ﷺ.

ومن أبرز هؤلاء الرَّحَّالين: سعيد بن المسيب الذى سمعه مالك يقول: " إن كنتُ لأسير الأيام والليالى في طلب الحديث الواحد "[(١)].

وغير بعيد كثير ممن تجشموا مشاق السفر والترحال من أمثال: الحسن البصرى، وابن المبارك، والشَّعْبِىّ، وشُعْبَة بن الحَجَّاج، وغيرهم[(٢)].

والحق أنه لمّا كان الإسناد من خصائص هذه الأمة، كان حرص العلماء كبيراً أن يرووا أكبر قدر ممكن من الكتب، ويسمعوا أكثر قدر من الأحاديث، إلى جانب ما يعرف بالإسناد " العالى "، والذى اعتبره ابن حنبل سنة عمن سلف. بمعنى: أن يقل عدد رواة الحديث، بحيث يقترب الراوى من الرسول ﷺ، شريطة أن يكون كل رجال السند ثقات. ولذا كانوا يرحلون؛ ليسمعوا من شيوخ الشيوخ إنْ وُجِدوا؛ ليقتربوا بذلك من رسول الله ﷺ في الإسناد.

ولا شك أنه كلما قل ووثق رجال السند، كان ذلك أبعد عن الخطأ والعلة، ممن لو طال فإن الإسناد يكون نازلاً[(٣)].

الرحلة وعلاقات مدرسة مصر بالمدارس الأخرى في ضوئها:

أولاً - العلاقة مع مدرسة الحجاز:

لا شك أن مدرسة الحديث بالمدينة - مهجر رسول الله ﷺ - قد حظيت بالنصيب الأوفى من رحلات واهتمامات العلماء والتابعين؛ كى يتلقوا - هناك - حديث رسول الله ﷺ. ولا يعنى ذلك أن مصر لم تكن تأتيها رحلات من الحجاز، بل العكس هو الذى حدث. فمن خلال ما لدينا من نصوص سبقت، فاقت رحلات علماء الحجاز إلى مصر رحلات علماء مصر إليه.

= فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر. وأخرجه الهيثمى في (مجمع الزوائد) ١/ ١٣٤.

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٢٢.

(٢) وقد عرض الرامهرمزى في (المحدث الفاصل) طبقات العلماء، الذين رحلوا لطلب الحديث صـ٢٢٩، وما بعدها.

(٣) حول الإسناد العالى، ومراتبه، ومزاياه تحدث ابن كثير في (اختصار علوم الحديث) صـ١٣٤ وما بعدها، والسيوطى في (تدريب الراوى) ٢/ ١٥٩ وبعدها.

نماذج من رحلات علماء المدينة إلى مصر:

١- أقام عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ) في مصر سبع سنوات (٥٨-٦٥هـ)[١]، أفاد خلالها علماء مصر علماً غزيراً، ولعله روى على مسامعهم كثيراً من حديث عائشة - رضى الله عنها -، باعتباره أعلم الناس به[٢]. وكان ممن تتلمذ عليه من علماء مصر، وروى عنه عالمها: يزيد بن أبى حبيب[٣].

٢- لما كان في مصر علماء جهابذة ثقات، نقلوا عن الصحابة، وثقات التابعين علماً غزيراً؛ رحل إليهم بعض علماء المدينة، مثل: محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ)، فاستفاد من علماء مصر وأفادهم. لقد قدم مصر ١١٥هـ، ونزل بالإسكندرية، وكانت له صلاته الوثيقة بعالم مصر ومحدثها: يزيد بن أبى حبيب. كما روى ابن إسحاق عن علماء مصريين آخرين، مثل: عُبيد الله بن المغيرة، وثُمامة بن شُفَىّ، وعُبيد الله بن أبى جعفر[٤]، وغيرهم. وهكذا، كان علماؤنا مصادر أساسية له في الحديث.

رحلات علماء مصر إلى الحجاز:

١) **عبد الله بن لهيعة**: كانت لابن لهيعة صلاته بعلماء المدارس الأخرى خاصة المدينة في موسم الحج، فأخذ عن عطاء بن أبى رباح المكى، ومحمد ابن المنكدر التَّيْمِىّ، كما رأينا سلفاً. كما رحل مع الليث بن سعد في موسم الحج، فروى الليث عن نافع مولى ابن عمر ولم يدركه ابن لهيعة، وسافر في العام التالى؛ لأجل السماع منه، فوجده قد مات[٥].

وقد عاصر ابن لهيعة علماء من أمثال: ابن جريج المكى، ومسلم بن خالد الزَّنْجِىّ، ويحيى بن سعيد الأنصارى[٦]. ولا بد أن يكون قد نقل عنهم بطريقة أو بأخرى. فهو لم يسمع من يحيى بن سعيد الأنصارى، وإنما كتب إليه ابن سعيد بأحاديث رسول الله ﷺ[٧].

٢) **الليث بن سعد**: إذا كان الليث قد أفاد من علماء المدينة، الذين أتوا إلى مصر واستقروا بها، مثل: بُكير بن عبد الله بن الأشَجّ الذى روى عنه الليث نحو ثلاثين

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (ط.رضوان محمد رضوان) صـ٢١٩، وتاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) لسزكين ١/ ٤٤٧.
(٢) تقدمة المعرفة لابن أبى حاتم صـ٤٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٢٢.
(٤) سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٧-٤٨.
(٥) مخطوطة تهذيب الكمال، للمزى ٣/ ١١٥٣.
(٦) ذكر طبقتهم الذهبى في (المُعين في طبقات المحدثين) صـ٦١ رقم (٥٩٦).
(٧) الضعفاء الكبير، للعقيلى ٢/ ٢٩٥.

حديثاً[١] ؛ فإنه حج إلى الحجاز مرات ومرات، أُولاها سنة ١١٣هـ (وهو ابن عشرين عاماً)، فسمع من الزهرى بمكة، وقال: كتبتُ كثيراً عن الزهرى، وبقى ما لم أسمعه منه، وكدت أركب إلى الرُّصَافَة لألحق به، ثم خشيت ألا يكون ذلك لله، فلم أرحل. وعوض ذلك برواية ما فاته من الزهرى، عن طريق يونس بن يزيد، وعُقيل بن خالد، وغيرهما عن الزهرى[٢]. وقد سمع الليث - كذلك - من نافع مولى ابن عمر، وعطاء بن أبى رباح، وأبى الزُّبَيْر، وغيرهم[٣] .

وأخذ الليث عن يحيى بن سعيد الأنصارى المدنى (ت ١٤٤هـ)، وكتب عنه أحاديثه؛ بدليل قول كاتبه (عبد الله بن صالح): " لم أسمع من الليث - من لفظه - إلا كتاب يحيى بن سعيد "[٤] . وقد دفع ابن أبى ذئب إلى الليث بدرج حديثه. وإذا كان البعض ينكر ذلك لعدم اشتهار أخذ الليث عن ابن أبى ذئب، فإن ابن معين ذكر أن أبا صالح - أقل ما يمكن أن يكون - قد قرأ على الليث كتبه، فأجازها له[٥] .

٣) عبد الله بن وهب:

أ- له صلة عميقة ووطيدة بمالك، فهو أقرب تلاميذه إليه، ولا عجب فقد لازمه ابن وهب من ١٤٨-١٧٩هـ[٦] ؛ فهو أجَلّ أصحاب مالك، وليس أحد أقدم سماعاً من مالك منه، ولا أجَلّ منه[٧] . فلا غرو، أن يقول ابن وهب: كل شئ في كتبى: " كتب إلىّ مالك "، فقد سمعتُه منه وكانت له منه خاصة[٨] . وقد قال ابن النديم: روى ابن وهب كتب مالك، وسننه ومُوَطَّأه[٩] .

ب- لم يقف ابن وهب عند مجرد الرواية عن مالك دون علماء المدينة، بل نقل عن أكثر من عشرين من أصحاب الزهرى[١٠] .

جـ- أخذ عن ابن جُريْج، وعُقَيْل بن خالد، ويونس بن، يزيد وغيرهم، حديثهم[١١].

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبى ٣/ ٤٢٣، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٦.
(٢) الإرشاد، للخليلى ١/ ٢٠٢.
(٣) المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٤٣، والثقات لابن حبان ٧/ ٣٦٠، ووفيات الأعيان لابن خلكان (ط.إحسان) ٤/ ١٢٨.
(٤) تهذيب الكمال ١٥/ ١٠٣، وتهذيب التهذيب ٥/ ٢٢٦-٢٢٧.
(٥) تهذيب الكمال ١٥/ ١٠٢، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٤١٣، وتهذيب التهذيب ٥/ ٢٢٦-٢٢٧.
(٦) ترتيب المدارك للقاضى عياض ٢/ ٤٢٢، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٧.
(٧) الإرشاد للخَلِيلىّ ١/ ٤٠٠.
(٨) ترتيب المدارك، للقاضى عياض ٢/ ٤٢٦.
(٩) الفِهْرِسْت (ط.طِهْران) صـ٢٥٢ (المقالة السادسة، الفن الأول).
(١٠) التاج المُكَلَّل، للقِنَّوجِىّ صـ٥٨.
(١١) جامع بيان العلم، لابن عبد البر ٢/ ٢٠٥.

د- روى عن إبراهيم بن سعد المدنى (ت ١٨٤هـ)، الذى كان الشافعى حظيّاً عنده، وكان إبراهيم ذا مهابة وجلال، استدعت أن يستأذن الشافعى لابن وهب في الدخول عليه، والرواية عنه[١] .

هـ- كان ابن وهب حريصاً ألا يفوته من علماء الحجاز أحد، فذهب للسماع من هشام بن عروة، فوجده مشغولاً، فأخذ عن ابن سَمْعَان. فلما انتهى من مجلسه، وجد هشاماً عاد إلى بيته ونام، فذهب ابن وهب إلى مكة للحج ورجع، فإذا بهشام بن عروة قد مات. وكذلك لم يلحق ابن وهب بعُبيد الله بن عمر، إذ وجده عَمِىَ ولا يُحَدِّث[٢] .

ثانياً - العلاقة مع العراق:

١- ذكر ابن حبان أن المحدث المصرى عاصم بن رجاء بن حَيْوَة (ت ١٥٠هـ) قدم العراق، فكتب عنه العراقيون[٣] .

٢- كان ابن لهيعة قد أرسل كتاباً فيه أحاديث إلى عبد الرحمن بن مهدى البصرى[٤] . وكذلك كانت له علاقاته مع قتيبة بن سعيد الثقفى نزيل العراق، الذى كان آخر من روى عن ابن لهيعة[٥] .

٣) الليث بن سعد:

أ- روى كل من: الليث، وابن لهيعة عن عبيد بن أبى قُرَّةَ البغدادى، الذى سكن مصر[٦] .

ب- سافر الليث إلى العراق ومعه كاتبه، وتبوأ الليث هناك مكاناً عالياً، أشرف من خلاله على أصحاب الحديث إذ كان يقرأ عليهم، والكتاب في يد كاتبه، فلما انتهى الليث من القراءة، رمى أبو صالح بالكتاب إليهم فنسخوه[٧] .وممن روى عن الليث من أهل بغداد: حُجَيْن بن المُثَنَّى، وجماعة من البصريين في بغداد[٨].

جـ - ذكر أبو صالح أنهم خرجوا إلى بغداد ١٦١هـ في شهر شوال، وشهدوا الأضحى هناك. وقد طلب إليه الليث أن يسأل عن بيت هُشَيْم الواسِطىّ ببغداد، وأن يطلب إليه بعض كتبه لصديقه الليث، فأعطاه إياها، فكتبها منه، وسمعها أبو صالح مع الليث[٩] .

(١) آداب الشافعى ومناقبه، لابن أبى حاتم ٢٩-٣٠.

(٢) التعديل والتجريح للباجى ٢/ ٨٥١، وتذكرة الحفاظ للذهبى ١/ ٣٠٥، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٢٢٥.

(٣) مشاهير علماء الأمصار ١٨٣.

(٤) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٢/ ٢/ ١٤٦.

(٥) تهذيب التهذيب ٨/ ٣٢٢.

(٦) الثقات لابن حبان ٨/ ٤٣١.

(٧) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٣.

(٨) مخطوطة تهذيب الكمال، للمزى ٣/ ١١٥٣، والرحمة الغيثية في الترجمة الليثية لابن حجر ص٤.

(٩) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى ١٣/ ٤، وتهذيب الكمال للمزى ١٥/ ١٠٧، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٤٥.

٤) ابن وهب:

سمع ابن وهب من الوليد بن شجاع الكوفى (نزيل بغداد) حديثه لما وفد إلى مصر، وطالت بها غيبته، حتى نسيه أهلوه، ثم عاد إليهم[١].

ثالثاً - العلاقة مع خراسان:

تتمثل في كتابة ابن المبارك عن ابن لهيعة في مصر[٢]، وكذا سمع من عبد الرحمن بن شريح المعافرى الإسكندرانى العابد (ت ١٦٧هـ)[٣].

وقد تتلمذ الليث على ابن المبارك[٤]. وروى الليث ومعه ابن لهيعة عن إسحاق بن سيد الخراسانى، نزيل مصر، وهو ليس بالمشهور[٥].

رابعاً - العلاقة مع الشام:

لاحظت - من خلال ما تجمع من نصوص - أن صلات مصر الحديثية بالشام غير وثيقة. وقد وفد العالم الثقة (الهِقْل بن زِياد الدِّمَشْقِىّ، المتوفى سنة ١٧٩هـ ببيروت) إلى مصر، وروى عن أهلها وعلمائها. وممن أخذ عنه من علماء مصر: الليث بن سعد، وكاتبه (عبد الله بن صالح)[٦]. ويبدو أن الليث سافر إلى بيت المقدس بالشام، والتقى بالمنصور هناك، ومدحه المنصور[٧]. ولعل الليث روى عنه هناك، وإن كنا لا نقطع بذلك، ولا ندرى متى كان على وجه التحقيق.

خامساً - العلاقة مع المغرب:

كانت مصر حلقة الوصل بين حاضرة الخلافة، والمغرب. وكانت معبراً وموئلاً لكل متجه نحو الغزو والفتوح. وكان ثغر الإسكندرية بها مكاناً للرباط والجهاد، وهناك كان التأثير والتأثر. ولا شك أن مصر كانت هى المؤثرة من خلال انطلاق جيوش الفتح في عهد عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد بن أبى سَرْح. وتلقف هذه الأحاديث هناك: حَنَش بن عبد الله الصَّنْعَانِىّ[٨] الثقة، الذى توفى ١٠٠هـ وهو مرابط بإفريقية، إلى جانب عُلَىّ ابن رَباح، وأبى عبد الرحمن الحُبُلِىّ، وسواهم.

---

(١) تهذيب التهذيب ١١/ ١٢٠.
(٢) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٢/ ٢/١٤٦-١٤٧.
(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٨٢.
(٤) المصدر السابق ٨/ ٣٧٨، والديباج المذهب لابن فرحون ١/ ٤٠٧.
(٥) تهذيب الكمال، للمزى ٢/ ٤١٢-٤١٣.
(٦) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٠-٣٧١.
(٧) المعرفة والتاريخ، للفسوى ٢/ ٤٤١.
(٨) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٩٢-٤٩٣، وميزان الاعتدال للذهبى ١/ ٦٢٠.

ومنهم من قدم من إفريقية إلى مصر، وحدث عن علمائها، مثل: زكريا بن يحى بن إبراهيم المصرى (ت ٢٥٤هـ)، الذى اختص بالرواية عن ابن وهب، وكان يقول: حدثنى سيدى ابن وهب، وكان سمع عليه بإفريقية[١].

وقد أفادت مصر من بعض علماء إفريقية، فها هو ابن لهيعة يروى عن أحد فضلاء التابعين، وهو أبو المغيرة عبد الله بن المغيرة بن أبى بُرْدَة القُرَشىّ (وكان قد ولى قضاء إفريقية عام ٩٩هـ في عهد عمر بن عبد العزيز)[٢]. ومن قبله روى عُبيد الله بن أبى جعفر عن إسماعيل بن عُبَيْد الأنصارى (ت ١٠٧هـ)[٣].

ملاحظات:

١- سكتت المراجع التى بين أيدينا عن الحديث عن رحلات يزيد بن أبى حبيب، ويبدو - فيما نظن - أنه لم يرحل خارج مصر، واكتفى بالأخذ عن محدثى الأقاليم الأخرى الذين وفدوا إلى مصر، مثل: محمد بن إسحاق.

٢- أما أبو قبيل، فقد رحل غازياً في إفريقية مع حسان بن النعمان، وله في ذلك مقامات، ثم عاد إلى مصر[٤]، كما أنه غزا جزيرة رودس[٥] زمن معاوية مع جُنادة بن أبى أُمَيَّة[٦]. فلعله كان يحدث المشتركين في الغزو ويحدثونه. ولعل علىّ بن حَوْشَب الفَزَارِىّ الدمشقى أتى إلى مصر، وروى عن أبى قَبيل[٧].

٣- أما عبيد الله بن أبى جعفر، فيحتمل أنه روى عن الأعرج، ونافع، وغيرهما من مدرسة المدينة، لما زاروا مصر[٨]. ولعله تبادل التأثير والتأثر الحديثى لما غزا القسطنطينية[٩].

---

(١) الديباج المذهب، لابن فرحون ١/ ٣٦٨-٣٦٩.

(٢) رياض النفوس، للمالكى (ط.دار الغرب الإسلامى): ١/ ١٢٦.

(٣) وهو أحد العشرة التابعين المرسلين من عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية (المصدر السابق: ١/ ١٠٦).

(٤) السابق (ط.النهضة المصرية) جـ١ صـ ٩١.

(٥) لم أقف على تعريف بها في (معجم البلدان) لياقوت. وقد قال عنها البلاذرى في (فتوح البلدان، ط.المنجد) ٢/ ٢٧٨-٢٧٩: من أخصب الجزائر (ويبدو أنها بالبحر الأبيض)، وهى نحو من ٦٠ ميلاً، فيها الزيتون، والكروم، والثمار، والمياه العذبة. غزاها جنادة بن أبى أمية ٥٢هـ، وفتحها عَنْوَة. وبنى المسلمون بها حصناً، وأقاموا بها سبع سنين. فلما مات معاوية، طلب إليهم ابنه يزيد أن يعودوا.

(٦) تاريخ خليفة بن خياط (ط ٢-١٩٧٧) صـ٢٢٧: فتحت ٥٩هـ. وكذا قال الطبرى في تاريخه ٥/ ٣١٥ وذكر ابن ماكولا في (الإكمال) ٧/ ٣٢٧: أنهم غزوها في زمن معاوية بن أبى سفيان.

(٧) تهذيب الكمال ٧/ ٤٩١.

(٨) تهذيب التهذيب ٧/ ٦.

(٩) مخطوطة تهذيب الكمال ٢/ ٨٧٥، وتهذيب التهذيب ٧/ ٦. ولعلها الغزوة التى وقعت ٩٨هـ في خلافة سليمان بن عبد الملك بقيادة أخيه مَسْلَمَة بن عبد الملك (تاريخ خليفة ابن خياط (ط ٢-١٩٧٧) صـ٣١٥-٣١٦، والخلافة والدولة في العصر الأموى للدكتور محمد حلمى محمد أحمد صـ ٢١٧).

خلاصة سمات مدرسة الحديث في مصر:

١- بالرغم من تسلط الأضواء وتركزها على محدثى الحجاز والعراق بالذات، فإن محدثى مصر - ومن خلال النصوص-جاروا المدارس الحديثية الأخرى في كافة القضايا المتناظرة التى بحثناها، سواء في (قضية التدوين الحديثى)، أم (فى مراحله الثلاث التى مر بها)، أم في الإسهام في (مواجهة الوضع على الحديث)، أم في (التأثير والتأثر المتبادل).

٢- أن مصر سبقت غيرها من المدارس في مرحلة التجميع الحديثى في عهد عبد العزيز بن مروان، وكذلك في توجه الصحابة إليها مرتحلين؛ طلباً لبعض ما فاتهم من صحابة مصر.

٣- أن الوضع على الحديث في مصر لم يكن مستشرياً استشراءه في العراق مثلاً، ومع ذلك ساهم محدثو مصر بنصيب وافر في تأصيل قضايا ومباحث مصطلح الحديث.

٤- أن الحديث احتل مكانة سامية بين العلوم الإسلامية، وكانت للمحدثين كلمتهم النافذة المسموعة، وقدرة على الإسهام الإيجابى في حركة المجتمع. ومن أبرزهم في مصر: يزيد بن أبى حبيب، وعبد الله بن لهيعة القاضى، والليث بن سعد الذى فُضِّل على مالك، وابن وهب المحدّث الفقيه.

الفصل الثالث

علم الفقه

تقديم:

بعد أن انتهينا من عرض القضايا الحديثية، ورأينا طغيان اهتمام المحدثين بالسند على حساب المتن، نعكف-الآن-مع قوم عكفوا-إلى جانب القرآن - على الحديث النبوى الشريف يدرسون متونه، ويشرحونه، ويستخرجون منه أحكامه، مبرزين الصلة الوثيقة التى تربط بين المحدث والفقيه.

ونحن نبرز دور الفقه في الثقافة الإسلامية خلال القرنين: الأول، الثانى الهجريين، نتعرض لدور الصحابة الفقهاء في مصر، وتلاميذهم من التابعين، ومن بعدهم، معرّفين بجهودهم، وبعلاقاتهم بمدارس الفقه الأخرى، وبالتأثير والتأثر المتبادل بينهم، ثم مدى نجاحهم وإسهامهم في الواقع العملى، وفى دنيا الناس المملوءة بالكثير من القضايا والتساؤلات التى، تبحث عن جواب.

أولاً - الفقه في مصر في عهد الصحابة:

لا شك في أن صحابة رسول الله ﷺ، الذين رووا أحاديثه، وشهدوا فعاله عن كَثَب، هم ينابيع الفقه الأصيلة. وقد أدرك النبى ﷺ تميز صحابته، كل في مجال متخصص دقيق. فابن عمرو من أكثرهم رواية وفقهاً، وابن عباس أكثرهم تأويلاً، ومعاذ بن جبل أعلمهم بالحلال والحرام، وزيد بن ثابت أعلمهم بالفرائض (المواريث)[1]. فماذا عن الصحابة الفقهاء في مصر؟

١) عبد الله بن عمرو بن العاص:

عرفنا - فيما مضى - أن ابن عمرو كان محدث مصر، وأنه ممن قامت على

(١) رُوِيَ أن مروان بن الحكم استدعى زيد بن ثابت، وأخذ يسأله ويستفتيه، وقد أجلس مروان كاتباً يكتب ما يقول زيد. ويبدو أن زيداً لاحظ ذلك، ولعله كان يُسأل عن أمور الاجتهاد فيها مباح، فاستخدم عقله وفكره في حدود القواعد الكلية للشرع، لكنه تَوَرَّع، وأوضح أنه يفتى برأيه، فقال لمروان: عذراً، إنما أقول برأيي. (طبقات ابن سعد، ط.ليدن) ٢/ ٢/ ١١٧، و(سير أعلام النبلاء) ٢/ ٤٣٨.

أكتافهم مدرستها العلمية. وقد أقام ﷺ بين أهل مصر فترة معقولة، فكان يحدثهم ويفتيهم، سواء في مقامه بالفسطاط، أم في رباطه بالإسكندرية. وقد بلغ من مكانته الفقهية بين أهل مصر أن غدا مفتيهم وعالمهم، حتى إنه إذا قال المصرى: عبد الله، ولا ينسبه، فهو عبد الله بن عمرو[(١)] .

من ملامح منهجه في الإفتاء:

أ- اعتماده في فتاواه على السنة المطهرة: ومثال ذلك: أنه جاءه رجال من اليمن، يسألونه عن رجل حسن إسلامه، وحسنت هجرته، وجاهد، ثم عاد إلى والديه باليمن، فَبرّهما. فسألهم: ماذا ترون فيه؟ قالوا: نراه ارتد على عقبيه. فأخبرهم أنه في الجنة، وذكر لهم أن المرتد على عقبيْه هو الذى عمل كل ما سبق، ثم استولى على أرض نَبَطِيّ، فأخذها عنه بجِزْيتِها ورزقها، ثم أقبل يعمرها، وترك الجهاد[(٢)] . فالملاحظ - هنا - أن ابن عمرو اعتبر عودة الرجل إلى والديه يرعاهما ويبرهما استمراراً لجهاده في سبيل الله. وهذا بنص حديث رواه ابن عمر من أنه: " جاء رجل إلى النبى ﷺ يستأذن في الجهاد. فقال: أحَيٌّ والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجَاهِدْ[(٣)] . وأضاف ابن عمرو أن الغصب، وأخذ مال الغير - ولو كان ذميّاً - هو الركون إلى الدنيا، وهو الارتداد الحقيقى، والطامة الكبرى التى ما بعدها طامة.

ب- التحرى والاستيثاق: ومثال ذلك سؤال سأله إياه رجل، بخصوص محرم وقع بامرأة. فلم يجب ابن عمرو، وإنما أرسل معه حفيده شعيباً؛ ليدله على ابن عمر، فيسأله. فكان جواب ابن عمر: بطل حجك. وطلب إلى أن يحرم مع الناس، ويصنع ما يصنعون. وفى العام التالى يحج ويهدى. ولما علم ابن عمرو بالجواب، سأل الرجل أن يذهب إلى ابن عباس فقال ابن عباس الإجابة نفسها. بعد هذا السؤال والتحرى أفتى ابن عمرو بقول ابن عمر، وابن عباس[(٤)] . فهو يريد - إذن - التحقق من جوابهما، فهما من أعلم الناس بالسنة. وقد قالت عائشة (رضى الله عنها)عن ابن عباس: " هو أعلم منى بالحج "[(٥)] .

(١) الإرشاد للخليلى ١/ ١٨٥، ٤٤٠.

(٢) حِلْيَة الأولياء للأصفهانى ١/ ٢٩١-٢٩٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب (البر والصلة والآداب) باب (بر الوالدين وأنهما أحَقّ) ٤/ ١٩٧٥(رقم ٢٥٤٩).

(٤) مستدرك الحاكم، كتاب (البيوع) ٢/ ٦٥. وصححه الذهبى. وليس هذا التثبت بغريب على ابن عمرو، فقد كان يحرص على تسجيل فتاوى كبار الصحابة (رضى الله عنهم جميعاً). ومن ذلك ما يذكره عمرو بن شعيب أنه وجد في كتاب عبد الله بن عمرو، عن عمر بن الخطاب أنه قال: إذا عبث المعتوه بامرأته، أُمِر وليُّه أن يُطَلِّق. (سنن الدارقطنى، ط.مصر)، كتاب (الطلاق والخلع والإيلاء وغيره) ٤/ ٦٥.

(٥) تهذيب التهذيب ٥/ ٢٤٤.

جـ- ذَمّ الرأى: لعل الصحابى عبد الله بن عمرو كان ممن يذمون القول بالرأى والظن، والقياس على غير أصل، وكثرة المسائل دون وقوع لما يُسأل عنه. وذلك هو منهج الصحابة كمعاذ بن جبل، وعمر بن الخطاب، وأبىّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وغيرهم من فقهاء الصحابة[١]. ولا أعتقد أن ابن عمرو يشذ عن ذلك المنهج، خاصة أنه يعتمد على النصوص بالدرجة الأولى، كما أسلفنا.

٢) عقبة بن عامر الجهنى:

تناولناه - من قبل - مقرئاً ومحدثاً، وها نحن - الآن - نتناوله (فقيهاً)، فقد كانت ملازمته ﷺلرسول الله ﷺ تكسبه علماً غزيراً قائماً على مصاحبته الرسول، ومشاهدة أفعاله في حركاته وسكناته. فعقبة عالم بالفرائض، قديم السابقة للهجرة والإسلام والصحبة[٢]. ويعد عقبة هو الصحابى الوحيد، الذى يشبه ابن عمرو في كثرة مروياته الحديثية في مصر. فقد ذكر ابن عبد الحكم[٣]- مثلما ذكر في حق ابن عمرو - أن المصريين رووا عن عقبة ما يقرب من مائة حديث. وإذا كان ابن عبد الحكم قد انتقى منها لابن عمرو عشرين حديثاً ذكرها له، فقد انتقى لعقبة بن عامر أكبر عدد من الأحاديث ذكره للصحابة في مصر، وهو ٣٨ حديثاً، اشتملت على موضوعات شتى، على رأسها: الموضوعات الفقهية[٤]؛ مما يدل على عظم مكانته في الفتوى والفقه القائم على حديث رسول الله ﷺ.

ولذا فقد اخترت له ثلاثة أحاديث رواها في مصر، تمس جوانب فقهية في هذا البلد الذى تبوأ عرش فقهه، وهى:

الحديث الأول[٥]- "حديث سعيد بن أبى أيوب قال: حدثنى يزيد بن أبى حبيب، قال: سمعت أبا الخَيْر مَرْثَد بن عبد الله اليَزَنِىّ يقول: رأيت أبا تَميم الجَيْشانِىّ (عبد الله بن مالك) يركع ركعتين حين،يسمع أذان المغرب. فأتيت عقبة بن عامر الجهنى، فقلت: ألا أُعَجِّبُكَ[٦] من أبى تميم؟ يركع ركعتين قبل صلاة المغرب! وأنا أريد أن أَغْمِصَه بذلك[٧]. فقال عقبة: إن كنا لنفعله على عهد رسول الله ﷺ. قلت: فما

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر ٢/ ١٧٤.

(٢) اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير ١/ ٣١٧-٣١٨، والعبر للذهبى ١/ ٤٥، وتذكرة الحفاظ للذهبى (ط.دار الفكر العربى) مج١ ج١ صـ٤٢-٤٣، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦٧-٤٦٩، ومرآة الجنان لليافعى ١/ ١٣٠.

(٣) فتوح مصر وأخبارها صـ٢٨٧.

(٤) المصدر السابق: صـ٢٨٧-٢٩٤.

(٥) السابق: صـ٢٨٧.

(٦) من الفعل: عَجَّبَ تعجيباً (نبّهه على التعجب منه). والمعنى: هل أخبرك بأمر تستغربه، وتتعجب منه؟ (لسان العرب لابن منظور) مادة (ع.ج.ب) ٤/ ٢٨١٢.

(٧) من الفعل: غَمَصَ. والمعنى: يستصغره ولا يراه شيئاً (أو يعيبه ويطعن عليه). (المصدر السابق) مادة =

يمنعك الآن؟ قال: الشُغْل "[١] .حدثناه المقرئ.

وهذا يدل على جواز صلاة ركعتى السنة قبل المغرب، وأن الرسول ﷺ يفعل ذلك، وأنها لا تعدو أن تكون سنة، وأن عقبة كانت تشغله - في مصر - شواغل عن أدائها.

الحديث الثانى[٢] - " حديث ابن لهيعة، عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن شِماسة، عن أبى الخير، عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال: " كَفَّارة النَّذْر كَفَّارةُ اليَمين "[٣].حدثناه أبى (عبد الله بن عبد الحكم)، وأبو الأسود النَّضْر بن عبد الجبار.

وهو يفيد أن من نذر شيئاً، ولم يوف به، فعليه كفارة كمن حلف على شئ ولم يَبَرَّ بقَسَمه. والكفارة - كما نعلم - وردت في القرآن في قوله (تعالى): ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾[٤].

الحديث الثالث، والأخير[٥] - " حديث الليث بن سعد، عن يزيد بن أبى حبيب، أن ابن شِماسة حدثه أن عقبة بن عامر قام في صلاة وعليه جلوس، فقال الناس: سبحان الله، سبحان الله! فعرف الذى يريدون. فلما أتم صلاته، سجد سجدتين وهو جالس، وقال: إنى قد سمعتُ قولكم، وهذه هى السنّة "[٦].

= (غ.م.ص) ٥/ ٣٢٩٨.

(١) أخرجه البخارى في (صحيحه) (ط.دار ابن كثير - بيروت) كتاب (التطوع) باب (الصلاة قبل المغرب) ١/ ٣٩٦ (رقم ١١٢٩) بسنده وبلفظ مقارب، وأخرجه أحمد في (مسنده) ٤/ ١٥٥، وأخرجه النسائى في (سننه) كتاب (الصلاة) باب (الرُخْصَة في الصلاة قبل المغرب) ١/ ٢٨٢-٢٨٣ (رقم ٥٨٢) بزيادة سؤال اليزنى وجواب عقبة لدى ابن عبد الحكم، وأخرجه الطبرانى في (المعجم الكبير) ١٧/ ٢٨٧-٢٨٨ رقم (٧٩٣) بلفظ مقارب. وأورد لفظة (أمنعه) بدل (أَغْمِصُه).

(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ص٢٨٨.

(٣) أخرجه مسلم بلفظه في (صحيحه) كتاب (النذر) باب (كفارة النذر) ٣/ ١٢٦٥، رقم ١٦٤٥. وإسناده فيه يخلو من ابن لهيعة فهو كالآتى: عن ابن وهب أخبرنى عمرو ابن الحارث، عن كعب بن علقمة. فهو يدعم طريق ابن عبد الحكم. وذكره أحمد في (مسنده) من طرق عدة: ٤/ ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧(من طريق يحيى بن أيوب)، ١٤٩، ١٥٦ (كطريق ابن عبد الحكم). وهذا يدعم طريق مؤرخنا. وأخرجه الطبرانى في (المعجم الكبير) ١٧/ ٢٧٢، ٢٧٣، ٣١٣ بطرق عدة: عن عمرو بن الحارث، وعن يحيى بن أيوب، وعن ابن لهيعة. وهكذا تقوى هذه الطرق طريق ابن لهيعة، الذى استخدمه ابن عبد الحكم، فيصير الحديث صحيحاً.

(٤) سورة المائدة: الآية ٨٩.

(٥) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ص٢٩٤.

(٦) أخرجه الطبرانى في (المعجم الكبير) ١٧/ ٣١٣ رقم (٨٦٧)، وورد برواية أخرى برقم ٨٦٨ (ص٣١٤). وقال المحقق: صحيح الإسناد. وأخرجه الهيثمى في (مجمع الزوائد)، باب (السهو في الصلاة) مروياً عن عقبة. قال: رواه الطبرانى في (الكبير) من رواية الزهرى عن عقبة، وهو لم يسمع =

حَدَّثَناه شعيب بن الليث، وعبد الله بن صالح، وحَدَّثَناه أبى (عبد الله بن عبد الحكم)، حدثنا بكر بن مُضَر، عن يزيد بن أبى حبيب، عن ابن شماسة، عن عقبة نحوه.

وهذا الحديث يفيد أن التشهد الأوسط سنّة، نسيه عقبة وهو يؤم الناس في مصر فذَكَّروه. فلما كان قد قام، لم يَصِحّ أن يرجع من فرض " القيام " إلى سنّة (التشهد الأوسط). فأكمل صلاته ثم سجد للسهو، ثم علّم الناس أن هذه هى سنة رسول الله ﷺ.

وهكذا، لعب الصحابة دوراً مبرزاً في مدرسة الفقه في مصر، وكان الحديث زاداً لا ينضب، يستمدون منه الأحكام الفقهية الصحيحة.

الفقه في مرحلة ما بعد الصحابة في مصر:

حمل لواء الفقه في مدرسة مصر عدد من نجباء التابعين ومن بعدهم، إذ أخذوا الفقه على أيدى الصحابة (رضوان الله عليهم). ومن أبرز هؤلاء:

أ- مرثد بن عبد الله اليزنى (أبو الخير)(١):

وهو مفتى مصر، وعالم ديارها، وفقيهها في أيامه. وكان ملازماً للصحابى الفقيه عقبة بن عامر، فكان لا يفارقه(٢)، فأفاد منه خير إفادة، وتشرب على يديه فقه النبى ﷺ. ولعله أفاد - كذلك - من دُخَيْن بن عامر الحَجْرِىّ(٣) كاتب عقبة بن عامر، الذى كان يلازم عقبة ويكتب له أحاديثه، وربما مسائله وفتاواه الفقهية.

ب- يزيد بن أبى حبيب (ت ١٢٨هـ):

وهو إمام حجة، مفتى الديار المصرية على أيامه، وأحد التلاميذ الأثيرين لدى مرثد اليزنى. وهو ثقة من الثقات، ومن الفقهاء والحكماء في زمانه. قيل: إن أهل مصر انشغلوا - قبل أن يَبَزّ يزيد في العلوم والفقه - بالحديث عن الفتن (القصص، والحكايات، والأساطير، والملاحم (الأخبار التاريخية الخيالية)، والترغيب في الخير والوعظ. فأتى يزيد، فحَوّل مصر نحو العلمية والموضوعية، فدرس الحديث ورواه،

= منه. وفيه عبد الله بن صالح وهو مختلف في الاحتجاج به. والحق أن الإسناد ليس به الزهرى، فهذا وهم من الهيثمى، ثم إن ابن صالح كاتب الليث احتج بعض العلماء به، ثم إن الحديث ورد من طريق أخرى ليس فيها ابن صالح.

(١) ترجم له: الشِّيرازى في (طبقات الفقهاء، ط.العزاوى)، صـ٧٨، والذهبى في (سير أعلام النبلاء) ٤/ ٢٨٤-٢٨٥، والعبر ١/ ٧٨، والكاشف (ط.دار الكتب الحديثة) مج٢ ج٣/ ١٣٠، ومرآة الجِنان لليافعى ١/ ١٨٠.

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ١٧/ ٢٧٣.

(٣) ورد في (تُحفَة الأشراف) للمِزِّى ٧/ ٣٠٦، وترجم له كذلك في (تهذيب الكمال) ٨/ ٤٧٦، ووثقه، وقال: توفى ١٠٠هـ.

وفهمه وتفقه فيه، وأخذ عن الصحابى ابن جزء فقهاً كثيراً، منه: (حديث عدم استقبال القبلة ببول ولا غائط) مثلاً. حتى قيل: إن يزيد هو أول مَنْ أظْهَرَ العلم الحقيقى في مصر، وتكلم على مسائل، منها: الحلال والحرام (الفقه)[١]. ويبدو أن ما سبقه من الفقهاء كانت فتاواهم متناثرة، ولم يقصدوا إلى الفقه قصداً؛ إذ كانت دراساتهم عفوية تأتى من خلال ما يروون من أحاديث. أما يزيد، فالظاهر أنه وَجّه جهوده لدراسة الفقه، وصبغه بالصبغة العلمية، وأحسن الإفادة من مصادر القرآن والسنة.

وقد بلغ من علم يزيد أن جعل عمر بن عبد العزيز له، ولجعفر بن ربيعة، ولعبيد الله بن أبى جعفر الفتوى في مصر[٢]. وقد بلغ من مكانة يزيد العلمية أن قال عنه الليث: يزيد بن أبى حبيب سيدنا وعالمنا[٣]. ولم لا؟ وهو أول من درس الحديث والفقه في مصر[٤]. وأفاد من علماء مكة خاصة عطاء بن أبى رباح الذى قدم إلى مصر، وروى عنه يزيد[٥]. وخَلّف يزيد تلاميذ تفقهوا على يديه، أعظمهم صحبة له (حيوة بن شريح ت ١٥٨هـ)[٦]. وقد كان يزيد ممن حفظ، وقال، وأفتى مجتهداً برأيه، قايساً على الأصول فيما لم يجد فيه نصّاً[٧]. ورغم كل هذا العلم والفقه، كان يتورع من كثرة الفُتْيا، ويتقى الله فيها، فيروى أنه لما كثرت المسائل عليه لزم بيته[٨].

نماذج من فقه يزيد بن أبى حبيب:

أولاً-فى فقه الصلاة:

روى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب حديثاً في كيفية جلوس الرسول ﷺ في التشهد الأوسط[٩]. وذلك يَشِى باهتمام يزيد البالغ بتعليم أهل مصر أصول العبادة الصحيحة، ودقائق هيئات رسول الله ﷺ في الصلاة، وفقاً لما صَحّ عنه من حديث.

ثانياً-فى فقه الزكاة:

روى عن ابن لهيعة حديثاً عن ابن شهاب مرفوعاً في أن ما سَقَت الأمطار من

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣١-٣٢، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/٢٩٩.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبى (ط.دار إحياء التراث) ١/ ١٢٩، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف -بيروت) ٩/ ١٩٣، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١/ ٢٣٨، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٢٩٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٢، ومرآة الجنان لليافعى: ١/ ٢٧٢، والنجوم الزاهرة ١/ ٣٠٨.

(٤) تاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) لفؤاد سزكين ١/ ٥٤٨.

(٥) تهذيب التهذيب ٧/ ١٨٠.

(٦) العبر للذهبى ١/ ١٧٦، والكاشف للذهبى (ط.دار الكتب الحديثة) مج١ ج١/ ٢٦٣.

(٧) جامع بيان العلم لابن عبد البر ٢/ ٧٧.

(٨) تذكرة الحفاظ للذهبى (ط.دار إحياء التراث) ١/ ١٣٠.

(٩) بيان خطأ من أخطأ على الشافعى، للبيهقى ص١٥٨-١٥٩.

الأراضى الزراعية فيه العُشْر، وما سُقى بالرَّىّ وبَذْل المجهود ففيه نصف العشر[(١)] .

ثالثاً- في مجال الأحوال الشخصية:

روى يزيد حديثاً عن مرثد اليزنى، عن عقبة بن عامر مرفوعاً إلى النبى ﷺ من أن أحق الشروط أن يُوفَى به، ما استُحِلَّت به فروج النساء. وهذا يعنى الوفاء بما اتفق عليه في عقد الزواج من حقوق للمرأة على الرجل[(٢)] .

ج- عُبيد الله بن أبى جعفر (٦٠-١٣٥هـ):

وهو أحد أعلام مدرسة الفقه في مصر إبان عصرها الأول، وأحد العلماء الزهاد الموثوق بهم، وهو لا يختلف في مكانته عن يزيد بن أبى حبيب. والحق أنه بالرغم من المكانة العالية التى ذكرت لهذا الرجل، بحيث تجعله فقيهاً أكثر منه محدثاً، إلا أننى لم أعثر على فتاوى فقهية تُنْسَب إليه، اللهم إلا بعض مرويات يرويها، تتصل بالأحكام القضائية الشرعية الصادرة عن بعض قضاة مصر[(٣)].

د- جعفر بن ربيعة بن شُرَحْبِيل بن حَسَنَة الكِنْدِى المصرى (ت ١٣٦هـ) [(*)]:

وقد رأى هذا العالِمُ عبدَ الله بن الحارث بن جَزْءٍ الزُّبَيْدِىّ الصحابى المعروف، وتتلمذ على عدد من العلماء، منهم: عبد الرحمن بن هرمز الأعرج[(٤)]، وبُكير بن الأشج، وبكر بن سَوادة، والزهرى، وغيرهم. وتتلمذ عليه ابن لهيعة، والليث، وعمرو بن الحارث، وسعيد بن أبى أيوب، وبكر ابن مضر، وحيوة بن شريح، وغيرهم. كما روى عنه يزيد بن أبى حبيب فقيه مصر، وهو من أقرانه. هذا، وقد وثقه النسائى، وذكر أحمد أنه كان شيخاً ثقة من أصحاب الحديث، فيكون قد تملك زمام الفقه بإمساكه بناصية الحديث النبوى. وهو ممن ولاهم عمر بن عبد العزيز الفتيا في

---

(١) المعجم الكبير للطبرانى ١٢/ ٢٧٨ رقم (١٣١٠٩). ويمكن مراجعة رواية فقهية له عن توزيع الغنائم بعد فتوحات العراق في (الخراج) لأبى يوسف صـ٢٤.

(٢) المعرفة والتاريخ، للفسوى ٢/ ٤٩٩-٥٠٠.

(٣) مثل: الاعتداء على الأمَة يوجب عتقها، وجعل ولايتها للمسلمين، وأحكام الدية (الولاة والقضاة للكندى صـ٣١٧، ٣٣٣-٣٣٤).

(*) ترجم له كل من: ابن سعد في (طبقاته، ط.دار التحرير) ٧/ ٢/ ٢٠٢: وذكر أن جده شرحبيل بن حسنة كان أحد أمراء الأجناد على جيوش أبى بكر بالشام. وقال عن جعفر ابن ربيعة: ثقة، توفى ١٣٢هـ. والذهبى: في (العبر) ١/ ١٤١، والكاشف (ط.دار الكتب الحديثة) مج١ ج١/ ١٨٤، والمشتبه ١/ ٢١٧، وفيه قال: ينسب جعفر بن ربيعة أحياناً للحَسَنى، نسبة إلى جده (شرحبيل بن حسنة). وابن حجر في (تهذيب التهذيب) ٢/ ٧٧، والسيوطى في (حسن المحاضرة) ١/ ٢٧٢.

(٤) وقد نزل الأعرج ضيفاً على جعفر بن ربيعة عندما أتى إلى مصر، خلال فترة تحديثه بالفسطاط، قبل أن يرحل إلى الإسكندرية للرباط (المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٤٢).

مصر. وكان جده شرحبيل[١] صحابياً من مهاجرة الحبشة، وولي ربعاً من أَرْبَاع الشام لعمر ابن الخطاب، وبها مات ١٨هـ عن ٦٧سنة. وكان من الصلاح بحيث أوصى أن يدفع نصف ماله إلى عمر بن الخطاب، فقد كان استعمله على بعض أعماله، كما ذكرنا[٢].

هـ- عبد الله بن لهيعة (ت ١٧٤هـ):

لما كان ابن لهيعة محدثاً من المحدثين المبرزين في مصر، وكان قرين الليث بن سعد ﷺ، فإننا نتوقع له - وقد ولي منصب القضاء في مصر -[٣] أن يكون على درجة من الفهم والوعى لمدلولات القرآن والسنة التشريعية؛ ليتيسر له إقامة حكم الإسلام في الناس. وغَنِيّ عن البيان أن نذكر أن عبد الله ابن لهيعة هو تلميذ فقيه مصر الأول في زمانه: يزيد بن أبى حبيب. وقد لازمه ابن لهيعة وتلقى عليه الفقه، فلمس فيه الأستاذ مخايل النجابة، وحِدَّة الذكاء، وسرعة البديهة، ودقة القاضى، فتنبأ له بولاية القضاء في مصر، وقد كان[٤].

ويبدو أن ابن لهيعة كانت له مصادر أخرى، يستقى منها فقهه. والدليل على ذلك أنه سئل: هل كان أبو خُزَيْمة القاضى فقيهاً؟ فقال ابن لهيعة: والله، ما كان يفتح لنا السؤال عند يزيد بن أبى حبيب إلا أبو خزيمة، وكان مذهبه الذى ينحو إليه: الطلاق، والبيوع، والنكاح[٥].

فواضح - هنا - أنه يدرك نواحى تخصص وتفقه أبى خزيمة، ولعله درس ذلك عليه وعلمه منه، باعتباره ذا حظوة ومكانة لدى يزيد بن أبى حبيب.

نماذج فقهية لابن لهيعة:

١- هدم والى مصر على بن سليمان (١٦٩-١٧١هـ) كنائس النصارى، فلما ولى خَلَفَهُ موسى بن عيسى بن موسى العباسى والى مصر للرشيد (١٧١-١٧٢هـ) سمح بإعادة بنائها[٦]. وقيل: بُنيت كلها بمشورة الليث بن سعد، وابن لهيعة، وقالا: هو من

(١) ترجم له ابن حجر في (تهذيب التهذيب)، تحت اسم: (شرحبيل بن عبد الله) ٤/ ٢٨٥ (رقم ٥٦٨).

(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ١٤٨.

(٣) ولاه المنصور ذلك المنصب في مستهل ١٥٥هـ (الولاة والقضاة للكندى) صـ٣٦٨.

(٤) الولاة والقضاة: صـ٣٧٠.

(٥) المصدر السابق: صـ٣٦٤.

(٦) ذكر السُبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) ١٠/ ٢٥٦: أن الكنائس لا يعاد منها شئ إذا انهدم وإن قل، والأمة أجمعت على ألا تأذن في الإعادة. ولعل هذا يوافق مضمون الحديث - الذى فيه سعد بن سنان الحمصى الذى ضَعّفه الذهبى - وفيه يروى عن عمر بن الخطاب مرفوعاً: " لا تُبْنَى كنيسة في الإسلام، ولا يُجَدَّد ما خُرِّبَ منها ". ذكره الذهبى في (ميزان الاعتدال ٢/ ١٤٣-١٤٥)، رقم (٣٢٠٨).

عمارة البلاد. واحتجّا بأن عامة الكنائس التى بمصر لم تُبْنَ إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين[١] . وإن كان لى تعليق على هذه الرواية، فإنى أعتقد خلافها، وأشكك في صحتها، خاصة أنها وردت بصيغة: قيل، وهى دالة على الشك (إذ لا سند لها). كما أنه لا يُعقل أن يسمح الصحابة والتابعون بمثل ذلك. وإنما يُبْقَى على ما كان من كنائس قبل الإسلام ولا يُهْدَم. فإن هُدم ظلماً وعدواناً، أُعيد بناؤه، لا بحجة العمران، وإنما من باب رد الحق لذويه.

وقد ورد حديث لابن عباس قال فيه الرسول ﷺ: " لا تَصْلُحُ قبلتان في أرض، وليس على مسلم جِزْيَةٌ "[٢] . وذكر الشَّوْكَانِيّ في تعليقه على هذا الحديث أنه يُحْتَجُّ به على سقوط الجزية عَمَّنْ أسلم، ويُحتج به - كذلك - على المنع من إحداث بَيْعَة أو كنيسة[٣] .

٢- ذكر ابن وهب عن ابن لهيعة قال: إن تَوْبَةَ بن نَمِر[٤] قاضى مصر كان يقضى بيمين صاحب الحق مع شاهده في الشئ اليسير. قال ابن لهيعة: وقد كنتُ أقضى بذلك. ومعنى ذلك أن ابن لهيعة لم يكن يشترط شاهديْن كأبى خُزَيْمة القاضى مثلاً[٥].

٣- قال ابن لهيعة: حدثنى شيخ من مراد، قال: صلى بنا أبو منصور (مولى سعد بن أبى وقاص)، وهو من التابعين، ووالد يزيد بن أبى منصور، بإفريقية في رمضان، فأوتر بواحدة، فأنكر الناس عليه، فقال: رأيت عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص يوتران بواحدة[٦] .

وهكذا، عرضت لثلاثة نماذج من فتاوى وقضاء ابن لهيعة ومروياته الفقهية، وأكتفى بهذا القدر[٧] ؛ لأنتقل إلى فقيه مصرى آخر.

---

(١) الولاة القضاة، للكندى صـ١٣٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في (مسنده) ١/ ٢٢٣، ٢٨٥، وأخرجه أبو داود في (سننه)، كتاب (الخراج والإمارة والفيئ) باب (فى إخراج اليهود من جزيرة العرب) ٣/ ٤٢٥ (رقم ٣٠٣٢)، ولفظه: " لا تكون قبلتان في بلد واحد ". قال الشوكانى في (نَيْل الأوطار) عن حديث أبى داود ٨/ ٦٢: سكت عنه أبو داود (وهذا يعنى: أنه حديث صالح، كما شرح أبو داود ذلك لأهل مكة في رسالته إليهم، والتى وردت أول كتاب (المراسيل) له ج١ صـ١٩)، ورجال إسناده موثقون.

(٣) نيل الأوطار، للشوكانى ٨/ ٦١، ٦٣.

(٤) ولى قضاء مصر ١١٥هـ-١٢٠هـ، وهو من أعدل قضاتها الذين ولوا هذا الأمر. أُثِرَ عنه أنه لما ولى القضاء، قال لامرأته: لا تعرضى لى في شئ من القضاء، ولا تذكرينى بخصم، ولا تسألينى عن حكومة وإلا طلقتك. فكانت لا تأتيه إلا في الشهر والشهرين (الولاة والقضاة للكندى ٣٤٢-٣٤٧).

(٥) الولاة والقضاة للكندى: صـ٣٤٤.

(٦) رياض النفوس (ط.دار الغرب الإسلامى): ١/ ١٣٤.

(٧) توجد نماذج عديدة لفقه ابن لهيعة وإحالات بذلك في (الاستذكار) لابن عبد البر ١/ ٤٢٢، وبعدها.

و- الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ):

هو أحد أعلام مدرسة الفقه في مصر خلال القرن الثاني الهجرى، وصاحب مذهب فقهى عظيم، وأستاذ تفقه على يديه الكثيرون داخل مصر وخارجها، وصاحب جاه ومقام وسلطان؛ مما جعل للفقه مكانة أسمى، وللفقيه المقام الأسنى في مصر.

أولاً - الليث فقيهاً داخل مصر:

اشتغل الليث بن سعد بالفتوى في مصر في زمانه؛ نتيجة غزارة علمه، وكثرة حديثه الصحيح الموثوق به[١]، حتى إنه بزغ فجره، ولمع نجمه في سموات العلم والفقه منذ حداثته، فتفيد الروايات المتعددة أن الليث بن سعد كان شابّاً مقدماً يقدمه أهل مصر، ومن قدم عليهم من المدينة، وعلماء الشام بالرباط. كل هؤلاء يقدمونه في زمن فيه الفقهاء في مصر متوافرون كيزيد ابن أبى حبيب، وعبيد الله بن أبى جعفر، وجعفر بن ربيعة، وغيرهم. كل هؤلاء كانوا يقدمونه رغم حداثة سنه؛ لِمَا يعرفون له من فضل وعلم وورع[٢].

وقد كان الليث لا يبخل على الناس بعلمه، فذكر تلميذه وقرينه أشهب ابن عبد العزيز (ت ٢٠٤هـ) أن له أربعة مجالس يوميّاً، أخص - الآن - اثنين منها بالذكر، وهما:

أ- الجلوس لأصحاب الحديث يحدثهم، ويشرح لهم كلام النبى ﷺ.

ب- الإجابة عن تساؤلات الناس الدينية الفقهية[٣].

ولذا، فلا غَرْوَ أن يقول عنه أحمد بن صالح المصرى: الليث إمام قد أوجب الله علينا حقه[٤].

وقال عنه الخَليليّ: كان إمام وقته بلا مُدَافَعة[٥]. وقال ابن حبان: إمام من سادات أهل زمانه فقهاً وورعاً وعلماً، وفضلاً وسخاء[٦].

ثانياً - علاقاته خارج مصر:

١- رحلاته: ذكرنا - فيما مضى - رحلة الليث إلى العراق ١٦١هـ، وأخذه الحديث عن (هُشَيْم الواسطى)، لكن رحلاته إلى المدينة كانت أسبق (١١٣هـ) وأكثر، وأعظم شأناً، وأجَلّ فائدة، وأكبر تأثيراً من الناحية الفقهية؛ نظراً لأن المدينة تَغَصّ

(١) طبقات ابن سعد (ط.ليدن) ٧/ ٢/ ٢٠٤.

(٢) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى ١٣/ ٥، ومخطوطة تهذيب الكمال، للمزى ٣/ ١١٥٣، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٤٦، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٥.

(٣) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى ١٣/ ٩، ومخطوطة تهذيب الكمال ٣/ ١١٥٤، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٠.

(٤) مخطوطة تهذيب الكمال ٣/ ١١٥٤.

(٥) الإرشاد ١/ ٢٠٢.

(٦) الثقات ٧/ ٣٦٠.

بفقهائها إلى جانب الواردين عليها من الأقاليم الأخرى؛ للتلقى من نبع مهجر النبوة الصافى.

ويمكن تحديد ملامح إفادة الليث من المدينة وفقهائها كالآتى:

أ- ظهرت مخايل الذكاء على الليث مع أولى رحلاته إلى المدينة وهو ابن ٢٠سنة، إذ التقى بأئمة الفقه بالحجاز من أمثال: نافع مولى ابن عمر، وأبى الزبير راوية جابر بن عبد الله، وغيرهما. وتحكى المصادر أن الليث كان بمكة في موسم الحج ومعه جلة فقهاء المدينة: الزهرى، وعمرو بن شعيب، وغيرهما، فكسفت الشمس بعد العصر، فقاموا يدعون الله في المسجد. فسأل الليث أيوب بن موسى: ما يمنعهم أن يصلوا صلاة رسول الله ﷺ التى صلاها في الكسوف[١] ؟ فقال أيوب: نُهى عن الصلاة بعد العصر، والنهى يقطع الأمر[٢] . فكانت مزاحمة الليث لركب العلماء، وسؤاله إياهم مفتاحاً لتفتق عبقريته الفقهية بعد.

ب- ولعل الليث بن سعد رحل إلى المدينة بعد ذلك (بعد أن اشتهر)، والتقى بالمحدث الفقيه يحيى بن سعيد الأنصارى الذى رأى الليث يلبس زَوْجَىْ خِفاف، فإذا دخل المسجد النبوى، نزع أحدهما وصلى في الآخر (وذلك لكثرة الحجيج وامتلاء طرقات المدينة برَوْث البهائم). هنا وجَّهه يحيى بن سعيد قائلاً له: إنك إمام منظور إليك؛ فلا تفعل هذا، وامسحْ خُفَّك، وصَلِّ فيه[٣] . وهذا يدل على عظيم مكانة الليث، وحسن توجيه علماء المدينة له في اتباع السنة الصحيحة؛ لأن الناس تقتدى به.

جـ- التقى الليث بن سعد بالإمام مالك إمام دار الهجرة وفقيهها (ت ١٧٩هـ)، وأفاد كلاهما الآخر[٤]، وحظى الليث بالقبول من مالك؛ بدليل ما ينقله ابن وهب لنا، من أن كل ما كان في كتاب مالك: وأخبرنى من أرضى من أهل العلم، فهو الليث بن سعد[٥] . وأعتقد أن ذلك الإخبار يتصل بالخلافات والمناقشات الفقهية في المقام

---

(١) يُسَنّ للمسلم عند كُسوف الشمس (احتجابها بالنهار) أن يصلى ركعتين في كل ركعة ركوعان، بمعنى: أنه بعد القراءة يركع طويلاً، ثم يرفع ويحمد، ثم يقرأ ثانية، ثم يركع الركوع الثانى ثم يرفع ويحمد، ثم يسجد، وهكذا في الركعة الثانية (فيكون قد ركع أربعة ركوعات، وأربع سجدات في الركعتين). ويستحب أن يخطب الإمام بعدها. وهى سنة مؤكدة في حق الرجال والنساء، ولا يشترط أن تصلى جماعة (نيل الأوطار للشوكانى أبواب (صلاة الكسوف) ٣/ ٣٢٥، وما بعدها.

(٢) مخطوطة (تهذيب الكمال) ٣/ ١١٥٣.

(٣) المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٤٤، ونقله عنه ابن حجر في (تهذيب التهذيب) باختصار ٨/ ٤١٥.

(٤) أعتقد أن الإفادة كانت في الأمور الفقهية الخلافية، وأعتقد أن رواية الحديث كانت متوافرة لديهما. وقد سمع محمد بن رمح من الليث أنه لم يأخذ عن مالك سوى حديث واحد رواه مالك، عن ابن شهاب، عن الأعرج، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: " مَنْ سأله جاره أن يَغْرِز خشبة في جداره، فلا يمنعه ". (المعرفة والتاريخ، للفسوى ٣/ ١٨٢.

(٥) مخطوطة تهذيب الكمال للمزى ٣/ ١١٥٣، والرحمة الغَيْثِيّة لابن حجر ص٨.

الأول. وقد شهد ابن وهب بسبق الليث وتفوقه على مالك في مسائل الفقه. فتذكر الروايات أن ابن وهب كان في حلقته العلمية تقرأ عليه مسائل الليث، فمرت مسألة، فقال أحد طلاب العلم الغرباء، وكان قد سمعها من مالك قبل ذلك: أحسن الليث، كأنه كان يسمع مالكاً يجيب، فيجيب. قال ابن وهب - وهو تلميذهما معاً، ولازم كليهما، وهو أدرى بهما، ولا ينحاز لأيهما -: بل كان مالك يسمع الليث يجيب، فيجيب. والله الذى لا إله إلا هو، ما رأينا أحداً - قَطُّ - أفقه من الليث[١].

٢- مناظراته:

لا شك أن هذا العصر - خاصة ما يدخل منه في إطار العصر العباسى الأول - كان عصر تقدم وازدهار للعلوم نقلية وعقلية؛ نتيجة الانفتاح على الأمم وكثرة الترجمات عنها، ونمو العقلية العربية وتمرسها بالتصنيف، فنَضِجَت العلوم، واستوت على سوقها. ونتوقع نتيجة التلاقح الفكرى بين العلماء أن توجد مناقشات ومناظرات بينهم في مجال الفقه، الذى نحن بصدده، خاصة بين قُطْبَى الفقه في مصر، والمدينة: الليث، ومالك. لكن المصادر لم تذكر لنا شيئاً من تفاصيل هذه المناظرات الفقهية. وكل ما عثرت عليه رواية تذكر أن الليث قدم على حلقة ربيعة ويحيى بن سعيد الأنصارى، وإنهم لَيتزحزحون له زَحْزَحَةً[٢]. وما ذاك إلا عرفاناً بفضله، ورعاية لمهابته وجلالته وعلمه، لكن النص يتوقف فلا يَسْرُد لنا ما دار في هذه الجلسة العلمية. وتكتفى رواية أخرى بوصف أثر مناظرة الليث بن سعد في بعض علماء المدينة، وقد بدا ذلك على وجوهم وحالهم، لكنها لا تصف ما دار من نقاش علمى فقهى خلالها، فتقول: ناظر الليث ربيعة الرأى[٣] فقيه المدينة ومن معه من العلماء في الفقه، وقد فَرْفَر أهْلُ الحلقة[٤]. وهذا يدل على متانة الليث وقوة حجته، التى بدت في زياراته المتكررة للمدينة، خاصة بعد أن صار إماماً معروفاً.

٣- مكاتباته:

كانت الصلات بين فقهاء هذا العصر طيبة، وكان الهدف من مناقشاتهم ومحاوراتهم

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازى (ط.إحسان عباس) ص٧٨.

(٢) مخطوطة تهذيب الكمال، للمزى ٣/ ١١٥٣، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٦١، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٤.

(٣) هو ربيعة بن أبى عبد الرحمن الملقب بـ (ربيعة الرأى). أدرك جماعة من الصحابة، وأخذ عنه مالك. قال عنه مالك: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة. توفى ١٣٦هـ بمدينة الهاشمية بأرض الأنبار (وفيات الأعيان لابن خلكان، ط.إحسان) ٢/ ٢٨٨-٢٩٠.

(٤) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى ١٣/ ٥، ومخطوطة تهذيب الكمال ٣/ ١١٥٣، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٤٦. والمعنى: استبد بأهل الحلقة الطيش والصياح والخفة؛ لقوة عارضة الليث، وبراعة استدلاله. (برفع كلمة أهْلُ). وبنصب (أهْلَ) يكون المعنى: كسرهم، وغلبهم بحجته. (لسان العرب) لابن منظور مادة (ف.ر.ر) ٥/ ٣٣٧٧.

هو الوصول إلى الحق دون تعصب للهوى أو الذات. وكانت المحبة والنصح الخالص من أكبر الدوافع المؤدية إلى المراسلة فيما بينهم[١] .

ولا شك أن هناك رسائل عديدة تُبودِلَت بين فقيهي مصر والمدينة: الليث، ومالك. ومما احتفظت لنا به المصادر جزء من رسالة أرسلها مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، يمكن أن ألخص محتواها في نقاط محددة كالآتى[٢]:

أ- في البداية يرسل مالك إلى الليث بسلامه وتحياته، واعترافه له بمكانته وفضله وإمامته، وأن منزلته تستدعى التريث في الفتيا؛ حتى ينجو الليث وينجو أتباعه[٣] .

ب- تحدث مالك إلى الليث عن فضل السابقين من الصحابة والتابعين، وبَيّن له أهمية عمل أهل المدينة، وأن ما أجمعوا على فعله هو سنة وحجة؛ لأنهم أهل دار الهجرة، والوحى نزل فيهم، وكان الرسول ﷺ موجوداً بين أظهرهم، فهم أعلم الناس بسنته.

جـ- وفى نهاية الرسالة يجدد مالك لليث التأكيد على أن هدفه من الكتابة إليه ومراسلته، هو النصح الخالص له، باعتباره إمام وفقيه أهل مصر في زمنه.

ويبدو أن الليث بن سعد ﷺ رَدّ على هذه الرسالة، وحملها إلى مالك إبراهيم بن إسحاق قاضى مصر، كما حمل رَدّ مالك على الليث كذلك[٤] . وأحب - الآن - أن أعرض - بإيجاز - لأهم ردود الليث بن سعد على رسالة مالك[٥] التى بعث بها إليه، والتى عرضت موجزاً لها قبل قليل:

أ- يتفق الليث بن سعد مع مالك في أنه يجب أن يخشى على نفسه وأن يتريث في فتواه؛ لأنه إمام والناس له تبع. وأضاف الليث: أُعْلمك أنى أكره شَوَاذَّ الفُتْيَا[٦] .

(١) يتضح ذلك الحب والنصح من رسالة، كتبها مالك من المدينة إلى الليث بقول فيها: " بلغنى أنك تأكل الرُّقاق، وتلبس الرِّقاق، وتمشى في الأسواق ". فهو يخشى عليه كإمام أولاً ومسلم ثانياً، أن يركن لأكل مترف، وملبس ناعم، أو أن تلهيه الأسواق عن العلم وهو أمانة. فَرّد عليه الليث: " قُلْ: مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ " سورة الأعراف: جزء من الآية ٣٢. (النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢/ ٨٢). وكان الليث يبادل مالكاً كل الحب في الله، فيقول: إنى لأدعو لمالك في صلاتى. وذكر من حاجة الناس إليه في الفتيا. (ترتيب المدارك مج١ ج١/ ١٤٠).

(٢) ورد هذا الجزء المتبقى في (ترتيب المدارك) للقاضى عياض ١/ ٦٤. وفى آخرها: وكتب يوم الأحد لتسع مضين من صفر (دون تحديد العام).

(٣) أورد هذا الجزء من الرسالة كل من: المزى في (مخطوطة تهذيب الكمال) ٣/ ١١٥٤، وابن حجر في (تهذيب التهذيب) ٨/ ٤١٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٧، وتهذيب الكمال ١٥/ ٤٩٤.

(٥) ورد نص هذه الرسالة في (أعلام المُوَقِّعين عن رب العالمين) لابن القيم ٣/ ٨٣-٨٨، وقام بشرحها والتعليق عليها محمد أبو زهرة في كتابه عن (مالك): صـ١٠٠-١١١.

(٦) وهذا كلام صحيح أيده الإمام ابن حجر، إذ يذكر أنه تتبع كتب الخلاف الفقهى كثيراً، فلم يقف منها =

ب- يُسَلِّم الليث بن سعد بالحقائق التى ساقها مالك ممثلة في فضل السابقين من الصحابة والتابعين، لكنه - في الوقت ذاته - ينبه مالكاً ويذكره بما يعلمه جيداً، من أن الصحابة اختلفوا في أشياء كثيرة، وكذلك اختلف التابعون كابن المسيب وربيعة الرأى، والزهرى الذى كان يخالفهم كثيراً عند اللقاء به والكتابة إليه، بل كانوا يجدون له أكثر من رأى في المسألة الفقهية الواحدة(١) .

جـ- لا يُسَلِّم الليث لمالك بحُجِّيَّة إجماع أهل المدينة، ولا يجيز ما يفتى به مالك في المدينة من الجمع بين المغرب والعشاء ليلة المطر، وبَيّن له الليث أن مطر الشام أكثر من مطر المدينة، ومع ذلك لم يحدث أن جمع إمام - قط - بين الصلاتين، وفيهم: معاذ بن جبل، وعمرو بن العاص، وأبو عُبيدة، وخالد، وغيرهم من الصحابة الكبار. كما كان أبو ذَرّ في مصر، وابن مسعود، وحُذَيْفَة، وعليّ بالعراق، ولم يجمعوا بين المغرب والعشاء بسبب المطر قط.

د- يعترض الليث على أخذ قضاة المدينة بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق؛ لأن الصحابة لم يقضوا بذلك في الشام ومصر والعراق، لم يكتب به الخلفاء. وعمر بن عبد العزيز-وهو من هو في إحياء السنن- أشار إلى أن القضاء يكون بشهادة رجلين عَدْلَيْن، أو بشهادة رجل وامرأتين، كما ورد في آية الدَّيْن(٢).

هـ- يتفق الليث بن سعد مع ما يقضى به أهل المدينة من أن المرأة إذا تكلمت في مُؤَخَّر صَداقها دُفع إليها، وبَيّن الليث أن ذلك هو ما يراه فقهاء العراق والشام ومصر. لكن الليث يلفت نظر مالك إلى وضع العُرْف في الاعتبار عند الإفتاء ما لم يخالف نَصّاً؛ بدليل أنه رغم الاتفاق على دفع مؤخر الصداق للمرأة بمجرد مطالبتها به، إلا أن الصحابة ومن بعدهم تعارفوا على أن المرأة تسترد صداقها المؤخر في حالة الطلاق أو موت الزوج، وبخلاف هاتين الحالتين، فهى - عادة - لا تطلب مؤخر الصداق.

وهكذا، عرضت لجوانب ونماذج من فقه الليث بن سعد(٣) من خلال مقارنته بفقه

= على مسألة واحدة انفرد بها الليث عن الأئمة والصحابة والتابعين، إلا مسألة واحدة هى أنه كان يرى تحريم أكل الجراد الميت، كما نقل ذلك عن بعض المالكية (الرحمة الغيثية لابن حجر ص٩). وهذا يدل على سعة أفق الليث، ورحابة فكره، وغزارة علمه التى لا تدفعه إلى الشذوذ (الليث بن سعد للدكتور عبد الحليم محمود ص٧٣).

(١) ويذكر العَلاّمة ابن عبد البر - وهو في معرض كلامه على العلماء واختلاف الآراء- أن الليث ومالكاً والشافعى وغيرهم يرون أن الاختلاف إذا تدافع- ولم يمكن التوفيق بين الآراء المتعارضة - فهى خطأ وصواب، وعندئذ يجب البحث عن الدليل من مصادره الشرعية. وذكر أن الليث كان يأخذ بالأحوط عند الاختلاف. (جامع بيان العلم، لابن عبد البر ٢/ ٩٩-١٠٠).

(٢) ".. . وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى.. . "(سورة البقرة: من الآية ٢٨٢).

(٣) وقد عرض لمزيد من نماذج فقه الليث بن سعد كل من: ابن عبد البر في (الاستذكار) ١/ ٤٢٢- =

مالك بن أنس، كل ذلك عن طريق الرسالة التى رَدّ بها الليث على مالك ﷺ.

أىّ المذاهب الفقهية كان الليثُ يَتّبعُ؟

١- ذكر ابن النديم[١] : أن الليث كان من أصحاب الإمام مالك ﷺ، وعلى مذهبه، ثم اختار لنفسه، فكان يكاتب مالكاً ويسأله.

٢- وذكر صاحب (الجواهر المُضِيّة في تراجم الحنفية)[٢]، نقلاً عن ابن خَلّكان[٣]: أنه رأى في بعض المجاميع أن الليث بن سعد كان حنفى المذهب. وكذا ورد في كتاب الدَّمِيرىّ[٤] في ترجمة الليث.

٣- وورد في (جامع المسانيد) للخُوَارَزْمِىّ: أن الليث بن سعد روى عن أبى حنيفة في هذه المسانيد[٥] .

فما هى حقيقة صلة الليث بن سعد بكل من: أبى حنيفة (٨٠-١٥٠هـ)، ومالك (٩٣-١٧٩هـ)؟

الشئ المؤكد أن الليث بن سعد (٩٣-١٧٥هـ) كان معاصراً لكلا الفقيهين العظيمين. أما صلته بأبى حنيفة، فمن المؤكد أنه لم يلقه بالعراق؛ لأن الليث رحل إلى العراق سنة ١٦١هـ، أى: بعد وفاة أبى حنيفة بأحد عشر عاماً. ومن المؤكد - كذلك - أنهما لم يلتقيا في مصر؛ لأن أبا حنيفة لم يأت إلى مصر. فلعلهما التقيا بالمدينة، ولا بأس أن يفيد الليث من أبى حنيفة، أو يروى عنه بعض الأحاديث، لكن ذلك لا يرقى إلى الدرجة التى يمكن أن نقول معها: إن الليث غدا حنفى المذهب. فالصلة بينهما عابرة، واللقاء بينهما على عجل، ولم يُعْرَف لمذهب أبى حنيفة أثر يُذْكَر في مصر في تلك الفترة. ومما يبرهن على صحة ما ذهبتُ إليه عن حدود العلاقة بين الليث وأبى حنيفة نَصٌّ يرويه القاضى عياض[٦] يقول فيه: " قال الليث بن سعد: لَقِيتُ مالكاً في المدينة، فقلت له: إنى أراك تمسح العرق عن جبينك. قال: عَرِقْتُ مع أبى حنيفة. إنه لفقيه يا مصرى! ثم لقيت أبا حنيفة، وقلت له: ما أحسنَ قَبُولَ هذا الرجل منك! فقال أبو حنيفة: " ما رأيتُ أسرع منه بجواب صادق، وزُهْد تام "[٧]. وهكذا، دل هذا

= ٤٢٣ بالفهارس، والدكتور عبد الله شحاته في (الإمام المصرى الليث بن سعد) صـ٧٤-٨٣، والدكتور عبد الحليم محمود في (الليث بن سعد) صـ٧٩-٩٣. وانظر رأيه في كيفية التصرف مع أهل قبرص الذين أحدثوا في عهدهم حدثاً (راجع قسم الملاحق في نهاية الكتاب).

(١) الفهرست (ط.طهران) صـ٢٥٢.

(٢) القرشى: ٢/ ٧٢٠ (رقم ١١٣١).

(٣) وفيات الأعيان (ط.إحسان): ٤/ ١٢٧.

(٤) حياة الحيوان الكبرى: ٢/ ٣١٠.

(٥) ٢/ ٥٤٩.

(٦) ترتيب المدارك مج١ ج١/ ١٣١.

(٧) هكذا وردت في (ترتيب المدارك المنشور، وأوردها الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه: (مالك: حياته =

النص - علاوة على ما كان بين الأئمة من روح ودى، وتفاهم، واحترام متبادل - على طبيعة العلاقة بين الليث وأبى حنيفة.

أما علاقة الليث بمالك، فهى - كما رأينا - علاقة النِّدِّ بالنِّدِّ، علاقة مذاكرة ومناصحة ومناظرة، ولم يكن الليث خلالها تابعاً لمالك، فلكل طريقته، وأسس مذهبه، ومنهجه الفقهى المستقل.

تصانيف الليث الفقهية، وصلة ذلك بضياع مذهبه:

يذكر الإمام ابن حجر(١) أن الليث بن سعد لم يصنف شيئاً من الكتب، وأن من تتلمذ عليه كابن وهب، وابن القاسم، وأشهَب، وأبى صالح، وابن بُكَيْر، وغيرهم، كانوا يأخذون عنه شفاهاً؛ لقوة حفظه، ومتانة ذاكرته، وأنهم لم يدونوا فقهه كما دونوا فقه مالك، وإن كان بعضهم جمع بعض مسائل الليث الفقهية(٢).

ويلتقط الأستاذ أحمد أمين ذلك الخيط من ابن حجر، ويضيف: لو أُتيح لليث

= وعصره، آراؤه وفقهه) صـ١١ هكذا: (ونقد تام). وأرجح ما نقله أبو زهرة؛ لأنه نقل النص عن مخطوطة (ترتيب المدارك) قبل نشره، والشيخ مدقق في نقله، ولفظته التى أوردها أنسب للسياق، فمالك نَقَّادة للحديث، كما هو معلوم. أما (ترتيب المدارك) المنشور، فهو كتاب حُقِّق، ولم يُحَقَّق؛ لامتلائه بالأغلاط الكثيرة، التى تجعل تحقيق الكتاب ثانية أمراً لا مفر منه، وليس هذا موضع تفصيل ذلك.

(١) الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية صـ٩.

(٢) ومذهب الليث بن سعد متناثر في كتب الفقه والحديث والتاريخ المختلفة، وقد قام الدكتور محمود سعد ببحث أصول مذهب الليث بن سعد عن طريق ما تجمع لديه من مسائل فقهية منسوبة إليه موجودة في أمهات الكتب الفقهية والتفسيرية، وغيرها. وحاول المقارنة بينها وبين المذاهب الفقهية الأخرى، وذلك في كتاب (فقه الإمام الليث بن سعد في ضوء الفقه المقارن) الصادر عن مكتبة (منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٨م). وهو جهد طيب، سد ثغرات في هذا المجال، ونأمل أن تتلوه جهود أخرى أشمل وأعمق. ومن مسائل الفقه التى وجدتها له مسألة تقول: لو سافر نصرانى مع مسلمين، وكتم عنهم نصرانيته؛ خوفاً على نفسه وماله، وحضرت الصلاة، فتوضأ ثم قدموه فصلى بهم صلاة صحيحة، قال الأوزاعى فقيه الشام: لا قتل عليه؛ لأنه استخدم التقية خوفاً على نفسه، ويؤمرون هم بإعادة الصلاة. ولم ير مالك قتله كذلك، وأمر بإعادتهم الصلاة.
أما سعيد بن عبد العزيز، فيرى - ومعه الليث - أن هذا النصرانى مسلم بفعله هذا (صلاته)، ويستتاب وإلا قُتل ردّة. وأما هم فلا إعادة للصلاة عليهم. (كتاب تعظيم قَدْر الصلاة)، للمَرْوَزِىّ ج٢ صـ٩٦٧) رقم ١٠٤٧).
وثمة مسألة أخرى حدث بها زرارة بن عبد الله (ت ٢٣٨هـ)، قال: كنت جالساً عند مالك، فسأله رجل: إن أباه بالسودان وأمه معه. أبوه يأمره بالنهوض إليه، وأمه تنهاه عن الخروج إليه، فما تأمرنى ؟! قال مالك: أطِعْ أباك، ولا تَعْصِ أمك. فقال الرجل: يا أبا عبد الله، فما ترى ؟! فانتهره، وقال: أتريد منى أن آمرك أن تعصيهما جميعاً ؟! ثم سأل الليث، فقال: أطع أمك، فقد جاء البر بها ثلاثاً. وقال حَمَّاد بن زيد البصرى مثل قول الليث. (رياض النفوس، ط.دار الغرب الإسلامى، ج١ صـ٢٨٢، ومعالم الإيمان، للدَّبَّاغ: ٢/ ٦٦).

تلاميذ كأبى يوسف، ومحمد بالنسبة لأبى حنيفة، وكالبُوَيْطِىّ، والمُزَنِىّ، والربيع المُرَادِىّ بالنسبة للشافعى، ما ضاع مذهب الليث(١) .

والحق أن مناقشتى لهذه القضية تنقسم إلى قسمين:

١- هل - حقّاً - لم تكن لليث بن سعد تصانيف في الفقه؟ والجواب: أنه على نَقِيض ما قال ابن حجر، هناك نصوص عديدة تفيد أن لليث تصانيف، وبعضها يحدد أنها كانت في الفقه، منها:

أ- قول الذهبى عن الليث: إمام حجة: كثير التصانيف(٢) .

ب- قول الشافعى ﷺ: " الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به "(٣) . وفى رواية: " إلا أنه ضَيّعه أصحابه "(٤) . وفى رواية ثالثة: " الليث أَتْبَعُ للأَثَر من مالك "(٥) . ومقتضى هذه النصوص يفيد أن الليث ترك مصنفات فقهية تُعَبِّر عن مذهبه الخاص به، وأن الشافعى ﷺ لا بد قد طالعها، ودرسها، وقارنها بموطأ مالك مثلاً، ثم أصدر حكمه بأن الليث أفقه، وأنه يعتمد في مذهبه على النصوص أكثر من تعويل مالك عليها؛ لأن مالكاً يعتمد المصالح المرسلة ،ويحتج بعمل أهل المدينة وغير ذلك، في الوقت الذى لم يقبل الليث فيه الاحتجاج بعمل أهل المدينة. ومعنى تضييع أصحاب الليث له: أنهم لم يقوموا بواجبهم في نشر مذهبه، وتدوينه، وتدريسه كاملاً.

ولا يطعن فيما تقدم من دلائلَ عقليةٍ قولٌ أُثِرَ عن الشافعى مفاده: أنه ما اشتد عليه فَوْت أحد، مثل: فوت الليث، وابن أبى ذئب(٦) ؛ لأن هذا القول لا يعنى عدم وجود مصنفات فقهية لليث، إنما يعنى أن الشافعى كان حريصاً على التلقى المباشر، والسماع الحقيقى من هذين العالمَيْن ،لكنه لم يدركهما، واكتفى بمآثرهما العلمية. وعدم إدراك الشافعى لهما متباين، بمعنى أنه لم يدرك ابن أبى ذئب؛ لأنه توفى (١٥٩هـ) والشافعى ابن ٩ سنين. أما عدم إدراك الشافعى لليث - رغم تعاصرهما - فيعنى: انهماك الشافعى في أخذ الموطأ على مالك، وعدم إدراك الشافعى لمقدار علم وفقه وإمامة الليث، وإلا لرحل إليه في مصر، وأخذ عنه قبل وفاته(٧) .

جـ- قول ابن معين فيما يحدث عن سعيد بن أبى مريم: إن الليث جمع أحاديث في

(١) ضحى الإسلام: ٢/ ٨٩.
(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٢٦.
(٣) مخطوطة تهذيب الكمال، للمزى ٣/ ١١٥٤، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٦، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٥.
(٤) طبقات المحدثين بأصبهان، لأبى الشيخ ١/ ٤٠٦.
(٥) مخطوطة تهذيب الكمال، للمزى ٣/ ١١٥٤، وتذكرة الحفاظ ١/ ٢٢٥.
(٦) الإرشاد للخليلى ١/ ٢٠٢، وتذكرة الحفاظ للذهبى ١/ ٢٢٤.
(٧) توالى التأسيس، لابن حجر صـ٥١، والرحمة الغيثية لابن حجر صـ٨.

السهو[١] . وهذا يدل على أن له مُدَوَّناً في ذلك الموضوع، ويبدو أنه كان يحدثهم من خلاله عن فقهيات وأحكام سجود السهو.

د- في رواية يذكرها أبو نُعَيم[٢]: أن الليث تكلم في مسألة من مسائل الفقه، فقال له رجل: يا أبا الحارث، في كتابك غير هذا. قال: في كتابى، أو في كُتُبِنا، ما إذا مَرَّ بنا هَذَّبْنَاه بعقولنا وألسنتنا. وهذا يفيد أن له كتباً في الفقه، وأنه يعكف على تنقيحها وتهذيبها من خلال ما يَعِنّ له أثناء إلقائه في مجالس العلم.

هـ- صرح ابن النديم أن لليث كتابًا سمه: (مسائل في الفقه)[٣] .

وهكذا، ثبت أن لليث الإمام الحافظ المجتهد[٤] الفقيه مصنفات في الفقه، بقيت منها نُتَف في تضاعيف الكتب، ورسائل صغيرة أخرى[٥] . ولا شك أن معظم تراثه الفقهى قد فُقد.

أسباب ضياع مذهبه الفقهى (*):

أ- طغيان المذهب المالكى على مذهب الليث في مصر، واحتضان مصر للمذهب المالكى على حساب مذهب الليث، فزامِرُ الحَىّ لا يُطْرِب كما يقولون. وكان الليث أفقه، " ولكن كانت الحُظْوَة لمالك "[٦] .

ب- ما ألمعتُ إليه - سلفاً - من انشغال تلاميذه بمذهب مالك، وعدم نشرهم مذهب الليث.

جـ- مجئ الشافعى - بعد ذلك - إلى مدرسة مصر سنة ١٩٩هـ، وابتداعه مذهباً جديداً، جمع فيه بين مذهبى: الليث، ومالك في مصر، فانتشر مذهبه، وغَطَّى على ما سواه.

---

(١) معرفة الرجال لابن معين ١/ ١٥٠.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣١٩.

(٣) الفهرست (ط.طهران) : صـ٢٥٢ (المقالة السادسة من الفن الأول). ونقل ذلك عن ابن النديم كل من: الزركلى في (الأعلام)، ولم يصرح باسم الكتاب ٥/ ٢٤٨، وكحالة في (معجم المؤلفين) ٨/ ١٦٢، وصرح باسم الكتاب.

(٤) جعله ابن عبد البر مجتهداً بين الأئمة الفقهاء (جامع بيان العلم) ٢/ ٧٧.

(٥) منها ما ذكره سزكين في (تاريخ التراث العربى) ٢/ ٢٢٦.

(*) ذكر الدكتور عبد الله شحاتة في كتاب (الإمام المصرى الليث بن سعد) صـ٦٨-٧٢، أسباباً ثمانية لضياع مذهب الليث، منها ما أذكره هنا، ومنها أسباب أخرى مستبعدة وغير صحيحة، كأن يرجع ذلك إلى أنه كان زاهداً ورعاً، غير ذى شخصية قوية مؤثرة. وهذا غير صحيح، فلم أر عالماً له سطوته وتأثيره، كما سنرى بعد.

(٦) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم ٧/ ١٨٠.

ز- عبد الرحمن بن القاسم (ت ١٩١هـ):

تعريف عام به: هو أبو عبد الله، عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادة العُتَقِيّ(١) بالولاء، المصرى(٢). فقيه مالكى جمع بين العلم والزهد والفقه. رأس المدرسة المالكية في مصر فترة من الزمان، أعقبه في رئاستها الفقيه المالكى: أشهب بن عبد العزيز. ولد سنة ١٢٨هـ، وتوفى بمصر ١٩١هـ.

جهاده في طلب العلم:

١) في مصر:

أ- قلنا - فيما مضى -: إن ابن القاسم كان من تلاميذ الليث بن سعد صاحب المذهب الفقهى المعروف.

ب- تتلمذ ابن القاسم في مصر على يدى الرجلين، اللذيْن يُعَدَّان مِنْ أقدم مَنْ هاجر إلى المدينة، حيث تشربا مذهب مالك، وأدخلاه إلى مصر، وهذان الرجلان هما: عثمان بن الحكم الجُذامى(٣)، وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد الجُمَحِيّ(٤).

جـ- كما تلقى ابن القاسم فقهه قبل الرحيل إلى مالك على يد كل من: (طُلَيْب بن

---

(١) نسبة إلى العُتَقَاء، وهم من قبائل شتى من حَجْر حِمْيَر، ومن سعد العشيرة، ومن كنانة، ومُضَر، وغيرها. وعامتهم بمصر. وكان عبد الرحمن مولى زُبَيْد بن الحارث العُتَقِي. وزُبيد من حجر حمير. وهذه القبائل كانت تقطع الطريق على من أراد الرسول ﷺ، فأسرهم النبى ﷺ، ثم أعتقهم، فسُمُّوا (العُتَقَاء). (وفيات الأعيان لابن خلكان - ط.إحسان - ٣/ ١٢٩).

(٢) ورد في (تقريب التهذيب) لابن حجر ١/ ٤٩٥ (ترجمة رقم ١٠٧٩): تلقيب ابن القاسم بـ (البصرى)، وهو تحريف واضح عن (المصرى).

(٣) روى عن: موسى بن عقبة، وابن جريج، وسواهم. قال عنه ابن أبى مريم: لم تنبت مصر أنبل منه. فقيه له مرويات عن مالك مشهورة، وله ١٦ حديثاً مرويًا عنه. ذكره ابن حبان في (الثقات). وقد طلب الخليفة المنصور إلى الليث بن سعد أن يلى له مصر، فاستعفى الليث، ودَلَّ المنصورَ على عثمان بن الحكم؛ كى يلى له مصر، فهو رجل صلاح، وله عشيرة. فلما بلغ ذلك عثمان، غضب من الليث، وأقسم ألا يكلمه، فقد كان لا يهوى المناصب. وبالفعل لم يتول المنصب. توفى ١٦٣هـ (الثقات لابن حبان ٨/ ٤٥٢، وترتيب المدارك للقاضى عياض مج١ ج١/ ٣٠٩-٣١٠، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٦، والكاشف (ط.دار الكتب الحديثة - مج١ ج٢/ ٢٤٨، والديباج المذهب لابن فرحون ٢/ ٨٣).

(٤) كان يجمع بين الزهد والعلم، وهو ممن تفقه عليهم ابن القاسم قبل رحيله إلى مالك. كما روى عنه الليث وابن وهب، وكان مالك يعجب به. جعله المقريزى أول من قدم بعلم مالك إلى مصر، ثم نشر المذهب بعده ابن القاسم. وكان أبوه خالد فقيهاً قاضياً موثوقاً به. ويعد عبد الرحيم أقدم من أتى إلى المصريين بفقه البيوع، وعليه تلقى ابن القاسم. توفى ١٦٣هـ بالإسكندرية (طبقات الفقهاء للشيرازى، ط.إحسان عباس ص١٤٩، وترتيب المدارك للقاضى عياض مج١ ج١/ ٣١٠-٣١١، والخطط للمقريزى ٢/ ٣٣٤).

كامل اللخمى)[١]، و(سعد بن عبد الله المعافرى)[٢].

٢) **في خارج مصر:**

بعد أن أحسن ابن القاسم استيعاب علومه في مصر، وأحس أنه تَكَوّن علماً وفقهاً، رحل إلى الحجاز؛ ليضم إلى زاده الفقهى زاداً جديداً، فأعد العدة لمقام طويل في المدينة، يستقى خلاله علم مالك إمام وفقيه دار الهجرة؛ كى ينشره بعد ذلك في مصر. وتقول الروايات: إنه صحب مالكاً عشرين سنة، وإن أباه كان يعمل في الديوان، فورث منه مالاً كثيراً، أنفقه كله في العلم[٣].

إنجازه العلمى (فتاواه - مصنفاته):

١- كانت لابن القاسم شخصية متميزة أَهَّلَتْه لإنجاز علمى فقهى عظيم، فقد كان زهده وورعه، وعدم اختلاطه بالحكام، ومجانبته إياهم[٤]، سبباً في تفرغه الكامل وانقطاعه الدائم للعلم، فقد كان لا يتطلع إلى رياسة مزعومة ولا إلى ثراء عريض، حتى إنه من انكبابه على العلم لم يعرفه بعض قضاة مصر، لما تقدم للشهادة في إحدى القضايا[٥]. وربما كان ذلك قبل اشتهاره وتزعمه المدرسة الفقهية المالكية في مصر.

٢- يعد ابن القاسم أول من أدخل موطأ مالك إلى مصر[٦]. وتعد روايته عن مالك صحيحة، قليلة الخطأ، فيها حسن الضبط والإتقان[٧].

---

(١) من كبار أصحاب مالك وجلسائه، وهو أندلسى الأصل، سكن الإسكندرية. وتفقه به ابن القاسم. توفى ١٧٣هـ (ترتيب المدارك للقاضى عياض مج١ ج١/ ٣١٤، والديباج المذهب لابن فرحون ١/ ٤٠٥)

(٢) عالم ثقة مأمون، يعتز الليث بعلمه وحياته. كان ابن القاسم، وابن وهب وصيين على ابنته من بعده، ورفضا تزويجها من رجل موسر، يعيبه أهل الدين. ومن أقواله عن مالك: ليس على الفقيه ضيافة، ولا هدية، ولا شهادة بين اثنين. توفى بالإسكندرية ١٧٣هـ. (ترتيب المدارك مج١ ج١/ ٣١١-٣١٢).

(٣) تختلف الروايات حول مدى ملازمة ابن القاسم لمالك، والفترة التى قضاها بالمدينة: فيذكر المزى أنه أنفق ماله كله في العلم، وأنه رحل إلى مالك ١٢ مرة، في كل رحلة أنفق ألف دينار (مخطوطة تهذيب الكمال ٢/ ٨١١). بينما يذكر القاضى عياض أنه أناخ بباب مالك ١٧ سنة، انقطع إليه خلالها، وترك امرأته في مصر حاملاً، وكانت ابنة عمه. وقد أتاه ابنه في المدينة، وكان يسمى عبد الله، وهو شاب كبير. ويبدو أنه توفى شاباً؛ فلا نعرف عنه شيئاً. (ترتيب المدارك ٢/ ٤٣٨-٤٣٩). والمهم أنه خرج إلى مالك ولازمه طويلاً، وأفاد منه.

(٤) المصدر السابق ٢/ ٤٤٠.

(٥) وذلك يتمشى - تماماً - مع قوله: ليس في قرب الولاة ولا الدُّنُوّ منهم خير. وكان لا يقبل جوائزهم، وكان يأتيهم أولاً، ثم تركهم (المصدر السابق ٢/ ٤٤٣، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٢٢١، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٣٠٣).

(٦) الإرشاد للخليلى ١/ ٢٥٤ (رقم ٩٦)، والكاشف للذهبى (ط.دار الكتب الحديثة ج٢ مج١/ ١٨١.

(٧) الانتقاء لابن عبد البر ص٥٠.

٣- من فَتَاوَى ابن القاسم، التى نقلها عن أستاذه مالك، ونقلها عن ابن القاسم بدوره القاضى المشهور الحارث بن مسكين (ت ٢٤٠هـ) ما ورد من سؤال المأمون للحارث بن مسكين عن حكم خروجه بجيوشه؛ لتوطيد نفوذه في البلدان الإسلامية التى يحكمها. فأخبره الحارث أن الرشيد سأل مالكاً عن شئ من ذلك، فقال له: إن كان خروجهم (خروج أهل البلاد على الخليفة) عن ظلم من السلطان فلا يحل للسلطان قتالهم، وإن كانوا إنما شَقُّوا عصا الطاعة، فقتالهم حلال. ولم يعجب هذا الجواب المأمون، وسَبّ الحارث وسَبّ مالكاً سبّاً قبيحاً، وطلب إلى الحارث الرحيل عن مصر[١].

٤- عاد ابن القاسم من المدينة بنحو ٣٠٠ مجلد بها مسائل الفقه عند مالك، وقد سأله عنها أسد بن الفُرات، ثم أخذها سَحْنُون - بعد ذلك - منقحة مراجعة. ولا شك أن هذه المسائل التى سأل فيها أسد ثم سحنون ابن القاسم كانت أساس الموسوعة الفقهية الضخمة التى تعرف " بالمُدَوَّنَة ". وكان قد سئل فيها محمد ابن الحسن الشيبانى، وابن وهب من بعده، فلم يشف غلة السائل (أسد بن الفرات) إلا عبد الرحمن بن القاسم الفقيه المصرى المالكى[٢].

وأخيراً ،فقد ذكر بروكلمان أن الآثار الفقهية الموجودة لابن القاسم هى: مسائل مختلفة وجهها إلى مالك (مخطوطة بالمتحف البريطانى)، كما تُنسب إليه رسالة في فقه المالكية بباريس[٣]. أما سزكين، فأضاف إلى ما أورده بروكلمان - المدونة التى سبق ذكرها، وكذلك ذكر أنه قد وصلت إلينا روايته للموطأ عن مالك في (المُلَخَّص) لعلى بن محمد بن خلف القابِسىّ المتوفى ٤٠٣هـ[٤].

مكانته بين الفقهاء:

أ- قال مالك: ابن وهب عالم، وابن القاسم فقيه[٥]. وهذا يعنى: أن ابن وهب - الذى سبق ابن القاسم في صحبة مالك بضع عشرة سنة - كان موسوعيّاً في الحديث والتفسير أكثر من الفقه. أما ابن القاسم، فشهرته في الفقه أكثر؛ ومن هنا وصف به.

(١) ملحق الولاة والقضاة، للكندى، صـ٥٠٣. وحول مزيد من فتاوى ابن القاسم الفقهية مقارنة بغيره من الفقهاء تراجع رسالة دكتوراه (مدارس مصر الفقهية في القرن الثالث الهجرى) لمحمد نبيل غنايم صـ١٩١-١٩٦، ٢٢٤-٢٢٩.

(٢) الضعفاء لأبى زُرْعَة (قسم الرواة الذين عَدَّلَهم) ٣/ ٩٠١، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٥/ ٢٧٩ (رقم ١٣٢٥)، ومخطوطة تهذيب الكمال للمزى ٢/ ٨١١، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٦/ ٢٢٨، وكتاب (مالك: حياته وعصره) لمحمد أبى زهرة ٣٨٣.

(٣) تاريخ الأدب العربى ٣/ ٢٨٠: وجعله توفى بالقاهرة ١٩١هـ، ولم تكن القاهرة أنشئت بعد.

(٤) تاريخ التراث العربى ج٣ مج١ (الفقه) صـ١٤٣-١٤٤ (ط.جامعة محمد بن سعود الإسلامية).

(٥) ترتيب المدارك للقاضى عياض ٢/ ٤٣٤، وسير أعلام النبلاء ٩/ ١٢١.

والعلم وإن اتسع للفقه إلا أنه لا يدل على التخصص فيه، والإنسان لا يكون فقيهاً إلا بالعلم[١].

ب- وثقة النسائى، وجعله أحد الأئمة الفقهاء.وقال عنه ابن معين: ثقة ثقة[٢].

جـ- وجعله ابن عبد البر[٣] فقيهاً غلب عليه الرأى، وأحد المجتهدين في مصر. وكذا قال السيوطى عنه[٤].

والخلاصة:

أن ابن القاسم أحد الأئمة الفقهاء والمجتهدين المطلقين المنتسبين للمذهب المالكى، قريبى الشبه بالأئمة الأربعة، وهذا يعنى: أنه ممن طوروا المذهب المالكى في مصر، ومالوا إلى الاجتهاد، وإظهار الرأى. وقد يخالفون مالكاً أحياناً، إلا إنهم لا يخرجون على القواعد العامة وأصول الاستنباط لديه[٥]. لقد كانت المنافسة بين ابن القاسم وأشهب (ت ٢٠٤هـ) على أشدها، وكان ابن القاسم أفقه في البيوع وغيرها؛ ولذا نال رئاسة المذهب المالكى في مصر، وبعده وليه أشهب[٦].

ح- عبد الله بن وهب (١٢٥-١٩٧هـ):

تعريف به وبجهاده العلمى في مصر وخارجها:

١- تلقى عبد الله بن وهب فقه المالكية على يد عثمان بن الحكم الجذامى، وسعد بن عبد الله المعافرى[٧] في مصر، كما تتلمذ على يد الليث بن سعد، وعمرو بن الحارث، وزَيْن بن شُعيب بن كُرَيْب المعافرى[٨]. كل ذلك قبل رحيله إلى مالك بالمدينة.

٢- رحل ابن وهب إلى مالك بالمدينة، ولقيه - لأول مرة - في موسم الحج سنة

---

(١) رسالة دكتوراه (مدارس مصر الفقهية في القرن الثالث الهجرى) لمحمد نبيل غنايم صـ٧٤. ويؤيد ذلك المفهوم الدقيق الصحيح ابن حبان في كتابه: (الثقات) ٨/ ٣٧٤، إذ يقول: خَيِّر فاضل، تفقه على مالك، وفَرّع على أصوله، وذَبّ عنها، ونصر من انتحلها (فهو فقيه أكثر منه محدثاً).

(٢) تهذيب التهذيب ٦/ ٢٢٨.

(٣) جامع بيان العلم ٢/ ٧٧، والانتقاء صـ٥٠.

(٤) حسن المحاضرة ١/ ٣٠٣ (رقم ٣٧).

(٥) رسالة دكتوراه (مدارس مصر الفقهية في القرن الثالث الهجرى) لمحمد نبيل غنايم صـ٦٠، ٣٨٠.

(٦) طبقات الفقهاء (ط.إحسان عباس) للشيرازى صـ١٥٠، ووفيات الأعيان لابن خلكان (ط.إحسان) ١/ ٢٣٨، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٥٠١.

(٧) ورد في (ترتيب المدارك) للقاضى عياض: مج١ ج١/ ٣١١: أن سعداً هذا أعان عبد الله بن وهب على وضع تآليفه.

(٨) إسكندرانى مصرى. روى عن مالك وغيره. روى عنه عبد الله بن وهب، ويحيى ابن عبد الله بن بكير. كان من جلة أصحاب مالك، وكان مالك يسأل عنه: كيف الشيخ الصالح ؟. فهو فقيه عابد يُعَبِّر الرؤى. توفى بالإسكندرية ١٨٠هـ. (ترتيب المدارك مج١ ج١/ ٣١٢-٣١٣).

١٤٤هـ، ولم يسمع منه إلا مسألة فقهية واحدة في الجمع بين المغرب والعشاء في المطر، ولو كان يسيراً[١]. ويبدو أن ابن وهب تلقى - آنذاك - في مكة على ابن أنعم، وسفيان الثورى. ومما يشهد بذلك ما يرويه ابن وهب نفسه قال: خرجت إلى مكة أول حَجَّة حججتها وأنا صَرُورَة (لم أتزوج بعدُ)، وبها عبد الرحمن بن زيد بن أَنْعُم المعافرى، فآتيه وأسمع منه. فاستأذن عليه رجل، فإذا به يستقبله بالبشر والسلام، وأسند إليه حديثه، وجرت مواعظ ومذاكرة بينهما. فلما خرج، سأل ابن وهب الطلبة الحاضرين: من هذا الذى فعل به عبد الرحمن هذا الفعل كله ؟! قالوا: سفيان الثورى. فجمع ابن وهب كتبه، وخرج مبادراً في إثره[٢].

ويبدو أن ابن وهب عاد بعد ذلك إلى مصر، وأقام بها فترة قبل أن يستقر بالمدينة بدءاً من سنة ١٤٨هـ إلى وفاة مالك (١٧٩هـ)[٣]، في رحلة علمية طيبة، تشبع خلالها بفقه مالك ﷺ. ويوجز لنا ابن وهب فضل الليث ومالك عليه في الفقه، فيقول: " لولا أني لَقِيتُ مالكاً والليث، لضَلَلْتُ "[٤].وقد قال ابن وهب هذه المقالة في معرض الكلام على اختلاف الحديث ورواياته، فالأحاديث التى جمعها ابن وهب كثيرة جدّاً؛ وبينها-أحياناً-تعارض ظاهرى، فكان الليث ومالك يميزان له الأحاديث، ويوجهانه إلى ما يأخذ وما يَدَعُ.

٣- بلغ ابن وهب درجة عظيمة من الوعى العلمى، فلم يكن يقتصر على مجرد ملازمة الإمام مالك وحده، وإنما كان يستقى علومه الفقهية من مصادر أخرى بالمدينة. فتفقه على أيدى محمد بن إبراهيم بن دينار الجهينى الذى صحب مالكاً وغيره، وكان مفتى أهل المدينة مع مالك، وكان عالماً فاضلاً ثقة (توفى ١٨٢هـ)[٥]. وكذلك تَفَقَّه ابن وهب على عبد العزيز بن أبى حازم الفقيه[٦].

٤- وقد بلغ ابن وهب من الفقه والعلم مكانة عظمى، بحيث قيل عنه في رواية: إنه أثبت الناس في مالك، وإنه أفقه من ابن القاسم، لكنه لم يكن جريئاً في الفتوى

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٤٢٢.

(٢) رياض النفوس (ط.دار الغرب الإسلامى): ج١ ص١٥٢-١٥٣.

(٣) وفيات الأعيان (ط.إحسان) لابن خلكان ٣/ ٣٦. والحق أن ابن وهب لم يكن منقطعاً دائماً لمجلس علم مالك. ولعله كان يعود إلى مصر يقضى بها بعض الوقت، وسرعان ما يعود إلى أستاذه مالك بالمدينة يتلقى عليه فقهه.

(٤) تقدمة المعرفة، لابن أبى حاتم ٢٣، والانتقاء لابن عبد البر ٢٧-٢٨، ومخطوطة (تهذيب الكمال) ٣/ ١١٥٤، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٥.

(٥) الديباج المذهب، لابن فرحون ٢/ ١٥٥.

(٦) من جملة أصحاب مالك، صدوق ثقة في العلم. كان الناس يسألونه زمن مالك، وصار إماماً لهم بعده. قال مالك فيه: إنه لفقيه. مات بالمدينة بالروضة النبوية في سجدة الجمعة. ولد ١٠٧هـ، وتوفى ١٨٤هـ (المصدر السابق: ٢/ ٢٣).

مثله؛ لشدة ورعه[١] . فلا غرو - بعد ذلك - أن يكتب إليه مالك: إلى أبى محمد، عبد الله بن وهب فقيه مصر، أو يكتب: إلى أبى محمد المفتى. ولم يكن يفعل هذا مع غيره[٢] . ولا غرو - كذلك - أن يجعله ابن عبد البر من الأئمة المجتهدين في الأمصار الإسلامية[٣].

وقد حَظِىَ ابن وهب بمحبة علماء عصره وأعظم منافسيه، ومنهم: عبد الرحمن بن القاسم، الذى أقر بمكانة ابن وهب، فكان يقول: حدثنى أوثق أصحابه (أى: أصحاب مالك)، ويعنى به: ابن وهب[٤] . وهذا صحيح؛ لأن ابن وهب لازم مالكاً قبل ابن القاسم؛ ولذا لما قيل لابن وهب: إن ابن القاسم يخالفك في بعض مسائل الفقه، رد قائلاً: إن ابن القاسم أتى مالكاً وقد ضعف. أما أنا فقد جئته وهو شاب قوى، يأخذ الكتاب منى، فيقرأ منه، ويمسح لى الخطأ بخِرْقة مُبَلَّلَة بالماء، ويكتب لى الصواب[٥].

فتاوى ابن وهب، وتصانيفه الفقهية:

١- سئل مالك عن تخليل الأصابع في الوضوء، فلم ير ذلك. فرد عليه ابن وهب: يا أبا عبد الله، إن عندنا لذلك سنَّة[٦] : أنبأ الليث، وعمرو بن الحارث، عن أبى عُشَّانةَ، عن عقبة بن عامر، أن النبى ﷺ قال: " إذا توضأتَ، فخَلِّلْ أصابع رِجْلَيْك". يقول ابن وهب: فرأيت مالكاً يُسأل بعدُ عن ذلك، فيأمر بتخليل الأصابع[٧] .

---

(١) ترتيب المدارك للقاضى عياض ٢/ ٤٢٤.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازى (ط.إحسان عباس) صـ١٥٠، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٢٢٧، والديباج المذهب لابن فرحون ١/ ٤١٤.

(٣) جامع بيان العلم ٢/ ٧٧.

(٤) ترتيب المدارك ٢/ ٤٢٤.

(٥) المصدر السابق: ٢/ ٤٢٧. وليس هذا بمستغرب؛ فلابن وهب مع مالك علاقات خاصة، فقد ورد في (المصدر نفسه) أن الهدايا كانت تُهْدَى لمالك بالنهار، فيُهديها إلى ابن وهب بالليل. وتخلف ابن وهب عن مالك ليالى؛ لرَمَد أصابه. فلما علم مالك، قال لجاريته: هاتى من ذلك الكحل لصديقى المصرى ابن وهب.

(٦) الإرشاد للخليلى ١/ ٣٩٩-٤٠٠، والسنن الكبرى للبيهقى ١/ ٧٦-٧٧. وفيهما أن ابن وهب لما سمع إجابة مالك عن سؤال الرجل بأنه ليس على الناس تخليل الأصابع أثناء الوضوء، انتظر حتى خَفَّ الناس، ثم حدث مالكاً بما لديه من حديث. وعَقّب مالك قائلاً: إن هذا حديث حسن، وما سمعتُ به - قط - إلا الساعة. ثم كان إذا سُئل بعدُ عن ذلك، يأمر به (أى: بتخليل الأصابع).

(٧) أخرج الحديث أحمد في (مسنده) ٤/ ٢٢٩، وأبو داود في (سننه)، كتاب (الطهارة) (باب غسل الرجلين) ١/ ١٠٣ (رقم ١٤٨)، وذلك من رواية ابن لهيعة، عن يزيد بن عمرو المعافرى، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، عن الصحابى المُسْتَوْرِد بن شَدَّاد. وأخرجه - كذلك - ابن ماجة في (سننه)، كتاب (الطهارة وسننها) باب (تخليل الأصابع) ١/ ١٥٢ (رقم ٤٤٦)، والترمذى في (سننه)، باب (ما جاء في تخليل الأصابع) ١/ ٥٧ (رقم ٤٠)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. والحق أن العَلاَّمة السيوطى ذكر في (تدريب الراوى) ٢/ ١٨٣-١٨٤ ذلك الحديث، عند

٢- قال ابن وهب في (مُوَطَّئِه) يرفعه عن أبى عُبيدة (مُرَّة بن عُقْبَة بن نافع ت ١٠٧هـ) قال: كنتُ مع أبى (عقبة بن نافع) بإفريقية، فقَصَر الصلاة في أسفاره سَنَةً أو سَنَتَيْن، حتى كتب إليه معاوية بن أبى سفيان، فعزم عليه لَيُتِمَّنَّ.

ويعلق المالكى(١) قائلاً: لزم معاوية فعل عثمان لما أَتَمّ بمِنَى. وفعل عثمان ذلك؛ لأن بعض القادمين إلى الحج من الآفاق، وقصروا الصلاة بِمِنَى، حسبوا الصلاة قَصُرَتْ، فنقلوا ذلك إلى بلدانهم، فالتبس ذلك على مَنْ لا عِلْمَ عنده بالسنن والفقه في الدين. فأَتَمَّ عثمان؛ ليشتهر بين الناس عدم قصر الصلاة، وأنها باقية كما فرضها الله. والقَصْرُ سُنَّة في السفر لا فرض. وكذلك تَأَوَّلَتْ عائشة في إتمامها في السفر كعثمان، وهو أحسن ما تُؤُوِّلَ عليهما.

٣- بعد أن حَصّل ابن وهب علم مالك، جلس يعلم الناس أمور دينهم في مصر. وعرف له العلماء مكانته العلمية، فلم يكونوا يجيبون في موضع فيه ابن وهب الفقيه(٢). ولم تقف حدود فقه ابن وهب عند مصر، بل كانوا إذا اختلفوا في الشئ عن مالك بالمدينة (لعل ذلك بعد وفاة مالك)، كانوا ينتظرون قدوم ابن وهب عليهم حتى يسألوه عنه(٣).

= كان يتناول الغريب من الحديث سنداً ومتناً، وجعله مثالاً لما تفرد له أهل بلد، ولا يوجد إلا من روايتهم، فهو سُنَّة ينفرد بها أهل مصر، لا يُعمل بها في غير مصرهم، وسنده مصرى صحيح. وأضاف السيوطى أن مالكاً استعاد الحديث، واستعاد السائل، وأمره بالتخليل، وأورد السيوطى ذلك بسند ابن أبى حاتم. ومن هنا فإنه لم يتفرد به ابن لهيعة - كما يقول الترمذى - بل تابعه الليث، وعمرو بن الحارث. كما رواه ابن أبى حاتم، عن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، عن عمه (ابن وهب)، عن الثلاثة المذكورين سلفاً. وصححه ابن القطان، فهو يوثق ابن أخى ابن وهب. ومن هنا - كما يقول السيوطى - زالت الغرابة عن الإسناد بمتابعة الليث، وعمرو لابن لهيعة. أما المتن، فهو غريب (لانفراد أهل مصر بروايته). وورد الكلام نفسه على لسان ابن حجر وهو يتعقب الترمذى في (النُّكَت الظِّراف على تُحفَة الأشراف للمِزِّى) ٨/ ٣٧٦. كما أخرج الحديث الطبرانى في (المعجم الكبير) ٢٠/ ٣٠٦ (رقم ٧٢٨)، والبيهقى في (السنن الكبرى)، كتاب (الطهارة) باب (كيفية التخليل) ١/ ٧٦-٧٧ (ويلاحظ أن كل هذه المصادر التى أوردت الحديث ذكرت الكيفية، وهى أنه كان يَدْلُك بين أصابع رجليه بخِنْصَره). وقد أورد البيهقى ١/ ٧٧: أن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب روى عن عمه (ابن وهب) حكمة التخليل، فقال: الناس يَثْنُون إبهامهم عند الوضوء، فمن تفقد ذلك، سلم من إهمال غسل الأصابع جيداً.

(١) ... النفوس (ط.دار الغرب الإسلامى): ج١ صـ١٥١. والحق أن قصر الصلاة في السفر عزيمة ...)، لا رخصة (سنة)، كما يزعم المالكى. وبين العلماء خلاف طويل في ذلك، ولكل أدلته ...ل بها. والراجح في النهاية هو القول بالوجوب. (راجع الآراء بأدلتها، والردود عليها، ...جح منها فى: نيل الأوطار، للشوكانى (أبواب صلاة المسافر)، باب (اختصار القصر ...) ج٣ صـ٢٠٠-٢٠٢.

... /٤٢٤.

... كمال: ٢/ ٧٥٤، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٦.

وهكذا، غدت رحلات ابن وهب للفتوى بالمدينة بعد رحيل مالك، بعد أن كانت طلباً للعلم في حياته. بل إن سفيان بن عيينة كان إذا سئل عن شئ، لا يجيب حتى يسأل ابن وهب، ثم يقول: هذا شيخ أهل مصر يخبر عن مالك بكذا[١]. وأكتفى بهذا القدر من فتاواه، وإمكاناته الفقهية؛ فهى كثيرة جداً[٢].

٤- عرفنا - قبل ذلك - أن لابن وهب تآليفه في التفسير والحديث. وها نحن أولاء نبرز إسهامه في مجال التأليف الفقهى. فقد ورد أن له في الفقه كتباً، مثل: المناسك، وكان له موطأ كبير للغاية، وكتاب يسمى (تفسير غريب الموطأ)، لعله شرح فيه موطأ (مالك)، وكتاب البيعة[٣]. كما ذكرت له بعض المصادر أن له كتاب: (المجالسات عن مالك)[٤].

وهكذا، بدا لنا أن ابن وهب ترك لنا ثروة فقهية طيبة، رغم أن هذه الكتب ليست بين أيدينا - الآن - بأعيانها. وعلى كلٍ، فقد أفاد منها العلماء بعده، فكانت من الكثرة بحيث بيعت بثلاثمائة دينار[٥]، وخَلَّفَ ابن وهب عدداً من العلماء تتلمذوا - في الأصل - على يديه، منهم من شرح موطأه، وهو أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن السَّرْح (ت ٢٥٠هـ)[٦]، وأَصْبَغ ابن الفرج (١٥٠-٢٢٥هـ) وَرَّاق ابن وهب، وابن أخيه أحمد بن عبد الرحمن بن وهب (ت ٢٦٤هـ).

سمات مدرسة مصر الفقهية في القرنين: الأول، والثانى الهجريين:

١) كانت مصر مَحَطَّ أنظار واهتمام الخليفة العالم الزاهد الفقيه عمر بن عبد العزيز، إذ كان يهتم بإيفاد بعض الفقهاء إليها؛ ليعلم المصريين شئون دينهم.

ومن أبرز هؤلاء الذين أوفدهم إلى مصر لذلك الغرض:

أ- سعد بن مسعود التُّجِيبِيّ الكِنْدِي المصرى [*]: كنيته أبو مسعود. روى عن أبى

(١) ميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٥٢٣.

(٢) مثل: تقديم العَشاء على العِشاء إذا قُرِّبا (السنن المأثورة) للشافعى صـ٢١٢. ونماذج فقهية عديدة في (الاستذكار) لابن عبد البر ١/ ٤٢٥.

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبى (ط.إحياء التراث) ١/ ٣٠٦، وطبقات الفقهاء للشيرازى (ط.إحسان عباس) صـ١٥٠، والوافى بالوفيات للصفدى ١٧/ ٦٦٥-٦٦٦.

(٤) إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، لإسماعيل باشا البغدادى ٢/ ٤٢٨، وشجرة النور الزكية، لمحمد بن مخلوف صـ٥٩.

(٥) ترتيب المدارك ٢/ ٤٢٨.

(٦) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٦٢.

(*) ترجم له: البخارى في (التاريخ الكبير): ٤/ ٤٩، وابن أبى حاتم في (الجرح والتعديل): ٢/ ١/ ٩٤-٩٥، ورياض النفوس (ط.دار الغرب): ١/ ١٠٢-١٠٦، ومعالم الإيمان للدباغ: ١/ ١٨٤-١٨٥.

الدرداء، وغيره. وروى عنه: عُبيد الله بن زَحْر الإفريقي[١]. وقد كان سعد بن مسعود هذا فقيهاً، ورجلاً صالحاً، وعالماً مشهوراً. ويبدو أنه تلقى فقهه على يد علماء الشام، وعلى رأسهم الصحابي أبو الدرداء. ولا يبعد أن يكون تلقى على علماء المدينة كذلك، فهي موئل العلماء والفقهاء.

ويبدو أن الخليفة عمر بن عبد العزيز لمس فيه الفقه والعلم والدين والفضل، وجرأة العالم الذي لا يهاب الملوك ولا تأخذه في الحق لومة لائم[٢]، فكلفه بتفقيه أهل مصر في الدين، فخرج على يديه الفقيه المصري يزيد بن أبي حبيب[٣]، وروى عنه عبد الله بن وهب الفقيه المصري المالكي في (جامعه)[٤]. وتَعَدَّتْ جهوده لنشر الفقه خارج حدود مصر، إذ كلفه عمر بن عبد العزيز ضمن عشرة من التابعين، أرسلهم ليفقهوا أهل القيروان، فأقام بينهم، وبث هناك علماً كثيراً[٥]، وقد سكتت المصادر عن تاريخ وفاته، والظاهر أنه عاش إلى أوائل القرن الثاني الهجري، رحمه الله (تعالى).

ب- نافع مولى ابن عمر وراويته (ت ١١٧هـ): وهو الإمام المفتي الثبت، الذي أوفده الخليفة نفسه إلى مصر؛ ليعلم أهلها السنن. وقد كان حجة مطلقاً[٦].

٢) أن كثيراً من فقهاء مصر رحلوا بأنفسهم خارجها، خاصة إلى المدينة؛ لتلقي الفقه على أعلامه هناك، خاصة مالك بن أنس ﷺ. ومن أبرز هؤلاء: الليث بن سعد، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم. وكانت الرحلات المطولة التي قام بها ابن وهب وابن القاسم زاداً عظيماً لمدرسة الفقه في مصر، لا يكاد يَنْضُب، فكانوا يؤمنون بأهمية الرحلات لطلب العلم، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، والتنقل بين الأساتيذ يصحح المعارف ويميزها، فتقوى ملكات الطلاب[٧]. ولذا عاد هؤلاء بمصنفات وتآليف - ذكرتُها قبلاً - لا تزال عمدة المذهب المالكي حتى الآن، وهي الموطأ، والمدونة.

---

(١) المصدر السابق: ١/ ١٨٥.

(٢) راجع موقفه الشجاع من زَبَّان بن عبد العزيز بن مروان، ورفضه ترك مجلس علمه بجامع (الفسطاط)، وقوله لرسول الأمير زَبَّان: " اقرأ على الأمير السلام، وقل له: ليس لي إليك حاجة فآتي لها، فإنْ تَكُ لك حاجة، فأْتِ إليها ". (رياض النفوس، ط.دار الغرب) ١/ ١٠٤، ومعالم الإيمان للدَّبَّاغ: ١/ ١٨٥.

(٣) التاريخ الكبير للبخاري: ٤/ ٤٩، والجرح والتعديل، لابن أبي حاتم: ٢/ ١/ ٩٤-٩٥.

(٤) معالم الإيمان، للدباغ: ١/ ١٨٥.

(٥) السابق: ١/ ١٨٤.

(٦) العبر للذهبي ١/ ١١٣، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٩٧، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف - ببيروت) ٩/ ٣٣٢.

(٧) مقدمة ابن خلدون (ط.د.علي عبد الواحد وافي) ٣/ ١٢٥٥.

٣) أن مدرسة مصر الفقهية كانت مؤثرة في المدارس الأخرى، على النحو الآتى:

أ- كانت مدرسة مصر غنية بفقهائها الأعلام، الذين نشروا العلم والفقه في ربوع بلادهم وخارجها. والحق أن مصر كانت فَيَّاضَة في إرسال علمائها؛ لتعليم وتفقيه أهل البلاد المجاورة - وفى وقت مبكر - ربما سبقت فيه المدارس الفقهية العريقة في الحجاز والعراق. وتطالعنا الروايات بأن عبد الله بن يزيد المعافرى (أبو عبد الرحمن الحبلى) المصرى، أرسله عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية؛ ليفقه أهلها في الدين، وقد خلف بينهم علماً غزيراً، وأقام بينهم حتى مات سنة ١٠٠هـ[١]. وكذلك أوفد - فيما أرجح - حَبيب بن الشهيد التُّجِيبِىّ المصرى إلى هناك، فنشر فقهه بين أهل طرابلس الغرب، وكان ثقة، توفى سنة ١٠٩هـ[٢]. وكذلك أوفد الخليفة نفسه الفقيه المصرى حِبَّان بن أبى حَبَلَة المصرى؛ ليفقه الناس بإفريقية (ت ١٢٢هـ)[٣].

ب- كانت مصر مطمح آمال طلاب العلم بالمغرب والأندلس. ولذا فقد حرص كثير منهم على الرحيل إليها، والتفقه على أيدى فقهائها. وأخص بالذكر منهم يحيى بن يحيى الأندلسى (ت ٢٣٤هـ)، الذى سمع موطأ مالك كله إلا أبواباً منه. وسمع بمصر من الليث كثيراً، وأخذ عن ابن وهب موطأه وجامعه، وحمل عن ابن القاسم مسائله في الفقه بما يوازى عشرة كتب كبار[٤]. بالإضافة إلى غيره من العلماء أمثال: عيسى بن دينار الأندلسى (ت ٢١٢هـ)، وعبد الرحمن بن عيسى بن دينار (ت ٢٧٠هـ).

جـ- وكانت لمدرسة مصر الفقهية علاقتها بمدرسة الشام، ولعل أقدم من أتى من علماء الشام إلى مصر عبد الرحمن بن غَنْم الأشعرى (ت ٧٨هـ)[٥]، وذلك خلال دخول مروان بن الحكم مصر سنة ٦٥هـ، وسبق أن ذكرت أنه أقام بها شهرين، وربما زاد على ذلك، فأقام بمصر. ولعله نقل بعض آرائه الفقهية إلى مصر، وربما أفاد من بعض علمائها من التابعين كمَرْثَد اليَزَنِىّ، وشُفَىّ بن مَاتِع.

كما جاء إلى مصر - بعد ذلك - عالم الشام ومفتيها (الهِقْل بن زياد الدمشقى ت ١٧٩هـ)[٦]، كاتب الإمام الأوزاعى وتلميذه، فكتب عن علماء مصر وفقهائها، خاصة الليث بن سعد، فأفاد واستفاد.

---

(١) تهذيب التهذيب ٦/ ٧٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٥٧.

(٣) تهذيب الكمال، للمزى ٥/ ٣٣٢-٣٣٣.

(٤) الانتقاء، لابن عبد البر ص٥٨-٦٠، والخطط للمقريزى ٢/ ٣٣٣.

(٥) كان عبد الرحمن بن غنم هذا من فقهاء الشام المعدودين في عصر التابعين، حتى إنه بعثه عمر بن الخطاب ﷺ؛ ليفقه أهل الشام، فهو الذى فَقّه عامة التابعين بالشام، وله جلالة وقدر. (الاستيعاب لابن عبد البر، القسم الثانى، ص٨٥٠ رقم ١٤٤٩).

(٦) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧١.

٤) استمد علم (الفقه) في مصر مكانته السامية من مكانة الفقهاء العالية، وما تمتعوا به من صلات محترمة بحكامها، وما كان لهم من أدوار بارزة في حركة المجتمع المصرى. وهناك عشرات النماذج المدللة على صحة ذلك، لكنى سأكتفى ببعض ما كان من الفقهاء البارزين:

أ- كان التابعون الفقهاء في مصر لهم مكانتهم المميزة، فكان الوالى عبد العزيز ابن مروان يحرص على وجود مرثد بن عبد الله اليزنى (ت ٩٠هـ) في مجلسه للفتيا[١].

ب- وكان ليزيد بن أبى حبيب، وعُبيد الله بن أبى جعفر مكانة متميزة في مصر، حتى إنه إذا حضر آخِذوا بيعة الخليفة إلى مصر، لا يبايع الناس إلا إذا بايع هذان الفقيهان الجليلان أولا[٢].

جـ- أما الليث بنِ سعد، فحَدِّث عن مكانته ولا حرج، فإنه واسطة العِقْد كما يقولون. لقد كان يُسَخِّر فقهه لتوجيه الحكام، وتنبيه القضاة إلى شرع الله، وكان إذا لم يرض عن سلوك وأحكام والٍ أو قاضٍ، أرسل إلى الخليفة فيُعْزَل. ولذا كان أمراء مصر لا يقطعون أمراً إلا بمشورته، حتى قال شاعر للمنصور[٣]:

لــعــبــدِ الله عــبــدِ الله عــنــدى ... نصائحُ حُكْتُها في السِّرِّ وحدى

أمــيــرَ الــمــؤمــنــيــن تَــلافَ مــصــراً ... فــإن أمــيــرهــا لَــيْــثُ بــنُ سَــعْــدِ

وكان لليث بن سعد من مجالسه الأربعة التى يعقدها يومياً مجلسان:

مجلس يغشاه فيه السلطان، فيشير الليث عليه خلاله في نوائبه وحاجاته، ومجلس يأتيه الناس يسألونه حوائجهم، فلا يَرُدُّ صغيراً ولا كبيراً[٤].

والخلاصة:

أنه كان في مصر قضاة مفتون رسميون تابعون للخلافة، وفقهاء ينأون بأنفسهم عن الخضوع للحكام، ويراقبون - عن كَثَب - مدى عدالة ونزاهة الولاة والقضاة[٥]. لقد تمتع فقهاء مصر بمكانة محترمة متميزة لدى الخلفاء، فما سمعنا أنهم أُهينوا أو أُوذوا بالدرجة التى أُوذِىَ بها أبو حنيفة فقيه العراق[٦]، أو مالك فقيه المدينة[٧]. لقد أبى

(١) المصدر السابق: ٤/ ٢٨٥.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبى (ط.دار إحياء التراث) ١/ ١٢٩-١٣٠، والخطط للمقريزى ٢/ ٣٣٢.

(٣) النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى ٢/ ٨٢.

(٤) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٠.

(٥) الليث بن سعد فقيه مصر، للسيد أحمد خليل ص٥١.

(٦) ضُرب أبو حنيفة ﷺ على يد يزيد بن عمر بن هُبَيْرة أمير العراقيْن؛ لرفضه ولاية القضاء أيام مروان بن محمد (وفيات الأعيان، ط.إحسان، لابن خلكان ٥/ ٤٠٧).

(٧) ضُرب مالك بن أنس ١٤٧هـ على يد سليمان بن جعفر بالمدينة ٧٠ سوطاً؛ لاتهامه بتأييد نَقْض بيعة =

الليث بن سعد تولى منصب القضاء لمَّا عرضه عليه المنصور ولم يُصِبْه أذى[١]، ورفض ابن وهب القضاء فما تعرض لسوء.

= الخليفة (العِلَل ومعرفة الرجال، ط. الهند)، لأحمد بن حنبل صـ١٨٧.

(١) ولا يعنى هذا أن فقهاء مصر كانوا أجَلَّ في نظر الخلفاء والولاة من غيرهم، أو أننا نَحُطُّ من شأن الآخرين، لكنها الظروف التى خدمت فقهاءنا، فلم يتعرضوا لسوء، بينما كانت الظروف غير مواتية للآخرين، فنالوا شرف الابتلاء في سبيل الله.

الفصل الرابع

اللغة والأدب

(أولاً - اللغة في مصر في القرنين: الأول، والثانى الهجريين)

الصلات اللغوية القديمة بين العرب والمصريين:

يقول الله (تعالى): ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾(١).

حقاً! لقد خلق الإسلام العرب خَلْقاً آخر؛ إذ جمعهم بعد تفرق، ووحدهم على كلمة سواء. ورغم أنهم أصعب الأمم انقياداً؛ لما يتصفون به من الغِلْظَة والأنَفَة والكِبْر، وحب الرئاسة، والتنافس فيما بينهم، فإن الإسلام هو الدين الذى سَلِس قيادهم له أخيراً، فتبدلوا بالمذمومات محاسن الطباع والأخلاق(٢). لقد خرجوا من شبه جزيرتهم بعد الإسلام ينشرونه في الآفاق. ومن البلدان التى أتوا إليها مصر. ولم تكن مجهولة للعرب؛ فقد كانت لهم بها صلات قديمة قبل الإسلام، عن طريق ما يلى:

١- كانت الجزيرة العربية - في الأساس - مهد الإنسان المصرى القديم، الذى أقام بها أول ما أقام ثم رحل إلى مصر. فالعماليق الذين نزلوا مصر وحكموها قديماً كانت الجزيرة العربية مستوطنهم الرئيسى(٣). ويعتقد أن هؤلاء قدموا عن طريق السويس، واستوطنوا الدلتا في العصر التاريخى الأول؛ نظراً لخصوبتها، وإمكانية الزراعة بها، فتكاثروا وانتشروا في أقاصى الوادى ودانيه(٤).

٢- وجود موجات للهجرة والاستقرار في العصور الفرعونية القديمة عن طريق

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٢) مقدمة ابن خَلْدُون (ط.د.وافى) ٢/ ٥١٦.

(٣) العِبَر، لابن خلدون ٣/ ٥٠.

(٤) المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد على ١/ ٢٣٦، ورسالة دكتوراه عن: (حركة التعريب في مصر حتى القرن الرابع الهجرى) لعبد العال الجبرى ص٣.

سيناء، استقر أصحابها في شرقى الدلتا، وكوّنوا جاليات عربية كبيرة، حتى إن الرحّالة (استرابو ت ٢٥م) صَرّح بأن مصر نصف سكانها من العرب(١).

٣- وجود ما يدل على قيام العرب بالتبادل التجارى مع المصريين عبر العصور المختلفة، وقيامهم بعقد الصفقات التجارية معاً بيعاً وشراء(٢).

٤- وأخيراً، وجود هجرات عربية واسعة من عرب الشام والجزيرة، استقرت في مصر قبل الفتح الإسلامى(٣).

وهكذا، وجد نوع من الاحتكاك الطويل المباشر بين هؤلاء العرب بلغتهم العربية، وبين المصريين بلغتهم القبطية قبل مجئ الإسلام إلى مصر؛ مما أوجد نوعاً من التأثير المتبادل بين اللغتين، دون أن تفقد إحداهما شخصيتها(٤).

الاختلاط بين العرب المسلمين، والقبط المصريين قبل الفتح:

دخل المسلمون مصر يحملون القرآن والسنة في يمينهم، واللغة العربية في يمينهم الأخرى، فهى لغة القرآن دستور الإسلام، وانتشار العربية في مصر مرتهن بانتشار الإسلام، ومرتبط - كذلك - بمدى الصلات والعلاقات القائمة بين لغة العرب والقبط في مصر.

ولا ريب أن العرب دخلوا مصر وهى البلد ذو الحضارة العريقة، التى تضرب بجذورها في أعماق التاريخ عبر حضارات رائدة، قامت على أرضها كالفرعونية، واليونانية، والرومانية.

وما دام التراث الإنسانى ليس ملكاً لأحد، فقد التقت حضارة العرب بحضارة المصريين، فأعطتهم الدين واللغة الجديدة، وأفادت منهم علماً وتحضراً ومدنية. ونستطيع القول بأن الجهود التى بُذلت في مصر بعد فتحها؛ لإقامة صروح المجد

---

(١) مصر العربية الإسلامية، للدكتور الخربوطلى صـ١٥.

(٢) هناك نصوص تاريخية تثبت وجود هذه الصلات، مثل: مجئ عمرو بن العاص إلى مصر - فيما أرى - أكثر من مرة قبل الإسلام متاجراً؛ مما سَهّل عليه -بعد ذلك- أمر فتحها؛ لإدراكه طبيعتها جغرافياً، واجتماعياً، واقتصادياً (فتوح مصر لابن عبد الحكم ٥٣-٥٥، والولاة والقضاة للكندى ٦-٧). وقد ذكر الذهبى في (سير أعلام النبلاء) ٢/ ٤٣٢: أن رسول الله كسا زيد بن ثابت يوم الخندق قُبْطِيَّة. وذكر ابن كثير في (البداية والنهاية، ط.الريان) ج٨ صـ٤: أن عليًا خرج مرتدياً قبطية. وهذا يدل على جلب التجار العرب ثيابا مصرية إلى جزيرتهم. (ويلاحظ أن القِبْطِيَّة- بضم القاف أو بكسرها- هى ثياب كتان بيض رقاق تُعمل في مصر، وتنسب إلى القبط على غير قياس، وتجمع على: قُباطِىّ، وقَباطِىّ (لسان العرب لابن منظور): مادة (ق.ب.ط) ٥/ ٣٥١٤).

(٣) رسالة دكتوراه: (حركة التعريب في مصر حتى القرن الرابع الهجرى) لعبد العال الجبرى صـ٧-١٠.

(٤) تاريخ اللغة العربية في مصر، للدكتور أحمد مختار١٤-١٥، ورسالة دكتوراه: (حركة التعريب في مصر حتى القرن الرابع الهجرى) عبد العال الجبرى صـ١٧.

الحضارى، لم يُقِمْها الأقباط - سكان مصر - وحدهم، ولا العرب المسلمون القادمون، وإنما هى جهودهما معاً بعد اختلاطهما وامتزاجهما وتعاونهما.

العوامل التى تتحكم في الصراع بين اللغات:

إذا أردنا معرفة طبيعة العلاقات التى تربط بين العربية والقبطية، فلا بد أن نعرف العوامل الرئيسة التى تتحكم في الصراع القائم بين اللغات، التى بينها احتكاك واتصال، على النحو التالى(١) :

١- **عامل سياسى اقتصادى**: حيث قام العرب بخطوات تنفيذية سياسية واقتصادية، لعبت دوراً مهمّاً في إحلال العربية محل القبطية على المدى البعيد، مثل:

أ- **تعريب الدواوين**، وإحلال العربية محل اليونانية أو القبطية في الدواوين والمكاتبات الرسمية.

ب- **مجئ مهاجرين** عرب عددهم يقدر بالآلاف؛ لأجل الإقامة الدائمة في مصر.

جـ- **إحلال الموظفين** المسلمين محل الأقباط(٢).

٢- **عامل دينى**: حمل الإسلام - باعتباره ديناً عالميّاً عادلاً - إلى المصريين المضطهدين كل معانى السمو والحرية والخير؛ مما دفع الكثيرين إلى اعتناقه، ومن ثَمَّ إلى تعلم لغته العربية، فهى من ألزم لوازم هذا الدين الجديد، إضافة إلى أن العربية والإسلام صارا في مرحلة من المراحل (عهد عمر بن عبد العزيز) السبيل الذى يحافظ به هؤلاء المصريون على وظائفهم الكبرى في مصر؛ إذ عزل هذا الخليفة رؤساء القبط عن الكُوَر، وأحَلَّ المسلمين محلهم(٣).

٣- **التفوق اللغوى**: كانت الفجوة كبيرة بين العربية والقبطية. فالعربية هى لغة الأمة الفاتحة الحاكمة، ولغة القرآن والسنة. ومن هنا استمدت قوتها التى انصاع لها القبط، الذين كانت لغتهم في فترة ضعف تمر بها، لمَّا طَغَتْ عليها اليونانية منذ فترة طويلة، فأصبحت اليونانية لغة الكتابة خاصة في المكاتبات المهمة، وغدت السُّرْيانيّة لغة الثقافة والعلم في جامعة الإسكندرية(٤). وهكذا، كانت العربية تزداد قوة يوماً بعد يوم في مصر في مجابهة لغة تزداد ضعفاً على مَرِّ الأيام. لكن انتصار العربية تأكد وتحقق بعد

(١) أورد هذه العوامل الدكتور أحمد مختار عمر في كتابه: (تاريخ اللغة العربية في مصر) صـ٢١.

(٢) النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى ١/ ٢٣٨. هذا، وقد أضاف الدكتور أحمد مختار عاملاً اقتصاديّاً آخر، تَمَثَّل في فرض أنواع مختلفة من الضرائب على الأقباط. وأعتقد أن هذا العامل لا يصح القول به، فالجزية والخراج كانا في مقدرة الأقباط، ولم يكن المسلمون يشتطون في تقديراتهم - على الأقل - خلال القرن الأول الهجرى، بل كانوا لا يفرضون شيئاً من ذلك على النساء، والشيوخ، والصبيان، والرهبان.

(٣) الولاة والقضاة للكندى صـ٦٩.

(٤) تاريخ اللغة العربية في مصر، للدكتور أحمد مختار صـ٢٦.

حوالى ثلاثة قرون من دخول الإسلام مصر، إذ مرت العربية بمراحل عديدة في صراعها مع القبطية، حتى تمت لها الغلبة التامة في النهاية.

مراحل الصراع اللغوى بين العربية والقبطية (*):

المرحلة الأولى - المناوشة:

وهذه تمتد من الفتح الإسلامى لمصر (٢٠هـ) إلى نهاية القرن الأول الهجرى. وفيها تبادلت كل من اللغتين تأثيرها في الآخرى، وكان الميزان متعادلاً - أغلب الوقت - لمجموعة عوامل، منها: حسن معاملة العرب للمصريين، فلم يُرغموهم على ترك دينهم ولا لغتهم. كما أن الإسلام كان يدلف إلى القرى في مصر في بطء وحذر؛ إذ كانت المجتمعات الريفية منعزلة بعض الشئ عن تيارات الإسلام في المدينة،[١] إلى جانب استمرار استعمال اليونانية والقبطية في الدواوين حتى قيام عبد الله بن عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين في مصر ٨٧هـ وإحلال العربية محلها، واحتفاظ القبط بمناصبهم الإدارية الكبرى، حتى يتمكن العرب من إعداد كوادر تحل محلهم. هذا إلى جانب قلة عدد المسلمين في مصر رغم عمليات التهجير الجماعية المتوالية لهم، ووجود كثرة من المرابطين منهم بالإسكندرية، وما جاءهم من إمدادات، إلا أن عددهم كان قليلاً نسبياً بالقياس لعدد القبط في مصر[٢].

(*) القبط، والأقباط: اسم جعله العرب عَلَماً على المصريين من قبل الفتح الإسلامى. وفى الحديث: "استوصوا بالقبط خيراً". واشتهر نوع من الثياب - منذ الجاهلية الأولى - باسم (القبطية). جمعه العرب على (قباطى) كما أسلفنا. والمراجع العربية ترجع لفظة (قبط) إلى (قبطيم بن مصرايم بن مصر بن حام بن نوح). وهو تفسير أسطورى. أما المحدثون، فلهم تفسيراتهم، ومنها:
أ- أنها اشتُقَّت من مدينة قِفْط .Kopots
ب- أو أنها تحريف لكلمة اليَعَاقِبَة . Jacobites وبعض المراجع تطلق على الأقباط الذين وجدوا أثناء الفتح اسم (اليعاقبة)، وهم الذين عرفوا بعد ذلك بالأرثوذكس، وكانوا أغلبية في مصر.
ج- أنها تحريف للكلمة اليونانية Koptoi، التى كان يطلقها اليونانيون على المصريين؛ لأنهم كانوا يجرون الختان على أولادهم.
د- وأقرب الآراء إلى الصحة أن الكلمة تحريف للاسم اليونانى للمصريين وهو Koptoi ويبدو - على كل حال - أن هذه الكلمة استعملت أول ما استعملت، وأريد بها غير المسلمين من المصريين، من غير نظر إلى عقيدة معينة، ثم بمضى الوقت أصبح اللفظ علماً على المسيحيين المصريين، ولم يعد يتضمن أية ديانة أخرى. (تاريخ اللغة العربية في مصر، للدكتور أحمد مختار، هامش ص١٩-٢٠، نقلاً عن: حضارة مصر في العصر القبطى لمراد كامل ص٦٩).
وهذا الرأى صحيح؛ بدليل الوصية بالقبط، وهم أهل مصر، وبدليل مخاطبة الرسول للمقوقس بـ (عظيم القبط)، ولم يُخاطَب بذلك هرقل، ولا كسرى، ولا غيرهما من الأعاجم؛ مما يؤكد أن لفظة (قبط) غدت عَلَماً على المسيحيين في مصر.

(١) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجرى، لشكرى فيصل ص١٥٦.

(٢) تاريخ اللغة العربية في مصر، للدكتور أحمد مختار ٢٩-٣٤.

المرحلة الثانية - مرحلة التقدم:

وتشمل القرن الثانى الهجرى كله، وتمتد لتشمل جزءاً من القرن الثالث الهجرى حتى سنة ٢١٥هـ. وفيها بدأ الميزان يختل لصالح اللغة العربية؛ لأن عوامل التعريب آتت ثمارها، فالعربية حَلَّت محل القبطية في الدواوين، وازداد انتشار الإسلام بازدياد اختلاط المسلمين بالقبط، إلى جانب ما كان يتمتع به الفاتحون من امتيازات دفعت بعض القبط للإقبال على الإسلام ولغته، إلى جانب تزايد الهجرات العربية إلى الحوف الشرقى بمصر، وازدياد الاختلاط بأهل الريف في مصر، وازدهار الدراسات العربية والإسلامية فيها. كل هاتيك العوامل أدت إلى انتشار الإسلام ولغته العربية على حساب لغة المصريين القبطية(١).

ملاحظات على اللغة في مصر في القرنين الأولين للهجرة (*):

أولاً - رغم أن المسلمين كانوا هم الفاتحين المسيطرين على مقاليد الأمور في مصر، ورغم انتشار الإسلام واللغة العربية بين جموع المصريين، إلا أننا لم نجد تعالياً أو استكباراً منهم تجاه القبط، ولم نجد - كذلك - صدى لما عُرف بقضية (العرب والموالى) في دار الخلافة في العصر الأموى مثلاً(٢). وإنما وجدنا تفهماً عظيماً في مصر لمعنى العروبة ومعنى الإسلام. فكان الرباط الوثيق الذى يربط بين العرب الخُلَّص والعرب الموالين(٣) في مصر هو الإسلام واللغة العربية ،ولم يعد لفرق اللون والدم من وجود، فهو فَرْق ساقط مُهْدَر في موازين الدين الجديد، والرسالة الخاتمة(٤).

---

(١) المرجع السابق: صـ٣٨-٤٢.

(*) لم أطلق عليها (سمات)، ولم أسمها (مدرسة)، كما اعتدت في رصد العلوم السابقة من قراءات وتفسير وحديث وفقه؛ لأن مصر في هذين القرنين لم تكن لها مدرسة لغوية، بمعنى وجود المؤسس والتلاميذ والمنهج المتبع، وظواهر تطور، وتأثير متبادل مع المدارس اللغوية الأخرى في أقاليم الدولة الإسلامية. فمصر لا تُلمح بها مكانة لغوية ذات بال في هذين القرنين.

(٢) فلم نسمع في مصر مثل دَعَاوَى ابن رَشِيق في كتابة (العمدة) ١/ ٤-٥: أن العرب أفضل الأمم، وحِكْمتها أشرف الحِكَم كفضل اللسان على اليد.. . وحديث طويل عن طيب أعرافها، وأيامها الصالحة، وفرسانها الأنجاد وسُمَحائها الأجواد .. إلخ. وكذلك لم نسمع بمثل مبالغات الألُوسى في وصف العرب ومدحهم وذَمّ مَنْ نَقَدَهم في (بلوغ الأَرَب) ١/ ١٨-٤٦، ٧٢-٩١.

(٣) الولاء نوعان: ولاء العِتْق: وفيه يدخل العبد الذى حرره سيده في خدمة ونصرة وموالاة قبيلة سيده. وولاء النصرة، أو (الموالاة): وفيه تتحد قبيلة مع أخرى للتناصر والتحالف والتآزر. وقد كان مَنْ أسلم في مصر من أهل الذمة يدخل في ولاء قبيلة من القبائل العربية في مصر، وذلك طوال العصر الأموى (العصر الذهبى للعرب)، فكان ذلك يؤدى إلى مزيد من الاندماج والاختلاط والتعريب (حركة التعريب في مصر حتى القرن الرابع الهجرى) رسالة دكتوراه لعبد العال الجبرى صـ١٧٨-١٧٩.

(٤) مدخل إلى نشر التراث العربى، للدكتور الطناحى صـ١٥.

ثم إن الدماء العربية امتزجت بالدماء القبطية عن طريق التزاوج فيما بعد. ولذا وجدنا يزيد بن أبى حبيب، وعُبيد الله بن أبى جعفر ليسا عربيين في الأصل، لكنهما يستويان في المكانة العلمية الفقهية، وفى الإفتاء مع غيرهم من العلماء في مصر، بل يفوقان الفقيه جعفر بن ربيعة بن شُرَحْبِيلَ بن حَسَنَة العربى الأصل. فالعربية صارت عربية اللسان، وصار من يعيش على أرض عربية (فيها حكم عربى إسلامى)، ويتكلم العربية، في عِداد العرب، وإن لم يكن - في الأصل - عربياً[1].

ثانياً - أن نشر الإسلام في مصر بالحكمة والموعظة الحسنة، وانتشار العربية معه، أدى إلى بروز طائفة من نُبَهَاء ونُجَبَاء القبط في مجال العلوم الإسلامية. فها هو وَرْش صاحب القِراءات، وهو قبطى الأصل، يبرع في اللغة ويُحْكِم قواعد النحو، حتى يَبَزّ أقرانه في ذلك المجال.

ولم تقف إسهامات مَنْ كانوا في عِداد القبط عند ذلك المجال وحده، فإتقان بعضهم العربية جعلت منهم محدّثين، مثل: عُبيد بن جَبْر القبطى[2]، وعبد الملك بن

(١) وقد ذكر الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه: (دراسات لغوية) ص٨٤-٨٥: أن السليقة اللغوية لا تعنى الوراثة، فهى كسب ثقافى يستمده الفرد من مصدر تعليمى بيئى أو مدرسى. وهذا ما حدث لمن نبغ من الموالى كسيبويه إمام النحاة ،وغيره من القراء والمشاهير.فمن تعلم العربية فهو عربى، بصرف النظر عن اختلاف الانتماء.

وأنا أقول: إن هذا الكلام صحيح؛ فالإسلام لم يفرق بين الناس في الجنس، فها هو النبى ﷺ يقول: " لو كان العِلْمُ بالثُّرَيَّا لتناوله ناس من أبناء فارس ". أخرجه أحمد في (مسنده): ٢/ ٤٢٠، ومسلم في (صحيحه)، كتاب (فضائل الصحابة)، باب (فضل فارس) ٤/ ١٩٧٢-١٩٧٣. وذكر ابن تيمية في (فتاواه) ١٦/ ١٨٩-١٩١ في قوله (تعالى): " وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ " (سورة الجمعة): من الآية ٣ قال: إن الرسول ﷺ وضع يده على سلمان الفارسى، وقال: " لو كان الإيمان عند الثرياء،لناله رجال من هؤلاء ". مما يدل على تحكيم الإسلام للتقوى والعمل الصالح " إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ". (سورة الحجرات): من الآية ١٣. (وقد عالج قضية العلماء بين العروبة والعُجْمة، من زوايا جديدة، وبمزيد من الشمول والاستيعاب كل من: الدكتور ناجى معروف في كتابه: (عروبة العلماء المنسوبين إلى البلاد الأعجمية) ١/ ٤٣-٤٤، ٦٢-٦٥ وغيرها ، ومقال: (العروبة عند ابن تيمية) لجمال الدين الألوسى، بمجلة الأقلام البغدادية، ج٢ ص٣٣-٣٧ (السنة الأولى) - جمادى الأولى ١٣٨٤هـ، تشرين الأول ١٩٦٤م.

(٢) ويقال: عُبيد بن جُبير. روى عن أبى مُويهبة. وروى عنه: يَعْلىَ بن عطاء. ولعل والده جَبْر بن عبد الله هو مولى بنى غِفار، مولى أبى بَصْرَة الغِفارى الصحابى المعروف، الذى أقام في مصر. وجبر هذا هو الذى أتى بمارية القبطية من لدن المقوقس مع حَاطِب بن أبى بَلْتَعَة رسول رسول الله إليه، هدية من المقوقس لرسول الله ﷺ. توفى سنة ٦٣هـ. (المؤتلف والمختلف للدارقطنى ١/ ٣٧٦، ٤/ ١٩٣٦، والاستيعاب لابن عبد البر ١/ ٢٣١(رقم ٣١٠)، والإكمال لابن ماكولا ٢/ ١٤، ٧/ ٩٦، والأنساب (ط.الهند) للسمعانى ١٠/ ٣٣٠، وأسد الغابة لابن الأثير ١/ ٣١٧، والكاشف للذهبى (ط.دار الكتب الحديثة) ١/ ٢/ ٢٣٦، ومشتبه النسبة للذهبى ٢/ ٥٢٠، والوافى بالوفيات للصفدى ١١/ ٤٤، وتقريب التهذيب لابن حجر ١/ ٥٤٢، وتبصير المنتبه لابن حجر ٣/ =

عُمَيْر[١]، وزياد بن عبيد القبطى[٢]، ولم يقف دور النابغين من الأقباط الذين أسلموا عند حدود القراءات والحديث، بل إن منهم من بلغ في تمكنه من العربية وإتقانه لها، وفهمه القرآن والسنة فهماً جيداً، أن ظهر منهم فقهاء، مثل: إبراهيم بن مسلم ابن يعقوب القبطى[٣].

وهكذا، كانت صلة هؤلاء باللغة العربية وثيقة، وما كان لهم أن يسهموا في مجالات العلوم الإسلامية المختلفة، ما لم يقم ذلك على أساس لغوى متين.

ثالثاً - هناك سؤال يثور بالأذهان مفاده: هل كان في مصر علماء لغويون حملوا لواء مدرستها، وكان لهم إسهامهم وإنجازهم، الذى يقفون من خلاله وسط المدارس اللغوية في الأقاليم الإسلامية الأخرى؟ والجواب - للأسف - بالنفى. فلم أجد من النصوص التى اطلعت عليها، ولا من اللغويين في مصر ما يدلل على شئ من ذلك خلال هذه الفترة. وكل ما وجدته أن النشاط النحوى في مصر ارتبط بعناية العرب بها بضبط القرآن وقراءاته؛ مما دفع إلى وجود طبقة، تعلم الطلاب من مبادئ اللغة ما يجيدون به تلاوة القرآن. ولعل مِنْ أَقْدَمِ مَنْ أسهم في ذلك عبد الرحمن بن هرمز الأعرج (ت ١١٧هـ)[٤]، وقد كان كما ذكَرت - سلفاً - من جملة القراء الذين تخرج على أيديهم قراء مصر. وقد ذكر ابن لهيعة أن الأعرج هذا هو أول من وضع العربية (مبادئ النحو)، وأنه كان أعلم الناس بأنساب قريش. وقيل: إنه أخذ العربية عن أبى الأسود الدُّؤَلىّ[٥]. والحق أن الأشهر والأصوب أن أبا الأسود الدؤلى هو واضع اللغة

= ١١٥٨، والإصابة لابن حجر ١/ ٤٥١).

(١) يقال له: القبطى، وكان يكره ذلك. جاء رجل إليه، فقال: من يدلنا على عبد الملك ابن عمير القبطى؟ فقال: تعال، أنا عبد الملك بن عمير. وأما القبطى، ففرس لنا كان سابقاً.(المؤتلف والمختلف للدارقطنى ٤/ ١٩٣٥-١٩٣٦، والإكمال لابن ماكولا ٧/ ٩٦).وذكر السمعانى في (الأنساب، ط.الهند): ١٠/ ٣٢٨-٣٢٩، ٣٣١: أنه سمى بالقبطى؛ لأن بعض أمهاته كانت قبطية، فنُسب إليها. رأى علياً، والمغيرة بن شعبة. وروى عن جُنْدَب بن عبد الله، وغيره. وروى عنه الثورى، وشعبة. ولد ٣٢هـ، وتوفى ١٣٦هـ.

(٢) يُنسب إلى بطن من حِمْيَر. روى عن رُوَيْفِع بن ثابت. وروى عنه حيوة بن شريح. (الأنساب، ط.الهند) للسمعانى ١٠/ ٣٣١-٣٣٢.

(٣) حدث عن أبى علقمة مولى ابن عباس. وروى عنه بكر بن عمرو، وحُيَىّ بن عبد الله المعافريان. يقال: كان لجده يعقوب صحبة، وهو ممن بعثه المقوقس مع مارية والهدية للرسول، فأسلم، ودخل في ولاء بنى فِهْر. (الإكمال لابن ماكولا في باب (قِبْطى) ٧/ ٩٥-٩٦.

(٤) ذكر الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه: (أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامى) صـ٤٥: أن هناك ضريحاً يحمل اسمه بالإسكندرية داخل مسجد باسمه في شارع رأس التين، ونفى أن يكون ذلك له؛لأن منطقة المسجد - أوائل ق ٢هـ -كانت مغمورة بالمياه، شأنها شأن معظم المنطقة التى يقع فيها حى الأنفوشى، ورأس التين.

(٥) الفهرست لابن النديم ٤٥، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٧٠.

العربية الأول، الذى أخذ النحو عن على ﷺ(١).

ثم أتى ورش وغيره من تلاميذه الذين تعمقوا في النحو؛ من أجل إجادة البيان القرآنى، وحفظه من اللحن الفاشى؛ نتيجة الاختلاط بغير العرب. وقد يكون لورش شئ ما له صلة بالنحو لم يصل إلينا.

وإذا سرنا مع علماء مصر المُبَرِّزين في الحديث والفقه وغيرهما، وحاولنا أن نجد إشارات لمهارات لغوية لديهم، وجدنا يحيى بن بكير يقول عن الليث بن سعد: إنه لم ير مثله ولا أكمل منه، فهو عربى اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة(٢).

وهذا النص يفيد علم الليث بالعربية بما يتناسب مع مقامه كفقيه عالم محدث، وبما يتلاءم مع مقام مدح تلميذه ابن بكير له، لكنه لا يفيد إسهام الليث في مجال التصنيف اللغوى مثلاً.

وإذا وقفنا مع عبد الله بن وهب محدث مصر وفقيهها المالكى العظيم، وصاحب المؤلفات الكثيرة في التفسير والحديث والفقه؛ فإننا لا نجد له إسهاماً في مجال اللغة. وكل ما عثرت عليه أنه اختلف مع الشافعي في نطق كلمة (الحُدَيْبِيَة)، فقال ابن وهب: بالتثقيل، وقال الشافعى: بالتخفيف، وهو أشبه(٣).

وأخيراً، فإننا نعجب حقّاً أمام الغموض الشديد، الذى لا جلاء له بالنسبة لموقف مصر من الإسهام اللغوى في تلك الفترة، رغم أن وسائل الكتابة والتدبيج كانت متاحة في مصر منذ زمن بعيد(٤)، ورغم وجود عرب خُلَّص بها، كان ينتظر إسهامهم في المجال اللغوى.

وبالمقارنة بين مصر والمدارس الأخرى، فإنه في الوقت الذى لا نجد فيه في مصر

---

(١) الفهرست لابن النديم صـ٤٥. وأبو الأسود الدُّؤَلى: صحب علياً، واشتهر بمحبته ومحبة آل بيته. وهو منسوب إلى الدُّئِل بن بكر بن كِنانة. والدُّئِل على فُعِل، وهو اسم دُوَيْبَة تَسَمَّى الرجل بها. قال سيبويه: ليس في كلام العرب اسم على وزن (فُعِل) غيره. (نزهة الألِبَّا لابن الأنبارى صـ٦). وقد رأت معظم المراجع أنه أول من وضع علم النحو، وتوفى ٦٧هـ (مراتب النحويين لأبى الطيب صـ٢٤، ونزهة الألبا، لابن الأنبارى صـ٤، ومعجم الأدباء لياقوت ١٢/ ٣٤، وإنباه الرواة للقِفْطى ١/ ١٣). ويشترك مع أبى الأسود في صيانة كتاب الله (نصر بن عاصم) الذى وضع النَّقْط، والشكل لكتاب الله (معجم الأدباء لياقوت ١٩/ ٢٢٤. وإنباه الرواة للقفطى ٣/ ٣٤٣).

(٢) تهذيب التهذيب ٨/ ٤١٥.

(٣) مناقب الشافعى للبيهقى ٢/ ٥٨.

(٤) فالقِرْطاس المصرى (الذى يُعمل من قصب البردى)، قيل: أول من عمله يوسف عليه السلام في مصر (الفهرست لابن النديم صـ٢٢). كما عرفت مصر الورق، وكثر استعماله لدى العرب بها منذ ق ٢هـ، كما وجدت بَرْدِيَّات عربية في مصر كتبها العرب. وترجع أقدم بردية لهم في مصر إلى سنة ٢٢هـ (الخطاطة: الكتابة العربية) للدكتور عبد العزيز الدالى صـ١١٦.

تصنيفات معجمية أو تقعيدية في تلك الفترة، وجدنا في المدارس الأخرى أعلاماً عظاماً في النحو واللغة، من أمثال: الخليل بن أحمد البصرى (١٠٠-١٧٠هـ)(١)، وسِيَبَويْه البصرى (ت ١٨٠هـ)(٢)، والكِسائى الكوفى (ت ١٨٩هـ)(٣).

وهكذا، كان نشاط البصرة والكوفة اللغوى مبكراً ،فوضع العراقيون أسس النحو واللغة؛ البصرة باعتمادها على المنطق والقياس في استنباط القواعد اللغوية ووضعها، والكوفة بتغليبها السماع. لقد تميز علماء العراق عن علماء مصر والشام الذين لا نجد لهم إسهاماً في المجال اللغوى، رغم مشاركتهم في العلوم الأخرى، فلم نجد مصريّاً ولا شاميّاً جمع لغة العصر وقواعدها ودَوَّنها، كما فعل العراقيون في مُعْجَم (العَيْن) للخليل بن أحمد، أو في (الكتاب) لسيبويه. ويعلل بعضهم ذلك بما يلى(٤) :

١- اعتماد النهضة العلمية في مصر - والشام معها - على أسس دينية صرفة، فساهم علماء البلدين في مجال العلوم الشرعية، بينما تخلفوا في المجال اللغوى، وذلك على العكس من مدرسة العراق التى نهضت على أسس عقلية في الفقه، واهتمت باللغة ومباحثها.

٢- قيام الدراسات النحوية واللغوية على أكتاف مدرستى: البصرة، والكوفة بالعراق؛ مما جعل لهذا الإقليم مكانة في هذا المجال. ولعل بُعْدَ المسافة بين مصر والعراق، أضعف تأثير النشاط اللغوى العراقى في مصر، فلم نجد له أثراً حقيقيّاً، ولا انعكاساً جَلِيًّا بها.

---

(١) إمام، صاحب العربية الأول، ومنشئ علم العَرُوض. وهو أحد الأعلام الذين تتلمذ عليهم علماء كبار، منهم: سيبويه. وهب الله الخليل علم العروض، ووضع على يديه أول معجم عربى للغة وهو (العين). وكان الخليل مفرط الذكاء، عابداً متقشفاً. ومن أقواله الحكيمة : لا يعرف الرجل خطأ معلمه، حتى يجلس إلى غيره. وكان من حسن خلقه أنه إذا أفاد أحداً شيئاً، لم يُرِه أنه أفاده، وإن استفاد منه أراه ذلك (تاريخ العلماء النحويين لابن مسعر ص١٢٣-١٣٤، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٤٢٩-٤٣١).

(٢) هو عمرو بن عثمان بن قَنْبَر الفارسى، ثم البصرى. حجة العرب، إمام النحو. طلب الحديث والفقه مدة، ثم أقبل على العربية، فسادَ أهل العصر، وألّف فيها كتابه الذى لا يُدْرَك شأوه. وأخذ النحو فيما أخذ على يد الخليل، ويونس بن حبيب، وعيسى بن عمر الثقفى. وقال الحربى: سمى بسيبويه؛ لأنه بديع الحسن، وجنتاه كالتفاحتين. ولد بين سنتى: ١٣٢، ١٤٠هـ. وتوفى -على الأصح- ١٨٠هـ. (سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٥١-٣٥٢).

(٣) أبو الحسن على بن حمزة بن عبد الله الكسائى، مولاهم الكوفى. إمام شيخ القراء والعربية. لقب بالكسائى؛ لكساء أحرم فيه. قال الشافعى: من أراد التبحر في النحو، فهو عيال على الكسائى. فهو أعلم الناس بالنحو، وله (النوادر الكبير)، و(معانى القراءات)، وسواهما. نال الحظوة لدى الرشيد، وأدّب الأمين، وكان له جاه وأموال .ومات -على الأصح- سنة ١٨٩هـ عن ٧٠ سنة (تاريخ العلماء النحويين لابن مسعر ص ١٩٠-١٩٣، وسير أعلام النبلاء ٩/ ١٣١-١٣٤).

(٤) ضحى الإسلام، لأحمد أمين ٢/ ٣١٧-٣١٨.

٣- الميراث الحضارى الذى ورثته العراق من وجود نماذج من نحو اللغات القديمة التى عُرفت في بلادهم؛ مما ساهم في تكوين عقلية تنظيرية تقعيدية منظمة. والحق أن هذا السبب لا يُسَلَّم به كلية؛ لأن مصر لم تكن أقل من العراق تعرضاً لطروء العديد من الحضارات على بلادها عبر القرون المتلاحقة، ولا شك أنها عرفت نماذج تقعيدية لليونانية والقبطية(١). إننى أعتقد أن العلة تكمن - أساساً - في ميول علماء العرب في كل من البلدين.

٤- تشجيع الخلفاء للعراقيين في حاضرة الخلافة على الدراسات اللغوية، وحضورهم المجادلات والمناظرات التى في مجال النحو واللغة؛ مما دفع علماء البصرة والكوفة لتنمية قدراتهم ومعارفهم وإسهاماتهم في ذلك المجال الحيوى.

رابعاً، وأخيراً - أن مصر إذا كان إسهامها اللغوى لا يكاد يُذكر في هذه الفترة، فقد كان لعلماء القبط ممن أتقنوا العربية إسهام من نوع خاص هو ترجمة عدد من الكتب الطبية والفلسفية والرياضية من اليونانية إلى العربية. وقد حاول هؤلاء أن يحتفظوا لمدرسة الإسكندرية، التى ضعفت مكانتها العلمية، بشئ من التفرد والتميز، خاصة أن مدرستهم كانت على صلة وثيقة بدار الخلافة وعلمائها، فها هو خالد بن يزيد بن معاوية يطلب إلى علماء وفلاسفة اليونان في مصر أن يحضروا إليه؛ لتعليمه الكيمياء. وطالبهم بنقل كتب الصنعة (الكيمياء) من اليونانية والقبطية إلى العربية. فكان هذا أول نقل (ترجمة) إلى العربية في الإسلام(٢). ولا شك أنه قد أحسن الاعتماد على مصدر ثرى

---

(١) وقد احتفظ لنا ابن النَّديم في (الفهرست) صـ٣١٤-٣١٥، بشخصية قَسّ قبطى، يدعى (يحيى النحوى)، فلعله كان من نحاة القبط، وذكر أنه كان أُسْقُفًا في بعض كنائس مصر، على مذهب اليعقوبية، ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث، فناظرته الأساقفة فغلبهم، فأسقطوه. ويذكر (ابن النديم) أنه عاشَ حتى فتح مصر، ولقى عَمْراً، وأُعجب بذكائه وكلامه، وجعله عمرو في منزلة طيبة.

وقد فَنَّد ذلك الكلام بتلر في (فتح العرب لمصر) جـ٢ صـ٣٥٢، ورجح أن يكون المذكور (حنا فليبونوس) على قيد الحياة يكتب العلم قبل ٥٢٧م، ثم مات. فهو إن عاش إلى سنة الفتح الإسلامى (٦٤٢م)، فلا تقل سنه عن مائة وعشرين عاماً. ويذكر بتلر أن لديه أدلة مؤكدة - لا داعى لأن يذكرها - على وفاة حنا هذا قبل دخول عمرو بن العاص الإسكندرية بثلاثين، أو أربعين سنة (وقد ساق بتلر هذا الكلام، عندما كان يدلل على براءة العرب من حريق مكتبة الإسكندرية، وكان يَرُدّ على الادعاء القائل: إن هذا الأسقف طلب إلى العرب أن يحتفظ القبط بها، ولكنهم أحرقوها، فذكر أن هذا الأسقف مات قبل دخول عمرو مصر، وبالتالى لم يلتق به، وتتهاوى بذلك دعاوى حريق مكتبة الإسكندرية).

(٢) الفهرست لابن النديم صـ٣٠٣-٣٠٤. وخالد بن يزيد بن معاوية، الأمير الأموى. كان من نبلاء الرجال، وذا فضل وعلم، ومن أعلم قريش بفنون العلم. وكان بصيراً بالطب والكيمياء، وله نظم رائق. (الفهرست لابن النديم صـ٤١٩، ووفيات الأعيان لابن خلكان (ط.إحسان): ٣/ ٢٢٤-٢٢٦، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٤١١-٤١٢).

في هذه العلوم التى برع فيها أهل مصر[١].

وها هو البَطْرَك المَلْكَانِيّ بليطيان الذى عالج جارية الرشيد، فأنعم عليه بمنشور يسترد به كنائس الملكانيين التى أخذها اليعاقبة[٢]. وعلى كل، ورغم هذه الصلات الطبية والفلسفية والعلمية بين مصر ودار الخلافة، إلا أن ذلك تم في مرحلة كانت تشكو خلالها الإسكندرية من الضعف قبيل الفتح؛ لِمَا حَلَّ بها من تنكيل واضطهاد، واحتراق لمكتبتها[٣]؛ مما جعل العراق أقوى وأرسخ في هذه المجالات من مدرسة الإسكندرية، التى غلب عليها التنجيم والرهبنة[٤].

ثانياً - الأدب فى مصر في القرنين: الأول، والثانى الهجريين:

بعد أن استعرضت حال اللغة العربية في مصر، والمراحل التى مرت بها في هذين القرنين، حتى تقدمت وتغلبت تغلباً واضحاً على القبطية لغة المصريين، أحاول - الآن - النظر في طبيعة استغلال المسلمين لهذه اللغة؛ لإبداع فنون أدبية نثرية (كالرسائل، والخطب، والوصايا)، وفنون من القول الشعرى بأغراضه المختلفة: مدحاً، وهجاء، ووصفاً، ورثاء. وكل ذلك لم يكن مقصوداً لذاته، وإنما كان لأغراض تتصل بالأحداث الجارية على أرض مصر، مما يبين انفعال الأدب وتأثره بالحياة، وإسهامه في رصد أحداثها، وتأريخه لها. وهذا هو ما يهمنا.

أولاً - إسهام المسلمين في الأدب المصرى:

١- في النثر:

دخل المسلمون مصر وفيهم جِلَّة من صحابة رسول الله ﷺ، الذين تمتعوا بالفصاحة والبلاغة، وعلى رأسهم: عمرو بن العاص قائد المسلمين في مصر، وعُبادة بن الصامت، وعقبة بن عامر الجهنى، وغيرهم. وقد كانت لعمرو بن العاص رسائل متبادلة مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في أمور الفتح، والإمدادات، والخراج، وغيرها. كما كانت هناك الرسائل الواردة من الخلفاء لتوجيه الولاة،

---

(١) الفهرست صـ٤٢٥.

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة صـ٥٤٠.

(٣) ولا شك أن ذلك لم يكن على أيدى المسلمين؛ إذ كان قبل الفتح الإسلامى بمدة طويلة تراوحت ما بين القرنين والنصف، والأربعة قرون (وقد فَصَّل بتلر القول في هذه القضية، وأنصف العرب، ووضع احتمالات لحريق المكتبة، منها: أن ذلك تم في حريق مكتبة المتحف على عهد يوليوس قيصر، أو أنها تم الاستيلاء عليها، ونُقلت من معبد الإسكندرية، أو تفرقت وضاعت هنا أو هناك). (فتح العرب لمصر: ٢/ ٣٥٣-٣٧٠).

(٤) ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/ ٢٦٣.

وتكليفهم بمهام ولايتهم[1]. وهى تعد - بحق نماذج أدبية فريدة، تتسم بالبلاغة والبيان العالى.

أ- نموذج من الرسائل:

أرسل عمر بن الخطاب عمرو بن العاص يستحثه على إرسال خراج مصر إلى دار الخلافة بالمدينة، ويعاتبه ويُؤنّبه على إبطائه في ذلك الأمر، وكذلك يلومه على قلة خراج مصر عما كانت عليه زمن الفراعنة، ويتهم عمر عمال عمرو بأنهم عمال سوء، ويبين له أن النيل يخرج الدّرّ، وأنه عليه أن يدفع الحق الذى عليه.

وقد رَدَّ عمرو بن العاص[2] على اتهام عمر له بضعف خراج مصر قائلاً: " بلغنى كتاب أمير المؤمنين في الذى استبطأنى فيه من الخراج، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى، وإعجابه من خراجها على أيديهم، ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام. ولَعَمْرى، لَلْخَراج - يومئذ - أوفر وأكثر، والأرض أعْمَر؛ لأنهم كانوا - على كفرهم وعُتُوِّهم - أرغب في عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام ".

ثم يعاتب عمرو الخليفة عمر على تأنيبه ولومه إياه، وما يَشْتَمّ منه من طعن في ذمته المالية، فيقول له: " وقد عملنا لرسول الله ﷺ ولمن بعده، فكنا - بحمد الله - مؤدين لأماناتنا، حافظين لِمَا عَظَّم الله من حق أئمتنا، نرى غير ذلك قبيحاً، والعمل به سيئاً، فيُعرف ذلك لنا، ويُصَّدق فيه قِيلُنا. معاذ الله من تلك الطُّعَم، ومن شر الشِّيَم، والاجتراء على كل مَأْثَم ".

ويوضح - أخيراً - للخليفة أنه غَنِيّ عن العمل له، ما دام ينال منه، ويتهمه دون وجه حق، فيقول: " فاقْبِضْ عملك، فإن الله قد نَزَّهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها، بعد كتابك الذى لم تَسْتَبْقِ فيه عِرْضاً، ولم تُكْرِمْ فيه أخاً ".

وهكذا، نرى في الرد اعتذاراً من تهمة، وتَنَصُّلاً من قذف، ودفاعاً عن شرف. ونلمس فيه رَدّ المَغِيظ الثائر، وأدب المرءوس التابع، واعتزازاً بنزاهة الولاية، واستقالة من سوء ظن الخليفة به، وعُتْباً وتذكيراً[3].

---

(١) منها: رسالة على بن أبى طالب إلى قيس بن سعد، ورَدّه عليه بخصوص قتال معاوية بن حُديج ٣٧هـ (الولاة والقضاة للكندى صـ٢١٠)، ورسالة على التى أرسلها معه - لما ولاه مصر - إلى أهل مصر (النجوم الزاهرة ١/٩٧)، ورسالة معاوية وعمرو إلى محمد بن أبى بكر بمصر، وفيها طَعْن له وتخذيل وتهديد، ورده عليهم في إصرار وتهكم وحماس (المصدر السابق ١/١٠٩)، ورسالة عبد الله بن - عبد الملك بن مروان والى مصر (٨٩هـ) إلى موسى بن نصير والى المغرب، عندما تخطاه، وكتب إلى أبيه عبد الملك بن مروان مباشرة، وفيها تهديد ووعيد له (الولاة والقضاة للكندى ٦٠-٦١)، وإجابة موسى الرائعة، ورَدّه عليه (المصدر السابق: صـ٦١).

(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم: صـ١٥٩-١٦٠.

(٣) الأدب العربى في مصر حتى الفاطميين، لعبد الرزاق حميدة صـ٨٥.

ب- الخُطَب:

كانت الخطابة من الأساليب الدعوية التى يستخدمها الصحابة والتابعون ومن بعدهم إلى يومنا هذا؛ للنفاذ إلى القلوب، وللسيطرة على مجامعها.

فلا عجب أن نجد في مصر خطباء مُفَوَّهين من أمثال: عمرو بن العاص، الذى عُرف بالفصاحة، وحضور البديهة، والقدرة على الارتجال. وهذا دفع عمر بن الخطاب إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه أن يقول له: " خَالِق هذا، وخَالِق عمرو بن العاص واحد "[١]. وكذلك كان عمرو بن الحارث (ت ١٤٨هـ) المحدث المشهور، أَخْطَبَ أهل زمانه، وليس له نظير في حفظه. ويبدو أنه كان يدعم خطابته بالاستشهاد بكثير من جيد الشعر؛ مما دفع سعيد بن عُفَيْر أن يقول عنه: وكان أرواهم شعراً، بل إنه كان مؤدب وَلَدِ صالح بن على الهاشمى في مصر[٢]. فهو - إذن - قد جمع بين الحديث والفقه، والأدب (شعره، ونثره).

ولا شك أن الخطابة كانت - ولا تزال - من أهم مقومات الحاكم، فهى لسانه الذى يعبر عنه، ويخاطب به الناس خطاباً مباشراً. ومن هنا، كان الولاة في مصر - في معظمهم - خطباء عظماء، من أمثال: عمرو بن العاص، وقيس بن سعد بن عبادة، وعتبة بن أبى سفيان، وغيرهم.

نموذج من الخطباء:

ولعل أكثر والٍ، احتفظت لنا المصادر بنماذج من خطبه كثيرة، هو الوالى (عتبة بن أبى سفيان) على قِصَر عهده في ولاية مصر[٣]. وأختار له خطبة، قالها بمناسبة تمرد أهل مصر على نائبه أثناء غيابه، فقال فيها بعد حمد الله، والثناء عليه: " يأهل مصر، قد كنتم تُعْذَرون ببعض المنع منكم لبعض الجَوْر عليكم. وقد وَلِيَكم مَنْ إنْ قال فعل، فإن أبيتم درأكم بيده، فإن أبيتم درأكم بسيفه، ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول. إن البيعة شائعة، لنا عليكم السمع، ولكم علينا العدل. وأيُّنا غدر فلا ذمة له عند صاحبه. " فناداه المصريون من جنبات المسجد: سمعاً سمعاً. فنادهم: عدلا[٤]. ومن الواضح أن في هذه الخطبة ليناً، وتهديداً مشوباً بالترغيب في الطاعة. وتلك هى سياسة الأمويين، وقد أثمرت في فترة قوتهم، كما أثمرت هذه الخطبة، وانتهت نهاية طيبة[٥]. ويتضح أن خطبة عتبة بن أبى سفيان - كخُطَب ذلك العصر - سياسية، فيها شدة

---

(١) النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى ١/ ٦٤.

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبى ٦/٣٥١-٣٥٢.

(٣) ولى مصر في ذى القعدة سنة ٤٣هـ، ومات بها في الإسكندرية، وبها دفن في ذى الحجة سنة ٤٤هـ. (أى: وليها سنة، وشهراً). (الولاة والقضاة للكندى صـ٣٥-٣٦).

(٤) المصدر السابق صـ٣٥، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١/ ١٢٤.

(٥) الأدب العربى في مصر، لعبد الرزاق حميدة صـ٣٣.

ووعيد وتهديد أحياناً، وفيها مزج للترغيب بالترهيب أخرى، بما يناسب العصر وفتنه وثوراته مع بداية عهد أموى جديد.

ويلاحظ - رغم كثرة دواعى الخطابة في مصر ذلك العصر - أن الخطب قليلة[١]. وهذا القليل الذى وجد، غالباً ما يكون في كتب التاريخ المعنية بأحداث الفترة التى عاصرت تلك الخطب. ولعل ذلك يرجع إلى أسباب[٢]، منها ما يلى:

أ- أن الفصاحة تتركز على أوسع نطاق، وبأجلى صورها في جزيرة العرب والشام، حيث الخلفاء والولاة الفصحاء، كزياد بن أبيه، والحجاج، والثوار كالحسين، وابن الزبير. والخوارج كأبى حمزة الشارِىّ، وقَطَرِىّ بن الفُجَاءة.

ب- كثرة الرواة الذين يروون الخطب في الحجاز والشام والعراق، فراجت سوقها لديهم هناك.

جـ- تدوين التاريخ الأدبى في الشام والعراق والحجاز، فهى موئل العربية ومركزها، بينما مصر مجرد ولاية من ولايات الدولة، فأهمل أدبها.

د- صعوبة حفظ الخطب وتعسره بالقياس إلى الشعر مثلاً.

جـ- الوصايا:

وهى نوع من الأدب يهدف إلى التوجيه والإرشاد، والدعوة إلى حسن الخلق وكسب المحاسن. والوصية كالخطبة مع فارق: أن الأولى تكون بصفة فردية أو جماعية، ولغائب أو لشاهد، وتكون نثراً أو شعراً، وكتابة أو قولاً، كما أنها تكون بالنفع دوماً. أما الثانية فتكون بحضرة جماعة، وتكون لنفع أو لتهديد، ولمَدْح أو رِثاء[٣].

نموذج للوصايا:

وهذه وصية غالية دينية دنيوية سياسية، يرسم فيها مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ منهج الحكم الصحيح لابنه والى مصر: عبد العزيز بن مروان، وهو يودعه راحلاً من مصر إلى الشام. قال له مروان[٤]: أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيتك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. وأوصيك ألا تجعل لداعى الله عليك سبيلاً، فإن المؤذنين يدعون إلى فريضة افترضها الله عليك. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[٥]. وأوصيك ألا تَعِدَ الناس موعداً إلا أنفذتَه، وإن حُملتَ على الأسنة.

(١) ويذكر عبد الرازق حميدة في (الأدب العربى في مصر) صـ٤١: أننا لا نكاد نعثر على نص خطبة صريح للولاة العباسيين في مصر، حتى نهاية القرن الثانى الهجرى.

(٢) المرجع السابق: صـ٢٠، ٣٩-٤٠.

(٣) المرجع السابق: صـ٤٦.

(٤) الولاة القضاة للكندى: صـ٤٧-٤٨.

(٥) سورة النساء: جزء من الآية ١٠٣.

وأوصيك ألا تعجل في شئ من الحكم حتى تستشير، فإن الله ﷻ لو أغنى أحداً عن ذلك، لأغنى نبيه محمداً ﷺ عن ذلك بالوحى، الذى يأتيه. قال الله ﷻ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[١]. وهكذا، وَصّاه بإصلاح حاله مع الله، ومراقبته، والمحافظة على أداء الصلاة خاصة والفرائض عامة، ثم أوصاه بأساسيْن مهمين من أسس الحكم: الوفاء بالعهد، والشورى.

وهكذا، يمكن تلخيص النثر في مصر في تلك الفترة في كلمات: أنه يمتاز بوجازة في التعبير، ودقة في الألفاظ والأساليب، واستشهاد بآيات القرآن، ومواكبة للأحداث وتأريخ لها، مع تنوع في الموضوعات سياسيّاً ودينيّاً، وإن غلبت الناحية السياسية بطبيعة الحال، وحسب شخصية الخطباء والموصين، وأصحاب الرسائل، وتبعاً للظروف المحيطة بكل.

ثانياً - هل كان للأقباط دور في فن النثر في مصر؟

لا شك أن حديثنا الماضى مُنْصَبّ على العرب المسلمين، فهم الخطباء والمراسلون والموصون. والرعية من العرب هم المخاطبون بذلك، إلى جانب من قد أسلم وتعلم العربية من القبط، وهم ليسوا بكُثْر في الفترة الأولى على كل حال. ومن هنا لا ننتظر أن نجد أقباطاً ذوى إنتاج أدبى نثرى بالعربية، أو لعل ذلك كان موجوداً، ولم يصل إلينا منه شئ.

وجدير بالذكر أن هناك بعض خطباء من القبط، يستخدمون لغتهم، وكانوا على قدر عظيم من البلاغة والفصاحة، وعلى رأسهم بنيامين: زعيم الأرثوذكس في مصر، ذلك الرجل الذى خطب أمام جموع القبط في مصر، وأمام عمرو بن العاص بعد فتح الإسكندرية، وعودته من مهربه في خريف سنة ٦٤٤م (٢٤هـ)، فكان ذا منطق عذب، فيه تؤدة ورزانة. وتُرجمت خطبته لعمرو، فولاّه قومه، وأُعجب به[٢]. وقبل بنيامين كان قيرس (المقوقس) بطريق المذهب الملكانى، وخطبته في كنيسة القيصريون بمناسبة عودته من القسطنطينية يوم الاحتفال بعيد الصليب (٢٠هـ - سبتمبر ٦٤١م في عيد الفِصْح)، وما ذكره بتلر في عنه من إظهار البلاغة والبيان، ونجاحه في تحقيق غرضه من خطبته تلك في توهين قلوب المصريين القبط؛ ليسلموا الإسكندرية للمسلمين[٣].

٢- في الشِّعْر:

من الأمور التى لا مِراء فيها أن الصحابة الذين وفدوا إلى مصر فاتحين كانوا ذوى حس مرهف، وذوق أدبى بلاغى رفيع، ففيهم أقطاب وسَدَنَة القرآن والسنّة. وطبيعى

(١) سورة آل عمران: جزء من الآية ١٥٩.
(٢) فتح العرب لمصر، لبتلر: ٢/ ٣٨٤.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٢٧٣.

أن تُنَمّىَ علوم القرآن والسنة فيهم الذوق الأدبى الرفيع. ومن هؤلاء الأفذاذ: عمرو بن العاص، وابنه عبد الله(١)، والزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، وكلهم لهم اهتماماتهم الأدبية في حفظ ما أثر من شعر العرب وروايته. وأشهر هؤلاء ممن نُصَّ على مكانته في ذلك المجال عقبة ابن عامر الجهنى، فقد كان - إلى جانب كونه فقيهاً مُفْرِضاً - شاعراً فصيحاً، ذا شأن كبير يتمثل في الهجرة والصحبة والسابقة(٢)، وإن لم نعثر على شعر مما جادت به قريحته.

والشعر في مصر لم يُعْثَر منه إلا على النَّزْر اليسير. ولعل هناك أسباباً دعت إلى هذه القلة فيه، منها(٣):

أ- أن مصر خلال عصور الراشدين والأمويين والعباسين كانت مجرد ولاية تابعة للخلافة، ولم يكن لها ما للخلافة من مكانة؛ لجذب الشعراء إليها وتشجيعهم على قول الشعر.

ب- إذا بزغ نبوغ شاعر، كان يُحْمَل إلى الخليفة، أو يرحل هو؛ طلباً للعطاء الوفير.

جـ- جُلّ اهتمام المسلمين في مصر مُنْصَبّ على الدراسات القرآنية والحديثية والفقهية، ولم يكن الاهتمام بالأدب على المستوى نفسه؛ مما أضعف رواية الشعر، فضاع أكثره من مصر.

ويمكن تقسيم الشعراء في مصر خلال تلك الفترة إلى قسمين:

أولاً - شعراء مصر في القرن الأول الهجرى:

١- شعراء مستقرون: وهم الذين دخلوا مصر مع الفتح أو بعده، وأقاموا فيها، وتفاعلوا مع أحداثها ووقائعها، وعَبَّروا عنها. ومن هؤلاء الشعراء:

أ- لعل من أول ما قيل من شعر في مصر، وسجلته لنا المصادر، ما ورد على لسان شاعر مجهول أثناء رجوع الثائرين إلى مصر بعد اشتراكهم في قتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ، إذ قال شاعرهم مرتجزاً، وهم يدخلون الفسطاط:

---

(١) وقد ورد في (فتوح مصر) لابن عبد الحكم صـ٧٤: أنه أثناء تقدم جيوش المسلمين نحو الإسكندرية لفتحها، وبالتحديد عند القتال بالكِرْيَوْن، كان ابن عمرو على مقدمة الجيش، ومعه وَرْدان حامل اللواء وهو مولى عمرو. فأصابت ابن عمرو جراحات كثيرة، فأراد التقهقر؛ ليأخذ هدنة، لكن وردان شجعه على التقدم، فتقدم. ثم جاءه رسول أبيه يسأله عن جراحاته، فاستشهد ابن عمرو بقول الشاعر: أقول :إذا ما جاشَتِ النفسُ اصبرى. . فعَمَّا قليلٍ تُحْمَدى أو تُلاَمِى

(٢) الولاة والقضاة، للكندى صـ٣٧، والعبر للذهبى ١/ ٤٥، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦٧، ومرآة الجنان لليافعى ١/ ١٣٠، وتهذيب التهذيب ٧/ ٢١٦.

(٣) الأدب المصرى الإسلامى حتى الفاطميين، لمحمد كامل حسين صـ١١٦.

خذها إليك واحْذَرَنْ أبا حَسَنْ إنّا نُمِرُّ الحربَ إمرارَ الرَّسَنْ[١]
بالسيف كى نُخْمِدَ نيرانَ الفِتَنْ[٢]

وهناك الشاعر عابد بن هشام الأزدى[٣] : وهو الذى أشاد بدور مسلمة ابن مخلد سنة ٥٣هـ في تجديده مسجد عمرو بن العاص وتوسعته إياه، وبنائه منارات المساجد كلها، فقال ممتدحاً إياه:

لقد مُدَّتْ لمسْلَمَةَ الليالى على رغم العِداة مع الأمان
وساعده الزمان بكل سعد وبلَّغه البعيدَ من الأمانى
أمَسْلَمَ فارتقى لازلت تعلو على الأيامِ مَسْلَمَ والزمانِ
لقد أحكمتَ مسجدنا فأضحى كأحسن ما يكون من المبانى
كأنَّ تَجَاوُبَ الأصوات فيها إذا ما الليل ألقى بالجِران[٤]
كصوت الرعد خالطه دَوِىّ وأرْعَبَ كل مُخْتَطَفِ الجَنانِ[٥]

جـ- وثَمَّةَ شاعر آخر هو زُرْعَة بن سعد الله بن أبى زَمْزَمة الخُشَنِىّ، وهو شاعر متعصب لمصر، شجاع يقف ضد ظلم الولاة، ومنهم: عبد الله بن عبد الملك، وقام بهجائه؛ نتيجة زيادة الأسعار، وذلك إبَّان خروج الوالى إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨هـ، فقال:

إذا سار عبد الله خارجاً فلا رجعتْ تلك البِغالُ الخوارجُ
أتى مصر والمِكْيالُ وافٍ مُغَرْبَلٌ فما سار حتى سار والمُدُّ فالِجُ

فأهدر الوالى دمه، فهرب إلى المغرب، وكتب إلى الوليد:

ألا لاتَنَه عبد الله عنى كما قد قال يجعلنى نَكالا
ولم أشْتِمْ لعبد الله عِرْضاً ولم آكُلْ لعبد الله مالا[٦]

---

(١) أى: الحبل، والجمع أرْسان. والفعل: رسن، وأرسن: شده بالحبل (مختار الصحاح) للرازى مادة (ر.س.ن) صـ٢٤٣. والمقصود: نحكم الحرب، والحصار، والقتال.
(٢) الولاة والقضاة للكندى صـ١٨.
(٣) ورد في شعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية، للماحى، وخفاجى صـ٢٥.
(٤) الجِران: باطن العنق: وقيل: مُقَدَّم العُنُق من مذبح البعير إلى مَنْحَره. فإذا تُرِك البعير، ومُدَّ عنقه على الأرض، قيل: ألقى جِرانَهُ بالأرض. والجمع: أجْرِنَة، وجُرُن. والمقصود: إذا هجم الليل بظلامه الدامس المُدْلَهِمّ الطويل. (لسان العرب لابن منظور، مادة (ج.ر.ن) ١/٦٠٧، وما بعدها.
(٥) الخطط للمقريزى: ٢/٢٤٨.
(٦) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٥٩.

٢- شعراء وافدون في القرن الأول الهجري:

ولما ولي عبد العزيز بن مروان شئون مصر (٦٥-٨٦هـ)، وكان محبّاً للأدب، مثقفاً راوية للحديث، أتى إلى مصر العديد من الشعراء، باعتباره ولي العهد بعد أخيه الخليفة عبد الملك، إضافة إلى ما عُرف منه من جود وكرم، عَبّر عنهما سعيد بن عفير-ربما بشئ من المبالغة-حين قال: كانت له ألف جَفْنَة، تُنْصَب كل يوم حول داره، ومائة جفنة يُطاف بها على القبائل في مصر[١].

فلا غَرْوَ - بعد ذلك - أن يأتي إلى مصر عدد من الشعراء؛ لمدحه ونيل عطائه، ثم يعودون بعدها إلى ديارهم. ومن هؤلاء: شعراء مشهورون، مثل: جَميل بُثَيْنَة[٢]، وكُثَيِّر عَزَّة[٣]، وعُبيد الله بن قَيْس الرُّقَيَّات[٤]، وأيمن ابن خُرَيْم بن فاتِك الأسدى، ونُصَيْب بن رَبَاح[٥]. وقد كان الغرض الأساسى لشعر هؤلاء هو المدح، وذلك في زمن الإقبال. ومثال ذلك مدح الشاعر أيمن بن خريم لعبد العزيز قائلاً:

لا يرغب[٦] الناس أن يعدلوا ... بعبد العزيز بن ليلى أميرا
ترى قِدْرَه مُغْلَناً بالفِناء يُلْقِمُ ... بعد الجَزُورِ الجَزُورا[٧]

ثم ساءت العلاقة بين عبد العزيز وأيمن، لما استأثر نصيب بن رباح الشاعر بإعجاب عبد العزيز، فترك أيمن الأمير، وسافر إلى العراق، ومدح بِشْر بن مروان، وعَرّض بعبد العزيز، فقال:

ركبتُ من المُقَطَّم في جُمَادَى ... إلى بشر بن الوليد البَرِيدا
ولو أعطاكَ بِشْرٌ ألفَ ألفٍ ... رأى حقاً عليه أن يَزيدا

حتى قال:

---

(١) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٥١.

(٢) قدم جَميل بن مَعْمَر مصر إلى عبد العزيز بن مروان، وتوفى بمصر سنة ٨٢هـ (مرآة الجنان لليافعى: ١/١٦٩، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/٥٥٨).

(٣) اتصل بعبد العزيز في مصر، ومدحه ورثاه، وجاء لأجل عزة، وبكاها لمّا دُفنت في مصر. (الشعر والشعراء لابن قُتَيْبة ١/ ٥١٠، والأغانى للأصفهانى ٥/ ١٣٥، وزَهْر الآداب للحُصْرى: ١/ ٣٥٢، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/٥٥٨).

(٤) ووجوده في مصر لا شك فيه، فله أشعار كثيرة تدل على ملازمته عبد العزيز في مصر، ذكرها الكندى في (الولاة والقضاة): صـ٥٠ في (وصف حُلْوَان)، وصـ٥٢ في (كرمه)، وصـ٥٣ (في رحلة عبد العزيز إلى الإسكندرية).

(٥) ترجم له ياقوت في (معجم الأدباء) ١٩/ ٢٢٨-٢٣٤، و(الشعر والشعراء) لابن قتيبة ١/ ٤١٧.

(٦) وردت في (الولاة والقضاة) للكندى صـ٥٢ بلفظة: (لا يرهب). والصواب ما ذكرته في المتن، وذكره الماحى في (شعراء مصر من الفتح الإسلامى): صـ٣٠، وعبد الرزاق حميدة في (الأدب العربى في مصر) صـ١٣٦.

(٧) ورد البيتان في (الولاة والقضاة) للكندى: صـ٥٢.

كـأنَّ الـتـاجَ تـاجُ بـنـى هِـرَقْـلٍ جَـلَـوْه لأعـظـم الأيـام عِـيـدا
عـلـى دِيـبـاجِ خَـدَّىْ وَجْـهِ بِـشْـرٍ إذ الألـوانُ خَـالَـفَـتِ الـخُـدودا[١]

وهو في البيت الأخير يُعَرِّض بوجه عبد العزيز بن مروان؛ لشئ كان فيه.

وقد رَثَى نُصيب بن رباح[٢] مولاه عبد العزيز، إذ اتصل به أكثر من عشر سنوات حتى بعد وفاته، فيَرْثِيه رثاء فيه لَوْعَة ظاهرة عليه، وعلى ابنه الأَصْبَغ:

بَـكَـيْـتُ ابـنَ لَـيْـلَـى وابـنـه ورأيـتُـنـى أَحَـقَّ الأُلَـى أَمْـسَوْا نَـعَـى بـبُـكـاهـمـا

حتى قال:

بحُسْن الثَّنَا والحمد في الناس فَارَقا ألا بـأبـى حـقـاً وأمـى ثَـنَـاهـمـا[٣]

ثانياً - شعراء مصر في القرن الثانى الهجرى:

١- شعراء مستقرون:

أ- يأتى على رأس الشعراء الشاعر والفقيه والمحدّث والمؤرخ سعيد بن كَثير بن عُفَيْر (١٤٦-٢٢٦هـ)، الذى كان ذا شعر صريح صادق بعيد عن التزلف والتملق، يتمتع بالنقد الحر، والشجاعة في القول. وأول ما رُوى له من شعر يتصل بعام ١٦٨هـ، وآخره ٢٠٩هـ. وفى هذا الشعر عصبية لقَحْطان وقُضاعة، وهو - في الجملة - جيد الأسلوب، صادق المعنى[٤].

ومن شعره القوى الشجاع مدحه هُبَيْرَة بن هاشم، الذى هرَّب إبراهيم الطائى الثائر ضد الوالى المطَّلب بن عبد الله الخُزاعى من قبل المأمون ١٩٨هـ، ولم يخضع هبيرة لتهديد السيف، ولم يظهره حتى خَفّ الطلب، فأُخرج للصعيد، وأفلت.

يقول ابن عفير:

لَـعَـمْـرِى لـقـد أَوْفَـى وفـاقَ وفـاؤه هُـبيرة في الـطـائى وفـاءَ الـسَّـمَـوْأَلِ
وقـاه الـمـنـايـا إذ أتـاه بـنـفـسـهِ وقـد بَـرَقَـتْ فـي عَـارِضٍ مُـتَـهـلـلِ
فـمـا انْـفَـكَّ مـحـبـوسـاً ومُـطَّـلِـبٌ لـه عـلـيـه قَـصـيـف بـالـوعـيـد الـمُـهَـوَّل
إلـى أن تَـجَـلَّـتْ عـنـه أبـيـضَ مـاجـدٍ كـريـم الثَّنَا في المشهد المتدخَّلِ[٥]

فهو - هنا - قريب الشبه بزُهَيْر بن أبى سُلْمَى الشاعر الجاهلى، فكلاهما لم يمدح

---

(١) الأغانى للأصفهانى ١/ ١٢٧.
(٢) وردت أخبار هذا الشاعر في (المصدر السابق) للأصفهانى ١/ ١٢٥ وما بعدها.
(٣) الولاة والقضاة للكندى: صـ٥٧.
(٤) الأدب العربى في مصر، لعبد الرزاق حميدة: صـ٢٠٧-٢٠٨.
(٥) الولاة والقضاة للكندى: صـ١٥٢-١٥٣.

لِنَوَالٍ، وإنما مدح خصال الرجل وخُلُقه، لا لشئ آخر كمنصب وخِلافه، فمدحه بأن شَبَّهه بالسموأل بن عَادِياً في الوفاء، وبالجَلَد على تحمل العذاب؛ لأجل الوفاء[١].

وشارك ابن عفير - كذلك - في وصف أحداث الفتنة العارمة بين السَّرِيّ بن الحَكَم وأبنائه من جهة، وعبد العزيز بن الوزير الجَرَوِيّ وابنه من جهة أخرى، وكان لشعره البَتَّار مشاركته الخطيرة كسلاح فَتَّاك في ذلك الصراع. فكان يمثل الحزب المصرى الخالص المصرية، مناصرةً للجَرَوِيين، وهجا السرى بن الحكم وبنيه، وبكى كل مصرى سقط في الميدان[٢]. فها هو يبكى هبيرة بن هاشم بن حُدَيْج، الذى قتله أصحاب السرى سنة ٢٠٠هـ دون علمه، فحزن السرى عليه وندم، وها هو ابن عفير يصف شجاعة القتيل، فيقول:

لعمرى لقد لاقَى هُبيرة حَتْفَه ... بأفضل ما تُلَقَّى الحُتوف السَّوارعُ
بأنْفٍ حَمِيٍّ لم تُخالِطْه ذِلَّة ... وعِرْض نَقِيّ لم تَشِنْهُ المطامعُ

حتى يقول:

فلم أر مقتولاً أجَلّ مُصابه ... على مَنْ يُعادى والذين يُجامِعُ
من ابن حُديج يوم أعلن نَعْيَه ... وقام به في الناس راءٍ وسامعُ
فولَّوا فُلولاً قد عَلَتْهُمْ كآبةٌ ... وكلهمُ بادى التَّلَهُّفِ جازعُ[٣]

ب- وثَمَّةَ شاعر آخر من نوعيه مغايرة هو (المُعَلَّى الطائى)[٤] : وهو معاصر لابن عُفير، وذكر له الكندى شعراً يمتد ما بين سنة ١٩٤-٢١٤هـ، وكان كابن عفير يتابع الأحداث، ويسجلها في شعره، لكنه ليس له مبدأ ثابت في المدح، فقد كان يتكسب بشعره، ولا يتورع أن يمدح أحدهم، ثم يمدح عدوه إذا صار الأمر لعدوه، فيقال: كان مع السرى وولده ومدحهما، ثم لما انتصر عبد الله بن طاهر عليهم وقف يمدحه، فقال فيما قال:

يا أعظمَ الناسِ عفواً عند مقدرةٍ ... وأظلمَ الناسِ عند الجُودِ بالمالِ[٥]

---

(١) الأدب المصرى الإسلامى لمحمد كامل حسين صـ١٦٠-١٦١.

(٢) الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، لحسين نصار صـ١٠١-١٠٢.

(٣) الولاة والقضاة للكندى :صـ١٦٠-١٦١.

(٤) جعله عمر بن محمد بن يوسف الكندى في كتابه: (فضائل مصر) صـ٤٣، من الوافدين على مصر، والأقرب عندى أنه من المصريين المستقرين؛ لطول مشاركته في الأحداث بشعره، وانهماكه في مجاراة ابن عُفير في تناول كثير من أحداث مصر في شعره. فأعتقد أنه استقر في مصر طويلاً، ولم يأت لمجرد أخذ العطاء وكفى، وإلا لرحل سريعاً. وإنما أراد العطاء، وجرفته الأحداث، فأطال المقام، وسجلتها قريحته الشعرية الجيدة.

(٥) راجع: تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٩/ ٤٨٤، والأدب العربى في مصر للدكتور عبد الرزاق حميدة صـ٢٠٨. وقد ورد بعد البيت المذكور عدة أبيات، منها البيت التالى مباشرة، وفيه يقول: =

فسُرّ الوالى به، وأجزل له العطاء، فقد مدح؛ طمعاً في الصلة.

٢- شعراء وافدون على مصر في القرن الثانى الهجرى:

أ- أبو نُوَاس الحسن بن هانئ:

وذكر السيوطى[(١)] نزوله مصر، ولا بد أن له بها أشعاراً، بحثت عنها في ديوانه، لكن لم أقف على شئ منها.

ب- أبو تَمَّام حَبيب بن أوْس الطائى:

قدم إلى مصر في حداثته، وكان يسقى الماء في المسجد الجامع بالفسطاط، ثم جالس الأدباء، وأخذ عنهم وتعلم منهم، وكان فَطِناً فَهِماً يحب الشعر، فلم يزل يعانيه حتى قاله وأجاده، فسار شعره في الركبان واشتهر، وسمع به الخليفة المعتصم، فأمر بحمله إليه في (سُرَّ مَنْ رأى)[(٢)].

ولأبى تمام شعر مسجل في مصر في وصفه انتصار عبد الله ابن طاهر على عُبيد الله بن السرى وجيشه سنة ٢١١هـ، فقال:

لعمرى، لقد كانت بمصر وقعة ... أقامت على قصد الهُدَى كل مائلِ
على الخندق الأقصى وما كان حوله ... وبما قد يليه من فضاء وساحلِ

حتى قال:

فلما رأوا أن لا مَحِيصَ وأنه ... كفاح الرَّدَى في كل حق وباطلِ
تواخَوْا أمان الأرْيَحِيّ ابنِ طاهرٍ ... فمِنْ فارسٍ يأتيه طوعاً وراجِلِ[(٣)]

ثالثاً - قضية الشعر لدى الأقباط في مصر:

الحق أن الإسكندرية كانت مرتكز الحضارة والثقافة في مصر في عصور ما قبل الإسلام (يونان - بطالمة - رومان)، إذ كانت بها المكتبات العامرة والجامعات ومعاهد العلم ودوره، وعليها قدم سقراط، وأرسطو، وأفلاطون، وغيرهم. وغدت الإسكندرية مَحَطّ الأنظار، فقد كانت امتداداً لحضارة أثينا باليونان، فمزجت نتاج الشرق والغرب الحضارى. لما جاء الإسلام تحول الاهتمام إلى الفسطاط، وأهملت الإسكندرية. ولا شك أن أشعاراً نُظمت باللغة القبطية من وراء عواطف فردية أو جماعية، لكنها لم يحتفظ الناس بها، وإن كان ما بقى من آثار أدبية قليلة يثبت وجود نهضة أدبية قبطية في

= لو يُصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهباً ... لما أشرتَ إلى خَزْن بمِثْقالِ

(١) حسن المحاضرة: ١/ ٥٥٩.

(٢) الأنساب (ط.الهند) للسمعانى: ٩/ ٢٤.

(٣) الولاة والقضاة، للكندى: صـ١٨١.

منتصف ق ٧م إلى نهاية ق ٨م (ق ٢هـ)، وبعدها تغلب تيار الثقافة العربية[١]. وهكذا، لم يبق لنا من أثر يُذكر لإسهام القبط في تلك الفترة المبكرة بأدب قبطى، ناهيك عن إسهامهم بأدب مكتوب باللغة العربية.

رابعاً - سمات الأدب المصرى في القرنين: الأول، والثانى الهجريين:

١- قلة ما تبقى من نصوص الأدب المصرى (شعره، ونثره)، بحيث لا يكفى لإعطاء صورة متكاملة حقيقية لطبيعة الأدب المصرى، والمؤثرات التى أثرت فيه. فكثير من شعرائه مغمورون، وما بقى منه مجرد أبيات في المدح، أو الهجاء وغيرها. ولم يلمح من هذا الشعر إلا ما كان على أيدى أناس من الشعراء الوافدين كنصيب الحجازى، وأبى تمام الطائى، وغيرهما.

٢- رغم قلة وضعف مستوى الأدب المصرى للشعراء المقيمين عامة، إلا أنه أثبت استقلاله في ناحية الموضوعات على الأخص، إذ يعد سجلاً حافلاً، ومدوناً ومتفاعلاً مع الوقائع والحوادث والتقلبات السياسية على الساحة المصرية من خلال علاقاتها المتشابكة مع دار الخلافة. فهو أدب مصرى الطابع، والموضوع والفكرة، والأسلوب[٢].

٣- بمقارنة الأدب المصرى بنظيره العراقى - مثلاً - في فترة ازدهاره في العصر العباسى نجد أن تراكمات الثقافات الأجنبية الوافدة إلى العراق، وقوته المركزية العلمية، أثرت في إبداع شعرائه، فظهرت مدرستان:

أ- مدرسة تُعْنَى بالألفاظ المنمقة، وتسرف في الزينة البديعية، وتعنى بموسيقى اللفظ والبديع. وهذه يمثلها أبو تَمّام، ومسلم بن الوليد، وغيرهما.

ب- مدرسة تعنى باللفظ السهل الرشيق كالبُحْتُرِىّ، وغيره.

أما في مصر، فشعراؤها عُنوا بالمعانى، وقَلَّما تجد أنواع البديع المسرف في شعرهم. فهو شعر طبيعى لا تَكلُّف فيه ولا تَعَمُّلَ، ومصطبغ بالصبغة المصرية[٣].

٤- أن البيئة المصرية بنهرها الخالد ووديانها الخصبة، تركت آثارها في الشعراء الوافدين. وقد تجلّى ذلك فيما بقى من شعر عُبيد الله بن قيس الرقيات في وصف حلوان. لكن أثر البيئة لم يظهر بصورة كافية لدى شعراء مصر؛ بسبب تتابع الثورات والأزمات والفتن، فلم تكن من فرصة لتأمل الشعراء، ولعل الذى فيه التأمل في الطبيعة المصرية قد ضاع.

---

(١) شعراء الإسكندرية في العصور الإسلامية، لعبد العليم القبانى: صـ٣٧-٤٤.

(٢) الأدب المصرى، لمحمد كامل حسين: صفحة (جـ)، (د) من مقدمة الكتاب، والأدب العربى في مصر، لعبد الرزاق حميدة صـ١٦٢.

(٣) الأدب المصرى، لمحمد كامل حسين صـ١٣٦-١٣٨.

٥- أغراض الشعر المصرى التى عَبَّرَ عنها الشعراء تقليدية، لا جديد فيها: مدح، وهجاء، ورثاء، ووصف، وغير ذلك.

٦- أن الثقافة في نماذج النثر المصرى عربية أصيلة في معجمها اللفظى، وإيحاءاتها وموضوعاتها. وتأثر هؤلاء بالقرآن وجزالة ألفاظه، فأفادوا من ثقافتهم العربية والإسلامية في كتابة النثر.

وهكذا، عرضنا دور مصر وإسهامها الأدبى خلال القرن الأولَيْن من الهجرة، ونأمل أن يتطور ذلك الدور خلال القرن الثالث الهجرى، بإذن الله.

وبعد، فقد عرضنا لعلوم القراءات والتفسير، والحديث، والفقه، واللغة والأدب (شعر، ونثره) في مصر خلال هذين القرنين، وكان تركيزنا واضحاً على إبراز أعلام هذه العلوم، والأدوار التى اضطلع كل عَلَم منهم بها، والإنجازات التى تمت على مستوى كل عِلْم على حِدَة، وصلات علماء مصر في كل هذه العلوم بعلماء المدارس الأخرى تأثيراً وتأثراً، ومكانة العلماء في كل فرع من هذه الفروع الثقافية، والدور الذى لعبه كل منهم، ومدى إسهامه في حركة المجتمع المصرى، وبقى - بعد هذا كله - أن نعرض في مواجهة ذلك كله، (دور التاريخ، ورجاله) في الإسهام في حركة المجتمع الإسلامى في مصر مقارنة ببقية العلوم داخل مصر وخارجها. وهذا موضوع الصفحات التالية إن شاء الله (تعالى).

الباب الثاني

التـــاريـــخ

نشأته - عوامل تدوينه - مدارسه

في الأقاليم الأخرى

مدخل:

هذا الباب مخصص لإلقاء الأضواء المركزة على مدارس التاريخ الإسلامى - من دون مصر - في القرنين: الأول، والثانى الهجريين، وبيان أعلام هذه المدارس، ومؤلفاتهم، ومنجزاتهم في هذا المجال، مع بيان الملامح العامة التى تشكل مناهج هذه المدارس. وكل ذلك نضعه في الاعتبار عند دراسة المدرسة المصرية التاريخية فيما بعد؛ كى نقارن بينها وبين هذه المدارس المعاصرة لها، مع بيان الصلات بينها.

وقبل ذلك قدمنا بمقدمات ضرورية، عرّفنا فيها بمفهوم التاريخ لغة واصطلاحاً، وناقشنا قضية وضع التقويم الهجرى؛ لما لها من أهمية قصوى، وربطنا بين تاريخ عرب الجاهلية وتاريخهم في الإسلام، ورصدنا عوامل تدوين التاريخ الإسلامى، ومراحل هذا التدوين.

ومن هنا، انقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول متناسقة:

الأول - مفهوم التاريخ، وعوامل، ومراحل تدوينه.

الثانى - مدرسة الحجاز التاريخية.

الثالث - المدارس التاريخية في العراق، والشام، واليمن.

الفصل الأول

مفهوم التاريخ وعوامل ومراحل تدوينه

قبل أن أتعرض للحديث عن الدراسات التاريخية في الحجاز، والعراق، والشام، واليمن، ومصر إبان القرنين الأولين من الهجرة، أرى أن من المقدمات الضرورية لهذا العمل أن أُبَيّن - في إيجاز وتركيز - عدداً من القضايا المهمة وثيقة الصلة بهذا الموضوع، وهى كالآتى:

أولاً - معنى لفظة (التاريخ):

أ- المعنى اللغوى للفظة (التاريخ):

ذكر ابن منظور في (لسان العرب)(١)، والرازى في (مختار الصحاح)(٢)، والسخاوى في (الإعلان)(٣) ما خلاصته: التأريخ، والتَّوْريخ بمعنى: تعريف الوقت. تقول: أرَّخ الكتابَ بيوم كذا، و(وَرَّخه) بمعنى واحد.

فالتاريخ في اللغة: هو الإعلام بالوقت. يقال: أرّختُ الكتابَ، ووَرَّخْتُه أى: بيّنتُ وقت كتابته.

ب- لفظة (التاريخ) بين العربية والعُجْمَة:

للباحثين في ذلك الأمر رأيان اثنان هما:

الأول - أنها لفظة عربية: ويأتى على رأس القائلين بذلك السخاوى(٤)، فيذكر أن الأصمعى فَرَّق بين لغتين: بنو تَميم تقول: وَرَّخْتُ الكتاب توريخاً. وقيس تقول: أرَّخْتُه تأريخاً. وهذا يدل على عربية اللفظ. ومما يؤكد ذلك الرأى أن لفظة (التاريخ) مشتقة من (الأَرْخ)، وهو ولد البقرة الوحشية، فكما يخرج هذا الوليد من أنثى البقر ويَحْدُث،

---

(١) مادة (أ.ر.خ): ١/ ٥٨. وذكر ذلك - أيضاً - الألوسى فى: (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب): ٣/ ٢١٤.

(٢) مادة (أ.ر.خ): صـ٣.

(٣) صـ١٤ (ط.دار الكتب العلمية - بيروت).

(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ: صـ١٥، وتاريخ دمشق لابن عساكر (ط.المنجد): ١/ ٢١.

يحدث التاريخ كذلك. ويرى الدكتور حسين نصار(١)، والمستشرق (جب)(٢) استبعاد كون لفظة (التاريخ) فارسية الأصل، ويرجحان عربيتها، إلا أنهما يريان أنها ليست مأخوذة من (الأرخ)، بل هى كلمة قديمة مشتركة بين اللغات السامية، بينها وبين كلمة (ياريح) العبرية، التى تعنى: الشهر، صلة قرابة.

ويرى بعض الباحثين الآخرين أن لفظة (التاريخ) لفظة عربية، جذرها (و.ر.خ)، وأنه جذر سامى نُقل - بالتحديد - عن لغة اليمن الجنوبية، وليس منقولاً عن العبرية ولا السريانية(٣).

الثانى - أنها لفظة أعجمية: وهو رأى ذكره حمزة الأصفهانى(٤)، قال: كلمة (التاريخ) فارسية الأصل مأخوذة من (ماه روز) بمعنى: القمر اليوم. وتابعه في ذلك الجواليقى(٥) الذى قال: (التاريخ هو الذى يؤرخه الناس ليس بعربى محض، وأخذه المسلمون عن أهل الكتاب).

والخلاصة: أنه عربى الأصل نابع من بيئتنا وتراثنا، وجذوره من أصل لغتنا العربية، وسوف تُدعم هذه الحقيقة - بعد ذلك - عندما ندرك استقلالية التاريخ الإسلامى من حيث النشأة.

جـ- المعنى الاصطلاحى للفظة (التاريخ):

التاريخ - في الاصطلاح - يعنى: الفن الذى يُبحث فيه عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت. ومعنى ذلك: أنه يعنى الاهتمام بمواليد ووفيات الأئمة والحكام والعلماء، ويهتم بوقائع حياتهم وحوادثها الجليلة، وقيام الدول وانهيارها، وقد يُتوسع فيه، فيندرج تحته قصص الأنبياء وبدء الخلق، وما قد يقع في العالم من آيات كونية، وحوادث طبيعية كالزلازل، والبراكين والسهول، وانتشار الأوبئة، وغير ذلك من الأحداث الجسام(٦).

ويرى الدكتور حسين نصار(٧): أن لفظة (التاريخ) مرت بمراحل ثلاث، تطور فيها

---

(١) نشأة التدوين التاريخى عند العرب: صـ٣.

(٢) مقالة (تاريخ) التى حررها جب، بدائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين (من الترجمة العربية): جـ٤ صـ٤٧٣.

(٣) دراسات عن المؤرخين العرب، لمارجليوث (ترجمة: (حسين نصار): صـ٣٠، و(علم التاريخ) لهرنشو (فصل: إلمامة بالتاريخ عند العرب) بقلم المترجم عبد الحميد العبادى: صـ٥١، وعلم التاريخ عند المسلمين لروزنثال (ترجمة: د.صالح أحمد العلى) صـ٢٠-٢٣، والتاريخ العربى والمؤرخون لشاكر مصطفى ١/ ٤٩.

(٤) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء: صـ٨.

(٥) المُعَرَّب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم: صـ١٣٧.

(٦) الإعلان بالتوبيخ، للسخاوى صـ١٧، وأبْجَد العلوم، للقِنَّوْجِى: ٢/ ١٣٧.

(٧) نشأة التدوين التاريخى عند العرب: صـ٤.

معناها، حتى ظهر مقصودها الاصطلاحى، وذلك كما يلى:

١- لما كان الساميون يحددون شهورهم قمرياً لا شمسياً، وكانوا يقيمون تاريخهم على الليالى دون الأيام (كما هو في التاريخ الهجرى الآن)؛ كان معنى التاريخ في البداية: تحديد الشهر الذى وقعت فيه واقعة ما.

٢- ثم اتسع المفهوم، فصار التاريخ يُطلق على التوقيت بعامة، وتحديد عهد أية حادثة من الحوادث.

٣- ثم لازالت اللغة في تطورها، حتى شمل هذا اللفظ رواية الحادث نفسه من جهة، وتحديد زمنه الذى وقع فيه من جهة أخرى. وكانت هذه هى الخطوة الأخيرة، التى بزغ فيها لفظ (التاريخ) بمعناه الاصطلاحى المعروف.

والخلاصة: طبقاً لهذه المرحلة الأخيرة، فإن تاريخ شئ من الأشياء يعنى: الدلالة على وقته الذى ينتهى إليه، بالإضافة إلى ما وقع خلال هذا الوقت من الوقائع والأحداث[١].

د- بين مصطلحَي: (التاريخ)، و(التأريخ):

من خلال ما سبق ظهر لنا أن لا فارق بين اللفظتين على المستوى اللغوى. لكن بعض الباحثين[٢] دقّق النظر، ومَحّصه على المستوى الاصطلاحى، فرأى أن التاريخ والتأريخ مرحلتان متعاقبتان متمايزتان، تتلو إحداهما الأخرى، كما يلى:

أ- التاريخ: History مرحلة فيها البحث والتحرّى، والاطلاع على أحوال السابقين من خلال ما خلّفوا من آثار.

ب- التأريخ: Historiography فن إنشائى أدبى يقوم فيه المؤرخ بكتابة أحداث التاريخ ووقائعه، وتدوينه تدويناً تاريخياً.

والرأى - عندى - أن التفرقة صحيحة ودقيقة، رغم إغفال المؤرخين الأقدمين لها[٣]؛ إذ لا يصح الخلط بين عملية التدوين التاريخى نفسها، وبين ما يسبقها من بحث ونظر، وتجميع للمادة التاريخية.

ثانياً - متى وُضع التقويم الهجرى في الإسلام؟

عرف العرب - قبل الإسلام - التوقيت بالنجوم والأهِلّة، فيحسبون السنين على الليالى دون الأيام خلافاً لما كان لدى العجم. وكانوا يؤرخون طبقاً للحوادث العظيمة

(١) محاضرات في علم التاريخ، للدكتور حسنين محمد ربيع: صـ٤.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى، للدكتور أحمد شلبى ١/٢٨. والتاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى: ١/ ٥٠، ٥٢.

(٣) لم يذكر السخاوى في (الإعلان) تعريف (التأريخ)، كما عبّر الطبرى عن (التاريخ) بلفظة (التأريخ)، وخلط بينهما في مواضع عديدة من (تاريخه)، منها: جـ٢ صـ٣٩١ -٣٩٢، جـ٤ صـ٣٨.

والوقائع المشهورة كبناء الكعبة، وحادثة الفيل، وغير ذلك مما له أثر عظيم وخطير في حياتهم[(١)].

ولما جاء الإسلام، كانوا يُسَمُّون كل سنة باسم الحادثة المهمة التى وقعت فيها، ويؤرخون بها. فسميت السنة الأولى من سِنِي مقام الرسول ﷺ بالمدينة بالإذن بالرحيل، وسميت الثانية بالأمر بالقتال، والثالثة (غزوة أحد): بالتمحيص، وهكذا. فلما بدأت الفتوحات تتسع في عهد عمر بن الخطاب، تركوا تسمية السنين بالأحداث[(٢)] ؛ إذ لا بد من التغيير بما يتواءم مع أحداث الدين الجديد، ومتطلبات الدولة الإسلامية الناشئة، فتذكر الروايات المشهورة أن أبا موسى الأشعرى كتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ يذكر له أن رسائله ليس لها تاريخ تؤرخ به، فاستشار عمر الناس، فأشار البعض بأن يؤرخ من هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة، فوافق عمر عليه؛ لأن الهجرة فرقت بين الحق والباطل[(٣)]. وكان ذلك لسنتين ونصف من خلافة عمر (١٦هـ)[(٤)]. وقد جعل عمر شهر المحرم أول السنة الهجرية؛ نظراً لحرمته عند الله، ولأنه يُكْسَى فيه البيت، ومُنْصَرَف الناس من الحج[(٥)]. وبناء على ذلك يكون عمر قَدّم التقويم الهجرى نحو شهرين واثنى عشر يوماً؛ لأن الرسول لم يهاجر في بداية المحرم، وإنما هاجر - على الأرجح - في الثانىَ عَشَرَ من ربيع الأول[(٦)].

ثالثاً - هل كان للعرب دور في تدوين تاريخهم قبل الإسلام؟

إن طبائع الأمور تقتضى التسليم بوجود صور لتعبير العرب عن أنفسهم وأحداث تاريخهم؛ إذ لا توجد أمة على وجه الأرض تتجاهل تاريخها، أو تتناسى أحداثه، أو تعجز عن تسجيل مآثرها. فالإحساس التاريخى ممارسة إنسانية فطرية لا تخلو منها جماعة من الجماعات. وعلى ذلك فعرب الجاهلية لم يكونوا متبلدى الحس التاريخى؛ بدليل قولهم: فلان تاريخ قومه، أى: إليه ينتهى شرفهم وعزهم[(٧)] ؛ مما يدل على إدراكهم أبعاد التاريخ وأهمية صانعيه، صحيح أن الأمية كانت متفشية بين عرب الجاهلية، لكنهم لم يعدموا طريقة ما، يسجلون بها أيامهم، سواء من خلال الشعر أم

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٣٩٠-٣٩٢، وبلوغ الأرب، للألوسى: ٣/ ٢١٤ وما بعدها.
(٢) الإعلان بالتوبيخ (ط.دار الكتب العلمية)، للسخاوى: صـ١٤.
(٣) تاريخ الطبرى ٢/ ٣٨٨، والكامل لابن الأثير ١/ ١٠.
(٤) تاريخ الطبرى: ٤/ ٣٨.
(٥) التاريخ الكبير، للبخارى، الجزء الأول، القسم الأول: صـ١٠، وتاريخ الطبرى ٢/ ٣٨٩-٣٩٠، وتاريخ دمشق لابن عساكر (ط.المنجد): ١/ ٤٤.
(٦) تاريخ الطبرى ٢/ ٣٩٣، ومقال: (حكاية المُحَرَّم والأشهر الحُرُم)، للدكتور على عبد الواحد وافى صـ٦ في (صفحة جريدة الجمعة) بصحيفة الأخبار (عدد ٤ محرم ١٤٠٨هـ، ٢٨ أغسطس ١٩٨٧م).
(٧) تاريخ دمشق، لابن عساكر (ط.المنجد): ١/ ٢١.

الأخبار المتفرقة، أم الروايات الشفهية المتداولة جيلاً بعد جيل. ولما لم يكن العرب جميعاً من البُدَاة، فإن سكان الحضر - خاصة اليمن والحِيرة - نقشوا بخط المُسْنَد (خط اليمن القديم) أخبار مملكتهم وشئونهم العامة. وقد أودعت بعض هذه الآثار أدْيِرَة الحيرة وكنائسها(١). وسنرى - بعد ذلك، وعند استعراض تاريخ الإسلام - انعكاسات أخبار عرب الجاهلية على ذلك التاريخ، بإذن الله (تعالى).

رابعاً - ما هى الدوافع والعوامل المختلفة التى دفعت المسلمين إلى تدوين تاريخهم الإسلامى؟

١ - عوامل تتصل بطبيعة الإسلام وشخصيته التاريخية:

(أ) عقيدة الإسلام - وهى التوحيد - هى عقيدة الرسالات السماوية كلها، وهى التى أعطت للمسلمين إرشادات تاريخية نابعة من أسس هذا الدين القويم؛ مما دفع المسلمين إلى الحرص على كتابة تاريخ الأنبياء والمرسلين السابقين، وأحداث وتاريخ أممهم قبل الإسلام؛ ليكون ذلك تعبيراً عن فهم المسلمين لوحدة الرسالات، ووحدة الإنسان، ووحدة الخالق، ووحدة الدين. ثم كتب المؤرخون المسلمون تاريخهم؛ ليهتدى بأحداثه المسلمون(٢).

(ب) يُرسى الإسلام قاعدة (القضاء والقدر) من خلال آيات كثيرة، منها: قوله (تعالى): " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ "(٣). ومن هنا، فالمسلم مطالب أن يتفكر فيما قَدَّره الله من أحداث يتأملها، ويفيد منها في حاضره؛ ليرسم بناء عليها مستقبله، وتلك هى روح التاريخ، وفائدته الأصيلة(٤).

(ج) تمثل عقيدة (الجزاء) الأخروى منطلقاً من منطلقات الإسلام الرئيسية، التى ترتبط بمراقبة الإنسان ربَّه، الذى يُدَوِّن عليه كل صغيرة وكبيرة؛ ليحاسبه عليها(٥)، ثم يجزيه بعد ذلك الدخول إلى الجنة أو المصير إلى النار. تلك قاعدة أفاد منها المؤرخون المسلمون، عندما يجمعون في كتبهم كافّة الروايات التى يحصلون عليها عن الأحداث والشخصيات المشاركة فيها؛ ليخلص القارئ من كل ذلك إلى فكرة واضحة عن العصر وشخصياته وأحداثه، يحكم عليهم من خلال ميزان الحسنات والسيئات.

---

(١) تاريخ الطبرى ١/٦٢٨، وبحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، لعبد العزيز الدُورى ص١٣-١٨، والتاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى ١/٥٢.

(٢) علم التاريخ عند المسلمين، لروزنثال (ترجمة صالح أحمد العلى) ص٤٠، والتاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى ١/٥٧-٥٩.

(٣) سورة القمر: الآية٤٩.

(٤) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى ١/٥٧.

(٥) علم التاريخ عند المسلمين، لروزنثال (ترجمة: صالح أحمد العلى): ص٣٩، والتاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى ١/٥٨. وقد قال الله (تعالى) في سورة القمر: آية ٥٢-٥٣: " وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ.وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ".

٢- عوامل ذاتية فطرية فكرية:

(أ) الفطرة الإنسانية تلح على الإنسان أن يُخَلِّفَ وراءه تراثاً تاريخيّاً، يسجل أحداث حياته وعصره وإنجازاته، فذلك كله امتداد لعمره.

(ب) حاجة المسلمين لتسجيل مآثرهم وانتصاراتهم التى حققوها بعد انتقالهم من الجاهلية إلى الإسلام، ومن ظلام الوثنية إلى نور التوحيد؛ كى يحافظوا على عوامل تحققها، وأسس تواجدها[١].

(جـ) رغبة المسلمين في معرفة تفاصيل أحداث القصص القرآنى والنبوى، مما اكتفى القرآن والسنة بعرض مجمله لتحقيق الغرض الوعظى، فكان حب الاستزادة من التفاصيل تدفعهم لسؤال أهل الكتاب، وللنقل من كتب الأولين التى تحوى أخبار الأمم السالفة[٢]، كما فعل ابن إسحاق في بداية سيرة النبى ﷺ.

(د) أدرك بعض الخلفاء أهمية التاريخ في عالم الفكر والسياسة والحكم، فهو هادٍ للأمم، ومرشد لها من خلال التجارب الإنسانية السابقة، ومن هنا جاء اهتمام معاوية بن أبى سفيان، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والمنصور، وغيرهم بالتاريخ، فنشط الأخباريون لتدوين التاريخ؛ وفاء وتلبية لرغبة حكامهم[٣].

٣- عوامل تنظيمية اجتماعية:

(أ) كان التفاضل بين المسلمين في العطاء يقوم على أسس السبق إلى الإسلام، والهجرة، وحسن البلاء والجهاد[٤]؛ ولذا اجتهد المؤرخون في تدوين الأنساب، وبيان طبقات الناس وقبائلهم، وتدوين أحداث الإسلام الأولى، ووضع قوائم بأسماء المهاجرين والمشتركين في الغزوات المختلفة؛ كى يتم توزيع العطاء على أسس عادلة، دقيقة صحيحة.

(ب) ضرورة معرفة تفاصيل حركة الفتوح الإسلامية في الأمصار المختلفة، وما ترتب عليها من معاهدات تضمنت بنوداً، اتُّفِقَ عليها مع أهل البلاد المفتوحة، تنظم العلاقات مع المسلمين بناء على نوعية الفتح: هل تم صلحاً، أو عَنْوَة؟ فبناء على ذلك تُرتب أحكام الجزية والخراج. ومن هنا لا بد من تسجيل هذا الفرع من فروع التاريخ؛ لتنظيم حاجات الدولة المالية، والإدارية، والاجتماعية. ومن أسبق مَنْ صَنّف كتباً تاريخية فقهية أبو يوسف (ت ١٨٢هـ) صاحب (الخراج)، والواقدى (ت ٢٠٧هـ) في (فتوح الشام)[٥].

---

(١) أضواء على التاريخ الإسلامى، للدكتور فتحى عثمان: صـ٤٢.

(٢) دراسات عن المؤرخين العرب لمارجليوث (ترجمة: حسين نصار) صـ٥٩-٦٠، وعلم التاريخ لروزنثال صـ٤٠-٤٤، والتاريخ العربى والمؤرخون لشاكر مصطفى: ١/ ٦٠، ٦٢.

(٣) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى: ١/ ٦١.

(٤) دراسات عن المؤرخين العرب، لمارجليوث (ترجمة: حسين نصار): صـ٦١.

(٥) المرجع السابق: صـ٦٢-٦٥، والتاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى ١/ ٦٣.

٤- عوامل مساعدة:

وهى عوامل كان لها دورها في انتظام حركة التأليف التاريخى وانتشاره، مثل:

١- وضع التقويم الهجرى (*):

فقد كان تحديد مبدأ التاريخ الهجرى مبكراً في عهد عمر بن الخطاب بمنزلة العنصر الحيوى المؤثر في تاريخنا الإسلامى، حيث طبع تاريخنا بطابع متميز بالنظر إلى التواريخ الأخرى، فساعد على تدوين التاريخ الإسلامى تدويناً دقيقاً قائماً على توقيت الأحداث، باليوم والشهر والسنة، فساعد على تسلسل الأحداث وانتظامها داخل قالب زمنى دقيق.

٢- ظهور الورق:

وهو تطور علمى مادى خطير، له أهمية في نقل التاريخ من الروايات الشفهية، أو الكتابة البدائية على أكتاف وعظام الحيوانات، إلى استخدام القرطاس المصرى، ثم تعريب الدواوين، واستخدام البَرْدِى، ثم الورق الذى هو أرخص سعراً[(١)]، وأجود خامة، وأسهل استعمالاً ونقلاً، فكان له دوره في انتشار حرفة الوِراقة والنسخ، فازدهرت حركة تدوين الكتب عامة، وكتب التاريخ الإسلامى خاصة[(٢)].

خامساً - مراحل التدوين التاريخى في القرنين: الأول، والثانى الهجريين:

رأينا - فيما مضى - أن العلماء اختلفوا حول مدى جواز كتابة الحديث النبوى الشريف من عدمها؛ نظراً للتعارض الظاهرى بين الأحاديث المبيحة والناهية، وانتهينا إلى الرأى القائل بجواز الكتابة. أما التدوين التاريخى، فلم تُثَرْ فيه تلك القضية؛ لأن الناس لا تنظر إلى التاريخ نظرتها المقدسة التى تنظر بها إلى الحديث النبوى الشريف، ثم إنه لم يَرِدْ نهى شرعى - في قرآن أو سنة - عن تدوين التاريخ.

ويذكر العلاَّمة سزكين[(٣)] أن التاريخ - كبقية العلوم - قد مَرَّ بمراحل ثلاث:

الأولى - مرحلة السماع من الرواة الذين يَقُصُّون الأحداث التاريخية الأولى، وعنهم ينقل الناس شفاهاً.

الثانية - مرحلة يتم فيها الحفظ لما يُروى من مرويات يُستعان، على تثبيتها بتدوينها

(*) بحث في نشأة التاريخ عند العرب، لعبد العزيز الدورى ص١٩، والتاريخ العربى والمؤرخون لشاكر مصطفى: ١/ ٦٤-٦٥.

(١) كثر استعمال الورق عند العرب منذ القرن الثانى الهجرى. (الخطاطة: الكتابة العربية)، للدكتور عبد العزيز الدالى ص١١٦.

(٢) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى: ١/ ٦٩-٧٣.

(٣) تاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة): ١/ ٧٥-٧٦.

بين فترة وأخرى؛ خشية النسيان والضياع.

الثالثة - مرحلة نقل العلم للآخرين، مع الحرص على نقل الروايات التاريخية بطريق شفهى، يتم فيه سماع التلميذ من الأستاذ؛ حتى لا تَنْدَسَّ مرويات محرفة تشوه الحقائق التاريخية. ولذا فالمرويات الشفهية مُقَدَّمة على تلك التى نُقلت من صحف مدونة.

وإن كان لنا من تعليق على هذا التقسيم السزكينى، فإننى أقول: إن ذلك التقسيم ليس بدقيق، ففى الوقت الذى يؤمن فيه سزكين أن كتابة التاريخ كانت مبكرة على وجه الخصوص(١)، إذا به - هنا - يقسم المراحل إلى شفهية، وثانية تجمع بين المشافهة والتدوين، وثالثة فيها نقل المعلومات إلى الآخرين، فهو يَفْصِل بين أمور لا يمكن الفصل بينها؛ فالمشافهة والتدوين والنقل للآخرين، كله يتم في آن واحد، بالإضافة إلى أن سزكين في تقسيمه السابق لم يوضح الفترة الزمنية، التى مرت بها كل مرحلة من مراحله التى ذكرها، على عكس ما صنع قبلها في التدوين الحديثى.

وبناء على ما تقدم، فإنه يمكن رصد مراحل التطور التاريخى في الدولة الإسلامية من خلال استقراء النصوص، ومتابعة نشأة المدارس التاريخية في أقاليم الدولة الإسلامية المختلفة، ومعرفة منهج كل مدرسة ومدى إسهامها في بناء وتطوير الحركة التاريخية الإسلامية. لكنى أرى قبل هذه الخطوة أن أعرض - في سطور - لطبيعة نظرة المسلمين إلى تاريخ العرب قبل الإسلام، ومدى اهتمامهم به، ومقدار تأثيره في مصنفاتهم؛ حتى لا يكون هناك انفصام بين ماضى الأمة الجاهلى، وحاضرها الإسلامى.

سادساً، وأخيراً - الصلات العامة بين تاريخ عرب الجاهلية، وتاريخ الإسلام:

لا شك أنه توجد فجوات واسعة في كثير من معلوماتنا عن تاريخ العرب قبل الإسلام، كما يوجد لدينا شك كبير في صحة ما بقى من ذلك التاريخ مدوناً مسطوراً في الصحائف، كما أن طبيعة نظرة المسلمين إلى تاريخ ما قبل الإسلام على أنه تاريخ قوم جاهليين مشركين(٢)، ساعد على إهمال الإفادة من مُخَلَّفات هذا التاريخ من نقوش وآثار، خَلَّفَتْها حضارة اليمن، وإمارة الحيرة في العراق، والغساسنة في الشام.

وإذا كان هناك انفصام وانقطاع بين تاريخ الإسلام، وتاريخ العرب الجاهليين، بحيث لا نستطيع القول بأن التاريخ الإسلامى تطور تبعاً للأسس التاريخية لعرب الجاهليين؛ فإن هناك صلة ما بينهما في نقطتين:

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٧٦.

(٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (الترجمة العربية): ١/ ٢٥٠، وعلم التاريخ عند المسلمين، لروزنثال (الترجمة العربية) ص٣٠.

أ- المادة التاريخية القديمة: فقد ترك الجاهليون قصصاً دينيّاً متنوعاً، وأخباراً عن الأمم المجاورة كالفرس مثلاً. وخَلَّفوا " قَصص الأيام "، التى تُعَبّر عن الحروب والصراعات التى دارت بينهم قبل الإسلام، وهى مملوءة بكثير من مظاهر الخيال، والأساطير، والتهويل(١).

ومن أقدم ما أُلِّف في عهد الإسلام من كتب تناولت تاريخ العرب الأقدمين: كتاب يسمى: " أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها " لعَبيد بن شَرِيَّةَ الجُرْهُمِيّ(٢). وهو مُؤلَّف تاريخى أسطورى فيه أيام العرب، وحكايات قصصية عن قرون خاليات، يروى منه لمعاوية بن أبى سفيان بناء على طلبه. وكذلك وضع عَبيد كتاب: " الأمثال " في عهد معاوية. ووضع " صُحَار العَبْدِيّ الخارجى "(٣) كتاباً بالاسم نفسه كذلك.

ويذكر العَلاَّمة سزكين أن التاريخين الأسطوريين اللذين وضعهما عبيد، ووَهْب بن مُنَبِّه(٤) يمثلان تاريخ جنوبيّ جزيرة العرب، وليس فيهما إلا إشارات طفيفة عن فترة ظهور الإسلام، وما ذاك إلا لضيق الأفق ونقص الوعى التاريخى(٥). هذا، ولا يمكن أن نعتبر كتب الفتوح الإسلامية الأولى تطوراً عن كتب الأيام الجاهلية؛ نظراً لاختلاف الشكل والقالب والمحتوى من جهة، ولغلبة الأساطير على أيام الجاهلية من جهة أخرى، وإن اعتمد بعض مؤرخى الإسلام على بعض المادة الواردة في هذه الكتب القديمة، في مقدمات كتبهم عن تاريخ الإسلام، كما فعل ابن إسحاق - مثلاً - في مقدمة (السيرة النبوية).

ب- الأنساب: فمن المعلوم أن الإسلام أَحَلَّ رابطة العقيدة مَحَلَّ آصِرَة الدم والنسب، ولكن ذلك لا ينفى احتياج المسلمين إلى تدوين الأنساب في الأمور الإدارية والمالية والتنظيمية في الدولة الإسلامية الناشئة، كما أسلفنا. ومن هنا بَزَغَتْ أسماء من

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى: ١/ ٥٤.

(٢) أدرك النبى ﷺ، ولم يسمع منه شيئاً، وله صلته بمعاوية بن أبى سفيان، وعاش إلى زمن عبد الملك بن مروان، وتوفى في خلافته. وله كتاب: (الأمثال)، و(الملوك وأخبار الماضين). (الفهرست) لابن النديم: صـ١٠٢، وتاريخ التراث العربى لسزكين (ط.الهيئة العامة): ١/ ٤٠٢.

(٣) هو أبو عبد الرحمن، صُحار بن عباس العبدى. كان في وفد عبد القَيْس الذى جاء إلى النبى ﷺ، وقد سأل النبى عن شراب مُسْكِر يصنعونه، فنهاه عنه. وكان ممن طالب بدم عثمان بن عفان ﷺ. وهو أحد النسَّابين، والخطباء في أيام معاوية بن أبى سفيان. (طبقات ابن سعد - ط.ليدن - ٧/ ١/ ٦١-٦٢، والفهرست، لابن النديم صـ١٠٢).

(٤) ذكر سزكين في (تاريخ التراث العربى): ١/ ٤٠٢ أن له كتاباً عن ملوك اليمن وتاريخها بعنوان: (تراجم الملوك وأخبار الماضين). وبالعودة إلى (الفهرست لابن النديم) في ترجمة وهب ذكر صـ٢٤: أنه ممن أسلم من أهل الكتاب، وتوفى ١١٠هـ. ولم يذكر له الكتاب المذكور، فيبدو أنه لعبيد بن شَرِيَّة، لا لوهب بن منبه.

(٥) تاريخ التراث العربى، لسزكين ١/ ٤٠٢.

النسَّابين الذين دَوَّنوا أنساب العرب، وربما سجلوا معها بعض أخبار أصحاب الأنساب المدوَّنة، مثل: عَقيل بن أبى طالب[١]، الذى برع في المثالب، وهى جزء لا يتجزأ من الأنساب. وزياد بن أبيه في كتابه: (المَثَالِب) وظهر - كذلك - دَغْفَل بن حَنْظَلَة السَّدُوسِيّ النسّابة[٢] المعروف.

ولا شك أن مادة هؤلاء النسابين الأوائل كانت أساساً لِماَ ظهر بعد ذلك من مؤلفات على يد كثير من الأخباريين والمؤرخين، مثل: محمد بن السائب الكلبى (ت ١٤٦هـ)، وابنه هشام (ت ٢٠٤هـ)، وخليفة بن خَيَّاط (ت ٢٤٠هـ) في (الطبقات)، ومُصْعَب الزُّبَيْرِيّ (ت ٢٥٦هـ)، ثم البَلاَذُرِيّ (ت ٢٧٩هـ) فى: (أنساب الأشراف).

(١) أخو علىّ، وجعفر، وهو أسَنّ منهما. أحد الصحابة الذين رووا عن النبىﷺ وشهد معه حُنَيْناً، وكان ممن ثبت هو العباس، وعلى. كان من أنسب قريش وأعلمها بأيامها. توفى ٦٠هـ. (تهذيب التهذيب لابن حجر ٧/ ٢٢٦-٢٢٧، والتقريب ٢/ ٢٩).

(٢) رجل مخضرم. قيل: له صحبة، ولم يصح ذلك. مات النبى وهو ابن ٦٥سنة. نزل البصرة، وغَرِقَ بفارس في قتال الخوارج قبل سنة ٦٠هـ. (الفهرست ١٠١، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١/ ٢٥٣، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١/ ٤٠٦-٤٠٧). وترجم له ابن حجر في (تهذيب التهذيب) ٣/ ١٨٢-١٨٣، وفى (التقريب): ١/ ٢٣٦.

الفصل الثاني

مدرسة الحجاز التاريخية

اهتم المسلمون منذ وقت مبكر بتسجيل أحداث حياة رسول الله ﷺ، سواء التى قضاها في جهاد مكة، أم منجزاته في الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة، وكل ذلك أتى في إطار اهتمامهم بجمع السنة عموماً. ولا شك أن هذا العمل بدأ مبكراً منذ عهد الصحابة ﷺ، فهم أجدر وأقدر الناس على إدراك مناحى حياته ﷺ. ولعل من أقدم من اهتم بذلك منهم: الصحابى " عبد الله بن عباس "، الذي كانت له مواهب علمية متعددة، ذكرها ابن سعد في طبقاته[١]، وابن الأثير في (أُسْد الغابة)[٢] من أنه كان يجلس يوماً للفقه، ويوماً للتأويل، ويوماً للمغازى، ويوماً لأيام العرب، وهكذا. ولا شك أن الكتب التى خَلَّفها ابن عباس لدى كُرَيْب مولاه، والتى سبق ذكرها في (الباب السابق) بالفصل الخاص بـ (الحديث)، وأفاد منها موسى بن عقبة صاحب السير والمغازى فيما بعد، كانت فيها مرويات عن المغازى والسير، وذلك يعنى: أن التدوين التاريخى بدأ مبكراً، وكانت له تأثيراته البعيدة لأجيال، بل لقرون تالية. فيذكر أحد الباحثين أن الطبرى (ت٣١٠هـ) أفاد من مرويات ابن عباس التاريخية في موضوعات شتى في التاريخ القديم، والإسرائيليات، والمغازى[٣].

ولم يقف الإسهام في هذا المجال عند ابن عباس وحده، فهناك الصحابى: سَهْل بن أبى حَثْمَة الأنصارى[٤] (ولد ٣هـ)، وهو من الصحابة الشباب، الذين اهتموا بتدوين حياة رسول الله ﷺ ومغازيه، ولعله سَجَّل شيئاً عن كبار الصحابة ودَوَّنه، فأفاد منه حفيده: محمد بن يحيى بن سهل، الذى كان ينقل من كتب مدونة، ويقول:

---

(١) ٢/ ٢/ ١٢٢ (ط.دار التحرير).

(٢) ٣/ ٢٩٢.

(٣) ذكر الدكتور شاكر مصطفى في (التاريخ العربى والمؤرخون): ١/ ١٥٠: أن الطبرى نقل عن مرويات ابن عباس في الموضوعات المذكورة حتى الجزء الخامس منه حوالى ٢٨٦ مرة.

(٤) ترجم له ابن حجر فى: (تهذيب التهذيب) ٤/ ٢١٨، وذكر أن أباه (أبا حثمة) كان دليل الرسول إلى أحد، وأنه شهد المشاهد إلا بدراً، وتوفى أول خلافة معاوية.

(وجدتُ في كُتُب آبائى)[١]. وقد كان لمحمد هذا اهتماماته بكافة المغازى[٢]، وأفاد منه الواقدى - فيما بعد - كثيراً في كتابه: (المغازى)[٣].

وهناك الصحابى سعد بن عُبادة الخَزْرَجِيّ الأنصارى[٤]، الذى يبدو أنه ترك شيئاً مدوناً في المغازى، اعتمد عليه من بعده ابنه صاحب المغازى والسِّيَر: سعيد بن سعد بن عبادة[٥] فيما صنّف. ثم ابنه من بعده: شُرَحْبيل ابن سعيد بن سعد بن عبادة التابعى[٦]، الذى أفاد من أبيه في التصنيف في المغازى، إذ وجدت نسخة بخطه لدى حفيده من بعده: سعيد بن عمرو بن شرحبيل[٧].

وهناك - أيضاً - الصحابى كعب بن مالك الأنصارى، الذى تتلمذ عليه في المغازى وغيرها ابنه: عُبيد الله بن كعب بن مالك أحد قدامى التابعين (ت ٩٧هـ)، الذى كان أحد كبار علماء الأنصار، واعتمد عليه ابن إسحاق كثيراً بعد ذلك، باعتباره أحد المؤلفين المرموقين في المغازى[٨].

وهكذا، ومن تضافر الشواهد السالفة الذكر، تبين لنا أن الاهتمام بتدوين السير والمغازى كان منذ عهد الصحابة، وعلى يد أجيال متوالية من الأبناء والأحفاد، مما جعل إسهامهم قميناً بأن يكون أساساً متيناً، يعتمد عليه مَنْ ألّفوا في هذا الشأن من بعدهم.

مدرسة الحجاز في عصر ما بعد الصحابة:

وسوف أكتفى بذكر معلومات مختصرة عن عدد من أبرز أعلام التاريخ في هذه المدرسة، مُغْفِلاً الحديث عن البعض الآخر[٩]، رغم شهرته، وإسهامه المهم - لحين

---

(١) طبقات ابن سعد (ط.بيروت): ١/ ٣٣٢.

(٢) تاريخ التراث العربى، لسزكين (ط.الهيئة العامة): ١/ ٤١٠.

(٣) راجع الإحالات الخاصة بذلك في فهارس كتاب (المغازى) بالمجلد الثالث صـ١٢٣٤. وقد أشار سزكين إلى استفادة الواقدى من المؤرخ المذكور في (تاريخ التراث العربى ط. الهيئة العامة) جـ١ صـ٤٤٤.

(٤) صحابى جليل شهد العقبة وغيرها من المشاهد، واختُلف في شهوده بدراً، وكان رافع راية الأنصار. كان كريماً جواداً. توفى بالشام ١٥هـ (تهذيب التهذيب لابن حجر ٣/ ٤١٢).

(٥) مُختلَف في صحبته. روى عن النبى ﷺ، وعن أبيه سعد. وروى عنه: ابنه شرحبيل، وأبو أُمامة بن سهل. ثقة قليل الحديث. ولى اليمن لعلى بن أبى طالب (المصدر السابق: ٤/ ٣٢-٣٣).

(٦) روى عن أبيه وجده. وروى عنه ابنه عمرو، وعبد الله بن عقيل. وهوثقة. (السابق: ٤/ ٢٨٣).

(٧) يروى عن أبيه عن جده، ويروى عن جده وِجادة. وروى عنه أبو أُوَيْس، ومالك، وعبد الحميد بن جعفر الأنصارى. وهو ثقة. (تهذيب التهذيب: ٤/ ٦١-٦٢). وتجدر الإشارة إلى وجود نقول عنه في كتاب (المغازى) للواقدى في فهارس المجلد الثالث صـ١١٧٧.

(٨) تاريخ التراث العربى لسزكين (ط.الهيئة العامة): ١/ ٤٤٥.

(٩) وهم: عروة بن الزبير، وابنه هشام، والزُّهْرى، وأبو مَعْشَر المدنى.

تناول مدرسة التاريخ في مصر؛ لوجود علاقات، وصلات واضحة لهم بمؤرخيها.

(أ) أبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ) (*):

١- علومه ومعارفه:

وُلِدَ أبان قبل سنة ٢٠هـ؛ بدليل اشتراكه في موقعة الجمل مع السيدة عائشة سنة ٣٦هـ(١). واشتهر أبان - وهو من كبار التابعين - بالفقه. ورويت عنه بعض الأحاديث، فقد سمع أباه، وزيد بن ثابت. وحدث عنه: الزهرى، وأبو الزِّنَاد، وغيرهما(٢). وقد أجمعوا على توثيقه.

٢- مناصبه ومشاركته في حركة المجتمع:

شارك أبان في الحياة السياسية، فوَلاَّه عبد الملك بن مروان على المدينة سنة ٧٥هـ(٣)، وظل والياً عليها حتى عُزل سنة ٨٣هـ(٤). والحق أن علوم أبان وفقهه يَسَّرا له أمر تولى هذا المنصب الرفيع. قال عمرو بن شعيب عنه: ما رأيت أحداً أعلم بحديث، ولا فقه من أبان بن عثمان(٥). وقد ذكروا أنه كانت له معرفة بالقضاء؛ بدليل قول مالك: حدثنى عبد الله بن أبى بكر أن والده أبا بكر بن حزم كان يتعلم من أبان القضاء(٦).

٣- دوره في علم التاريخ:

كان أبان أول من اشتهر بمعرفة المغازى معرفة دقيقة(٧)، ويُعَدّ أقدم مدونى السيرة النبوية الشريفة(٨). ويبدو أن أباناً دوّن مجموعة من المواد المتعلقة بحياة النبى ﷺ، ولم تكن كتاباً بالمعنى الدقيق، ويبدو أنها ضاعت؛ إذ لا توجد بقية منها في كتب السيرة،

(*) ترجم له: ابن سعد في (الطبقات، ط.ليدن): ٥/ ١١٢-١١٣ (فى الطبقة الأولى من علماء المدينة)، والبلاذرى فى: (أنساب الأشراف) ٥/ ١١٩-١٢٠: وقد طعن فيه، وجعله صاحب رِشْوَة وجَوْر في عمله. وهو كلام محل نظر. والمزى فى: (تهذيب الكمال) ٢/ ١٦-١٩، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥١-٣٥٣، والصفدى فى: (الوافى بالوفيات) ٥/ ٣٠١.

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥/ ١٢٠، والمغازى الأولى ومؤلفوها لهوروفتس (ترجمة: حسين نصار): صـ٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥١.

(٣) تاريخ الطبرى ٦/ ٢٠٩.

(٤) المصدر السابق: ٦/ ٣٨٤.

(٥) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥٣.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٥٣.

(٧) المغازى الأولى ومؤلفوها، لهوروفتس: صـ٣، ونشأة التدوين التاريخى عند العرب، لحسين نصار: صـ٢٩.

(٨) من تصدير الدكتور مصطفى السقا، لكتاب (المغازى الأولى ومؤلفوها) صفحة(هـ).

ولم يحتفظ لنا الطبرى منها بشئ، وكذلك لم نعثر على شئ منها لدى ابن هشام، والواقدى، وابن سعد وغيرهم، بما لا يتناسب مع مكانة هذا الرجل، ومشاركته في الأحداث السياسية أيام والده عثمان ﷺ، وأيام عليّ ومعاوية ويزيد، وعدد من الخلفاء، إلى جانب توليه شئون المدينة، فهو - إذن - حُجَّة في كل هاتيك الأمور. لكن للأسف لم نجد صدى لكل ذلك ممثلاً في مرويات تاريخية له، خلافاً لآثاره في الحديث فهى كثيرة. وقد يرى البعض أنه غير ذى باع في التأليف في المغازى؛ بدليل عدم بقاء شئ من آثاره[١] بها، لكن هناك نصّاً في (طبقات ابن سعد) يَدْحَض ذلك الرأى، وفيه يقول ابن سعد في ترجمة (المُغِيرَة بن عبد الرحمن): ثقة، قليل الحديث، إلا مغازى رسول الله ﷺ، فقد أخذها من أبان بن عثمان. وكان المغيرة يحرص على أن تُقرأ عليه هذه المغازى، ويأمر تلامذته بتعلمها[٢].

والخلاصة: أن أباناً محدّث له ميل إلى دراسة المغازى، وإذا كان أحد تلاميذه كتب مغازيه، إلا أنها اعتبرت من الحديث، فهو - إذن - مرحلة انتقال بين دراسة الحديث، ودراسة المغازى.

(ب) عاصم بن عمر بن قَتادة بن النعمان الأنصارى المدنى (ت ١٢٠هـ)[*]:

وهو أحد العلماء العارفين الذين برعوا في الحديث النبوى الشريف، فأخرج له الستة أحاديثه التى رواها عن أبيه، وعن جابر بن عبد الله، ورُمَيْثَة الصحابية جدته، وأنس بن مالك، وغيرهم. وروى عنه: ابن إسحاق، وبُكَيْر بن الأشَجّ، وغيرهما. وإذا كانت جدته إحدى الصحابيات، فقد كان جده قتادة من فضلاء الصحابة، الذين حَظُوا بحب رسول الله ﷺ؛ إذ دعا له فرُدَّت عينُه عليه.

ويبدو أن عاصماً لم تكن له مناصب سياسية تقلدها، وأنه وفد على عمر ابن عبد العزيز، الذى علم عنه أنه راوية للعلم، وله بَاعٌ في المغازى والسيرة، فأمره أن يجلس

---

(١) وممن يقول بهذا محقق (تهذيب الكمال) للمزى في جـ٢، تعليق رقم (١) صـ١٩، إذ يقول: أبان بن عثمان بن عفان ليس له شئ في المغازى، بل هى لأبان بن عثمان البَجَلى. ونقل عن (الصَّفَدى) فى: (الوافى بالوفيات) ٥/ ٣٠٢ قوله عن البجلى: ما عُرف من مصنفاته إلا كتاب جمع فيه المبتدأ، والمبعث، والمغازى، والوفاة، والسَّقِيفَة، والرِّدَّة. وأنا أضيف إلى نص الصفدى السابق ما سبقه به ياقوت الحموى في (معجم الأدباء) ١/ ١٠٩، وهو نفس الكلام المقول في ترجمة (أبان بن عثمان البجلى). ومع ذلك، فإن هذا لا يعنى عدم تأليف أبان بن عثمان بن عفان في المغازى؛ بدليل نص ابن سعد التالى في المتن، كما أن ضياع كتاب أبان بن عثمان ابن عفان لا يعنى نفى نسبة الكتاب إليه مطلقاً.

(٢) ٥/ ١٥٦ (ط.دار التحرير).

(*) اعتمدت في ترجمته على: التاريخ الكبير للبخارى جـ٣ قسم ٢ صـ٤٧٨، وميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٣٥٥، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٢٤٠-٢٤١، ومرآة الجنان لليافعى ١/ ٢٥٦-٢٥٧، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٥/ ٤٧.

في مسجد دمشق؛ ليحدث الناس بالمغازى، وفضائل الصحابة، ففعل[١]. ويبدو أنه لم يُطِلِ المقام هناك، فقد عاد إلى المدينة بعد أداء المهمة، التى كلفه بها عمر بن عبد العزيز، وبها توفى سنة ١٢٠هـ.[٢] والحق أنه من أوائل الذين دونوا السيرة، وعلّموها للناس، وكان له في ذلك منهج على النحو الآتى:

(أ) أنه كان يُصَرِّح - أحياناً - بأسانيد رواياته في المغازى، وأحياناً كثيرة لا يذكرها.

(ب) أنه كان يدعم ما يروى من مَغَازٍ بما ورد في القرآن الكريم من آيات تتعلق بها[٣]، وكذلك يذكر الأشعار التى صاحبت الأحداث[٤].

(جـ) أنه كان يظهر من ملامح شخصيته في معالجة بعض الأحداث، فلم يكن يكتفى - دَوْمًا - بجمع الأخبار فحسب، بل كان يُعَبِّر - أحياناً - عن رأيه الخاص في دوافع بعض الأحداث، مثل: تعليل مقالة العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ في بيعة العقبة الأولى، بأنه قال ما قال؛ استيثاقاً من القوم، واطمئناناً إلى صدق مواقفهم من مناصرة الرسول ﷺ[٥].

(جـ) شُرَحْبِيل بن سعد(أبو سعد الخَطْمِى المدنى،مولى الأنصار ت ١٢٣هـ): (*)

كان له علم بالمغازى. قال عنه سفيان بن عيينة: لم يكن أحد أعلم بالمغازى وبالبدريين منه، فاحتاج، فكأنهم اتهموه. أى: خافوا إذا جاء الرجلَ، فلم يُعْطِه، أن يقول له: لم يشهد أبوك بدراً. والحق أن شرحبيل كان - كعادة رواة المغازى - يروى الحديث النبوى الشريف.

وقد عُمِّرَ شرحبيل طويلاً، وروى عن عدد من الصحابة، مثل: زيد بن ثابت، وأبى هريرة، وابن عمر، وغيرهم. وقد اختلف العلماء حوله توثيقاً وتضعيفاً، لكن اتهام

(١) تهذيب التهذيب ٥/ ٤٧. وذكر ابن حجر أنه نقل هذا النص عن ابن سعد، وقد بحثت عنه في (طبقاته)، ومن قبل بحث عنه هوروفتس، فلم نعثر له على أثر، فلعل ابن حجر وهم فيما قال، أو ربما نقله من كتاب آخر لابن سعد غير الطبقات، ونحن لا نعرف له سواه.

(٢) تراجم رجال روى عنهم ابن إسحاق، للذهبى: صـ٢٢.

(٣) نقل عنه ابن إسحاق فيما يورده ابن عساكر فى: (تاريخ دمشق، ط.المنجد) ١/ ٤١٢-٤١٣، ما يتصل بغزوة تبوك، وكان يستشهد بآيات نزلت في المنافقين، كموقف الجَدِ بن قيس، الذى قال الله فيه: (وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ: ائْذَنْ لِى وَلاَ تَفْتِنِّى ألاَ فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ). (التوبة: الآية ٤٩).

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٧.

(٥) المصدر السابق: ٢/ ٨٩.

(*) اعتمدت في الترجمة له على: ابن أبى حاتم فى: (الجرح والتعديل) ٢/ ١/ ٣٣٩، وابن حجر في (تهذيب التهذيب): ٤/ ٢٨٢.

البعض له بأنه يجعل مَنْ ليس له سابقة في الإسلام ذا سابقة، هو مجرد شك، لم يَرْقَ إلى درجة اليقين. وأما عدم رواية ابن إسحاق عنه، فلعلها من باب المنافسة بين النظراء المتعاصرين. وعلى كل، فإسهامه في المغازى يمكن إيجازه فيما يلى:

(أ) أنه أحد مؤلفى المغازى الأوائل، وأحد من ابتكر قوائم المهاجرين، ومن اشترك في بدر وأحد، فلعب بذلك دوراً في التنظيم الاجتماعى بالدولة.

(ب) أنه لم يرو عنه ابن إسحاق والواقدى، وإن نقل عنه ابن سعد(١) خبراً عن هجرة الرسول ﷺ، ودخوله قُباء بالمدينة. ولم يستخدم في هذا النص إسناداً، ولا يدل ذلك - على كل حال - على منهج عام نهجه في مغازيه، وإن اتضح فهمه للمغازى فهماً واسعاً شاملاً لحياة الرسول كلها(٢).

(د) عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزْمٌ (٦٥-١٣٥)(*):

يُعد عبد الله صاحب المغازى من أكبر شيوخ ابن إسحاق، الذين أخذ عنهم مغازيه. ونعلم - ومن خلال فصل الحديث - الكثير عن أسرته ومكانتها العالية في العلم، فجده عمرو بن حزم صحابى جليل، ووالده أبو بكر صاحب الجهد المعلوم في جمع الحديث، وهو القاضى المشهور ووالى المدينة لعمر ابن عبد العزيز. فلا غرو أن نجد عبد الله ذا باع في عالم الحديث، كثير الرواية له، موثوقاً به. ومن هنا ندرك قدرته على تجميع أحاديث المغازى التى رواها عنه - فيما يبدو - ابن أخيه: عبد الملك بن محمد بن أبى بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصارى(٣). ومن خلال مقتبسات ابن إسحاق، والواقدى، وابن سعد، والطبرى عن عبد الله في (مغازيه) نرصد الملامح العامة(٤) لمنهجه كالآتى:

(أ) كان يفهم المغازى فهماً عامًا واسعًا (فهى تشمل عنده حياة النبى كلها، لا مجرد بعوثه وسراياه فقط). كما اهتم عبد الله برواية بعض الأحداث بعد وفاة الرسول ﷺ في الردة، وما جرى في فتنة عثمان.

(ب) لم يكن عبد الله مواظباً على ذكر الإسناد في مغازيه، فكان يذكره ويتركه.

(جـ) أن الطبرى جمع لنا عدداً مما جمع عبد الله بن أبى بكر من غزوات

---

(١) الطبقات (ط.دار التحرير): ١/ ١/ ١٦٠.

(٢) المغازى الأولى ومؤلفوها، لهوروفتس (ترجمة: حسين نصار): ٢٧.

(*) اعتمدت في ترجمته على: الثقات لابن حبان ٧/ ١٠، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٣١٤-٣١٥، والوافى بالوفيات للصفدى: ١٧/ ٨٦: ذكر وفاته ١٤٠هـ. ومرآة الجنان لليافعى ١/ ٢٨٢.

(٣) له مؤلف في المغازى لا نجد له أثراً الآن. وكان قاضياً ببغداد لهارون الرشيد. (ت ١٧٦هـ). (ذكره ابن النديم في الفهرست ص٢٨٢، وتاريخ التراث العربى لسزكين (ط.الهيئة العامة): ١/ ٤٥٥.

(٤) المغازى الأولى ومؤلفوها، لهوروفتس. ترجمة: (حسين نصار) صـ٤٢-٤٤ .

الرسول ﷺ مرتبة على السنين(١).

(د) كان له رأيه الذى يذكره معللاً به الحدث التاريخى، مختلفاً به عن غيره ممن له رأى آخر، وإن كان الرأى الآخر - عندى - أرجح، رغم توقف ابن إسحاق قائلاً: فالله أعلم أى ذلك كان. ومثال ذلك قول ابن إسحاق: حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة: أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله - في بيعة العقبة الثانية - نبّه العباس بن عُبادة بن نَضْلَة الأنصارى الخزرج إلى طبيعة ما هم مقدمون عليه؛ لأنهم سيبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كانوا سيُسلمون الرسول إذا أصيبت أموالهم، وقُتل أشرافهم، فلْيُسلموه من الآن؛ لأنهم إن فعلوا كان في ذلك خزى الدنيا والآخرة. وإن وَفَّوْا فهو خير الدنيا والآخرة، فليبايعوه. فبايع القوم الرسول، ما دام الجزاء الجنة.

هذا، وقد علل عاصم بن عمر مقالة العباس السابقة بقوله: والله، ما قال ذلك إلا ليشد العقد لرسول الله في أعناقهم (يستوثق من صحة مبايعتهم له). أما عبد الله بن أبى بكر، فقال: ما قال ذلك العباس إلا ليؤخر القوم تلك الليلة؛ رجاء أن يحضرها عبد الله بن أُبَىّ بن سَلول، فيكون أقوى لأمر القوم(٢).

(هـ) كان ينهج نَهْجَ مَنْ سبقه في الاهتمام بإيراد الأشعار على ألسن أبرز المشاركين في الأحداث التاريخية، التى يقوم بعرضها(٣).

(و) كان يحتفظ عبد الله بن أبى بكر بالوثائق التاريخية، التى تملكها أسرته، وأفاد منها، وعلى رأسها: رسالة الرسول ﷺ لجده الأكبر عمرو بن حزم لأهالى نَجْرَان؛ لتعليمهم الدين(٤).

(هـ) موسى بن عُقْبَة (٥٥-١٤١هـ) (*):

وهو أحد الأئمة الثقات الكبار، وأحد صغار التابعين. أدرك ابن عمر وجابراً،

(١) وقد تتبعت عدداً من مروياته، التى اقتبسها الطبرى في تاريخه خلال أحداث سنة ٧، ٨ هـ، فوجدتها مرتبة طبقاً لتوالى الأحداث زمنياً (تاريخ الطبرى: ٣/ ١٠، ٢٠، ٢٢، ٢٧، وغيرها).

(٢) سيرة ابن هشام (ط٢-مصطفى الحلبى ١٩٥٥م): المجلد الأول صـ٤٤٦. ورأى عاصم بن عمر أرجح؛ لأن القوم حرصوا على إخفاء بيعتهم عن ابن أُبَىّ، وعن غيره من المشركين؛ لعلمهم أنهم لن يوافقوهم، فيُفضح أمرهم. وقد شهدت الأحداث - بعد ذلك - على نفاق ابن أُبَىّ الشديد، وعدائه اللانهائى للإسلام.

(٣) سيرة ابن هشام (ط.المكتبة التجارية): ٣/١٠٩.

(٤) المصدر السابق (الطبعة السابقة) : ٤/ ٢٤١.

(*) اعتمدت في ترجمته على كثير من المصادر، منها: تهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ٢ من القسم الأول صـ١١٧-١١٨ (وجعله إمام المغازى)، وسير أعلام النبلاء ٦/ ١١٤-١١٧، وتهذيب التهذيب لابن حجر ١٠/ ٣٢١-٣٢٣، والرسالة المستطرَفة، للكِتّانى صـ١٠٩

وروى عن كُرَيْب مولى ابن عباس، ونافع مولى ابن عمر، وعروة ابن الزبير، والزهرى، وغيرهم. وقد حدث عنه: بكير بن عبد الله بن الأشج، وابن جريج، ومالك، وغيرهم.

واضح من خلال أساتيذ ابن عقبة أنه كسابقيه من أصحاب المغازى والسير، كان راوية للحديث، لكنه حاز قبول وثقة النقاد والعلماء. وحَظِيَتْ مغازيه التى كان يرويها بالرضا والقبول، حتى إن الإمام مالكاً - وهو تلميذ موسى بن عقبة - سُئِلَ: مغازى مَنْ نكتب؟ قال: " عليكم بمغازى موسى بن عقبة؛ فإنه ثقة ". وفى رواية: " عليكم بمغازى الرجل الصالح موسى بن عقبة؛ فإنها أصح المغازى ". وفى رواية ثالثة: "عليكم بمغازى موسى؛ فإنه رجل ثقة، طلبها على كبر السن؛ ليقيّد مَنْ شهد مع رسول الله ﷺ، ولم يُكَثِّر كما كَثَّر غيره"(١).

ومعنى ما تقدم أن مالكاً - وهو مَنْ هو في انتقاد الرجال - تلقى مغازى أستاذه موسى، فوجدها أصح من غيرها؛ لأن صاحبها ثقة يتحرى في مصادر نقله ويتأنى، ولم يكتبها إلا بعد نضج في الفكر وخبرة وعلم. وتذكر لنا الروايات: أنه كتب المغازى لمّا بلغه اتهام الناس لشُرَحْبيل بن سعد بالمدينة، أنه يضع فيمن شهد بدراً مَنْ لم يشهدها لِهَوًى في نفسه فعجب موسى لذلك، وقال: هل اجترأ الناس على ذلك ؟! وكتب مغازيه؛ ليرد ذلك التحريف، فقَيَّد مَنْ شهد بدراً وأُحُداً، وهاجر الهجرتين، وعلى ذلك كتب السيرة(٢). كما أن مالكاً مدحه بأن مغازيه ذكرت المفيد والمطلوب، ولم تستطرد. وهكذا، حاز موسى قصب السبق في العلم والبصر بالمغازى، واحتج به الشيخان في روايته عن نافع. وليس هذا بمستغرب على أسرة كلها فقهاء ومحدثون وعلماء، فقد كان لأخويه: إبراهيم، ومحمد حلقة علم في المسجد النبوى الشريف.

حول كتاب موسى بن عقبة:

(أ) مصادره:

يعد موسى بن عقبة من أبرز تلاميذ الزهرى، وقد اعتمد عليه في رواية مغازى رسول الله ﷺ، وتاريخ الراشدين، والأمويين اعتماداً أساسيّاً. ولذلك وثق ابن معين مغازى موسى؛ نظراً لوثاقة أستاذه الزهرى، فقال: " كتاب موسى عن الزهرى من أصح هذه الكتب "(٣).

واعتمد موسى - كذلك - على كتب ابن عباس، التى أودعها عنده كُريب مولى ابن عباس ﷺ.

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١١٥، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٣٢٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١١٦، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٣٢٢.
(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ١١٧، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٣٢٢.

(ب) طبيعة كتابه، وما تبقى منه:

١- يذكر الذهبى أن موسى أول من ألف في المغازى مجلداً ليس بالكبير، وأن ما فيه من المغازى غالبه صحيح، ومُرْسَل جيد، سمعها الذهبى، إلا أنها كانت مختصرة تحتاج إلى مزيد بيان[١]. ويظهر أن الذهبى، ومن بعده السخاوى[٢] يقصدان بأوَّلِيَّة موسى بن عقبة في التأليف ريادته في التنظيم والتصنيف خلال القرن الثانى الهجرى، وأن ما سبقه من كتابات كانت مجرد عمليات تدوين مبدئية، ولا تعد كتاباً بالمعنى الدقيق.

٢- لا تعرف نسخة من كتاب موسى بن عقبة هذا[٣]، إلا أن المستشرق الألمانى (سخاو ١٨٤٥-١٩٣٠م) نشر قطعة منه سنة ١٩٠٤م[٤]، لكننا لا نستطيع تكوين فكرة شاملة عن الكتاب من خلال ما نُشر. وعلى كل، فيمكن رسم الخطوط العامة لمنهج موسى بن عقبة[٥]، من خلال اقتباسات ابن سعد، والطبرى، وابن كثير، وغيرهم، كالآتى:

أولاً - أنه فهم المغازى - كغيره - فهماً شاملاً، بل امتد ليحدثنا عن شئ من تاريخ قبل الإسلام[٦]. وأحياناً يتوسع في فترة ما بعد الرسول ﷺ، فيذكر بعض أحداث عهد الراشدين والأمويين[٧]؛ مما يدل على أن مؤلفه جامع لفترات تاريخية متعددة.

ثانياً - أن مؤلفه منظم، يسهم في سَدّ ثُغْرَة تركها شُرَحْبيل بن سعد، فأراد أن يعالج تحويره، فأقام مدونات بأسماء الصحابة المهاجرين للحبشة وغيرها، والمشتركين في بدر وغيرها[٨]. وقد مدح مالك تلك القوائم الدقيقة، فقال: " مَنْ كان في كتاب موسى قد شهد بدراً فقد شهدها، ومن لم يكن فيه لم يشهدها "[٩].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١١٤، ١١٦.

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ: صـ١٥٧-١٥٨.

(٣) وذكر هوروفتس في كتاب: (المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة: حسين نصار) صـ٧١: أن كتاب موسى بن عقبة سلم إلى ق ١٠هـ، إذ نقل عنه الديار بكرى، حسين بن محمد (المتوفى نحو ٩٦٦هـ) في كتابه: (تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس). وقد رجعت إلى مواضع الإحالة المذكورة، فلم أجد نقولاً عن موسى بن عقبة به، كما أننى عدت إلى جـ١ من (تاريخ الخميس صـ٢-٣، حيث ذكر الديار بكرى مصادره التى استقى منها مادته، فلم أجد كتاب موسى ضمن هذه المصادر).

(٤) المغازى، للواقدى (مقدمة المحقق: مارسدن جونس): صـ٢٤، والموجز في مراجع التراجم، للدكتور الطناحى: صـ٤٢.

(٥) المغازى الأولى ومؤلفوها، لهوروفتس (ترجمة: حسين نصار) صـ٧١-٧٣.

(٦) في خبر يتصل بزيد بن عمرو بن نُفيل في كتاب (الأغانى)، للأصفهانى ٣/ ١٦.

(٧) طبقات ابن سعد (ط.دار التحرير): ٥/ ٢٨٣.

(٨) المغازى للواقدى (مقدمة المحقق: مارسدن جونس): صـ٢٤، وتاريخ التراث العربى لسزكين (ط.الهيئة العامة): ١/ ٤٦٠، ٤٨٦.

(٩) سير أعلام النبلاء ٦/ ١١٦، وتهذيب التهذيب١٠/ ٣٢٢.

ثالثاً - كان يعرض مادته التاريخية في قالب زمنى حولى متسلسل كعبد الله بن أبى بكر، فكتابه يحوى حقائق مؤرخة تأريخاً سنوياً[١].

رابعاً - يستشهد من وقت لآخر بقصائد شعرية لها صلة بالأحداث التاريخية[٢]، وإن كان ذلك نادراً.

خامساً - الإسناد لدى موسى قاعدة ثابتة، لا يكاد يُحذف من أوائل نصوصه التاريخية. وكان يصرح - أحياناً - بأخذه عن كتب ابن عباس[٣].

سادساً، وأخيراً - اهتمامه بالوثائق الأصلية للتاريخ ككتب ابن عباس، وكرسالة وجهها النبى ﷺ إلى المُنْذِر بن سَاوَى، ذكرها موسى بن عقبة في كتابه بالنص[٤].

(و) الواقِدىّ (١٣٠-٢٠٧هـ)(*):

هو محمد بن عمر بن واقد الأسْلَمِىّ المدينى القاضى. لقى صغار التابعين مبكراً، وسمع منهم وممن بعدهم في الحجاز والشام وغيرها. والحق أن الواقدى كان ماهراً جَمَّاعة للعلم، رَحَّالة فيه، حتى قال عن نفسه: كانت ألواحى مشهورة في المدينة، فإذا ضاع منها شىء، كانوا يأتون إليه بها[٥]. وبعد أن أقام الواقدى بالمدينة معظم حياته، قدم إلى بغداد في دَيْن نزل به سنة ١٨٠هـ، فقضى يحيى بن خالد البرمكى دَيْنَه، وقَدّمه إلى الخليفة هارون الرشيد، فأكرمه وصرف له العطايا، ثم خرج إلى الشام والرَّقَّة، ثم عاد إلى بغداد حتى قدم المأمون من خراسان، فوَلاّه القضاء بالعَسْكَر[٦]، وظل في منصبه، حتى توفى في بغداد في الحادى عشر من ذى الحجة سنة ٢٠٧هـ[٧].

مصادره ومصنفاته التاريخية:

١- تنوعت مصادر الواقدى، فنقل عن علماء الحجاز، مثل: ابن جُرَيْج، وابن أبى ذِئْب، ومالك، وغيرهم. وتتلمذ على أيدى الأوزاعى عالم الشام ومفتيها، وأخذ عن

(١) المغازى الأولى ومؤلفوها، لهوروفتس (ترجمة: حسين نصار) صـ٧٣، وتاريخ التراث العربى لسزكين (ط.الهيئة العامة): ١/ ٤٥٨.

(٢) طبقات ابن سعد (ط.دار التحرير): ٣/ ١/ ٢٤١.

(٣) المصدر السابق (ط.دار التحرير): ٥/ ٢١٦.

(٤) فتوح البلدان، للبلاذرى (ط.المنجد): صـ٩٨.

(*) ترجم له الذهبى فى: (سير أعلام النبلاء): ٩/ ٤٥٤، وتهذيب التهذيب: ٩/ ٣٢٣.

(٥) سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٥٨.

(٦) عسكر المهدى: محلة معروفة بالرَّصَافة في الجانب الشرقى من بغداد، وعَمّرها المنصور لولده المهدى فنُسبت له؛ مما يفيد أن الواقدى كان قاضياً للجانب الشرقى، لا الغربى. (وفيات الأعيان، لابن خلكان - ط.إحسان - ٤/ ٣٥١).

(٧) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ٧٧ (وضعه في محدثى بغداد) - وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادى ٣/ ٣-١١، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٤٦٤-٤٦٦، وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٢٥.

الثَّوْرِيّ عالم البصرة، وعن مَعْمَر بن راشد عالم اليمن[١].

٢- كان الواقدى عالماً بالمغازى، بصيراً بها، صاحب تصانيف في السير والمغازى، كما كان عالماً بالحديث، وباختلاف الناس والأحكام (الفقه)[٢]. وكأنه كان يدرك ضرورة الإلمام بالفقه والحديث كلوازم لمعرفة التاريخ والسير والمغازى، وإن لم يظهر ذلك جلياً في كتابه، إلا أنه كان يدرس ما كان شائعاً من ثقات العصر. وبدأ اهتمام الواقدى بالمغازى مبكراً، إذ يُرْوَى أنه رُئِيَ في مسجد المدينة يُدَرِّس، فسُئِل: أيَّ شيءٍ تدرس؟ قال: جزئى من المغازى[٣]. وهذا يدل على أن تأليفه في المغازى لم يكن قد اكتمل بعد في المدينة وأنه - مع ذلك - كان يدرس ما ألفه.

٣- كانت حصيلة ثقافات واجتهادات الواقدى عدداً من المصنفات التاريخية[٤] المهمة، منها: الاهتمام بتاريخ الفتوح الإسلامية المختلفة، ولعله أفاد من كتب ابن إسحاق في ذلك، فيذكرون له: (فتوح الشام)، و(فتوح مصر)، و(فتوح الجزيرة)، و(فتوح إفريقيَّة)، و(فتوح العراق)[٥]. وكتاب (الرِّدَّة والدار). ويبدو أنهما كتابان: الأول - يتعلق بأحداث عهد أبى بكر مع المرتدين. والآخر - يتصل بفتنة عثمان ومقتله بداره. وأفاد منه الطبرى كثيراً في أحداث الفتنة. ويذكرون له كتاب (الطبقات) ،ولعله أساس ما كتبه تلميذه محمد بن سعد فيما بعد. فالواقدى كان مهتمّاً بحياة الصحابة وأبنائهم، كما كان له اهتمام بتراجم علماء البصرة، والكوفة[٦].وأخيراً،له كتاب (المغازى)،وقد بقى كاملاً، ونُشر مُحَقَّقاً على يد مارسدن جونس. وهاك منهجه العام في كتاب (المغازى):

(أ) ذكر الواقدى ٢٥ أستاذاً في بداية كتابه (المغازى)، معظمهم مدنيون. ولذا يمكن اعتباره ممثلاً للمدرسة المدنية. فالواقدى لم يكن يذكر إسناداً لكل رواية على حدة كالمحدثين، وإنما لجأ للإسناد الجمعى بأن يذكر- في بداية كل فصل- الإسناد العام له (مصادره الرئيسية)، ثم هو قد يذكر - بعد ذلك - أسانيد خاصة لروايات فردية تدخل ضمن الإطار العام. وقد أخذ عليه المحدثون طريقته في الإسناد، وقالوا له: إنك تجمع الرجال، وتقول: حدثنا فلان وفلان، وتجيء بمتن واحد، ولو حدثتنا

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٥٤، وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٢٣.

(٢) طبقات ابن سعد (ط.دار التحرير) ٧/ ٢/ ٧٧، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٤٥٧، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.الريان) ١٠/ ٢٧٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٦٠.

(٤) الفهرست لابن النديم ١١١، ومعجم الأدباء لياقوت ١٨/ ٢٨٢.

(٥) المغازى للواقدى (مقدمة المحقق: مارسدن جونس): صـ١٦، وتاريخ التراث العربى، لسزكين (ط.الهيئة العامة): ١/ ٤٧٣.

(٦) المغازى الأولى ومؤلفوها لهوروفتس (ترجمة: حسين نصار) صـ١١٨، والمغازى للواقدى (مقدمة المحقق مارسدن جونس): صـ١٥، وتاريخ التراث العربى لسزكين (ط.الهيئة العامة): ١/ ٤٧٥.

بحديث واحد على حدة. قال لهم: ذلك يطول. قالوا له: رضينا. فغاب جمعة، ثم جاء بغزوة أُحُد في ٢٠

مجلداً، فقالوا له: رُدَّنا إلى الأمر الأول[١]. وعلى ذلك فالاختصار وعدم الإطالة، والرغبة في التخفيف على جمهور المتلقين، كل ذلك دفعه إلى تلك الطريقة، التى لا تساعدنا - الآن - على تمييز الاقتباسات التى أخذها عن المصادر المختلفة[٢].

(ب) للواقدى طريقة فريدة ومنهج موحد يستخدمه في عرض الغزوات: في البداية يذكر سنة خروج الغزوة من المدينة ورجوعها إليها، ثم يتبع ذلك بذكر أحداث الغزوة (خبر رئيسى تتبعه روايات فردية، وأوصاف جغرافية). وينهى - غالباً - بذكر نائب الرسول في المدينة، والآيات والأشعار المرتبطة بالحدث، وقوائم المشتركين، والشهداء[٣].

(ج) يعرض التاريخ بأسلوب مسهب مفصل واضح صريح، بعيد عن المبالغات والأساطير (ولديه - أحياناً - معلومات لا توجد لدى غيره، مثل: كلامه على أُحُد، والطائف)[٤].

(د) اعتماده على إبراز وثائق أصلية للأحداث التاريخية، مثل: بعض أوامر الرسول ومعاهداته. وقد نقل ابن سعد ذلك عنه فيما بعد[٥].

(هـ) بروز شخصية الواقدى في كتابه ضئيل كأن يقول: حُدِّثْتُ؛ ليدل على فردية الرواية[٦]، أو كما يقول جونس:[٧] يعبر عن تقويمه للأحداث بعبارات محددة، مثل: وهو المُثْبَت، والثابت عندنا. .. إلخ.

(و) يتركز اهتمام الواقدى على تاريخ الإسلام، ولا يهتم بما كان قبله إلا قليلاً، قال إبراهيم الحَرْبِىّ: الواقدى أمين الناس على أهل الإسلام، وأعلم الناس بأمر الإسلام. أما الجاهلية، فلم يعلم شيئاً بها[٨]. وهذا يدل على تركيزه على تاريخ العصر الإسلامى، وعدم اهتمامه بأخبار الجاهلية.

(ز) تَحَرِّيه واستيثاقه من الأخبار التاريخية التى يدونها، فهو - رغم إفادته من ابن

---

(١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى: ٣/ ٧، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٤٦٠.

(٢) تاريخ التراث العربى، لسزكين (ط.الهيئة العامة): ١/ ٤٧١.

(٣) المغازى الأولى ومؤلفوها، لهوروفتس (ترجمة: حسين نصار) صـ١٢٣، ومغازى الواقدى (مقدمة المحقق: مارسدن جونس) صـ٣١.

(٤) مقال للدكتور العدوى عن: (مغازى رسول الله) في مجلة (تراث الإنسانية) مج٥ صـ٢٤٧.

(٥) المغازى الأولى ومؤلفوها، لهوروفتس (ترجمة: حسين نصار) صـ١٢٢.

(٦) المغازى الأولى ومؤلفوها، لهوروفتس (ترجمة: حسين نصار) صـ١٢٣.

(٧) المغازى، للواقدى (مقدمة المحقق: مارسدن جونس) صـ٣٤.

(٨) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى: ٣/ ٥، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٤٥٧، وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٢٤.

إسحاق - لم يذكره؛ لموقف علماء المدينة منه، ولم يأخذ عن وهب بن منبه؛ لكثرة القَصَص والإسرائيليات عنده، بينما أكثر في الأخذ عن عروة؛ لمؤهلاته التاريخية الطيبة(١). كما كان الواقدى يعاين أماكن الوقائع والغزوات. قال الواقدى: ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء، ولا مَوْلًى لهم، إلا سألتُه عن مشاهد أهله وأين قُتلوا، وأذهب إلى الموضع الذى يُخبر فأنظر فيه.وقد مَضَيْتُ إلى المُرَيْسِيع(٢)، فنظرتُ إليها،وما علمتُ غَزَاة إلا مضيت إلى الموضع حتى أُعاينه(٣). فالواقدى من أوائل من اهتموا بالجغرافية في تدوين التاريخ. وهكذا، بلغ الواقدى قمة التطور التاريخى في دراسة السيرة في القرنين: الأول، والثانى الهجريين، وكان أساساً متيناً لمن بعده، وهو إضافة جديدة لمدرسة المدينة.

السمات العامة لمدرسة الحجاز التاريخية:

أولاً - مفهوم السيرة والمغازى لدى مؤرخى هذه المدرسة كان مفهوماً شاملاً عريضاً، لا يقف عند حدود غزواته ﷺ، بل شمل كل حياته.

ثانياً - هذه المدرسة اهتمت اهتماماً كاملاً بالمغازى، فغلب التصنيف فيها على ما عداه من الموضوعات الأخرى. ويُعَدّ هذا الموضوع محليّاً عربيّاً صِرْفاً، لم يتأثر فيه المسلمون بمؤثرات ثقافية أجنبية(٤)، فالعرب ليسوا - في هذه المرحلة - على درجة من الانفتاح الثقافى، بحيث يطالعون مصنفات الآخرين بلغات أجنبية حتى يتأثروا بهم، وينقلوا عنهم، وإنما نبعت السيرة من مصادر عربية إسلامية، وارتبطت بالقرآن والحديث، مستخدمة أسلوب الإسناد(٥)، محكومة بإطار التقويم الهجرى الدقيق.

ثالثاً -مؤرخو المغازى في هذه المدرسة-فى مجموعهم-محدثون فقهاء؛مما يدل على تغلغل الحديث وأهميته كرافد من أهم روافد المغازى والسير،ويدل- أيضاً - على الصلة الوثيقة بين الحديث والتاريخ في نشأته الأولى. كما أن هؤلاء المؤرخين حرصوا

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٦، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٤٦٤-٤٦٦.

(٢) هى تصغير: المَرْسُوع، وهو الذى انسلقت عينه من السهر. (هذا من جهة اللغة). وجغرافيًا: اسم ماء في ناحية قُديد إلى الساحل. وسار إليه النبى ﷺ سنة ٥هـ، ولقى بنى المُصْطَلِق من خُزاعة هناك بقيادة الحارث بن أبى ضِرار الخُزاعى، فهزمهم الرسول وسباهم، وكانت جُوَيْرِية بنت الحارث إحدى السبايا. وفى العودة من هذه الغزوة كانت حادثة الإفك (معجم البلدان لياقوت ٥/ ١١٨).

(٣) مقال: (مغازى رسول الله للواقدى) للدكتور العدوى، في مجلة تراث الإنسانية مج٥ صـ٢٤٥-٢٤٦.

(٤) لبروكلمان رأى مخالف لهذا؛ إذ يرى أن المسلمين تأثروا بالفرس وكتاباتهم التاريخية عن ملوكهم، وكذا تأثروا بالكتابات السريانية. (تاريخ الأدب العربى: ٣/ ٧).

(٥) لم يعجب بروكلمان أسلوب الإسناد المستخدم في المرويات التاريخية، وطعن في حقيقته، وشَكّ في الدور المهم الذى يلعبه في التوثيق، وفى صحة نسبته إلى الأفراد المذكورين فيه. ويعتبر بروكلمان رجال الإسناد شيئاً، وشهود العيان شيئاً آخر (المرجع السابق ٣/ ٧). ومن المعروف أن رجال الإسناد الموثوق بهم، هم شهود عيان الأحداث، بل إن بعضهم شارك فيها.

على الاستشهاد بالشعر المرتبط بالوقائع؛ ليبرزوا عنصراً من عناصر ثقافتهم العربية، ويستخدموا أسلوباً من أساليب توثيق مروياتهم.

رابعاً - كُتّاب المغازى كانت لهم مكانتهم الاجتماعية الطيبة، فهم صحابة، وتابعون، وعلماء أجلاء بالقرآن والحديث والفَتْوَى. كما أن مجتمع المدينة بالذات، كان اهتمامه بالسيرة على أشده، وكان إقبال الناس على تعلمها كبيراً؛ فقد كان محور اهتمام مجلس كبار القوم وأشرافهم(١)، كما كان يشغل الخلفاء، فيرسلون إلى العلماء؛ ليستفسروا عن بعض الأحداث(٢). وكان للعامَّة اهتمامهم الكبير بالسيرة؛ فقد رأينا عاصم بن عمر يعلمها الناس في مسجد دمشق، وكان موسى بن عقبة والواقدى يُدَرِّسَانِها بالمسجد النبوى بالمدينة. وهكذا، أقبل الناس والعلماء على السيرة بالمدينة تأليفاً وتدويناً، وإلقاء وسماعاً في مجالس الخاصة، وفى حلقات العامة.

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٤٤٣: حيث يَقُصُّ حَكيم بن حِزام على مروان بن الحكم وجلسائه أحداث غزوة بدر، التى شارك فيها وهو في صفوف المشركين.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ٥٥ (عروة بن الزبير يجيب عن رسالة عبد الملك بن مروان، التى يستفسر فيها عن أحداث تتصل بخالد بن الوليد يوم فتح مكة).

الفَصْلُ الثَّالِث

المدارس التاريخية في العراق، والشام، واليمن

مدرسة العراق التاريخية:

وهى من المدارس التاريخية ذات الإسهام الكبير في مجال التاريخ الإسلامى، وهى لا تقل أهمية عن سابقتها (الحجاز). وقد ظهر بها عدد من المهتمين بالأخبار[١] على النحو الآتى:

(أ) أبو عمرو الشَّعْبِىّ: (١٩-١٠٤هـ) (*):

هو عامر بن شَراحيل بن عَبْد ذى كِبار. وذو كبار: قَيْل من أَقْيَال اليمن. ومعنى ذلك أن أصله يَمَنىّ حِمْيَرِىّ، ولُقِّب بالشَّعْبِىّ[٢] ؛ لأنه من هَمْدان. ولد بالكوفة، وبها عاش ونبغ، فهو كوفى النشأة والمَرْبَى. ويعد الشعبى تابعيّاً جليل القدر، عظيم المعارف والعلم؛ إذ رأى عليا ﷺ وصلى خلفه، وسمع من عدد من كبار الصحابة، مثل: سعد بن أبى وقاص، وأبى موسى الأشعرى، وأبى هريرة، وعائشة، وابن عمرو، وغيرهم. وحدث عنه: السَّبِيعىّ، والثورى، والأَعْمَش، وغيرهم[٣].

جعله ابن سعد في الطبقة الثانية من الكوفيين. وكان قد ثار على الحَجّاج في دَيْر الجَماجِم، وأفلت من قبضته مع بعض القُرَّاء، ثم أتاه تائباً نادماً بعد ذلك - فعفا عنه[٤]. وقد أوفده عبد الملك بن مروان سفيراً لدولة الخلافة إلى بِيزَنْطَة[٥]، كما ولى

(١) أرجئ الحديث عن بعض مؤرخى هذه المدرسة، مثل: أبى إسحاق السبيعى، لحين الكلام على مؤرخى مصر؛ لصلته بمؤرخيها. وكذلك محمد بن إسحاق صاحب السيرة المشهورة.

(*) اعتمدت في ترجمته على: الطبقات لابن سعد (ط.ليدن): ٦/ ١٧١ وما بعدها، ووفيات الأعيان، لابن خلكان (ط.إحسان): ٣/ ١٢، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٢٩٤، ومرآة الجنان لليافعى ١/ ٢١٥، وتهذيب التهذيب ٥/ ٥٧.

(٢) نسبة أعلام إلى (شَعْب)، وهو بطن من همدان. (وفيات الأعيان ٣/ ١٥) .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٩٦-٢٩٧، وتهذيب التهذيب ٥/ ٥٨.

(٤) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٦/ ١٧١-١٧٤.

(٥) مرآة الجنان لليافعى ١/ ٢١٥-٢١٦.

الشعبى منصب القضاء بالكوفة(١).

ويبدو أن الشَّعْبِيّ أَلَّفَ كتاباً في المغازى، وأنه كان بارعاً في إدراك أحداثها، وكان يُعَلِّمها الناس. والدليل على ذلك قول ابن عمر لمَّا مَرَّ به، وهو يقرأ المغازى: (كأنَّ هذا كان شاهداً معنا، ولهو أحْفَظُ لها منى وأعْلَم)(٢). وقال ابن سيرين: قدمتُ الكوفة، وللشعبى حلقة عظيمة، والصحابة - يومئذ - كثير.(٣) وكان للشعبى إسهامه في مجال الفتوح باعتبارها امتداداً لكتب المغازى. فلعله تناول تاريخ الراشدين والخلفاء من بعدهم(٤)، ولعله وضع أول كتاب يتصل بالأمويين وبعض أحداث عصرهم بعنوان: (الشُّورَى، ومَقْتَل الحسين)(٥).

وهكذا، كان الشعبى من جيل الرواد في كتابة المغازى والفتوح، ولعله استعان على ذلك بمعارفه في الحديث، والفقه، والشعر، وغيرها.

(ب) سُليمان بن طَرْخَان التَّيْمِيّ (٤٦-١٤٣هـ بالبصرة) (*):

هو بصرى الأصل، نزل في بنى (تَيْم)، فلُقِّبَ بالتَّيْمِيّ. وهو أحد المحدّثين العُبَّاد المجتهدين الثقات. روى المغازى والحديث عن بعض الصحابة، مثل: أنس بن مالك. كما روى عن التابعين، مثل: الحسن البصرى، وطاوس، وكان له ابن يسمى (مُعْتَمِراً)، كان من الأئمة الحفاظ المُجْمَع على توثيقهم. ولد ١٠٦هـ، وتوفى بالبصرة ١٨٧هـ(٦).

ويبدو أن سليمان وضع كتاباً في المغازى، اطلع عليه الخطيب البغدادى (ت ٤٦٣هـ). وحصل على حق روايته في دمشق، وأفاد منه الطبرى في (تاريخه) برواية ابنه (معتمر) عنه(٧). وأفاد منه - كذلك - البخارى في كتابه: (المغازى)(٨). ونقل عنه ابن

(١) تاريخ الطبرى (أحداث ١٠١هـ): ٦/ ٥٨٩، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٣١٢.

(٢) مرآة الجنان لليافعى ١/ ٢١٥، وتهذيب التهذيب ٥/ ٥٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٠٢.

(٤) بالنظر إلى (تاريخ الطبرى): ١٠/ ٢٩٩، بفهارس الأعلام نجد عشرات الاقتباسات عنه في المغازى، والفتوح، وأحداث الأمة الإسلامية في جـ١-جـ٦، وتتركز أخبار الفتوح المنقولة عنه في: (المصدر السابق) في الجزء الرابع.

(٥) تاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) لسزكين: ١/ ٤٤٦.

(*) ترجم له: طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ١٨، وتقدمة المعرفة، لابن أبى حاتم صـ١٤٢-١٤٣، وحِلْيَة الأولياء لأبى نُعَيْم ٣/ ٢٧.

(٦) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ٤٥، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ٢ من القسم الأول صـ١٠٤، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٤٧٧، والرسالة المستطرفة للكتانى صـ١١٠.

(٧) تاريخ الطبرى: ٤/ ٣٥٤ (٣٥هـ) صـ٣٨٣، ٤٩٩ (سنة ٣٦هـ).

(٨) ومن ذلك - مثلاً- ما جاء في (الصحيح)، (باب قتل أبى جهل) جـ٥ صـ١٨٢-١٨٣ أحاديث أرقام =

كثير، وأعلن صراحة أنه نقل من كتابه: (المغازى)[١].

وإذا كان هؤلاء الأئمة الأعلام قد نقلوا عنه مغازيه، فذلك يدل على دقته وتحريه، ولم لا؟ وهو الذى قال عنه شُعْبَة: إذا حَدَّث عن رسول الله ﷺ، تَغَيَّر لونُه. وما رأيتُ أَصْدَقَ منه[٢].

وقد بقى لنا منه - إلى جانب الاقتباسات سالفة الذكر - حوالى ٧٧ صفحة، نشرها محققه المستشرق فون كريمر بالهند ١٨٥٦م، وجعلها في نهاية مغازى الواقدى[٣]، ويبدو أنها جزء من كتابه: (السيرة الصحيحة)[٤].

ويبدو أن اهتماماته لم تقتصر على المغازى، وإنما امتدت لتاريخ ما قبل الإسلام حول خَلْق آدم عليه السلام[٥].

ويركز لنا أحد الباحثين[٦] سمات كتاباته التاريخية كالآتى:

١- كتاباته مضغوطة متسقة.

٢- يصف الأحداث بدقة، ويصورها بشكل مؤثر.

٣- له آراؤه المتميزة في وصف حروب اليهود، وأحداث غزوة الخندق.

(جـ) لوط بن يحيى (المشهور بأبى مِخْنَف ت ١٥٧هـ):

وهو أخبارى كوفى نَسَّابة، يعرف تاريخ الفتوح بالعراق، ويهتم بموضوعات الخوارج وثورات الشيعة، وله ميل إلى العلويين.

كتاباته ومنهجه:

١- ذكر بروكلمان[٧] أن أبا مخنف أول مَنْ صَنَّف في أخبار الفتوح والخوارج، وأيام العرب، وأحاديث الخلفاء والولاة.

٢- سمى له ابن النديم[٨] ٣٥ كتاباً من مصنفاته، ويبدو منها اهتمامه بتاريخ بنى أمية بالعراق.

= ١٣، ١٤، ١٧.

(١) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف - بيروت): ٥/ ٢٥٥.

(٢) العبر للذهبى ١/ ١٥٠.

(٣) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى ١/ ١٧٧.

(٤) المغازى الأولى ومؤلفوها (مقدمة المترجم حسين نصار) صفحة م.وذكر أن هوروفتس فاته التنبيه على ذلك الكتاب المهم.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٩٣.

(٦) نشأة التدوين التاريخى عند العرب، للدكتور حسين نصار: ص٥٦-٦٠.

(٧) تاريخ الأدب العربى ١/ ٢٥٣.

(٨) الفهرست لابن النديم: ص١٠٥-١٠٦.

ويلاحظ على كتبه من أمثال: (مقتل الحسين، وسيرة الحسين، وصِفِّين، والجمل) أنها عبارة عن أحداث جزئية، ورسائل منفصلة، تتناول جزئيات محدودة، لكنها إذا انضم بعضها إلى بعض، يمكن أن تكون كتاباً يمتد من عصر أبى بكر حتى نهاية العصر الأموى مع وجود بعض الثغرات[١].

٣- جَرَّح المحدِّثون أبا مخنف، فقال عنه ابن مَعين: ليس بثقة. وقال أبو حاتم: متروك الحديث. ووصفه الدارقطنى بأنه أخبارى ضعيف[٢]. ورغم ذلك نقل عنه الطبرى في تاريخه كثيراً، وكذلك المدائنى، والأصفهانى فى: (مَقَاتِل الطالبيين)، وابن حجر في (الإصابة)، وغيرهم[٣]؛ مما يدل على أن الأخبار والتاريخ لها معايير، تختلف عن معايير الحديث في القبول والرد.

٤- كان يراعى التسلسل الزمنى للأحداث المفصّلة، ولكنها في داخلها غير متماسكة، وبها مشاهد وشِعْر وخُطَب، ويغلب عليها أسلوب القصص وأيام العرب[٤].

(د) سيف بن عمر التميمى (توفى في عهد هارون الرشيد حوالى ١٨٠هـ):

هو أخبارى كوفى نقل عن هشام بن عروة، وموسى بن عقبة، والكلبى، وابن إسحاق، وغيرهم. وقد ضَعَّفه المحدِّثون كابن معين، والنسائى، والدارقطنى. وحكم عليه أبو حاتم بأنه متروك الحديث كالواقدى[٥]. ويبدو أنه لسوء رأى المحدثين ونَقَدَة الرجال فيه، تجاهلته مصادر التراجم والرجال، حتى لا نكاد نعثر على ترجمة له فيها. لكن اشتهار سيف تركز في مجال السير والأخبار، فهو من أبرز رواة الفتوح، وأغزرهم مادة. وتضعيف المحدثين له في رواية الحديث، لا تقلل من قيمته العلمية في مجال التاريخ، الذى لا يتبع مقاييس رجال الحديث المتشددة[٦].

مؤلفاته ومنهجه العام:

١- يُعد سيف بن عمر أحد مؤلفى الكتب الأوائل عن العصر العباسى، ويبدو أنه كان مؤلفاً جامعاً لكتب الفتوح، ومن كتبه المفقودة[٧]:

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى ١/ ١٧٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٠٢.

(٣) تاريخ التراث العربى لسزكين (ط.الهيئة العامة): ١/ ٤٩٤-٤٩٥.

(٤) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى ١/ ١٧٨.

(٥) تهذيب التهذيب لابن حجر ٤/ ٢٥٩.

(٦) أزمنة التاريخ الإسلامى، للدكتور عبد السلام الترمانينى: جـ١ مج٢ (مبحث استدراك ما سقط من التراجم).

(٧) ذكرها كل من: بروكلمان في (تاريخ الأدب العربى) ٣/ ٣٦، وسزكين في (تاريخ التراث العربى) ١/ ٤٨٩-٤٩٩، والترمانينى في (أزمنة التاريخ الإسلامى): جـ١ مج٢ (مبحث استدراك ما سقط من تراجم).

أ- الفتوح الكبير والردة، ذكره ابن حجر في (الإصابة)[١]، ونقل عنه وأفاد منه الطبرى كثيراً في (تاريخه). وربما كان له كتاب واحد خاص بالرِّدَّة، وآخر خاص بالفتوح[٢]، بما يتناسب مع النظرة الجزئية في التأليف في ذلك الوقت، وعلى ذلك يكون قد اهتم بتاريخ الراشدين وما فيه من أحداث جِسام، تَلَتْ وفاة الرسول ﷺ.

ب- الجمل ومسيرة عائشة وعلى: وهو كتاب - كما هو واضح من عنوانه - يركز على الفترة الأولى من عهد على، ويسلط الأضواء على فترة حساسة من تاريخ المسلمين، يصعب على المؤرخ الفصل في أحداثها؛ لتعلقها بذوات أصحاب رسول ﷺ، ولما ترتب عليها من نتائج خطيرة في الدولة الإسلامية بعد ذلك. لكن سيف بن عمر خاض عُباب هذه الحساسية، وكتب في تلك الفترة باقتدار.

٢- جمع الأستاذ أحمد راتب بقايا مرويات سيف بن عمر في (تاريخ الطبرى)[٣]وغيره، مما يتصل بالفتنة ووقعة الجمل، وقام بمقارنتها بغيرها من المصادر الأخرى، وانتهى إلى الأخذ بروايات سيف ذات الإسناد الكامل، ورجحها على غيرها، فهى يقبلها العقل والمنطق السليم، بما يتلاءم مع مكانة الصحابة كصناع للحضارة الإسلامية، وبُناة لدولتها[٤]. وعلى هذا، فلا عجب أن يُكثر الطبرى في النقل عن كتاب سيف بن عمر، لا عن اغترار بحسن وصفه وبيانه، فانخدع به الطبرى كما ينقل بروكلمان[٥]، وإنما لأن مروياته أقرب إلى الصواب من مرويات غيره، كما أنها ليست حافلة بالخيال، وعدم اتباع قواعد النقد الصحيح، كما يتهمه بروكلمان أيضاً[٦].

٣- ذكر بعض الباحثين أن سيفاً كان يهتم - على وجه الخصوص - بروايات الفتوح بالعراق، وأنه كان يميل له، ويروى عن قبيلته تميم[٧]. وعموماً، فليس ذلك كل ما يتناوله في كتبه، فقد نُقلت عنه روايات في فتوح الشام كذلك[٨]. وهذا يدل على تنوع مصادره التاريخية، فهو يأخذ لكل مادة تاريخية ما يناسبها من مصادر، ولعل في معرفة أسماء شيوخه المتنوعين المنتمين لمدارس عديدة ما يشير إلى ذلك، فقد نقل

(١) راجع - مثلاً - جـ٤ صـ٦٢١.
(٢) بدليل ما ذكره الذهبى في (سير أعلام النبلاء): ٧/ ٣٠٢، قال: سيف بن عمر صاحب كتاب (الردة).
(٣) وبالنظر إلى جـ١٠ من (تاريخ الطبرى) في فهارس الأعلام، وُجدت إحالات واقتباسات الطبرى من (سيف بن عمر)، وتصل إلى عشرات المواضع، وتتركز في جـ٣، جـ٤ منه (فى أحداث سنة ١٠هـ إلى ٣٦هـ).
(٤) الفتنة ووقعة الجمل (مقدمة أحمد راتب): صـ٦-٧.
(٥) تاريخ الأدب العربى ٣/ ٣٦.
(٦) تاريخ الأدب العربى: ٣/ ٣٦.
(٧) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى ١/ ١٨٠.
(٨) تاريخ دمشق (ط.المنجد) لابن عساكر: ١/ ٤٨٥-٤٨٨، وغيرها.

عن هشام بن عروة، وموسى بن عقبة المدنييْن. فلعله نقل عنهما أخبار الردة والفتنة، هذا إلى جانب محمد ابن السائب الكلبى، وغيره من المصادر العراقية.

السمات العامة لمدرسة العراق التاريخية:

١- حَظِيَتْ بلاد العراق بتعاقب العديد من الأمم المتحضرة على حكمها قديماً من بابليين وآشوريين وفرس ويونان، كما قامت بها إمارة عربية بالحيرة. فإلى جانب هذا الميراث الحضارى، اجتمعت الفتن والعصبيات القبلية، وظهر الاهتمام بالفتوح والأنساب؛ مما جعل لهذه المدرسة السبق في تدوين تاريخ الفتوح الإسلامية(١).

٢- غلب على هذه المدرسة الاهتمام بالموضوعات الشائكة المتصلة بالرِّدَّة والفِتَن على يد أبى مخنف، وسيف بن عمر. ومنهم مَنْ خَصَّ صِفِّين بالتأليف في كتاب خاص، وهو نصر بن مُزَاحِم (ت ٢١٢هـ).

٣- أن مُدَوِّنى التاريخ بتلك المدرسة لا يُعَدُّون مؤرخين، وإنما يطلق عليهم لفظ: (الأخباريين)(٢)؛ إذ جمعوا خليطاً من الشعر، والأخبار، والأنساب المرتبطة بأحداث تاريخية جزئية قاموا بالتأريخ لها. ومن أبرزهم في ذلك المجال: أبو مخنف، وسيف.

٤- أن العصبية الواضحة كانت تطفو على السطح أحياناً، فأبو مخنف له ميول علوية عراقية تظهر في مروياته التاريخية(٣). كما أن معظم مؤرخى هذه المدرسة مطعون في نزاهتهم من أهل الحديث، لكنهم خَلَّفوا لنا تراثاً تاريخيّاً ضخماً، يحتاج إلى النظر فيه، ودراسته وَفْقَ مقاييس للثقة جديدة، تخالف مقاييس المحدثين بعض الشئ.

٥- أن هذه المدرسة جذبت إليها العَلاَّمة (الواقدى) بكل منجزاته التاريخية الضخمة، فتنازعته مع مدرسة المدينة، وأعطت من خلال حسن لقائها له، واحتفائها به نموذجاً لمكانة المؤرخ بها، فكَرَّمه هارون الرشيد والمأمون من بعده، وعُيِّن قاضياً لمدة ٤ سنوات؛ مما يدل على أن المؤرخ كانت له مكانة في المجتمع. ولعل مما ساعد الواقدى على اعتلاء هذا المنصب، وحيازة ذلك الموضع، أنه كان متمكناً في

(١) يذكر أحمد أمين في (ضحى الإسلام) ٢/ ٣٤٥: أن العراق أول بيئة عربية بدأ فيها تدوين التاريخ الإسلامى. والحق أن ذلك القول غير دقيق؛ لأن الحجاز بهذا السبق أولى، وإن كنتُ أعتقد أن تاريخ الفتوح الإسلامية ازدهر في العراق عما سواه من المدارس الأخرى.

(٢) نسبة إلى الأخبار، فيقال لمن يروى الحكايات والقصص والنوادر: الأَخْبَارِىّ. (اللباب في تهذيب الأنساب) لابن الأثير ١/ ٣٤. ويقول طاش كُبْرَى زَادَه في: (مفتاح السعادة) ٢/ ٨٥: الأخبارى ليس له شغل إلا القصص واستيفاؤها، والنقل عمن سلف سواء كانت الأخبار صحيحة أم باطلة. ويقول أحمد أمين فى: (ضحى الإسلام) ٢/٣٥٦: الأخبارى هو الذى لا يهبط إلى القَصّ، فيكون وليد الوهم والاختراع، ولا يرتفع إلى درجة التاريخ، فتُفْهَم وقائعه وأحداثه، بل خليط من الحقيقة والخيال.

(٣) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى: ١/ ١٧٣.

مجال الحديث والفقه إلى جانب التاريخ[١]. ولا ننسى أن الشعبى حَظِىَ بمكانة تشبه مكانة الواقدى، فكان سفيراً وقاضياً. وهكذا، حظى الواقدى بمكانة مرموقة في العراق، كما حظى من قبل بمكانة طيبة في المدينة، قوامها علمه الغزير وثروته الحديثية الطيبة (التى تدخل فيها أحاديث المغازى بالطبع)، فقال عنه الذهبى: إن للواقدى في وقته جَليلة عجيبة، ووَقْعاً في النفوس، بحيث قيل: ما كان مفيدنا الشيوخ والحديث إلا الواقدى[٢].

مدرسة الشام التاريخية

تُعَدّ مدرسة الشام من المدارس التاريخية التى تقل معلوماتنا عنها، وعن إسهاماتها في بناء صرح تاريخنا الإسلامى، بالقياس لما نعرفه عن مدرسة المدينة ذات التراث الدينى، بخلفياتها وأبعادها الروحية، وخلافاً لما اشتهرت به مدرسة العراق بمؤرخيها في مجال الفتوح والأخبار خاصة.

وأحاول - الآن - إعطاء صورة بسيطة لأهم منجزات مدرسة الشام التاريخية خلال هذين القرنين:

أ- لا شك أن الصحابة الذين أقاموا بالشام، مثل: أبى أُمامة الباهِلىّ[٣] وعبادة بن الصامت[٤]، كان لهم دورهم الكبير في رواية مغازى رسول الله ﷺ، وسيرته بين أهل الشام.

ب- واصل التابعون - من بعدهم - الجهاد العلمى على الدرب نفسه، من أمثال: عبد الرحمن بن جُبَيْر، وعبد الرحمن بن غَنْم.

جـ- كان لحكام الأمويين دور في إرساء دعائم هذه المدرسة التاريخية، فيُذكر أن معاوية بن أبى سفيان كان يستقدم مؤرخين من اليمن كعَبيد بن شَرِيَّة، ودَغْفَل النَّسَّابة؛

---

(١) يبدو أن المغازى والأيام، إلى جانب التفسير والفقه، كانت من العلوم والثقافات الأساسية، التى يُحصِّلها صفوة الرجال، الذين يُوَلَّوْن المناصب المهمة في الدولة. وخير نموذج لذلك: أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم الكوفى ١١٣-١٨٢هـ) العلاَّمة المحدث قاضى القضاة في الخلافة العباسية. (سير أعلام النبلاء ٨/ ٥٣٥-٥٣٧).

(٢) تاريخ بغداد: ٣/ ٩، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٤٥٨.

(٣) هو صُدَىّ بن عَجْلان بن وهب. صحابى جليل، روى عن النبى ﷺ، وعمر، وعثمان، وعلى، وغيرهم. وروى عنه مكحول الشامى وغيره. كان ابن ثلاثين سنة يوم حجة الوداع. سكن الشام، وكان آخر مَنْ مات من الصحابة هناك (ت ٨٦هـ). (تهذيب التهذيب ٤/ ٣٦٨-٣٦٩).

(٤) أحد النقباء ليلة العقبة، وشهد بدراً، وما بعدها. روى عنه عبد الرحمن بن غنم، وغيره. أرسله عمر إلى فلسطين؛ ليعلم أهلها القرآن، فأقام بها حتى مات (توفى بالرملة ٣٤هـ). (تهذيب التهذيب ٥/ ٩٧-٩٨). هذا وقد أورد الطبرى في (تاريخه): ٣/ ٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٦، روايات ذكرها الصحابيان: أبو أمامة، وعبادة ابن الصامت عن غزوة اليرموك ١٣هـ، التى شاركا فيها.

لتحديثه بتاريخ ملوك اليمن القديم[١]، وتواريخ الأمم السالفة.

د- يُعَدّ عَوانة بن الحَكَم الكلبى (ت ١٤٧هـ)[٢] - رغم أنه كوفى الأصل - من رجالات مدرسة الشام التاريخية، وما ذاك إلا لأن ما اشتهر عنه من مصنفات تاريخية، إنما يتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ الأمويين. فقد اهتم عوانة بكتابة التاريخ في إطار موضوعات عامة شاملة، تخرج عن إطار القبيلة الضيق، فكان ينقل عن قبيلة (كلب) صديقة الأمويين، فكأنما كان ينقل من مصدر وثيق، مما يعد خطوة مهمة على طريق التدوين التاريخى. ومن كتبه التى ذكرها العلماء[٣] محققة هذا المنهج:

١- التاريخ: ويذكر أحدهم[٤] أنه أول كتاب يحمل اسم العلم، وأنه يحوى أحداث القرن الأول الهجرى متضمنة عهد الراشدين، والأمويين حتى نهاية عهد عبد الملك بن مروان.

٢- سيرة معاوية وبنى أمية: ويبدو أنه خصص لتراجم الأسرة الأموية الحاكمة، مما يعد سبقاً طيباً في تاريخ الدول. ويذكر العلامة سزكين[٥] أن الطبرى[٦] احتفظ ببعض مقتبسات منه، يرجح أنه نقلها بواسطة هشام الكلبى، والمدائنى عن عَوانة بن الحكم.

هـ- يعد الإمام شيخ الإسلام، عالم الشام (عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمَد المشهور بالأَوْزَاعِىّ[٧] المتوفى ١٥٧ هـ ببيروت مرابطاً)، يعد واحداً ممن أرسَوْا دعائم مدرسة السير والمغازى في الشام، بحيث جعله الإمام ابن تيمية أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار[٨]. ويكون بذلك قد جمع بين الحديث، والفقه، والسير والمغازى. ولا أدرى إن كان له أثر تاريخى مكتوب أم لا، فالطبرى لم يحتفظ لنا بشئ للأوزاعى في (تاريخه).

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ٢/ ٢٨.

(٢) علامة أخبارى ضرير، عالم بالشعر القديم، وأخبار العرب. ويعد أحد الفصحاء. مؤرخ للعصر الأموى نسابة، قصاص ماهر. له علم بالفتوح خاصة، وعامة أخبار المدائنى عنه، فقد كان يثق بمروياته التاريخية (معجم الأدباء لياقوت ١٦/ ١٣٤-١٣٧، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٢٠١).

(٣) ذكرها سزكين في (تاريخ التراث العربى) ١/ ٤٩١-٤٩٢، وشاكر مصطفى في (التاريخ العربى والمؤرخون) ١/ ١٧٩-١٨٠.

(٤) المرجع السابق ١/ ١٣٥، ١٧٩.

(٥) تاريخ التراث العربى ١/ ٤٩٢.

(٦) تاريخه: ١٠/ ٣٨٣-٣٨٤ (فهرس الأعلام).

(٧) نسبة إلى محلة بدمشق، تسمى (الأوْزاع)، تسكنها بقية من قبائل شتى. (سير أعلام النبلاء ٧/ ١٠٧، وتهذيب التهذيب ٦/ ٢١٧).

(٨) فتاوى ابن تيمية (مبحث مقدمة في أصول التفسير): ١٣/ ٣٤٧.

و- إبراهيم بن محمد بن الحارث (المشهور بأبي إسحاق الفَزارى ت ١٨٨هـ)(*):

كوفى نزل الشام وسكنها. كان علم الحديث ومروياته من مقومات ثقافته التاريخية، إذ تلقاه على جمهرة من العلماء، مثل: موسى بن عقبة، ويحيى بن سعيد الأنصارى، ومالك، وشعبة، والثورى. وبلغ من العلم حدّاً دفع كبار العلماء للأخذ عنه، مثل: الأوزاعى وهو من شيوخه، وعبد الله بن المبارك.

تحدث عنه ابن سعد، فقال: ثقة فاضل، صاحب سُنَّة وغزو، وإن كان كثير الخطأ في حديثه[١]. وعلى كل، فقد وَثَّقَه العلماء عامة.

ويعد أبو إسحاق الفزارى خليفة الأوزاعى في إمامة العلم، والفقه، والسنَّة، والسيرة في بلادهم[٢]. وقد قال عنه ابن أبى حاتم: إمام ثقة[٣]. وقال في موضع آخر:[٤] ما ينبغى لرجل أن يكون أبصر بالسِّيَر منه.

وقد ذكر عدد من العلماء أن أبا إسحاق الفزارى له كتاب في السير أعْظَمه الناس[٥]. وقال الخليلى في (الإرشاد): هو إمام يُقْتَدَى به، وهو صاحب كتاب السِّيَر، الذى نظر فيه الشافعى، وأملى كتاباً على ترتيبه، ورَضِيَه[٦].قال الشافعى-ذات مرة- للحُمَيْدِىّ: لم يُصَنِّفْ أحد في السِّيَر مثله[٧].

السمات العامة لمدرسة الشام التاريخية:

١- من الواضح أن تفوق مدرسة الشام التاريخية يكمن في (السير والمغازى)؛ فهم أعلم الناس بها بعد أهل المدينة، فأرضهم أرض غزو وفتوح، وبها الصحابة والتابعون كثيرون[٨]، كما أن الشام في العصر الأموى كانت مركز الحكم والبلاط، وحضر إليها التابعون ومن قبلهم الصحابة، فحكوا مغازيهم وفتوحاتهم التى شاركوا فيها. كما لا ننسى اهتمام الحكام بالفتوح، ومشاركتهم الناس في سماع روايتها؛ لارتباطها بالنظم المالية والإدارية للدولة[٩]. وقد عَبَّرَ ابن عساكر، نقلاً عن ابن عُيَيْنَة عن وجود

(*) ترجم له: ابن حجر في (تهذيب التهذيب) ١/ ١٣١-١٣٢.

(١) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ١٨٥ (ذكره في محدثى العواصم والثغور).

(٢) ذكره ابن كثير في (البداية والنهاية، ط. مكتبة المعارف) ٩/ ١٩٣ في (وفيات ١٨٥هـ)، وذكره مرة أخرى (وفيات ١٨٨هـ): ٩/ ٢٠٨.

(٣) الجرح والتعديل ١/ ١/ ١٢٨-١٢٩.

(٤) تقدمة المعرفة، لابن أبى حاتم: صـ٢٨١.

(٥) المعارف لابن قتيبة: صـ٥١٤، وابن تيمية في فتاواه (مقدمة في أصول التفسير): ١٣/ ٣٤٧.

(٦) ١/ ٤٤٣.

(٧) تهذيب التهذيب: ١/ ١٣٢.

(٨) فتاوى ابن تيمية (مبحث مقدمة في أصول التفسير): ١٣/ ٣٤٧.

(٩) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى: ١/ ١٢١.

التخصص في المدارس التاريخية، محدداً الفرع الذى تفوقت فيه بلاد الشام، فقال: (من أراد الإسناد والحديث، فعليه بأهل المدينة. ومن أراد المناسك والعلم بها، فعليه بأهل مكة. ومن أراد المَقَاسِمَ وأمْرَ الغزو، فعليه بالشام)(١).

٢- كان للعلماء الشاميين مصنفاتهم التى أسهموا بها في بناء صرح التاريخ الإسلامى، فقد رأينا (التاريخ)، و(سيرة معاوية، وبنى أمية) لعوانة بن الحكم، و(السير) لأبى إسحاق الفزارى. وهناك - أيضاً - محمد بن عائذ الدمشقى (١٥٠-٢٣٤هـ) الذى ألّف في المغازى، ووضع فيها كتاباً، سمع الذهبى معظمه. وله كتاب - أيضاً - في (الفتوح، والصوائف)(٢).

٣- كان لرجال مدرسة الشام التاريخية مكانتهم العلمية الموسوعية، ووجاهتهم في المجتمع الشامى، فها هو الأوزاعى صاحب المغازى، وصاحب كتاب (سير الأوزاعى)، الذى رواه الشافعى في كتابه: (الأم)(٣)، وفيه يشرح النظام الحربى للمسلمين، وهو يتصل بتاريخ الفتوح، فكان نواة طيبة لكتب التاريخ الشامى؛ إذ الحركة التاريخية في الشام نابعة من الحركة الدينية، شأنها شأن مصر(٤)، كما سنرى بعدُ.

تمتع الأوزاعى بمكانة سامية في مواجهة الحكام، من خلال وصاياه ونصائحه وتوجيهاته الشجاعة لهم(٥)، حتى قال مالك عنه: إنه يَصْلُح للخلافة(٦). وقد أرادوه على القضاء فامتنع، فقيل: لِمَ لَمْ يُكْرِهُوه ؟! قيل: هَيْهَاتَ؛ هو كان أعظم في أنفسهم قدراً من ذلك(٧).

وتمتع أبو إسحاق الفزارى بمقام عالٍ في بلاده، فكان صاحب سُنَّة، وهو الذى أدَّبَ أهل الثغر وعلّمهم السنة، ويأمر وينهى.وإذا دخل الثغر رَجُلٌ مبتدع أخرجه،وكان لا يُجلس في مجلسه رجلاً منحرف العقيدة.وأقر هارون الرشيد له بمكانه في العلم هو وابن المبارك؛ لأنهما ينخلان أحاديث الوُضَّاع حرفاً حرفاً، مما يدل على مكانته العلمية وتقديره في مجتمعه(٨). وأخيراً، فقد كان محمد بن عائذ الدمشقى متولى ديوان الخراج زمن المأمون بالشام(٩).

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر (ط.المنجد): ١/ ٣١٦ (فى ثلاثة مواضع).
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٠٤-١٠٦.
(٣) ٧/ ٣٠٣، وما بعدها (ط.دار الشعب بمصر ١٩٦٨م).
(٤) ضحى الإسلام، لأحمد أمين ٢/ ١٠١.
(٥) الأمام الأوزاعى فقيه أهل الشام، لعبد العزيز سيد الأهل: ص١٥٠، وما بعدها.
(٦) تقدمة المعرفة، لابن أبى حاتم ص٢٠٠-٢٠٢، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٧/ ١١٢.
(٧) تهذيب التهذيب: ٦/ ٢١٩.
(٨) تهذيب التهذيب: ١/ ١٣٢.
(٩) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٠٤-١٠٦.

وهكذا، كان للمؤرخين في بلاد الشام علم غزير، ومصنفات في التاريخ مهمة، ومكانة في المجتمع ولدى الحكام سامية.

مدرسة اليمن التاريخية:

لم تكن اليمن بمنأى عن الإسهام في مجال الدراسات التاريخية خلال هذين القرنين، فقد وجد بها مؤرخون عُنُوا بذلك الشأن، وكان لهم دورهم في الإسهام في مجال الرواية التاريخية.

أ- كعب الأحبار (ت ٣٤هـ) (*):

كان كعب ذا علم غزير، خاصة بعد أن جالس الصحابة، ونقل معارفهم وعلومهم(١)، كما أسهم في نقل معلومات عن كتب الإسرائيليات إليهم؛ لأنه كان خبيراً بكتب اليهود، وله معرفة وقدرة على تمييزها جملة(٢).

ورغم أن كعباً روى السنة عن بعض الصحابة، وحسن إسلامه(٣)، واتفق العلماء على كثرة علمه وتوثيقه على حد قول النووى(٤)، إلا أن مروياته في مجال التاريخ تحتاج إلى وقفات حتى تُنقد متونها وأسانيدها. لقد ابتدع كعب المنهج القصصى الأسطورى في التاريخ اليمنى القديم، وله مرويات في تاريخ الخَلْق، وحدوث الفِتَن، وظهور الدَّجَّال بالشام، وغير ذلك(٥). كما كان له اهتمام برواية مرويات تاريخية؛ بهدف وعظ الناس وتذكيرهم بالآخرة والحساب(٦).

والقاعدة التى ينبغى اتباعها: تصديق ما صَدَّقَه شرعنا، وتكذيب ما كَذَّبه شرعنا، والتوقف فيما سوى ذلك. ولا يُخشى غائلة هذه الإسرائيليات في التاريخ والتفسير، ما دامت تُعرض على هذا المَحَكّ. ولعل هؤلاء المؤرخين دَوَّنوا تلك الإسرائيليات؛ حرصاً على توصيل معارف العصر للناس، فقد يكون في بعضها فائدة أو إيضاح، فليس الغرض من تدوينها اعتقاد صحتها(٧).

(*) هو كعب بن مَاتِع الحِمْيرِى. يقال: إنه أدرك الجاهلية، وأسلم في أيام أبى بكر، أو أيام عمر. روى الحديث عن عمر، وصُهَيْب، وعائشة. روى عنه: ابن امرأته تُبيعُ الحميرى، ومعاوية، وأبو هريرة، وابن عباس، وغيرهم. خرج من المدينة إلى الشام بعد إسلامه، ومات بحمص ٣٢هـ (طبقات ابن سعد، ط.ليدن، ٧/ ٢/ ١٥٦، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٤٩٠، وتهذيب التهذيب ٨/ ٣٩٣).

(١) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ١٥٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٩٠، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١/ ٤٨٨.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٨٩.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات، للنووى: جـ٢ من القسم الأول صـ٦٨-٦٩.

(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (ط.المنجد): ١/ ٢٥، ١٠٢، ١٠٩-١١٠، ٣٠٢، ٦٠٦، وغيرها.

(٦) حِلْيَة الأولياء، لأبى نُعيم الأصبهانى (م.السعادة) ٥/ ٣٦٤، وما بعدها.

(٧) مقالات الكَوْثَرى صـ٣٤.

ب- عبد الله بن سَلاَم بن الحارث (ت ٤٣هـ)(*):

يُعد ابن سَلاَم من أوائل مسلمي اليهود، وكان من أحبارهم. ومن هنا يُتوقع أن يكون له علم ببدء الخلق والعالم، والأنبياء السابقين[١]، وإليه ترجع كثير من الأخبار المتصلة بهذا الشأن في أقدم ما كتب في المغازى، وغيرها[٢].

جـ - وَهْب بن مُنَبهٌ (ت ١١٠هـ)(**):

عَلاّمة قصصى أخبارى من أصل فارسى. ولد في صنعاء في خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٤هـ، ورحل إلى الحجاز وحج. روى عن أبى هريرة، وابن عباس، وابن عمر، وأخيه هَمّام بن مُنَبّه، وغيرهم. وروى عنه: ابناه (عبد الله، وعبد الرحمن)، وعاصم بن رجاء بن حَيْوَة، وغيرهم. ولى قضاء صنعاء، ووثقه عدد من العلماء كأبى زُرْعَة.وكان غزير العلم في الإسرائيليات؛ لكثرة ما نقل من صحف أهل الكتاب؛ ولذا فروايته للمرويات المسندة قليلة.

تآليفه:

١- كتاب المبتدأ: رواه حفيده ابن إدريس. ويُعَدّ أول محاولة لكتابة تاريخ عالمى من خلال تاريخ الأنبياء. فهو يتناول أصل الجنس البشرى مستمداً من أخبار أهل الكتاب، إلى جانب تاريخ الرسالات السابقة. وقد اعتمد عليه الثعالبى في كتابه الخرافى: (عرائس المجالس)[٣].

٢- الملوك المُتوجة من حِمْيَر وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم[٤] :

(*) كان يسمى الحُصَيْن في يهوديته، وكان حليفَ الخَزْرج. فلما أسلم وقدم إلى النبىﷺ بالمدينة، سَمّاه عبد الله، وشهد له بالجنة. روى الحديث عن رسول الله ﷺ. وروى عنه: ابناه: محمد، ويوسف. وعوف بن مالك ،وأبو هريرة، وغيرهم. شهد مع عمر فتح بيت المقدس، وخطبة الجابية، وكانت له آراؤه ومشاركته في الأحداث، وكان ممن أسدى النصح بشأن الفتنة، وفر إلى الشام، ولم يبايع عليّاً. مات بالمدينة ٤٣هـ (تاريخ الطبرى (أحداث ٣٥هـ) ٤/ ٣٩١، ٤٣٠، وأحداث ٣٦هـ(٤/ ٤٥٥)، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٤١٣، وتهذيب التهذيب ٥/ ٢٢٠).

(١) تاريخ التراث العربى، لسزكين ١/ ٤٨٧.

(٢) أورد له الطبرى في (تاريخه) روايات عن خلق السموات والأرض ١/ ٤٣، ٤٧، ٥٤ - ٥٥، وكذا رأيه في ساعة الإجابة يوم الجمعة ١/ ٢٣، وفضل ذلك اليوم من خلال حديث نبوى رواه ١/ ١١٧.

(**) اعتمدت في ترجمته على: الجرح والتعديل لابن أبى حاتم مج ٤ قسم ٢ صـ٢٤، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٥، وتهذيب التهذيب ١١/ ١٤٧.

(٣) ذكر ابن النديم في الفهرست صـ١٠٦: أن عبد المنعم بن إدريس له كتاب المبتدأ، وهو ابن ابنة وهب، ويبلغ عمره فوق المائة، وعَمِىَ آخر عمره، وتوفى ٢٢٨هـ. وذكره هوروفتس في (المغازى الأولى ومؤلفوها) صـ١٣، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١/ ٢٥٢.

(٤) معجم الأدباء، لياقوت ١٩/ ٢٥٩.

اعتمد عليه ابن إسحاق في عرض بدايات المسيحية باليمن، وابن هشام في بداية كتابه: (التيجان في ملوك حمير)، الذى يُعَدّ بمنزلة تاريخ خرافى قديم لليمن، طبع بالهند[١]. ولما كان ما مضى من كتب يعد مدخلاً للسيرة النبوية وأحداثها، فقد كان لوهب إسهامه في مجال السيرة، عندما وضع كتاباً عن (المغازى).

٣- (المغازى): كتاب نقل عنه المؤرخون في مؤلفاتهم، ومنهم: ابن قتيبة في كتابه: (المعارف)[٢].

منهجه:

١- يبدو أنه كان يعتمد - أحياناً - على قراءة النقوش والآثار القديمة، فقد كان على علم بها؛ بدليل أن الوليد بن عبد الملك أرسل إليه؛ ليقرأ حجراً عليه نقوش غير عربية، عثروا عليه أثناء بناء مسجد بدمشق سنة ٨٧هـ[٣].

٢- قَلَّل من مكانة وهب بن منبه مؤرخاً غلبة القصص عليه، دون ذكر الأسانيد، وخَلْطه المادة التاريخية بالأساطير[٤].

٣- استخدامه أسلوب قُصَّاص العرب القدماء في عدم حرصه على ذكر أسانيد الأخبار، وفى قطعه الاسترسال النثرى للأحداث بإدخال قصائد شعرية، قيلت أثناء وقوع الأحداث[٥].

٤- ومن خلال ما نُقل عنه في المغازى، اتضح أنه يفهم السيرة فهماً شاملاً، كما فهمه بقية كُتَّاب المغازى السابقين، فحَوَتْ مغازيه موضوعات شتى، منها:

تاريخ العقبة الكبرى، وحديث قريش في دار الندوة، والاستعداد للهجرة، ودخول الرسول المدينة[٦].

د- مَعْمَر بن راشد (٩٥-١٥٤هـ):

إمام حافظ، شيخ الإسلام، مولى بصرى. كان من أهل البصرة، وقضى بها فترة

(١) واعتبر بروكلمان كتاب (التيجان) من آثار (وهب بن منبه)، موضحاً أنه رغم أنه من تأليف ابن هشام نفسه، إلا أنه اعتمد فيه - بصورة أساسية - على إسرائيليات وهب بن منبه. واعتمد ابن هشام على مصدر آخر، مثل: محمد بن السائب الكلبى، وأبى مخنف. (كتاب التيجان يتناول أسطورة تاريخ عرب اليمن إلى سيف بن ذى يَزَن). (تاريخ الأدب العربى ١/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) تاريخ التراث العربى، لسزكين ١/ ٤٩٠. وقد بحثت قدر الاستطاعة في المصدر المذكور، فلم أجد فيه مادة، تتصل بالمغازى، فالموجود يتعلق بـ (بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء)، وذلك في صفحات: ١٤، ١٧، ١٩-٢١، ٢٣-٢٤، ٢٦، ٢٨-٣٢، وغيرها.

(٣) مروج الذهب، للمسعودى ٢/ ١٤٤.

(٤) طبقات فقهاء اليمن، للجعدى ص٥٧.

(٥) المغازى الأولى ومؤلفوها، لهوروفتس (ترجمة: حسين نصار) ص٣٦.

(٦) المرجع السابق (ترجمة: حسين نصار) ص٣٥.

من حياته، شهد خلالها جنازة الحسن البصرى(ت ١١٠هـ)(١). وطلب بها العلم يسيراً، ثم رحل إلى اليمن، فكان أول من رحل إليها(٢). فسكن اليمن واستقر هناك، وظل يقيم بقية حياته، وتزوج بصنعاء، وبها توفى. ولم يكن يذهب إلى البصرة إلا لِماماً، وتذكر الروايات أنه كان يذهب إلى هناك؛ لزيارة أمه بها(٣).

وقد تعددت مصادر علمه في الحديث والسيرة، فروى عن قتادة، والزهرى، وهمام بن منبه، وهشام بن عروة، ومحمد بن المنكدر، ويحيى بن أبى كثير، وغيرهم (فهى مصادر عراقية مدنية يمنية). وقد كان معمر من أوعية العلم مع التحرى والتنزه والورع؛ مما جعل أكابر العلماء ترتحل إلى اليمن؛ لتتلقى عليه. ومن هؤلاء: الثورى، وابن عيينة، وابن المبارك. ومن علماء اليمن تلقى على يديه المحدث والفقيه الصنعانى عبد الرَّزَّاق بن هَمَّام(٤).

هذا، وقد جعله ابن سعد في الطبقة الثالثة من أهل اليمن المحدثين(٥). ووثقه كثير من نقاد الحديث، مثل: أحمد، والنسائى(٦). وقد رأينا-فيما مضى-براعته في التأليف الحديثى في (الجامع المشهور في السنن) المنسوب إليه، وهو من الكتب القديمة في اليمن، وسابق على مُوَطَّأ مالك(٧).

والحق أن معمر بن راشد يعد واسطة بين مدرسة البصرة واليمن، ولعل طريقة معمر الفريدة، التى اتبعها في تصنيف (الجامع) حسب الموضوعات، كان لها انعكاس على كتابه في المغازى؛ إذ رتبه ترتيباً موضوعيّاً، ولم يسلك مسلك معاصره: موسى بن عقبة المدنى، الذى رتب كتابه على أساس زمنى. وقد أضاف معمر إليه سير الأنبياء الآخرين. ويبدو أن الطبرى نقل كثيراً من مادة هذا الكتاب(٨).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٥، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٢١٨.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٧.

(٣) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٥/ ٣٩٧، وسير أعلام النبلاء ٧/ ١٢.

(٤) طبقات فقهاء اليمن، للجَعْدى ٦٦، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٥-٦، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٢١٨-٢١٩.

(٥) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٥/ ٣٩٧.

(٦) وذكر النووى في (تهذيب الأسماء واللغات) اتفاق العلماء على توثيقه: جـ٢ من القسم الأول صـ١٠٧، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٢٢٠.

(٧) تاريخ التراث العربى، لسزكين ١/ ٤٦٥، وطبقات فقهاء اليمن، للجعدى صـ٦٦.

(٨) ذكر ابن العماد الأصفهانى في (شذرات الذهب) ١/ ٢٣٥: أن لمعمر كتاباً اسمه (الجامع المشهور في السير)، وهو أقدم من موطأ مالك، ولعله كتاب المغازى نفسه، كما يقول شاكر مصطفى فى: (التاريخ العربى والمؤرخون) ١/ ١٥٩. وذكر كتاب الجامع كل من: هوروفتس في (المغازى الأولى ومؤلفوها) صـ٧٥، وسزكين في (تاريخ التراث العربى ١/ ٤٦٤-٤٦٥).

ويذكر ابن النديم[١] أن معمراً ألف كتاباً في المغازى، ووصلت إلينا فقرات منه اقتبس أكثرها الواقدى، وابن سعد، واقتبس بعضها الطبرى، وغيره[٢]. هذا، وقد وُجِدَ كتاب لعبد الرَّزَّاق بن هَمَّام (ت ٢١١هـ) في المغازى ذكره ابن النديم[٣]، فلعله -وهو تلميذ مَعْمَر- يشرح فيه كتاب أستاذه[٤].

والخلاصة:

١- أن معمراً كتب في بدء الخلق، وتاريخ الأنبياء السابقين، وأحداث الأمم الأخرى[٥].

٢- أن معمراً اهتم بحياة الرسول قبل بعثته ﷺ[٦].

٣- أنه اهتم بفترة حياته المكية، والمغازى التى خاضها في الفترة المدنية[٧].

سمات مدرسة اليمن التاريخية:

أ- اهتم أعلام هذه المدرسة بموضوعات بدء الخلق، والتاريخ الأسطورى القديم، وأحداث ما قبل الإسلام في محاولة لإثبات وجود أهل جنوبى الجزيرة في مواجهة منافسة أهل الشمال.

ب- وجد بها أعلام اهتموا بالسير والمغازى بمعناها الشامل، الذى يضم إلى أحداث الإسلام ما كان قبل ظهور رسالة النبى ﷺ، مستمدين تلك المواد من كتب أهل الكتاب، فأسهم كعب، وابن سلام، ووهب في إغراق المصادر التاريخية بالإسرائيليات.

جـ- تمتع أعلام هذه المدرسة بالثقافة الحديثية والفقهية، ومطالعة كتب أهل الكتاب كزاد ثقافى استمدوا منه موادهم التاريخية.

وهكذا، قدمت صورة مركزة لأعلام مدارس الحجاز، والعراق، والشام، واليمن في مجال التدوين التاريخى في القرنين الأولين من الهجرة، وكان التركيز مُنْصَبًّا على بيان ثقافات هؤلاء الأعلام، وما خَلَّفوا من مؤلفات، والموضوعات التى عالجوها، والخطوط العامة لمصنفاتهم التى ألَّفوها، وما بقى منها حتى الآن، وأَخْلُص بعد هذه المرحلة إلى الحقائق الآتية:

---

(١) الفهرست صـ١٠٦.

(٢) المغازى الأولى ومؤلفوها، لهوروفتس صـ٧٤.

(٣) الفهرست صـ٢٨٤.

(٤) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى ١/ ١٦٠.

(٥) تاريخ الطبرى ١/ ٣٤، ٤٠، ٨٣،٩٨، وغيرها.

(٦) ذكر الطبرى - نقلاً عن معمر - روايات عن عبد الله والد الرسول، وظروف وفاته ٢/ ٢٤٦، وروايات عن تجارة الرسول لخديجة في مالها ٢/ ٢٨١.

(٧) تاريخ الطبرى: ٢/ ٣٠٥، ٣٩٨، ٤٣٣، وغيرها.

١- أن التطور التاريخي في هذه المدارس في تلك الفترة نبع كجزء أصيل من التطور الفكرى والثقافى في الدولة الإسلامية ككل. ففى الحجاز حيث توافر الصحابة على أرض الأحداث كانت السير والمغازى. وفى الشام حيث الغزو والفتوح والحكم الأموى كانت مصنفات السِّيَر، والدولة الأموية، وسير حكامها. وفى العراق حيث الفتنة والاضطرابات كان القصص والأخبار والفتوح. وفى اليمن غلّبوا القديم، واهتموا بالتاريخ الأسطورى القديم على حساب التاريخ الإسلامى في مؤلفاتهم؛ لمواجهة العصبية القبلية مع أهل الشمال.

٢- عُرف التخصص على مستوى الأفراد، حسب المقدرة والمادة والميول. قال ابن النديم: قالت العلماء: أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره، والمدائنى بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدى بالحجاز والسيرة، وقد اشتركوا في فتوح الشام[١].

٣- أن معظم ما تركه أعلام هذه المدارس مفقود، وما بقى منه إلا نقول واقتباسات في مصادر المتأخرين، رسمنا مناهجهم العامة على ضوئها.

---

(١) الفهرست صـ١٠٦.

الباب الثالث

مدرسة مصر التاريخية

في القرن الأول الهجرى

(مرحلة التأسيس والبناء)

تقديم:

بعد أن استعرضت في الباب السابق مدارس التاريخ الإسلامى في أقاليم الحجاز، والشام، والعراق، واليمن، أتناول - على مدار بابين كاملين قادمين - مدرسة مصر التاريخية الإسلامية، مركّزاً على النقاط التى عالجتها سلفاً؛ لكى تظهر نقاط الاتفاق والاختلاف بين مدرسة مصر من جهة، والمدارس الأخرى السابق تناولها من جهة أخرى، ويظهر - كذلك - مدى الإسهام المصرى في حركة التاريخ الإسلامى خلال هذين القرنين. لكن المعالجة - هنا - لمدرسة مصر التاريخية ستكون مفصّلة، وسنقف معها وقفات مطولة؛ فمدرسة مصر هى هدفنا الأول في هذه الدراسة، وما ذكرنا المدارس الأخرى إلا من أجل مقارنتها بها. ومن هنا، أركز في مدرسة مصر على التراجم الوافية المسهبة لأعلامها من المؤرخين الرئيسيين، والموضوعات التاريخية التى اهتموا بها، والآثار التاريخية التى جادت بها عبقريتهم التاريخية، والنظر في بقايا كتبهم مما تيسر لى تجميعه، ومحاولة استخلاص مناهجهم، وطبيعة تفكيرهم، وتنظير رؤيتهم التاريخية خلال تلك الفترة، مع إبراز علاقتهم بمؤرخى المدارس الأخرى السابقة (مضافاً إليها: مدرستا المغرب، والأندلس) تأثيراً وتأثراً، إلى جانب موقف مدرسة التاريخ المصرية من قضايا كبرى، كالإسناد التاريخى، والعلاقة بين التاريخ والعلوم الأخرى، وبيان مقاييس النقد التاريخى في مواجهة دور القُصّاص الذى لعبوه في الحركة التاريخية.

الفصل الأول

عبد الله بن عمرو، وأبو قبيل

أولاً - عبد الله بن عمرو بن العاص: (*)

١- **نسبه وأسرته**: ينتسب هذا الصحابى الجليل إلى بنى سهم(١)، وهم من أعز

(*) اعتمدت في ترجمتي له مؤرخاً على المصادر والمراجع الآتية مرتبة ترتيباً زمنياً كالآتى: طبقات ابن سعد (ط.ليدن) ٤/ ٢/ ٨ وما بعدها، ٧/ ٢/ ١٩٠، وطبقات خليفة ابن خياط صـ٢٦، والمحبَّر لابن حبيب صـ٢٩٣، والتاريخ الصغير للبخارى ١/ ١٢٤، ١٤٠، والتاريخ الكبير للبخارى مج٣ قسم١ صـ٥، وطبقات علماء إفريقية لأبى العرب صـ٤٤-٤٥ وغيرها، والولاة والقضاة للكندى صـ١٠، ٣١، ٣٣ وغيرها، والثقات لابن حبان ٣/ ٢١٠-٢١١، والبدء والتاريخ للمقدسى ٥/ ١٠٧، وحلية الأولياء لأبى نُعَيْم الأصبهانى ١/ ٢٨٣، ورياض النفوس للمالكى صـ٤٣ (رقم ٤)، والاستيعاب لابن عبد البر ٣/ ٩٥٦ (رقم ١٦١٨)، والتعديل والتجريح للباجى ٢/ ٨٠٦ (رقم ٧٧٩)، والجمع بين رجال الصحيحين، للمَقْدِسى: ١/ ٢٣٩ (رقم ٨٧٩)، والأنساب للسمعانى ٧/ ٣١٢، وصفة الصفوة لابن الجوزى ١/ ٦٥٥ (رقم ٨٢)، وأُسْد الغابة لابن الأثير ٣/ ٣٤٩ (رقم ٣٠٩٠)، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى، القسم الأول، الجزء الأول صـ٢٨١-٢٨٢، والمُغْرِب في حُلَى المَغْرِب (القسم الأول الخاص بمصر) صـ٥٤-٦٤، وتهذيب الكمال للمِزِّى ١٥/ ٣٥٧ (رقم ٣٤٥٠)، وتذكرة الحفاظ للذهبى (ط.إحياء التراث العربى) ١/ ٤١ رقم ١٩)، والكاشف للذهبى ٢/ ١٠١ (رقم ٢٩١٣)، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٣/ ٧٩، والعبر للذهبى ١/ ٥٣، والوافى بالوفيات للصفدى ١٧/ ٣٨٠ (رقم ٣١١)، ومرآة الجنان لليافعى ١/ ١٤١، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف) ٨/ ٢٥٦، وتهذيب التهذيب لابن حجر (ط.دار الفكر) ٥/ ٢٩٤-٢٩٥ (رقم ٥٧٥)، وتقريب التهذيب لابن حجر ١/ ٤٣٦ رقم ٥٠٢)، والإصابة لابن حجر ٤/ ١٩٢(رقم ٤٨٥٠)، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١/ ١٦٦، والتحفة اللطيفة للسخاوى ٢/ ٣٦٣ (رقم ٢١٧٠)، وطبقات الحفاظ للسيوطى صـ١٠، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال للخزرجى ٢/ ٨٣ (رقم ٣٦٨٨)، وشذرات الذهب لابن العماد الأصفهانى ١/ ٧٣، والرياض المستطابة لليمنى صـ١٩٦، والأعلام للزركلى ٤/ ١١١، وتاريخ التراث العربى لسزكين (ط.الهيئة العامة) ١/ ١١٩-١٢٠، وأزمنة التاريخ الإسلامى، للترمانينى ١/ ٧٣١.

(١) ذكر السمعانى في الأنساب ٧/ ٣١٢: أن السهمى نسبة إلى بنى سهم. وبنو سهم فرعان: =

قريش نفراً، وأعلاهم مكانة ومجداً. فوالده عمرو بن العاص صحابي وداهية من دواهي العرب، وقائد من خيار قادتهم في الجاهلية والإسلام. وجده هو العاص بن وائل السهمي من زعماء قريش، وواحد من صناديد الشرك بها، وأمه هي: رائطة بنت بن مُنَبِّه بن الحجاج السهمية.

ويبدو أن عمرو بن العاص تزوج في سن مبكرة، وأنجب سريعاً، حتى إن بعض الروايات تذكر أن الفارق بينه وبين ابنه عبد الله في السن كان ضئيلاً[(١)]. ويظهر أنه كان لعمرو بن العاص ولد آخر أصغر من عبد الله يسمى: محمداً، ورد ذكره في أحداث الفتنة سنة ٣٦هـ، إذ خرج عمرو، وابناه: عبد الله، ومحمد من المدينة بعد موت عثمان ﷺ متوجهين إلى معاوية لمبايعته والانضمام إليه. ويذكر لنا الطبرى[(٢)] أن عمراً استشار ابنيْه، فحرّضه محمد على الانضمام إلى معاوية ﷺ، بينما نصحه ابنه عبد الله باعتزال الفتنة، لكنه استجاب لرأى محمد. ولا نكاد نسمع شيئاً عن محمد هذا بعد ذلك الخبر. ولا شك أن عمراً كان له أولاد كثيرون، كعادة العرب في التعدد والذرية، لكن يبدو أن الشهرة ومكانة ابنه الأكبر، طغت على الآخرين، الذين لم يكونوا يتمتعون بالمواهب والكفايات التى كانت لعبد الله، ولا بشئ قريب منها.ولعلهم -خاصة محمداً-تُوفُّوا في سن مبكرة، فلم يُعَمَّروا كما عُمِّر عبد الله بن عمرو، فطوى التاريخ حياتهم،بينما خَلّد ذكر عبد الله بن عمرو في صفحاته الناصعات.

٢- حياته:

ولد عبد الله بن عمرو في حوالى السنة السادسة من البعثة النبوية المشرفة[(٣)]، أى: قبل هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة بسبع سنين. ولعله بدأ يميز الحق من الباطل بعد الهجرة، خاصة بعد الصدام المسلح، الذى وقع بين المسلمين والمشركين

= ١- سهم جُمَح: وإليه ينسب عمرو بن العاص وأسرته.
٢- سهم باهلة: ومنهم الصحابى: الحارث بن عمرو السهمى.

(١) ذكرت بعض المصادر أن الفارق بينهما كان يبلغ إحدى عشرة سنة، منها: سير أعلام النبلاء ٣/ ٨٠، وتهذيب الكمال للمزى ٣٥٨/١٥، وتهذيب التهذيب ٥/ ٢٩٤، والتحفة اللطيفة للسخاوى ٢/ ٣٦٤، وشذرات الذهب للعماد الأصفهانى ١/ ٧٣. بينما تذكر لنا مصادر أخرى أن الفارق بينهما ١٢ سنة، مثل: التاريخ الصغير للبخارى ١/ ١٤٠، وأسد الغابة لابن الأثير ٣٤٩/٣، والوافى للصفدى ١٧/ ٣٨٠، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، للراغب الأصفهانى ١٥٦/١، وقال: لا يُعلم أحد بينه وبين أحد ذلك القَدْر، ومَنْ بينهما ١٤ سنة فكثير. وتذكر مصادر أخرى أن الفارق بينهما ١٣ سنة، منها: الثقات لابن حبان ٣/ ٢١١، ورياض النفوس للمالكى صـ٤٣، والجمع بين رجال الصحيحين للمقدسى ١/ ٢٣٩.

(٢) تاريخه: ٤/ ٥٦٠-٥٦١.

(٣) الأعلام للزركلى ١١١/٤، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١١٩/١، وأزمنة التاريخ الإسلامى ١/ ٧٣١.

في بدر (٢هـ)، ثم في أحد (٣هـ)، والذى لم يشارك فيه ابن عمرو - بالطبع - لصغر سنه.

والحق أن ما بين يدى من مصادر تراجمه تؤكد على حقيقة مؤدّاها أنه أسلم قبل أبيه عمرو بن العاص[(١)]، وأن الرسول غيّر اسمه بعد إسلامه، فسمّاه عبد الله بدل اسمه القديم (العاصى)[(٢)]. وتضيف بعض المصادر[(٣)] أن النبى ﷺ كان يفضله على أبيه؛ نتيجة سابقته، وعلمه، وحفظه، واجتهاده في العبادة. وإذا علمنا أن عمراً أسلم متأخراً - وعلى أحسن الفروض - في فترة الهدنة بعد مُنْصَرَف المشركين من غزوة الأحزاب، فذلك يعنى أنه أسلم أول سنة (٧هـ، عام غزوة خيبر)[(٤)]، وربما يكون إسلامه قد تأخر إلى صفر سنة ٨هـ قبل الفتح بستة أشهر. ومعنى ذلك أن ابنه عبد الله أسلم، وهاجر قبل ذلك بفترة كافية. ومن هنا أرجح ما ذكره أبو الفرج بن الجوزى[(٥)]، الذى جعله في الطبقة الثالثة من المهاجرين والأنصار، ممن شهد غزوة الخندق، وما بعدها من غزوات، فيكون قد أسلم حوالى سنة ٥هـ. ولعله شارك في غزوة الخندق رغم بلوغه حوالى ١٢ سنة يومها؛ نظراً للأزمة العصيبة التى واجهت المسلمين خلالها، وعبّر عنها القرآن بدقة في قوله (تعالى): ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ⑪﴾[(٦)].

وبناء على ما تقدم، فلا أوافق مَنْ قال بأن عبد الله بن عمرو أسلم وهاجر بعد سنة ٧هـ، وشهد بعض الغزوات[(٧)]؛ لأسباب منها:

١- تعارضه مع القول بشهوده غزوة الخندق.

٢- تعارضه - قبل ذلك - مع الروايات الثابتة، التى تؤكد سَبْقَ إسلامه على إسلام أبيه عمرو بن العاص.

٣- تعارضه مع العلم الغزير، الذى نقله عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ، والذى عبّر عنه ابن حجر بقوله عنه: " أحد السابقين المكثرين من الصحابة "[(٨)]. وهذا

---

(١) تهذيب الكمال للمزى ١٥/ ٣٥٨، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٨٠، الوافى بالوفيات للصفدى ١٧/ ٣٨٠، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٥/ ٢٩٤، والإصابة لابن حجر ٤/ ١٩٣.

(٢) تهذيب الكمال للمزى ١٥/ ٣٥٨، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٨٠، وتهذيب التهذيب ٥/ ٢٩٤، والتحفة اللطيفة للسخاوى ٢/ ٣٦٤.

(٣) تذكرة الحفاظ (ط.إحياء التراث): ١/ ٤١.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ٢ من القسم الأول صـ٣٠-٣١. لكن المؤكد أنه ممن أسلم قبل فتح مكة، وفى بداية فترة صلح الحديبية بعد ٦هـ، وأسلم معه خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، فيما يذكره ابن سعد في الطبقات(ط.ليدن)٤/ ٢/ صـ١-٢.

(٥) صفة الصفوة ١/ ٦٥٥.

(٦) سورة الأحزاب: الآية ١١.

(٧) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٩١.

(٨) تقريب التهذيب لابن حجر: ١/ ٤٣٦.

العلم يتطلب مزيداً من طول الفترة التى لازم خلالها رسول الله ﷺ؛ مما يرجح الرأى الذى اعتمدته في تاريخ إسلامه ﷺ.

والخلاصـــة:

أن الأسرة دخلت في دين الإسلام وحسن إسلامها، فها هو عبد الله بن عمرو أسلم كما رأينا، وأسلم أبوه عمرو بن العاص، وأخوه: هشام بن العاص(١)، ومدحهما الرسول بقوله: " ابْنَا الْعَاصِ مُؤْمِنَانِ "(٢). وأسلمتْ أمه رائطة بنت منبه ابن الحجاج(٣). فحُقَّ لرسول الله ﷺ أن يقول في الحديث الذى يرويه عقبة بن عامر ﷺ عن هذه الأسرة: " نِعْمَ أَهْلُ الْبَيْتِ: أَبُو عَبْدِ اللهِ، وَأُمُّ عَبْدُ اللهِ، وعبدُ الله "(٤).

وأخيراً، فإن عمرو بن العاص زوّج ابنه عبد الله في حياة الرسول ﷺ، لكن ابن عمرو كان مشغولاً بصيام النهار وقيام الليل عن حق زوجه عليه، فشكا عمرو ذلك لرسول الله ﷺ، فوجّهه الرسول إلى إعطاء كل ذى حق حقه(٥). وتذكر بعض المصادر(٦) أن عبد الله بن عمرو تزوج بنت عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وأنها ولدتْ له ابنه محمداً، وبه يكنى(٧)، وهو والد شعيب، وجد عمرو بن شعيب المحدّث المشهور.

---

(١) توفى بالشام. (طبقات خليفة) ص٢٦.

(٢) أخرجه أحمد في (مسنده): ٢/ ٣٢٧، ٣٥٣-٣٥٤، والحاكم في (مستدركه)، كتاب (معرفة الصحابة) باب (ذكر مناقب هشام بن العاص بن وائل السهمى): ٣/ ٢٤٠. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. وسكت الذهبى ولم يُعقّب. وأورده مرة أخرى في الكتاب نفسه: (معرفة الصحابة) باب (ذكر مناقب عمرو وهشام): ٣/ ٤٥٢-٤٥٣.

(٣) تأخر إسلامها إلى يوم الفتح (٨هـ)، إذ أسلمت في عشر نسوة من قريش، كما أخبر الواقدى في (المغازى: ٢/ ٨٥٠). ويلاحظ أن الواقدى حددها بأنها (أم عبد الله)، لكنه سمّاها (هنداً)، والصواب: أنها رَيْطة، أو رائطة. وأخبر الواقدى أنها خرجت مع عمرو بن العاص زوجها في غزوة أحد (٣هـ). (المصدر السابق) ١/ ٢٠٣. وذكر المعلومة الأخيرة نفسها ابن هشام في (سيرته، ط.المكتبة التجارية) ٣/ ٦٢، والطبرى في (تاريخه) ٢/ ٥٠١، وإن سَمّياها باسمها الصحيح (رَيْطة).

(٤) أخرجه أحمد في (مسنده) ٤/ ١٥٠، والهيثمى في (مجمع الزوائد)، كتاب (المناقب) باب (ما جاء في عمرو، وابنه عبد الله، وأم عبد الله)، وقال: رواه أحمد، ورجاله ثقات.

(٥) صفة الصفوة لابن الجوزى ١/ ٦٥٦، والوافى بالوفيات للصفدى ١٧/ ٣٨١.

(٦) الثقات لابن حبان ٣/ ٢١١، ورياض النفوس للمالكى ص٤٣.

(٧) وأحياناً يكنى بأبى عبد الرحمن، وأبى نصير كما ورد - مثلاً - في (تهذيب التهذيب) لابن حجر ٥/ ٢٩٤. وقد استغرب الصفدى الكنية الأخيرة، وجزم بأن الأشهر: أبو محمد (الوافى بالوفيات) ١٧/ ٣٨٠. وعلى كل، فلعل لابن عمرو أولاداً كثيرين أشهرهم: محمد. وقد أورد لنا ابن أبى حاتم في (الجرح والتعديل) ٣/ ٢/ ١١١، معلومة أحسب أنه انفرد بها، إذ ترجم لمن يسمى: القاسم بن عبد الله ابن عمرو بن العاص، وذكر أنه يروى عن أبيه، وانه روى عنه يحيى بن القاسم. فإذا صحت معلومة ابن أبى حاتم، ينضاف إلى أبناء عبد الله بن عمرو ابنٌ جديد، لم نكن نعلم عنه- من قبل- شيئاً.

٣- جهاده ومشاركته في الأحداث السياسية في عصره:

أ- علمنا أن عبد الله بن عمرو شارك في غزوة الخندق، وما تلاها من غزوات في عهد الرسول ﷺ، بالإضافة إلى جهاده العلمى في تحصيل السنّة وتدوينها.

ب- شارك عبد الله بن عمرو - بعد ذلك - في فتوحات المسلمين، مثل: معركة أجنادَيْن بالشام في جُمَادَى الأولى سنة ١٣هـ، وكان على ميمنة أبيه عمرو خلالها(١). وكذلك شارك ابن عمرو في موقعة اليرموك (٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ)، وحمل أثناءها راية أبيه(٢). وهكذا، شارك ابن عمرو بنفسه في فتوحات الشام، ويُذكر أنه اختط له داراً بدمشق(٣).

جـ- وقد اشترك عبد الله بن عمرو في الجيش الذى قاده أبوه عمرو بن العاص، والذى فتح به مصر سنة ٢٠هـ، وكان فيه جِلّة صحابة رسول الله ﷺ كعبادة بن الصامت، والزبير بن العوام، وعقبة بن عامر، وغيرهم. وقد استقر ابن عمرو مع أبيه في مصر في الدار، التى اختطها عمرو بها(٤).

د- وفى سنة ٢٧هـ: غزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح إفريقية بعد أن ولى شئون مصر خلفاً لعمرو بن العاص، الذى عزله الخليفة عثمان بن عفان. وخرج مع ابن سعد العبادلة: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله ابن الزبير. وهكذا، نلاحظ قتال ابن عمرو تحت قيادة خَصْم والده، فلم يُقْعِدْه، أو يَثْنِه عزل والده، عن الجهاد في سبيل الله، فهم قوم لا يقاتلون من أجل الأشخاص، ولكن من أجل الله. هذا، وقد انتصر المسلمون يومها انتصاراً كبيراً، وغنموا غنائم عظيمة(٥).

هـ- وشارك ابن عمرو في غزوة جُرْجان وطَبَرِستان سنة ٣٠هـ مع كل من: سعيد بن العاص، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير(٦).

و- عُزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر في عهد عثمان، ووقعت بعد ذلك بسنوات فتنة مقتل عثمان ﷺ، وتتابعت الأحداث في عصر علىّ ﷺ حتى سنة ٣٧هـ، حين قامت معركة صفين(٧)، وفيها شارك عمرو وابنه عبد الله مع معاوية بن أبى سفيان

---

(١) تاريخ دمشق (ط.المنجد) لابن عساكر ١/ ٤٧٩، والبداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف) ٧/ ٥٤، وتاريخ الإسلام للذهبى ٣/ ٥٧.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٣/ ٣٥٠، والرياض المستطابة لليمنى صـ١٩٧.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (ط.المنجد): ٢/ ١٣٧.

(٤) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم صـ٩٣، ٩٦، ورياض النفوس للمالكى ص٤٤.

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (ط٢-١٩٧٧): صـ١٥٩، وفتوح البلدان، للبلاذرى (ط.المنجد): ١/ ٢٦٧، وتاريخ الإسلام، للذهبى ٣/ ١٨٥.

(٦) تاريخ الطبرى ٤/ ٢٧٠.

(٧) معلوم أن عثمان بن عفان ﷺ أقر عمرو بن العاص على مصر بعض الوقت (حتى ٢٥هـ)، ثم عزله عنها، فاعتزل بفلسطين. ولمّا قُتل عثمان ساند معاوية، ووعده أحسن الرتب في الدولة بعد النصر، =

ضد عليّ، إذ كان عمرو يقاتل بشدة في موقع القلب من جيش معاوية، وكان عبد الله ابنه على ميمنته(١).

والحق أن عبد الله بن عمرو لم يكن راضياً عن الاشتراك في هذه الفتنة الخطيرة، وقد نصح أباه - خلافاً لأخيه محمد - أن يجلس في بيته، حتى يجتمع الناس على إمام فيبايعه، لكن عمراً - على حد تعبير رواية الطبرى - اختار دنياه، وأقبل على معاوية بعد إدبار، واتفقا على الدنيا رغم علمهما بمكانة وفضل عليّ(٢). وعلى كل ،فالروايات التاريخية تكاد تجمع على تبرئة ابن عمرو، وتوضيح حقيقة موقفه من صفين، فتذكر عنه وهو يدافع عن نفسه، أنه اشترك في صفين؛ طاعة لوالده الذى أمره الرسول بطاعته، ويذكر أن موقفه في الحرب كان سلبيًا صوريًا، فلم يطعن برمح، ولم يضرب بسيف، ولم يرمِ فيها بسهم. وكثيراً ما لام أباه على موقفه من الفتنة، وكان يتهم حزب معاوية، ويَعُدُّه الفئة الباغية(٣).

ز- وأخيراً، مواقفه تجاه أحداث وقعت آخر حياته:

* موقفه من بيعة يزيد بن معاوية: اعترض ابن عمرو على المبايعة ليزيد ابن معاوية بالخلافة، ثم اضطر تحت تهديد عابس بن سعيد له، وبسبب الوَهْن الجسدى، وكبر السن، أن يؤثر السلامة، ويبايع عن كره ومضض منه(٤).

* موقفه من ثورة الحسين بن عليّ (توفى في العاشر من المحرم ٦١هـ): ورد في بعض المصادر(٥) حوار بين ابن عمرو والفرزدق، يُفهم منه تأييده للحسين، وتمام اقتناعه بأنه على الحق المبين. فإن قيل: لِمَ لَمْ ينضم إليه ابن عمرو ؟! فلعل الجواب يكون لكبر سِنّه، وتقدم عمره، وضعفه.

* موقفه من حصار جيش حُصين بن نُمَيْر للكعبة (٦٣هـ)، وإحراقه لها في حركة

= ودوّن ذلك في عهد سَجّله وَزدان مولى عمرو سنة ٣٨هـ. (طبقات ابن سعد، ط.ليدن ٤/ ٢/ ٢-٣، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ٢ من القسم الأول صـ٣٠-٣١).

(١) تاريخ خليفة بن خياط (ط٢-١٩٧٧): صـ١٩٥، والمحبّر لابن حبيب ١٩٣، وأسد الغابة، لابن الأثير ٣/ ٣٥٠.

(٢) تاريخ الطبرى ٤/ ٥٦٠-٥٦١.

(٣) تاريخ الطبرى: ٥/ ٤١، وأسد الغابة لابن الأثير: ٣/ ٣٥٠، والعبر للذهبى ١/ ٥٣، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٩٢ (وإن ضعّف الذهبى إسناد الرواية، التى تؤكد تذكير عمرو لابنه أن يطيعه، كما أمره الرسول بذلك)، وتاريخ الإسلام للذهبى ١/ ٣٥١، ٣/ ٣٣١، والوافى بالوفيات للصفدى ١٧/ ٣٨١. وكان الأولى بابن عمرو اعتزال القتال تماماً، كما فعل غيره من الصحابة، مثل: عبد الله بن سعد.

(٤) تُراجع تفاصيل الموقف المختلفة فى: الولاة والقضاة للكندى: صـ٣٩، ٣١٠-٣١١ والمغرب في حلى المغرب (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر) صـ٥٥.

(٥) تاريخ الطبرى ٥/ ٣٨٦-٣٨٧، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٨/ ١٦٧.

ابن الزبير: توعّد ابن عمرو الجناة ،الذين انصرفوا بعد نبأ وفاة يزيد بن معاوية، وهددهم بأن نقمة الله حَالَّة بهم(١).

وهكذا، كان له رأيه في تلك الأحداث الخطيرة، لكن عدم وجود سلطة في يده من جهة، وكبر سنّه من جهة أخرى حالا دون التغيير العملى الإيجابى.

٤- مناصبه:

أ- من المعلوم أن عمرو بن العاص أقام مع ابنيه: عبد الله، ومحمد في قصر له، يقال له: العجلان، بفلسطين، معتزلاً الناس، مهيِّجاً إياهم بين الحين والحين ضد عثمان بن عفان(٢) الذى عزله عن ولاية مصر سنة ٢٥هـ. ولم تكن عزلة عمرو بن العاص بفلسطين كاملة، ولا مقامه هناك دائماً، إذ كان يأتى المدينة أحياناً. فلما أحيط بعثمان وحاصره الثائرون، خرج من بيته إلى الشام؛ لينضم إلى معاوية(٣) لحَدْسه أن الأمر سيكون له. وهناك وقف مع معاوية في صفين، ونجح بعد ذلك في دخول مصر، وتولى شئونها من قِبَل معاوية سنة ٣٨هـ حتى وفاته سنة ٤٣هـ. وقد كان ابن عمرو ينتقل بين مكة، والشام، ومصر، والمدينة، والطائف. واستقر - أخيراً - مع والده في مصر، وكان ينوب عنه في ولايتها سواء في خلافة عمر بن الخطاب، لما ذهب عمرو بن العاص إليه في المدينة قَدْمَتَه الثانية(٤)، أم كان ذلك سنة ٣٨هـ، لمّا خرج عمرو بن العاص للتحكيم في صراع معاوية وعليّ(٥).

ب- وتذكر الروايات التاريخية(٦) أن معاوية بن أبى سفيان أمر بتعيين عبد الله بن عمرو بن العاص والياً على الكوفة سنة ٤١هـ بناء على طلب أبيه عمرو بن العاص، لكن

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٩٤.

(٢) تاريخ الطبرى: ٤/٣٥٧.

(٣) السابق: ٤/٥٥٨.

(٤) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم صـ١٧٩، والولاة والقضاة للكندى صـ١٠.

(٥) المصدر السابق: صـ٣١. ويقال: بل استخلف خارجة بن حذافة، وبعدها عاد عمرو إلى مصر، حيث نجا من محاولة قتله.

(٦) تاريخ الطبرى ٥/١٦٦ (أحداث سنة ٤١هـ)، والمغرب في حلى المغرب (جـ١ من القسم الخاص بمصر): صـ٦٣، وأزمنة التاريخ الإسلامى للترمانينى ١/ ٧٣١. وذكر الذهبى في (سير أعلام النبلاء) ٣/ ٩١-٩٢: أن خليفة بن خياط أورد اسم عبد الله بن عمرو على الكوفة ضمن عمال معاوية، ثم عزله وولّى المغيرة بن شعبة. بالرجوع إلى (تاريخ خليفة) لم يرد ذكر لوالى معاوية على الكوفة حتى سنة ٤٨هـ. وكان خليفة بن خياط خلال هذه السنوات يكتفى بذكر الثورة، والقائد العسكرى المتغلب على الثائر. وفى سنة ٤٩هـ ذكر أحداثاً وقعت بالكوفة، وقال: إنها وقعت في ولاية المغيرة بن شعبة. ولم يرد أىّ ذكر لابن عمرو. فعله كان في نسخة الذهبى المخطوطة من (تاريخ خليفة)، ثم سقط من النساخ. كما لم أجد هذه المعلومة في (طبقات خليفة)، الذى اكتفى بذكر مَنْ دخلها من الصحابة، ولم يزد على ذلك.

ذلك لم يتم؛ لأن المغيرة بن شعبة حذّر معاوية من مغبة أن يكون عمرو في مصر وابنه في الكوفة، فعزل معاوية ابنَ عمرو، وعيّن المغيرة. وهكذا، عزل معاوية ابنَ عمرو عن الكوفة قبل أن يصل إليها، وقبل أن يدخلها. ويكون بذلك قد استجاب لتحذير المغيرة من جهة، وأحسن لمّا تراجع عن تولية ابن عمرو مدينة الكوفة، فهى تحتاج إلى والٍ ذكى فطن سياسى محنّك قوى الشكيمة؛ حتى يسيطر على أهلها، وهو ما لا يتناسب مع شخصية ابن عمرو الهادئة. فإذا قيل: إن ابن حجر ذكر أن عبد الله بن عمرو قدم الكوفة مع معاوية[١]، فيكون الرد بأن ذلك ربما كان عام الجماعة ٤١هـ، وكان بهدف إظهار خضوع الدولة كلها لمعاوية، لكن لا يلزم من ذلك أن يكون ابن عمرو دخلها والياً في صحبة معاوية. فكم من صحابى دخل الكوفة، من أمثال: معاوية، وعمرو بن العاص وغيرهما[٢]، فهل يلزم من ذلك أن يكون هؤلاء قد وُلُّوا حكمها ؟! فلعلهم دخلوها لرواية الأحاديث، والأخبار مثلاً.

جـ- ورد أن عمرو بن العاص استخلف ابنه عبد الله على صلاة مصر وخراجها؛ كى يلى شئونها بعد وفاته[٣]، وكان قد كتب بهذا الشأن إلى معاوية، ويبدو أن معاوية داراه[٤]. فلمّا أنْ مات عمرو، أقر معاويةُ عبدَ الله على ولاية مصر، ثم عزله[٥]. لكن معاوية السياسى المحنك لم يكن ليعزل ابن عمرو بعد وفاة والده مباشرة؛ لمكانته وقدره في نفوس المصريين، وإنما يقال - فيما زعم الواقدى -: تركه عامين بعد وفاة عمرو[٦]، ثم عزله، وولى مكانه معاوية بن حُديج سنة ٤٧هـ[٧]. وبالنظرة الأولى نلحظ أن النص السابق فيه خطأ واضح، واضطراب كبير وقع فيه كل من: الطبرى، وابن كثير بعده لمّا قالا: إن عبد الله بن عمرو بن العاص ولى مصر عامين. فهو - إن كان وليها - فالمفروض أن يكون قد وليها ٤ سنوات؛ لأن الفترة من وفاة أبيه (٤٣هـ) إلى تولية معاوية بن حُديج ٤٧هـ تساوى ٤سنوات. وسواء ولى مصر عامين أم أربعة، فإنى أشك في صحة هذه الرواية من أساسها؛ للأسباب الآتية:

١- أن الطبرى نقل عن الواقدى هذه الرواية بصيغة: يقال. وعبّر عنها الواقدى بالزّعْم؛ مما يوحى بعدم الوثوق بصحتها.

٢- عدم معقولية وقوع الطبرى، ومن بعده ابن كثير في هذا الخطأ التاريخى

(١) تهذيب التهذيب ٥/ ٢٩٥.
(٢) طبقات خليفة بن خياط: ص١٣٩.
(٣) الولاة والقضاة، للكندى: ص٣٤.
(٤) تاريخ الطبرى ٥/ ٣٣٥.
(٥) الطبقات لابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ١٩٠.
(٦) تاريخ الطبرى ٥/ ١٨١ (أحداث ٤٣هـ)، ورياض النفوس للمالكى ص٤٤، والبداية والنهاية لابن كثير (طبعة الريان): ٨/ ٢٦-٢٨.
(٧) تاريخ الطبرى ٥/ ٣٢٩، والبداية والنهاية لابن كثير (طبعة الريان): ٣/ ٣٨.

الفاحش، وذاك الاضطراب الزمنى الكبير.

٣- بالعودة إلى حجة الولاة والقضاة في مصر العلاّمة الكندى[١]، لم أجد أى ذكر لولاية عبد الله بن عمرو بعد وفاة أبيه، ولم يذكر ولاية معاوية بن حُديج أيضاً. والذى ذكره أن ابن عمرو خلف أباه قرابة الشهر من ليلة الفطر ٤٣هـ حين توفى عمرو، حتى وصل الوالى الجديد عتبة بن أبى سفيان الذى ولى سنة وشهراً، إذ توفى في ذى الحجة سنة ٤٤هـ. وبعده ولى عقبة بن عامر حتى العشرين من ربيع الأول ٤٧هـ (عامان، وثلاثة أشهر). وبعده ولى مسلمة بن مخلد من ٤٧هـ إلى ٦٢هـ.

والخلاصة:

أن عبد الله لم يكن يوماً والياً حقيقياً على مصر من قبل الخلافة، وذلك عكس ما ذكره الطبرى، وابن كثير، وخلافاً لما أورده شاكر مصطفى[٢] عنهما دون تحقيق، وما قاله أحمد أمين[٣] عن ابن سعد دون تدقيق.

٥- صفاتـه:

١- الخِلْقيّة: ذكر ابن حجر في (الإصابة)[٤]: أنه كان بائن الطول، أحمر الوجه، عظيم الساقين، أبيض الرأس واللحية.

٢- الخُلُقيّة: تمتع الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بعدد من الصفات الخُلُقية رفيعة القدر، منها:

أ- الجود والكرم: كان ابن عمرو إذا رحل تميز بكثرة رواحله وأزواده، وأفاض في إطعام الإخوان والضيفان خاصة خلال موسم الحج[٥]. وبذلك يكون قد أحسن التصرف في الثروة الطائلة التى ورثها من أبيه من عبيد وخدم[٦]. وقد عَدّه الذهبى من ملوك الصحابة، وذكر أنه ورث عن والده قناطير مقنطرة من الذهب المصرى[٧]، استدعت أن يستخدم على أمواله خازناً (سالماً مولاه)[٨]. هذا، بالإضافة إلى امتلاكه الوَهْط وهو بستان عظيم بالطائف قوامه مليون درهم، كان يعتز به وبصحيفته الصادقة كأعظم ما يكون الاعتزاز[٩]. وبلغ من شدة تمسكه بالوهط أنه رفض مساومة الخليفة

---

(١) صـ٣٤-٤٠.

(٢) التاريخ العربى والمؤرخون: ٢/ ١٤٨.

(٣) فجر الإسلام: صـ١٩٠.

(٤) ٤/ ١٩٣. وقد وصفه أحد الرواة بأنه أحمر الوجه كأنه من العجم (تفسير الطبرى، ط.أحمد شاكر): ١/ ٣٦٢-٣٦٣.

(٥) حلية الأولياء لأبى نُعيم: ١/ ٢٩٠-٢٩١، وصفة الصفوة لابن الجوزى ١/ ٦٥٩.

(٦) تذكرة الحفاظ (ط.إحياء التراث) للذهبى: ١/ ٤٢.

(٧) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٩٠.

(٨) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم: مج ٢ قسم ١ صـ١٩٠.

(٩) تذكرة الحفاظ للذهبى: ١/ ٤٢، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٨٩.

معاوية ابن أبي سفيان له على بيعه مقابل مبلغ طائل[١].هذا،وقد ورّث ابن عمرو ذلك البستان لأحفاده من بعده،وعليه يقوم معاشهم حتى زمن الذهبي (ت ٧٤٨هـ)[٢].

ب- شدة الورع والخوف من الله: وتوجد في حياته المباركة مظاهر عديدة تدلل على تمكن هذه الخصلة من نفسه، منها:

١- مداومته على قيام الليل: إذ كان يقف بين يدى الله ﷻ يبكى بكاء شديداً في صلاته، حتى إن يَعْلَى بن عطاء[٣] مولاه يحكى عن أمه أنها كانت تضع الكحل لابن عمرو؛ إذ كان يقوم الليل، فيطفئ السراج، ثم يبكى من خشية الله، حتى فسدت عيناه[٤].

٢- خوفه من شبهة إخلاف الوعد: لمّا حضرته الوفاة، أوصى بتزويج ابنته من أحد رجال قريش خطبها إليه، وكان منه شبيه بالوعد، وهو يخشى أن يلقى الله بثلث نفاق[٥].

٣- خوفه من أحداث الفتنة التى عاصرها: يقول عبد الله بن عمرو إنه يخاف من ثلاث: دم عثمان، وهَمّه بالإنفاق ثم يدع المال مكانه حتى يصبح، ويوم صفين[٦]. وعلى الرغم من أن ابن عمرو برئ من دم عثمان ورغم أنه جواد كريم مع الناس، ورغم أنه شارك في صفين مكرهاً، وكانت مشاركته سلبية، إلا أنه ظل يخشى مؤاخذة الله له، وما هدأت نفسه بعض الشئ إلا بعد أن استسمح الحسين بن علىّ، واسترضاه، وبيّن له عذره يوم صفين، وأكّد له أنه ما شارك في قتال[٧].

جـ- بره بوالده: ولعل من أعظم دلائل ذلك أنه لازم والده في أقسى اللحظات المصيرية التى يواجهها الإنسان، إذ بقى إلى جواره في لحظات الاحتضار،وخفّف عنه آلامه، وطمأنه إلى حسن العاقبة والخاتمة. ولمّا مات قام على غسله، وانتظر بالمصلى صبيحة يوم الفطر، حتى اجتمع أهل الفسطاط كلهم: رجالاً ونساء، فصلّى بهم عليه صلاة الجنازة[٨]، عسى الله أن يقبل شفاعة هذا الجمع الغفير في والده.

---

(١) تاريخ الطبرى ٥/ ٣٨٧.
(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبى: ٥/ ١٨٣.
(٣) طائفىّ نزل واسط. روى حديث رسول الله ﷺ. وثّقه ابن معين، وكان من موالى عبد الله بن عمرو بن العاص. توفى ١٢٠هـ (المصدر السابق ٥/ ٤٥٢) .
(٤) صفة الصفوة لابن الجوزى: ١/ ٦٥٨.
(٥) المصدر السابق: ١/ ٦٥٩، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر): ١/ ٦٢.
(٦) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٤/ ٢/ ١٢.
(٧) أسد الغابة، لابن الأثير: ٣/ ٣٥١.
(٨) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٣٣-٣٤.

٣- صفاته العقلية:

لمسنا - فيما مضى - إتقان ابن عمرو وتفوقه، بل تَزَعُّمَه لمدرسة مصر في القراءات والتفسير والحديث والفقه. وسنرى - بعد قليل - علمه بالسير والمغازى والأخبار. وأضيف - هنا - علوماً وثقافات جديدة غذت عقل وفكر ابن عمرو، وكان لها تأثيرها فيه محدثاً ومؤرخاً، ومن هذه العلوم:

أ- تعلُّمه اللغة السريانية وقراءته بها(١) : فهى لغة العلم والثقافة آنذاك؛ مما ساعده على الاطلاع على كتب أهل الكتاب التى أدمن النظر فيها(٢)، وحصّل منها أخباراً عجيبة كثيرة.

ب- طالع عبد الله بن عمرو التوراة وقرأ فيها، وكان على علم بمحتوياتها وأخبارها وقصصها. لذا شهد له كعب الأحبار بأنه عالم بكتب السابقين خاصة بعد أن سأله عن أمور ثلاثة، ورد ذكرها في التوراة، فأخبر بها ابن عمرو كما وردت(٣).

جـ- قرأ كتب دانيال في مصر، وكانت قريش تعده عالمها، حتى إن عمرو ابن سعيد لمّا رأى الناس تبايع ابن الزبير، أرسل يسأله عن مصير ذلك الصراع الأموى الزبيرى، لعله قرأ شيئاً من ذلك في كتب الأولين، فأخبره ابن عمرو أن عبد الله بن الزبير لا يتم له الأمر(٤).

د- تمتع عبد الله بن عمرو بالكياسة والفطنة والحكمة، وتدل على تأصل ذلك فيه أقوال نطق بها فمه الشريف، تعبر عن طبيعة عصره المملوء بالأحداث والفتن، منها قوله: شرار خلق الله الذين يُتقون بغير سلطان(٥). وكذلك قوله: " لَخيرٌ أعمله اليوم أحب إلىّ من مثليْه مع رسول الله ﷺ؛ لأنا كنا مع رسول الله ﷺ تهمنا الآخرة ولا تهمنا الدنيا، وإنَّا - اليوم - مالت بنا الدنيا "(٦).

ومن أقواله الجامعة الصادقة: " إن خطيئة الخمر تعلو الخطايا، كما تعلو شجرتها الشجر "(٧). وكذلك قوله: " ما من هدية يُهديها المرء إلى أخيه خير له من كلمة حكمة، ينفعه الله ﷻ بها في دينه "(٨).

---

(١) طبقات ابن سعد (ط.دار التحرير): ٧/ ٢/ ١٨٩، والبدء والتاريخ، للمقدسى ٥/ ١٠٧.

(٢) تذكرة الحفاظ (دار إحياء التراث) للذهبى: ١/ ٤٢، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٨١، والوافى بالوفيات للصفدى ١٧/ ٣٨٠.

(٣) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٤/ ٢/ ١٣، وتاريخ الطبرى ١/ ٤٠١-٤٠٢، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر) ص٥٨.

(٤) تاريخ الطبرى (أحداث سنة ٦١هـ): ٥/ ٤٧٦-٤٧٧.

(٥) الجامع في الحديث لابن وهب: ١/ ٥٩.

(٦) أسد الغابة، لابن الأثير: ٣/ ٣٥٠.

(٧) رياض النفوس (ط.دار الغرب الإسلامى) ١/ ١٨٨.

(٨) المصدر السابق: ١/ ٣١٠.

٦- وفاتــه:

١- اختلفت أقوال المؤرخين حول مكان وزمان وفاة عبد الله بن عمرو؛ فمنهم من جمع لنا الأقوال المختلفة التى وردت في مكان وفاته دون ترجيح[١]، فقال البعض: توفى بمكة. وجعلها البعض بالطائف. وقيل: مات بالشام (بقرية عجلان بفلسطين). وقيل: توفى بمصر، ودفن بدار صغيرة له بها. ومنهم من اختار بعض ما قيل من آراء حول مكان وفاته[٢]، ومنهم من حدّد مكاناً واحداً بعينه[٣].

٢- واختلفت الآراء كذلك حول زمان وفاته: فمن قائل يقول: توفى ٦٣هـ في ليالى الحَرَّة[٤]، ومن قائل: توفى ٧٧هـ[٥]، وآخر يقول: توفى ٦٩هـ عن ٧٢سنة[٦]. وقيل: توفى سنة ٦٨هـ[٧]. وجعل البعض وفاته سنة ٦٥هـ[٨].

٣- والحق أن لهذا التباين وذاك التخبط في بيان مكان وزمان وفاته أسباباً عديدة، منها:

أ-كثرة تنقلات عبد الله بن عمرو؛ فهو يذهب إلى مكة للحج والاعتمار، ويتوجه إلى الطائف للنظر في شئون بستانه هناك، ويرحل إلى الشام للغزو والرباط ورواية

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى ١/ ٦٦٠، وتهذيب الكمال للمزى ١٥/ ٣٦٢، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٣/ ٩٤، والوافى بالوفيات للصفدى ١٧/ ٣٨٢، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٥/ ٢٩٥، والإصابة لابن حجر ٤/ ١٩٤، والتحفة اللطيفة للسخاوى: ٢/ ٣٦٤.

(٢) ذكر ابن سعد في (الطبقات طبعة ليدن) :٤/ ٢/ ١٣ أنه توفى بالشام. وذكر وفاته بمصر ٧/ ٢/ ١٩٠. وجعل خليفة بن خياط وفاته في الطائف، أو مكة (الطبقات) صـ٢٥. وجعلها ابن حبان في (الثقات): ٣/ ٢١١ (فى مصر، أو الشام). وجعلها المالكى في (رياض النفوس) صـ٤٤ (فى مكة، أو مصر). وجعلها السمعانى فى (الأنساب): ٧/ ٣١٧: في مصر، أو الشام. وقال ابن الأثير في (أسد الغابة):٣/ ٣٥١: توفى بمصر، أو مكة، أو الطائف. واختار الذهبى في (الكاشف طبعة دار الكتب العلمية)، ٢/ ١٠١ : أنه توفى بالطائف، أو مصر.

(٣) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٤٦ (جعل وفاته في مصر). وجعلها ابن عبد البر في فلسطين (الاستيعاب): ٣/ ٩٥٩. وذكر الذهبى أنه توفى بمصر (تذكرة الحفاظ ١/ ٤٢، والعبر ١/ ٥٣)، وكذا قال ابن كثير في (البداية والنهاية، ط.مكتبة المعارف): ٨/ ٢٥٦، وكذا قال ابن تغرى بردى في (النجوم الزاهرة): ١/ ١٦٦. ورجح ابن حجر في (تقريب التهذيب): ١/ ٤٣٦، أنه توفى بالطائف. بينما اختار العماد الأصفهانى أنه توفى بمصر (شذرات الذهب) ١/ ٧٣.

(٤) الثقات لابن حبان ٣/ ٢١١، والاستيعاب لابن عبد البر ٣/ ٩٥٩، وتقريب التهذيب لابن حجر ١/ ٤٣٦.

(٥) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ١٩٠.

(٦) التاريخ الكبير، للبخارى: ٣/ ١/ ٥.

(٧) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال، للخزرجى: ٢/ ٨٣ (فى قول لليث).

(٨) رأى آخر لابن سعد في الطبقات (ط.ليدن): ٤/ ٢/ ١٣، ٧/ ٢/ ١٩٠، ومرآة الجنان لليافعى ١/ ١٤١، وتاريخ التراث العربى ١/ ١١٩، وأزمنة التاريخ الإسلامى ١/ ٧٣١، إلى جانب المراجع التى تحدد مصر مكاناً للوفاة.

الحديث، ويأتى بعد ذلك إلى مصر ليقيم فيها إقامة شبه دائمة ومستقرة، يتخللها رحلات ذكرنا طرفاً منها[١].

ب- الغموض الذى اكتنف حادث وفاته ﷺ، فالاضطرابات كانت تسود مكة في أحداث الحرة وحصار الكعبة سنة ٦٣هـ، كما كانت في مصر أحداث شَغْب واضطرابات في حرب مروان بن الحكم مع جيوش عبد الرحمن بن جحدم والى عبد الله بن الزبير في مصر سنة ٦٥هـ. فاختلط الأمر على الرواة حول مكان وزمان وفاة ابن عمرو ﷺ.

جـ- رغبة كل إقليم من أقاليم الدولة في حيازة هذا الشرف العظيم، إذ تريد كل منها أن يضم ثراها جثمان هذا الصحابى الجليل، حتى إن ابن سعد نفسه عَدّه مرةً في المكيين، وأخرى في المصريين[٢]، بينما عَدّه السخاوى[٣] في المكيين.

والراجح عندى أنه توفى بمصر سنة ٦٥هـ أثناء حروب مروان بن الحكم بها، حتى إنهم لم يقدروا على الخروج بجنازته، فاضطروا إلى دفنه بداره التى يقيم بها[٤]. وهذا هو ما رجّحه وصحّحه كل من: (الذهبى) في (العبر)، والكندى في (الولاة والقضاة)، وابن تغرى بردى في (النجوم الزاهرة)، كما سبق وذكرنا. وهؤلاء المؤرخون أولى بقبول رواياتهم من غيرهم، وأكثر تدقيقاً وتمحيصاً عمن سواهم، كما أن الكندى أَخْبَرُ ببلده، وأعلم من غيره. ثم إن ابن عمرو عَمِىَ أواخر حياته[٥]، فكان قليل التنقل في الأمصار المختلفة، فاستقر في مصر وظل بها، حتى لقى ربه راضياً مرضياً.

٧- آثاره التاريخية:

الحق أن عبد الله بن عمرو بن العاص لم يُخلّف لنا كتاباً مُصنفاً في التاريخ، باعتبار أن ذلك لم يكن متيسراً في تلك المرحلة المبكرة، وإنما ترك لنا صحيفة الصادقة[٦] التى وردت في ثنايا المصادر الحديثية، وبها موضوعات شتى مرفوعة إلى الرسول ﷺ، إلى جانب آثار منسوبة إليه، تفيد نوعاً من الاهتمام بتاريخ ما قبل الإسلام، وأحداث السيرة، والراشدين وغيرها، وكثير منها برواية عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده. وقد قمتُ بتجميع ما تيسر من بقايا منجزات ابن عمرو التاريخية في مُحاولة لتعرف اتجاهاته العامة ومواضع اهتمامه، وملامح منهجه في ضوء ما جُمع إن أمكن ذلك. ويمكن تقسيم اتجاهاته التاريخية واهتماماته إلى ما يلى:

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٢/ ١٩٠، والسير للفزارى صـ٣٢٥.

(٢) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٤/ ٢/ ١٣، ٧/ ٢/ ١٩٠.

(٣) التحفة اللطيفة: ٢/ ٣٦٤.

(٤) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٤٦.

(٥) رياض النفوس للمالكى: صـ٤٣، والإصابة لابن حجر ٤/ ١٩٣.

(٦) أعتقد أن من أوفى من جمع حديث عبد الله بن عمرو الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/ ١٧٨- ٢٢٧.

(١) أحداث ما قبل الإسلام:

أورد ابن كثير لابن عمرو رواية عن قصة سيدنا نوح عليه السلام وتوصيته أولاده عند وفاته[١]. كما اهتم ابن عمرو بما يتصل ببناء الكعبة، وذكر في إحدى الروايات أن أول مَنْ بناها هو آدم عليه السلام[٢].

(٢) أحداث السيرة:

أ- سأل عروةُ بن الزبير عبدَ الله بن عمرو عن أكثر ما رأى قريشاً، أصابت من رسول الله ﷺ، فيما كانت تُظهر من عداوته، فأخبره ابن عمرو: أنه لمّا نال الرسول ﷺ من آلهتهم وسَبَّها، رآه المشركون يوماً فلمزوه وغمزوه، فتهددهم فأصابهم الرعب، وقالوا له مُهَدّئين إياه: انصرف، يا أبا القاسم، راشداً. والله، ما كنتَ جهولاً. وجاءوا إليه في اليوم التالى فخنقه أحدهم، فدافع عنه أبو بكر رضي الله عنه، وتلا قوله (تعالى): ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾[٣]. فانصرفوا عنه. فكان ذلك أشد ما رأيتُ قريشاً بلغتْ منه قط[٤].

ب- وذكر ابن كثير بسند فيه الزهرى، عن ابن عمرو: أن الرسول ﷺ وصحابته أصابتهم حُمَّى، عندما قدموا المدينة حتى أجهدتهم، فصلوا قعوداً، فأخبرهم النبى ﷺ أن لهم نصف ثواب القائم في صلاته، فتجشَّموا القيام؛ التماساً للفضل[٥].

جـ- ذكر الذهبى[٦] بإسناده عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: أن رسول الله ﷺ رَدّ ابنته زينب إلى زوجها أبى العاص بن الربيع (بعد إسلامه) بمهر جديد ونكاح جديد. وقد ضعّف الإمام أحمد هذا السند؛ لوجود راوٍ ضعيف به، وذكر أن الصحيح

(١) البداية والنهاية (ط.مكتبة دار المعارف): ١/ ١١٩.

(٢) وقد ضَعّف ابن كثير تلك الرواية، وحكم عليها بالغرابة والنكارة، وكأنها من كتب أهل الكتاب، وقال: إن الصحيح الذى ورد في ظاهر القرآن، أن سيدنا إبراهيم هو أول من بنى الكعبة، وأسّسها ابتداء، فكانت بقعتها بقعة مباركة في سائر الأعصار. والدليل قوله (تعالى): "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ". (سورة آل عمران الآية ٩٦). وقال - أيضاً -: " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " (سورة البقرة: الآية ١٢٧). (البداية والنهاية ،ط.مكتبة المعارف): ١/ ٢٤٣، ٢/ ٢٩٨-٢٩٩.

(٣) سورة غافر: من الآية ٢٨.

(٤) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٠٩-٣١٠، وتاريخ الطبرى ٢/ ٣٣٢-٣٣٣، والبداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف) ٣/ ٤٦.

(٥) المصدر السابق (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٢٢٣-٢٢٤.

(٦) تاريخ الإسلام، للذهبى (المجلد الأول منه بعنوان: المغازى، بتحقيق: محمد محمود حمدان، ١٩٨٥) صـ٣٠٠.

هو أن الرسول ﷺ أقرّهما على النكاح الأول.

د- نقل ابن كثير أن الرسول ﷺ ضرب صخرة ضخمة، استصعب أمرها على الصحابة، أثناء حفر الخندق بغزوة الأحزاب، وأنه أحيا الأمل في نفوسهم في ذلك الوقت العصيب، وبَشّرهم بأن الله يفتح بلاد كسرى وقيصر عليهم(١).

هـ- وبإسناد فيه عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أورد الذهبى جزءاً من خطبة رسول الله ﷺ، التى ألقاها في حجة الوداع سنة ١٠هـ، وفيها ذكّرهم بوحدتهم وضرورة تحالفهم وتناصرهم(٢). وفى موضع آخر حدّد عمرو بن شعيب ميقات فتح مكة بأنه في عشر بقين من رمضان سنة ٨هـ(٣).

و- وبالإسناد السابق، وبإسناد آخر فيه الزهرى، حكى عبد الله بن عمرو أن هوازن لمّا علمت بفتح الرسول مكة، جمع رئيسها مالك بن عوف الناس لقتال المسلمين، فخرج إليه الرسول ﷺ بألفين من أهل مكة، وبعشرة آلاف من الصحابة، واستخلف على مكة عَتّاب بن أَسِيد، وحقق المسلمون الانتصار، وهزم الله المشركين(٤).

ز- وردت روايات مسهبة مُطَوّلة بإسناد عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: تصف مقدم وفد هوازن بعد هزيمتهم في حُنَيْن، يستشفعون النبى ﷺ بشأن سباياهم وإبلهم وأموالهم، التى غنمها المسلمون .وقد تعاطف الرسول ﷺ معهم، ورَدّ عليهم غنائمهم، وحث الناس على ذلك، فاستجابوا لرسول الله ﷺ(٥).

ح- وأخيراً، ما يرويه عبد الله بن عمرو، عن أبى مُويهبة مولى رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ خرج يستغفر لأهل البَقيع، ثم حذر من الفتن المهلكات التى سيتعرض لها المسلمون، ثم أخبر أن الله خيّره بين لقاء الله والخُلْد في الدنيا، فاختار ما عند الله ﷻ، فكان قُرْبَ أجله ﷺ(٦).

٣- في تاريخ الراشدين:

أ- وصف عبد الله بن عمرو معركة أجنادين التى شهدها بنفسه، وذكر أنه اشترك فيها تحت قيادة والده عمرو بن العاص في عشرين ألفاً، وأنهم تمكنوا من هزيمة الروم، وأن جماعة من الروم فَرُّوا إلى (فِحْل) في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وأنه نفاهم عنها(٧).

---

(١) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف) لابن كثير: ٤/ ١٠٠.

(٢) تاريخ الإسلام (مجلد المغازى، تحقيق: محمد محمود حمدان)، للذهبى: صـ٤٦٥.

(٣) المصدر السابق: صـ٤٤٩.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (ط.١٩٧٧): صـ٨٨، وتاريخ الإسلام، للذهبى (ط.حمدان): صـ٤٧٥.

(٥) سيرة ابن هشام ٤/ ١٣١-١٣٢، وتاريخ الطبرى ٣/ ٨٦، وتاريخ الإسلام، للذهبى (قسم المغازى بتحقيق: حمدان) صـ٥٠٣-٥٠٥.

(٦) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٩١-٢٩٢، وتاريخ الطبرى ٣/ ١٨٨.

(٧) تاريخ دمشق، لابن عساكر (ط.المنجد): ١/ ٤٧٩، ٤٨٢-٤٨٣، ٤٨٥، وتاريخ الإسلام للذهبى =

ب- روايات كثيرة فيها حديث مُطَوّل لابن عمرو عن موقعة صفين، وموقفه الحقيقى فيها، واتهامه فئة معاوية بأنها هى الفئة الباغية[١].

جـ- اشترك عبد الله بن عمرو بن العاص في فتوح مصر ومعاركها. وقد سجّل له ابن عبد الحكم وصفه لمرحلة من مراحل هذا الفتح، وهى - بالتحديد - مرحلة فتح حصن الكِرْيَوْن، وهو من الحصون التى تقع في الطريق إلى عاصمة الروم (الإسكندرية). ويذكر ابن عمرو أنه كان في مقدمة الجيش، وكان حاملَ اللواء معه وَرْدَانُ مولى عمرو بن العاص. ويحكى ابن عمرو أنه أصيب يومها، لكنه تحامل على نفسه حتى أكمل المعركة[٢].

والآن، بعد عرض جانب من الموضوعات، التى اهتم بها عبد الله بن عمرو بن العاص، أحاول استخلاص عدد من الملامح العامة لمنهجه.

٨- الملامح العامة للمنهج التاريخى لعبد الله بن عمرو بن العاص:

أ- غلبة اهتمام عبد الله بن عمرو بن العاص بجانب السيرة النبوية واضح وأصيل، ومتابعته لتدوين عدد من أحداثها يؤكد ذلك الاهتمام، فالسيرة فرع من اهتمامه العام بتدوين الحديث النبوى الشريف، خاصة أن ابن عمرو يعد مصدراً أصيلاً ومباشراً في تدوين بعض أحداث السيرة؛ لأنه رأى الأحداث وعاصرها، سواء فيما يتصل بإيذاء المشركين للرسول ﷺ في مكة - خاصة بعد وفاة عمه وزوجه - ويومها كان ابن عمرو صبياً مميزاً، أم كان ذلك فيما يتعلق بأحداث غزوة الأحزاب، أو أحداث (حنين)، فكل ذلك شارك فيه عمرو بن العاص ﷺ في حياة الرسول ﷺ. وبعد وفاة الرسول شارك في فتوح الشام، في موقعة أجنادين،وشارك كذلك-كما رأينا-فى فتح مصر. فما يذكره من هذه الوقائع والأحداث موثق وصحيح، وله قيمة كبرى،ما صحت نسبته إليه ﷺ.

ب- وتأسيساً على النقطة السابقة، فإن وثاقة عبد الله بن عمرو التاريخية، تقفنا على معلومات تاريخية جديدة يذكرها لنا. هذه المعلومات تغلق باب الجدل الذى دار طويلاً حول قضية من القضايا المثارة. ولتوضيح ذلك أقول: إنه روى لنا قوائم بأسماء قادة المسلمين، الذين حدّدهم أبو بكر ﷺ قبل وفاته، لإدارة المعارك في بلاد الشام ضد الروم، وذكر لنا - كذلك - اسم كل كُورة نِيطَ بفتحها كل قائد من هؤلاء القادة. ومما ذكره في ذلك الشأن: أنّ على عمرو بن العاص، وعلقمة بن مُجزّز فتح فلسطين. ثم قال أبو بكر - فيما يرويه لنا ابن عمرو -: فإذا فرغا منها، ترك (أى: عمرو بن

= ٣/ ٥٧. وفِحْل: موضع بالشام (من بلاد الأردن)، وقعت فيه موقعة بين المسلمين والروم عُرفت بيوم فحل. (النهاية في غريب الحديث والأثر) لابن الأثير: ٣/ ٤١٧.

(١) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف): ٦/ ٢١٥.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم صـ٧٣-٧٤.

العاص) علقمة، وسار إلى مصر[١]. وذلك يعنى - بكل وضوح - أن فتح مصر كان مخططاً له منذ عهد أبى بكر، وأن متواليات الفتح كانت تسير وفق منهج مرسوم، وخطة محكمة، دونما تخبط ولا ارتجال؛ مما يضع حدًّا لموضوع خطاب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، والجدل العريض المثار حول مدى صحته من عدمها[٢].

جـ- الدقة في رواية الحادثة التاريخية: ومثال ذلك أنه بعد أن ذكر مشهداً مما عاناه الرسول ﷺ من إيذاء المشركين له، قال معلقاً: " فذلك أشد ما رأيتُ قريشاً بلغت منه قط ". فربما بلغتْ منه أكثر من ذلك وأشد، مما لم يره عبد الله بن عمرو بنفسه.

د- استخدامه القرآن الكريم كمصدر أصيل من مصادر التاريخ الإسلامى: فقد ورد ذكره - كما رأينا - على لسان أبى بكر بعد أن خَلّص الرسول من أيدى المشركين. واستخدمه ابن عمرو - كذلك - عند حديثه عن أُمية بن أبى الصَّلْت، الذى كان يعرف صفات الرسول المنتظر، وكان يتوسم في نفسه أن يكون هو ذلك الرسول، ثم حقد على الرسول وكفر لمّا اختير محمد ﷺ للرسالة، ولم يختره الله لها[٣].وذكر ابن عمرو أن أمية هو المَعْنِىُ بقوله (تعالى): ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[٤].

هـ- المراوحة بين الإيجاز والتفصيل في عرض الأحداث التاريخية: فقد أوجز في ذكره أحداث غزوة حنين، وما فيها من فرار ضعاف الإيمان، وأطال وفصّل - حتى ذكر ما ورد من شِعْر - في أحداث مجئ وفد هوازن يستعطفون الرسول ﷺ. ولعل الهدف من ذلك التفصيل بيان الجوانب النفسية المختلفة لأفراد المجتمع المسلم: ما بين متطلع إلى الغنائم تكاد تخرج حدقته من التلهف لنَيْلها، ثم هو يُفاجأ بدعوته لرد الغنائم لذويها، وما بين زاهد فيها غير متطلع إلى شئ منها. وبيّنت الرواية - كذلك - الردود النفسية والقولية لوفد هوازن تجاه خيار صعب، عرضه الرسول ﷺ عليه في البداية: أن يختاروا بين استرداد السبايا، واسترداد الأموال. كما أبرزت الرواية جانب القدوة في حسن تصرف الرسول ﷺ، حين بادر بالتنازل من نصيبه في الغنائم، وشاور الناس في بقية الغنائم، ففعلوا مثله، فحَظُوا برضا وفد هوازن، وفتح الله قلوبهم للإسلام.

هذه التفاصيل في رواية الحدث التاريخى تثرى جوانبه، وتبرز - بدقة - ملامح شخصياته. وتلك خطوة طيبة في ذلك الوقت المبكر.

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/ ٣٩٤، وتاريخ دمشق (ط.المنجد): ١/ ٥٤٥.

(٢) وسوف أناقش ذلك تفصيلاً في كتاب لاحق، إن شاء الله (تعالى).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (ط. مكتبة المعارف): ٢/ ٢٢٢-٢٢٣.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٧٥.

و- استقاء عبد الله بن عمرو كثيراً من مروياته التاريخية، عن طريق مطالعاته المستمرة لكتب الأولين بما فيها من فتن وملاحم.

ونلحظ ذلك نوعيات في ثلاث من مروياته التاريخية:

أولاها - فيما يتصل ببعض مروياته عن تاريخ ما قبل الإسلام:

مثل: الرواية التى يسوق فيها حديثاً عن البحر الشرقى (لعله يقصد المحيط الهندى) والغربى (الأطلنطى)، وأن الله كلّمهما لمّا خلقهما، فأظهر الشرقى شراسة وعنفاً، وهدّد بإغراق الراكبين فيه، بينما أظهر الغربى رأفة ورحمة بهم .فكافأ اللهُ الأولَ بأن حرمه الحلية والصيد، بينما منحهما للثانى. وقد نقد ابن كثير تلك الرواية، وأوضح أنها قد تكون من الزاملتين(١)، اللتين وجدهما ابن عمرو يوم اليرموك، وهما مملوءتان كتباً من علوم أهل الكتاب، فكان يُحدّث بالإسرائيليات من خلالهما(٢).

وكذلك ما ذكره ابن عمرو في تاريخ مصر القديم، عن فرعون وهامان وحفرهما خليجاً في مصر القديمة، ورأفة فرعون بأهل مصر(٣)، على خلاف المتواتر عنه. وكلام ابن عمرو على الإسكندرية وتاريخها القديم(٤)، وتناوله النيل في مروياته، وزعمه أنه سيد أنهار الدنيا، وأن الله سخّر جميع الأنهار لخدمته، وأنها تمده بأصل مائه(٥)، إلى آخر هذه الموضوعات.

ثانيتها - ما يتصل بتنبؤاته بأمور غيبية مستقبلية:

كحديثه عن يأجوج ومأجوج، وخروج الدجال(٦). ومدحه الشام، وإخباره أن الإيمان والأمان هناك إذا وقعت الفتن(٧). كما أخبر أن الروم سيخرجون المسلمين من الشام كَفْراً كَفْراً(٨). وقوله لعبد الله بن الزبير لما ثار على يزيد بن معاوية: وجدتُ في الكتاب أنك ستُعنَّى وتُعَنِّى، وتُدْعَى الخليفة ولستَ بخليفة؛ فالخليفة يزيد بن معاوية(٩).

ولا شك أن هذه الروايات - في معظمها - لا تصمد أمام النقد الصحيح، وإن صح تنبؤ ابن عمرو بخصوص عبد الله بن الزبير.

---

(١) مفردها: زاملة، وهى: البعير الذى يجعل عليه الرجل متاعه وطعامه (مختار الصحاح) للرازى، مادة: (ز.م.ل) ص٢٧٥.

(٢) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف): ١/ ٢٤.

(٣) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم: ص٦.

(٤) المصدر السابق: ص٤٠

(٥) المصدر السابق: ص١٤٩.

(٦) تاريخ دمشق (ط.المنجد) لابن عساكر: ١/١٤٩-١٥١، ٢/ ١.

(٧) تاريخ دمشق (ط.المنجد) لابن عساكر: ١/ ٩٠،٩٥.

(٨) المصدر السابق: ١/ ٦٠٣.

(٩) تاريخ خليفة بن خياط (ط٢-١٩٧٧): ٢١٨.

ثالثتها - أحداث تتصل بتاريخ الإسلام:

وروى عبد الله بن عمرو أوصاف رسول الله ﷺ كما وجدها في التوراة، وهى صحيحة موافقة للحقيقة؛ إذ ورد أنه ﷺ مبشر ونذير وحِرْز للأميين، وليس بفَظّ ولا غليظ، وأن الله سمّاه المتوكل، وأن الله سيفتح به عيونا عُمْياً، وقلوباً غُلْفاً، وآذاناً صُمًّا(١).

وكذلك وردت روايات عن ابن عمرو، يصف فيها شعوباً داخل إطار الدولة الإسلامية، يُعتقد أنه نقلها من كتب الأولين، وفيها تجريح لهذه الشعوب. يقول: أهل المدينة أسرع إلى الفتنة، وأهل الشام أعصى للخالق وأطوع لمخلوق، وأهل مصر أكْيَسهم صغاراً، وأحمقهم كباراً. .. إلخ. وهى روايات مشكوك في صحتها، بل تناقض مع ما روى ابن عمرو نفسه في مدح مصر والشام، هذا إلى جانب انقطاع السند وضعفه، كما يقول ابن عساكر(٢).

وهكذا، ينبغى أن تخضع مثل هذه المرويات للنقد الداخلى والخارجى، وأن يُتوقَف أمامها بالريبة والحذر؛ كى لا تُقْبَل على عواهنها. لكن يجب أن يكون للشك حدود يقف عندها، فلا يجوز أن تُرفض المرويات التى فيها رائحة الفتن والملاحم، دون أن تُبحث وتُحلّل، ويُعلل سبب رفضها؛ لأن هناك مرويات من ذلك القبيل، لكنها صحيحة، كتلك التى سُئل ابن عمرو خلالها وهو يطوف بالبيت، إذ قيل له: هل حضر رسولَ الله ﷺ حين كلّمه التميمى يوم حنين (وهو ذو الخُوَيْصِرة)، الذى اتهم الرسول بأنه لم يَعْدِل في القسمة؟ فأجاب ابن عمرو بالإثبات، وبيّن أن هذا الرجل هو أصل النفاق، ومن شيعته سيخرج قوم يَمْرُقون من الدين(٣). وهذا صحيح؛ فالخوارج - وغيرهم من المنحرفين - خرجوا من الدين.

ثانياً - أبو قَبيل (*):

---

(١) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف): ٢/ ٣٢٥-٣٢٦.

(٢) تاريخ دمشق (ط.المنجد): ١/ ٣٤٣.

(٣) تاريخ الطبرى ٣/ ٩٢.

(*) اعتمدت في ترجمتى له مؤرخاً على المصادر الآتية، مرتبة ترتيباً زمنيّاً كالآتى: طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ٢٠١، والتاريخ لابن معين ٤/ ٤٣٧، وطبقات خليفة بن خياط صـ٢٩٤، والتاريخ الصغير للبخارى ١/ ٢٦٢، والتاريخ الكبير للبخارى مج ٣ صـ٧٥ (رقم ٢٦٧)، والثقات لابن حبان ٤/ ١٧٨، والمؤتلف والمختلف للدارقطنى: ٢/ ٧٨٣، ٤/ ١٩٣٥، ورياض النفوس للمالكى ١/ ٩١-٩٢ (رقم ٥٩)، والإكمال لابن ماكولا ٧/ ٣٢٧، واللباب في تهذيب الأنساب، لابن الأثير ٣/ ٢٢٩، وتهذيب الكمال، للمزى ٧/ ٤٩٠ (رقم ١٥٨٦)، وميزان الاعتدال للذهبى ١/ ٦٢٤ (رقم ٢٣٩٣)، والكاشف للذهبى (ط.دار الكتب العلمية): ١/ ١٩٩ (رقم ١٣٠٥)، والمشتبه للذهبى ٢/ ٥٣٦، وتاريخ الإسلام للذهبى ٥/ ١٩٥-١٩٦، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٢١٤-٢١٥، والوافى بالوفيات، للصَّفَدى ١٣/ ٢٣٣، والخطط للمقريزى ١/ ٣١٤، وتهذيب التهذيب =

١- حياته: هو حُيَيّ[١] بن هانئ بن ناصِر[٢] بن يُمْتِع[٣] اليمانى المَعَافرى[٤] المصرى[٥]. ومعنى ذلك أنه من أصل يمنى، وهو ما قاله عن نفسه، فقد أدرك مقتل الخليفة الثالث: عثمان بن عفان ﷺ، وهو غلام مقيم باليمن. وقد جاء إلى مصر وهو شاب، في خلافة معاوية ابن أبى سفيان[٦]، واستقر بها، ودخل في بنى سَريع بمصر[٧].

ويبدو أنه كان محبًّا للرحلة؛ لأجل الغزو والفتوح، والجهاد في سبيل الله، فيُذكر أنه غزا رُوذِس[٨] مع الصحابى جُنادة بن أبى أُمية، وغزا-من بعدُ - المغرب مع

= لابن حجر (ط.دار الفكر): ٣/ ٦٤ (ذكره دون ترقيم، بعد رقم ١٤٠)، وتقريب التهذيب لابن حجر ١/ ٢٠٩ (رقم ٦٦٤)، وتبصير المنتبه لابن حجر ٣/ ١١٣٩، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١/ ١٢٧، ١٣٦، ٢٣٧، ٢٥٠، ٣٠٨، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال، للخزرجى ١/ ٢٦٧ (رقم ١٧٠١)، وشذرات الذهب، لابن العماد الأصفهانى ١/ ١٧٥.

(١) هكذا بياءين على سبيل التصغير، كما ورد في كل من: (التاريخ الصغير ١/ ٢٦٢، والكبير ٣/ ٧٥ للبخارى، ورياض النفوس للمالكى ١/ ٩١، وميزان الاعتدال للذهبى ١/ ٦٢٤، والكاشف (ط.دار الكتب العلمية) في رَأى: ١/ ١٩٩، وسير أعلام النبلاء في رواية ٥/ ٢١٥، والوافى بالوفيات للصفدى ١٣/ ٢٣٣، وتهذيب التهذيب لابن حجر، وقال: الأشهر أن يكون هكذا بياءين ٣/ ٦٤، والخلاصة للخزرجى ١/ ٢٦٧، وتاريخ التراث العربى ١/ ٥٤٨). بينما ذكرتها بعض المراجع بياء واحدة: حَيّ، مثل: (التاريخ) لابن معين ٤/ ٤٣٧، وطبقات خليفة ٢٩٤، والكنى والأسماء للدولابى ٢/ ٨٥، وسير أعلام النبلاء في رواية أخرى: ٥/ ٢١٤، وتهذيب التهذيب لابن حجر في رواية أخرى ٣/ ٦٤. وقد اخترتُ - في المتن - الأشهر.

(٢) وهو اسم نادر. فقد ذكر ابن الأثير في (اللباب في تهذيب الأنساب) ٣/ ٢٢٩: أن ليس في الأسماء ناضر غير جد أبى قبيل.

(٣) هكذا في (تاريخ المصريين) لابن يونس ص١٤٤ (ترجمة رقم ٣٧٧). وذكر محقق (تهذيب الكمال) للمزى بالحاشية ٧/ ٤٩٠: أنها بالنون؛ فقد جوّدها المزى بخطه في المخطوط (يُمْنَع).

(٤) نسبة إلى المَعَافِر بن يَعْفُر الذى ينتهى إلى (قَحْطان)، وهو قَبيل كبير عامتهم بمصر، منهم: أبو شُريح المعافرى، وضِمام بن إسماعيل المعافرى. (اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير ٣/ ٢٢٩، ووفيات الأعيان (ط.إحسان) لابن خلكان: ٣/ ٢١٦.

(٥) لقّبه ابن حجر في (تقريب التهذيب) ١/ ٢٩٠ - بالبصرى. وهو خطأ مطبعى لم يفطن إلى تصويبه كل من محقق، ومراجع الطبعة.

(٦) المؤتلف والمختلف للدارقطنى ٢/ ٧٨٣، والإكمال لابن ماكولا ٧/ ٣٢٧، وتهذيب الكمال للمزى ٧/ ٤٩٠، وميزان الاعتدال للذهبى: ١/ ٦٢٤، وتاريخ الإسلام للذهبى ٥/ ١٩٥.

(٧) المؤتلف والمختلف للدارقطنى ٢/ ٧٨٣، والإكمال لابن ماكولا ٧/ ٣٢٧، وتهذيب الكمال للمزى ٧/ ٤٩٠.

(٨) كذا بالذال على الراجح عندى. وهى جزيرة في البحر الأبيض تقابل الإسكندرية، غزاها المسلمون هى وقبرص في خلافة معاوية. وذكر المسعودى: أنها - سنة ٣٣٢هـ - كانت دار صناعة الروم، وبها تُبنى المراكب البحرية. (معجم البلدان، ط.دار الكتب العلمية) جـ٣ ص٨٩-٩٠.

حسان بن النعمان[١].

٢- عقيدته، وصلاحه، وأخلاقه:

كان أبو قبيل من أهل العلم والدين والفضل والورع. وهناك دلائل على ذلك:

أ- بالنسبة لعقيدته: فقد كان يميل إلى عقيدة السلف في بساطتها وسماحتها وسهولتها، ينأى بنفسه عن جدل المجادلين، وتأويلات المُؤَوِّلين، الذين يبحثون في الذات والصفات الإلهية، والقضاء والقدر، وغير ذلك. وقد سأل رجل أبا قبيل عن القدر، فقال له: " لأَنا في الإسلام أقدم منه، فدين أنا في الإسلام أقدم منه لا خير فيه "[٢].

ب- وبخصوص صلاحه: فقد كان - كما أخبرنا خَتَنه (زوج أخته) ضِمام بن إسماعيل المعافرى (٩٧-١٨٥هـ) - حريصاً على صلاة الفجر في المسجد، ثم يجلس بعدها في مُصلاّه حتى تطلع الشمس وترتفع، فيركع ما بدا له، ثم يخرج[٣]. كذلك كان حريصاً على الصوم يومى: الاثنين، والخميس من كل أسبوع، وعلى أداء الأذان مثنى مثنى، حريصاً على قول: " الصلاة خير من النوم "، في أذان الصبح. ولم يقف عند ذلك الحد من العبادة، بل كان - كعادة الصالحين في ذلك الزمان الغابر - يضع نقوده في خرقة يصحبها معه، بحيث لا يمر يوم إلا له فيه صدقة[٤].

ولا غرو - بعد ذلك - أن يكون مِكْثاراً مِلْحاحاً في الدعاء، مستجاباً له، فقد ورد أنه كان يرفع يديه على باب المسجد بعد صلاة الفجر، ويستقبل القبلة بباطن كفيه حِذْوَ منكبيه، ثم يقول: أعوذ بالذى يُمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً[٥]. ثم يدعو كثيراً، ويقول في آخر دعائه: اللهم، لا تَقْصُر بى عن الأخيار، ولا تجعلنى مع الأشرار، وأسألك ألا تُبقى أحداً من أهلى ولا ولدى إلا قدَّمْتَه بين يدىّ، ولا أترك ديناراً ولا درهماً ولا دَيْناً. يقول خَتَنه ضِمام: إن الله استجاب له، فبعد أن كانت داره تسمى (اللفيف)؛ لكثرة زوجاته وأولاده، ماتوا كلهم قبله، حتى لم يبق أحد، ولم يترك شيئاً من الدنيا إلا قطيفة ،وفراشاً، وسلاحاً[٦].

جـ- ومن أعظم أخلاقه: الزهد، والصبر على البلاء، والشجاعة في الجهاد،

---

(١) الإكمال لابن ماكولا ٧/ ٣٢٧، وتهذيب الكمال للمزى ٧/ ٤٩٠-٤٩١، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١/ ٣٠٨.

(٢) رياض النفوس للمالكى ١/ ٩١، وتهذيب الكمال، للمزى ٧/ ٤٩٢-٤٩٣.

(٣) رياض النفوس للمالكى: ١/ ٩١.

(٤) المصدر السابق ١/ ٩٢، وتهذيب الكمال ٧/ ٤٩٢.

(٥) وفى هذا الدعاء تضمين لمنطوق (الآية ٤١ من سورة فاطر)، التى يقول نصها: " إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ".

(٦) رياض النفوس، للمالكى: ١/ ٩١-٩٢.

والتواضع. فقد ورد أنه كان لا يقبل إلا أن يخرج بنفسه لشراء ما يلزمه من السوق[١] في زمن كان يقوم العبيد والإماء فيه بذلك الصنيع.

٣- وفاتـــه:

لقد طال عمر أبى قبيل، ولعله يكون قد حسن عمله إذ تجاوز المائة سنة[٢]. فلعله ولد سنة ٢٨هـ، وعقل موت عثمان بن عفان (ت ٣٥هـ)، وكان يومها باليمن، فربما كان ابن سبع سنين. وتوفى بمصر بالبَرَلُّس[٣]- على الأرجح - سنة ١٢٨هـ[٤]، بعد أن أمضى حياته في العلم، والجهاد، حتى إن سنّه الكبيرة لم تمنعه من مواصلة الجهاد والفتوح، فقد عاد من غزو المغرب إلى مصر أواخر حياته سنة ١٢٧هـ[٥]، رحمه الله رحمة واسعة. فلعله يكون قد صدق فيه ما قاله هو نفسه عن مكانة الشيوخ في الإسلام: " إن من إجلال الله أن يُعَظَّم ذو الشَّيْبَة في الإسلام "[٦].

٤- آثاره التاريخية:

نشأ أبو قبيل في اليمن، حيث تكثر الأساطير والحكايات التاريخية، التى تنحو منحى الملاحم والفتن، وتميل إلى القَصّ. ويبدو أنه شَبّ على ذلك، وسمع من كتب الأولين ما يتصل بأخبار الأمم السالفة، وتنبؤات المستقبل الغامضة المفزعة. ولعل حديث أبى قبيل عن نفسه وردود أفعاله وأفعال أهله، لمّا سمعوا بمقتل عثمان ﷺ، تعبّر عن تلك النشأة، إذ يقول - فيما يرويه عنه ضِمام -: لمّا جاءنا نبأ مقتل عثمان ونحن باليمن، فَزِعْنا وخِفْنا على أنفسنا، وقلنا: نُقْتَل الساعة. فصَعِدْنا الجبل، فكنتُ أول من صَعِد من أهل قريتى[٧].

ومن هنا، فأنا أعده حلقة وصل بين مدرسة اليمن التاريخية ومدرسة مصر الإسلامية. وهو يصدق عليه-بحق-أنه صاحب علم بالملاحم والفتن[٨].

(١) المصدر السابق: ١/ ٩٢، وتهذيب الكمال للمزى ٧/ ٤٩٢، والنجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى ١/ ٣٠٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢١٥. ووضعه الإمام البخارى فيمن مات من المائة إلى المائة وعشر سنوات (التاريخ الصغير: ١/ ٢٦٢).

(٣) بُليدة على شاطئ نيل مصر قرب البحر من جهة الإسكندرية. (معجم البلدان، لياقوت: ١/ ٤٠٢).

(٤) رياض النفوس، للمالكى: ١/ ٩١، والوافى بالوفيات للصفدى ١٣/ ٢٣٣، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.الريان): ١٠/ ٣١، وتهذيب التهذيب لابن حجر (ط.دار الفكر): ٣/ ٦٤، وتقريب التهذيب لابن حجر ١/ ٢٠٩، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى: ١/ ٣٠٨، وشذرات الذهب، لابن العماد الأصفهانى ١/ ١٧٥.

(٥) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى: ١/ ٢٥٠.

(٦) تاريخ الإسلام، للذهبى: ٥/ ١٩٦.

(٧) المصدر السابق ٥/ ١٩٦، وسير أعلام النبلاء: ٥/ ٢١٥.

(٨) تهذيب الكمال، للمزى ٧/ ٤٩٣، وميزان الاعتدال للذهبى: ١/ ٦٢٤، وتهذيب التهذيب ٣/ ٦٤.

وهاك نماذج مما جمعته له:

١- أخبار تاريخية قديمة:

ومنها: ما نقله عنه ابن لهيعة أن عبد الرحمن بن غنم الأشعرى لما سأل عبد الله بن عمرو عن سر إقامته في مصر، وقد كان يذكر أنها أسرع الأرضين خراباً، أجابه ابن عمرو قائلاً: لقد كانت كذلك؛ نتيجة فعل بختنصر بها، ولكنها-بعد ذلك-عمرت، وصارت أرض بركة[١].وأخبر في رواية أخرى: أن الإسكندرية كان بها عند الفتح ١٢ ألف بقال ،يبيعون البَقْل الأخضر[٢].

٢- ملاحم وفتن وتنبؤات:

أ- تنبؤه بثورات السرى بن الحكم ومن بعده: تنبأ بثورة السرى، وابنه عبيد الله بن السرى، ثم قدوم عبد الله بن طاهر بن الحسين إلى مصر سنة ٢١١هـ، لإقرار الأمور بها[٣].

ب- لما بلغه موت هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ)، وضع يده على خده حزيناً، بينما خرج الناس وتباشروا. فلما سئل، قال: أوشكوا أن يتمنوا حياته[٤]. ويبدو أن موت هشام كان بداية فتن جَمّة مرّت بالدولة الإسلامية بعامة ومصر بخاصة. ففى مصر أقر الوليدُ بن يزيد بن عبد الملك حفصَ بن الوليد على صلاتها وخراجها، وأمر بإخراج أهل الشام بمصر إلى أجنادهم، فأمرهم حفص بالخروج، فرفضوا، وحاصروه في بيته، وحدث قتال بينهم[٥]، وتوالت الاضطرابات والفتن بعد ذلك حتى سقوط الدولة الأموية.

جـ- ويحكى أبو قَبيل[٦] أنهم كانوا عند ابن عمرو، فسُئل: أى المدينتين تُفتح أوّلاً: القسطنطينية، أو رومية ؟. فدعا ابن عمرو بصندوق له حِلَق، وأخرج منه كتاباً، وقال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سُئل السؤالَ نفسه، فقال رسول الله ﷺ: "مدينة هرقل تُفْتَحُ أَوّلاً، يَعْنِى: قُسْطَنطِينِيَةَ "[٧].

---

(١) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم: صـ٣٢.

(٢) المصدر السابق: صـ٨٢. تُجمع على (بُقول)، ولعله جمع الجمع. وواحدته: بَقْلةَ. وورد في (مختار الصحاح) للرازى صـ٦٠ مادة (ب.ق.ل): كل نبات اخضرَّتْ له الأرض فهو (بَقْل). فلعل الفول وغيره من الحبوب كان منتشراً في مصر عامة، وفى الإسكندرية خاصة.قال(تعالى)على لسان بنى إسرائيل: " وَإِذْ قُلْتُمْ: يَا مُوسَى، لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قالَ :أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ؟ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ".(سورة البقرة: من الآية ٦١).

(٣) الولاة والقضاة، للكندى: صـ١٨٢.

(٤) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٨٣.

(٥) المصدر السابق: صـ٨٣.

(٦) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم: صـ٢٥٦-٢٥٧.

(٧) أخرجه أحمد في (مسنده) ٢/ ١٧٦، والحاكم في (مستدركه) ٤/ ٤٢٢، ٥٥٥، كتاب (الفتن والملاحم)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى. والهيثمى في (مجمع الزوائد)، كتاب (المغازى والسير)، باب (فتح القسطنطينية ورومية): ٦/ ٢١٩.

د- ما أُثر عنه من قوله: إفريقية غادرة ومُفَرِّقة، ويرى ألا يُوجَّه إليها أحد[١].

هـ- تنبأ بأن الفتن قادمة، والثورات على أشدها، وأن الناس ستلجأ إلى الشام؛ للاحتماء بها إن لم تكفهم الإسكندرية[٢].

٣- أخبار عن أحداث مصر بعد فتحها:

أ- أورد أبو قبيل خبر قدوم عبد الرحمن بن غنم الأشعرى إلى مصر مع الخليفة مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ؛ للسيطرة على الموقف المشتعل بها، وللقضاء على حزب الزبيريين وجيوشهم[٣].

ب- روى خبراً عن عبد الله بن عمرو حول موقعة الكِرْيَوْن، وإصابة ابن عمرو بها. وقد سبق ذكره في آثار ابن عمرو التاريخية[٤].

جـ- روى ابن لهيعة عنه خبراً، يفيد وجود شخصيات ذات شكيمة قوية من العرب تهابها الخلافة. ومن هؤلاء: معاوية بن حُديج الذى هدّد معاوية صراحة، لمّا فكر في قطع العطاء عن العرب في مصر. وسكت معاوية وتراجع إزاء تهديداته، ولم يُعَقّب[٥].

د- ما رواه ختنه عنه من أن معاوية بن أبى سفيان جعل على كل قبيلة في مصر رجلا[٦]، يدور على المجالس كل صباح، ويسأل: هل ولد مولود؟ فيسجله، ثم يتوجه إلى الديوان[٧].

٤- الملامح العامة لمنهج أبى قبيل التاريخي:

١- يذكر العلاّمة سزكين[٨] أن أبا قبيل هو أقدم مؤرخ أرّخ لمصر نعرفه، وأن هناك مرويات كثيرة لدى ابن عبد الحكم مأخوذة عنه، ويبنى على ذلك افتراضاً مفاده: أن هذه المرويات مقتبسة من كتاب (فتوح مصر) لأبى قبيل، وأنها وصلت إلى ابن عبد الحكم عبر مصدر وسيط. وفى رأيى: أن افتراض سزكين فيه شئ من الصحة، وإن كنت ألاحظ أن مرويات أبى قبيل في كتاب ابن عبد الحكم محدودة بالقياس إلى مَنْ تلاه من المؤرخين المصريين، وربما كان ذلك لتقدم أبى قبيل الزمنى. ولا أظن أن لأبى قبيل كتاباً في التاريخ بالمعنى المعروف، وإنما هى مرويات حديثية، تختلط بها روايات ملحمية قصصية كتلك التى رأينا جانباً منها. كما يلاحظ أن ما بقى لنا مما ذكره أبو قبيل عن مرويات (فتح مصر) لا يَشْفى الغُلَّة بحال. فقد نقل إلينا خطبة عمرو بن

(١) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ص١٧٣.
(٢) تاريخ دمشق (ط.المنجد) لابن عساكر ١/ ٢٣٠.
(٣) المعرفة والتاريخ للفسوى ٣/ ٢٠٣.
(٤) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم: ص٧٤.
(٥) المصدر السابق: ص١٠١-١٠٢.
(٦) وكان الرجل الذى يمر على المعافر في مصر يسمى: الحسن.
(٧) المصدر السابق: ص١٠٢.
(٨) تاريخ التراث العربى: ١/ ٥٤٨.

العاص في الربيع[١]، وأورد لنا - كما رأينا سلفاً - رواية تفيد تسجيل العطاء في الديوان، وإضافة المواليد الجدد في مصر. وهذه روايات تفيد نوعاً من الاهتمام المبكر الطيب بالتنظيم المالى والإدارى في مصر، إلا أنها نادرة كما نرى، ولا نستطيع مع هذه الندرة أن نزعم أنها بمنزلة اتجاه تاريخى عام لدى أبى قبيل.

٢- لا نجد أثراً واحداً، يدل على وجود أدنى اهتمام لأبى قبيل بأحداث السيرة النبوية، ومغازى رسول الله ﷺ، أو ما يتصل بأحداث الراشدين. وفيما يتصل بأخبار الدولة الأموية، فلا يعدو اهتمامه - فيما وصل إلينا - حدوداً ضيقة، وأحداثاً فردية، تتصل بقدوم مروان بن الحكم إلى مصر، أو مبايعة عبد الله بن عمرو بن العاص ليزيد بن معاوية، دون أن نرى تفاصيل أحداث ذلك العصر، سواء في دولة الخلافة، أم داخل ولاية مصر.

٣- أن الاهتمام بالقصص وأحداث الفتن هو الغالب على مرويات أبى قبيل، ولعل ذلك ينبع من نوعية مصادره التاريخية، التى استقى منها مادته وثقافته التاريخية، فقد استقى مادته التاريخية - كما رأينا في حديثه عن قسطنطينية ورومية - عن عبد الله بن عمرو الذى كان يطالع كتب الأوائل. ولئن صح الحديث المذكور، فإن أبا قبيل لم يكن ليكتفى برواية واحدة عن ابن عمرو، والبدهى أنه نقل عنه كثيراً مما لم يصل إلينا، ولعل ابن عمرو كان يُعيره شيئاً من كتب أهل الكتاب، كما أن لأبى قبيل اطلاعاته الخاصة به في كتب الأوائل[٢]. ومن مصادره التاريخية - كذلك - تُبيع بن عامر الحميرى[٣]، وهو يمنى مثله، وصاحب ملاحم[٤]، وأحد رواة كتب الأولين. ولعل أبا

---

(١) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ص١٣٩.

(٢) وقد ورد في (تاريخ الموصل) للأزدى ص١٥٣-١٥٤، ما يدل على ذلك، فيذكر عبد الله بن أيوب، عن أبيه قال: قال لى أبو قبيل يوماً: من أى بلاد أنت؟ قلت: من أهل الموصل. قال أبو قبيل: نعم البلاد بلادك. وعدد في فضل الموصل خِصالاً، وقال: إنه سيكون من أهل الموصل شهداء مرتين في أول ملك يملكه بنو العباس. فقلتُ: متى ذاك؟ قال: إنى أجد في الكتب أنهم شهداء دجلة، يقتلهم قوم يجيئون في ناحية خراسان، يعرف صوتهم الرجال والنساء والصبيان. ومرة أخرى يُقتلون آخر ملك بنى العباس. واسمها في الكتب (الكَرْخ الأعظم). والأبدال (الصالحون) أربعون منهم بالموصل، كلما مات واحد، بدّل الله واحداً مكانه.

(٣) هو ابن زوج كعب الأحبار، وممن روى عن كعب، فأكثر الرواية. وقد قرأ الكتب، ثم أسلم في أيام أبى بكر، أو عمر. قدم تُبيع إلى مصر، وكانت له اهتماماته بالغزو والقصص والتنبؤ، وكان من جلساء ابن عمرو الناقلين عنه. وكان له حظوة لديه. إذ قال ابن عمرو يوماً وقد أقبل تُبيع: أتاكم أعْرَف مَنْ عليها. ثم قال له: يا تُبيع، أخبرنا عن الخيرات الثلاث. قال: اللسان الصدوق، وقلب تقى، وامرأة صالحة. (تاريخ دمشق لابن عساكر: مج١٠ ص٤٢٩، وسير أعلام النبلاء: ٤/٤١٣-٤١٤). وقد ذكرت عدة مصادر أن أبا قبيل كان من أقرب تلاميذ تُبيع الراوين عنه (الثقات لابن حبان ٦/١٢٢، وتاريخ ابن عساكر ١٠/٤٢٦، وتهذيب الكمال للمزى ٤/٣١٢ وما بعدها، والكاشف (ط.دار الكتب الحديثة): مج١ جـ١/١٦٧، وسير، أعلام النبلاء ٤/٤١٣).

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٠/٤٢٩.

قبيل كان من جلسائه عندما أتى إلى مصر، وأقام بها، وتوفى عن عمر مديد بالإسكندرية (ت ١٠١ هـ)[١].

ومن مصادره - كذلك - شعيب بن الأسود المعافرى[٢]، وذو قربات[٣]، وكلاهما صاحب ملاحم وفتن، وكلاهما قرأ في كتب الأوائل.

٤- وأخيراً، فإن لأبى قبيل أسلوباً مميزاً في سرد مروياته التاريخية يتمثل في جمل قصيرة مسجوعة، تتناسب مع طابع القصص والوعظ. ومن ذلك قوله: " كيف أنتم إذا كان الحُكْم حَيْفاً، والسَّوْط سيفاً، والشتاء قَيْظاً، والولد غَيْظاً[٤]؟

وهكذا، عكس لنا أبو قبيل طابع الغيبية والمستقبلية والتنبؤ، والهروب من الواقع لدى المدرسة المصرية التاريخية.

(١) المصدر السابق ١٠/ ٤٣٣، وسير أعلام النبلاء: ٤/ ٤١٤.
(٢) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم: مج٢ قسم١ صـ٣٤٢.
(٣) المصدر السابق: مج١ قسم٢ صـ٤٤٨.
(٤) تهذيب الكمال للمزى ٧/ ٤٩٢.

الفصل الثاني

يزيد بن أبى حبيب، وابن أبى جعفر

أولاً - يزيد بن أبى حبيب(*):

١ - التعريف به، وبأسرته:

يكنى يزيد بأبى رجاء، ويقول عنه يحيى بن عبد الله بن بُكير المصرى (١٥٤-

(*) اعتمدت في ترجمتي له مؤرخاً على المصادر والمراجع الآتية مرتبة ترتيباً زمنيّاً كالآتي: طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ٢٠٢، والتاريخ لابن معين ٢/ ٦٦٨، ٤/ ٤٣٧، ومعرفة الرجال لابن معين ١/ ١٢٦ (رقم ٦٢٥)، ١/ ١٥١ (رقم ٨٢٩)، ٢/ ٥٠ (رقم ٨٥)، ٢/ ١٤٤ (رقم ٤٥١)، وطبقات خليفة بن خياط صـ٢٩٤، وتاريخ خليفة بن خياط (ط٢-١٩٧٧): صـ١٤٣ - ١٤٤، ٣٧٨، والعلل ومعرفة الرجال، لأحمد بن حنبل (ط.تركيا): ٢/ ١٨٣، والتاريخ الكبير للبخارى ٨/ ٣٢٤ (رقم ٣١٨١)، صـ٣٣٦(رقم ٣٢٢٦)، والتاريخ الصغير للبخارى ٢/ ١٠-١١، وفتوح مصر وأخبارها (ط.تورى) لابن عبد الحكم: صـ١٨٨، والضعفاء لأبى زرعة: (قسم الرواة الذين عدّلهم): ٣/ ٩٥٤ (رقم ٧٨٠)، والمعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ١٨، ٤٣١، ٣/ ٣٥٠، والجرح والتعديل، لابن أبى حاتم ٤/ ٢/ ٢٦٧، والولاة والقضاة، للكندى صـ٦٤-٦٥، والثقات لابن حبان ٥/ ٥٤٦، ومشاهير علماء الأمصار لابن حبان صـ١٢٢ (رقم ٩٥٣)، ورجال صحيح البخارى، للكُلاباذى ٢/ ٨٠٧-٨٠٨ (رقم ١٣٥٦)، والسابق واللاحق، للخطيب البغدادى صـ١٤٦، (رقم ٣٠)، ومخطوطة تهذيب الكمال للمزى ٣/ ١٥٣١، وتذكرة الحفاظ، للذهبى ١/ ١٢٩-١٣٠ (رقم ١١٦)، والمعين للذهبى صـ٥٠ (رقم ٤٤٥)، والكاشف (ط.دار الكتب العلمية) ٣/ ٢٤١ (رقم ٦٤٠١) وسير أعلام النبلاء للذهبى ٦/ ٣١-٣٣، والعبر ١/ ١٢٩، وتاريخ الإسلام، للذهبى ٥/ ١٨٤-١٨٥، وتراجم رجال روى عنهم ابن إسحاق، للذهبى صـ٨١-٨٤، وتهذيب التهذيب لابن حجر ١١/ ٢٧٨-٢٧٩ (رقم ٥١٥)، وتقريب التهذيب لابن حجر ٢/ ٣٦٣ (رقم ٢٣٧)، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١/ ١٩، ١٤٣، ٢٣٨، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٢٩٩ (رقم ٢٣)، وطبقات الحفاظ للسيوطى: صـ٥٢ (رقم ١١٤)، وخلاصة الخزرجى ٣/ ١٦٧-١٦٨ (رقم ٨١١٠)، ونسيم الرياض للخفاجى ٣/ ٣٩١، وشذرات الذهب، لابن العماد الأصفهانى ١/ ١٧٥، وفى الأدب المصرى، لمحمد كامل حسين صـ٤٢، ودائرة معارف الأعلمى ٣٠/ ١٢٤، والأعلام للزركلى ٨/ ١٨٣-١٨٤، والمحدّثون في مصر، لأحمد عمر هاشم صـ٧٨.

٢٣١هـ): إن أباه يسمى (سُويداً)، وإنه كان مولى لامرأة مولاة لبنى حَسْل[١] من قبيلة الأزد، فولاؤه فيهم. ثم إن سويداً هذا تزوج امرأة مولاه لقبيلة تُجيب، فولدت له ابنيه: يزيد، وخليفة، وهما معنا في الزقاق[٢]. فلعل ابن بكير - وهو الذى ولد بعد وفاة مؤرخنا يَزيدَ بستة وعشرين عاماً - يقصد أنهما كانا يعيشان في الزقاق الذى ولد ونشأ، وعاش فيه ابن بكير فيما بعد. ويذكر ابن لهيعة أن سويداً والد يزيد كان من رقيق بلاد النوبة، الذين اشتُروا من هناك. ويذكر - نقلاً عن يزيد نفسه - قوله: أبى من سَبْى دُمْقُلَة مولًى لرجل من بنى عامر من أهل المدينة، يقال له: شَريك بن طُفَيْل[٣].

ولد يزيد بعد عام ٥٠ هـ (فى حكم معاوية بن أبى سفيان)، وهو يُعد من صغار التابعين ﷺ[٤]. وكانت وفاته عن عمر يصل ما بين ٧٥ و٨٠ سنة[٥]. وقد توفى - بالتحديد - سنة ١٢٨هـ[٦] في خلافة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وصلّى عليه الوالى المصرى (الحَوْثَرة بن سُهيل).

٢- صفاته:

١- الخِلْقية:

لمّا كان يزيد بن أبى حبيب نُوبىّ الأصل، صَحّ وصف ابن لهيعة له بأنه كان شديد السواد كأنه فحمه[٧]. ويدعم هذا الوصف ويؤكده ما يرويه لنا الإمام أحمد بن حنبل من

---

(١) هكذا ذكر الذهبى في (سير أعلام النبلاء) ٦/ ٣١، والمزى في (مخطوطة تهذيب الكمال) في أحد قولين: ٣/ ١٥٣١. وذكر آخرون أنه مولى شَريك بن الطُّفَيْل الأزدى، وهو ما سيذكره يزيد نفسه فيما بعد. ومن هؤلاء القائلين بذلك: الذهبى في (تاريخ الإسلام) ٥/ ١٨٥، والخلاصة للخزرجى ٣/ ١٦٧. وذكر ابن سعد في (طبقاته، ط.ليدن) ٧/ ٢/ ٢٠٢، وابن حبان في (الثقات) ٥/ ٥٤٦: أنه مولى بنى عامر بن لؤى. وعلى كل، فتفاصيل ولائه مختلف فيها، وإن انتسب ولاؤه العامّ إلى الأزْد.

(٢) التاريخ الكبير للبخارى: ٨/ ٣٢٤، والتاريخ الصغير للبخارى ٢/ ١٠-١١.

(٣) فتوح مصر وأخبارها صـ١٨٨. ويذكر ابن أبى حاتم في (الجرح والتعديل): ٤/ ٢/ ٢٦٧: أن سويداً والد يزيد نوبى مُعْتَق.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٣١. ويرى ابن لهيعة أنه ولد ٥٣هـ (المعرفة والتاريخ) للفسوى ٣/ ٣٥٠، وتهذيب التهذيب لابن حجر ١١/ ٢٧٩) .ورأى ابن تغرى بردى أنه ولد ٥٢هـ، في السنة الخامسة من ولاية الصحابى مسلمة بن مخلد على مصر (النجوم الزاهرة): ١/ ١٤٣.

(٥) التاريخ الكبير للبخارى ٨/ ٣٣٦، والثقات لابن حبان ٥/ ٥٤٦، والسابق واللاحق، للخطيب البغدادى صـ١٤٦، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٦/ ٣٢، وتهذيب التهذيب لابن حجر ١١/ ٢٧٩.

(٦) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ٢٠٢، والسابق واللاحق، للخطيب البغدادى صـ١٤٦، ومخطوطة تهذيب الكمال للمزى ٣/ ١٥٣١، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.الريان): ١٠/ ٣٠. ويلاحظ أن خليفة بن خياط شَذّ في (تاريخه) صـ٣٧٨، فذكر أن يزيد بن أبى حبيب توفى ١٢٧هـ، وهو غير صحيح.

(٧) المعرفة والتاريخ، للفسوى: ٢/ ١٨، ٧٠١، وتذكرة الحفاظ، للذهبى ١/ ١٣٠.

أن يزيد جمع بين السواد والنحافة. ودخل يوماً الحمّام، فقال له رجل: قم، فاذْلُك ظهرى (وكان لا يعرفه). فدخل عليه رجل، فقال له: هذا يزيد بن أبى حبيب[١]! (أي: مفتى مصر، ومحّدثها، وعالمها، ومؤرخها).

٢- صفاته النفسية والخُلُقيّة:

أ- خِفّة الظل، والميل إلى الفكاهة والمزاح الموجَّه: وهناك موقفان يدلان على ذلك هما:

الأول- قال له رجل ذات يوم، مظهراً إعجابه به: وددت أن الناس كلهم مثلك. فقال يزيد: إذن يكونوا كلهم سُودان[٢]. وذلك أنه كان نوبيّاً شديد السواد، كما عرفنا.

الثانى -روى أن رجلاً يُدعى أبا سليمان أخبر والى مصر (قرة بن شريك) سنة ٩١هـ، أن عدداً من الخوارج تآمروا على قتله، وعقدوا لواحد منهم يسمى: ابن أبى المثنى، وأنهم سيلتقون عند منارة الإسكندرية. فكمن لهم الوالى، وقبض عليهم، وأمر بحبسهم. فكانت النتيجة أن انتقم رجل من الخوارج من الجاسوس أبى سليمان، وقام بقتله[٣]. وقد انتشرت هذه الواقعة، حتى إن يزيد بن أبى حبيب كان إذا أراد أن يتكلم بشئ، فيه تقية من السلطان، تلفّت، وقال: احذروا أبا سليمان. ثم قال يوماً عن ذاك الرجل: الناس كلهم أبو سليمان[٤]. وهذا يدل على ما ساد المجتمع المصرى في العصر الأموى من جاسوسية واضطهاد، وتكميم للأفواه والآراء. فيزيد يكشف بهذه القولة عن مساوئ المجتمع في قالب فكاهى ظريف، ممزوج بمشاعر الحزن والأسى.

ب- عقله وحِلْمه، وكياسته: هناك مواقف عديدة في حياته، تدلل على ذلك، منها:

١- أنه كان يَكْظِم غيظه وغضبه، إذا رأى ما يَشين، فيقول عن نفسه: موتى في نَعْلى. إذا رأيتُ شيئاً أكرهه، لَبِسْتُ نعلى، وقمتُ[٥].

٢- ما أُثر من قوله: " لا أدع أخاً يغضب علىّ مرتين، بل أنظر الأمر الذى يكره، فأدَعُه "[٦].

٣- أن أناساً اجتمعوا؛ ليعودوا مريضاً، وكان فيهم يزيد. فلمّا وصلوا إلى دار

---

(١) العلل ومعرفة الرجال (ط.تركيا)، لأحمد بن حنبل ٢/ ١٨٣.

(٢) التاريخ، لابن معين ٢/٦٦٨، ٤/٤٣٧، والجرح والتعديل، لابن أبى حاتم: ٤/ ٢/ ٢٦٧. والصواب: سُوداً (فالصفة على وزن أَفْعَل تُجمع على فُعْل). (مختار الصحاح) للرازى مادة (س.و.د) صـ٣٢٠، وتاريخ الإسلام للذهبى ٥/ ١٨٤.

(٣) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٦٤.

(٤) المصدر السابق صـ٦٤.

(٥) العلل ومعرفة الرجال (ط.تركيا)، لأحمد بن حنبل: ٢/ ١٨٣.

(٦) تذكرة الحفاظ، للذهبى (ط.إحياء التراث) ١/ ١٣٠، وتاريخ الإسلام للذهبى ٥/ ١٨٥.

المريض، تدافعوا الاستئذان عليه. ولمّا كان ذلك مُذْهِباً لوقار المسلم، مؤذياً ومنغصاً لراحة المريض؛ قال لهم يزيد: قد علمتُ أن الضَّأن والمِعْزَى إذا اجتمعت، تقدمت المِعزى، فتقدم هو فاستأذن[١].

فهنا اتضحت حكمته وفطنته، إذ شَبّه نفسه بالمعزى؛ ليحد من اندفاع الناس وتكالبهم.

جـ- قوة فِراسته: يقول المُفَضَّل بن فَضَالة: سألت يزيد بن أبى حبيب عن مسألة من الأحكام، وأنا قد ناهزت الأحلام، فضحك، وقال: يجب أن تكون قاضياً. بلّغك الله ذلك[٢].

د- شِجاعته في نقد الولاة:

إذا كان يزيد بن أبى حبيب ذكيًا فطناً في نقد أحداث عصره-كما رأينا-، فإن ذلك لم يكن يعنى تقاعسه عن نقد الحكام بطريقة مباشرة وجهاً لوجه، كُلّما دعت الضرورة إلى ذلك. فيحكى ابن لهيعة أن يزيد بن أبى حبيب مرض، فعاده والى مصر الحوثرة بن سُهَيْل الباهلى، فسأله: يا أبا رجاء، ما تقول في الصلاة في الثوب، وفيه دم البراغيث؟ فحوّل يزيد وجهه عنه، ولم يكلمه، ثم قام، وقال له وهو ينظر إليه متعجباً: تقتل كُلَّ يوم خَلْقاً، وتسألنى عن دم البراغيث ؟![٣].

هـ- حرصه على عزة ومهابة العلم والعلماء:

لم يكن يزيد حريصاً على التردد على الولاة والحكام وذوى المناصب، ولم يكن متهافتاً مُلَبِّياً طلباتهم، وإنما كان يعرف للعلم وللعلماء حقهم. فقد روى أن زبّان بن عبد العزيز بن مروان أرسل إليه يقول له: ائتنى لأسألك عن شئ من العلم. فأرسل إليه يزيد بقوله: " بل أنت فأْتِنى؛ فإن مجيئك إلىَّ زَيْن لك، ومجيئى إليك شَيْن عليك "[٤].

٣- آثاره التاريخية:

يذكر سزكين أن يزيد بن أبى حبيب أحد قدامى مؤرخى مصر، ويذكر-كذلك-أن له

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبى ٦/ ٣٢. الضأن: ذو الصوف من الغنم. ويقال: لَحْم ضأنٍ، ولحمٌ ضأنٌ (بالإضافة، والوصف). ويقال. مِعْزَى ضِئنيّة: تألف الضأنَ. (المعجم الوسيط، مادة: ض.أ.ن) جـ١ صـ٥٥٢. أما (المَعْز)، فهو ذو الشعر من الغنم خلاف الضأن. وهو اسم جنس. واحده: ماعز والمِعْزى والمِعْزاء هو المعز. والواحدة: مِعْزاةٌ. (المرجع السابق، مادة :م.ع.ز) جـ٢ صـ٩١٢.

(٢) ولى المفضل بن فضالة قضاء مصر من قبل المهدى العباسى (١٦٨-١٦٩هـ). (الولاة والقضاة، للكندى: صـ٣٧٧-٣٨٣). ثم ولى القضاء ثانية بإقرار هارون الرشيد لتعيين الوالى داود بن يزيد بن حاتم المهلّبى له من سنة ١٧٤هـ إلى١٧٧هـ. (المصدر السابق صـ٣٨٥-٣٨٧).

(٣) تذكرة الحفاظ (ط.إحياء التراث)، للذهبى ١/ ١٣٠، وتاريخ الإسلام للذهبى ٥/ ١٨٥، وتراجم رجال روى عنهم ابن إسحاق، للذهبى صـ٨٤.

(٤) تذكرة الحفاظ: ١/ ١٣٠، وتاريخ الإسلام، للذهبى ٥/ ١٨٥.

كتاباً، يتضمن أخباراً عن فتح مصر وولاية عمرو بن العاص عليها، ولم يصل إلينا هذا الكتاب، وإنما مقتبسات منه. وبجانب هذه المادة توجد روايات عنده لها صلة بالمغازى[١]. وأعتقد أن يزيد كان له كتابان: واحد ذكره سزكين يتصل بمصر وبأخبارها، والآخر: جمع فيه أحاديث السير والمغازى؛ فالصلة بين الفتوح والمغازى جد وثيقة.

وقد أفادت مصادر تاريخية عدة من كتابَيْ يزيد هذين، فنقل عنهما ابن عبد الحكم في (فتوح مصر وأخبارها)، ومن قبله أفاد منه ابن إسحاق في (سيرته)، وابن سعد في (طبقاته) في الجزء المخصص للسيرة، ومن بعده أفاد البلاذرى منه في كل من: (أنساب الأشراف)، و(فتوح البلدان). كما أفاد من يزيد الطبريُّ في (تاريخه)، والمؤرخ الكندى في (الولاة والقضاة)، وابن حجر في (إصابته)، وابن تغرى بردى في (نجومه).

وهاكم نماذج من مروياته التاريخية، موزعة حسب الموضوعات:

أوّلاً - في تاريخ ما قبل الإسلام:

أعرض أثراً وحيداً عن (تجديد حفر زمزم)، نقله ابن كثير عن كتاب محمد بن إسحاق، الذى نقله بدوره عن يزيد بن أبى حبيب، موقوفاً على عليّ ﷺ ومفاده: أن عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ أعاد حفر زمزم، بناء على رؤيا رآها، بعد أن كان قد دُرس رسمها بعد طَمّ جُرْهُمَ لها إلى زمانه. وبعد أن حفرها خاصمته قريش في ملكيتها، وأرادت اقتسامها معه، واتفقوا على الاحتكام إلى كاهنة بأشراف الشام. وعند توجههم وسيرهم في الصحراء يبغون هذه الكاهنة، ظهرت كرامة لعبد المطلب، إذ فجّر الله ماء من تحت راحلة عبد المطلب بعد أن كاد الجمع كله يموتون ظمأ. وعند ذلك عادوا أدراجهم إلى مكة، وسلّموا له بملكيته للبئر ولم ينازعوه فيها[٢].

ثانياً - السيرة:

أ- نقل الليث بن سعد رواية عن يزيد بن أبى حبيب، الذى نقلها عن أبى بكر ابن إسحاق بن يسار (أخى محمد بن إسحاق صاحب السيرة)، حتى يصل الإسناد إلى عروة بن الزبير، عن عائشة -رضى الله عنها- ،أنهم لمّا قدموا المدينة، اشتكى أبو بكر، ومولاه عامر بن فُهيرة، وبلال. فاستأذنت عائشة في عيادتهم فأذن لها رسول الله ﷺ، فذكر كل منهم بيت شعر، يُعبّر عن الأسى والألم، ويُشم منه رائحة الحنين إلى مكة. فلمّا علم الرسول ذلك، دعا الله، أن يُحبّب إليهم المدينة كمكة، وأن يبارك

(١) تاريخ التراث العربى، لسزكين: ١/ ٥٤٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ١٥٠-١٥٣، والبداية والنهاية، لابن كثير(ط.مكتبة المعارف): ١/ ٢٤٤-٢٤٥.

في أرزاقها، ويدفع عنها الوباء[١].

ب- ويروى ابن إسحاق، عن يزيد بن أبى حبيب، أنه حدّثه أن النبى ﷺ نزل في دار أبى أيوب الأنصارى بالمدينة في الدَّوْر السفلى بها، وقد أراد أبو أيوب أن يقيم الرسول ﷺ في أعلى الدار، لكن الرسول اختار أسفله؛ لكثرة ما يغشاه من الناس. وعرضت الرواية مظاهر حرص أبى أيوب وزوجته على عدم إزعاج رسول الله ﷺ، وأنهم كانوا يأكلون فضل طعام رسول الله ﷺ، وان رسول الله قد رَدّ طعاماً قدّمه له أبو أيوب؛ لأن فيه بصلاً أو ثوماً؛ لأنه ﷺ يناجى ربه، وتلك الشجرة خبيثة. وأمرهم الرسول أن يأكلوا منها. فلم يعودوا إلى تقديم ذلك له[٢].

جـ- وبالإسناد السابق نفسه روى يزيد أحداث غزوة (ذات السلاسل)، التى قادها عمرو بن العاص، وكان تحت إمرته فيها جِلّة الصحابة السابقين، مثل: أبى بكر، وعمر، وأبى عبيدة عامر بن الجراح[٣].

د- وبالإسناد السابق - كذلك - أورد يزيد لنا نص وثيقة تاريخية (هى خطاب رسول الله ﷺ الذى أرسله مع عبد الله بن حُذافة السهمى إلى كسرى بن هرمز ملك فارس) وقد تعنّت كسرى، وأرسل - غاضباً - إلى باذان عامله باليمن، أن يأتيه بمحمد هذا. ثم جاء مبعوثان من باذان إلى الرسول ﷺ؛ لتنفيذ مهمة إحضاره إلى كسرى، فأخبرهم النبى ﷺ أن شيرويه بن كسرى قتل أباه، فعادوا إلى اليمن، وأسلم باذان ومَنْ معه، لمّا تأكدوا من صدق رسول الله ﷺ[٤].

هـ- وبالإسناد السابق نفسه روى لنا يزيد إسلام عمرو بن العاص سنة ٨هـ: فقد خرج عمرو إلى النجاشى يحاول إيذاء بعض المسلمين هناك، فضرب النجاشى عمراً، وأقنعه بدخول الإسلام، فخرج عمرو من عنده، وتوجّه إلى المدينة للقاء رسول ﷺ بعد أن علا نجم الإسلام، وارتفع. ولقى عمرو في الطريق: خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، وكانا خارجين إلى المدينة؛ لتحقيق الهدف نفسه، فتوجهوا إلى المدينة وأسلموا، واستوثق عمرو ابن العاص من رسول الله ﷺ، وطلب أن يُغفر له ما سلف، فطمأنه رسول الله ﷺ، بأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله[٥].

و- وقد نقل ابن إسحاق عن يزيد بن أبى حبيب ما يشير إلى اهتمامه بما خلّفه النبى ﷺ بعد وفاته من أفراس ومراكب، منها: أن الرسول ترك فرساً، يقال له:

(١) المصدر السابق (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٢٢٢-٢٢٣.
(٢) السابق (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٢٠١.
(٣) المعرفة والتاريخ، للفسوى ٢/ ٣٣٨-٣٣٩، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف) ٤/ ٢٧٥.
(٤) تاريخ الطبرى ٢/ ٦٥٤-٦٥٧.
(٥) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٩-٢٩١، وتاريخ الطبرى ٣/ ٢٩-٣١، وتاريخ الإسلام (القسم الخاص بالمغازى بتحقيق حمدان): ص٣٩٣-٣٩٦.

المرتجِز، وحماراً يسمى (عُفيراً)، وبغله يقال لها: دُلْدُل. هذا إلى جانب تركه ﷺ سيفه: ذا الفَقار، ودرعه ذات الفضول[١].

ثالثاً - في تاريخ الصحابة والتابعين:

كان يزيد بن أبى حبيب يبرز نوعاً من الاهتمام بحياة الصحابة والتابعين، وقد تمثّل هذا عن طريقين:

أ- من خلال ما ورد في ثنايا أحداث السيرة نفسها: مثل: روايته عن إرسال الرسول ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن؛ ليجمع صدقاتها، ويدعو الناس هناك إلى الإسلام وفرائضه[٢]. ومثل: الرواية الطويلة الممتدة عن إسلام الصحابى سلمان الفارسى، وقضاء الرسول ﷺ عنه دَيْنَه[٣].

ب- من خلال روايات منفصلة عن كتب السيرة، وصلت إلينا في ثنايا كتب التراجم: ولا أدرى ما إذا كانت هذه المرويات تمثّل بقايا مصنّف، كان له في (التراجم) أو لا. وعلى كل، فهناك بعض أمثلة على ذلك:

١- قول يزيد عن أبى تميم الجيشانى: كان من أعبد أهل مصر[٤].

٢- روى الليث بن سعد عن (يزيد بن أبى حبيب) معلومات عن الصحابى (مَعْن بن يزيد بن الأخنس)، فقال: إن معن بن يزيد، وأباه، وجده شَهِدوا بدراً[٥]. ويبدو أن يزيد بن أبى حبيب كان له اهتمام بمَنْ نزل من الصحابة مصر، مثل: معن بن يزيد، الذى نزل مصر - فعلاً - وشهد مرج راهط مع الضحّاك بن قيس سنة ٦٤هـ[٦].

٣- ما أورده يزيد، عن عبد الرحمن بن عُسَيْلة الصُّنابِحى، أنه قدم يريد النبى ﷺ؛ ليسلم على يديه، وخرج من اليمن لذلك الهدف. فلمّا كان بينه وبين المدينة خمس

(١) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٦/ ٨.

(٢) المصدر السابق: ٥/ ١٠٢.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٧٣.

(٥) وعلّق ابن حجر على هذا بأنه كلام لم يُتابَع عليه .(فهو يبدو مشكوكاً في صحته). تهذيب التهذيب، لابن حجر ١٠/ ٢٢٧.

(٦) المصدر السابق: ١٠/ ٢٢٧. وقد أوضح ابن حجر أن هذا الصحابى ترك الكوفة، ثم صار إلى مصر، ثم توجه إلى الشام، حيث شهد الوقعة المذكورة. ويبدو أنه غادر مصر سريعاً؛ إذ لم نجد له مرويات حديثية تذكر. يقول ابن كثير عن المعركة المذكورة سلفاً: إنها كانت بين الضحاك، ومروان بن الحكم (ومعه عُبيد الله ابن زياد)، وانتهت بمقتل الضحاك وهزيمة جيشه. وكان الضحاك مع الأمويين زمن معاوية، ويزيد، ومعاوية بن يزيد، لكنه انقلب عليهم، وساند ابن الزبير، ثم دعا لنفسه، ثم عاد فدعا لابن الزبير، حتى حل به ما حَلّ في منتصف ذى الحجة سنة ٦٤هـ. (البداية والنهاية، ط.الريان) ٨/ ٢٤٥-٢٤٧).

ليالٍ، لقي راكباً قادماً من ناحية المدينة، وعلم منه أن رسول الله ﷺ توفى[١].

رابعاً - في فتوح العراق، والشام في عصر الراشدين:

أ- اهتم يزيد بالنواحى المالية والتنظيمية المترتبة على الفتوح، وما يتصل بذلك من أحكام فقهية. فأورد كتاب عمر بن الخطاب ﷺ إلى سعد بن أبى وقاص يوم فتح العراق بأن يقسم الأموال والسلاح بين الناس، وأن يترك الأرضين؛ ليكون من نتاجها عطاء الناس عبر الأجيال؛ لأنها إن قسمت بين مَنْ حضر الفتوح لم يكن لمن بعدهم من شئ[٢].

ب-ونقل سعيد بن كَثير بن عُفَيْر المصرى، عن ابن لهيعة، أن يزيد بن أبى حبيب تحدث عما ذكره سفيان بن وهب الخولانى لمروان بن الحكم عن خطبة عمر بن الخطاب بالجابية[٣]، بعد أن اجتمعت الجيوش بالفئ، فأتى ليقسمها بين من اشترك من المسلمين في الفتح وأعطى كل فرد نصف دينار، ولمن له زوجة ديناراً كاملاً، علاوة عما يُصرف من غذاء شهريّاً من قسط زيت، وقسط خَلّ، وغير ذلك. ثم دعاء عمر ﷺ: اللهم لا أُحل لأحد أن ينقصها بعدى. اللهم، فمن نقصها فأنْقُص من عمره[٤].

جـ- وروى يزيد أن عقبة بن عامر بعثه أبو عبيدة بَريداً بفتح دمشق إلى عمر بن الخطاب ﷺ. قال عقبة: فقدمت على عمر بن الخطاب يوم الجمعة، فقال: منذ كم لم تنزع خُفَّيْك؟ قال: من يوم الجمعة، وهذا يوم الجمعة. فقال: أصبتَ السنّة[٥].

د- وروى الليث بن سعد، عن يزيد بن أبى حبيب، أن عمر بن الخطاب ﷺ بعث خالد بن ثابت الفهمى إلى بيت المقدس في جيش، وهو - يومئذ-بالجابية، فقاتلهم، فأعطوه على ما أحاط به حصنهم شيئاً يؤدونه، ويكون للمسلمين ما كان خارجاً، فقدم عمر بن الخطاب، فأجاز ذلك، ثم رجع إلى المدينة[٦].

هـ- أحداث وقعة ذات الصوارى[٧].

---

(١) المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٣١٤-٣١٥، ٣٦٣، والاستيعاب لابن عبد البر: القسم الأول صـ٨٤١ (رقم ١٤٣٩).

(٢) تاريخ دمشق (ط.المنجد) ١/ ٥٧٨-٥٧٩.

(٣) تنطق بالتخفيف. وأصل الجابية في اللغة: الحوض الذى يجئ فيه الماء للإبل. والجابية: قرية من أعمال دمشق.وباب الجابية بدمشق ينسب لذلك الموضع، وهو موضع خطبة عمر الشهيرة، ويقال له: جابية الجولان.(معجم البلدان، ط.صادر ٢/ ٩١).

(٤) المعرفة والتاريخ للفسوى ١/ ٤٦٤-٤٦٥. وذكر ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) صـ١١٣: أن الذى استفسر هو عبد العزيز بن مروان (ولعله هو الصواب).

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (ط. مكتبة المعارف): ٧/ ٢٤.

(٦) فتوح البلدان، للبلاذرى (ط.المنجد): ١/ ١٦٥.

(٧) المصدر السابق: ١/ ٢٦٧.

خامساً - تاريخ مصر وفتوحها:

أ- تاريخ مصر القديم:

أورد لنا ابن عبد الحكم طائفة من الروايات، التى تفيد إلمام يزيد ببعض ما يرتبط بالأحداث في مصر قبل دخول الإسلام إليها، مثل: وصية الرسول بالقبط[١]، واسم القرية التى منها هاجر[٢]، وسحرة فرعون وعددهم وقوة إيمانهم بموسى[٣]، وما قام به يوسف من اهتمام بالزراعة في مصر[٤]، وطبيعة رجال القبط واستئمارهم نساءهم[٥]، وبناء الإسكندرية عبر العصور[٦].

ب- أحداث فتوح مصر:

اهتم ابن عبد الحكم - كذلك - بإيراد عدد من الروايات المتصلة بذلك، منها: عدد جيش عمرو بن العاص[٧]، وإمدادات عمر له بقيادة الزبير[٨]، ونقض الروم الصلح مع عمرو بن العاص، واعتذار المقوقس عن ذلك[٩]، وانهزام الروم في كَوْم شَريك، وإرسال عمرو شَريك بن سُمَيّ في آثارهم[١٠]، وصلاة عمرو بن العاص بالمسلمين في حصن الكريون صلاة الخوف[١١]، وحصار عمرو الإسكندرية أشهراً، وتأخر المسلمين في فتحها، واعتبار عمر ابن الخطاب أن سر ذلك التأخر هو ما أحدثه بعض الجند من ذنوب[١٢].

جـ- إبداء الرأى في طريقة فتح مصر (صلحاً أم عنوة):

يروى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب، عن سفيان بن وهب الخولانى قال: افتتحنا مصر مع عمرو عنوة[١٣] هذا هو رأى سفيان بن وهب ينقله يزيد. ثم تَرِد رواية أخرى تبين أن المقوقس صالح عمراً على دينارين على القبط[١٤]. وزاد خليفة بن

(١) فتوح مصر وأخبارها: صـ٣.
(٢) المصدر السابق: صـ٤.
(٣) المصدر السابق: صـ١١.
(٤) المصدر السابق: صـ١٥-١٦.
(٥) السابق: صـ٢٨.
(٦) السابق: صـ٤٠.
(٧) السابق: صـ٥٦.
(٨) السابق: صـ٦١.
(٩) السابق: ٧٢-٧٣.
(١٠) السابق: صـ٧٣.
(١١) فتوح مصر وأخبارها (ط.تورى) صـ٧٤.
(١٢) السابق: صـ٧٨-٧٩.
(١٣) تاريخ خليفة بن خياط (ط.٢-١٩٧٧): صـ١٤٣، وفتوح مصر لابن عبد الحكم: ٨٨.
(١٤) تاريخ خليفة: صـ١٤٤، وفتوح مصر: صـ٧٠.

خياط: أن هرقل رفض ذلك، وأرسل الجنود، فأغلقوا الإسكندرية، فقاتلهم عمرو، وفتحها عنوة وقَسْراً، بلا عهد ولا عقد(١). ثم أعلن يزيد بن أبى حبيب رأيه: قال يزيد، ووافقه تلميذه الليث بن سعد: مصر كلها فُتحت صلحاً إلا الإسكندرية(٢).

د - العلاقة بين ولاة مصر ودار الخلافة:

١- رسالة من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص والى مصر: أن يفرض لمن شهد بيعة الرضوان ٢٠٠ دينار، وأن يفرض لنفسه مثلها لإمارته،

وكذلك لخارجة بن حذافة لشجاعته، وكذا لعثمان بن أبى العاص لضيافته(٣).

٢- نَزْع عثمان بن عفان عمرو بن العاص من خراج مصر، واستعمال عبد الله بن سعد مكانه، والتباغى والتعادى بينهما(٤).

٣- توجُّه عبد الله بن سعد في وجوه الجند إلى المدينة سنة ٣٥هـ؛ ليخبر عثمان بجذور الفتنة في مصر، وطَعْن الناس فيه، وتَكَلُّمهم عليه في مصر(٥).

٤- استيلاء محمد بن أبى حذيفة على ولاية مصر، ومَنْعه عبد الله بن سعد من دخولها(٦).

٥- دور العرب الثائرين في مصر على عثمان ﷺ، وتآمرهم على قتله، ورَدّ فعل العثمانية في مصر بقيادة معاوية بن حُديج، ومطالبتهم بدم عثمان، وانتصارهم على ابن أبى حذيفة(٧).

٦- موقف عبد الله بن سعد من الفتنة بعد مقتل عثمان ﷺ: أقام بعسقلان، وكره أن يكون مع معاوية، وقال: لم أكن لأجامع رجلاً، عرفتُ أنه كان يَهْوَى قتل عثمان. وظل في عسقلان حتى مات بها(٨).

---

(١) تاريخ خليفة: صـ١٤٤.

(٢) المصدر السابق: صـ١٤٤، وفتوح مصر صـ٨٤.

(٣) فتوح مصر: صـ١٤٥، ٢٣٠-٢٣١، وتاريخ دمشق لابن عساكر (ط.المنجد): ١٠/ ٩-١٠، وإن أورد بُسْر بن أبى أرطاة بدل خارجة في رواية، وذكر عُمير بن وهب بدل عثمان بن أبى العاص.

(٤) تاريخ الطبرى ٤/ ٢٥٦-٢٥٧.

(٥) الولاة والقضاة، للكندى: صـ١٣-١٤.

(٦) المصدر السابق: صـ١٧.

(٧) السابق: صـ١٨-١٩. وروى عبد الله بن المبارك، عن ابن لهيعة، عن يزيد ابن أبى حبيب: أن عامة الركب الذين ساروا إلى عثمان جُنُّوا. (المعجم الكبير للطبرانى ١/ ٨٨، مسند عثمان بن عفان، رقم ١٣٤، ومجمع الزوائد، كتاب (المناقب) باب (فيما كان من أمر عثمان ووفاته) ٩/ ٩٤، وقال: إسناده حسن.

(٨) المعرفة والتاريخ للفسوى ١/ ٢٥٤.

٧- علاقة عمرو مع معاوية بعد توليه الخلافة:

استكثر معاوية لمّا صار خليفة، أن تكون مصر لعمرو طعمة له ما عاش. وفى الوقت نفسه رأى عمرو أن الفضل كله يرجع إليه في التمكين لمعاوية، وكان يتطلع لضم الشام إلى ولاية مصر تحت إمرته. لكن معاوية خيّب رجاءه فاختلفا، فأصلح بينهما معاوية بن حُديج، وعُقد بينهما كتاب نَصّ على أن تكون مصر لعمرو سبع سنين مقابل السمع والطاعة للخليفة، وأشهدوا على ذلك شهوداً[١].

هـ- خِطط مصر:

تناول يزيد مكانة النيل وأهميته، وحلاوة مياهه في الآخرة[٢].وأورد كتاب (الخِطط) ليزيد حديثه عن جزر النيل[٣]، وفضائله[٤]. واهتم يزيد - كذلك - بذكر الصحابة، الذين كانت لهم خطط في مصر، مثل: الزبير بن العوام بالفسطاط[٥]. وذكر مكان إقامة هَمْدان بالجيزة[٦].

اهتم كذلك بالحديث عن خطط السلمين بالإسكندرية، فذكر أن للزبير بن العوام خطة بها. وأوضح أن المسلمين نزلوا هناك في بيوت كانت للروم، فكان يسكن الدار الفسيحة أكثر من قبيلة، فلّما عادوا إلى الفسطاط سكنها الروم، وقاموا بترميمها بعد أن ألزمهم المسلمون بذلك، وكان يزيد يقول عنها: لا يحل من كِرائها (إيجارها) شئ ولا بيعها، ولا يورَّث منها شئ؛ فهى سكنى المرابطين بالإسكندرية[٧].

و- فتوح إفريقية والنوبة:

أ- بخصوص إفريقية:

ذكر يزيدُ عقبة بن نافع وحملته عليها ٥٠هـ[٨]، ومن قبل خروج عبد الله بن سعد مع كثير من الصحابة لغزوها.

ب- بالنسبة للنوبة:

قال يزيد بن أبى حبيب: ليس بين أهل النوبة وأهل مصر عهد ولا ميثاق، بل هى هدنة أمانٍ بعضنا من بعض[٩].زاد خليفة بن خياط، والطبرى: نعطيهم شيئًا من قمح

(١) طبقات ابن سعد (ط.ليدن) ٤/ ٢/ ٥-٦.
(٢) فتوح مصر ص١٤٩-١٥٠.
(٣) الخطط، للمقريزى: ٢/ ١٧٧.
(٤) السابق: ١/ ٥٠-٥١.
(٥) فتوح مصر: ص١٤٤.
(٦) السابق: ص١٢٨.
(٧) فتح مصر: ١٣٠-١٣١.
(٨) تاريخ الطبرى: ٥/ ٢٤٠.
(٩) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم: ص١٨٨.

وعدس، ويعطوننا رقيقاً لا بد أن نشتريه منهم[(١)].

٤- الملامح العامة لمنهج يزيد بن أبى حبيب التاريخى:

١- تنوع وتشعب اهتمامات يزيد بن أبى حبيب بالفروع التاريخية المختلفة، وغزارة ما بقى من مادة تاريخية له، عرضت بعض جوانبها فيما مضى؛ مما يثبت أنه - بالفعل - نقل مدرسة مصر من مجرد الحديث عن القصص والترغيب والترهيب إلى المدرسة العلمية التاريخية، مغلّفاً إياها بالصبغة الفقهية، كما سأوضح بعد قليل.

٢- منطقية يزيد في عرض الأحداث التاريخية:

فقد بقى بين أيدينا ما يدل على اهتمامه بتاريخ أسرة الرسول ﷺ ومكانتها قبل الإسلام (من خلال ما رُوى عن تجديد عبد المطلب حفر بئر زمزم) كمدخل للحديث عن السيرة النبوية[(٢)]. ثم تناول - بعد ذلك - أحداث الفتوحات في عهد الراشدين. فالفتوحات امتداد لمغازى رسول الله ﷺ كما فعل من بعدُ الواقدى. وكان يزيد منطقيًا - كذلك - في عرضه تاريخ مصر، فأورد لنا روايات عن تاريخها القديم كمدخل للكلام على أحداث فتوحها، وتنظيماتها، ثم امتدادها إلى غزو إفريقية، وبيان صلات مصر مع النوبة.

٣- لَوّن يزيد بن أبى حبيب مدرسة مصر التاريخية بلون جديد هو لون التشريع الفقهى[(٣)]. لقد نجح يزيد في إبراز صلة التاريخ بالفقه إبرازاً حيًا، وذلك من خلال انتقائه الأحداث التاريخية ذات الدلائل الفقهية، ثم تعليقه على الحدث التاريخى المنتقى بما يفيد تشريعاً، أو فتوى فقهية؛ مما يدل على إدراكه الواعى المبكر لصلة التاريخ بالفقه، وحسن فهمه للتاريخ الإسلامى، باعتباره تاريخ التطبيق العملى للشريعة الإسلامية في كافة شئون الحياة، وإدارة أمور البلاد.

ولدىّ عدة نماذج من آثاره التاريخية تدل على ذلك الفهم، منها:

أ- حرصه في روايته حكاية أبى أيوب الأنصارى مع النبى ﷺ على إبراز الحكم الفقهى لأكل الثوم والبصل.

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: صـ١٤٤، وتاريخ الطبرى: ٤/ ١١١.

(٢) والملاحظ - من خلال ما بقى له من آثار تتعلق بالسيرة - أن كل هذه الروايات تتركز حول الفترة، التى قضاها رسول الله ﷺ بالمدينة بعد الهجرة من مكة. وقد يقال: إن ذلك ينطبق على ما ذكرت من آثار له في السيرة. والحق أن مقتبسات أخرى كثيرة عن يزيد ترتبط بأحداث المدينة كذلك. (كما ورد في البداية والنهاية) لابن كثير (ط.مكتبة المعارف) ٣/ ٢٧١ (عن غزوة بدر)، كما ورد في النصوص العديدة التى أوردها ابن سعد في (طبقاته ط.بيروت): ١/ ٢٢٤، ٤٥٥، ٤٥٩ - ٤٦٤، ٤٩٠، ٤٩١، ٢/ ٢١ (فكلها تدور حول موضوعات بعيدة عن الفترة المكية). ولا أدرى السبب وراء ذلك، فلعل آثاره عن مكة قد ضاعت.

(٣) ضحى الإسلام، لأحمد أمين ٢/ ٨٧.

ب- إبراز سؤال عمر بن الخطاب عقبةَ بن عامر وهو قادم عليه، يخبره بفتح دمشق: منذ كم لم يخلع خُفَّيْه؟ وإجابة عقبة: منذ سبعة أيام. وتعليق عمر: هذه هي السنّة.

ج- بعد حديث يزيد عن خطط المسلمين بالإسكندرية علّق تعليقاً فقهياً، فقال: إن هذه الدور في الإسكندرية، إنما هى للرباط، فلا يجوز تأجيرها، ولا بيعها، ولا توريثها.

د- وروى ابن سعد بإسناده فيما يرويه يزيد: أن عمر بن الخطاب قال: غزونا مع رسول الله ﷺ في رمضان غزوتين: يوم بدر، ويوم الفتح، فأفطرنا فيهما[1].

٤- اهتمام يزيد بالموضوعات الحضارية المرتبطة بالجزية والفئ والعطاء، وغير ذلك من التنظيمات المالية. وهو في سبيل ذلك يهتم بإيراد الوثائق التاريخية كالعهود والمواثيق بنصوصها التى وردت بها (خاصة ما يتصل بفتح مصر، ومعاهدتها مع المقوقس، وصلحها مع بلاد النوبة).

٥- استخدام الشعر في الروايات التاريخية كالأبيات، التى أوردها يزيد لأحد الشعراء[2]، يشكو إلى عمر بن الخطاب انحرافات عماله المالية، وبسبب هذه القصيدة أمر عمر بن الخطاب باقتسام أموال عماله، وعلى رأسهم: عمرو بن العاص عامله على مصر.

٦- بدت النزعة الدينية القدرية واضحة في تعليقه على أحد الأحداث التاريخية، وهو بطء فتح الإسكندرية. وإيراد يزيد تعليل عمر بن الخطاب ذلك بأن ذاك التأخير بسبب ما أحدثه الجند (أى: من المعاصى). وهذا التعليل الذى يبرزه يزيد يعبر عن طبيعة الفكر التاريخى آنذاك، إذ يُنسب كل شئ إلى سببه الأصلى (القَدَر)، ولم يكن المؤرخون يُعملون عقولهم لإدراك الأسباب المادية الأخرى، التى ترجع إليها الأحداث. فلم يصف لنا يزيد - مثلاً - صعوبة تخطى التحصينات المحكمة، التى أقامها الروم حول عاصمتهم: الإسكندرية، ولم يفصّل ضعف ونقص حصار المسلمين لها؛ مما جعل فتحها أمراً عسيراً، استلزم وقتاً ليس بالقصير.

٧- لا يبدو أثر الميول السياسية والمذهبية ليزيد في تدوينه التاريخى، ولعل ذلك يرجع إلى عدم عثورنا على نص كتابه في التاريخ ،وأنه ليس أمامنا إلا مرويات متناثرة هنا وهناك. لقد ذكر الذهبى - فيما ينقله على لسان يزيد نفسه - أن يزيد نشأ بمصر وهم علوية، يعنى :شيعة، فقلبهم يزيد عثمانية[3]. ولا يعنى هذا انحرافاً في عقيدة وفكر الرجل. فلعله كان يُهذّب من التشيع المُفرِط ويناصر معاقبة قتلة عثمان ﷺ.

(١) طبقات ابن سعد (ط.بيروت): ٢/ ٢١.
(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم: ص١٤٦-١٤٧.
(٣) تذكرة الحفاظ (ط.إحياء التراث): ١/ ١٣٠.

ولعله نجح في ذلك؛ لما له من تأثير وثقل كبير في المجتمع المصرى باعتباره محدّثاً، وفقيهاً، ومؤرخاً. لكن - وكما قلت - لا تسعفنا النصوص التاريخية برؤية أثر تلك النظرة فيما سَطّره من أحداث. وإن كنا نلمح تركيز يزيد وتفصيله لفظائع الثائرين على عثمان، وما تبع ذلك من قيامهم بحصره وقتله(١)، ثم دخولهم مصر- بعد ذلك- مرتجزين فرحين. بل اهتم بذكر مَنْ قتل عثمان من الثائرين - تحديداً - بالاسم(٢). كما اهتم بذكر تفاصيل أحداث هزيمة حزب عليّ في مصر، حتى دخول معاوية وعمرو مصر منتصريْن(٣)؛ مما يدل على عدم رضائه عن تصرف مناصرى عليّ في مصر، خاصة مَنْ كان منهم له دخل في أحداث فتنة عثمان التى انتهت بمقتله ﷺ، وعلى رأس هؤلاء: محمد بن أبى حذيفة، ومحمد ابن أبى بكر، وعبد الرحمن بن عُدَيْس البلوى.

٨- إذا كان الباحثون المعاصرون يشكون من غياب شخصيات المؤرخين الأوائل، واختفائهم وراء سرد الأحداث؛ فإن ذلك ليس على إطلاقه. فيزيد بن أبى حبيب رغم عدم بروز شخصيته بصورة كاملة، إلا أن مجرد انتقائه للأحداث التاريخية ذات الدلالات التى أوضحت جانباً منها سلفاً، إلى جانب منطقية موضوعاتها، بالإضافة إلى إصداره حكماً قاطعاً واضحاً في قضية طال الجدل حوله (لمّا صَرّح بأن مصر فُتحت صلحاً إلا الإسكندرية التى فتحت عنوة)(٤). كل ذلك يدل على قدر من وضوح الشخصية التاريخية ليزيد بن أبى حبيب، لكنه لا يتجاوز الحدود الضيقة التى تتلاءم مع تلك الفترة المبكرة.

٩- علاقات التأثير والتأثر بين يزيد بن أبى حبيب والمدارس التاريخية الأخرى:

لم تقف أستاذية يزيد عند حدود تلاميذه في مصر كابن لهيعة والليث، اللذيْن رويا عنه كثيراً من أحداث مصر وفتحها، ولم يكتف يزيد باعتماده على أستاذه أبى الخير مرثد بن عبد الله اليَزَنى في مروياته التاريخية، وإنما كانت له علاقاته الخارجية، التى أفاد من خلالها الآخرين واستفاد منهم، على النحو الآتى:

أ- صلته بالزهرى(*):

من المعلوم أن يزيد بن أبى حبيب (٥٣-١٢٨هـ)، ومحمد بن شهاب الزهرى (٥٠-

(١) تاريخ الطبرى ٤/٣٧٨، والولاة والقضاة، للكندى: ص١٨-١٩.
(٢) ذكر أن قاتله هو: نهران الأصبحى (تاريخ الطبرى ٤/ ٣٩٤).
(٣) الولاة والقضاة، للكندى: ص٢٩-٣٠.
(٤) ذكرت ذلك في آثاره التاريخية من قبل.
(*) من منجزات الزهرى التاريخية: أنه أول من دَوّن التاريخ الإسلامى بالمدينة، وجعل للسيرة مفهومها الشامل، وتناول بالكتابة عهد الراشدين، وبدايات عهد الأمويين. وكان يمحّص الروايات، ويجعلها في إسناد جمعى، بمعنى: أنه يضم عدة روايات تاريخية يوفّق بينها، ويضعُها في إسناد واحد، ما دام أصحاب هذه الروايات الذين حدّثوه قد اشتركوا جميعاً في الرواية عن شيخ معين، ويتبع ذلك

١٢٤هـ) كانا من العلماء المتعاصرين، ولكل منهما دوره الرائد والمهم في المدرسة التى رادها. وإذا كنا قد لمسنا - منذ قليل - روايات يزيد الغزيرة في فروع التاريخ المختلفة، وإنجازاته الطيبة ومنهجه القويم في مدرسة مصر التاريخية؛ فإن للزهرى المدنى اهتماماته التاريخية الكبرى. وتنصبّ اهتمامات الزهرى على (السير والمغازى). وهذا أمر طبيعى في مجتمع، كان صغاره يتعلمون المغازى كما يُعَلَّمون السورة من القرآن. وقد عَدّ الزهرى المغازى علماً، إذ قال عنه: " في علم المغازى علم الآخرة والدنيا "[١]. ولذا فقد برع فيها حتى قال عنه الطبرى[٢] : " كان مقدّماً في العلم بمغازى رسول الله ﷺ، وأخبار قريش والأنصار، وراوية لأخبار رسول الله ﷺ وأصحابه " . وبناء على ما تقدم، فإننى أتصور أن الزهرى صاحب مصنفات عديدة[٣] في فروع التاريخ الإسلامى خاصة السيرة. ومن هذه المصنفات: المغازى[٤]، ونسب قريش، وأسنان الخلفاء[٥]، ومشاهد النبى ﷺ. ومن ثم، لا يصح ما رُوى عن قُرّة بن عبد الرحمن: أنه ليس للزهرى إلا كتاب، فيه نسب قومه[٦]. هذا العلم، وتلك المصنفات، وهاتيك المعاصرة بين الزهرى ويزيد تدفعنا إلى تَوَقُّع وجود صلات بينهما، وتبادل للخبرات والمؤلفات بين هذين العالميْن، خاصة أن الزهرى لم يكن يبخل بإعارة كتبه لطلاب العلم، فهو الذى أُثِرَ عنه تحذير ليونس بن يزيد يقول فيه: "إياك وغُلولَ الكتب. قال: وما غُلولها؟ قال: حَبْسها "[٧]. أى :عن طلاب العلم.

لقد قطع العلماء بأن يزيد بن أبى حبيب لم يسمع من الزهرى شيئاً، وإنما كتب إليه الزهرى[٨]. وبناء على ذلك الإجماع كانت الصلات بينهما عن طريق المكاتبة والمراسلة. ومما يدل على ذلك نَصٌّ أورده ابن هشام[٩]، ونقله الطبرى[١٠]، فيه

= بعبارة: قالوا. وبذلك تخلّص من الإطالة الناتجة عن إيراد الروايات المتعددة ذات الأسانيد المتقاربة عن الحادث الواحد. (التاريخ العربى والمؤرخون لشاكر مصطفى ١/ ١٥٨).

(١) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٢٤٢.

(٢) المنتخب من كتاب ذيل المذيّل (اعتبره الناشر الجزء الحادى عشر من تاريخ الطبرى): ص٦٤٥.

(٣) تاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) لسزكين: ١/ ٤٥٢-٤٥٣.

(٤) ذكره حاجّ خليفة في (كشف الظنون): جـ٢ رقم ١٤٦٠.

(٥) وهو عبارة عن رسالة تاريخية كسجل زمنى، يسجل فيه عُمْرَ بعض الخلفاء، ومدة خلافتهم (نقل عنه الطبرى في تاريخه ما يخص الخليفة يزيد بن معاوية) جـ٥ ص٤٩٩.

(٦) ورد ذلك الزعم في (سير أعلام النبلاء) للذهبى: ٥/ ٣٣٣.

(٧) المصدر السابق: ٥/ ٣٣٤.

(٨) المراسيل، لابن أبى حاتم: ص٢٣٩، وجامع التحصيل، للعلائى ص٣٧٢.

(٩) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٥٥.

(١٠) تاريخه: ٢/ ٦٤٥. وقد أخطأ هوروفتس الفهم في كتابه: (المغازى الأولى ومؤلفوها ترجمة: حسين نصار) ص٨٨، عندما ظن أن الذى أرسل يستيقن من الزهرى صحة هذا الكتاب هو محمد بن إسحاق. والصحيح أنه يزيد بن أبى حبيب، وابن إسحاق ما هو إلا راوٍ للقصة، وناقل للرواية فقط.

يحدّث محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبى حبيب، أن يزيد وجد كتاباً فيه ذكر مَنْ بعثهم رسول الله ﷺ إلى البُلْدان وملوك العرب والعجم لدعوتهم إلى الإسلام، وفيه مقالة ووصية رسول الله ﷺ لهؤلاء المبعوثين حين بعثهم. قال ابن إسحاق: فبعث يزيد بن أبى حبيب به إلى محمد بن شهاب الزهرى؛ للتحقق من صحة ووثاقة هذا الكتاب قبل أن يرويه يزيد. فعرف ابن شهاب ذلك الكتابَ، وأقَرّ بما فيه. ونخلص من ذلك النص إلى ما يلى:

أ- أن العلاقة وطيدة بين عالمَىْ مصر والمدينة، وأن المراسلات بينهما متبادلة، وأن يزيد محل اهتمام الزهرى، الذى يقرأ رسائله ويرد على تساؤلاته، وما ذاك إلا اعترافاً بفضل يزيد ومكانته التاريخية، بل إن الزهرى كان يخص يزيد ببعض نصائحه الثمينة وإرشاداته القيمة بالبعد عن الجدل والمناظرات العقيمة، والدخول في متاهات التأويلات. فقد روى يزيد عن الزهرى قوله له: " لا تناظرْ بكتاب الله، ولا بكلام رسول الله ﷺ "[1].

ب- أن مدرسة المدينة كانت المعتمد والمرجع الذى تعود إليه مدرسة مصر التاريخية خاصة في مجال السيرة؛ للتحقق والتثبت من صدق بعض الأحداث.

جـ- هذا هو النص الوحيد الذى عثرت عليه، وتضمن كتابة يزيد إلى الزهرى، ورد الأخير عليه. ولعله واحد من نصوص عديدة فُقدت تثبت هذه الصلات الوثيقة.

ب- علاقته بعبد الحميد جعفر الأنصارى (٨٣-١٥٣هـ)[*]

لم تقف صلات يزيد بمدرسة المدينة التاريخية عند حدود علاقاته مع الزهرى، وإنما تعدّتها إلى غيره من العلماء كعبد الحميد بن جعفر هذا، الذى يبدو أنه قدم إلى مصر، وجمعتْه بيزيد جلسات علمية في رواية أحداث السيرة النبوية. ومن شواهد ذلك:

١- روى الواقدى عن عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه رواية تتعلق بإسلام عمرو بن العاص، وكيف أنه كان في البداية للإسلام مجانباً معانداً، وكيف أنه اشترك في غزوات: بدر، وأحد، والخندق مع المشركين. ثم إن عمراً لمّا رأى علو نجم محمد ﷺ بعد الحديبية، رأى أن يلجأ إلى النجاشى بصفة مؤقتة، ينتظر ما تُسْفِر عنه الأحداث بين المسلمين والمشركين. ثم أوردت الرواية حديث النجاشى إلى عمرو

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥/ ٣٤٣.

(*) عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله بن الحكم بن رافع بن سنان الأنصارى الأوسى. روى عن أبيه، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وسعيد المقبرى، والزهرى، ويزيد ابن أبى حبيب، وغيرهم. وروى عنه: ابن المبارك، ووكيع، وهُشَيْم، والواقدى، وابن وهب، وغيرهم. اختلف حوله العلماء، فمنهم مَنْ وثّقه، مثل: أحمد، وابن معين، وأبى حاتم. ومنهم من ضعّفه كالثورى؛ ربما لتنافس بينهما، أو لبعض خطأ وقع فيه عبد الحميد (تهذيب التهذيب: ٦/ ١٠١-١٠٢).

وإقناعه إياه، ونصحه له بأن يدخل الإسلام. ثم عاد عمرو ولقي خالداً وعثمان بن طلحة ،فخرجوا معاً إلى المدينة، وهناك أسلموا. وفي النهاية قال عمرو: إن رسول الله ﷺ ما عدل به وبخالد أحداً في أمرِ حَزَبه منذ أسلما، وأنهما كانت لهما المنزلة نفسها لدى أبى بكر وعمر، وإلا أنّ عمر كان على خالد كالعاتب. لمّا ذكر تلك الرواية عبدُ الحميد بن جعفر ليزيد ابن أبى حبيب، قال له يزيد: إن هذه الرواية نفسها موجودة لديّ، لكنها من طريق آخر: عن راشد مولى حبيب بن أبى أُويْس، عن حبيب، عن عمرو ابن العاص. وهنا سأله عبد الحميد: ألم يُوَقِّتْ لك متى قدم عمرو وخالد؟ قال يزيد: لا، إلا أنه قال: إنهما أسلما قُبيل الفتح. فردّ عليه عبد الحميد قائلاً: إن أبى أخبرنى أن عمراً، وخالداً، وعثمان بن طلحة قدموا المدينة لهلال صفر سنة ثمانٍ[(١)]. وهنا في هذه الجلسة العلمية التاريخية بدا تفوق مدرسة المدينة في دقة مروياتها، وتحديدها زمن وقوع الأحداث، كما ظهر - جليّاً - أمانة ودقة مدرسة مصر التاريخية في رواية النصوص والتوقف عندها، وعدم تحميلها ما لم تنطق به.

٢- قال الواقدى: حدّثنى عبد الحميد بن جعفر، عن يزيد بن أبى حبيب، عن عطاء بن أبى رباح قال: أسلم أبو سفيان بن حرب ،وحكيم بن حِزام، ومَخْرَمَة بن نَوْفَل قَبْلَ نسائهم، ثم قدموا على نسائهم في العِدَّة، فرَدَّهن رسول الله ﷺ بذلك النكاح. وأسلمت امرأة صفوان، وامرأة عكرمة قبل أزواجهما، ثم أسلما، فرَدّ رسول الله ﷺ نساءهم عليهم، وذلك أن إسلامهم كان في عدتهم[(٢)].

ونخرج من هذا النص بما يلى:

١- أن مدرسة مصر التاريخية - هنا - هى الرائدة والأستاذة، إذ تتلمذت عليها المدينة، ونقلت عنها هذا النص التاريخى النادر.

٢- أن الواقدى لم ينقل عن يزيد بن أبى حبيب مباشرة، وإنما نقل عنه بواسطة، هذه الواسطة - هنا - هى شخصية عبد الحميد بن جعفر[(٣)].

٣- أن موضوع هذا النص يمثّل جزئية تاريخية مبتكرة في مدرسة مصر التاريخية، تمّت على يد يزيد بن أبى حبيب، وهى تتصل بالمقارنة بين عظماء الرجال في مكة وزوجاتهم، أيهم كان أسرع إلى الإسلام، وأسبق إلى الدخول فيه، وهو مجال جديد يمكن أن يُعمق بالبحث في الأسباب والنتائج والظروف المرتبطة بذلك، سواء في

(١) المغازى، للواقدى ٢/ ٧٤١-٧٤٥، وتاريخ الإسلام (جزء المغازى بتحقيق: حمدان)، للذهبى: صـ٣٩٣-٣٩٦.

(٢) المغازى للواقدى: ٢/ ٨٥٥.

(٣) زعم الدكتور شاكر مصطفى في (التاريخ العربى والمؤرخون): ٢/ ١٥٥، أن الواقدى سمع من يزيد بن أبى حبيب. وهذا غير صحيح؛ لأن الواقدى - بكل بساطة -ولد (١٣٠هـ)، أى: بعد وفاة يزيد بن أبى حبيب (ت ١٢٨هـ) بعامين.

شخصيات هؤلاء الرجال والنساء، أم في طبيعة تلك المجتمعات؛ مما يفتح مجالات رحبة أمام الباحثين اليوم.

٤- مرة أخرى، يُغلّف يزيد بن أبى حبيب النص التاريخى بالمعلومة الفقهية، إذ يحرص على إفهام القارئ أن العلاقة بين الزوجين تَنفكّ بكفر أحدهما وإسلام الآخر، وأن رباط الزوجية يعود ثانية بطريقة تلقائية، بمجرد إسلام الطرف المشرك - دون عقد ولا مهر - ما دام قد أسلم أثناء العدة. وهكذا، يثبت لنا يزيد مرة أخرى أن ثقافته الفقهية تنضح وتنعكس على مروياته التاريخية، وكأنه يطالب المؤرخ بأن يأخذ من الفقه ما يُعينه على تفهم التاريخ.

جـ- العلاقة مع محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ) (*):

تعريف هادف به:

هو محمد بن إسحاق بن يسار بن خِيار. يكنى بأبى بكر، أو بأبى عبد الله القرشى المطَّلبى[١]، مولاهم المدنى، نزيل العراق.

وقد كان جده يسار ممن وقع في يد المسلمين من سبى عَيْن التَّمْر[٢]، وهو أول سبى يقدم المدينة. وكان جده مولى قيس بن مَخْرَمة بن عبد المطلب بن مناف[٣]. ولد ابن إسحاق سنة ٨٠هـ، وتلقى الحديث والسير والمغازى على أعلامها بالمدينة من أمثال: أبان بن عثمان بن عفان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والزهرى، وغيرهم[٤]. وبعد أن حصّل ما قُدّر له تحصيله من العلوم المدنية، خرج إلى مصر؛ لاستكمال معارفه وعلومه في وقت مبكر، فنزل الإسكندرية سنة ١١٥هـ[٥]، وروى الحديث والسير عن علماء مصر، وعلى رأسهم: يزيد بن أبى حبيب، وعُبيد الله بن أبى جعفر، وغيرهما. بل إنه انفرد عنهم بروايات وأحاديث، لم يروها عنهم غيره[٦].

(*) أركز في التعريف به على مكانته في المغازى والسير. أما اشتجار العلماء حوله محدّثاً، فذلك موضوع آخر، ليس محل تفصيله هنا.

(١) نسبة إلى (المطلب بن عبد مناف). (وفيات الأعيان لابن خلكان) ٤/ ٢٧٧ .

(٢) هى بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة، يُجلب منها التمر إلى سائر البلاد، وهى على طرف البرّيّة، وهى قرية قديمة، افتتحها المسلمون أيام أبى بكر على يد خالد ابن الوليد سنة ١٢هـ (معجم البلدان، ط.صادر) ٤/ ١٧٦، والروض المعطار، للحميرى صـ٤٢٣.

(٣) تاريخ دمشق (ط.المنجد): ١/ ٤٦٧، وسير أعلام النبلاء للذهبى: ٧/ ٣٤-٣٥.

(٤) المصدر السابق: ٧/ ٣٤، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٩/ ٣٤-٣٥.

(٥) جاء في (المصدر السابق) ٩/ ٣٩: أن ابن إسحاق قدم الإسكندرية ١٩٩هـ. وهذا خطأ فاحش، أعتقد أنه مطبعى، فابن إسحاق مات على أقصى تقدير سنة ١٥٣هـ، فكيف يأتى إلى مصر بعد وفاته بقرابة نصف قرن ؟!

(٦) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٤٧-٤٨، وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٩، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١/ ٤٦٠.

لقد رأينا في حديثنا عن آثار يزيد التاريخية أن كثيراً من مروياته في السيرة، نقلها عنه وأخذها منه محمد بن إسحاق، وذلك دليل سَبْق وريادة وأستاذية، بلغها يزيد بن أبى حبيب رائد مدرسة التاريخ العلمية في مصر الإسلامية.

أمّا بخصوص رواية يزيد بن أبى حبيب عن محمد بن إسحاق، فقد أثبتها عدد من العلماء، مثل: الذهبى[(١)]، وابن حجر[(٢)]، إذ قالا: روى عن محمد بن إسحاق من القدماء شيخه يزيد بن أبى حبيب. لكن - والحق يقال - لم أعثر - فيما بحثت عنه من آثار يزيد التاريخية - على مثال واقعى حىّ، يثبت رواية يزيد عن ابن إسحاق في مجال التاريخ فلعله نقل عنه الأحاديث النبوية. أما في رواية ما يتصل بأحداث التاريخ، فلم أجد. ولا يعد هذا طعناً في كلام الذهبى وابن حجر، فكم من كتب ومرويات ضاعت وطواها الزمان. ومما يقوى هذا التفسير ما رواه أحمد بن حنبل: أنه سمع بعض المشايخ يقولون: لمّا مات يزيد بن أبى حبيب، وجدوا عنده في كتبه: المغازى عن محمد بن إسحاق[(٣)]. بل إن المِزِّيَّ[(٤)] يذكر أن يزيد بن أبى حبيب روى - كذلك - عن أبى بكر بن إسحاق أخى محمد بن إسحاق.

وهكذا، كانت لمصر صلاتها التاريخية بمدرسة المدينة، وكان التأثير متبادلاً ومنحصراً في مجال السيرة النبوية المطهرة، وعرضت ذلك في حدود ما بين يدى من نصوص دون إفراط أو تفريط. أما بالنسبة لعلاقة يزيد التاريخية بالمدارس الأخرى كالعراق والشام واليمن، فلم أجد من النصوص ما يفيد هذه العلاقة، فلعلها كانت ضعيفة، فقدت دلائلها وشواهدها على مر الأيام.

ثانياً - عُبَيْد الله بن أبى جعفر(*):

١- حياتـه:

هو أبو بكر المصرى. أصله من سبى طرابلس الغرب، ثم دخل في ولاء بنى

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٥، ٤٢.

(٢) تهذيب التهذيب ٩/ ٣٥.

(٣) العلل ومعرفة الرجال (ط.تركيا) لابن حنبل: ٢/ ١٨٢-١٨٣.

(٤) مخطوطة تهذيب الكمال: ٣/ ١٥٣١. وكذا ذكره الذهبى في (تراجم رجال روى عنهم ابن إسحاق) ص٨٩. وقد ذكرتُ رواية - فيما مضى - رواها يزيد عن أبى بكر بن إسحاق أخى محمد بن إسحاق عن (مرض أبى بكر، وبلال، وعامر ابن فهيرة في بداية مقامهم بالمدينة بعد الهجرة).

(*) ترجم له كل من: ابن حبان في (الثقات): ٧/ ١٤٢، والمقدسى في (الجمع بين رجال الصحيحين): ١/ ٣٠٥ (رقم ١١٦٥)، والمزى في مخطوطة (تهذيب الكمال) ٢/ ٨٧٥، والذهبى فى: (الكاشف ط.دار الكتب العلمية): ٢/ ١٩٧ (رقم ٣٥٨٥)، وتذكرة الحفاظ (ط.إحياء التراث): ١/ ١٣٦ (رقم١٢٥)، وتراجم رجال روى عنهم ابن إسحاق ص٣٦-٣٨، وابن حجر فى: (تهذيب التهذيب): ٧/ ٧٦ (رقم ١٠)، وتقريب التهذيب (ط.دار المعرفة - بيروت): ١/ ٥٣١ (رقم =

كِنانة، فقيل: الكناني، أو في ولاء بني أمية على اختلاف في ذلك. وقيل: اسم أبيه يَسار، وكان مولى لعروة بن شُيَيْم الليثي(١).

ذكر ابن لهيعة وغيره أن عُبيد الله بن أبي جعفر ولد سنة ٦٠هـ(٢). وقد اختلف في سنة وفاته ما بين ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦هـ(٣) في مصر. والمهم أنه عاصر الدولة الأموية، وعلى أقصى تقدير عايش فترة من بداية الدولة العباسية.

٢- صفاتــه:

١- **زهده:** كان عالماً زاهداً عابداً(٤). وقال عنه سليمان بن داود: ما رأتْ عيناى عالماً زاهداً، إلا عُبيدَ الله بن أبي جعفر(٥).

٢- **حكمته:** نُقل عنه قوله: ما استعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله(٦). وكذا قوله: " إذا كان المرء يحدّث في مجلس فأعجبه الحديث فليمسك، وإذا كان ساكناً فأعجبه السكوت فليتحدث "(٧).

٣- **جهاده وكراماته:** ذكر عبيد الله بن أبي جعفر أنه غزا القسطنطينية، فكُسر المركب به وبمن معه، وألقاهم الموج على خشبة في البحر، وكانوا خمسة أو ستة نفر. فأنبت الله بعددهم ورقة لكل رجل منهم، فكان كل واحد يَمُصّ ورقته فتشبعه

= ١٤٣٢)، والسيوطى في (حسن المحاضرة): ١/ ٢٩٩ (رقم ٢٤)، وطبقات الحفاظ صـ٥٦ (رقم ١٢١)، وابن العماد الأصفهانى في (شذرات الذهب): ١/ ١٩٠.

(١) مخطوطة تهذيب الكمال، للمزى ٢/ ٨٧٥، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٨، وتهذيب التهذيب ٧/ ٦.

(٢) مخطوطة تهذيب الكمال، للمزى: ٢/ ٨٧٥، وتذكرة الحفاظ للذهبى ١/ ١٣٦، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٧/ ٦، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١/ ٥٥٠.

(٣) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ٢٠٢، ومخطوطة تهذيب الكمال، للمزى: ٢/ ٨٧٥، وتهذيب التهذيب لابن حجر: ٧/ ٦-٧، وتقريب التهذيب لابن حجر ١/ ٥٣١. ويلاحظ: أنه ورد في (تذكرة الحفاظ) للذهبى ١/ ١٣٦: أن عُبيد الله مات سنة ست، وقيل: اثنتين ومائة ". أى سنة ١٠٢، أو ١٠٦هـ. وهذا خطأ واضح، والصواب: ١٣٢هـ، أو ١٣٦هـ. وذكر ابن العماد الأصفهانى في (شذرات الذهب) ١/ ١٩٠ ما يلى: توفى عُبيد الله بن أبي جعفر ١٣٢هـ، قتل (هكذا !) في ذى الحجة بمصر. ولا شك أنه يوجد تصحيف في لفظة (قُتل)، فلعل الصواب: قيل؛ إذ لم يَرِد ذكر لقتله في أى مصدر آخر.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٩، وتذكرة الحفاظ للذهبى ١/ ١٣٦.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٩، وتذكرة الحفاظ للذهبى ١/ ١٣٦.

(٦) مخطوطة تهذيب الكمال للمزى ٢/ ٨٧٥، وتراجم رجال روى عنهم ابن إسحاق، للذهبى صـ٣٨، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٩.

(٧) مخطوطة تهذيب الكمال، للمزى ٢/ ٨٧٥. وذكر ابن العماد الأصفهانى في (شذرات الذهب): ١/ ١٩٠ ذلك، نقلاً عن ابن ناصر الدين. وقد رجعت إلى كتاب ابن ناصر الدين الدمشقى المسمى بـ(الإعلام)، فلم أجد ذلك القول به.

وترويه، فإذا أمسوا أنبت الله لهم مكانها ورقة أخرى[١]. وزاد المزى، وابن حجر: حتى مَرّ بنا مركب، فحملَنا[٢]. ولا حرج على فضل الله، فهو يرزق من يشاء بغير حساب.

٣- آثاره التاريخية:

ذكر سزكين[٣] أن هناك مقتبسات عديدة من كتابه: (تاريخ مصر)، وصلت إلينا عند ابن إسحاق، وابن عبد الحكم، والكندى. والحقيقة أننى لم أجد في (سيرة ابن هشام) من نصوص ترجع إلى عُبيد الله، ولكنى جمعت من (فتوح مصر) لابن عبد الحكم، وجامع ابن وهب، والولاة والقضاة، للكندى، والنجوم الزهرة لابن تغرى بردى ما عثرت عليه من روايات، تمثل خطوطاً عامة لبقايا كتب عبيد الله في محاولة؛ لاستخلاص اتجاهات عامة له بقدر الإمكان.

١- مروياته في تاريخ مصر:

أ- نقل ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبى جعفر قدوم عمر بن الخطاب إلى الجابية، وخلو عمرو بن العاص به، وطلبه أن يأذن له بفتح مصر بعد أن أغراه بها، فوصف له قوتها، وغناها للمسلمين. وما زال عمرو بعمر بن الخطاب يزيل تردده حتى وافق على ذلك الفتح، وعقد لعمرو على ٣٥٠٠ رجل إلى أربعة آلاف[٤].

ب- ونقل ابن لهيعة - أيضاً - عن عبيد الله حصار عمرو بن العاص حصن بابليون، وقتاله الروم بشدة، وطلبه المدد من عمر بن الخطاب ﷺ لمّا أبطأ الفتح عليهم. فأمده عمر بأربعة آلاف، على رأسهم: المقداد بن الأسود، وعبادة ابن الصامت، والزبير بن العوام، وخارجة بن حذافة. وأعلم عمراً أن هؤلاء الأربعة الواحد منهم يساوى ألف رجل، وأن ١٢ ألفاً لا يُغلبون عن قلة[٥].

ج - حدّث يحيى بن أيوب عن عُبيد الله بن أبى جعفر، وغيره: أن عمراً كان تاجراً في الجاهلية، يأتى بالأدَم والعِطْر؛ ليتاجر فيها بمصر. فقدم مرة إلى الإسكندرية، وكانوا في عيد يلعبون، ويمرحون، ويجتمعون. فكانوا يقذفون بكرة، صنعها لهم حكماؤهم، وكانت إذا وقعت في حِجْر أحد، كان ذلك إرهاصاً بولاية حكم مصر. فسقطت الكرة في حِجْر عمرو، فاعتقدوا أنها أخطأت السبيل. ومرت الأيام، وفتح المسلمون الشام، واستأذن عمرو في فتح مصر، وأغرى بها عمر بن الخطاب؛ لضعفها، ومعرفته بطرقها وكثرة أموالها. وتردد عمر في الإقدام على جموع الروم بها،

(١) تراجم رجال روى عنهم ابن إسحاق للذهبى ص٣٧-٣٨، وسير أعلام النبلاء٦/ ٩.

(٢) مخطوطة تهذيب الكمال للمزى: ٢/ ٨٧٥، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٧/ ٦.

(٣) تاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) ١/ ٥٥٠.

(٤) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ص٥٥-٥٦.

(٥) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص٦٠-٦١.

لكن عمراً هوّن عليه الأمر. وتسلّل عمرو بأصحابه ليلاً، فبعث إليه عمر: كن قريباً مني، حتى أستخير الله. وكان ذلك سنة ١٩هـ(١).

د- كان عُبيد الله بن أبى جعفر يهتم بالسؤال، ويتحرى للاستيثاق من كيفية فتح مصر: أكان بعهد أم بغير عهد؟ قال عُبيد الله: حدثنى رجل ممن أدرك عمراً، قال: للقبط عهد عند فلان، وعهد عند فلان، فسمّى ثلاثة نفر. وفى رواية: أن عهد أهل مصر كان لدى كبرائهم(٢).

هـ- يبدوا أن لعبيد الله اهتماماً بأمر الوثائق التاريخية، فأورد خطاب عمر إلى عمرو، يعيب عليه فيه إبطاءه في إرسال الخراج، ورَدّ عمرو عليه(٣).

و- وأورد لنا الكندى حواراً، نقله إلينا عبيد الله بن أبى جعفر، دار بين مروان ابن الحكم وعابس بن سعيد، سأله فيه مروان - وعابس بن سعيد على قضاء مصر - عن مدى علمه بالفرائض، وهل جمع (حفظ) القرآن؟ فأجاب عابس بالنفى. فسأله مروان: كيف تقضى ؟! قال: ما علمتُه قضيتُ به، وما جهلتُه سألت عنه. قال له مروان: اقضِ بهذا. ثم إن مروان سأله عن شئ في الفرائض، وشئ من الطلاق، وشئ من القرآن، فأصاب. فعجب مروان من ذلك، وكيف أن المؤمن يهضم نفسه. قال عبيد الله بن أبى جعفر: فسألت حنش ابن عبد الله الصنعانى: كيف جُعل قاضياً، وهو أعرابى مَدَرىّ؟ قال: جالس عقبة بن عامر، وابن عمرو حتى استفرغ وعاءهما. ثم أقرّه عبد العزيز بن مروان على القضاء والشُّرَط، ثم استخلفه حين خرج إلى الشام(٤).

٣- مروياته في أحداث الفتنة، وموقف الصحابة منها:

حدّث ابن لهيعة، عن عُبيد الله بن أبى جعفر، عن بُكير بن عبد الله بن الأشجّ، أن سعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل لزما بيوتهما بالعَقيق، فلم يكونا يأتيان المدينة لجمعة ولا غيرها، حتى ماتا(٥).

٤- الملامح العامة لمنهجه التاريخى:

أ- يلاحظ - في البداية - أنه على الرغم من أن عبيد الله بن أبى جعفر روى عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل(٦)، وهو له اهتمامات كبيرة بالسيرة النبوية،

(١) الولاة والقضاة للكندى: صـ٦-٧.

(٢) النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى: ١٩/١، وورد كذلك في (فتوح مصر) لابن عبد الحكم: صـ ٨٥.

(٣) فتوح مصر: صـ١٦٠-١٦١.

(٤) الولاة والقضاة: صـ٣١٢-٣١٣.

(٥) الجامع في الحديث لابن وهب صـ ٦٣. والعَقيق تجمع على أَعِقَّة، وهى أودية عادية شَقّتها السيول. وهذا العقيق: وادٍ بناحية المدينة، فيه عيون ونخيل. (معجم البلدان، ط.صادر ١٣٨/٤-١٣٩).

(٦) ذكر ذلك المزى في (مخطوطة تهذيب الكمال) ٨٧٥/٢.

إلا أننا لم نعثر له على أى أثر تاريخى فيها، ولا في تاريخ ما قبل الإسلام، ولا في تاريخ الفتوحات الإسلامية. ولعله كانت له روايات في ذلك الشأن، لكن عدم اشتهاره من جهة، وفقدان كثير من مروياته من جهة أخرى، واقتصار اهتمامه على فتوح مصر وتاريخها من جهة ثالثة، جعلنا نفتقد آثاره التاريخية في الموضوعات الأخرى(١)، إلى جانب غلبة الفقه عليه كما رأينا (فى فصل الفقه)، وسنرى بعد قليل في ملمح منهجى آخر.

ب- أن عُبيد الله بن أبى جعفر غلبت عليه الصبغة الفقهية، حتى على ما أورد من نصوص تاريخية، كاهتمامه بالعهود والمواثيق، ومقاييس تولى منصب القضاء(٢) كجانب فقهى حضارى اهتم به عبيد الله؛ لبيان أسسه وأصوله في مصر؛ مما يدل على أن التاريخ لديه ليس مجرد سرد وقصص وحكايات.

جـ- دقة عبيد الله وتحريه الروايات الموثّقة الصحيحة في التاريخ، فقد ابتعد عن القصص الخيالية، وذلك واضح في قضية إذن عمر لعمرو بفتح مصر، ولجأ إلى حجج منطقية عقلية، تبين سر إقدام المسلمين على فتحها ،ثم إنه لمّا ذكر عمراً في مصر في الجاهلية، لم يذكر حكايته مع الشمّاس(٣). أما ذكره الكرةَ، فيمكن تصديق قضيتها؛ لشيوع السحر والخرافات والطلاسم في مصر عامة قديماً، وفى الإسكندرية على وجه الخصوص(٤). ونبعت وثاقه عُبيد الله-كذلك- من اعتماده على الوثائق، وعودته إلى العهود المكتوبة؛ ليدعم بها الرواية التاريخية، مثل: (عهود فتح مصر مع القبط)، و(خطاب عمر إلى عمرو بشأن الخراج).

---

(١) حتى مروياته في الأحاديث، كما أوردها ابن عبد الحكم قليلة، وتدور حول خطورة منصب الإمارة، وجزاء الشهيد (فتوح مصر: ٢٧١، ٢٨٥). وكأنها انعكاس لشخصيته الزاهدة العابدة.

(٢) وقد أورد له الكندى فتاوى وأحكاماً قضائية رواها، وآراء فقهية في (الولاة والقضاة) صـ٣١٧-٣١٨، ٣٣٣-٣٣٥.

(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم: صـ٥٣-٥٤.

(٤) لأن الإسكندرية كانت مركز التقاء الحضارات المتباينة المتعاقبة على مصر عبر القرون، ففيها جامعات عدة درست الفلسفة، والطب، والرياضيات، والفلك، والتنجيم، والسحر، وغير ذلك من علوم اليونان، ثم اختلطت بعلوم اللاهوت المسيحية بعد دخول المسيحية إلى مصر.

الباب الرابع

المدرسة المصرية التاريخية

في القرن الثاني الهجري

(مرحلة الانطلاق)

الفصل الأول

المؤرخ المصرى
عبد الله بن لهيعة الحضرمى

عبد الله بن لَهيعة(*):

١- الاسم، والكُنْيَة، واللقب:

هو أبو عبد الرحمن، عبد الله بن لَهِيعة(١) بن عُقْبة(٢) بن فُرْعان(٣) بن ربيعة بن

(*) اعتمدت في ترجمتى له مؤرخاً على المصادر والمراجع الآتية مرتبة ترتيباً زمنياً على النحو الآتى: طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ٢٠٤، والتاريخ لابن معين ٢/ ٣٢٧، وطبقات خليفة صـ٢٩٦، وتاريخ خليفة (ط٢-/ ١٩٧٧): صـ٤٤٩، والتاريخ الكبير للبخارى ٥/ ١٨٢-١٨٣ (رقم ٥٧٤)، والتاريخ الصغير للبخارى ٢/ ٢٠٧، والضعفاء الصغير للبخارى صـ٦٦ (رقم ١٩٠)، والمعارف لابن قتيبة صـ٥٠٥، والمعرفة والتاريخ للفَسَوى ٢/ ١٨٤، ٤٣٤-٤٤١، وتاريخ أبى زُرْعَة الدمشقى ١/ ٢٧٧، والضعفاء والمتروكين، للنسائى صـ١٥٣ (رقم ٣٦٣)، والولاة والقضاة، للكندى صـ٣٦٨، والضعفاء والمتروكين للدارقطنى صـ٢٦٥ (رقم ٣٢٢)، والسابق واللاحق، للخطيب البغدادى صـ٢٥١ (رقم ٩٨)، والإكمال لابن ماكولا ٧/ ٥٩، والجمع بين رجال الصحيحين، للمقدسى ١/ ٢٧٨ (رقم ١٠٣٧)، والأنساب للسمعانى ١/ ٣٠٤ (رقم ٢٠٠)، ١٠/ ٦-٨ (رقم ٢٨٦٢)، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى، القسم الأول، الجزء الأول صـ٢٨٣-٢٨٤، ولسان العرب لابن منظور مادة (ل.هـ.ع) ٥/ ٤٠٨٧، وتهذيب الكمال للمزى ١٥/ ٤٨٧ (رقم ٣٥١٣)، وميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٤٧٥ (رقم ٤٥٣٠)، والمشتبه للذهبى صـ٥٠٦، والمغنى في الضعفاء، للذهبى صـ٣٥٢ (رقم ٣٣١٧)، وتذكرة الحفاظ للذهبى (ط.دار إحياء التراث العربى) ١/ ٢٣٧ (رقم ٢٢٤)، والعبر للذهبى ١/ ٢٠٤ (رقم ١٧٤)، والمعين للذهبى صـ٦١ (رقم ٥٩٦)، وديوان الضعفاء، للذهبى صـ١٧٥ (رقم ٢٢٧٤)، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١١-٣١، ومرآة الجنان لليافعى ١/ ٣٦٨، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٥/ ٣٢٧-٣٣١ (رقم ٦٤٨)، وتقريب التهذيب لابن حجر: ١/ ٤٤٤ (رقم ٥٧٤)، ولسان الميزان لابن حجر ٧/ ٢٦٨ (رقم ٣٦٠٤)، وتبصير المنتبه لابن حجر ٣/ ١٥٧٥، وطبقات المدلسين لابن حجر صـ٨٣ (رقم١٢)، ورفع الإصر، لابن حجر (القسم الثانى): صـ٢٨٧، والنجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى ٢/ ٧٧، وطبقات الحفاظ للسيوطى صـ١٠١ (رقم ٢٢٣)، حسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٣٠١، ٢/ ١٤١، وشذرات الذهب لابن العماد =

ثَوْبان الحضرمى[(١)] الأُعْدُولى[(٢)]. ويقال: الغافقى من[(٣)] أنفسهم، المصرى[(٤)]. ومعنى ما تقدم من نسبة أنه عربى يمنى من حضرموت أصلاً، وبالتحديد هو من بطن من بطونها يُسمى: أُعْدُول، أو من بطن آخر يعرف بـ (غافق). فهو عالم عربى الأصل والمولد والنشأة والمَرْبَى واللغة والثقافة. فهو ليس من الموالى، وبعد ذلك كله ينسب إلى مصر[(٥)]، التى ولد، وعاش، ومات بها.

٢- حياته، وأسرته:

أ- ولد عبد الله بن لهيعة سنة ٩٥ أو ٩٦هـ، وطلب العلم صبيّاً[(٦)] ولقى كبار العلماء في مصر والشام والحجاز، سواء داخل مصر أم خارجها أثناء موسم الحج. ومن هنا

= الأصفهانى ١/ ٢٨٣-٢٨٤، ونسيم الرياض للخفاجى ٢/ ٣٦٦، والتاج المُكلّل للقِنَّوْجى صـ٥٨-٥٩ (رقم ٣٨)، ودائرة معارف الأعلمى ٢١/ ٢٢٤، ٢٥/ ٣١٦، والأعلام للزركلى ٤/ ١١٥، وتاريخ التراث العربى، لسزكين ١/ ١٣٦، والمحدّثون في مصر، لأحمد عمر هاشم صـ٧٩.

(١) هكذا بوزن (عَظِيمة)، وأخطأ مَنْ قالها بالتصغير. وهناك رأيان حول أصلها اللغوى: ١- مشتقة من (اللَّهَع)، وهو التفيهق في الكلام (التظاهر بالفصاحة). ويقال: في فلان لَهِيعة: إذا كان فيه فتور وكسل .ورجل فيه لَهيعة ولَهَاعة أى: غفلة.
٢- أصله من (الهَلَع)، لكن اسم (لهيعة) اشتق من مقلوب هو (اللهع). (لسان العرب: مادة ل.هـ.ع) ٥/ ٤٠٨٧، و(رفع الإصر عن قضاة مصر) لابن حجر (القسم الثانى صـ٢٩٢). وقد أخطأ الخفاجى في (نسيم الرياض) ٢/ ٣٦٦ لمّا سماه: عبد بن أبى لهيعة.

(٢) أحياناً ينسبه البعض إلى جده (فيقال: عبد الله بن عقبة). ذكر ابن حجر في (رفع الإصر)، القسم الثانى صـ٢٨٨، وسماه ابن سعد في (الطبقات ط. ليدن) ٧/ ٢/ ٢٠٤: عبد الله بن عقبة بن لهيعة. وهذا خطأ، والصواب ما ذكرته بالمتن.

(٣) هكذا بالضم (ذكره ابن ماكولا في الإكمال ٧/ ٥٩، وابن حجر في تبصير المنتبه ٣/ ١٠٧٥). ويلاحظ خطأ ابن خلكان، لمّا وضع مكان (فُزعان) كلمة لهيعة، وذلك في (وفيات الأعيان ٣/ ٣٨).

(١) نسبة إلى حضرموت من أقصى بلاد اليمن (المصدر السابق ٣/ ٣٩).
(٢) نسبة إلى بطن من الحضارمة يسمى (أُعْدول). (الأنساب للسمعانى ١/ ٣٠٤).
(٣) نسبة إلى غافق، ولعلها من بطون حضرموت كذلك (المصدر السابق: ١٠/ ٦) .
(٤) ذكر الفسوى في (المعرفة والتاريخ) ٢/ ١٨٣: أنه من علماء البصرة، ولقّبه بالبصرى بدل (المصرى)، وهو تحريف وقع النسائى فيه كذلك فى: (الضعفاء والمتروكين) للنسائى صـ١٥٣، ولعله خطأ من الناسخ. فابن لهيعة قضى حياته كلها في مصر؛ فمن حقه أن يُنسب إلى مصر. وقد ذكر النووى قولاً لابن المبارك وغيره يقولون فيه :إذا أقام الإنسان في بلد أربع سنين، نُسب إليه. (تهذيب الأسماء واللغات جـ١ قسم ١ صـ١٤).
(٥) وكان ابن لهيعة مُسجّلاً بها في الديوان ضمن مَنْ ينتسب إلى حضرموت، وممن دُعى به سنة ١٢٦هـ، في أربعين من العطاء (الأنساب للسمعانى ١/ ٣٠٤).
(٦) سير أعلام النبلاء: ٨/ ١٢. وذكر ابن حجر في (رفع الإصر)، القسم الثانى، صـ٢٨٧: أنه ولد ٩٦هـ، أو ٩٧هـ؛ إذ جعل مولده بعد الليث بنحو سنتين أو ثلاث. وقد ولد الليث ٩٤هـ.

جمع علماً غزيراً متنوعاً، ومرويات كثيرة في علوم شتى كالحديث، والفقه، والتاريخ.

ب- لمَّا كانت أسرة ابن لهيعة يمنية الأصل، كريمة المَحْتِد، كان لها من المكانة، والوجاهة والمنزلة الاجتماعية في مصر الشئ الكثير. لقد أدرك الخلفاء ما للأكْفاء من أهل اليمن من أمانة وحكمة في سياسة الأمور، حتى إن معاوية بن أبى سفيان أرسل كتاباً إلى واليه على مصر الصحابى مسلمة بن مخلد (٤٧-٦٢هـ) قائلاً له فيه: " لا تُوَلّ عملك إلا أزديًا أو حضرميًا؛ فإنهم أهل الأمانة "[١]. ومن هنا نتوقع أن يكون لأسرة ابن لهيعة وجودها البارز، وإسهامها الواضح في شئون مصر علميًا وسياسيًا .ونرصد ذلك كما يلى:

١- والده (لهيعة بن عقبة): [*] كان من المحدّثين المهتمين برواية أحاديث رسول الله ﷺ، وروايات التاريخ. وتتلمذ عليه مؤرخ مصر العظيم: يزيد بن أبى حبيب. وتتلمذ هو على يد سفيان بن وهب الخولانى. ووثّقه عدد من العلماء، وكان من الشهود الذين يُعتد بهم أمام القضاء[٢] ؛ لِمَا له من مكانة سامية، وسمعة طيبة، ونزاهة لا يتطرق إليها شك. توفى سنة ١٠٠هـ[٣] .

٢- عمه عَيّاش بن عقبة: وكان شيخاً صدوقاً، له مروياته في الحديث والتاريخ. وهو ممن تتلمذ عليهم عبد الله بن المبارك، وابن وهب[٤].

٣- أما مؤرخنا ابن لهيعة، فقد كانت صلته بأستاذه محدّث مصر وفقيهها ومؤرخها يزيد بن أبى حبيب صلة جد وثيقة، وكان من الملازمين له الآخذين عنه. ويبدو أن يزيد رأى في تلميذه ابن لهيعة مخايل النجابة والذكاء والفطنة، وحضور البديهة، وحب العدل والإنصاف، وغزارة العلم والفقه، وحفظ أخبار القضاة وتاريخهم، فتنبّأ له بأنه سيلى منصب القضاء في مصر قائلاً له: كأنى بك قد قعدتَ على الوِسادة (أى: وسادة القضاء). فما مات ابن لهيعة حتى ولى القضاء[٥]. ولاّه الخليفة المنصور قضاء مصر مستهل سنة ١٥٥هـ، وكان أول قاضٍ يلى ذلك في مصر من قِبَل الخليفة مباشرة (لا من قِبَل الوالى)، وأجرى عليه المنصور راتباً عالياً، بلغ ثلاثين ديناراً شهريًا[٦] .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم: صـ١٢٥، والولاة والقضاة، للكندى: صـ٤٢٦.

(*) ترجم له: الذهبى في (سير أعلام النبلاء) ٦/ ٣١، والكاشف (ط.دار الكتب العلمية): ٣/ ١٢ (رقم ٤٧٥٩)، وابن حجر في (لسان الميزان) ٧/ ٣٤٧.

(٢) الولاة والقضاة، للكندى: ٣٣٣.

(٣) الكاشف للذهبى (ط.دار الكتب العلمية) ٣/ ١٢، والأنساب للسمعانى ١/ ٣٠٥.

(٤) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم مج٣ قسم ٢ صـ٥-٦.

(٥) الولاة والقضاة، للكندى صـ٣٧٠، وعنه نقل ابن حجر في (رفع الإصر)، القسم الثانى صـ٢٩١، والأنساب للسمعانى ١/ ٣٠٤.

(٦) فتوح مصر، لابن عبد الحكم: صـ٢٤٤، والولاة والقضاة للكندى: صـ٣٦٨-٣٦٩، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٣٨-٣٩، وحسن المحاضرة (فى قضاة مصر) للسيوطى ٢/ ١٤١، ورفع =

وقام ابن لهيعة بعمل متميز وجديد أثناء ولاية قضاء مصر؛ إذ كان أوّل قاضٍ حضر لنظر هلال رمضان، وتابعه عليه القضاة من بعده[١]. وكان السبب في ذلك الصَنيع أن الناس خرجوا لطلب الهلال فلم يُرَ. وأتى رجلان فزعما رؤيتهما له، وأرسلهما الوالى موسى بن عُلَيّ بن رَباحٍ إلى القاضى ابن لهيعة، فسأله عن عدالتهما، فلم يُعرفا واختلف الناس حولهما، وشَكوا فيهما. فلمّا كان العام القابل، خرج ابن لهيعة في نفر من صُلَحاء أهل المسجد لطلب الهلال، فكانوا يطلبونه بالجيزة[٢].

وقد بقى ابن لهيعة في منصب القضاء مدة تتراوح ما بين المحرم سنة ١٥٥هـ إلى ربيع الآخر سنة ١٦٤هـ حين صرف عنه منصبه[٣]. ولم يكن صرفه عن القضاء نهايةً المطاف لمكانته في المجتمع، وتأثيره في قضاياه المهمة، بل ظل حتى وفاته محلاً للسؤال عن أحد القضاة المصريين: أيبقى في منصبه أم يعزل؟. فقد أراد صاحب البريد يزيد بن عمران الطائى أن يشفع إلى القاضى عبد الملك بن محمد الحَزْمى (١٧٠-١٧٤هـ) في أحد الخصوم، فنهره القاضى بشدة وسخر منه، فما كان من صاحب البريد إلا أن كتب يستعدى هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) على القاضى، زاعماً أن الناس تشكو منه. فأرسل الرشيد إلى والى مصر داود بن يزيد بن حاتم أن يوقف القاضى للناس، فأثنوا عليه خيراً، وكان ممن شهد له بالخير مؤرخنا وقاضينا عبد الله ابن لهيعة[٤].

٣- مرض ابن لهيعة، ووفاته:

ذكر عثمان بن صالح أنه أعلم بعلة ابن لهيعة ومرضه من غيره، فيقول: أقبلتُ أنا وعثمان بن عتيق بعد صلاة الجمعة، فرأيناه أمامنا راكباً على حمار يبغى منزله، فأُفْلِج (أى: أصابه شلل)، وسقط، فبدرنى ابن عتيق إليه، فأجلسه، وذهبنا به إلى بيته[٥]. ويبدو أنه ظل طريح فراشه فترة، حتى وافته منيته في الخامس من شهر جُمَادَى الآخرة

= الإصر لابن حجر (القسم الثانى) صـ٢٩٢.

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٣٨.

(٢) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٣٧٠، ورفع الإصر (القسم الثانى) لابن حجر: صـ٢٩٢.

(٣) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٣٧٠ (وعَدّها الكندى عشر سنوات)، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٣٨: وذكر أن ابن لهيعة صُرف في ربيع الأول ١٦٤هـ. وذكر الذهبى في (سير أعلام النبلاء) ٨/ ٢٦: أن المنصور ولاّه القضاء ٩شهور، وذكر صـ١٤: أنه ولى القضاء دون السنة، وصُرف. وكذا قال في (تذكرة الحفاظ، ط.إحياء التراث): ١/ ٢٣٩. ولم يحدد السيوطى الشهر الذى عُزل فيه (حسن المحاضرة ٢/ ١٤١). وأرى أن كلام الكندى هو الصواب، وإن لم يكن دقيقاً في حساب مدة ولايته، فهى تسع سنوات، وثلاثة أشهر.

(٤) الولاة والقضاة: صـ٣٨٤.

(٥) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٤-٢٥، وميزان الاعتدال، للذهبى ٢/ ٤٧٦، وفيه زاد: وكان ذلك أول سبب علته.

سنة ١٧٤هـ في خلافة هارون الرشيد[١].

وصلّى عليه داود بن يزيد الوالى المصرى، ودُفن بالقَرافة[٢] من جَبّانة مصر، وقبره معروف بها يُقصد للزيارة[٣].

٤- النابهون من أسرة ابن لهيعة بعده:

١- أخوه عيسى بن لهيعة[٤].

---

(١) اختلفت المراجع حول تاريخ وفاته، وفى أى شهر كانت، وحول مقدار عمره الذى عاشه كالآتى:
١- فريق ذكر وفاته ولم يحدد في أى شهر كانت: تاريخ خليفة بن خياط (ط٢-١٩٧٧) صـ٤٤٩: توفى ١٧٤هـ. وكذلك في (طبقاته) صـ٢٩٦، و(التاريخ الكبير) للبخارى ٥/ ١٨٣: ت ١٧٤هـ، وكذلك في (المعارف) لابن قتيبة صـ٥٠٥، وتاريخ أبى زُرعة الدمشقى ١/ ٢٧٧، ومرآة الجنان لليافعى: ١/ ٣٦٨، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى: ٢/ ٧٧ .وذكر الزِّرِكْلى في (الأعلام): ٤/ ١١٥: ولد ٩٧، وتوفى ١٧٤هـ (٧١٥-٧٩٠م) بالقاهرة. وبالطبع لم تكن هناك قاهرة أيامها، والصواب: الفسطاط.
٢- وفريق آخر اختلف حول شهر وفاته وسنتها، ومقدار عمره: طبقات ابن سعد (ط.ليدن) ٧/ ٢/ ٢٠٤: منتصف ربيع الأول ١٧٤هـ، في خلافة الرشيد. ووافقه ابن خلكان في (وفيات الأعيان): ٣/ ٣٩، وإن لم يذكر خلافة الرشيد، وذكر احتمالاً آخر أن يكون توفى ١٧٠هـ، عن ٨١ سنة. وذكر الكندى في (الولاة والقضاة) صـ١٣٤: توفى ٥ من جمادى الآخرة ١٧٤هـ. وعنه نقل ابن حجر في (رفع الإصر)، القسم الثانى: صـ٢٩٢، وذكر صـ٢٩٣: أن الذى جزم بتحديد شهر الوفاة الكندى. وهذا صحيح. وحدد ابن حجر عُمْرَ ابن لهيعة في (التقريب) ١/ ٤٤٤ بأنه: ناف على الثمانين (ت ١٧٤هـ). وقال ابن ماكولا في (الإكمال) ٧/ ٥٩: ولد ٩٧هـ، وتوفى منتصف ربيع الأول ١٧٤هـ. وذكر الذهبى في (سير أعلام النبلاء) ٨/ ٣١: ولد ٩٦هـ، وعاش ٧٨ سنة، وتوفى ١٧٤هـ.وأخطأ السيوطى فى(حسن المحاضرة): ١/ ٣٠١،لمّا جعل وفاة ابن لهيعة في منتصف ربيع الأول ١٦٤هـ.والخلاصة: ما ذكره الكندى في كتابه،وابن العماد الأصفهانى فى(شذرات الذهب)١/ ٢٨٣: توفى ابن لهيعة في جمادى الآخرة ١٧٤هـ. ويؤيد صحة ذلك صورة لشاهد قبر ابن لهيعة محفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة (متحف الفن الإسلامى الآن)، وأوردتها الدكتورة سيدة كاشف في شكل ١٣ من كتابها: (مصر في فجر الإسلام، ط١-١٩٤٧م) صـ٣١٩. وقد كتب عليها ما نصه: " بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما يشهد به عبد الله بن لهيعة الحضرمى، أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور. على ذلك حَيِىَ، وعليه مات، وعليه يُبعث إن شاء الله. رحمة الله ومغفرته عليه. وكُتب في جمادى الآخرة سنة ١٧٤هـ ".

(٢) بطن من المعافر سكنوا هذه المنطقة عند جبل المقطم، فلمّا رحلوا عنها سميت باسمهم (الأنساب للسمعانى ١٠/ ٣٦١-٣٦٢، والكواكب السيّارة لابن الزيات صـ١٧٩).

(٣) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢/ ٧٧.

(٤) روى عن عكرمة. روى عنه ابن لهيعة، وغيره. فهو عالم بالرواية والحديث والأخبار، ولعله شارك في الصراعات السياسية في عصره. وتوفى سنة ١٤٥هـ في شهر شوال، إثر سهم أصابه ليلة ثورة العلوى خالد بن سعيد بن ربيعة بن حُبيش الصدفى بمصر (ت ١٦٠هـ). (الولاة والقضاة، للكندى: صـ١١١-١١٤، والثقات لابن حبان ٧/ ٢٣٤، والأنساب للسمعانى ١/ ٣٠٥).

٢- ابن أخيه لهيعة بن عيسى بن لهيعة[١].

٣- حفيده أحمد بن عيسى بن عبد الله بن لهيعة[٢].

٤- ابن ابن أخيه: عيسى بن لهيعة بن عيسى بن لهيعة[٣].

٥- ابن ابن أخ آخر: عياش بن لهيعة بن عيسى بن لهيعة[٤].

٥- آثاره التاريخية:

فُقدت مؤلفات ابن لهيعة، ولم يبق منها سوى مرويات متناثرة في ثنايا كتب الحديث والتاريخ، منها ما يلي:

أولاً - في تاريخ ما قبل الإسلام:

١- حدّث ابن لهيعة، عن يزيد بحديث يصل إلى ابن عمرو مرفوعاً: أن الله بعث إلى آدم وحواء بجبريل، وطلب إليهما بناء البيت، فكان آدم يَحْفِر، وحواء تنقل. وأوحى الله إليه أنه أول الناس بنى أول بيت، حتى حَجّه نوح، ثم رفع إبراهيم قواعده. ويرجح ابن كثير أن هذه الرواية موقوفة على قول ابن عمرو[٥]. وهكذا، كان ابن لهيعة ذا اهتمام بهذه النوعية من المرويات عن الأمم السالفة.

٢- يروى ابن لهيعة عن سيدنا داود ﷺ رواية نزعم أنه نظر إلى امرأة جميلة، وهى تغتسل فأعجبته، فأرسل زوجها في بعث بعيد ليهلك، فإذا هلك تزوج داود امرأته من بعده. وتذكر الرواية أن ملكيْن نزلا يَقُصّان على داود قصة شبيهة بما وقع منه، ففطن إلى خطئه، وسجد وبكى، حتى نبت من دمعه زرع على رأسه، ثم قال كلمات تاب الله عليه بعدها بأربعين ليلة. ثم إن داود قد وهب دم الرجل لله على أن يُعْطَى ذلك الزوجُ المقتول ما شاء من الجنة[٦].

ولا شك أن هذه الرواية من الإسرائيليات الكاذبة، التى لا ينبغى أن تُنسب لعباد الله الصالحين، ناهيك عن أنبيائه المقربين المعصومين من الزلل والخطأ. كيف ينظر نبىّ

(١) كان محدّثاً. روى عن عمه عبد الله بن لهيعة. وروى عنه: ابن عُفير، وابن بُكير. (المصدر السابق ١/ ٣٠٥، وتهذيب التهذيب ٥/٣٢٨، ورفع الإصر لابن حجر، (القسم الثانى) ص٢٨٨، ودائرة معارف الأعلمى ٢١/ ٢٢٤). وقد ولى منصب القضاء مرتين، وأدخل فيه إصلاحات طيبة: (١٩٦-١٩٨هـ، ١٩٩-٢٠٤هـ) سنة وفاته. (الولاة والقضاة: ص٤١٧-٤٢١، وما بعدها).

(٢) محدّث روى عن جده عبد الله بن لهيعة. (ذكر ذلك الذهبى فى: (سير أعلام النبلاء) ٨/ ١٢، وابن حجر فى: (تهذيب التهذيب) ٥/٣٢٨).

(٣) محدّث من أهل مصر. عيّنه الوالى إسحاق بن يحيى على المظالم سنة ٢٣٥هـ. توفى يوم الأربعاء ٦ من شعبان ٢٥٧هـ. (الولاة والقضاة، للكندى: ص١٩٨، والأنساب للسمعانى ١/ ٣٠٥).

(٤) محدّث من أهل مصر. روى عنه ابن عُفير أول ذى القعدة ٢١٥هـ. (المصدر السابق ١/ ٣٠٥).

(٥) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف) لابن كثير ٢/ ٢٩٩.

(٦) تاريخ الطبرى: ١/ ٤٨٣.

إلى امرأة لا تحل له ؟! وكيف يتآمر على قتل زوجها البرئ ؟! وكيف يطمع في زوجته وعنده زوجاته الحليلات ؟! ثم ما معنى خرافة دمعه الذى أنبت زرعاً؟ إنها رواية من القصص السقيم العجيب، الذى دُسّ على مؤرخنا، وما كان ينبغى أن يُسَطّر في تراثنا، ثم لا يُنبّه عليه.

٣- ما يرويه ابن لهيعة، عن أبى الأسود، عن عروة بن الزبير، عن خالته السيدة عائشة -رضى الله عنها- أن خديجة -رضى الله عنها- سألت الرسول ﷺ عن مصير ابن عمها ورقة بن نوفل في الآخرة، فقال: " قد رأيتُه عليه ثيابُ بياضٍ، فأحسبه لو كان من أهل النار، لم يكن عليه ثياب بياض ". وقد حسّن ابن كثير إسناد هذا الحديث[(١)]. وفيه دلالة على اهتمام ابن لهيعة برواية أخبار أهل الكتاب ممن كانوا على الجادّة قبل مبعث الرسول ﷺ.

٤- قول ابن لهيعة: " فارس والروم قريش العجم "[(٢)]. فهو قد يدل على إدراك ابن لهيعة شيئاً من تاريخ هاتين الإمبراطوريتين القديمتين، وعلمه بمكانتهما وسطوتهما وهيمنتهما على العالم قبل فتوحات الإسلام، بالضبط كمكانة ووجاهة وزعامة قريش للعرب.

ثانياً - تاريخ السيرة والمغازى النبوية:

أ- يبدو أن ابن لهيعة كان له اهتمام خاص بالأنساب، وله كتاب في ذلك أفاد منه العلماء[(٣)]، وبقيت لنا منه شذرات متناثرات، لعل منها ما ورد حول نسبه ﷺ، فيما يرويه ابن لهيعة، عن أبى الأسود وغيره، قالوا: هو محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم. . مَعَدّ بن عدنان بن أُدَد. ثم يختلف النسّابون بعد ذلك[(٤)].

ب- اهتمام ابن لهيعة باليوم، الذى وُلد فيه الرسول ﷺ، ونُبّئ، وهو يوم الاثنين (فيما يرويه عن خالد بن أبى عمران، عن حنش الصنعانى، عن ابن عباس). وعَقّب الطبرى بأن هذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم[(٥)]. وزاد في رواية أخرى: أنه هو نفس يوم هجرته، وقدومه إلى المدينة، وموته[(٦)].

---

(١) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٩.

(٢) فتوح مصر، لابن عبد الحكم ص٣٥، ومعجم البلدان (ط.صادر) لياقوت ٤/ ٢٢٧.

(٣) ذكر سزكين في (تاريخ التراث العربى) ١/ ٤٠٦: أنه يوجد كتاب قديم في النسب من نسخ عبد الله بن لهيعة، أفاد منه مؤرخ مصر ابن يونس بعد ذلك (وقد ذكر ذلك ابن ماكولا في الإكمال ١/ ٢٢٧). ويبدو أن السمعانى نقل عن هذا الكتاب رواية لابن لهيعة بخصوص نسب عبد الرحمن بن غَنْم الأشعرى.(الأنساب ١٠/ ٨٥-٨٦).

(٤) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٧١.

(٥) المصدر السابق: ٢/ ٢٩٣.

(٦) المصدر السابق: ٢/ ٣٩٣، وتاريخ دمشق لابن عساكر (القسم الأول الخاص بالسيرة النبوية، تحقيق: نشاط غزاوى) ص٥٤-٥٦، ٥٨، ٦١.

جـ - حالة الرسول أثناء نزول الوحى عليه: فذكر ابن لهيعة شدة تلبُّس الوحى به ﷺ ومشقة ذلك عليه، وعلى طبيعته البشرية، حتى تكاد روحه تخرج منه. كذلك لمّا أنزلت عليه ﷺ سورة المائدة وهو على راحلته، لم تستطع حمله، فنزل عنها[١].

د- عرض ابن لهيعة - فيما عرض له - للمقاطعة الاقتصادية، التى قامت بها قريش ضد بنى هاشم، والنتائج التى ترتبت عليها (وذلك برواية عن أبى الأسود عن عروة، ووردت - كذلك - برواية موسى بن عقبة، عن الزهرى، وهما سياق واحد[٢].

هـ- توقيت خروج الرسول ﷺ في رحلة الإسراء إلى بيت المقدس: فذُكر بالطريقين السالفين أن هذه الرحلة تمت قبل خروجه ﷺ إلى المدينة بسنة[٣].

و- هجرة الرسول ﷺ:

روى ابن لهيعة، عن أبى الأسود عن عروة: أن الرسول ﷺ مكث بعد الحج - الذى بايع فيه الأنصار بيعتهم الثانية - بقية ذى الحجة، والمحرم، وصفر، ثم أجمع المشركون أمرهم ومكرهم على قتله ﷺ، أو على حبسه، أو على إخراجه. فأطلعه الله على ذلك، وأنزل قوله (تعالى): ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[٤]. فأمر الرسول ﷺ عليًّا، فنام في فراشه، وتوجّه هو إلى أبى بكر ﷺ. فلّما أصبح المشركون، ذهبوا في طلبهما في كل وجه. وهكذا ذكر موسى بن عقبة في (مغازيه)، وذكر أن خروجهما إلى الغار كان ليلاً[٥].

ز- تعرض ابن لهيعة - فيما يرويه عن أبى الأسود، عن عروة - لغزوة بدر على النحو الآتى:

١- ذكر أن عدد قتلى المشركين في بدر ٤٩، وعدد الأسرى ٣٩. وذكر أن من استشهد من المهاجرين ستة، ومن الأنصار ثمانية. وهكذا رواها موسى بن عقبة[٦].

٢- وأورد الذهبى إضافات أُخَرَ بالإسنادَيْن مفادها: أن رسول الله ﷺ خرج بالمسلمين في بدر، وعددهم ٣١٥ على عدد جنود طالوت الذين هزموا جالوت، ثم أورد تفاصيل أحداث بدر[٧]. ثم ذكر آيات من سورة الأنفال فيمن كرهوا القتال في بدر، تبدأ

(١) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٢٢.
(٢) المصدر السابق (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٨٤-٨٦.
(٣) المصدر السابق: ٣/١٠٨.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٣٠.
(٥) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ١٨٣.
(٦) تاريخ الإسلام، للذهبى(مجلد المغازى بتحقيق حمدان) صـ٨٣، والبداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٣٠٠.
(٧) تاريخ الإسلام، للذهبى (مجلد المغازى بتحقيق حمدان) صـ٥٥، ٧٦-٨٢.

بقوله (تعالى): ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾[١] إلى قوله (تعالى): ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾[٢]. ثم أورد أحاديث صِحاحاً وردت في تلك الغزوة، وأخيراً أورد الآيات التي تختص بأسرى بدر[٣]، ومن قال منهم: إنه على الإسلام، لكنه أُكره على الخروج مع المشركين[٤].

ح- غزوة أُحُد:

روى ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة عدد المسلمين والمشركين في أحد، وذكر رجوع بعض المنافقين من الطريق[٥]، وقتل الرسول ﷺ لأُبيّ بن خلف[٦]، وذكر عدد من مات يوم أحد[٧]. ثم عَوْد الرسول إلى المدينة بعد هزيمة المسلمين، وسَيْره في أزقّتها وبها النَّوْح والبكاء على الشهداء في الدُّور، وأورد قولة الرسول ﷺ: " وَلَكِنَّ حَمْزَة لاَ بَوَاكِيَ لَهُ "، ورَدّ فِعْل ذلك القول على الأنصار ونسائهم[٨].

ط- من مواقف اليهود:

حصار بنى قُرَيْظَة، وموقف أبى لُبابة بن عبد المنذر الصحابى منهم[٩]، ومؤامرات اليهود المستمرة ضد رسول الله ﷺ، ومحاولة زينب بنت الحارث القضاء على الرسول ﷺ عن طريق دَسّ السم له بعد غزوة خيبر[١٠].

ى- غزوة الحديبية:

اتفق على توقيت حدوثها ابنُ لهيعة في رواية عن أبى الأسود، عن عروة، مع كل من: الزهرى، ونافع مولى ابن عمر، وقتادة، وموسى بن عقبة، وابن إسحاق، وغيرهم، فقالوا: كانت في ذى القَعْدَة سنة ٦هـ بلا خلاف[١١].

وذكر أحداث الحديبية بتفصيلات جديدة[١٢].

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٥.

(٢) السورة السابقة: الآية ٨.

(٣) هذه الآيات في السورة السابقة رقم (٦٧-٧٠).

(٤) تاريخ الإسلام، للذهبى (مجلد المغازى بتحقيق: حمدان) صـ٨٣.

(٥) تاريخ الإسلام، للذهبى (مجلد المغازى بتحقيق: حمدان) صـ١٣٣-١٣٤.

(٦) المصدر السابق: صـ١٥٧.

(٧) المصدر السابق: صـ١٦١.

(٨) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف) ٤/٤٨. وقال ابن كثير: هذه رواية موسى بن عقبة، وهكذا رواية ابن لهيعة سواء.

(٩) السابق ٤/١١٩.

(١٠) السابق: ٤/٢١٠.

(١١) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف): ٤/١٦٤، وتاريخ الإسلام، للذهبى. (مجلد المغازى بتحقيق: حمدان): صـ٣٠٢.

(١٢) السابق: صـ٣١٣، ٣١٨، ٣١٩، ٣٣٠-٣٣١.

ك- المنافقون وتآمر بعضهم على قتل رسول الله ﷺ، وهو عائد من تبوك[١].

ل- الاهتمام بسرد شئ من صفات الرسول ﷺ كوقاره في تبسمه[٢]، وكذا الاهتمام بعرض شئ من معجزاته[٣].

ثالثاً - في تاريخ الراشدين:

أ- حول اسم أبى بكر، وعُمْره:

أما اسمه، فقد روى ابن لهيعة عن عُمارةَ بن غَزِيَّةَ، أنه سأل عبد الرحمن بن القاسم، عن اسم أبى بكر الصديق، فقال: عَتيق، وكانوا إخوة ثلاثة بنى أبى قُحافة: عَتِيق، ومُعْتِق، وعُتَيْق[٤].

وعن عُمْره: روى ابن لهيعة، عن أبى الأسود، عن عروة، عن عائشة قالت: تذاكر الرسول وأبى ﷺ ميلادَهما عندى، فذكرت أن الرسول ﷺ مات وعمره ٦٣ سنة، وكذا مات أبو بكر في السن نفسها[٥].

ب- **لمّا سمع عمر بن الخطاب أن رجالاً يقولون**: إن رسول الله ﷺ قد مات، خطب الناس وهدّدهم، واتهم القائلين بالنفاق. وظن عمر أن الرسول إنما ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران، وأنه سيعود[٦].

ج- أعمال أبى بكر عَقيبَ توليه الخلافة:

روى ابن لهيعة، عن أبى الأسود، عن عروة: أن الناس لمّا اطمأنوا إلى مبايعة أبى بكر وفرغوا من ذلك، أمر أبو بكر أسامةَ بن زيد أن يمضى لما أنفذه إليه الرسول ﷺ قُبيل وفاته، إذ كان جيش أسامة قد عاد من الطريق لمّا بلغته وفاة الرسول ﷺ. ورفض أبو بكر ما رآه بعض الصحابة من عدم إنفاذ بَعْث أسامة؛ حتى لا تهاجم العرب المسلمين، خاصة بعد علمهم بوفاة الرسول ﷺ. لكن أبا بكر أصر على إرسال الجيش بقيادة أسامة بن زيد إلى حيث وجّهه رسول الله ﷺ جهة الشام. وأستأذن أبو بكر أسامة أن يُبقى من الجيش معه عمر ابن الخطاب يستشيره، ففعل[٧].

---

(١) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف) ٥/ ١٩، وتاريخ الإسلام للذهبى (مجلد المغازى بتحقيق: حمدان) صـ٥٣٧-٥٣٨. وتبوك: موضع بين وادى القُرى والشام، توجّه إليه الرسول ٩هـ.ويقال: إن أصحاب الأيكة-قوم شعيب-منها، ولم يكن شعيب من أهل تبوك، بل كان من مَدْيَن، وهى قرية مجاورة.(معجم البلدان، ط.صادر٢/ ١٤-١٥).

(٢) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف): ٦/ ٤١.

(٣) السابق: ٦/ ٤٦.

(٤) السابق: ٦/ ١١٩.

(٥) تاريخ الطبرى: ٣/ ٤٢٥.

(٦) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٥/ ٢٤٢-٢٤٣.

(٧) تاريخ الإسلام للذهبى ٣/ ١٥.

وقاتل - بعد ذلك - أبو بكر المرتدين عن الإسلام، وحرص على أن يقاتل مَنْ ترك ركناً من أركان الإسلام، كما يقاتل من ترك الأركان كلها[١]. وأبرز ابن لهيعة دور خالد بن الوليد سيف الله المسلول في إلحاق الهزائم المنكرة بالمرتدين، وعلى رأسهم بنو حنيفة، التى قُتل متنبئها الكذاب مسيلمة[٢].

د- قدوم عمر بن الخطاب إلى الجابية، وعَزْله شرحبيل بن حسنة، وأمْرُه عمرو بن العاص بالتوجه إلى مصر. ثم عيّن على الشام أميرين: أبا عُبيدة، ويزيد بن أبى سفيان. ولمّا مات يزيد ولى أخاه معاوية مكانه، فأثنى على ذلك الصنيع أبو سفيان بن حرب[٣].

هـ- أرّخ ابن لهيعة وقعتى: أجنادين، وفِحْل في جمادى الأولى، وذى القعدة سنة ١٣هـ[٤]، واليرموك في عهد عمر بن الخطاب سنة ١٥هـ، وهى من أرض الأردن وهو نهرها[٥]. وحرص ابن لهيعة على ذكر أسماء قتلى المسلمين في أجنادين، مثل: عمرو بن أبان، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية، والطُّفَيْل ابن عمرو، وعبد الله بن عمرو الدَّوْسِيّان، وضِرار بن الأزْوَر، وهشام بن العاص السهمى[٦].

و- مرويات عديدة رواها ابن لهيعة، ذكرها في معرض ترجمته لخامس الخلفاء الراشدين الخليفة الزاهد العادل عمر بن عبد العزيز، ركّز فيها على أخلاقه العالية: من حياء وعفة لسان، ونَأْى بالنفس عن فُحْش القول، وبيان عقاب الله على الكلمة التى تسخطه (سبحانه، وتعالى)[٧].

رابعاً - في تاريخ مصر:

أ- تاريخها القديم:

ما يرويه ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب بخصوص رجل من أصحاب موسى في مصر يسمى: تُبَيْعاً[٨]، وأنه لم يُفتتن بعبادة العجل ،كما افتتن بها الكثيرون. وما ذكره من أن اسم فرعون مصر هو (طلما)، وأنه كان قبطيّاً من قبط مصر[٩]. وما ذكره عن ضخامة العماليق[١٠]. وما يرويه عن خالد بن يزيد بشأن قصة عمرو بن العاص في

(١) المصدر السابق: ٣/ ٢١.
(٢) السابق: ٣/ ٢٤، ٣٢، ٣٤.
(٣) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٨/ ١٢٤.
(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (ط.المنجد): ١/ ٤٧٩.
(٥) المصدر السابق: ١/ ٥٢٧-٥٢٨.
(٦) تاريخ الإسلام، للذهبى ٣/ ٥٥.
(٧) الجامع في الحديث، لابن وهب صـ٦٣.
(٨) فتوح مصر لابن عبد الحكم: صـ٥.
(٩) السابق: صـ١٩.
(١٠) السابق: صـ١٣.

الجاهلية مع شَمّاس من الإسكندرية وإنقاذ عمرو له من الموت، واصطحاب الشماس له إلى مصر؛ لمكافأته[١].

ب- فتوح مصر، وبعض أحداثها:

١- روى ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن عُلَيّ بن رباح: أن أبا بكر بعث حاطب بن أبي بَلْتَعة إلى المقوقس بمصر، فَمرّ على قرية الشرقية، فهادنهم وأعطوه، حتى جاء عمرو فقاتلهم، ونقض عهدهم[٢].

٢- حول قصة كتاب عمر بن الخطاب إلى عمرو وهو يدخل مصر، وأنه تسلل ببعض رجاله لفتح مصر دون علم القادة بالشام، دون أن يأذنوا له، وأنهم رفعوا الأمر إلى عمر، الذي أرسل إلى عمرو: أنْ إذا كنت دخلتَ مصر، فسِرْ على بركة الله، وإلا فلْترجع[٣].

٣- ووصف ابن لهيعة حصار أم دُنَيْن، وإمدادات عمر بن الخطاب لعمرو بجيش فيه الزبير بن العوام، ونقل عن يزيد أن جيش عمرو كان ٣٥٠٠ جندي، وأن المدد كان ١٢ ألفاً[٤].

٤- وأرّخ ابن لهيعة فتح مصر - نقلاً عن يزيد بن أبي حبيب - يوم الجمعة مستهل المحرم سنة ٢٠هـ[٥].

٥- عبّر ابن لهيعة عن فتح عمرو بن العاص الإسكندرية بعد أن عاد إليها الروم ثانية، بأنه فتح الإسكندرية الثاني[٦]. وصرّح أن الفتح الأول كان سنة ٢١هـ، والآخر سنة ٢٥هـ، فبينهما أربع سنوات[٧].

٦- وروى ابن لهيعة عن أبي الأسود، عن عروة: أن مصر فتُحت عَنْوَة[٨].

٧- وروى ابن لهيعة عن الصَّلْت بن أبي عاصم كاتب حَيّان بن سُرَيْج[٩]: أنه قرأ

---

(١) السابق: صـ٥٣.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط: صـ١٤٣، وفتوح مصر لابن عبد الحكم صـ٥٣.

(٣) المصدر السابق: صـ٥٧، والولاة والقضاة، للكندي صـ٧-٨، وإن زاد قوله: تقدم عمرو إلى الفرما، وانتصر على جموع الروم بها.

(٤) الولاة والقضاة، للكندي: صـ٨-٩.

(٥) السابق: صـ٩.

(٦) فتوح مصر: صـ٨٠.

(٧) السابق: صـ١٧٨.

(٨) السابق: صـ٨٩.

(٩) ورد في (تاريخ خليفة) صـ١٤٣ هكذا: حَيّان بن شُرَيْح. وهو تصحيف. والصواب ما أوردتُه في المتن؛ بدليل ما ذكره العسكري في (تصحيفات المحدّثين)، القسم الثاني صـ٥٠٤، وابن حجر في (تبصير المنتبه) ٢/ ٧٨٠، حيث ذكرا أنه (حَيّان بن سُرَيْج) وأن لفظة (شريح) فيها تصحيف. وأنه كان عامل عمر بن عبد العزيز على مصر، وروى عنه يزيد بن أبي حبيب.

كتاب عمر بن عبد العزيز إلى حَيّان: أنّ مصر فُتحت عنوة بغير عقد ولا عهد(١).

٨- وعن أحداث الفتنة:

أ- نقل ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب استيلاء محمد بن أبى حذيفة على مصر، وخلعه عثمان بن عفان، وتكوّن حزب مُعادٍ لابن أبى حذيفة، رفض أخذ العطاء منه، ورفض مبايعته وكان من قادة هذا الحزب: معاوية بن حُديج، وبُسْر بن أبى أرطاة. هذا، وقد منع محمدُ بن أبى حذيفة عبدَ الله بن مسعود من دخول مصر، فظل مقيماً بعسقلان حتى مات. وخروج ٦٠٠ ثائر من مصر لمهاجمة عثمان بن عفان بالمدينة، وقتله(٢).

ب- ونقل ابن لهيعة سرده أحداث ولاية قيس بن سعد، ثم مجئ الأشتر من قِبَل عليّ، ثم ولاية محمد بن أبى بكر وهزيمته من عمرو بن العاص ٣٨هـ، وانضواء مصر تحت حكم معاوية بن أبى سفيان(٣).

جـ- خِطط مصـر:

١- روى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أن عمراً لمّا فتح الإسكندرية، أرادها عاصمة لمصر، فمبانيها جاهزة للإقامة بها، لكن عمر بن الخطاب رفض ذلك؛ لكيلا يفصل بينه وبين المسلمين ماء، وأمر عمراً بالتحول، فاتجه إلى الفسطاط، واتخذها عاصمة(٤).

٢- أمر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص أن يُحَوّل إحدى دُور الفسطاط إلى سوق. وعلّق ابن لهيعة على ذلك قائلاً: هى دار البِرْكة، جُعلتْ سوقاً، فكان يُباع بها الرقيق(٥).

٣- روى ابن لهيعة، عن يزيد نزول همدان الجيزة، ورفض عمر بن الخطاب أن يقيموا هناك؛ كى لا يفجأهم العدو هناك دون غِياث، وقال عمر لعمرو: فإن رفضوا التحول عنها، فابْنِ حصناً من فَئِ المسلمين. وفعلاً أصروا على الإقامة بالجيزة، بعدما طاب لهم المقام بها، فبنى عمرو الحصن سنة ٢١هـ، وفرغ منه سنة ٢٢هـ(٦).

٤- علّق ابن لهيعة على قدوم عمرو بن العاص بالحمراء والفارسيين من الشام قائلاً: سمّاهم الحمراء؛ لأنهم من العجم(٧).

(١) تاريخ خليفة صـ١٤٣، وفتوح مصر صـ٩٠.
(٢) الولاة والقضاة، للكندى: صـ١٥-١٧.
(٣) المصدر السابق: صـ٢٠-٢٩.
(٤) فتوح مصر: صـ٩١.
(٥) السابق: صـ٩٢.
(٦) فتوح مصر: صـ١٢٨-١٢٩.
(٧) السابق: صـ١٢٩.

٥- روى عن يزيد بن أبى حبيب أن المسلمين لمّا استقامت لهم مصر، جعل عمرو نصف جيشه يقيم معه بالفسطاط، ووضع ربع الجيش في الرباط بالإسكندرية، والربع الأخير في السواحل. وكان يتم تغيير المرابطين كل ستة أشهر (صيفاً، وشتاء)، وكان لكل عَريف قصر، ينزل فيه ومعه أصحابه[١].

د- التنظيمات المالية، والإدارية:

١- تحدث ابن لهيعة عن الديوان في مصر، وأنه كان يضم ٤٠ ألفاً زمان معاوية. وقد أعطى مسلمة بن مخلد والى مصر أَهْلَ الديوان أعطياتهم وعيالهم وأرزاقهم، وما يسدون به نوائب البلاد من الجسور، إلى جانب أجور الكَتبَة، وأجور نقل القمح إلى الحجاز، وبقى بعد ذلك كله ٦٠٠ ألف دينار، أُرسلت إلى معاوية بالشام[٢].

٢- وقال ابن لهيعة: ولى ربيعة بن شرحبيل بن حسنة المَكْس[٣] (جباية الضرائب من التجار).

٣- وتناول ابن لهيعة جزية أهل الكتاب بالحديث، وأنها توضع عنهم إذا أسلموا[٤].

٤- التعاون بين مصر ودار الخلافة في عهد عمر بن الخطاب، فيما يرويه ابن لهيعة، عن محمد بن عبد الرحمن (أبى الأسود)، عن عروة، بخصوص عام الرمادة، وأن عمر دعا عمراً أن يرسل إليه من مصر سفناً تحمل القمح إلى الحجاز كما كان قبل الإسلام، وأمره بحفر الخليج لذلك الغرض[٥].

٥- روى ابن لهيعة قولة عمرو بن العاص: ولاية مصر - جامعةً - تَعْدِل الخلافة[٦]. وهذا يوضح إدراكه لأهمية مصر وثقلها بين ولايات دولة الخلافة.

هـ- تاريخ القضاة في مصر:

١- نَقَل عن يزيد بن أبى حبيب أن أول قاضٍ بمصر هو قيس بن أبى العاص بتولية عمر بن الخطاب له بكتاب أرسله إلى عمرو[٧]. ومات قيس بعد مقتل عثمان ﷺ، وظل المنصب شاغراً حتى ولاية معاوية الخلافة[٨].

٢- نقل ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمى: أن القاضى سُلَيْم بن عِتْر كان

(١) السابق: صـ١٣٠.
(٢) السابق: صـ١٠٢.
(٣) السابق: صـ١٠٩.
(٤) فتوح مصر: صـ١٥٤، ١٥٦.
(٥) السابق: صـ١٦٤.
(٦) السابق: صـ١٩٢.
(٧) السابق: صـ٢٣٠، والولاة والقضاة، للكندى صـ٣٠١.
(٨) المصدر السابق: صـ٣٠٢، ٣٠٦.

عابداً يختم القرآن كل ليلة ثلاث مرات، ويقوم الليل. فهو ممن ينطبق عليه قوله (تعالى): ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[١].

٣- وفيما يتصل بالقاضي المصرى عبد الرحمن بن حُجَيْرة (٦٩-٨٣هـ)، يذكر ابن لهيعة أن رجلاً سأل ابن عباس عن مسألة، فلمّا علم أنه من مصر، قال: تسألنى وفيكم ابن حُجَيْرة ؟![٢].

٤- وعرض لحزم ونزاهة القاضي المصرى توبة بن نَمِر الحضرمى، فيما يرويه لهيعة بن عيسى عن عمه عبد الله بن لهيعة[٣].

٥- واهتم ابن لهيعة -كذلك- برواية عدد من الأحكام القضائية، والإنجازات الطيبة التى قام بها عدد من قضاة مصر، منها:

أ- أن توبة بن نمر كان يقضى بشهادة الشاهد الواحد إلى جانب يمين صاحب الحق في الشئ اليسير. وقال ابن لهيعة: وبهذا كنتُ أقضى خلافاً لما كان عليه سلفه أبو خُزيمة، الذى لم يكن يقضى إلا بشاهديْن[٤].

ب- إنشاء توبة بن نمر القاضى ديواناً للأحباس، يشرف من خلاله على أموال الأوقاف، ويضعها في موضعها الصحيح[٥].

جـ- أن خير بن نُعيم القاضى هو أول مَنْ أدخل أموال اليتامى بيت المال، وسجل ما يدخل منها وما يخرج[٦]. وكان يقضى بشهادة الصبيان في الجراح التى تكون بينهم، وكان يقبل شهادة النصارى فيما بينهم، واليهود فيما بينهم بعد التحرى عن عدالتهم من أهل دينهم[٧].

و- فتوح إفريقية:

١- روى ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد: أن أبا تميم الجيشانى (ت ٧٧هـ) كان مع عمرو بن العاص في افتتاح مدينة أطرابلس ٢٢هـ[٨].

٢- روى - كذلك - عن يزيد بن عبد الله الحضرمى[٩] : أنه أتى أنطابلس حين

(١) السابق: صـ٣٠٦-٣٠٧. والآية المذكورة في سورة الذاريات: رقم ١٧.
(٢) فتوح مصر، لابن عبد الحكم صـ٢٣٥، والولاة والقضاة صـ٣١٦.
(٣) المصدر السابق: صـ٣٤٢-٣٤٣.
(٤) السابق: صـ٣٤٤-٣٤٦.
(٥) السابق: صـ٣٤٦.
(٦) السابق: صـ٣٥٥.
(٧) السابق: صـ٣٥١.
(٨) تاريخ خليفة بن خياط: صـ١٥٢.
(٩) ذكر الدكتور العمرى في حاشيته رقم (أ) صـ١٤٤ من (المصدر السابق) تعليقاً على هذا الاسم، الذى ورد هناك هكذا: (مرثد بن عبد الله الحضرمى)، قال د.العمرى: المعروف أن نسبه هو (اليَزَنِىّ). =

وليها بكتاب عهدهم؛ لأن لهم عهداً يوفى لهم به[(١)].

٣- ونقل عن أبى الأسود غزو ابن سعد إفريقية سنة ٢٧هـ، وتناول الغنائم العظيمة التى نالوها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، والرجل ألفاً[(٢)].

٤- نقل عن يزيد بن أبى حبيب أن معاوية بن حُديج غزا إفريقية ثلاث مرات: سنة ٣٤، ٤٠، ٥٠ هـ[(٣)].

٥- حدّث ابن لهيعة، عن بُكير بن عبد الله بن الأشجّ، عن سليمان بن يسار: أنهم غزوا إفريقية مع ابن حُديج، فنَفَلهم النصف بعد الخمس[(٤)].

وزاد ابن عبد الحكم[(٥)]: ومعنا كثير من المهاجرين من الأنصار، فأنكر ذلك التقسيم جَبَلة بن عمرو الأنصارى، وأبى أن يأخذ شيئاً منه.

٦- وأخيراً، ذكر ابن لهيعة أن البربر نقضوا عهدهم في خلافة معاوية سنة ٤١هـ، فغزاهم عقبة بن نافع، وهزمهم[(٦)].

ز- فتوح النوبة:

قال الطبرى: حدثنى علىّ بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، قال: أخبرنى ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب: أن المسلمين لمّا فتحوا مصر ٢٠هـ، غزوا نوبة مصر، فقفل المسلمون بالجراحات، وذهاب الحَدَق من جودة الرمى، فسُمُّوا رُماة الحَدَق. فلمّا ولى ابن سعد من قبل عثمان، صالحهم على هدية عدة رؤوس منهم يفردونهم للمسلمين كل سنة، ويُهدى المسلمون لهم كل عام طعاماً مُسَمًّى، وكُسْوَة من نحو ذلك.

وقال على بن سهل: قال الوليد بن مسلم، قال ابن لهيعة: وأمضى الصلحَ عثمانُ، ومِنْ بعده الولاة والأمراء. وأقره عمر بن عبد العزيز؛ نظراً منه للمسلمين، وإبقاء عليهم[(٧)].

= وفى الحقيقة، هناك تحريف في الاسم، فهو - كما ورد في فتوح مصر - يزيد، لا مرثد. ومن ثم، يكون نسب الحضرمى صحيحاً. أما مرثد اليزنى الدى عناه د.العمرى، فلا يجوز أن يكون في مسند هذه الرواية في ذلك الموضع؛ لأنه أستاذ يزيد بن أبى حبيب، الذى هو أستاذ ابن لهيعة. وتوفى مرثد سنة ٩٠ هـ، أى: قبل ميلاد ابن لهيعة بخمس أو ست سنوات، فلا يجوز أن يروى عنه.

(١) السابق: صـ١٤٤، وفتوح مصر ١٧٠-١٧١.

(٢) تاريخ خليفة: صـ١٦٠ (لكنه جعل نصيب كل واحد ألف دينار)، وفتوح مصر ١٨٤، والولاة والقضاة، للكندى صـ١٢.

(٣) فتوح مصر: صـ١٩٤.

(٤) تاريخ خليفة صـ٢١٢، وفتوح مصر ١٩٣.والمعروف في تقسيم الغنائم أن الخمس للقائد يوزعه في مصارفه الشرعية المحددة، والأربعة الأخماس الباقية للمقاتلين.

(٥) فتوح مصر: صـ١٩٣.

(٦) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٣٢٠.

(٧) تاريخ الطبرى: ٤/ ١١١.

وفى رواية: نقل ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد اقتتال المسلمين مع أهل النوبة سنة ٣١هـ اقتتالاً شديداً، ووصل المسلمون إلى دمقلة، وأصيبت في المعركة عين معاوية بن حُديج وغيره،حتى هادنهم ابن سعد. وقال الشاعر:

لَـمْ تَـرَعَـيْـنـي مِـثْـلَ يَـوْمِ دُمْـقُـلَـهْ وَالْـخَيْـلُ تَـعْـدُو بِـالـدُّرُوعِ مُـثْـقَـلَـهْ[١].

ولابن لهيعة تعليق قاله على الهدنة هو: " لا بأس أن يُشْتَرَى رقيقهم منهم، ومن غيرهـم (فقد كان من شروط الهدنة أن يؤدوا للمسلمين كذا وكذا رأساً من السبى سنوياً "[٢].

٦- الملامح العامة لمنهج عبد الله بن لهيعة التاريخى:

أ- الشمول والاستيعاب:

وذلك ملمح عام نلاحظه على مادة ابن لهيعة التاريخية الغزيرة، ذات الاتجاهات والمناحى العديدة. وأعتقد - ومن خلال الجزء الذى أبرزته، وهو بعض ما تبقى من إنجازات هذا المؤرخ التاريخية - أن هذا الشمول يتضح أكثر ما يتضح في مروياته الخاصة بسيرة الرسول ﷺ ومغازيه. لقد سار مع صاحب السيرة العطرة من لدن نسبه الشريف وما صح منه، إلى منتهى حياته وعمره وأجله الذى توفى عنده. وما بين لحظة البدء والختام كان حديثه عن الوحى، وجهاده في مكة ضد المشركين، وهجرتى الحبشة الأولى والثانية، وأحداث المقاطعة الاقتصادية ونتائجها، وعرض الرسول نفسه على القبائل، وخروجه إلى الطائف وموقف أهل الطائف منه، ثم رحلة الإسراء والمعراج، وبيعتى العقبة الأولى والثانية، وهجرته إلى المدينة وظروفها. ثم أحداث العهد المدنى: في غزوة بدر الأولى، والسَّويق، وبدر الآخرة، وأحد، وحمراء الأسد، والخندق، وصلح الحديبية ونتائجه وأهدافه، وكتبه ﷺ إلى ملوك العالم. هذا بالإضافة إلى عرض ابن لهيعة فاصلاً متكاملاً لمواقف النفاق والمنافقين من الدعوة الإسلامية، وتعاونهم مع أعداء الإسلام الألدّاء (اليهود)، وصدام الرسول المسلح ضد اليهود في غزوة بنى النضير، وبنى قريظة، وفى خيبر. ثم فتح مكة، وموقعتى مؤتة وتبوك، وموقعة حنين، ومقدم الوفود، وحجة الوداع، وأخيراً، وفاة الرسول ﷺ.

ب- استخدامه آيات القرآن الكريم كمصدر من مصادر التاريخ:

وقد اتضح ذلك من خلال مرويات ابن لهيعة في مغازى رسول الله ﷺ، التى نزل بصددها آيات بيّنات. وقد رأينا ذلك في غزوتى: بدر، وأحد خاصة.وهكذا، تمتعت مدرسة مصر بما تمتعت به المدارس التاريخية الأخرى.

---

(١) فتوح مصر: صـ١٨٨، والولاة والقضاة: صـ١٢.

(٢) فتوح مصر: صـ١٨٨، والولاة والقضاة: صـ١٣.

ج- المفهوم الواسع الشامل لسيرة رسول الله ﷺ:

فالسيرة ليست مجرد حروب وغزوات، وصراع ونزال بالسيف والرمح والسنان، وإنما تتسع لتشمل كل صغيرة وكبيرة عنه ﷺ. ولذا فقد أحسن ابن لهيعة - كما أحسن مؤرخو المدارس الأخرى كما رأينا - لمّا توسع في مفهوم السيرة، بحيث نقل مرويات تاريخية عن وقاره ﷺ، وطلاقة وجهه، وكثرة تبسمه، وعظمة تواضعه في مِزاحه مع الأطفال. وكذلك وصف معاناته ﷺ أثناء نزول الوحى عليه وتلبسه به، وأثر ذلك من الناحية البدنية، وكذلك بعض معجزاته ﷺ.

د- الحرص على إبراز النتائج والانعكاسات النفسية للأحداث التاريخية على مستوى الأفراد والجماعات:

وقد اتضح ذلك تماماً بصورة جليّة في موقف الأنصار الحزين من أجل شهدائهم بأحد، حيث أقيم في كل دار مأتم، والنساء يبكين ويَنُحْنَ قتلاهن. وقد تأثر رسول الله ﷺ بالهزيمة، وهزّه بكاء النسوة، واشتد حزنه لفقد عمه المحبب الأثير إلى نفسه: حمزة بن عبد المطلب. فقال الرسول كلمة ملؤها الحزن والأسى: " لكن حمزة لا بواكى له "، ثم استغفر له. وظهر رَدّ فعل تلك القولة على الأنصار، فأحضروا نساءهم؛ ليبكين حمزة. فعرّفهم الرسول أنه لا يحب البكاء والنواح، ونهاهم عن ذلك. لكنها - ولا شك - مشاعر قلبية شعر بها الرسول ﷺ تجاه عمه، الذى استشهد بأيْدِ متآمرة مع بنى عشيرته، غريباً بعيداً عن وطنه مكة. وكذلك بدت الآثار العنيفة لوفاة الرسول ﷺ، فزلزلت كيان عمر بن الخطاب؛ مما أدى إلى صدور أقوال وتهديدات شديدة الانفعال من عمر بن الخطاب تجاه جموع المسلمين.

هـ- الحرص على إيراد الأرقام والإحصاءات المرتبطة بالأحداث:

وذلك يتركز عند الحديث عن المغازى والفتوح، فذكر عدد المسلمين في بدر وأحد، وعدد المشركين. وكذلك ذكر قوائم بأسماء الشهداء حسب النَّسَب في موقعة أجنادين ١٣هـ[١]. كما ذكر ابن لهيعة عدد جيش عمرو بن العاص عند دخول مصر، ومجموع الجيش بعد مجئ الإمدادات من المدينة. لكن الإحصاءات في رواية ابن لهيعة - أحياناً - كانت تنقصها الدقة. فمثلاً: ذكر أن عدد قتلى المشركين في بدر: ٤٩، وعدد الأسرى: ٣٩[٢]. لكن الصحيح المتواتر أنهم سبعون قتيلاً، وسبعون أسيراً؛ لحديث البراء ابن عازب، قال: أصاب النبيُ وأصحابه من المشركين يوم بدر أربعين ومائة: سبعين أسيراً، وسبعين قتيلاً. وأصابوا منا يوم أحد سبعين[٣].

و- الحرص على توقيت الأحداث التاريخية (ذكرها مصاحبة بتاريخ وقوعها):

(١) تاريخ الإسلام، للذهبى: ٣/ ٥٥.

(٢) المصدر السابق (مجلد المغازى بتحقيق: حمدان)، للذهبى: صـ٨٣.

(٣) أخرجه البخارى في (صحيحه، ط.عالم الكتب)، كتاب (المغازى) باب (فضل من شهد بدراً) جـ٥ صـ١٨٩ (حديث رقم ٣٥).

وذلك واضح في مواضع كثيرة، مثل: تحديد يوم ميلاد، ومبعث، ووفاة الرسول ﷺ وإبراز ميقات الحديبية وأنه لا خلاف بين العلماء عليه، وتوقيت فتح مصر وصلح الإسكندرية الأول، وفتحها الثانى، وتوقيت فتح أطرابلس، وغزو بلاد النوبة، وغير ذلك من الأحداث. فتحديد المواقيت مما يميز المدرسة التاريخية المصرية بخاصة، والمدارس التاريخية الأخرى في تاريخنا الإسلامى (كما رأينا في مدرسة المدينة على يد عبد الله بن أبى بكر مثلاً) بعامة. وذلك يؤدى إلى تمايز الوقائع؛ حتى لا تتداخل في بعضها البعض، فيحدث خلط واضطراب بينها.

ز- مادة جديدة وقدرة على إبراز الجانب العقلى التحليلى للحدث:

ويبرز هذا الملمح كأحسن ما يكون من خلال روايات متعددة، وردت في صلح الحديبية. هذه الروايات حددت الهدف من الخروج وهو الاعتمار، وفى سبيله سلك رسول الله ﷺ مسلكاً غير الذى سلكته قريش، فهو لا ينوى القتال، ثم هو لم يزاحمهم على الماء. والروايات توضح أسباب إرسال الرسول ﷺ عثمان بن عفان بالذات إلى قريش، فهو ذو عشيرة هناك وسيجيرونه حتماً، فهو لم يذهب للتصادم مع المشركين. وفى هذه الروايات معلومات جديدة عن اعتداءات وضرب بالحجارة بين الطرفين، وأخذ كلا الفريقين رهائن من الآخر، فكان عثمان بن عفان من المحتجزين لدى المشركين، وكان سهيل بن عمرو من رهائن المشركين لدى المسلمين. وأخيراً، ما أبرزته الرواية بصورة تحليلية دقيقة على لسان الرسول من مزايا الحديبية، واعتبار هذا الصلح أعظم من الفتح؛ إذ اكتفى المشركون بأن يرجع المسلمون هذا العام، واعتبروا ذلك قمة ما يمكن أن يدفعوا به المسلمين عن بلادهم، وقبلوا مجالسة المسلمين وكتابة أمان معهم، وهابوا المسلمين وخَشُوا شوكتهم. ثم إن المسلمين عادوا سالمين مأجورين، إذا قورن ذلك بحالهم يوم أحد، وهم فارُّون لا يلوون على شئ، أو بحالهم يوم الأحزاب وقد بلغت القلوب الحناجر.

ح- حضور وظهور شخصية ابن لهيعة أحياناً:

وقد اتضح ذلك بصورة تتلاءم مع هذه الفترة المبكرة، التى وُجد فيها ذلك المؤرخ، فهو حضور محدود، وإن كنا لا نستطيع نفى وجوده كلية.

والأمثلة على ذلك موجودة، منها:

تسميته الفتح الذى تم بعد نقض الروم لمعاهدتهم في مصر بفتح الإسكندرية الثانى؛ تمييزاً له عن الأول، وبيان ما بينهما من سنوات أربع. وكذلك تَدَخُّله بالتوضيح لمفهوم بعض الجند، الذين قدموا مع عمرو لفتح مصر، وسُمُّوا بالحمراء، فعلّل التسمية بأنهم من العجم. وكذلك تعليقه على صلح المسلمين مع بلاد النوبة، بأن الخلفاء أمضوه وتمسكوا به بما فيهم عمر بن عبد العزيز؛ لأنه في مصلحة المسلمين. وكذا توضيحه بنداً من بنود المعاهدة معهم وهو الخاص بشراء مصر رقيقاً من النوبة،

فأوضح أن ذلك لا يمنع من شراء رقيق منهم أو من غيرهم. وأخيراً، ذِكْره اسمَ الدار التى أمر عمرو بتحويلها إلى سوق، وإدراكه طبيعتها.

ط- اهتمامه بإبراز الجوانب الحضارية المختلفة:

لم ينصبّ اهتمامه على الأحداث السياسية، أو مجرد وصف المعارك والفتوحات والغزوات وغيرها، وإنما عرض لجوانب تاريخية حضارية، فتحدث عن الديوان وعدد مَنْ فيه، وكيفية تنظيم وتوزيع المال في مصر، وحفر الخليج كعمل حضارى مهم للربط بين مصر والحجاز. وتناول الخراج والجزية في مصر، وتحدث عن الخطط بها، والتنظيمات الخاصة بإقامة المرابطين في الإسكندرية، وإقامة همدان بالجيزة.

ى- الصدق في عرض تفاصيل المادة التاريخية :وذلك عن طريقين:

الأول - عدم إخفاء الحقائق التاريخية مهما كانت أليمة وقاسية: وقد لاحظنا ذلك في أكثر من موضع من المواضع، التى تناولها مؤرخنا عبد الله بن لهيعة، مثل: بيان حجم هزيمة المسلمين في أحد، وشدة وقعها على النفوس، وتأثيرها في معنويات المسلمين، وكذلك ما حدث في حنين. ويبدو هذا جليًا في أحداث غزوة النوبة، وتراجع المسلمين أمام أهلها؛ لأنهم وقائدهم ابن سعد لم يُطيقوا القتال في تلك البلاد أمام أقوام مهرة في الرمى، وأمام جند ذَوِى طبيعة صلبة متمرسة وسط أرضها وجبالها، التى يجهلها المسلمون، فلم يقووا على هزيمتهم، ولجئوا إلى الصلح معهم. وذكر ابن لهيعة ما أُثِر من الشعر في تلك الواقعة، كدليل يُوثّق به ما لقيه المسلمون هناك من بأس شديد.

الثانى - استخدام الوثائق التى تُؤصل وتؤكد مروياته التاريخية، وذلك من خلال نصوص المعاهدات مع النوبة وأهل أنطابلس، وكذلك الكتب التى كانت تُوفَد من الخلافة إلى القضاة حول مسائل وفتاوى وأحكام قضائية تهم المجتمع.

ك- وجود بعض الأساطير والإسرائيليات، والمبالغات في بعض المرويات:

من الموضوعية والصدق في التقويم والنزاهة في الحكم أن نعترف بوجود بعض آثار تاريخية لابن لهيعة، تدل على هذا الضعف التاريخى، منها: ما سبق أن أشرتُ إليه ونبّهتُ عليه فيما رواه عن سيدنا داود ﷺ، وموقفه من أحد رعاياه وزوجته الجميلة، مما يتنافى مع العقل والمنطق القويم. وهو ما ينبغى أن يُرفض تماماً، فهو يسئ إلى تراثنا. ولعل مؤرخينا لم يدونوه، وإنما دسّه عليهم القصاص المنحرفون، أو لعلهم كتبوه عن وهم وغفلة، أو رغبة في ترك المرويات المختلفة أمام القارئ، يُعمل عقله فيها. وقد أعملنا العقل ورفضناها.

ومن المبالغات والترهات في القول ما قيل عن ضخامة العماليق فيما رواه ابن لهيعة. وكذا ما ورد عنه من روايات مشكوك في صحتها، تتعلق بدخول عمرو مصر بغير إذن عمر بن الخطاب، ودون إخبار عمرو لقادة المسلمين بالشام. والعجيب أن

الروايات تذكر أنه تسلل بجنوده دون أن يُعلم أحداً، وكأن الأمور تسير دون نظام أو تخطيط مسبق، وكأن قادة الشام وجنوده لم يفطنوا إلى غياب قائد كعمرو بن العاص وجنوده، الذين يبلغون ٣٥٠٠ جندى !

ل- وأخيراً، المصادر التاريخية لابن لهيعة:

والحق أن هذا الملمح هو من أهم ملامح منهج ابن لهيعة، فهو يضعنا على الموارد التى استقى منها الرجل مادته التاريخية المتبقية، وهى نوعان:

أ- موارد داخلية:

يُعد أبرزها: يزيد بن أبى حبيب(١)، والحارث بن يزيد الحضرمى(٢). ولعلنا قد لاحظنا من خلال ما تم عرضه من آثاره التاريخية أنه (أى: ابن لهيعة) نقل عنهما كثيراً من الروايات التاريخية، خاصة فيما يتصل بتاريخ مصر وفتوحها، وأحداثها.

ب- موارد خارجية:

وهذه الموارد لها أهميتها القصوى؛ لأنها تبين حقيقة الصلة التى تربط مدرسة مصر التاريخية والمدارس التاريخية الأخرى تأثيراً وتأثراً، مع بيان كيفية حدوث هذا الاتصال، وذاك التلاحم الفكرى بين المدارس المختلفة، وحقيقة الدور الذى لعبته مدرستنا المصرية في ذلك المجال. ويمكن حصر أهم هذه الموارد فيما يلى:

أولاً - مدرسة الحجاز:

من خلال النظرة العَجلَى إلى ذلك الجزء الذى سطرتُه - سلفاً - من متبقيات المادة التاريخية لابن لهيعة، نلمح أن معظم هذه الروايات - خاصة في السيرة والمغازى - تأتى بهذا الإسناد: (ابن لهيعة، عن أبى الأسود، عن عروة). وهذا يعنى أن عروة بن

---

(١) من خلال الإحصاء الدقيق لما نقله ابن لهيعة عن (يزيد بن أبى حبيب) في كتاب ابن عبد الحكم (فتوح مصر) فقط، تبين أنه نقل عن يزيد في الأقسام الستة - فقط، بخلاف قسم الأحاديث - ٤٥ رواية موزعة كالآتى: ٨ روايات في تاريخ مصر القديم، و١٢ رواية في (وصف فتوحها)، و١١ رواية في (خطط مصر)، و١١ رواية عن عمرو بن العاص والإدارة في مصر، وروايتين عن المغرب والأندلس، ورواية واحدة عن قضاة مصر.

(٢) هو أبو عبد الكريم المصرى. حدّث عن التابعى عطاء بن أبى رباح، وغيره. روى عنه ابن لهيعة، والليث، والأوزاعى، ويحيى بن أيوب، وغيرهم. وتوفى في برقة ١٣٠هـ، بعد أن خَلّف من بعده ابنه عبد الكريم، الذى كان محدّثاً تتلمذ عليه: الليث بن سعد، وعبد الرحمن بن شريح. (الجرح والتعديل)، لابن أبى حاتم ٣/١/٦٠، وتهذيب الكمال للمزى ٥/٣٠٦، والكاشف للذهبى (ط.دار الكتب الحديثة) مج١ جـ١/١٩٨، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١/٥٥٠. وقد نقل عبد الله بن لهيعة عن (الحارث بن يزيد الحضرمى) في ٢٦ موضعاً في (فتوح مصر). وكذا نقل عنه في كتاب (الولاة والقضاة) للكندى صـ٤٠، ٣٠٤، ٣٠٧ - ٣٠٨، ٣١٨، ٤٢٦.

الزبير وضع كتاباً في (مغازي رسول الله وسيرته)[1]، وأن أبا الأسود هذا رواه عنه، وأن مؤرخنا عبد الله بن لهيعة نقل كتاب عروة، عن طريق أبى الأسود. والسؤال - الآن -: كيف وصل إلى مصر كتاب عروة بن الزبير في السيرة؟

والجواب عن ذلك السؤال يسير؛ لأن المراجع - كما ذكرت من قبل- أفادت أن عروة بن الزبير قدم إلى مصر، وأقام بها سبع سنوات في الفترة من سنة ٥٨-٦٥هـ تقريباً، وهى فترة كافية لنقل مروياته في الحديث والمغازى.فلعله روى شيئاً من كتابه هذا، ونقله إلى المصريين، كما نقل بعض فقهه إليهم كذلك، هذا إذا وضعنا في الاعتبار أن الفترة إلى أقامها في مصر كانت فترة صراع بين أخيه: عبد الله بن الزبير، والأمويين.

لكننا إذا أردنا الدقة، فإن ابن لهيعة نقل مغازى عروة بن الزبير[2] (٢٣-٩٤هـ)، عن طريق أبى الأسود[3]، الذى صرّح الذهبى[4] أنه نزل مصر، وحدّث بها بكتاب المغازى

---

(١) تكاد تجمع المصادر المختلفة على أن عروة بن الزبير كان له مصنَّف في المغازى، وأنه أوّل مَنْ ألّف فيها. (تاريخ الإسلام)، للذهبى (مجلد المغازى بتحقيق: حمدان) صـ٣٠٢، وسير أعلام النبلاء ٦/ ١٥٠، والوافى بالوفيات للصَّفَدى ١/ ٧، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف) فيما يذكره الواقدى عن عروة: ٩/ ١٠١، والإعلان بالتوبيخ، للسخاوى (ط.دار الكتب العلمية): صـ١٥٩، وذكر فيها أن الكُتّاب والمتقدمين أجمعوا من ق٢ هـ حتى عصره على أن عروة وضع كتاباً في المغازى. وكذلك ذكره حاجّ خليفة في (كشف الظنون) جـ٢ (رقم ١٧٤٧). وللأسف ضاع هذا الكتاب وبقيت منه اقتباسات نقلها العلماء. وقد قام الدكتور محمد مصطفى الأعظمى بجمع هاتيك الاقتباسات من بطون كتب الحديث، والسيرة، والتاريخ، وغيرها برواية ابن لهيعة، عن أبى الأسود، عن عروة، مقارناً إياها - في الحواشي-برواية موسى بن عقبة، عن الزهرى، مرتباً ذلك - فيما يتصل بالمغازى - ترتيباً زمنيّاً طيباً، ذاكراً مزيداً من المصادر-فى الحواشى - التى تتناول الجزئية نفسها،التى نقلها عروة بن الزبير لنا.وجمع ذلك كله في كتاب سمّاه:(مغازى رسول الله) لعروة بن الزبير-نشره مكتب التربية العربى بالرياض ١٩٨١.وقد حَدّد في تقديمه له هدفه ومنهجه، فقال في صفحة ٥٥ فيه ما يلى: هدفى هو جمع مغازى عروة بن الزبير برواية أبى الأسود عنه،وذلك على وجه العموم.

(٢) هو عروة بن الزبير بن العوام. إمام المدينة وعالمها، وأحد فقهائها السبعة المبرِّزين. كان زاهداً عابداً صابراً على قضاء الله في فقد ابنه، وقَطْع رِجْله. حدّث عن أبيه قليلاً؛ لصغر سنه، وكذا حدّث عن أمه أسماء، ولازم خالته عائشة وتفقّه بها. وروى عنه: يزيد بن أبى حبيب، والزهرى، ويزيد بن رومان، وأولاده، وغيرهم. وكان من بحار العلم التى لا تُنزف، وله اهتمام بالحديث والفقه، والمغازى، والتاريخ. (الزهد، لأحمد بن حنبل) صـ٣٧١، والبيان والتبيُّن، للجاحظ ٢/ ٢٠٢، وتقدمة المعرفة، لابن أبى حاتم صـ٤٥، وحلية الأولياء لأبى نُعيم ٢/ ١٧٦، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى: القسم الأول، الجزء الأول، صـ٣٣١، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٢٥٥، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٤٢١، وتهذيب التهذيب ٧/ ١٦٣).

(٣) هو محمد بن عبد الرحمن بن نَوْفَل بن الأسود. قرشى أسدى، يتيم عروة (نشأ في حِجْره)، وأخو هشام بن عروة من الرضاع. أوصى أبوه عروةَ به قبل وفاته. وجده نوفل أحد السابقين، ومن مهاجرة =

لعروة بن الزبير. وعن توقيت دخول أبي الأسود قال ابن لهيعة نفسه: قدم علينا أبو الأسود مصر سنة ١٣١هـ[1]. وهكذا، تكون مصر مدينة لأبي الأسود هذا بقسط كبير من علمها بالمغازي والسير، فلولا نَقْله الأمين والدقيق لكتاب عروة بن الزبير، وحفظ ابن لهيعة هذا الكتاب القيّم لنا، لحدث جدب شديد في معرفة المدرسة المصرية بكثير من دقائق سيرة رسول الله ﷺ في تلك الفترة المبكرة. وعلى كل، فإن جهد ابن لهيعة ينضم إلى جهد يزيد من قبلُ في إثراء المدرسة المصرية بأحداث السيرة العطرة، وإن امتاز ابن لهيعة بغزارة ما نقل وكثرة ما وصل إلينا عنه، خاصة أنه نقل عن مصدر مُعَضَّد وثيق.

وأحب أن أشير إلى شئ، غفل عنه الباحثون، وهو أني - من خلال تجميعاتي لما تيسر لي من مادة ابن لهيعة التاريخية - لاحظتُ أن مصر لم تقف في استفادتها من مدرسة الحجاز عند حدود السيرة والمغازي، وإنما أفاد منها ابن لهيعة بالإسناد نفسه في مجالين آخريْن في التاريخ؛ مما يدل على اهتمام عروة بمراحل تاريخية، تتجاوز حياة الرسول ﷺ، وأن أبا الأسود نفسه كان راويته الأصيل، وأن ابن لهيعة أفاد منها إلى نهاية المدى. وهذان المجالان هما:

أ- في مجال تاريخ الراشدين:

فقد رأينا - فيما مضى - أن ابن لهيعة نقل بالإسناد نفسه ما يتصل بعُمْر الرسول، وأبي بكر ﷺ، وكذلك ما يتصل بإنفاذ بَعْث أسامة بن زيد، وقتال أبي بكر المرتدين، وانتصارات المسلمين بقيادة خالد بن الوليد على مُسَيْلِمة الكذاب وقومه بني حنيفة، وكذلك في فتوح الشام خاصة موقعة أجنادين.

ب- في مجال فتح مصر، وغير ذلك من الأحداث:

فقد رأينا نقل ابن لهيعة - بالإسناد نفسه - أن فتح مصر قد تَمّ عنوة، ونقل - كذلك - موضوع خليج أمير المؤمنين الذي حفره عمرو بن العاص في عهد عمر بن

= الحبشة، وبها توفي .وبناء على ذلك، فوالده عبد الرحمن يعد من صغار الصحابة. يعد أبو الأسود في صغار التابعين، وفي زمرة العلماء الثقات. روى عن عروة، وعكرمة. وروى عنه: الزهري، وهشام ابن عروة، ومالك بن أنس، وابن لهيعة. نزل إلى مصر آخر سلطان بني أمية، وتوفي سنة بضع وثلاثين ومائة (التاريخ الكبير للبخاري) ١/ ١/ ١٤٥، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/ ٢/ ٣٢١، وتقدمة المعرفة، لابن أبي حاتم صـ٢٥٤، وسير أعلام النبلاء ٦/ ١٥٠، وتاريخ التراث العربي (ط.الهيئة العامة)، لسزكين: ١/ ٤٥٥).

(٤) سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٥٠.

(١) الانتقاء، لابن عبد البر: صـ٢٦. وذكر ابن حجر في (تهذيب التهذيب): ١٠/ ٧: أن ابن لهيعة قال: إن أبا الأسود قدم مصر ١٣٦هـ. والحق أن رواية ابن عبد البر أرجح؛ لتضافر عدة مصادر معها من جهة، ولاتفاقها مع نزول أبي الأسود مصر آخر سلطان بني أمية - وقد سقطت دولتهم ١٣٢هـ - من جهة أخرى.

الخطاب، وإنقاذ مصر للحجاز في عام الرمادة، ونقل عنه - أيضاً - في فتوح إفريقية سنة ٢٧هـ على يد عبد الله بن سعد.

وكذلك نقل ابن لهيعة عن موسى بن عقبة، وأفاد من كتابه في المغازى، فقد ثبت أن موسى كان يكتب إلى ابن لهيعة[١]. كما أن التقارب كبير بين رواية ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة، ورواية موسى بن عقبة عن الزهرى. والسبب واضح ويسير، وهو أن الزهرى كان ينقل هو الآخر عن عروة بن الزبير[٢]، فكل من: ابن لهيعة، وموسى بن عقبة كانا يمتاحان من مصدر تاريخى واحد، هو عروة بن الزبير المؤرخ المحدّث المدنى.

وكذلك نقل ابن لهيعة عن بكير بن عبد الله بن الأشج، وهو مدنى الأصل في غزوة معاوية بن حُديج لإفريقية.

والحق أننى لم أعثر على نص واحد نقل فيه أبو الأسود، عن ابن لهيعة في مجال التاريخ، وبالتالى لا نستطيع - حتى الآن - أن نقول: إن مدرسة مصر أثّرت في الحجاز تاريخيّاً على يد ابن لهيعة. وعلى كل، فقد تكون هناك نصوص تثبت ذلك التأثير المصرى، لكنى لم أقف عليها، وقد تكون هذه النصوص في حكم المفقود؛ لأن ما بقى من تراثنا - كما هو واضح - أقل بكثير مما طوته يد النسيان والبلَى.

ثانياً - مدرسة الشام:

وتتركز الصلات بين مصر والشام في مجال التاريخ في شخص الوليد بن مسلم[٣]

---

(١) ذكر الإمام أحمد في (مسنده) ٥/ ١٨٥ بإسناده عن إسحاق بن عيسى، عن ابن لهيعة قال: كتب إلىّ موسى بن عقبة يخبرنى عن بُسْر بن سعيد، عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ احتجم في المسجد. قلت لابن لهيعة: في مسجد بيته؟ قال: لا، في مسجد الرسول ﷺ. وذكر ابن الصلاح في مقدمته (ط.نور الدين عتر) صـ٢٨٠: أن هناك تصحيفاً في هذه الرواية (والصواب أنه تحريف لا تصحيف) في لفظة: (احتجم)، وصوابها: احتجر. أى: (اتخذ لنفسه حجرة من خُصّ، أو حَصير آخر المسجد يتهجد فيها وحده؛ حتى لا يمر بين يديه أحد، ولا ينشغل بأحد، ويتوفر خشوعه وفراغ قلبه). وقد أخطأ ابن لهيعة في نقلها؛ لأنه أخذ عن كتاب موسى دون سماعه. والدليل على صحة ما ورد في (مقدمة ابن الصلاح) نقلاً عن كتاب (التمييز) لمسلم، ما أورده الإمام البخارى في (صحيحه، ط.دار ابن كثير-بيروت)، كتاب (الجماعة والإمامة) باب (صلاة الليل) ١/ ٢٥٦ (رقم ٦٩٨)، وكذلك ما أورده الإمام مسلم في (صحيحه)، كتاب: (صلاة المسافرين وقصرها) باب (استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد) ١/ ٥٣٩ (رقم ٧٨١): أن الرسولﷺ احتجر حُجَيْرة يصلى فيها. قال: فلم يخرج إليهم، فرموا الباب بالحصى، فخرج مغضباً، وأمرهم بصلاة النافلة في بيوتهم إلا المكتوبة.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٣٢، ٤٣٦.

(٣) هو أبو العباس الأموى. روى عن الأوزاعى، وابن جريج، وابن لهيعة، وبكر بن مُضَر، وموسى بن أيوب الغافقى، وغيرهم. وروى عنه الليث وهو من شيوخه، وبقية بن الوليد، وابن حنبل، وسواهم. وثّقه العلماء. له مصنفات عديدة بلغت سبعين مصنّفاً، وكان صاحب أحاديث في =

(١١٩-١٩٥هـ)، وهو من مشاهير علماء الشام. ويبدو أن ابن لهيعة نقل إليه بعض المرويات التاريخية، فأفاد منه الوليد خلال رحلة ابن لهيعة مع صالح بن على إلى الشام غازياً سنة ١٣٨هـ، ومروره بدمشق آنذاك[١]. لكن النصوص سكتت، ولم تصرح برحلة الوليد إلى مصر. وعلى كل حال، فقد ثبت من المصادر المعتمدة[٢] تتلمذ الوليد على ابن لهيعة، وروايته عنه. كما أن هناك بعض مرويات تاريخية أثبتت هذا بالفعل، كما ذكرنا سلفاً[٣]. وأضيف إليها - الآن - مزيداً من الأمثلة التى تدعمها. فمثلاً: نقل الوليد بن مسلم، عن ابن لهيعة، عن أبى الأسود، عن عروة خروج النبى ﷺ في نفر من أصحابه إلى بنى النضير، يستعينهم في عَقْل (دية) الكلابييْن فأجلسه اليهود؛ ليُطعم ويرجع بحاجته. ثم أرادوا اغتياله، فنبّهه الله - تعالى - إلى تآمرهم عليه[٤].

وهكذا، كان لمصر تأثيرها في مدرسة الشام التاريخية عن طريق مؤرخنا عبد اله بن لهيعة.

والخلاصة:

أ- أن عبد الله بن لهيعة كان مؤرخاً ذا شأن طيب، وإسهام جيد في مدرسة مصر التاريخية، فعن طريقه حُفظ كتاب المغازى لعروة، وأفادت منه مدرسة مصر وغيرها، كما أنه روى تاريخ مصر، فكان لا يقل منزلة عن علماء عصره ومَنْ هم في طبقته العلمية، فهو لا يقل عن الليث في مصر، ومالك في المدينة، والأوزاعى في الشام، ومعمر باليمن[٥].

ب- كان لمروياته التاريخية أثرها في المؤلفين في مجال التاريخ الإسلامى من بعدُ، فها هو خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) يروى عمن روى عن ابن لهيعة في (تاريخه)[٦]، وكذا نقل عنه ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) روايات عديدة، ذكرنا كثيراً منها فيما مضى.

= الملاحم. وذكر له ابن النديم كتباً، منها: كتاب المغازى (الفهرست صـ١٢٢، وتهذيب التهذيب لابن حجر ١١/ ١٣٣ وما بعدها، وشذرات الذهب ١/ ٣٤٤، وتاريخ التراث العربى لسزكين ١/ ١٢٩).

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٩.

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر: ٥/ ٣٢٨، ورفع الإصر لابن حجر (القسم الثانى): صـ٢٨٨.

(٣) في آثار ابن لهيعة التاريخية الخاصة بـ(فتح النوبة) الواردة في موضع سابق من هذا الفصل.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبى (مجلد المغازى بتحقيق: حمدان) صـ١٩٧.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٨/ ١٤، والمُعين للذهبى صـ٦١.

(٦) أوضح ذلك د. العمرى في دراسته بداية (تاريخ خليفة) صـ٢٢. وذكرتُ نماذج عليه في آثار ابن لهيعة التاريخية فيما يتصل بفتوح مصر وأحداثها.

الفصل الثاني

المؤرخ المصرى الليث بن سعد الفهمى

الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفَهْمى(١) المصرى(٢)(*):

١- نسبه وأصله:

هو إمام حافظ، وشيخ مؤرخ جليل، من مؤرخى مدرسة التاريخ في مصر

(١) نسبة إلى (فَهْم)، وهو بطن من قيس عَيْلان ومرجعهم إلى العدنانية. ينسب إليهم الليث بن سعد، وخرج منهم جماعة كثيرون. (الأنساب للسمعانى ١٠/ ٢٦٩، واللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير ٢/ ٤٤٨، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤/ ١٢٨، والليث بن سعد، للدكتور عبد الحليم محمود صـ٣٣).

(٢) حدث تحريف لم يتنبه إليه البعض، فجعلوا لقبه (البصرى) مكان (المصرى). وحدث ذلك - مثلاً - في كتاب (التعديل والتجريح) للباجى ٢/ ٦١٥.

(*) اعتمدت في ترجمتى له مؤرخاً على المصادر والمراجع الآتية مرتبة ترتيباً زمنياً كما يلى: طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٧/ ٢/ ٢٠٤، ومعرفة الرجال لابن معين ١/ ١٥٠ (رقم٨٢٣)، صـ١٥٤ (رقم ٨٤٦)، ٢/ ١٤٤ (رقم ٤٤٢)، صـ٢٠١ (رقم ٦٧٠)، صـ٢٠٧ (رقم ٦٨٩)، وطبقات خليفة ٢٩٦، وتاريخ خليفة صـ٤٤٩، والتاريخ الكبير، للبخارى ٧/ ٢٤٦ (رقم ١٠٥٣)، والتاريخ الصغير للبخارى ٢/ ٢٠٩، وتاريخ الثقات للعِجْلى صـ٣٩٩ (رقم ١٤٣٠)، ومعرفة الثقات للعجلى ٢/ ٢٣٠ (رقم ١٥٦٥)، والضعفاء لأبى زرعة الرازى (فى الرواة الذين عَدّلهم) ٣/ ٩٢٦ (رقم ٥٩٢)، والمعارف لابن قتيبة صـ٥٠٥-٥٠٦، والمعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٤١، ٣/ ١٨٢، وتاريخ أبى زرعة الدمشقى ١/ ٢٧٦، ومروج الذهب للمسعودى ٢/ ٣٢٣، ومشاهير علماء الأمصار، لابن حبان صـ١٩١ (رقم ١٥٣٦)، وطبقات المحدّثين بأصبهان، لأبى الشيخ ١/ ٤٠٥ (رقم ٥٦)، وذكر أخبار أصبهان، لأبى نُعيم٢/ ١٦٨، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادى ١٣/ ٣ (رقم ٦٩٦٦)، وشرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادى صـ٢٨، ١٢٢، والتعديل والتجريح للباجى٢/ ٦١٥(رقم ٤٤٨)، وطبقات الفقهاء للشيرازى(ط.إحسان) صـ٧٨، والجمع بين رجال الصحيحين، للمقدسى ٢/ ٤٣٣ (رقم ١٦٥٩)، والأنساب للسمعانى ١٠/ ٢٦٩ (رقم ٣١١٤)، واللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير ٢/ ٤٨٨، والكامل لابن الأثير ٦/ ١٢٤، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ٢ من القسم الأول ٧٣-٧٤، وتهذيب الكمال للمزى (مخطوطة) ٣/ ١١٥٢)، وتذكرة =

الإسلامية في القرن الثانى الهجرى. كنيته: أبو الحارث. اختلف فى أصله، فقيل:

أ- إن أهل بيته يقولون: نحن من الفرس من أهل أصبهان[(١)]. وأُثر عن الليث قوله: نحن من أهل أصبهان، فاستوصوا بهم خيراً[(٢)].

ب- إنه مولى قيس بن رفاعة، وهو مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمى[(٣)].

جـ- إنه مولى خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمى، جد عبد الرحمن بن خالد بن مسافر[(٤)].

والحق أنه يمكن الجمع بين هذه الروايات بصورة منظمة واضحة كالآتى:

أ- إن أسرة الليث بن سعد تُنسب - أساساً - إلى أصبهان، ثم أُتى بهم من سبى أصبهان إلى بلاد العرب[(٥)].

ب- ثم دخل سعد والد الليث في موالى قريش، ثم أتى بالأسرة إلى مصر،

= الحفاظ للذهبى (ط.إحياء التراث) ٢٢٦ (رقم ٢١٠)، وميزان الاعتدال ٣/ ٤٢٣ (رقم ٦٩٩٨)، والعبر للذهبى ١/ ٢٠٦، والكاشف للذهبى ٣/ ١٢-١٣ (رقم ٤٧٦٠)، ودول الإسلام للذهبى ١/ ١١٤، ومرآة الجنان لليافعى ١/ ٣٦٩، والبداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف) لابن كثير ١٠/ ١٦٦، والجواهر المُضِيَّة، للقرشى ٢/ ٧٢٠ (رقم ١١٣١)، والوفيات لابن قنفذ الفلسطينى صـ١٣٩ (رقم ١٧٥)، وصبح الأعشى للقلقشندى ٣/ ٣٩٩، وتهذيب التهذيب لابن حجر (دار الفكر) ٨/ ٤١٢-٤١٧ (رقم ٨٣٤)، وتقريب التهذيب لابن حجر (دار المعرفة - بيروت) ٢/ ١٣٨ (رقم ٨)، ولسان الميزان لابن حجر ٧/ ٣٤٧ (رقم ٤٤٩٨)، والرحمة الغيثية في الترجمة الليثية لابن حجر صـ٣-٩، وحياة الحيوان الكبرى، للدَّميرى ٢/ ٣١٠، والنجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى ٢/ ٨٢، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٣٠١ (رقم ٣٢)، وطبقات الحفاظ، للسيوطى صـ٩٥ (رقم ٢٠٠)، وخلاصة تذهيب الكمال، للخزرجى ٢/ ٣٧١ (رقم ٦٠٠٠)، وكشف الظنون لحاجّ خليفة جـ٢ (رقم١١٧٨)، وشذرات الذهب لابن العماد الأصفهانى ١/ ٢٨٥، ومعجم المؤلفين لكحَّالة ٨/ ١٦٢، ودائرة معارف الأعلمى ٢٥/ ٣١٧، والأعلام للزركلى ٥/ ٢٤٨، والمحدّثون في مصر، لأحمد عمر هاشم صـ٧٩-١٤٣.

(١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى: ١٣/ ٣، ومخطوطة تهذيب الكمال للمزى ٣/ ١١٥٢، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٨/ ١٣٧، وصبح الأعشى للقلقشندى ٣/ ٣٩٩، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٨/ ٤١٢، والرحمة الغيثية لابن حجر صـ٣.

(٢) ذكر أخبار أصبهان لأبى نعيم ٢/ ١٦٨، وطبقات المحدّثين بأصبهان لأبى الشيخ ١/ ٤٠٦، والرحمة الغيثية لابن حجر صـ٣.

(٣) طبقات الفقهاء للشيرازى (ط.إحسان): صـ٧٨، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤/ ١٢٧، وعنه نقل ابن كثير في (البداية والنهاية، ط.مكتبة المعارف) ١٠/ ١٦٦.

(٤) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى ١٣/ ٣، ومخطوطة تهذيب الكمال ٣/ ١١٥٢، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٣٧.

(٥) طبقات المحدّثين بأصبهان، لأبى الشيخ ١/ ٤٠٦.

فصارت في موالى بنى فَهْم لآل خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمى، ثم دخلوا في فرع من بنى فهم، هم بنو كنانة بن عمرو بن القيس(١).

جـ- وعلى ذلك، فالليث بن سعد أصبهانى الأصل، عربى بالولاء، يعد في موالى بنى كنانة من فَهْم. ثم هو مصرى ولد بمصر، وعاش بها، ومات(٢).

٢- من مولده حتى الوفاة:

وُلِدَ الليث بن سعد في قرية (قَلْقَشَنْدَه)(٣) في شعبان سنة ٩٤هـ(٤). واهتم الليث بتحصيل العلوم والمعارف المتاحة له في عصره من حديث، وفقه، ولغة، وتاريخ، وغير ذلك على أيدى علماء مصر. ثم خرج الليث للحج لأول مرة سنة ١١٣هـ، وتتابعت رحلاته إلى الحجاز بعد ذلك. تلقى خلالها على الزهرى، وأبى معشر، وإبراهيم بن سعد، وغيرهم. كما خرج إلى العراق، فأخذ وأعطى، وأفاد واستفاد.

---

(١) مخطوطة تهذيب الكمال ٣/ ١١٥٢، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٨/ ٤١٢، والرحمة الغيثية صـ٣.

(٢) هذا هو المشهور الذى تدل عليه المصادر وتنطق به، وهو ما وصل إليه الدكتور عبد الله شحاته في كتابه: (الإمام المصرى: الليث بن سعد) صـ٩. لكن بعض الباحثين يُصِرّون على القول بأنه فهمى عربى صريح في عروبته. ويعللون ذلك بأنه ابن عم الوليد بن رفاعة بن خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمى، الذى ولى مصر من سنة ١٠٩هـ إلى ١١٧هـ (الولاة والقضاة للكندى صـ٧٥-٧٩)، وهو عربى صريح في نسبته لا خلاف في ذلك، فيكون الليث - بالتبع - مثله. (الليث بن سعد)، للدكتور عبد الحليم محمود صـ٣٢، والمحدثون في مصر، لأحمد عمر هاشم صـ٨١).وعلى كل، فنسب الليث لا يدل على أنه ابن عم الوليد هذا، فجَدُّ الليث هو عبد الرحمن، وجد الوليد هو خالد.ولذا أرى أنه لا علاقة بينهما إلا صلة الولاء.ثم ماذا عليه لو كان مولى من الموالى، فقد عرفنا أن مَنْ تكلم العربية فهو عربى.

(٣) هى بلدة من بلاد الوجه البحرى (بأسفل أرض مصر)، بينها وبين القاهرة ثلاثة فراسخ، وهى حسنة المنظر، كثيرة الفواكه. وهكذا، كتبت باللام في دواوين الديار المصرية، وقال بذلك القلقشندى فهى بلده وهو أعرف بها. لكن ياقوت أبدل اللام راء في (معجم البلدان، ط.صادر) ٤/ ٣٢٧-٣٢٨، فقال: قَرْقَشَنْدَه، وهو الجارى على ألسنة العوامّ، وعليه جرى القُضاعى في (خِططه). (الأنساب للسمعانى ١٠/ ٢٦٩، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤/ ١٢٨، وصبح الأعشى للقلقشندى ٣/ ٣٩٩). وذكر الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه: (الليث بن سعد) صـ٣٤: أنها - الآن - في مركز طوخ بالقليوبية.

(٤) التاريخ الكبير، للبخارى ٧/ ٢٤٦، والتاريخ الصغير للبخارى ٢/ ٢٠٩، ومخطوطة تهذيب الكمال ٣/ ١١٥٢: واعتبره أصح ممن قال: ولد ٩٣هـ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢/ ٨٢، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٣٠١، وطبقات الفقهاء للشيرازى (ط.إحسان) صـ٧٨، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤/ ١٢٨: واستبعد كلاهما على لسان الليث ما ذكره بعض أهله من أنه ولد ٩٢هـ وأنبّه إلى خطأ واضح وقع فيه السمعانى في (الأنساب): ١٠/ ٢٦٩، ونقله عنه ابن الأثير في (اللباب في تهذيب الأنساب) ٢/ ٤٤٨، وذكره ابن كثير بقوله: حُكى عن بعضهم: أن لليث ولد ١٢٤هـ. وغنىّ عن القول أن هذا التاريخ فيه وهم كبير، وأشارك ابن كثير في تعليقه عليه بقوله: وذلك غريب جدًا (البداية والنهاية، ط.مكتبة المعارف): ١٠/ ١٦٦.

وظل يقوم بواجبه العلمي والريادى في مصر، حتى لقى ربه راضياً مرضيًا سنة ١٧٥هـ، وذلك بالفسطاط في يوم الجمعة، وصلّى عليه والى مصر في عهد الرشيد موسى بن عيسى الهاشمى[١]، ودُفن بالقَرافة الصغرى، وقبره مشهور يُزار هناك[٢].

٣- صفاتــه:

أوّلاً - صفاته المادية:

أ- غناه وثروته:

تمتع الليث بن سعد بغنى عظيم وثروات طائلة، حتى لقد بلغ دخله في السنة ثمانين ألف دينار[٣]، منها: حوالى ٢٥ ألف دينار من نتاج الإقطاعات والأراضى التى كان يمتلكها[٤]، إذ أمر له الخلفاء بالخُلَع والجوائز، وأعطاه الرشيد إقطاعاً في الجيزة[٥]، إلى جانب ما لعله كان يُعطاه نظير إشرافه على أمور البلاد بجانبيْها: الإدارى، والقضائى كرقيب على الولاة والقضاة بها، إذ كانوا لا يقطعون أمراً إلا بمشورته[٦]. وأخيراً، فقد كانت له ضيعة على مقربة من رشيد، له منها ٥٠ ألف دينار سنوياً[٧]. ولعلى أكون بذلك قد بيّنت مصادر ثروته[٨].

ب- صحته وعافيته البدنية:

١- من الأوصاف التى وصفه بها يحيى بن عبد الله بن بُكير أنه: فقيه البدن، أى:

(١) طبقات خليفة ٢٩٦، والتاريخ الكبير للبخارى ٧/ ٢٤٦، والصغير ٢/ ٢٠٩، ومروج الذهب للمسعودى ٢/ ٣٢٣: لكنه جعل مولده ٩٣هـ؛ لأنه قال: مات عن ٨٢ سنة. والأنساب للسمعانى ١٠/ ٢٦٩، ومخطوطة تهذيب الكمال: ٣/ ١١٥٢، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٦١-١٦٢، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٦، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٣٠١. وأنبه إلى خطأ ابن سعد في (الطبقات، ط.ليدن): ٧/ ٢/ ٢٠٤؛ إذ ذكر وفاة الليث في ١٦ شعبان ١٦٥هـ. والصحيح أنه مات ١٧٥هـ؛ بدليل أن الوالى موسى بن عيسى صلى عليه، وهو قد ولى مصر ثلاث مرات: ١٧١، ١٧٥، ١٧٩هـ، فيكون قد مات في ولايته الثانية. علاوة على أن ما قاله ابن سعد مخالف لعموم ما ذكرته، وأكدته المصادر الموثوق بها.

(٢) الجواهر المضيّة، للقرشى ٢/ ٧٢١، وحياة الحيوان الكبرى للدّميرى ٢/ ٣١٠.

(٣) تذكرة الحفاظ (ط.إحياء التراث) للذهبى: ١/ ٢٢٤، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٢.

(٤) المصدر السابق: ٨/ ١٥٢: وجعل الذهبى هذا الرقم أصح من الرقم الأول (٨٠ ألف دينار). ولا يصح ما ذكره ابن قتيبة في (المعارف) صـ٥٠٥: أن دخله ٥ آلاف دينار سنوياً. فذلك دخل لا يتلاءم مع ضخامة غناه، وعظيم ثروته.

(٥) الرحمة الغيثية لابن حجر: صـ٦.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٨/ ١٥٨.

(٧) الروض المعطار للحميرى صـ٢٧٣، ونقله عنه القلقشندى في صبح الأعشى ٣/ ٤٠٠.

(٨) تساءلت الدكتورة سيدة كاشف عن مصادر ثروته، ولم تُعدّدها تفصيلاً، فكأنها تشكك فيها (مصر في فجر الإسلام، الطبعة الأولى ١٩٤٧) صـ٣١٨.

صحيح الجسد(١).

٢- دخل الليث بن سعد على نافع مولى ابن عمر أثناء حجه سنة ١١٣هـ، فسأله عن بلده، فقال له: أنا رجل من أهل مصر. قال: فممن؟ قال: من قيس. قال: ابن رفاعة؟ قال: أنا ابن رجل من قومه(٢). فسأله: ابن كم؟ قال: ابن ٢٠ سنة. قال: أمّا لِحْيَتك، فلحية ابن أربعين(٣). وهذا يدل على سرعة نموه، وفراهة جسده.

٣- كما ورد في معرض مقارنته بابن لهيعة، أن الليث كان أكبر من ابن لهيعة بثلاث سنين، ومات بعده بسنة، إلا إذا نظرتَ إليهما، قلتَ: ذا ابن، وذا أب. أى: ابن لهيعة هو الأب(٤).

ثانياً - صفاته العقلية:

وطَبَعيّ أن تنعكس قوة الليث البدنية على قدراته العقلية. فقد عبّر عن تمتعه بالعقل، وتفضيل الله له به على غيره من الناس، فقال: أنا أكبر من ابن لهيعة، فالحمد لله الذى مَتَّعَنا بعقلنا(٥). والليث - هنا - يقصد ابن لهيعة الذى كان أصغر من الليث، لكنه اختلط آخر عمره، بينما الليث يكبره، وظل محتفظاً بذاكرته وضبطه، وصفاء ذهنه حتى آخر عمره. وقد شهد له المنصور بذلك، إذ قال له وهو يودعه ببيت المقدس بالشام: أعجبنى ما رأيت من شدة عقلك، والحمد لله الذى جعل في رعيتى مثلك(٦).

وقد برزت تلك الحقيقة في مواقف عدة من حياة الرجل، منها: هذان الموقفان الدالآن على ميزاته العقلية، ومن هذه الميزات:

أ- سرعة بديهته، وشدة فطنته:

واتضح ذلك في مسألة أعضلت الرشيد، فجمع لها فقهاء الأرض، وحلّها الليث ببساطة(٧). وخلاصتها: أن الرشيد أقسم أن يُطلّق زوجته وابنة عمه زُبيدة إن لم تكن له جنتان. فاستحلفه الليث ثلاثاً إن كان يخاف الله، فحلف له. فقال له الليث: إن الله يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾(٨). فسُرّ به الرشيد، وأقطعه قطائع كثيرة في مصر؛ جزاء له(٩).

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ٨/ ٤١٥.

(٢) وهذا يؤكد أنه ليس عربيًا صريح العروبة، وإنما ولاؤه فيهم.

(٣) المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٤٣.

(٤) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى ١٣/ ١٠، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥١.

(٥) تاريخ بغداد: ١٣/ ١٠، ومخطوطة تهذيب الكمال ٣/ ١١٥٢، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥١، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٤.

(٦) المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٤١، وتاريخ بغداد، ١٣/ ١٠، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥١.

(٧) المصدر السابق: ٨/ ١٥٩.

(٨) سورة الرحمن: الآية ٤٦.

(٩) حلية الأولياء، لأبى نعيم ٧/ ٣٢٣-٣٢٤، وتاريخ بغداد ١٣/ ٤-٥، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٤٥، =

ب- براعة فهمه، وحسن بيانه:

سأله الرشيد: ما صلاح بلدكم؟ قال: بإجراء النيل، وبصلاح أميرها. ومِنْ رأس العين يأتى الكَدَر. فإن صَفَتِ العين، صفت السواقى.قال: صدقتَ(١).

وهو يقصد أن حسن استخدام موارد البلد، إلى جانب صلاح حاكمها، يدفع إلى صلاح الرعيّة، وبالتالى يحل الاستقرار بين الراعى والرعية، والعكس صحيح.

ثالثاً - صفاته الخُلُقية:

١- جوده وكرمه:

وذلك ينبع - أوّلاً - من نفس لا تعرف الشح ولا المنع، فقد وسّع الله عليه، وهو - بدوره - يؤدى مال الله لعباد الله. لقد كان يعطى بلا حساب، حتى إن دخله السنوى العريض كان لا تجب عليه فيه زكاة قط، بل كان يستدين أحياناً(٢)؛ فهو ينفق ما معه على الفقراء والمحتاجين.

وعطاء الليث كان يُوجَّه إلى فئات ثلاث:

الفئة الأولى (العلماء):

فقد كان الليث بن سعد يحرص على اكتفاء العلماء من المال والاحتياجات؛ كى لا يمدوا أيديهم لأحد من خلق الله، فيظل علمهم خالصاً لوجه الله، وتظل هيبتهم موفورة في قلوب الناس؛ ولذا فقد كان الليث يسارع إلى مَدّ يد العون إليهم في المصائب والنكبات التى يتعرضون لها، مثل: إرساله ألف دينار إلى ابن لهيعة غداةَ احتراق داره وكتبه(٣). وكان يشجع المجتهدين منهم؛ كى يحافظوا على علمهم، فحبا منصور بن عمار الواعظ مالاً كثيراً وجارية؛ ليصون بذلك المال حكمته التى آتاه الله إياها(٤). وصِلاته ومساعداته للإمام مالك معروفة ومشهورة(٥). بل إنه كان يستخدم المال -

---

= وتذكرة الحفاظ (ط.إحياء التراث): ١/ ٢٢٥. وعلّق الذهبى على هذه الرواية بأن هذه القصة - إن صحّت - كان ذلك قبل خلافة الرشيد. (سير أعلام النبلاء ٨/ ١٤٦). ولعله يقول هذا؛ لأن الرشيد تولى ١٧٠هـ، ولم يُعلم ذهاب الليث إلى العراق بعد سنة ١٦١هـ.

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم ٧/ ٣٢٢، وسير أعلام النبلاء للذهبى ٨/ ١٥٨.

(٢) دول الإسلام للذهبى ١/ ١١٤، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٢، ومخطوطة تهذيب الكمال ٣/ ١١٥٢، والكواكب السيارة، لابن الزيات ص٩٩، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٦، وخلاصة الخزرجى ٢/ ٣٧١.

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٥١.

(٤) المعارف لابن قتيبة ص٥٠٦، وحلية الأولياء لأبى نعيم ٧/ ٣٢٠، ومخطوطة تهذيب الكمال للمزى: ٣/ ١١٥٢، والجواهر المضية للقرشى ٢/ ٧٢١، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٨/ ٤١٥: وفيه أنه أعطاه ألف دينار. ويذكر قتيبة بن سعيد راوى الخبر: أن الليث وصل مالكاً كذلك، ووصله هو شخصيّاً بأن كساه قميص سندس لا يزال عنده.

(٥) مخطوطة تهذيب الكمال ٣/ ١١٥٢ والجواهر، المضية للقرشى ٢/ ٧٢١، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٦.

أحياناً - مع العلماء؛ ليزيل ما في القلوب من ضِغْن أو حسد أو حقد، فيتألف بذلك قلوب هؤلاء. وقدِ بلغَنا حسن صنيعه مع يحيى بن أيوب، وحتى انقلبت قطيعته وعداوته لليث إلى جِفاوة، وصداقة ومودة(١).

الفئة الثانية (إحسانه إلى طلاب العلم):

يذكر السمعانى(٢) أن الليث بن سعد كان لا يُحدّث أحداً حتى يدخله فيمن يُجرى عليه رزقه، وما يحتاج إليه في فترة مقامه عنده، فإذا خرج طلاب العلم زوّدهم ما فيه البُلْغَة إلى أوطانهم.

ولم يكن إحسانه إليهم يقف عند حد تزويدهم بالمال والطعام، وإنما يصبر عليهم ولا يحتجب عنهم. فيذكر كاتبه أبو صالح أنهم كانوا على باب مالك، فامتنع عنهم واحتجب، فقالوا: ليس هذا يشبه صاحبنا (أى: الليث). فلمّا سمع كلامهم أدخلهم، وعلم منهم أن صاحبهم هو الليث بن سعد، وعلّق على قولهم قائلاً: تشبهوننى برجل كتبتُ إليه في قليل عُصْفُر، نصبغ به ثياب صبياننا، فأنفذ ما يكفينا ويكفى جيراننا، وبعنا الفضل بألف دينار ؟!(٣) وكذلك من مظاهر كرمه مع طلاب العلم أنه كان يحسن توجيهه لهم، ويلين القول معهم، فيروى أنه أشرف على طلاب الحديث، فرأى منهم شيئاً لم يعجبه، فقال: ما هذا؟ أنتم إلى يسير من الأدب أحوج منكم إلى كثير من العلم(٤).

الفئة الثالثة (إحسانه إلى عوامّ الناس):

وذلك أمر طبيعى، وعليه نماذج عديدة، منها:

أ- أنه كان يخصص مجلسين من مجالس يومه الأربعة لقضاء حوائج الناس، فلا يَرُدّ صغيراً ولا كبيراً، ويطعم الناس أفضل الطعام الذى يحبونه كالهرائس بعسل النحل وسمن البقر شتاء، وسَويق اللّوْز في السكر صيفاً(٥).

ب- قول كاتبه وتلميذه عبد الله بن صالح: صحبتُ الليث عشرين سنة، لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس(٦).

---

(١) معرفة الرجال لابن معين ١/ ١٥٤، والرحمة الغيثية لابن حجر صـ٥-٦.

(٢) الأنساب: ١٠/ ٢٦٩.

(٣) الرحمة الغيثية لابن حجر صـ٥.

(٤) شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادى: صـ١٢٢.

(٥) تاريخ بغداد: ١٣/ ٩، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٠.

(٦) تهذيب التهذيب ٨/ ٤١٦. وفى شذرات الذهب لابن العماد ١/ ٢٨٥-٢٨٦: ورد أنه كان يطعم قبل أن يتغدى كل يوم ٣٦٠ مسكيناً. ورغم المبالغة التى تبدو في الرقم، إلا أن العماد علّل هذا الرقم بأن الليث يريد التصدق بعدد عظام أصابع الإنسان محقِّقاً حديث: " يصبح على كل سُلامَى من أحدكم صدقة ".

جـ- كان الليث إذا قفل من الإسكندرية يعود بثلاث سفن: إحداها لمطبخه، والأخرى فيها عياله، والثالثة بها أضيافه(١).

٢- تواضعه:

يذكر ابنه شعيب أن الخليفة المنصور لمّا مدح عقل والده، وحمد الله على أن جعل الله في رعيته مثل الليث؛ قال الليث لابنه ولمن سمع مقالة المنصور: لا تخبروا بهذا ما دمتُ حيًا(٢). وما ذاك إلا رغبة عن الشهرة والسمعة، والثناء والإعجاب.

ومما يدل على تواضعه الجَمّ مع إمامته، وغزارة علمه وفقهه ورياسته، أنه لم يكن يصلى بالناس إماماً، بل إنه كان في رباطه بالإسكندرية لا يصلى بالناس كذلك، وما صلى بهم يوماً إلا لمرض ابنه شعيب، الذى كان يؤمهم في الصلاة(٣).

٣- أمانته:

أورد القلقشندى نقلاً عن القضاعى في (خططه)، أن الليث بن سعد كانت له دار بالفسطاط، وأخرى بقلقشنده بالريف، وأن ابن عمه(٤)، والى مصر الوليد بن رفاعة (١٠٩-١١٧هـ)، كان يخاصم الليث ويعانده، فهدم له داره هناك. وكلما بناها الليث، هدمها ابن رفاعة. وفى المرة الثالثة رأى الليث في منامه آتياً يقول له: يا ليث، ونريد أن نمن على الذين استُضْعِفوا. فأصبح فإذا بابن رفاعة قد أُفْلِج. فأوصى ابن رفاعة إلى الليث، ومات بعد ثلاث(٥). وإن كان لى من تعليق على هذه الرواية، التى انفرد بنقلها عن القضاعى كل من: (ياقوت)(٦)، و(القلقشندى)، فإنى أقول:

أ- كان الليث بن سعد يوم وفاة الوليد بن رفاعة ابن ٢٤ سنة، فربما كان تعنت هذا الوالى معه في فترة مبكرة من حياة الليث، لم يكن خلالها علا نجمه وعُرفت مكانته وشهرته، وإلا فنفوذ الليث ووجاهته ومكانته لا تستقيم مع سوء فعل ابن رفاعة معه.

ب- إن الرواية يبدو منها ندم ابن رفاعة على ما فعله بالرجل الصالح الكريم الليث بن سعد، حتى إنه شهد له بالأمانة والفضل والثقة التامة، إذ لم يجد مَنْ يوصى إليه، ويعهد إليه بتوزيع أمواله، ورعاية ولده من بعده سواه.

---

(١) تهذيب التهذيب ٨/ ٤١٥-٤١٦، والرحمة الغيثية لابن حجر: صـ٥.

(٢) المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٤١، وتاريخ بغداد ١٣/ ١٠، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٥١.

(٣) تاريخ بغداد ١٣/ ١٠، ومخطوطة تهذيب الكمال ٣/ ١١٥٢.

(٤) سبق أن بيّنتُ أن هذا غير صحيح، فلئن كان ابن رفاعة عربياً صريح العروبة، فالليث ينتسب إلى قبيلته ولاء.

(٥) صبح الأعشى، للقلقشندى ٣/ ٤٠٠. وذكر ابن حجر في (الرحمة الغيثية) صـ٨: أن ابن رفاعة أوصى - كذلك - إلى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، وأمره ألا يَفْتات على الليث؛ فإن لليث نصحاً ورأياً.

(٦) في معجم البلدان (ط.صادر): ٤/ ٣٢٨.

رابعاً - صفاته النفسيّة:

أ- رهافة حسه ولين قلبه:

وذلك واضح من بكائه الشديد، الذى صدر منه لمّا سمع مواعظ منصور بن عمار القاصّ[(١)]، وكافأه بالمال؛ ليحافظ على حكمته. وكذلك - وكفى بالموت واعظاً - روى محمد بن رمح التُّجيبى أنه رأى الليث جالساً على قبر يُدفن صاحبُه، ودموعه تسيل على لحيته[(٢)].

ب- شجاعته، وحسن تصرفه مع الحكام:

علمنا - فيما مضى - أن الليث بن سعد كان يتمتع بمكانة سامية لدى الخلفاء، وأنهم أثنوا على عقله وحكمته، وأن الوالى والقاضى في مصر تحت أمره يرجعون إليه ويستشيرونه[(٣)]، فكلمته قاطعة وبيده عزلهما بالحق، دونما انحراف بالسلطة المخوّلة له. ولرب سائل يسأل: هل تولى الليث منصب الإمارة، أو القضاء رسميّاً في مصر، ما دام الخلفاء على علم بمهارته ومكانته في بلده؟

والجواب: أن المصادر أوردت-فى هذا الشأن-عدة روايات، منها:

١- قال المنصور لليث في بيت المقدس: ألا تنظر لى رجلاً أستعمله على مصر؟ فأرشده الليث إلى أحدهم، ووصفه له بالعلم. قال المنصور: ذاك ضعيف. قال الليث: بل قوى. فأعاد المنصور قولته في الرجل. قال الليث بلباقة: أمير المؤمنين أبصر برعيته. قال له المنصور: انظر لى رجلاً أستعمله. قال الليث بدهاء: أفعل. قال المنصور لليث محاصراً له، ومحرجاً إياه: فما يمنعك أنت؟ قال الليث ببراءة، وأدب جَمّ، واعتذار جميل: أنا لا أقوى، وأنا ضعيف. قال المنصور بحُنْكَة ووعى: أنت قوى إلا أن تضعف نيتك فينا[(٤)](أى: في العمل معنا).

ومعنى ما تقدم أن المنصور كان يطمع في تولية الليث إمارة مصر، لكنه اعتذر بأنه من الموالى[(٥)]، وليست له عصبية في مصر تقوى شوكته، وتنفذ كلمته على الرعية، لكن المنصور أدرى بمكان الليث من الناس، فأخبره بحقيقة رأيه: وهو أن الليث يتهرب من العمل معهم والولاية لهم؛ نزاهة وتعففاً، لا عن معاداة أو إهمال أو

(١) حلية الأولياء، لأبى نعيم ٧/ ٣٢٠.

(٢) المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٤٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٤٣، وتذكرة الحفاظ للذهبى (ط.إحياء التراث): ١/ ٢٢٤، والعبر للذهبى ١/ ٢٠٦، ودول الإسلام للذهبى ١/ ١١٤، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢/ ٨٢.

(٤) المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٤١. وقد أورد الذهبى في (سير أعلام النبلاء) ٨/ ١٥٦: أن الليث دلّ المنصور على عثمان بن الحكم الجُذامى لولاية مصر؛ فهو رجل صالح وله عشيرة. ويقال: إن عثمان لمّا بلغه ذلك، عاهد الله ألا يكلم الليث.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٨/ ١٤٦.

مقاطعة؛ لذا لم يعاقبة كما عاقب أبا حنيفة-مثلاً - لمّا رفض تولى القضاء للمنصور. فلكلٍّ مقامٌ معلوم.

٢- ورد في كتاب (المِزّى)[١] : أن المنصور لمّا مدح عقل الليث وهو يُودّعه، قال له كلمة قد يُستشف منها أنه ولى مصر بالفعل، إذ قال له: " فاتق الله في الرعية أمثالك ".

٣- ويؤكد النقطة السابقة مع فارق في حجم الولاية ما أورده الذهبى[٢] من أن الليث بن سعد ولى لصالح بن علىّ ثلاث ولايات مُرْغَماً. وبيّن ذلك قائلاً: إن صالح ابن علىّ قال لعمرو بن الحارث: لا أدع الليث حتى يلى لنا، أو لأضربن عنقه. فحذّر عمرو الليث، فاضطر إلى تولى ديوان العطاء، والجزية أيام المنصور، والديوان أيام المهدى.

ومن هنا نخرج بأن الليث لم يَلِ أمر مصر، وإنما ولى الإشراف على بعض الشئون الإدارية والمالية لفترات محدودة. وأما ما قاله المنصور له وهو يودعه فمن المعلوم أن الليث كان في مكان يفوق الوالى والقاضى معاً، فهو جدير بأن يُوصّى بالرعية خيراً. وهذا هو الأرجح؛ بدليل أن الكندى لم يورده في ولاة مصر، وما كان ذلك ليفوت الكندى، لو أنه حقًّا ولى ذلك المنصب.

أما بخصوص ما ورد عن توليه منصب القضاء، فقد وردت إلينا نصوص، منها:

أ- ما ذكره ابن كثير بصيغة التشكيك: حُكى عن بعضهم أنه ولى القضاء بمصر، فلم يحمدوا له ذهنه بعد ذلك، وكان - قبلُ - جيد الذهن[٣].

ب- وذكر الدَّميرى: أنه ولى قضاء مصر[٤].

جـ- وذكر الأصفهانى[٥]، نقلاً عن ابن الأهدل: أن المنصور أراده لولاية مصر فأبى، لكنه تولى قضاءها.

والخلاصـــة:

أن الأقوال السابقة مشكوك في صحتها، وغير مبرهن على صدقها، ومرسلة غير مقيدة بتاريخ معين، بالإضافة إلى أن الكندى لم يورد اسم الليث في قضاة مصر، وهو عمدتنا في هذا الشأن. والليث - أخيراً - ليس بحاجة إلى ولاية، ولا إلى قضاء، فقد

---

(١) مخطوطة تهذيب الكمال ٣/ ١١٥٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٨/ ١٥٧-١٥٨: وفيها نص على ولاية الجزيرة وحدها، وكذلك (النجوم الزاهرة) لابن تغرى بردى ٢/ ٨٢. ولعل كلمة (الجزية)، التى أثبتها في المتن هى الصواب، والجزيرة محرفة عنها.

(٣) البداية والنهاية (ط.الريان): ١٠/ ١٦٦.

(٤) حياة الحيوان الكبرى ٢/ ٣١٠.

(٥) ابن العماد الأصفهانى: شذرات الذهب ١/ ٢٨٥.

كان فوق هؤلاء جميعاً.

جـ- قوة تأثيره في مجتمعه:

لا شك أن الليث كان ذا مقام رفيع بين الناس فقيهاً ومحدّثاً ومؤرخاً وعالماً، وجَواداً ومِعْطاء. ولذا عرف له الناس ذلك كله. وخير ما يدلل على عمق اقتناعهم به، وسلاسة قيادهم له ما يلى:

١- أن أهل مصر كانوا ينتقصون عثمان، ويميلون للتشُّيع إلى علىّ حتى نشأ فيهم الليث، فحدّثهم بفضائل عثمان بن عفان ﷺ، فكَفُّوا عن انتقاصه.

فدوره في هذا الشأن كدور إسماعيل بن عيّاش في أهل حمص، إذ حدّثهم بفضائل علىّ، فكفوا عن سَبّه[١].

٢- ما يرويه الذهبى من أن مروان بن محمد أرسل إلى الوالى حَوْثرة بن سُهَيْل قاضياً أعرابياً فصيحاً، لكنه يحتاج إلى رجل يُسدّده، ويشير عليه في القضاء، ويُصّوبه في المنطق (الأحكام). فأُجمع رأى الناس على الليث بن سعد، رغم وجود أستاذيه: يزيد بن أبى حبيب، وعمرو بن الحارث[٢].

وهكذا، وبعد هذه الرحلة الطويلة الممتعة مع جنبات عقل وفكر وخُلُق ونفسية الليث، لا يسعنى إلا أن أختم ترجمته بهذين النصين:

أولهما - عن يحيى بن عبد الله بن بُكير تلميذه المعاصر له قال: في الليث صفات لم أرها إلا فيه[٣].

ثانيهما - ما قاله خالد بن عبد السلام الصَّدَفى: " شهدتُ جِنازة الليث مع والدى، فما رأيتُ أعظم منها. الناس يُعَزِّى بعضهم بعضاً، وعليهم - جميعاً - الحزن. قلتُ لوالدى: كأن كل واحد منهم صاحب الجنازة! قال: يا بنى، لا ترى مثله أبداً "[٤].

آثاره التاريخية:

على خلاف ما كنا نتردد في القَطْع بوجود مصنفات تاريخية لمن سبق من مؤرخى مصر، نجد الموقف مع الليث بن سعد جِدّ متغير، إذ تثبت له المصادر - بالفعل - أنه ألّف في التاريخ. فها هو ابن النديم[٥] يذكر أن لليث مصنَّفاً يسمى (التاريخ). ويذكر السخاوى[٦]: أن الليث صنّف كتابه: (التاريخ) في المائة الثانية من الهجرة. وإذا ألقينا

---

(١) تاريخ بغداد: ٧/١٣، ومخطوطة تهذيب الكمال للمزى ١١٥٢/٣، وسير أعلام النبلاء٨/١٤٨، وتهذيب التهذيب ٨/ ٤١٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٥٩.

(٣) طبقات الحفاظ للسيوطى صـ٩٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٦٢.

(٥) الفهرست صـ٢٥٢ (المقالة السادسة بالفن الأول).

(٦) الإعلان بالتوبيخ (ط.دار الكتب العلمية) صـ٣٣٦.

نظرة على المراجع الحديثة، فإن الزركلى[١] يذكر أن له تصانيف. هكذا بإيهام وعمومية دون توضيح، أو تفصيل. وكأنه اكتفى بأن يذكر أن ابن حجر وضع كتاباً في ترجمة الليث سمّاه: (الترجمة الغيثية في الترجمة الليثية)، وأشار إلى أنه مطبوع. أما صاحب (معجم المؤلفين)[٢]، فقد ذكر ما ذكره ابن النديم من أن لليث كتاب (التاريخ).

وثمة دليلان عمليان تطبيقيان، يثبتان تأليف الليث في التاريخ:

أولهما - نص يقول فيه العلامة الكندى بالحرف الواحد: " قال الليث بن سعد في (تاريخه): افتتح عمرو بن العاص أطْرابُلُس سنة ٢٣هـ "[٣].

ثانيهما - يُستشف من الإسناد الذى أفاد، ونقل به (خليفة بن خياط) في (تاريخه) عن الليث في الروايات التى رواها له، أن لليث تاريخاً. هذا الإسناد يقول فيه بَقِيُ بن مَخْلَد القرطبى[٤] (ت ٢٧٦هـ) راوى تاريخ خليفة: (قُرِئ على ابن بُكير، وأنا أسمع، عن الليث)[٥]. وهذا يعنى أن بقيًا كان يجلس في مجلس علم ابن بُكير، ويسمع قراءة التلاميذ من كتاب (ابن بُكير) في (التاريخ)، وهذا الكتاب نقله ابن بكير بدوره عن أستاذه (الليث بن سعد). وهذا يعنى بطريقة غير مباشرة أن الليث وضع كتاباً في التاريخ، أفاد منه يحيى بن بكير إفادات هائلة[٦].

بعد أن أثبتُ - بما لا يدع مجالاً للشك - وجود كتاب مُؤلّف في (التاريخ) لليث بن سعد، وأنه كان موجوداً بين أيدى الباحثين ينقلون عنه على مدار فترة من الفترات، ربما تمتد إلى عصر السخاوى (ت ٩٠٢هـ) صاحب (الإعلان)، إلا أن هذا الكتاب - اليوم - لا يوجد بين أيدينا؛ ولذا قمتُ بتجميع ما تيسر لى من بقاياه مرتبة ترتيباً موضوعيًا وزمنيًا، لعلها تُعين على تشكيل الملامح العامة لمنهجه التاريخى .وهاكَ

(١) الأعلام ٥/ ٢٤٨.

(٢) عمر رضا كحّالة: ٨/ ١٦٢.

(٣) الولاة والقضاة صـ١٠. وقال ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) صـ١٧١: عن ابن بكير، عن الليث: غزا عمرو طرابلس ٢٣هـ. وهذا يدل على أن رواية ابن بكير، عن الليث، إنما هى من كتاب الليث.

(٤) هو أبو عبد الرحمن الأندلسى القرطبى الحافظ، أحد الأعلام الكبار. ولد ٢٠١هـ، وتوفى ٢٧٦هـ. وهو من أئمة الدين، والزهاد الصالحين. رحل إلى المشرق رحلتين: استمرت الأولى عشرين سنة، والثانية: ١٤ سنة. روى عن الأئمة وأعلام السنّة، مثل: البخارى، وابن حنبل، وابن أبى شَيْبة، وخليفة بن خياط، وابن بكير، وجماعات أعلام يزيدون على المائتين. وكتب مصنفات كباراً في التفسير والحديث. ثم رجع إلى الأندلس، فملأها علماً جمًا، وألّف كتباً حِساناً تدل على احتفاله واستكثاره (معجم الأدباء) لياقوت ٧/ ٧٥-٨٥ (رقم ٢١)، والوافى بالوفيات للصفدى ١٠/ ١٨٢-١٨٣ (رقم ٤٦٦٥).

(٥) يستخدم هذا الإسناد في (تاريخ خليفة) في عدة مواضع، سأذكر بعضها في حينه.

(٦) تاريخ خليفة (مقدمة المحقق) ص٣٢، ودراسات عن ابن عبد الحكم لمجموعة من الأساتذة صـ١٧٧، Torrey : Introduction of Futuh-Misr , P.6.

بعضَ هذه البقايا من المرويات:

أولاً - في تاريخ ما قبل الإسلام:

أ- روى الليث بن سعد بإسناده، عن معاوية بن صالح إلى عبادة بن الصامت مرفوعاً، عن رسول الله ﷺ قوله: " إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ ".(١) وهذا يعنى اهتمام الليث ببدء الخلق، وأول ما خلقه الله (تعالى).

ب- وكذلك أورد الطبرى ما يفيد اهتمام الليث باليوم، الذى خُلق فيه أبو البشر آدم، وبالوقت الذى أُدخل فيه الجنة، وأُخرج فيه منها، فيروى حديثاً عن جعفر بن ربيعة، عن الأعرج، عن أبى هريرة مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: " لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ عَلَى مِثْلِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَفِيهِ أُعِيدَ فِيهَا "(٢).

جـ- وروى عن الليث ما يتصل بقصة نبى الله نوح في حديث مرسل، رواه عنه أبو صالح، وذلك فيما يتعلّق بسفينة نوح عليه السلام وأوصافها العجيبة، وأن نوحاً حمل فيها من كُلٍّ زوجين اثنين وأهله، وأن سكانها وركابها شَكَوْا من الأسد الذى نقل إليهم مرض الحُمَّى، وأن الفأرة كانت تعترض السفينة. فخُلق القط من أنف الأسد لمواجهة الفأرة ومشاكستها(٣). إلى آخر هذا القصص المشكوك في صحته.

د- وكذلك كان لليث اهتمامه بحياة الأحناف، الذين كانوا في مكة، يتعبدون على دين إبراهيم عليه السلام، فتحدث الليث عن أحدهم، وهو زيد بن عمرو بن نُفَيل، وذلك فيما كتب به إلي الليث هشامُ بن عروة، عن أبيه، عن أسماء بنت أبى بكر: أنها رأت زيداً قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة، مخاطباً قومه من قريش قائلاً لهم: إنه لم يبق على دين إبراهيم سواه. وكان يقاوم جاهليتهم الجهلاء، فيحول دون وأدهم بناتهم، إذ كان يأتى الرجل، فيعرض عليه أن يكفيه طعام ابنته، ويأخذها يربيها في بيته، فإذا ترعرعتْ خَيّر أباها بين أن يدفعها إليه، أو يُبقيها معه(٤).

ثانياً - في السيرة:

أ- بشريات مولده ﷺ وميزاته:

يروى الليث، عن عبد الرحمن بن مهدى وغيره: أن رسول الله ﷺ قُدّر له أن يكون خاتم النبيين، وآدم لا يزال طيناً، فهو دعوة أبيه إبراهيم التى دعاها فاستجاب الله له، وبشارة أخيه عيسى، ورؤيا أمه آمنة، التى رأت حين وضعتْه أن نوراً خرج منها أضاءت

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٣٢.

(٢) السابق: ١/ ١١٤.

(٣) أخرج الحديث أحمد في (مسنده) ٤/ ١٢٧، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف) ١/ ١١١.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ١/ ٢٣٧، ٢٤١.

منه قصور الشام. ويعلّق ابن كثير على تلك الإرهاصات، ومظاهر العظمة لسيدنا محمد ﷺ بأن هذا تنويه عن مكانه بالملأ الأعلى، وأنه ﷺ كان الخاتم قبل أن يُنفخ في آدم الروح؛ لأن علم الله سابق على خلق السموات والأرض لا محالة، فأعلَمَ به الملأ الأعلى(١).

ب- وحول محاولة أبى جهل إيذاء رسول الله ﷺ بأن يطأ عنقه بقدمه وهو ساجد، روى أبو صالح، عن الليث بسنده إلى العباس عم رسول الله ﷺ أن أبا جهل تراجع عن سوء فعله؛ لأن الملك سَدّ عليه أفق السماء، فبلغ الرسول نهاية ما كان يقرأ وسجد، ولم يحدث له شئ(٢).

جـ- ويروى ابن بكير، عن الليث، عن عُقيل بن خالد بسنده إلى عائشة - رضى الله عنها-: أن أبا بكر تعرض - فيما يبدو - للإيذاء، فأراد الهجرة إلى الحبشة، فلقيه ابن الدُّغُنَّة، فأجاره، وأعاده إلى مكة(٣).

د- وروى أبو صالح، عن الليث، عن عقيل بن خالد، عن ابن شهاب، عن عروة: أن السيدة خديجة -رضى الله عنها- زوج الرسول ﷺ توفيت قبل الهجرة من مكة إلى المدينة قبل أن تُفرض الصلاة(٤). ومن المعلوم أن أبا طالب عم النبى ﷺ الذى كان يؤيده، لكنه مات على الكفر، توفى في العام نفسه (العام العاشر للبعثة). وقد أخبر النبى ﷺ فيما يرويه الليث عنه، قال: " لَعَلَّهُ تنفعُه شَفَاعَتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلَ فِى ضَحْضَاحٍ(٥) مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِى مِنْهُ دِمَاغُهُ "(٦).

هـ- وفيما يتصل بغزوة بدر ذكر أن أوّل قتيل من المسلمين بها هو مَهْجَع مولى عمر، ورجل من الأنصار. وقُتل - يومئذ - من المشركين زيادة على سبعين، ومثلهم أُسر (وذلك فيما يرويه أبو صالح، عن الليث، عن عقيل، عن الزهرى)(٧). وبالنسبة لِعظَم مكانة مَنْ شهد بدراً من المسلمين، قال الليث عن أبى الزبير، عن جابر: إن عبداً لحاطب بن أبى بَلْتَعَة جاء يشكوه، فقال: يا رسول الله، ليدخلنّ حاطبٌ النارَ. قال: " كَذَبْتَ لاَ يَدْخُلُهَا؛ إِنَّهُ شَهِدَ بَدْراً وَالْحُدَيْبِيَةَ(٨).

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٢١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٤٣.

(٣) السابق: ٣/ ٩٤-٩٥.

(٤) المعرفة والتاريخ للفسوى ٣/ ٢٥٥-٢٥٦، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف) ٣/ ١٢٧.

(٥) ضَحْضَاح: بعيداً عن أسافل جهنم (على وجه الأرض). ضَحْضَح الأمر: تبيَّن. (لسان العرب) لابن منظور مادة (ض.ح.ح) ٤/ ٢٥٥٦.

(٦) أخرجه البخارى في (صحيحه، ط.دار ابن كثير)، كتاب (فضائل الصحابة) باب (قصة أبى طالب): ٣/ ١٤٠٩ (رقم ٣٦٧٢). وذكره ابن كثير في (البداية والنهاية ط.مكتبة المعارف): ٣/ ١٢٥.

(٧) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٣٠٠.

(٨) أخرجه مسلم في (صحيحه)، كتاب (الفضائل) باب (من فضائل أهل بدر) ٤/ ١٩٤٢ (رقم ٢١٩٥).

و- وفيما يتصل بشهداء غزوة أحد يُحدّث قتيبة بن سعيد، عن الليث، عن ابن شهاب بسنده إلى جابر بن عبد الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذاً لِلْقُرآنِ؟ فَإِذَا أُشِيرَ إلى أَحَدِهِمَا، قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ. وقال: " أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلاَءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ بِدِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا "[١].

ز- وروى أبو صالح، عن الليث، عن عقيل: أن غزوة بنى النضير كانت بعد بدر بستة أشهر قبل أحد. وبه قال البخارى، عن الزهرى، عن عروة[٢].

لكن ابن كثير يُعلّق على ذلك، فيقول: إن الصواب إيراد هذه الغزوة بعد ذلك (٤هـ)؛ لأن الخمر حُرّمت ليالى حصار بنى النضير، وثبت أن بعض المسلمين ممن قُتل يوم أحد شهيداً اصطبح الخمر، فدل على أن الخمر - يومها - كانت حلالاً وحُرِّمَتْ بعد ذلك، فتكون غزوة بنى النضير بعد أحد[٣].

ح- وروى الليث، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة وحديثها عن أهل الإفك، وقصة ذلك بالتفصيل منذ خروج النبى ﷺ بها في غزوة بنى المُصْطَلِق، حتى برّأها الله مما قاله المنافقون[٤].

ط- حدّث الليث، عن سعيد المَقْبُرى بسنده إلى أبى هريرة أن الرسول ﷺ بعث سَرِيَّة تجاه نَجْد بعد غزوة بنى المصطلق، فأسرتْ رجلاً من بنى حنيفة، يُسمى: (ثُمامة بن أثال)، وهو سيّد أهل اليمامة باليمن، وربطوه بسارية المسجد، ومَنّ عليه رسول الله ﷺ بإطلاق سراحه. فلمّا ذهب إلى قومه، عاد - ثانية - إلى الرسول ﷺ - بكامل إرادته - وأعلن إسلامه، وعقد العزم على ألا يعطى قريشاً حَبّة قمح حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ[٥].

ى- روى الليث في حديث صحيح - كما يذكر الذهبى - عن أبى الزبير، عن جابر بن عبد الله الأنصارى: أن سعد بن معاذ أصيب إصابة خطيرة في غزوة الأحزاب،

---

(١) أخرجه أحمد في (مسنده): ٥/ ٤٣١، والبخارى في (صحيحه، ط.ابن كثير)، كتاب (الجنائز) باب (الصلاة على الشهيد) ١/ ٤٥٠-٤٥١ (رقم ١٢٧٨)، وفى كتاب (المغازى) باب (من قُتل من المسلمين يوم أحد) ٤/١٤٩٧، وسنن ابن ماجة، كتاب (الجنائز)، باب (ما جاء في الصلاة على الشهداء ودفنهم) ١/ ٤٨٥ (رقم ٣٨٥١) عن جابرﷺ، والترمذى في (سننه)، كتاب (الجنائز) باب (ما جاء في قتلى أحد، وذكر حمزة) ٣/ ٣٣٦ (رقم ١٠١٦)، وصحّحه. والنسائى في (سننه)، كتاب (الجنائز) باب (ترك الصلاة عليهم) ٤/ ٦٢ (رقم ١٩٥٥). وذكره ابن كثير في (البداية والنهاية، ط.مكتبة المعارف) ٤/ ٤١.

(٢) المصدر السابق: ٤/ ٧٤.

(٣) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف): ٤/ ٩.

(٤) تاريخ الإسلام، للذهبى (مجلد المغازى، بتحقيق: حمدان): ص٢٢٥-٢٢٩.

(٥) المصدر السابق: ص٢١٩، والبداية النهاية (ط.مكتبة المعارف) ٥/ ٤٨-٤٩.

ونزف نزفاً شديداً، وانتفخت يده. ودعا سعد الله ألا يموتَ حتى يُقِرَّ عَيْنَه من يهود بنى قُرَيْظة. وهاجمهم الرسول ﷺ؛ نتيجة خيانتهم المسلمين يوم الأحزاب، وحَكّم سعداً فيهم، فحكم سعد فيهم بحكم الله، وهو أن يُقَتَّل رجالهم، وتسبى نساؤهم وذراريهم، وكانوا حوالى أربعمائة. فلمّا فرغ المسلمون من قتلهم، انفجر عرق سعد، ومات(١).

ك- اهتم الليث بن سعد ببيعة الرضوان، فروى عن أبى الزبير، عن جابر: أن عدد المسلمين يوم الحديبية ألف وأربعمائة. وصحّح ذلك الذهبى(٢). وذكر أحداث بيعة الرضوان، وما وقع فيها(٣)، وما نتج عنها من صلح، طَبّق الرسول آية الممتحنة(٤) فيه - مقدّماً إياها على بنود الصلح - على أم كُلْثوم بنت عقبة بن أبى مُعَيْط، التى خرجت من عند قريش مهاجرة مسلمة، فأراد أهلها أن يعيدها الرسول إليهم فلم يَرْجعها؛ لأنه امتحنها، وتأكّد له حسن إسلامها(٥). (وذلك فيما يرويه الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب).

ل- اليهود والتآمر على الرسول ﷺ:

روي الليث، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى، عن أبى هريرة: أنه لمّا فُتحت خيبر، أُهديت للنبى ﷺ من امرأة يهودية شاة فيها سم. فأبلغت ذراع الشاة المحشوة سُمًّا رسول الله ﷺ بما فيها، فأنجاه الله منها. وتعلّلت المرأة بأنها فعلت ذلك؛ للتحقق من صدق نبوته ﷺ(٦).

م- حول توقيت فتح مكة:

ذكر الليث: أنه تم في رمضان، وأن الرسول ﷺ دخل مكة من أعلى على راحلته، مُرْدِفاً أسامة بن زيد، وعثمان بن طلحة حتى أناخ في المسجد(٧).

ن- عن المنافقين:

ذكر الليث، عن يحيى بن سعيد، عن أبى الزبير، عن جابر قال: أتى رجل إلى

---

(١) تاريخ الإسلام (مجلد المغازى) للذهبى صـ٢٦٤، والبداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف) لابن كثير: ١٢٢/٤.

(٢) تاريخ الطبرى (سنة ٦هـ) ٦٢١/٢، وتاريخ الإسلام (مجلد المغازى)، للذهبى صـ٣٠٤.

(٣) المصدر السابق صـ٣٢١.

(٤) " يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا. . " (سورة الممتحنة: جزء من الآية ١٠).

(٥) تاريخ الإسلام (مجلد المغازى)، للذهبى صـ٣٣٣، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ١٧٧/٤.

(٦) تاريخ الإسلام (مجلد المغازى) صـ٣٦٢، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف) ٢٠٨/٤-٢٠٩.

(٧) المصدر السابق: ٢٨٥/٤، ٣٠٣.

النبى ﷺ، وهو يقسم الغنائم منصرفَه من حُنَيْن، واتهم الرسولَ أنه لم يعدل في توزيع الغنائم. ورَدّ رسول الله ﷺ عليه: ويلك، إن لم أعدل. وأراد عمر بن الخطاب ﷺ أن يقتل ذلك المنافق ،ورفض رسول الله ﷺ ذلك[١].

س- حول توقيت وفاة رسول الله ﷺ،وما قاله في سكرات الموت:

روى الليث أن الرسول ﷺ توفى لليلة خلت من ربيع الأول على رأس ١٠ سنين من مقدمه إلى المدينة[٢]. وذكر عن يزيد بن الهاد فيما ترويه عائشة -رضى الله عنها-: أن الرسول ﷺ كان يُدْخِلُ يده في القَدَح، ويمسح وجهه بالماء، ويقول: " اللّهُمَّ، أَعِنِّي عَلَى سَكَرَاتِ الْمَوْتِ "[٣].

ثالثاً - في تاريخ الراشدين:

أ- أبو بكر في مرض الموت:

يحدّث ابن بكير، عن الليث بسنده إلى عبد الرحمن بن عوف: أنه دخل على أبى بكر في مرض موته، فعلم منه أنه مهموم يخشى على المسلمين الاختلاف والشقاق من بعده، والميل إلى الدنيا وزخرفها، ثم هو يخشى أن يرفض الناس خلافة عمر بن الخطاب من بعده عليهم. فبَيَّن له عبد الرحمن بن عوف أن الناس (ولعله يقصد المقرّبين من الصحابة، الذين استشارهم أبو بكر) بين أمرين: موافق على تعيين عمر بعده، أو له رأى يشير به عليه. وفى النهاية هم يعلمون أن أبا بكر لم يُرِدْ إلا خيراً. ثم عرض أبو بكر أموراً فعلها كان يود لو تركها، منها: أن يكون يوم السَّقيفة قذف الأمر في عنق عمر، أو أبى عبيدة، فكان أحدهما أميراً وهو وزيراً. وأموراً تركها كان يود لو أنه فعلها، وهى: أنه لمّا وجّه خالداً إلى الشام، كان وجّه عمر بن الخطاب إلى العراق، فيكون قد بسط كلتا يديه في سبيل الله. وأموراً كان يود لو أنه سأل رسول الله عنها ﷺ: لمن يكون الأمر من بعده حتى لا ينازعه أحد؟ وهل للأنصار فيه شئ؟[٤].

ب- فتوحات في عهد عمر بن الخطاب:

قال الليث بن سعد[٥] : فتح عمر بن الخطاب ﷺ دمشق، ثم اليرموك ١٥هـ، ثم كانت الجابية ١٦هـ، وإيلياء ١٧هـ، وكان عام الرمادة وطاعون عِمَوَاس ١٨هـ[٦]، وفتح

(١) تاريخ الإسلام (مجلد المغازى) للذهبى ص٥٠١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٥/ ٢٥٥.

(٣) أخرجه أحمد في (مسنده): ٦/ ٦٤، ٧٠، ٧٧، ١٥١، وتاريخ الطبرى ٣/ ١٩٧-١٩٨، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٥/ ٢٣٩.

(٤) تاريخ الطبرى ٣/ ٤٢٩-٤٣١.

(٥) تاريخ الإسلام، للذهبى، ٣/ ١٥٨.

(٦) كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس(معجم البلدان ،ط.صادر)لياقوت ٤/ ١٥٧-١٥٨.وذكر هذين الحادثين ابن عساكر في (تاريخ دمشق ط.المنجد): ١/ ٥٥٥.

قَيْسارية بالشام ،وموت هرقل ٢٠هـ،وفتح مصر - كذلك - ٢٠هـ، وفتح نهاوند ٢١هـ، والإسكندرية سنة ٢٢هـ. وغزا عمرو أطرابس المغرب، وغزت مصر والشام عَمُّورِيَةَ[١]، فكان على مصر وهب ابن عُمير الجُمَحى، وعلى الشام أبو الأعور السُّلَمىّ ٢٣هـ[٢]. وقتل عمر بن الخطاب ﷺ سنة ٢٣هـ مَصْدَر الحاجّ[٣]. ويكون بذلك قد عاش بعد فتح مصر ثلاث سنين وقدم عليه فيها عمرو قدمتين[٤].

جـ- وتوقيت اليرموك في ١٥هـ بعد فتح دمشق[٥].

د- قال أبو جعفر الطبرى في أحداث سنة ٢٨هـ:

ولمّا غزا معاوية قبرص، صالح أهلها - فيما حدثنى علىّ بن سهل قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: أخبرنى سليمان بن أبى كريمة، والليث بن سعد وغيرهما، عن مشيخة ساحل دمشق: أن صلح قبرص وقع على جزية ٧آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين كل سنة، ويؤدون للروم مثلها، ليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك على ألا يغزوهم، ولا يقاتلوا مَنْ وراءهم ممن أرادهم من خلفهم. وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم، على أن يُبَطْرِق إمامُ المسلمين عليهم منهم[٦].

هـ- قال الليث، وغيره: كانت وقعة الجمل في جمادى الأولى سنة ٣٦هـ[٧].

و- أورد ابن عساكر تحليلاً دقيقاً بيّن فيه سِرّ عدم نجاح علىّ في صراعه مع معاوية، وهو إغلاظ علىّ القول لأهل العراق، حتى قال: إن العشرة منهم برجل من أهل الشام، فقيل له: نحن وأنت كما قال الأعشى:

عُلِّقْتُهَا عَرَضاً وَعُلِّقَتْ رَجُلاً   غَيْرِى وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

أى: علقناكَ وعَلِقْتَ أهْلَ الشام، وعَلِقَ أهلُ الشام معاويةَ[٨].

وبناء عليه، فإن طبيعة أهل العراق، هى التى دعت عليًا للإغلاظ عليهم، فيما ينقل الليث عن يحيى بن سعيد: أن سليمان بن يسار وصف أهل الشام بالطاعة والجهاد، وأن أهل العراق يسألون عن السنّة، ويجادلون ويتساءلون[٩].

---

(١) بلد في بلاد الروم غزاه المعتصم بعد ذلك (معجم البلدان ،ط.صادر): ٤/ ١٥٨.
(٢) أوردها ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) ص١٠٨، برواية ابن بكير عنه.
(٣) السابق: ١٧٣.
(٤) السابق: ١٧٨.
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (ط.المنجد): ١/ ٥٢٨، والبداية والنهاية(ط.مكتبة المعارف) لابن كثير: ٧/ ٤.
(٦) تاريخ الطبرى: ٤/ ٢٦٢.
(٧) تاريخ الإسلام للذهبى ٣/ ٢١٩.
(٨) تاريخ دمشق (ط.المنجد) لابن عساكر: ١/ ٣٠٥-٣٠٦.
(٩) المصدر السابق ١/ ٣٠٧.

رابعاً - الأمويون:

اهتم الليث بن سعد بالتأريخ لأحداث الدولة الأموية. ومن النماذج المأخوذة من كتابه: (التاريخ)، نقتطف الأمثلة التالية:(١).

أ- " **قال الليث بن سعد**: إن معاوية بويع له بإيلياء بيعة الجماعة، ودخل الكوفة سنة أربعين " ويردّ ابن كثير قائلاً: " والصحيح الذى قاله ابن إسحاق والجمهور أنه بويع له بإيلياء في رمضان سنة ٤٠هـ، حين بلغ أهل الشام مقتل علىّ، ولكنه إنما دخل الكوفة بعد مصالحة الحسن له في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وهو عام الجماعة "(٢).

ب- **وقال الليث**: " حدثنى علوان بن صالح بن كيسان: أن معاوية قدم المدينة، أوّلَ حجة حجها بعد اجتماع الناس عليه، فلقيه الحسن والحسين ورجال من قريش، فتوجه إلى دار عثمان بن عفان. فلما دنا إلى باب الدار، صاحت عائشة بنت عثمان وندبت أباها، فقال معاوية لمن معه: انصرفوا إلى منازلكم، فإن لى حاجة في هذه الدار. فانصرفوا، ودخل، فسكّن عائشة بنت عثمان، وأمرها بالكفّ، وقال لها: يا بنت أخى، إن الناس أعطونا سلطاننا، فأظهرنا لهم حِلْماً تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا، وباعونا هذا بهذا. فإن أعطيناهم غير ما اشتروا منا. شحّوا علينا بحقنا وغمطناهم بحقهم، ومع كل إنسان منهم شيعته، وهو يرى مكان شيعته، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ثم لا ندرى أتكون لنا الدائرة أم علينا؟ وأن تكونى ابنة عثمان أمير المؤمنين أحب إلىّ أن تكونى أمة من إماء المسلمين، ونِعْمَ الخَلَفُ أنا لك بعد أبيك "(٣).

جـ-سنة ٥٨هـ:

قال بَقيّ: وقُرئ على ابن بكير، وأنا أسمع، عن الليث أنه قال: وفى سنة ٥٨هـ غزوة أكدر وسعيد بن يزيد رودس، وغزوة مالك بن الأبجر إفريقية. وفيها نُزع مروان عن أهل المدينة، وأُقِرّ الوليد بن عتبة. قال خليفة، والليث: حج - عامئذ - بالناس الوليد بن عتبة بن أبى سفيان(٤).

أ- سنة ٥٩هـ:

قال بقىّ: وقُرئ على ابن بكير، وأنا أسمع، عن الليث قال: وفى سنة ٥٩هـ غزوة

(١) احتفظ لنا خليفة بن خياط في (تاريخه) بمقتبسات نقلها عن كتاب ابن بكير، الذى نقلها بدوره عن كتاب الليث. وقد عرضتُ هذه المقتبسات لأحداث سنوات: ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٤، ٦٥، ٦٦ - ٧٥ هـ.

(٢) البداية والنهاية (ط.الريان): جـ٨ صـ١٣٣-١٣٤.

(٣) البداية والنهاية(ط.الريان): ٨/ ١٣٥.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط: صـ٢٢٥.

جُنادة بن أبى أمية، وعلقمة بن جُنادة الحَجْرى رُودِس[(١)].

جـ- سنة ٦٠هـ:

قال بقىّ: وقُرئ على ابن بكير، وأنا أسمع، عن الليث قال: سنة ٦٠هـ توفى معاوية أمير المؤمنين في رجب لأربع ليال خلت منه، واستخلف يزيد بن معاوية. زاد حرملة في روايته، عن ابن بكير: وخرج حسين بن علىّ إلى العراق، وابن الزبير إلى مكة[(٢)].

د- سنة ٦١هـ:

بالإسناد نفسه: وفى سنة ٦١هـ قُتل الحسين بن علىّ وأصحابه، وحج بالناس الوليد بن عتبة[(٣)].

هـ- ويذكر لنا ابن كثير[(٤)] ما يرويه ابن بكير، عن الليث قال: كانت وقعة الحَرَّة يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة ٦٣هـ، ثم انبعث مسرف بن عقبة إلى مكة، يريد قتل عبد الله بن الزبير بها؛ لأنه لم يبايع ليزيد، فمات يزيد ابن معاوية في غضون ذلك[(٥)]. واستفحل أمر عبد الله بن الزبير في ادعائه الخلافة بالحجاز، ثم أخذه العراق ومصر. وبعد وفاة يزيد بويع لابنه معاوية بن يزيد الرجل الصالح، الذى مكث في الخلافة ٢٠ أو ٤٠ يوماً، ثم مات (رحمه الله). فوثب مروان بن الحكم على الشام[(٦)]، فأخذها وبقى تسعة أشهر، ثم مات[(٧)]. وقام بعده ابنه عبدُ الملك، فنازعه فيها عمرو بن سعيد بن الأشدق، وكان نائباً على المدينة من عهد معاوية، وخلال أيام يزيد، ومروان ابن الحكم. فلمّا مات مروان، زعم عمرو أنه أوصى له بالأمر من بعد ابنه عبد الملك بن مروان. فضاق به عبد الملك لمّا استفحل خطره، وقام بقتله بدمشق ٦٩هـ. ويقال: سنة ٧٠هـ[(٨)]. وواجه خطر عبد الله بن الزبير حتى قتله سنة ٧٣هـ[(٩)] على يد

(١) تاريخ خليفة بن خياط: صـ٢٢٧.
(٢) السابق: صـ٢٢٩.
(٣) السابق: صـ٢٣٥.
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٦/ ٢٣٤.
(٥) ذكر خليفة بن خياط في (تاريخه صـ٢٥٣)، فيما ينقله عن الليث: توفى يزيد ٦٤هـ ليلة البدر في ربيع الأول، وفيها أحرقت الكعبة يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر. وزاد حرملة: في رواية عن ابن بكير: وأقام ابن الزبير الحج.
(٦) ذكر ابن كثير فى(البداية والنهاية، ط.مكتبة المعارف)٨/ ٢٤١: أن الليث وغيره ذكروا أن انتصار مروان في مرج راهط بالشام، كان للنصف من ذى الحجة سنة ٦٤هـ.
(٧) أوضح خليفة في (تاريخه صـ٢٦١) بإسناده إلى الليث: أن مروان بن الحكم دخل مصر في هلال ربيع الآخر سنة ٦٥هـ، ثم خرج من مصر في جمادى الآخرة، ثم توفى في مستهل رمضان ٦٥هـ.
(٨) ذكر الليث في (تاريخ خليفة صـ٢٦٤): أن ذلك تم سنة ٦٧هـ. وجعلها الطبرى في (تاريخه ٦/ ١٤٤) سنة ٦٩هـ.
(٩) حددها الليث، كما نقل خليفة في (تاريخه) صـ٢٧٠، وقال: إن قتله كان في جمادى الأولى.

الحجاج بن يوسف الثقفى بمكة بعد حصار طويل، استلزم نصب المجانيق على الكعبة للجوء ابن الزبير إلى الحرم. ثم عهد عبد الملك إلى بنيه بعده: الوليد، ثم سليمان، ثم يزيد، ثم هشام بن عبد الملك.

وقال الليث: أظهر الضحّاك بن قيس (وهو من صغار الصحابة، وله أحاديث) بيعة ابن الزبير بدمشق، ودعا له، فسار عامة بنى أمية وحشمهم، فلحقوا بالأردن، وسار مروان بن عبد الحكم وبنو بحدل إلى الضحاك. وكان الضحاك مع معاوية، فولاه الكوفة، وصَلّى على معاوية، وقام بخلافته حتى قدم يزيد، ثم بعده دعا إلى ابن الزبير، وبايع له، ثم دعا إلى نفسه(١).

و- سنة ٧٥هـ:

قال بقيّ: قُرئ على ابن بكير، وأنا أسمع، عن الليث قال: في سنة ٥٧هـ خرج عبد العزيز بن مروان إلى الشام، وهبط خبّاب بن مرثد إلى الإسكندرية. وتوفى زياد بن حناطة، وأُمّر الأصبغ بن عبد العزيز. وحج - عامئذ - بالناس أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان. وفيها اطّلع عمير بن عبيد الخولانى بالجيش إلى إفريقية(٢).

خامساً - تـاريـخ مصـر:

أ- تاريخها القديم:

١- نقل الليث بن سعد توصية رسول الله ﷺ بقبط مصر، فهم لهم رَحِم وذِمَّة مع العرب المسلمين في جزيرة العرب. وقد سأل الليثُ بن سعد ابنَ شهاب الزهرى: ما رحمهم؟ قال: إن أم إسماعيل منهم(٣).

٢- حدّث الليث، عن مشيخة له: أن الجوع اشتد على أهل مصر، فاشتروا الطعام بالذهب، ولمّا نَفِدَ الذهب اشتروه بالفضة، ثم بالغنم. وفى السنة الثالثة نَفِدَ كل ما لهم، ولم يبق إلا أنفسهم وأهلوهم، وأراضيهم. وكان ذلك في عهد سيدنا يوسف ﷺ، فاشترى يوسف منهم أرضهم كلها لحساب فرعون مصر، وأعطاهم يوسف ما يزرعونه، ولفرعون الخمس(٤).

٣- وروى أبو صالح، عن الليث، عن عقيل بن خالد، عن ابن شهاب: أن المشركين فرحوا بنصر الفرس على الروم، وقالوا للمسلمين: الفرس-وهم مثلنا- انتصروا على الروم وهم أهل كتاب. ونحن سنغلبكم كما غلب الفرسُ الرومَ(٥)، فنزل قوله (تعالى): ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ

(١) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٤١-٢٤٣.
(٢) تاريخ خليفة: صـ٢٧١.
(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم: صـ٢.
(٤) السابق: ٣٤.
(٥) السابق: ١٣.

سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾[(١)]. وقد أشار الليث بهذه المناسبة إلى أن الفرس كانوا مسيطرين على مصر، وأسسوا بها حصن بابليون، ثم هُزم الفرس، وأخرجهم الروم من مصر والشام، وأتم بناء هذا الحصن، وظلّت مصر تحت حكمهم، حتى فتح الله مصر على المسلمين[(٢)].

ب- أحداث فتوح مصر وتاريخها:

١- كان عمرو بن العاص بجنده على قيسارية الشام مع مَنْ بها من أجناد المسلمين، وكان عمر بن الخطاب بالجابية، فكتب إلى عمر يستأذنه في المسير إلى مصر، وخرج بأصحابه ليلاً، فافتقده أمراء المسلمين بالشام، واستنكروا فعلته، ورفعوا الأمر إلى عمر بن الخطاب مستنكرين أنه غرّر بالجند، فكتب إليه: " إلى العاص بن العاص، قد غررتَ بمن معك. فإن أتاك كتابى ولم تدخل مصر فارجع، وإلا فادخل، واعلم أني مُمِدُّك "[(٣)].

٢- ذكر الليث، أن عمراً سار من الفَرَما، فلقيه الروم ببلبيس، فهزمهم، وبلغ أم دنين، فقاتلوه بشدة.وكتب إلى عمر يستَمِدُّه، ثم أتى الحصن فحاصره. وكان قائد الحصن هو الأعرج،وكان من قِبَلِ المقوقس عامل هرقل على مصر[(٤)].

٣- ولمّا كان من المعلوم أن عمر بن الخطاب أمدّه بأربعة آلاف بعد ذلك فيهم: عبادة بن الصامت، والمقداد بن عمرو، والزبير بن العوام، ومسلمة بن مخلد (أو خارجة بن حذافة)، والواحد فيهم بألف رجل؛ علّق الليث على ذلك بقوله الذى يرويه عنه ابن وهب، فقال: بلغنى عن كسرى أنه كان له رجال، إذا بعث أحدهم في جيش، وضع من عدد الجيش ألفاً مكانه،وإذا حبس أحدهم لحاجته إليه، أضاف مكانه ألفاً من الجند.وقال الليث: فأنزلتُ الذى صنع عمر في بعثته بالزبير،والمقداد بن عمرو،ومَنْ بعث معهما،نحو ما كان يصنع كسرى[(٥)].

٤- ذكر الليث فيما يرويه ابن وهب عنه: أن المسلمين مكثوا على باب حصن بابليون حتى فَتْحِه سبعة أشهر[(٦)].

٥- روى أبو صالح، عن الليث، عن يزيد بن أبى حبيب: أن هرقل سَخِطَ على صلح عقده المقوقس مع عمرو بن العاص، وكان الصلح ينص على أن يخرج، أو يقيم

(١) سورة الروم: الآيات من ١-٥.
(٢) فتوح مصر: صـ٣٤-٣٥.
(٣) السابق: صـ٥٧.
(٤) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٨.
(٥) فتوح مصر: صـ٦١.
(٦) السابق: صـ٦٤، والولاة والقضاة للكندى: صـ٩.

من الروم في مصر مَنْ أراد على أمر سمّاه على مَنْ يقيم. وعلى إثر رفض هرقل أرسل الجيوش إلى الإسكندرية لمحاربة المسلمين، فناشد المقوقس عمراً ثلاثاً: لا تبذل للروم ما بذلت لي؛ فقد رفضوا نصحي، ولا تنقض عهد القبط فليس لهم ذنب، وأوصاه أن يدفنه في كنيسة أبي يُحَنَّس عند موته. فعقّب عمرو: وهذه أوهنهنّ علينا[١].

٦- روى ابن بكير، عن الليث: أن هرقل توفى في سنة فتح قيسارية الشام سنة ٢٠هـ[٢].

٧- وروى الليث، عن عُبيد الله بن أبي جعفر شروط صلح مصر الستة، وذكر أن تلك العقود والاتفاقات لدى عدد من زعماء القبط[٣].

٨- قال الليث: فتحت مصر كلها صلحاً إلا الإسكندرية[٤].

٩- واهتم الليث ببدايات أحداث فتنة عثمان بن عفان، ومدى مشاركة العرب في مصر فيها. فذكر أن ابن سعد وفد إلى عثمان سنة ٣٥هـ؛ ليَلْفِتَ نظره إلى طعن الناس فيه في مصر، واستخلف على مصر قبل رحيله إلى المدينة الصحابي عقبة بن عامر الجهني[٥].

١٠- وروى ابن بكير، عن الليث، عن عبد الكريم بن الحارث بن يزيد الحضرمي أحداثاً وتفاصيل عجيبة ودقيقة وجديدة تفرّد بها، تتمثل في الدور الخداعي التمثيلي، الذي لعبه محمد بن أبي حذيفة؛ لتهييج الجند بمصر ضد عثمان. فمثلاً: كان يُزوِّر رسائل يزعم أنها موجهة من أمهات المؤمنين إلى العرب في مصر، يشكون فيها عثمان وفعاله. وكان ابن أبي حذيفة يُضَمِّر الرواحل، ويضع بعض الناس على ظهور البيوت، تلفحهم الشمس، ثم يؤمر بهم للسير في طريق المدينة بمصر، ثم يرسل مَنْ يخبر الناس بقدوم هذه الوفود المصطنعة من المدينة بأخبار عثمان وفعاله، فيلقاهم عامة الناس متلهفين، فيقولون - وهم عليهم آثار السفر -: الخبر في الكتب. ويخرج ابن أبي حُذيفة لاستقبال هؤلاء كمبعوثين من أمهات المؤمنين، ويُتْلى الخبر في المسجد حيث يجتمع الناس، وفيه يُنسب الباطل إلى عثمان كذباً وزوراً، ويقوم بعضهم يَضِجّ بالبكاء في جنبات المسجد على ما حَلّ بالإسلام، فيُخدع الناس ويثورون على عثمان. وقد فطن مؤيّدو عثمان في مصر لذلك، واعتزلوا ابن أبي حذيفة، ونَبّهوا عثمان إلى ما يفعله ذلك الخائن[٦].

(١) فتوح مصر: صـ٧٢-٧٣.
(٢) السابق: صـ٧٦.
(٣) السابق: صـ٨٥.
(٤) تاريخ خليفة صـ١٤٤، وفتوح مصر: صـ٨٤.
(٥) الولاة والقضاة: صـ١٣.
(٦) المصدر السابق: صـ١٤-١٥.

١١- واستمر ابن بكير يروى عن الليث، عن عبد الكريم بن الحارث بن يزيد الحضرمى ما حدث بعد مقتل عثمان بن عفان، من انتقام معاوية من أبرز قاتلى عثمان، مثل: عبد الرحمن بن عديس، وكنانة بن بشر في ذى الحجة سنة ٣٦هـ(١). وتناول - كذلك - تولية علىّ قيسَ بن سعد بن عبادة، ثم الوقيعة بين قيس وعلىّ(٢)، ثم تولية الأشتر وموته بالسم قبل مجيئه إلى مصر(٣)، ثم ولاية محمد بن أبى بكر وسماحه لشيعة عثمان بالتوجه إلى معاوية بالشام، ثم قضية التحكيم، ودخول عمرو بن العاص قائداً لمعاوية إلى مصر، ثم قتل ابن أبى بكر، ودخول مصر تحت سيطرة معاوية(٤).

جـ- خِطط مصر:

والروايات التى تتعلق بها عن الليث قليلة، منها:

١- يروى أبو صالح، عن الليث، عن يزيد بن أبى حبيب، وكذا روى ابن وهب عن الليث عن يزيد بن أبى حبيب: أن كتاباً ورد من لدن عمر بن بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص بالمدائن، وإلى عامله بالبصرة، وإلى عمرو ابن العاص بالإسكندرية: ألاّ يفصل بين العواصم وبين عمر ماء، وأمرهم بالتحول بعيداً عن البحر. فتحول عمرو بن العاص إلى الفسطاط، وكذلك فعل العاملان الآخران(٥).

٢- بناء مسجد الفسطاط وتحديد الصحابة قبلة المسجد(٦). ويذكر الليث أن دار البِرْكة في مصر كانت خِطّة عبد الله بن عمر بها، وأنه وهبها إلى عبد العزيز بن مروان بلا مقابل(٧).

٣- يروى أبو صالح، عن الليث، عن يزيد بن أبى حبيب: أن أوّل مَنْ رفع البناء في مصر، وبنى غرفة عالية بها هو خارجة بن حذافة. فلمّا علم عمر، أمر عمراً أن يهدمها له؛ لئلا يطّلع على عورات الناس(٨).

٤- قال الليث: رأيتُ - وأنا غلام - دار الربيع بن خارجة بن حذافة، وهو في دار أبيه المتنازع عليها مع الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان(٩).

د- النظم المالية والإدارية:

١- يروى أسلم مولى عمر: أن عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الأجناد بمقدار

---

(١) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٢٠.
(٢) السابق: صـ٢٢.
(٣) السابق: صـ٢٣-٢٤.
(٤) السابق: صـ٢٨-٢٩.
(٥) فتوح مصر: صـ٩١.
(٦) السابق: صـ٩١-٩٢.
(٧) فتوح مصر: صـ٩٢.
(٨) السابق: صـ١٠٤.
(٩) السابق: نفسه.

الجزية، التى يفرضونها على البالغين من أهل البلاد المفتوحة، وكذلك قيمة الأرادب القمحيّة ،وأقساط الزيت والعسل اللازمة للعراق ومصر[١].وقد نقل أبو صالح،عن الليث أن عمرو بن العاص جَبَى اثنى عشر ألفَ ألفِ دينار[٢].

٢- وتناول الليث الإقطاعات، فأورد قول عمر بن الخطاب لتميم الدارى بخصوص الأرض، التى منحه الرسول إياها، وكان عمر شاهداً: ليس لك أن تبيع. فهى في أيدى أهل بيته إلى اليوم[٣].

٣- أقطع عمرُ ابنَ سَنْدَر الصحابى مُنْيَة الأصبغ،فحاز لنفسه منها ألف فدان[٤].

٤- وقد كان لعبد الله بن سعد موالٍ نصارى فأعتقهم، فكان عليهم الخراج. قال الليث: أدركنا بعضهم، وإنهم ليؤدون الخراج[٥].

٥- وذكر الليث قول عمر بن عبد العزيز: إن الجزية على الرءوس، وليست على الأرضين. يريد: أهل الذمة[٦]. وقد وضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة من أهل مصر، وألحق في الديوان صلح مَنْ أسلم في عشائر مَنْ أسلموا على يديه[٧].

٦- إحصاء دقيق تَمّ في عهد الوليد بن رفاعة والى مصر (١٠٩-١١٧هـ)؛ لمعرفة عدد قرى مصر. وظل هو ومساعدوه يقومون بمسح شامل لقرى مصر مدة ٩ أشهر: ستة في الصعيد، وثلاثة بأسفل الأرض (الوجه البحرى)، فأحصوا أكثر من عشرة آلاف قرية، ولا يقل عدد أفراد قرية منها عن ٥٠٠ فرد تجب عليهم الجزية[٨].

هـ- تاريخ بعض الصحابة والولاة:

١- روى الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبى هلال، عن سعيد بن نشيط، أن قُرّة بن هَبيرة قدم على رسول الله ﷺ، وأسلم[٩].

٢- ويروى الليث أن الرسول بعث عمرو بن العاص على البحرين، فمات الرسول وهو هناك. ثم إن عمراً أقبل، فمرّ على مسيلمة، فأعطاه الأمان، وقال: إن محمداً بُعث في جسيم الأمور، وأُرسلت في المحقرات، وأخذ يسجع. فتوعّده عمرو، واتهمه بالكذب، وعرّفه أنه هو نفسه يعلم إنه لمن الكاذبين[١٠].

(١) السابق: صـ١٥٢.
(٢) السابق: صـ١٦١.
(٣) تاريخ الإسلام للذهبى: ٣/ ٣٧٠.
(٤) فتوح مصر: صـ١٣٧.
(٥) السابق: صـ١٥٦.
(٦) السابق: صـ١٥٤.
(٧) السابق: صـ١٥٥.
(٨) السابق: صـ١٥٦.
(٩) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٦٩.
(١٠) سير أعلام النبلاء ٣/ ٦٩.

٣- عرض الليث بن سعد لوالى مصر الصحابى عمرو بن العاص، ووصفه بأنه قصير عظيم الهامة ناتئ الجبهة، واسع الفم، عظيم اللحية، عريض ما بين المنكبين، عظيم الكفّين والقدمين، يملأ هذا المسجد[١] (مسجد الفسطاط).

٤- قيل لعمرو بن العاص أثناء استعصاء الإسكندرية على الفتح خلال الحصار: العدو غشَّاك، ونخاف على زوجك رائطة (وكانت معه). قال (فى شجاعة نادرة): إذاً تجدوا رياطاً كثيرة[٢].

٥- وروى أبو صالح، عن الليث، عن يزيد بن أبى حبيب: أن عمر بن الخطاب عرف لعمرو مكانته، إذ قال يوماً عنه، وقد دخل على عمر من مصر، وهو يخطب في المسجد: ما ينبغى لعمرو أن يمشي على الأرض إلا أميراً. وقال الليث: قال عمرو: ما كنتُ بشئ أتْجرَ منى بالحرب[٣]. وذكر ابن بكير عن الليث: توفى عمرو سنة ٤٣هـ، وفيها تأمير عتبة بن أبى سفيان على أهل مصر[٤]، وقدوم سعد بن أبى وقاص إلى مصر[٥].

٦- قال الليث: كانت وقعة أذربيجان سنة ٢٢هـ، وكان أميرها المغيرة بن شعبة. وقيل: افتتح المغيرة همدان عنوة[٦]. وقال الليث: حج المغيرة بالناس سنة ٤٠ هـ[٧]. وقال أيضاً: كان المغيرة اعتزل، فلما صار الأمر إلى معاوية، كاتبه المغيرة[٨].

٧- ترجمة الصحابى ابن سندر، وقصته مع مولاه في حياة الرسول ﷺ، وإحسانه إليه، وتوصيته أبا بكر، وعمر بن الخطاب به خيراً[٩].

٨- قال الليث: عُزل عقبة بن عامر عن مصر سنة ٤٧هـ، فوليها مسلمة ابن مخلد حتى مات زمن يزيد[١٠].

٩- قال الليث، وغيره: كتب رجل إلى عبد الله بن عمر ﷺ: أن اكتب إليّ بالعلم كله، فكتب إليه: " إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دعاء الناس، خميص البطن من أموالهم، كافّ اللسان عن أعراضهم، لازماً أمر

(١) فتوح مصر: صـ٥٨.
(٢) فتوح مصر: صـ٧٧.
(٣) السابق: صـ١٨٠.
(٤) السابق: صـ١٨٠.
(٥) السابق: صـ٩٣.
(٦) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٢٨.
(٧) السابق: ٣/ ٢٩.
(٨) السابق: ٣/ ٣٠.
(٩) السابق: ٣/ ٢٢٢
(١٠) السابق: صـ١٣٨.

جماعتهم، فافعل "[١].

١٠- ونقل ابن بكير عن الليث ترجمته للوالى عبد الله بن عبد الملك الذى كان حَدَثاً، وكان أهل مصر يقولون عنه: مُكَيَّساً[٢]. وهو أول من نقل الدواوين إلى العربية، وكانت بالعجمية، وهو أوّل مَنْ نهى عن لباس البرانس[٣].

١١- روى أبو صالح، عن الليث: توفى عبد العزيز بن مروان سنة ٨٦هـ بعد ولاية دامت ٢٠ سنة، وعشرة أشهر، و١٣ يوماً على مصر. ولم يَلِها منذ الإسلام إلى يومنا هذا أطول ولاية منه. وترك حلوان، والقَيْسارية، وثياباً، كان بعضها مرقوعاً، وخيلاً، ورقيقاً[٤].

١٢- وذكر أن أيوب بن شرحبيل نُزع في ١٧ من رمضان ١٠١هـ بعد ولاية دامت سنتين ونصفاً[٥].

١٣- وذكر أن حفص بن الوليد صُرف سلخ ذى الحجة سنة ١٠٨هـ[٦].

و- تاريخ فتح مصر لإفريقية، والمغرب، والأندلس:

١- كتب عمرو بن العاص في صلحه مع البربر من أهل أنطابلس - وهى من بلاد برقة بين إفريقية ومصر - شرطاً عليهم، مفاده: أن عليهم بيع أبنائهم وبناتهم، فيما عليهم من الجزية[٧].

٢- قيام عبد الله بن سعد والى مصر بغزو إفريقية، وقتل الملك جُرْجِير. وبلغت مغانم المسلمين قدراً كبيراً ،إذ أصاب الفارس ثلاثة آلاف دينار، والراجل ألفاً[٨]. وذكر ابن بكير، عن الليث: أن إفريقية فُتحت ٢٧هـ[٩].

٣- روى ابن بكير، عن الليث تفاصيل وقعة ذات الصوارى، التى قادها ابن سعد سنة ٣٤هـ. وكانت عدة مراكب المسلمين ٢٠٠ مركب، بينما كانت سفن الروم ألف

(١) السابق: ٣/ ٢٢٢.

(٢) هكذا ذكرها الكندى في (الولاة والقضاة) صـ٥٩، وعلّل تسميته بأنه كان يرتشى. وهذا أصح مما ورد في (حسن المحاضرة) ١/ ٥٨٧ (حيث أُطلق عليه لفظ نَكِيس).

(٣) فتوح مصر صـ١٢٢، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٥٨٧ (وأضاف أنه أقام إلى سنة ٩٠هـ، فعزله أخوه الوليد).

(٤) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٥٥.

(٥) المصدر السابق: صـ٦٩. وذلك يعنى: أنه عزل بعد وفاة عمر بن عبد العزيز، الذى مات في ٢٥ من رجب سنة ١٠١هـ.

(٦) المصدر السابق: صـ٧٥.

(٧) تاريخ خليفة: صـ١٤٤، وفتوح مصر ١٧٠.

(٨) فتوح مصر: صـ١٨٤، والولاة: صـ١٢.

(٩) فتوح مصر: صـ١٨٧.

مركب، وكان يقودهم هرقل متأخراً عن صفوفهم؛ حتى يفرّ عند الهزيمة. تقاتل الفريقان في البر بالنيل، ثم بالحجارة، ثم تشابكا في البحر بعد ربط السفن بالسلاسل، مع الضرب بالسيوف، وانتهت المعركة بهزيمة الروم(١).

٤- روى ابن بكير، عن الليث: أن رُوَيْفِعَ بن ثابت ولى أنطابلس سنة ٤٣هـ(٢).

٥- ما يرويه ابن بكير عن الليث: أن عقبة بن نافع سار بنفسه سنة ٤٦هـ إلى أهل وَدّان(٣)، الذين نقضوا العهد الذى قطعوه على أنفسهم مع بُسْر بن أبى أرطاة من قبل سنة ٢٦هـ(٤)، ومنعوا ما فُرض عليهم، فسار إليهم بأربعمائة فارس وأربعمائة بعير، وثمانمائة قِرْبَة، فهزمهم وجدع أذن ملكهم؛ ليتذكر فَعْلَته مع العرب، وأخذ منهم ما فُرض عليهم من قبل (٣٦٠ رأساً)، إلى آخر ما ذكر من تفاصيل فتوحات عقبة لمدن تالية(٥).

٦- وروى ابن بكير، عن الليث: أن مسلمة بن مخلد ولى مصر والمغرب ٤٧هـ، فعزل عقبة بن نافع سنة ٥١هـ، وولى أبا المهاجر ديناراً مولى الأنصار، وأوصاه بحسن عزل عقبة ،لكنه أساء إليه، فقيّده وحبسه، حتى جاء كتاب معاوية بفك أسره، وإطلاق سراحه. وقدم عقبة إلى مصر، فلقيه مسلمة وركب إليه، وأقسم له أنه أوصى أبا المهاجر به خيراً(٦).

٧- غزو عقبة إفريقية، ومجيئه إلى وادى القيروان، ثم نداؤه قبل نزول جيشه بالوادى على ما به من حَيّات وعقارب، فخرجت كلها حتى إن أهل إفريقية التمسوا - بعدها أربعين سنة - حيّة ولو بألف دينار ما وجدوا(٧).

٨- وذكر ابن وهب، عن الليث: أن عقبة بن نافع قدم من لدن يزيد بن معاوية في جيش لغزو المغرب، فَمرّ بابن عمرو بمصر، فقال له ابن عمرو: لعلك من الجيش الذين يدخلون الجنة برحالهم .فمضى عقبة وقاتل البربر وهم كفار، فقُتلوا

---

(١) المصدر السابق: صـ١٨٩-١٩٠.

(٢) السابق: صـ١١٠.

(٣) وَدّان: مدينة بإفريقية افتتحها عقبة بن عامر ٤٦هـ أيام معاوية (معجم البلدان، ط.دار صادر ٥/ ٣٦٥).

(٤) وقد ذكر الليث أن بسر بن أبى أرطاة غزا لُوبِيَة (مدينة بين الإسكندرية، وبرقة). (معجم البلدان، ط. دار صادر ٥/ ٢٥) سنة ٢٣هـ، ثم سابور (كورة مشهورة بفارس فتحت ٢٦هـ). (المصدر السابق ٣/ ١٦٧)، ووَدّان ٢٦هـ، وغزا أذَنة ٤٦هـ (بلدة من الثغور قرب المَصِّيصة، والتى هى من ثغور الشام بالقرب من أنطاكية)، مشهورة بالشام (السابق ١/ ١٣٢-١٣٣). ورد ذلك الخبر في (تاريخ دمشق) لابن عساكر ٦/١٠.

(٥) فتوح مصر: صـ١٩٤-١٩٦.

(٦) السابق: صـ١٩٧. والصواب: أن عقبة عزل سنة ٥٥هـ (البيان المغرب: ١/ ٢١).

(٧) السابق: صـ١٩٦، وطبقات علماء إفريقية لأبى العرب صـ٥٨-٥٩.

جميعاً[١]. وذكر ابن بكير، عن الليث: أن عقبة قُتل سنة ٦٣هـ[٢].

٩- تَقاتُل العرب والبربر، ومقتل كُسَيْلَة البربرى على يد زُهير بن قيس البلوى سنة ٦٤هـ[٣].

١٠- وروى ابن بكير، عن الليث مقتل زهير بن قيس البلوى ٧٦هـ[٤].

١١- وتناول الليث بن سعد - في روايات عدة - غنائم المسلمين والأندلس، وسَبْى موسى بن نصير الذى بلغ مائة ألف، ومثلها سباها ابنه مروان. وقيل لليث: من هم؟ (أى: الأسرى). قال: البربر. ثم تواتُر الفتوح في الأندلس على يد موسى في عهد الوليد بن عبد الملك بعد وفاة عبد الملك بن مروان يوم الخميس ١٤ ليلة خلت من شوال ٨٦هـ (فيما يرويه ابن بكير، عن الليث)، وشدة إعجاب الوليد بموسى، وارتفاع منزلته لديه[٥].

١٢- ما يتصل بمائدة سليمان، وغيرها من المغانم الهائلة[٦].

١٣- استعرض ابن عبد الحكم برواية ابن بكير، عن الليث ولاة إفريقية وتعاقبهم، وتواريخ وفياتهم بدقة[٧]، وكذا ولاة الأندلس حتى سنة ١٢٦هـ[٨].

٥- الملامح العامّة لمنهج الليث بن سعد التاريخى:

أ- اتساع مفهوم التاريخ لدى الليث بن سعد:

فهو لا يقتصر على رواية أحاديث النبى ﷺ، التى لها علاقة بسيرته ومغازيه، وإنما امتد امتداداً شاسعاً يدل على سعة أفقه التاريخى. فقد عالج تاريخ الأنبياء قبل الإسلام، وتاريخ الجاهلية العربية قبل الإسلام كذلك كمدخلين طبيعيين، يظهران الترابط بين تاريخ الأنبياء أجمعين، وكمظهر يبرز مدى الحاجة الملحة لرسالة خاتمهم محمد ﷺ؛ لإزالة ما فيه الناس من ضلال وحيرة، سبقت بعثة النبىّ الخاتم (وقد رأينا وأْد البنات، وصنيع زيد بن عمرو بن نفيل).

وكذلك اتسع مفهوم السيرة لدى الليث بن سعد، فشمل - إلى جانب مغازيه ﷺ- جوانب جديدة ثريّة، هى من صميم سيرته ﷺ. ومن ذلك مثلاً:

أ- ما أورده الليث في بعض مروياته من أخلاقه ﷺ، من أن نفراً دخلوا على

(١) فتوح مصر: ١٩٩، وطبقات علماء إفريقية، لأبى العرب صـ٥٩.
(٢) فتوح مصر: صـ١٩٩.
(٣) السابق: صـ٢٠٠.
(٤) فتوح مصر: صـ٢٠٣.
(٥) السابق: صـ٢٠٤.
(٦) السابق: صـ٢٠٧-٢٠٨.
(٧) السابق: صـ٢١٣.
(٨) السابق: صـ٢١٦-٢١٨، ٢٢٠-٢٢١، ٢٢٣.

زيد بن ثابت ﷺ، فسألوه أن يُحدّثهم عن أخلاقه ﷺ، فذكر أنه كان جاره يكتب له الوحى، فإذا ذكرنا الدنيا، أو الآخرة، أو الطعام، ذكر كل ذلك معنا، فكل هذا نحدّثكم عنه[١]. وهذا دليل جديد على أن الصحابة أنفسهم كانوا يفهمون سيرة الرسول ﷺ هذا الفهم الشامل الواسع، فلم تكن نظرة الليث - إذاً - بدْعاً في ذلك المجال.

ب- ما رواه الليث متصلاً بميدان جديد، وسلاح فتّاك خطير، استخدمه النبى ﷺ في صراعه مع مشركى قريش - بخلاف سلاح السِّنان والطِّعان - ألا وهو سلاح اللسان والبيان، فتذكر عائشة - رضى الله عنها - أن الرسول دعا إلى هجاء قريش، فالهجاء أشد عليها من رَشْق النَّبْل. واختار حسان بن ثابت لذلك، فعلمّه أبو بكر أنساب قريش؛ ليُخلّص نسب الرسول منهم ويهجوهم. وشجّع الرسولُ حَسّانَ على ذلك بقوله له: " إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لاَ يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ "[٢].

ولم يقف الليث في نظرته الشاملة للمراحل وللعصور المتعاقبة التى مرّت بها الأمة عند هذا الحد، وإنما واصل حلقات التاريخ التالية، فتناول تاريخ الراشدين، وما تيسر له من تاريخ الأمويين. ثم ركّز على تاريخ مصر من مختلف زواياه: تاريخها القديم، وفتوحها، وخططها، وتنظيماتها، وولاتها، إلى جانب بيان جهاد أبنائها في فتوح إفريقية والمغرب والأندلس، على النحو الذى بيّنت في آثار الليث التاريخية.

ب- إدراكه العظيم والعميق لغرض التاريخ:

وذلك واضح من خلال تركيزه على عدد من الروايات التى وردت في السيرة، وفى تاريخ الراشدين، وفى تاريخ مصر، وكلها تعرض لحظات الموت الرهيبة. ففى السيرة رأيناه يصف ما عاناه الرسول ﷺ في سكرات الموت. وفى تاريخ الراشدين عرض لمشهد مؤثر، ولحوارٍ باكٍ دامع - لعله الحوار الأخير - بين أبى بكر وهو في مرض موته، وبين الصحابى عبد الرحمن بن عوف. وكان هذا الحوار - خاصة من جانب أبى بكر - بمنزلة كشف حساب أخير دقيق منه لنفسه عن أمور رأى - لفرط ورعه وتقواه لله - أن الواجب كان يُحَتِّم عليه أن يفعلها لكنه تركها، وأمور كان يجب تركها لكنه فعلها، وأمور كان يود لو سأل رسول الله ﷺ عنها؛ حتى يهدأ ضميره، وتسعد أمته. وكذلك ما ذكره الليث من مشهد وفاة والى مصر، وفاتحها العظيم: عمرو ابن العاص[٣] في لحظات قاسية رهيبة مريرة، من الصفاء الذهنى، والألم النفسى والقلبى،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٦/٤٣.

(٢) أخرجه مسلم في (صحيحه)، كتاب (فضائل الصحابة) باب (فضل حسان بن ثابت) جـ٤ صـ١٩٣٥-١٩٣٦ (رقم ٢٤٩٠)، وتاريخ الإسلام للذهبى (مجلد المغازى بتحقيق: حمدان): صـ٤٥٤-٤٥٥.

(٣) أورد ذلك ابن عبد الحكم فى(فتوح مصر): صـ٢٥١.

وهو في آخر مراحل الدنيا، وعلى عتبات أولى مراحل الآخرة، وبجواره ابنه عبد الله. ماذا يريد الليث من إيراد هذه النوعية من المرويات التاريخية، التى ترصد مرحلة معينة مَرّ بها قادة عظام؟ كأنى به يريد أن يتعظ كل حاكم، وهو يرى نهايته ومآله المحتوم، وليكون على ذُكْر دائم من أنه على خطر عظيم. فإذا كان هؤلاء الصفوة الأبرار، قالوا ما قالوا، وعانوا ما عانوا، فأين يذهب كُلُّ مَنْ دونهم من البشر؟!

وكذلك اهتم الليث بن سعد بإيراد نماذج من تراجم عدد من الصحابة (رضوان الله عليهم أجمعين)؛ ليضرب لنا المثل والقدوة من سيرهم، فها هو المغيرة بن شعبة الفاتح العظيم، والتقى الورع الذى ينأى بنفسه عن الفتن وصراعاتها، وهاهو عمرو بن العاص لا يخاف في الله لومة لائم، ويواجه مسيلمة الكذاب، ويتهمه بالكذب وجهاً لوجه، وهاهو عبد الله بن عمر يذكر لسائله - في كلمات معدودات - علم الدنيا والدين كله.

جـ- معلومات تاريخية يكاد الليث ينفرد بها:

وذلك نلحظه من خلال ما رواه عن ظروف، وحقيقة دور مصر الذى لعبته في أحداث فتنة عثمان ﷺ، ووجود عناصر الفتنة بها - من البداية - لإشعال نيرانها، وإيقاد لهيبها، ثم إيراده وصفاً مفصلاً دقيقاً جديداً - لم يَرْوِه سواه فيما قرأتُ - عن الحِيَل التى قام بها المتآمرون في مصر برئاسة ابن أبى حذيفة؛ لأجل إثارة المصريين - عن جهل وانخداع - ضد خليفة المسلمين المسالم، عثمان بن عفان، حتى انتهى الأمر بقتله.

د- الدقة الفائقة في رواية الأحداث التاريخية:

وذلك واضح من خلال حرصه على توقيت الأحداث التاريخية، -أحياناً-باليوم والشهر والسنة، خاصة في تولية وعزل ووفاة عدد من الولاة والخلفاء، وكذا عند ذكر الأحداث التاريخية المهمة، مثل: حرق الكعبة.

ولا تقف دقته عند هذا الحد،بل إنه يحرص على إيراد مروياته التاريخية بحروفها ونصوصها ؛تأثراً بروايته الدقيقة والصحيحة للحديث الشريف.والدليل على ما أقول: أن الطبرى(١) ينقل في التعليق على حوار أبى بكر مع عبد الرحمن بن عوف في مرض موت خليفة المسلمين ما خلاصته: أن يونس ابن عبد الأعلى (ت ٢٦٤هـ)، الذى روى عنه الطبرى هذه الرواية قال: قال لنا يحيى بن عبد الله بن بكير - وهو الذى نقل الرواية عن الليث بن سعد - قال: ثم قدم علينا عُلوان - وهو الشخص الذى روى عنه الليث هذه الرواية - بعد وفاة الليث، فسألتُه عن هذا الحديث (حديث أبى بكر مع عبد الرحمن بن عوف)، فحدثنى به، كما حدثنى به الليث بن سعد حرفاً حرفاً، وأخبرنى أنه هو حَدّث به الليث بن سعد، وسألتُه عن اسم أبيه، فأخبرنى أنه عُلْوان بن داود(٢).

(١) تاريخ الطبرى: ٣/ ٤٣١.

(٢) لاحظ أن سند الرواية ذُكر فيه اسمه خِلْواً من اسم أبيه (تاريخ الطبرى ٣/ ٤٢٩). ويلاحظ أن هذه =

ومن مظاهر دقته الأخرى التى تتضح من خلال آثاره التاريخية سؤاله عن الأشخاص المشتركين في الأحداث، مثل: إدراكه بعض مَنْ كانوا نصارى من موالى عبد الله بن سعد، ثم أسلموا، فأُسقطت عنهم الجزية، ودفعوا الخراج كالمسلمين، ووجدهم الليث-فعلاً-لا يزالون يؤدون الخراج في عهده.

وتتضح الدقة - كذلك - في روايته التى وصف فيها المسح الشامل الذى أُجرى على قرى مصر؛ لإحصاء السكان ومقدار ما يدفعون. وكذلك رؤيته لمواقع الأحداث كرؤيته للبيت المتنازَع عليه، وبه الربيع بن خارجة بن حذافة. وأخيراً، فمن مظاهر دقته حسن تصويره نفسيات الأشخاص كالرواية، التى دارت وقائعها بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص[١]، عندما أراد عمر الاطمئنان إلى خشونة وتجلُّد عمرو، وفطنة عمرو إلى ذلك، عندما ناوله عمرُ الثَّرِيدَ في يده ليأكله، وقد قدم عليه في وفد من مصر البلد الغَنِيّ وهو في غنى عن طعام عمر، لكنه وضع الثريد في شماله، وأكله بيمينه؛ ليؤكد لعمر أن الترف والنعيم لا يتطرقان إليه، ولا يُنسيانه حياة الجندية.

هـ- وجود بعض الأساطير والمبالغات:

وأسوق هذا الملمح؛ حتى لا نشتط في ذكر الإيجابيات متجاهلين السلبيات. فلا شك أن من الأساطير ما رواه الليث بخصوص سفينة نوح وما وقع فيها، ولعله دُسّ على الليث دَسًّا، ونُسب إليه زوراً وبهتاناً. وكذلك ما ذكر من قسوة سيدنا يوسف الظاهرة في معاملة المصريين، وهذا يتناقض تماماً مع ما عُرف عنه من حكمة، ولين، وخلق النبوة.

أما المبالغات، فهى واضحة في ذكر عدد الأسرى والسبايا، وحجم الغنائم في المغرب والأندلس. وقد يُظَنّ أن النص الذى يشير إلى دفع أهل أنطابلس بأولادهم للبيع نظير ما عليهم من الجزية من المبالغات، التى تصطدم مع العقل والمنطق، وخلق الإسلام، وسماحة الفاتحين، والروح الإنسانى بعامة. لكن الحقيقة أن النص لا يُفهم على ظاهره، فمعناه الصحيح أنهم إن أرادوا هم ذلك؛ لاعتيادهم عليه - فلا بأس به؛ فهم الذين عرضوا، ولم يفرض المسلمون عليهم شيئاً من ذلك.

و- ثقافة عصره، ودورها في تشكيل مادته التاريخية:

فقد اعتمد الليث على القرآن الكريم في بعض المواضع كآية سورة الممتحنة الخاصة بامتحان النساء، اللائى آمَنّ، وجئن من مكة إلى المدينة مهاجرات، وآيات سورة الروم بخصوص الصراع الدائر بين الفرس والروم، انتهاء بانتصار الروم. وكان

= الرواية دُعمت - رغم عدم حاجتها لما يدعمها - برواية أخرى رويت من طريق آخر، فيه كل من: الليث، وعلوان، لكن الذى نقلها عن الليث هو كاتبه عبد الله بن صالح، ولها المضمون نفسه (المصدر السابق ٣/ ٤٣١).

(١) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ص١٧٩.

اعتماد الليث على الحديث الشريف أكثر شيوعاً وانتشاراً؛ إذ إن معظم رواياته في تاريخ الأنبياء (مثل: آدم)، وفى أحداث سيرة الرسول ﷺ عبارة عن أحاديث، قالها النبى ﷺ وهى أحاديث صحاح، وبعضها بلغ أعلى درجات الصحة؛ إذ رواها البخارى، ومسلم. أما الشعر، فقد ورد بيت منه عند حديثه عن علاقة علىّ بأهل الشام والعراق معاً، وهو للأعمشى وعبّر-بدقة كاملة -عن سر عدم نجاح علىّ في صراعه مع معاوية.

ز- موارد الليث التاريخية:

وتتنوع هذه الموارد، التى نقل عنها الليث مادته التاريخية بطريقة مباشرة كما يلى:

١- موارد داخلية:

فقد اتضح من خلال ما أوردنا من آثار تاريخية بأسانيدها-ما وُجِدَتْ - أن الليث بن سعد اعتمد على عدد من مؤرخى مصر وعلمائها في نقل مادته التاريخية.ويأتى على رأس هؤلاء: يزيد بن أبى حبيب في معظم مروياته. بينما روى عن أبى قبيل - في مبلغ علمى، ومن خلال ما تبقّى من آثار -رواية وحيدة في تاريخ مصر القديم. وكذلك روى عن عُبيد الله بن أبى جعفر رواية بشأن شروط الصلح مع القبط. وروى عن عبد الكريم بن الحارث بن يزيد الحضرمى الرواية المفصّلة - التى يكاد ينفرد بها - عن اشتراك مصر في فتنة عثمان، وحِيلَ المتآمرين عليه؛ لإثارة الناس ضده في مصر برئاسة محمد ابن أبى حذيفة.

٢- موارد خارجية:

وفيها تظهر العلاقة بين مدرسة مصر التاريخية والمدارس التاريخية الأخرى، وهى كالآتى:

أولاً - العلاقة مع مدرسة الحجاز:

أ- محمد بن شهاب الزهرى (ت ١٢٤هـ):

لليث بن سعد معه صلات طيبة؛ إذ رحل الليث إلى الحجاز، وروى عنه[(١)]. وكتب عنه الليث كثيراً، ورغب في الذهاب إلى الرُّصَافة، حيث انتقل الزهرى، لكنه خشى ألا يكون ذلك لله (تعالى)، فلم يذهب[(٢)]. ومن ثم لم يستكمل مروياته عن الزهرى، فكان ينقل ما فاته - خاصة في الحديث - عن تلميذ الزهرى المقرب إليه: يونس بن يزيد الأيْلى (ت ١٥٩هـ). وقد أثنى الليث على علم ابن شهاب، فقال: ما رأيتُ عالماً أجمع من ابن شهاب، يحدثك في الترغيب، وعن العرب والأنساب، والقرآن والسنّة،

(١) الإرشاد، للخليلى ١/ ٢٠٢، والجمع بين رجال الصحيحين للمقدسى ٢/ ٤٣٣، ومخطوطة تهذيب الكمال للمزى ٣/ ١١٥٣، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٨/ ٤١٢.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازى (ط.إحسان عباس): ص٧٨، ووفيات الأعيان، لابن خلكان ٤/ ١٢٧، وسير أعلام النبلاء ٨/ ١٤٥.

فكأنه لا يحسن إلا كل فرع على حدة[١]. وبلغ من احترام الليث له وتوقيره إياه، أنه كان يأخذ بركابه لأجل العلم فقط، ولم يفعله مع غيره[٢]. وقد رأينا نقل الليث عن ابن شهاب ما يتصل بصلة الرحم بين مصر والعرب، وجواب ابن شهاب عن سؤال الليث بخصوص هذه الصلة، وروى عنه - كذلك - ما يتصل بشهداء أحد.

ب- عُقَيل بن خالد [*]:

وهو ممن روى عنهم الليث كثيراً. ويبدو أن الليث نقل عنه - خاصة في التاريخ - ما فاته نقله عن الزهرى، فهو - في عدد من المرويات -الواسطةُ بين الليث والزهرى. ولا عجب، فعقيل كان من أثبت الناس في الزهرى، وكان يكتب عن الزهرى في أَيْلَة، عندما ينزلها الزهرى في ضَيْعة له هناك. ويبدو أنه قدم إلى مصر، ومكث بها فترة، إذ مات بها سنة ١٤٤هـ[٣]. ومما ورد عنه في آثار الليث التاريخية: إجارة ابن الدغنة أبا بكر، ووفاة خديجة -رضى الله عنها -، وقتلى بدر، وتوقيت غزوة بنى النضير، وفرح المشركين بانتصار الفرس على الروم.

جـ- أبو الزُّبَيْر المكى [**]:

وقد التقى به الليث بن سعد في مكة، حيث قدم الليث عليه، فدفع إليه أبو الزبير كتابيْن، بهما مروياته عن الصحابى الجليل جابر بن عبد الله، ثم عاد الليث يسأله: هل سمعتَ هذا كله من جابر؟ فقال: منه ما سمعتُ، ومنه ما لم أسمع وحُدِّثْتُ عنه. فقال له الليث: أَعْلِمْ لى على ما سمعتَ، فأعلمَ له. فذاك هو الذى يرويه الليث عنه، عن جابر ﷺ[٤]. وقد نقل عنه الليث -كما رأينا- ما يتصل بجزاء أهل بدر والحديبية عند الله، وكذا إصابة سعد بن معاذ في الخندق، وحكمه الذى أصدره على يهود بنى قُرَيْظَة، وكذلك عدد المسلمين في الحديبية.

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٣٢٨.

(٢) الرحمة الغيثية لابن حجر ص٥.

(*) هو عُقَيْل بن خالد بن عَقِيل الأيْلىَ. أبو خالد الأموى، مولى عثمان. روى عن أبيه، ونافع مولى ابن عمر، والزهرى، وغيرهم. وروى عنه الليث، وابن لهيعة، ويونس بن يزيد الأيلى، وسواهم. وثّقه العلماء. وكان يعمل شرطيّاً بالمدينة. (سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٠١، وتهذيب التهذيب ٧/ ٢٢٨- ٢٢٩).

(٣) تهذيب التهذيب ٧/ ٢٢٨.

(**) هو محمد بن مسلم بن تَدْرُس الأسدى، مولاهم أبو الزبير المكى. روى عن العبادلة الأربعة، وعن عائشة، وجابر، وغيرهم. وروى عنه: شيخه الزهرى، وعطاء شيخه، والليث، وغيرهم. وثّقه بعض العلماء، وأثنوا عليه. توفى ١٢٦هـ. (المصدر السابق ٩/ ٣٩٠، وتقريب التهذيب لابن حجر ٢/ ٢٠٧).

(٤) تهذيب التهذيب ٩/ ٣٩٢.

د- سعيد المَقْبُرى (*):

وهو من أهل المدينة. ولعل الليث روى عنه في إحدى رحلاته إلى هناك. ويبدو أن الليث أكْثَر ودقّق في الأخذ عنه، حتى قيل: إن أثبت الناس فيه هو الليث بن سعد[١]. وقد رأينا - في الآثار التاريخية لليث - أنه روى عنه ما يتصل بسرية نجد التى أُسر فيها ثُمامة بن أثال سيد اليمامة باليمن، ثم إسلامه بعد ذلك، ورواية عن خيانة اليهود للرسول ﷺ بعد خيبر، وإهداء شاة مسمومة له.

هـ- هشام بن عروة بن الزبير (**):

ويبدو أن صلة الليث به تمّت في الحجاز، كما كان يَتِمّ الاتصال بينهما - بعدُ - عن طريق المراسلة. وقد سبق أن ذكرتُ رواية واحدة رواها الليث عنه ضمن ما كتب به هشام إليه، وهى التى تتعلق بزيد بن عمرو بن نُفَيْل.

ثانياً - العلاقة مع مدرسة الشام:

عثرت على رواية وحيدة، رواها الوليد بن مسلم الدمشقى، عن الليث ابن سعد، وعن غيره من مشيخة ساحل دمشق، وهى تتعلق بالاتفاق الذى أُبْرِم بين المسلمين وسكان جزيرة قبرص بعد فتحها في عهد معاوية بن أبى سفيان سنة ٢٨هـ.

وأخيراً، فليس هؤلاء هم كل من نقل عنهم الليث، فهناك يحيى بن سعيد الأنصارى، وبكير بن عبد الله بن الأشَجّ، وعمرو بن الحارث، لكننى اكتفيت ببعض مَنْ له آثار عثرتُ عليها. كما لا يعنى ذلك أن هذه هى كل الآثار، فقد ضاع الكثير بفقد كتاب الليث ذاته، كما فاتنى بعض ما هو موجود، فأنا لا أزعم الإحاطة. وبالنسبة لمن نقل عن الليث، فقد رأينا الوليد بن مسلم الدمشقى، وقد يكون هناك غيره، لكننى أكتفى بمَنْ وقفتُ له على مادة بالفعل. أمّا مَنْ نقل عن الليث - داخلَ مصر - مروياته التاريخية، فهم - وَفْقًا لما لدىّ من مادة تثبت ذلك - يحيى بن عبد الله بن بكير راوى كتاب الليث بن سعد في (التاريخ)، وهو في المقدمة، ثم كاتب الليث عبد الله بن صالح، ثم ابن وهب، وأخيراً: يحيى بن خالد العدوى.

(*) هو سعيد بن أبى سعيد المَقْبُرى المدنى. كان أبوه مكاتَباً لامرأة من بنى ليث. والمقبرى: نسبة إلى مقبرة بالمدينة كان مجاوراً لها. روى عن سعد بن أبى وقاص، وأبى هريرة، وعائشة، وغيرها. وروى عنه الليث، ومالك، وابن إسحاق، وغيرهم. توفى ١١٧هـ. (تهذيب التهذيب ٤/ ٣٤)

(١) المصدر السابق: ٤/ ٣٤.

(**) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدى. روى عن أبيه، وعمه عبد الله بن الزبير، وامرأته فاطمة بنت المنذر، وغيرهم. وروى عنه الليث، ويونس بن يزيد الأيلى، وعمرو بن الحارث، وسواهم. وثّقه العلماء. ولد ٦١هـ، وتوفى ١٤٦هـ. (جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار صـ٢٩١، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٣٤، وتهذيب التهذيب ١١/ ٤٤.

ح- استخدام الليث الوثائق لدعم النصوص التاريخية:

فقد نقل منها الليث باعتبارها نصوصاً رسمية موثوقاً بها، منها: كتاب عمر إلى عمرو ورَدّ عمرو، عليه بشأن الخراج، وبنود المعاهدات والمصالحات المختلفة، التى عُقدت في مصر مع القبط والروم، أو مع البربر، أو مع أهل جزيرة قبرص.

ط- وأخيراً، قدرته الطيبة على معالجة المادة التاريخية، وأسلوبه في ذلك: ولذلك مظاهر عديدة، منها:

١- القدرة على الربط بين النماذج التاريخية المتناظرة:

وذلك تطور جديد تميزت به مدرسة مصر على يد الليث بن سعد، وليس لنا به عهد في المدارس التاريخية الأخرى. وهذه القدرة تعنى: أن المؤرخ يستحضر معلوماته في التاريخ القديم، ويربط بينها وبين ما يشبهها في التاريخ الذى يعالجه. ومثاله: استحضار الليث صنيع كسرى مع جيوشه، بخصوص المبرّزين من قادته وجنده، ومقارنة ذلك بما فعله عمر بن الخطاب، لمّا أمَدّ عَمْراً بأربعة من كبار الصحابة، وذكر له أن الواحد فيهم يساوى ألفاً، وأرسل معهم أربعة آلاف جندى، واعتبر العدد الإجمالى للجند - بعد وصول المدد - يساوى ١٢ ألفاً.

٢- القدرة على تعليل الأحداث التاريخية، والنفاذ إلى نفسيات صانعيها من خلال ذكر تفاصيل عنها من داخلها:

ومثال ذلك: حديثه عن الخلاف بين عمرو بن العاص وعثمان بن عفان(١)، وطبيعة نظرة كل منهما إلى الآخر وسِرّ هذه النظرة. فقد طالب عمرو - وقد وفد إلى عثمان بالمدينة - أن تكون له مصر كلها، ولا يشاركه في حكمها أحد (عبد الله بن سعد الذى كان عمر قد جعله على الصعيد قبل وفاته). ولا شك أن عمراً لا يريد أن يشاركه أحد في نعيم مصر وغناها، وأن يكون حكمه لها خالصاً من دون الناس. وشجع على ذلك - كما تقول الرواية - ما رأى من عثمان، أى: من كبر سنه، وضعف صحته، وشدة حيائه، فظنها فرصة سانحة. وفى الوقت نفسه فَهِمَ عثمان نفسية عمرو ومقصده، وعلّل له تمسكه بابن سعد أنه أخوه من الرضاع، وأن عمر هو الذى عيّنه. فلمّا لم يَلِنْ عمرو، عزله عثمان بالكامل.

ومثال آخر يوضح هذا:

عندما ذكر العِلَل المختلفة التى أدّت إلى هزيمة ملك الروم هرقل في ذات الصوارى(٢)، رغم كثرة مراكبهم. ومن هذه العلل: إجبار العرب لهم على الحرب في البر، والتراشق بالنبل ثم بالحجارة، ثم إجبارهم لهم أن تكون المعركة في البحر كأنها

(١) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ص١٧٣-١٧٤.
(٢) السابق: ص١٩٠.

في البر تماماً (ربط السفن بالسلاسل، والضرب بالسيوف)، هذا إلى جانب تقهقر هرقل وتوقعه الهزيمة، وقوة إيمان المسلمين التى تمثّلت في قول أحدهم لعبد الله بن سعد وهو يستشيرهم: ماذا نفعل؟ قال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[١].

٣- دقة الليث ووجازته الأسلوبية التى تصل أحياناً إلى حد الغموض؛ نتيجة عدم ذكر تفاصيل تُعرّف القارئ بالحدث الذى يشير إليه. والوجازة واضحة عندما يتناول الأحداث مرتبة على السنين، فهو يوجز - جدًا - في ذكر الوقائع والتواريخ الخاصة بالولايات، أو الوفاة، وغير ذلك. والحق أن ما في (تاريخ خليفة) من آثار مروية عن الليث أعطانا - هو و(فتوح مصر) لابن عبد الحكم، وما فيه من تراجم متناثرة - صورة واضحة للتسلسل الموضوعى والزمنى، الذى اتبعه الليث في كتابه المفقود، وهو كالآتى:

أ- أن الليث - فيما يبدو - وضع كتاباً عامًا في (التاريخ)، وأنه بدأه بتاريخ العرب قبل الإسلام.

ب- أنه سرد - بعد ذلك - أحداث السيرة، وأورد بعدها تاريخ الراشدين.

جـ- أنه اهتم خلال هذا التاريخ العام بتاريخ مصر، ولعله أفرد لها كتاباً خاصًا بها.

د- يبدو أنه مزج بين الأحداث والتراجم في كتابه عن التاريخ العام، وأنه جعله مرتباً على السنين - كما ظهر من بقاياه في تاريخ خليفة - وأنه كان له منهج فريد في عرض تراجمه داخل أحداث السنة الواحدة - لعل خليفة بن خياط وغيره ممن نقلوه عن الليث - وهذا المنهج يتمثل فى: ذكر أهم الوقائع التى حدثت في السنة التى يتناولها، وذلك في جمل قصيرة مركزة، فيها بعض الغموض الناشئ عن ندرة المعلومات. وهذه الوقائع تتعلق بفتوحات، ووفيات شخصيات مهمة، أو ولاية والٍ مهم، مع الاهتمام بثوابت تتكرر في كل سنة، منها: المكان الذى ضَحّى فيه الخليفة، والشخص الذى حَجّ بالناس في ذلك العام.

٤- التعليق والشرح:

وذلك يتضح من تعليقه على حديث أبى ذَرّ، الذى يذكر توصية رسول الله ﷺ بأهل مصر؛ لأن لهم ذِمّة ورَحِماً، ثم قول الرسول ﷺ له: إذا رأيتَ فيها رجلين يقتتلان على موضع لَبِنَة فاخرج منها. فخرج أبو ذر من مصر لمّا رأى ذلك الخلاف بين عبد الرحمن، وربيعة ابنَىْ شرحبيل بن حسنة. نقل ابن وهب، عن الليث تعليقه على ذلك قائلاً: لا أرى النبى قال له ذلك، إلا للذى كان من أمر أهل مصر في عثمان[٢].

---

(١) سورة البقرة: جزء من الآية ٢٤٩.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم: ص١٠٩.

وبعدُ، فإذا كان الباحثون قد عرفوا الليث بن سعد محدّثاً موثوقاً به، تناثرت أحاديثه في دواوين السنّة المطهرة، ولمّا يُعْكَفْ عليها بالتجميع والتحقيق، وإذا كانوا قد سمعوا عنه صاحب مذهب فقهى لم يتم - فيما أعلم - جَمْعُه وتحقيقه ومقارنته بعدُ بغيره من مذاهب الفقه الأخرى بطريقة استقصائية شاملة؛ فإنى أرجو أن أكون قد قدمتُ للباحثين الليثَ بن سعد مؤرخاً مصريّاً، كانت جهوده التاريخية إلى وقت قريب جدًّا في طَيّ النسيان.

الفصل الثالث

عبد الله بن وهب الفِهْرىّ

عبد الله بن وهب(*):

١ - الاسم والنسب:

هو أبو محمد، عبد الله بن وهب بن مسلم القرشى بالولاء، الفِهْرى(١) المصرى

(*) اعتمدت في ترجمتي له على المصادر والمراجع الآتية مرتّبة ترتيباً زمنيّاً كالآتى: طبقات خليفة صـ٢٩٧، والتاريخ الكبير للبخارى ٥/٢١٨ (رقم ٧١٠)، والضعفاء لأبى زرعة الرازى (قسم الرواة الذين عدّلهم): ٣/٨٩٧ (رقم ٣٩٦)، والولاة والقضاة للكندى صـ٤١٧-٤١٨، والثقات لابن حبان ٨/٣٤٦، والكامل لابن عدى ٤/١٥١٨، والسابق واللاحق للخطيب البغدادى صـ٢٥٥ (رقم ١٠١)، والتعديل والتجريح للباجى ٢/ ٨٥٠ (رقم ٨٦٤)، والجمع بين رجال الصحيحين، للمقدسى صـ٢٦٠-٢٦١ (رقم ٩٥٥)، وترتيب المدارك للقاضى عياض ٢/ ٤٢١، والأنساب للسمعانى ١٠/٢٦٨-٢٦٩ (رقم ٣١١٣)، وصفة الصفوة لابن الجوزى ٤/٣١٣-٣١٤ (رقم ٨٣٧)، ومخطوطة تهذيب الكمال، للمزى ٢/ ٧٥٣، وتذكرة الحفاظ للذهبى (ط.إحياء التراث)١/ ٣٠٤ (رقم ٢٨٣)، والكاشف للذهبى (ط.دار الكتب العلمية) ٢/ ١٢٦ (رقم ٣٠٨٦)، وميزان الاعتدال للذهبى ١/ ٢٥١-٢٥٢، ودول الإسلام للذهبى ١/ ١٢٤، والوافى بالوفيات للصفدى ١٧/ ٦٦٥ (رقم ٥٦٣)، ومرآة الجنان لليافعى ١/ ٤٥٨، والديباج المُذْهَب لابن فَرْحون ١/ ٤١٣، والوفيات لابن قتفذ الفلسطينى صـ١٥٣ (رقم ١٩٧)، وتهذيب التهذيب لابن حجر (ط.دار الفكر) ٦/ ٦٥-٦٧ (رقم ١٤١)، وتقريب التهذيب لابن حجر ١/ ٤٦٠ (رقم ٧٢٨)، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢/ ١٥٥، وحسن المحاضرة للسيوطى ١/ ٣٠٢-٣٠٣، وطبقات الحفاظ للسيوطى صـ١٢٦-١٢٧ (رقم ٢٧٢)، وخلاصة الخزرجى ٢/ ١١٠ (رقم ٣٨٩٧)، وكشف الظنون لحاجّ خليفة رقم (٤٤٠، ٥٧٦)، وشذرات الذهب لابن العماد الأصفهانى ١/ ٣٧٤، والتاج المكلل للقنوجى صـ٥٨ (رقم ٣٧)، وشجرة النور الزكية لمحمد بن مخلوف صـ٥٨-٥٩ ، وإيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادى ٢/ ٤٢٨، ومعجم المؤلفين لكحالة ٦/ ١٦٢، ودائرة معارف الأعلمى ٢١/ ٢٥٢، والأعلام للزركلى ٤/ ١٤٤.

(١) نسبة إلى (فِهْر بن مالك بن النضر بن كِنانة). وإليهم ينتسب ابن وهب ولاء. ويرجح أنه ولاء حلف =

المَوْلِد والإقامة والاستقرار. كان جده مسلمٌ بربرياً[١]. ووالده وهب بن مسلم كان من كبار التابعين، رأى عقبة بن عامر الجهني، والحارث بن جزء الزبيدي، وأبا بصرة الغفاري صحابة رسول الله ﷺ في مصر، إلا أنه لا رواية له، ومات ودُفن في مصر[٢]. فلعل أسرته دخلت مصر مع الفتح، وأقامت واستقرت في مصر.

وقد اختُلف في ولاء عبد الله بن وهب، فقيل: ولاؤه لقريش في مكة؛ إذ كان والده وهب بن مسلم مولى ابن رُمّانة[٣]، ومن ثم كان عبد الله مولى رَيْحانة مولاة أبي عبد الرحمن يزيد بن أنيس الفهري[٤]. ويقال: ولاؤه للأنصار بالمدينة[٥].

وسر ذلك الاختلاف ما بين كونه قرشياً بالولاء، أو أنصارياً بالولاء، أن يزيد بن أنيس الفهري كان متزوجاً من امرأة من الأنصار من بني بياضة. فمن هنا لو عاد ولاؤه لها كان أنصارياً بالولاء، ولو عاد إلى زوجها كان فهرياً قرشياً بالولاء[٦]. والراجح ما ذكره مؤرخ مصر ابن يونس الصدفي أنه: مولى يزيد بن رمانة مولى أبي عبد الرحمن يزيد بن أنيس الفهري[٧].

٢- حياتــه:

أ- ولد عبد الله بن وهب في مصر في ذي القعدة سنة ١٢٤، أو ١٢٥هـ، وطلب العلم مبكراً وهو ابن سبعة عشر عاماً[٨].

ب- وتتلمذ على أيدي علماء مصر ومؤرخيها كابن لهيعة والليث بن سعد، وعمرو بن الحارث. كما رحل إلى الحجاز، وتتلمذ على أعلامه، مثل: يونس بن يزيد الأيْلي صاحب الزهري، وابن أبي الزِّناد، وأدرك من أصحاب الزهري أكثر من عشرين رجلاً[٩].

= ومناصرة. قال الشاعر في قُصَيّ: به جمع الله القبائل من فِهر (الأنساب) للسمعاني: ١٠/ ٢٦٨ رقم (٣١١٣).

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٢/ ٤٢١.

(٢) الكواكب السيارة لابن الزيات صـ٤٦.

(٣) المصدر السابق: صـ٤٦. وفي الكتاب المذكور كُتب مُصحَّفاً: (مولى ابن أبي زمانة).

(٤) ورد في (الانتقاء) لابن عبد البر صـ٤٨ (مولاة ريحانة) بدل (مولى ريحانة). وهو خطأ لاسيما أن هذا الكتاب نُشر غير محقّق. والصواب هو ما ذكرته نقلاً عن طبعة (وفيات الأعيان، ط .إحسان)، لابن خلكان ٣/ ٣٧.

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي ٩/ ٢٢٣، وتذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ٣٠٤.

(٦) ترتيب المدارك ٢/ ٤٢١.

(٧) تاريخ المصرين (ط.دار الكتب العلمية ببيروت، بتحقيقي) ص٢٨٩ (ترجمة رقم ٧٨٥). وعنه نقل ابن خلكان في (وفيات الأعيان) جـ٢ صـ٣٧.

(٨) سيره أعلام النبلاء ٩/ ٢٢٣، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٦.

(٩) ترتيب المدارك: ٢/ ٤٢٢، ووفيات الأعيان ٣/ ٣٦.

جـ- تزوج عبد الله بن وهب في سن لم تحددها المصادر، ولعلها سن مبكرة كعادة الناس في ذلك الزمان. وقد دعا في وليمة عرسه يونس بن يزيد الأيْلي، فسمعه ابن وهب يقول: سمعت ابن شهاب يقول في عرس لصاحبه: بالجَدّ الأسعد، والطائر الأيمن. قال ابن وهب: هذه تهنئة أهل الحجاز(١).

د- وقد كان ابن وهب قسّم دهره أثلاثاً: للرباط، ولتعليم الناس في مصر، وللحج. وذكر أنه حج ستّاً وثلاثين حجة(٢). ولم يشهد موت مالك (ت ١٧٩هـ)؛ إذ كان قد خرج لأداء فريضة الحج بمكة(٣).

هـ- اشترك ابن وهب في الرباط بالإسكندرية، فيحكى لنا ابن أخيه: أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ت ٢٦٤هـ: أنه كان مع عمه مرابطاً، فاجتمع الناس عليه يسألونه نشر العلم، فقال: هذا بلد عبادة. وقال: ما أمهد لنفسى فيه مع شغل الناس. (أى: لا أستطيع القيام بالعبادة مع الانشغال بالعلم وتدريسه للناس)، فترك الجلوس للناس في الأوقات التى كان يجلس لهم فيها، وأقبل على العبادة والحراسة. فأتاه بعد يومين آتٍ، أخبره أنه بهذا العمل يطفئ مصابيح العلم. فبكى ابن وهب، وعلم أن العبادة لا تَفْضُل نشر العلم. ثم حبس نفسه لهم يقرأون عليه، ويسألونه(٤).

و- وبلغ ابن وهب منزلة جيدة في التاريخ والأخبار، فضلاً عن إمامته في الحديث والفقه، ودوره الذى لعبه في التفسير. وكان غزير التصنيف في كل هاتيك العلوم. وبينا هو في حلقة علمه مع تلاميذه، إذ قُرِئ عليه كتابه: (أهوال يوم القيامة) من كتابه: (الجامع في الحديث)، فأُغْشِيَ عليه من شدة الخوف من الله، فانصدع قلبه، وحُمل إلى بيته، لم يَنْبِس بكلمة ثلاث ليال، ثم لم يلبث أن رحل إلى رحاب مولاه في يوم الأحد الموافق الخامس والعشرين من شعبان سنة ١٩٧هـ عن ٧٢ سنة(٥)، مرضيّاً عنه من الله ومن الناس، إن شاء الله.

ز- جاء نعيه إلى سفيان بن عيينة، فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. أصيب المسلمون عامة به، وأصبت به خاصة(٦).

(١) الكامل لابن عدى ٤/ ١٥٢٠، وتذكرة الحفاظ للذهبى ١/ ٣٠٤.
(٢) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٢٦، وتذكرة الحفاظ (ط.إحياء التراث) للذهبى ١/ ٣٠٥، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٧.
(٣) ترتيب المدارك ٢/ ٤٢٢.
(٤) المصدر السابق: ٢/ ٤٢٦.
(٥) حلية الأولياء للأصفهانى ٨/ ٣٢٤، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٣٦-٣٧، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٢٢٦، ومرآة الجنان لليافعى ١/ ٤٥٨، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٦.
(٦) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٢٨، وتذكرة الحفاظ (ط.إحياء التراث) للذهبى ١/ ٣٠٦، وميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٥٢٣، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٧.

ح- خلّف ابن وهب زوجتين، ولم يورث بولد[١]. وكان له ثلاثة إخوة: عبد الرحمن، وعبد العزيز، وعمر[٢]. ويبدو أنه كان له ولدان ماتا قبله، حيث لم يُورَثْ بأى منهما. ويبدو أن أكبرهما يسمى محمداً، وبه كُنّى، وكذلك يُروى أنه كان له ابن اسمه حميد[٣].

٣- صفاته:

أ- حسن تربيته نفسه:

يذكر تلميذه حرملة بن عمران التجيبى أنه سمع أستاذه ابن وهب يقول: نذرتُ أن أصوم يوماً كلّما اغتبتُ أحداً. فلمّا لم يَشُقّ ذلك علىّ، نويتُ أن أتصدق بدرهم، إن عدتُ إلى الغِيبة، فشَقّ عليه؛ لأنه قد لا يجد الدرهم، فما اغتاب أحداً بعدها[٤]، فهكذا يكون العلم النافع، الذى يهذب سلوك الإنسان، ويُقَوّم نفسه، ويخلصه من عيوبه ذاته.

ب- شدة ورعه وخوفه من الله (تعالى): ولذلك مظاهر عديدة، منها:

ا- كثرة بكائه، وقيامه بين يدى الله (تعالى) بالليل؛ خوفاً منه (سبحانه):

قال ابن أخيه: إنه لا يعلم نوم عمه منذ ثلاثين سنة، وأنه كان يوقظهم ببكائه[٥].

٢- موقفه من تولى القضاء:

كان عبد الله بن وهب، مع علمه وفقهه، شديد التورع، كثير التهرب من ولاية المناصب، فهو يخشى أن يرتد على عقبيه، عندما تقبل عليه الدنيا بسلطانها وجاهها وصولجانها. ولذلك فإن عَبّاد بن محمد[٦] لمّا طلب ابن وهب لمنصب القضاء في مصر، تغيّب واختفى عن العيون في بيت تلميذه حرملة بن يحيى التجيبى[٧]، حتى هدم

---

(١) ترتيب المدارك للقاضى عياض ٢/ ٤٢٨.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٤٣٣.

(٣) المصدر السابق: نفسه.

(٤) الكواكب السيارة، لابن الزيات ص٤٥. ورد في كتاب (سير أعلام النبلاء) ٩/ ٢٢٨: أنه لمّا شق عليه الصوم، نوى التصدق بدرهم، فمن حب الدرهم ترك الغيبة. وفى (الثقات) لابن حبان ٨/ ٣٤٦: أنه هان عليه الصوم.

(٥) الكواكب السيارة لابن الزيات ص٤٥.

(٦) هو والى مصر من قبل المأمون، وقد وليها من ١٩٦-١٩٨هـ، وولّى القضاء لهيعة بن عيسى الحضرمى أول شعبان ١٩٦هـ، لمّا فشل في تولية عبد الله بن وهب قضاء مصر (الولاة والقضاة، للكندى: ص١٤٩-١٥١، ٤١٧).

(٧) هو أبو عبد الله حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة بن عمران التجيبى المصرى، صاحب الشافعى، وأكثر من اقتبس منه. كان حافظاً للحديث، وروى عنه مسلم كثيراً في صحيحه، وكان أكثر الناس تحديثاً عن ابن وهب، عندما اختفى في بيته ما يزيد على العام، لمّا أُريد على القضاء. ولد ١٦٦هـ، وتوفى ٢٤٣هـ. ويلاحظ أن جده حرملة بن عمران ولد ٨٠هـ، وتوفى ١٦٠هـ. (وفيات =

عَبّاد بعض دار ابن وهب؛ نكاية فيه. فلمّا علم ابن وهب بما قاله أحدهم في حقه، دعا اللهَ عليه، فأعمى الله هذا الرجل بعد جمعة. وكان ابن وهب يقول: يا رب، يقدم عليك إخوانى - غداً - علماء حكماء فقهاء، وأقدم عليك قاضياً! لا، يا رب، ولو قُرِضتُ بالمقاريض.

ويذكر أن أهله وأقاربه لمّا شاورهم في أمر توليته القضاء، قالوا له: لعل الحق يحيا على يديك. فقال لهم: أُكْلَة في بطونكم، أردتم أن تأكلوا دينى[١]. وقد يكون كلام أقاربه منطقياً ومقنعاً؛ فهو أهل لهذا المنصب، لكنه فضّل التظاهر بالجنون والاختفاء بعيداً عن العيون[٢]؛ خشية الظلم، أو شبهة الظلم في أحكام القضاء. ولا غرو في ذلك، فهو القائل: " الشبهة تظلم القلب[٣].

٣- ظروف وفاته:

رأينا - سلفاً - أن ابن وهب مات، لمّا سمع أوصاف يوم القيامة وأهواله تُقرأ عليه. ويبدو أن هذا هو ديدنه عند سماع القرآن، فقد أُغْمِى عليه قبل ذلك عندما دخل الحمّام، فسمع قارئاً يقرأ: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾[٤]. فمن شدة تأمله، كاد عقله أن يغيب، وكاد أن يفقد وعيه من هول آيات العذاب والوعيد في الكتاب الكريم[٥].

جـ- صبره وحِلْمه وأستاذيته:

يذكر القاضى عياض[٦]: أنه بينما كان ابن وهب في حلقة علمه، إذ وقف سائل على الحلقة، وقال: يا أبا محمد، الدرهم الذى أعطيتَنى الأمس زائف. فأعلمه ابن وهب أنه لا يملكه، لكنه كان عارية عنده. فغضب السائل، وقال: صلى الله على محمد. هذا الزمان الذى كان يحدّث به أنه لا يلى الصدقات إلا المنافقون من هذه الأمة. فقام رجل من أهل العراق، فلطم السائل لطمة شديدة، خرج على أثرها من الحلقة، وهو يصيح: يا أبا محمد، يا إمام المسلمين، يُفعل بى هذا في مجلسك ؟! فسأل ابن وهب عمن فعل هذا، فقام عراقى، وأقَرّ بضربه؛ ليحمى لحم مؤمن من

= الأعيان لابن خلكان ٢/ ٦٤-٦٥).

(١) الولاة والقضاة، للكندى ص٤١٧-٤١٨.

(٢) السنن الكبرى للبيهقى ١٠/٩٩، وترتيب المدارك للقاضى عياض ٢/ ٤٣١، ودول الإسلام للذهبى ١/ ١٢٤، والعبر للذهبى ١/ ٢٥٢، والكاشف للذهبى ٢/ ١٢٦، وميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٥٢٣، وتهذيب التهذيب ٦/ ٦٦.

(٣) الكواكب السيارة لابن الزيات ص٤٥.

(٤) سورة غافر: بداية الآية ٤٧.

(٥) صفة الصفوة لابن الجوزى ٤/ ٣١٤، وتذكرة الحفاظ (ط.إحياء التراث)، للذهبى: ١/ ٣٠٦، والكواكب السيارة: لابن الزيات ص٤٥.

(٦) ترتيب المدارك: ٢/ ٤٢٨-٤٢٩.

منافق يغتابه. وقال لابن وهب: أنت مصباحنا وضياؤنا يغتابك في وجوهنا ؟! فحدثهم ابن وهب بأنه سيكون آخرَ الزمان مساكينُ لا يتوضئون للصلاة، ولا يغتسلون من جنابة، يخرج الناس من مساجدهم وأعيادهم، يسألون الله من فضله، ويخرجون يسألون الناس، يرون حقوقهم على الناس، ولا يرون لله عليهم حقّاً.

وموقف آخر يذكره الربيع المرادى صاحب الشافعى إذ يقول: إنهم جاءوا إلى ابن وهب للسماع، واجتمع على بابه خلق كثير، فقام يفتح لهم. فلمّا فتح، ازدحموا على الدخول، فسقط ابن وهب، وشُجّ وجهه. فقال: ما هذا إلا الخفة، وقلة الوقار. والله لا أسمعنّكم اليوم حرفاً. ثم قعد، وقعدوا. فلمّا رأى ما بالطلاب من هدوء، قال: أين سكينة العلم؟ إنما أُكفّر عن يمينى وأسمعكم، فكفّر وأسمعَنا[(١)].

٤- آثار ابن وهب التاريخية:

لمسنا - فيما مضى - غزارة تصانيف ابن وهب في العلوم الإسلامية المختلفة. ومما يدعم ذلك الرواية القائلة: إن كتب ابن وهب بيعت بعد موته بثلاثمائة دينار، أو ٣٦٠ ديناراً، وأنها كانت تستحق أكثر من ذلك، إلا أنه أوصى بعض الناس ألا يزيدوا في الثمن، وإلا لبلغت أكثر من ذلك[(٢)].

ومما يقطع بأنه ألّف في علم التاريخ ما صرّح به كل من: الذهبى[(٣)]، والصفدى[(٤)]، والقاضى عياض[(٥)] من أنه صنّف كتاباً في المغازى[(٦)]، وآخر في الردة، وثالثاً في البيعة.

ويبدو من خلال عناوين هذه الكتب أنه طرق سيرة الرسول ﷺ، وسمّاها (المغازى)، وتعرض لأحداث عهد أبى بكر وتعامله مع المرتدين، وسَمّاه (الردة). أما الكتاب الثالث، فلعله تناول فيه ظروف البيعة التى تمت لخلفاء الرسول ﷺ، وربما أراد أن يذكر فقهيات مبايعة إمام المسلمين، مستعيناً بأحداث التاريخ الإسلامى من خلال عهد الراشدين ﷺ. ولئن صدق هذا الاحتمال، فيكون ابن وهب قد جعل التاريخ الإسلامى نموذجاً ودليلاً حيّاً على تطوير نظم حكم المسلمين، مما يعد سابقة طيبة سبقت زمانها، وبَزّ من خلالها أقرانه.

---

(١) ترتيب المدارك، للقاضى عياض: ٢/ ٤٢٩-٤٣٠.
(٢) ترتيب المدارك، للقاضى عياض: ٢/ ٤٢٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٢٥.
(٤) الوافى بالوفيات ١٧/ ٦٦٥-٦٦٦.
(٥) ترتيب المدارك: ٢/ ٤٣٣.
(٦) وقد أشار الدكتور بشار عواد في دراسته عن: (الذهبى ومنهجه في كتابه: تاريخ الإسلام) صـ٤١٥ - إلى أن الذهبى أفاد من مغازى عبد الله بن وهب بن مسلم المصرى (ت ١٩٧هـ)، وهو من الثقات. كما ذكر الدكتور العمرى في دراسته موارد الفسوى في (المعرفة والتاريخ) صـ٤٦-٤٧: فذكر أن الفسوى أفاد من ابن وهب وتاريخه في ١٢٠ نصّاً.

هذا، وقد أورد ابن حجر[١] في ترجمته لابن أخي ابن وهب أحمد بن عبد الرحمن بن وهب (٢٦٤هـ): أن أحمد بن صالح المصرى (١٧٥-٢٤٨هـ) قال: بلغنى أن حرملة يُحدّث بكتاب (الفتن) عن ابن وهب، فقلت له في ذلك، وذكرتُ له أن هذا الكتاب لم يسمعه من ابن وهب أحد، ولم يقرأه ابن وهب على أحد. قال: فرجع من عندى على أنه لا يفعل، ثم بلغنى أنه حدّث به بعدُ. وهذه الرواية تشير إلى وجود مؤلَّف في (الفتن) وضعه ابن وهب، وأن حرملة بن يحيى التجيبى (ت ٢٤٣هـ) كان يرويه عنه. ولعل هذا الكتاب كانت فيه فتن وملاحم، وأخبار تاريخية، وقصص، وشئ من الأساطير. ويتضح من الرواية أن أحمد بن صالح المصرى قد استنكر هذه المرويات، ولم يرجع إليه حرملة قولاً؛ مما يوهم بأن حرملة نسب هذا الكتاب إلى ابن وهب، وهو منه برئ. لكننا إن أردنا تدقيق القضية، فابن حجر يُزيل الغموض في موضع آخر[٢]، فيقول: إن حرملة من أكثر الناس ملازمة ورواية عن ابن وهب، وأنه روى عنه ما لم يرو غيره؛ لوجود ابن وهب أكثر من عام متخفياً عنده في بيته (كما ذكرتُ سلفاً). ويضاف-إلى ذلك-أن بين أحمد بن صالح المصرى، وحرملة بن يحيى عداوة؛ لأن حرملة لم يُجِزْ لأحمد ابن صالح سوى رواية نصف ما لديه عن ابن وهب، ومنعه النصف الآخر، فتَوَلّدت العداوة بينهما، لدرجة أن أحمد بن صالح المصرى كان إذا علم أن أحداً من الطلاب جالس حرملة وسمع منه قَبْلَه، رفض أن يُحدّثه. ولذا فلا نقبل- بسهولة-كلام أحمد بن صالح في حرملة، وبالتالى لا أستبعد أن يكون لابن وهب كتاب في الفتن.

وبالنسبة لما ذكره الباحثون المحدثون، فقد ذكر (جست) في مقدمته الإنجليزية لكتاب (الولاة والقضاة) للكندى[٣] : أنه يغلب أن يكون لعبد الله بن وهب الفهرى كتاب في التاريخ. أما سزكين[٤]، فيذكر في الآثار التاريخية للقاسم بن محمد بن أبى بكر[٥] أن له قطعاً تاريخية، يدور موضوعها حول السيرة، أخذها الطبرى عن كتاب لعبد الله بن وهب الفهرى (ت ١٩٧هـ)، وذكر تلك القطع المقتبسة بإحالاتها. وبالعودة إليها تبيّن لى أن هناك مقتبسات خمسة بالفعل كما ذكر سزكين، وفيها نقل الطبرى عن

(١) تهذيب التهذيب ١/ ٤٨.

(٢) تهذيب التهذيب: ٢/ ٢٠١-٢٠٢ (ترجمة: حرملة بن يحيى).

(٣) Guest : Introduction of El wulah and el qudah , P .28.

(٤) تاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) ١/ ٤٤٩.

(٥) هو القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق. روى عن أبيه، وعن عمته عائشة، وعن العبادلة، وغيرهم. وروى عنه: عروة، والزهرى، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وسواهم. ثقة من سادات التابعين، ومن أفضل أهل زمانه علماً وأدباً وفقهاً. كان من فقهاء الأمة رغم تورعه في الفتيا والرواية. (ولد ٣هـ، وتوفى ١٠٧هـ). (تهذيب التهذيب ٨/ ٢٩٩-٣٠١، وتاريخ التراث العربى ١/ ٤٤٨-٤٤٩).

ابن أخى ابن وهب، الذى بينه وبين القاسم بن محمد بن أبى بكر راويان[١]. لكن المفاجأة كانت في أن موضوعات هذه المقتبسات لا تَمُتّ إلى السيرة بأية صلة، وإنما تدور كلها حول تاريخ الأنبياء السابقين على الإسلام، وعددهم، وعدد الكتب المنزّلة عليهم، وطبيعة صحف إبراهيم وموسى، وأن أقدم أنبياء بنى إسرائيل، وآخرهم هو عيسى[٢].

وعلى كل، فإن كتب ابن وهب في التاريخ قد فُقدت، وليس أمام الباحثين إلا أن يجتهدوا في جمع بقاياها من بطون المصادر الحديثية والتاريخية. وقد جمعتُ ما تيسر لى من ذلك، ورتبته ترتيباً موضوعيّاً وزمنيّاً على النحو الآتى:

أوّلاً: تاريخ ما قبل الإسلام:

أ- فضل يوم الجمعة، وارتباطه بتاريخ آدم:

روى ابن وهب، عن ابن أبى الزِّناد بسنده إلى أبى هريرة، قول رسول الله ﷺ: "سَيِّدُ ٱلأَيَّام يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ"[٣].

ب- قصة يونس:

روى يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب بسنده إلى أبى هريرة قال: طُرِح يونس بالعراء، وأوجد الله دابة تأكل من حشائش الأرض فتتغذى، وترضعه لبنها[٤].

ج- من أقوال المسيح المعبّرة عن أخلاقه:

قال ابن وهب: أخبرنى الليث بن سعد بسنده: أن عيسى بن مريم قال: إذا كانت بينك وبين أخيك مَعْتَبة، فالْقَه فسَلِّم عليه، واستغفر لك وله. فإن قبل وإلا فأشهدْ شاهدين أو ثلاثة أو أربعة. وإن أبى فليكن كصاحب مَكْس (ظالم)، وكمن كفر بالله[٥].

د- من هو الذبيح؟

حدثنى يونس بن عبد الأعلى، قال: حدثنا ابن وهب قال: أخبرنى عمر بن قيس، عن عطاء بن أبى رباح، عن ابن عباس أنه قال: المفدَّى إسماعيل. وزعمت اليهود أنه

---

(١) وهذا طبيعى؛ لأن عبد الله بن وهب لا يمكن أن يروى عن القاسم بن محمد بن أبى بكر مباشرة دون واسطة؛ لأن ابن وهب ولد ١٢٥هـ، وتوفى القاسم ١٠٧هـ. أى: قبل مولد ابن وهب بحوالى ١٨ سنة.

(٢) تاريخ الطبرى: ١/ ١٥٠-١٥١، ١٥٢-١٥٣، ١٧٠-١٧١، ٣١٢-٣١٣، ٤٥١-٤٥٢.

(٣) تاريخ الطبرى: ١/ ١١٤.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ١٦.

(٥) الجامع في الحديث، لعبد الله بن وهب ١/ ٤٣.

إسحاق، وكذبت اليهود ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾[(١)]. وهو: إسماعيل[(٢)].

هـ- روى الطبرى، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن الزهرى، عن قبيصة بن ذؤيب: أن امرأة نذرت أن تذبح ابنها عند الكعبة في أمرٍ ما فعلته، ففعلت ذلك الأمر، فقدمت المدينة تستفتى عن نذرها، فجاءت ابن عمر، وسألته، فقال: لا بد من الوفاء بالنذر. فقالت المرأة: لكنه ابنى. فقال ابن عمر: وقد نهاكم الله أن تقتلوا أنفسكم. وهكذا، توقف ابن عمر، ولم يجب المرأة. فسألت ابن عباس، فقال: انحرى مائة من الإبل مكان ابنك، وقَصّ عليها قصة عبد المطلب جد النبى ﷺ الذى نذر إن أعطاه الله عشرة من الولد (بعد موقف قريش منه في حفر زمزم، ولم يكن عنده إلا ابنه الحارث)، لَيُضَحِّيَنّ بواحد قرباناً للآلهة، وخرج القِداح على عبد الله والد الرسول، وكاد أن يُذبح لولا أن قريشاً نهته، واقترحت عليه أن يفديه بمائة من الإبل، فكان ما اقترحته قريش. فعرض عليها ابن عباس ذلك الحل. فعلم بذلك مروان بن الحكم والى المدينة، فلم تعجبه الفتيا، وقال للمرأة: استغفرى وتصدقى، فلا نذر في معصية الله. فأعجب الناس بذلك[(٣)].

و- وروى ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، قال: لمّا بلغ الرسول، جَمّرت امرأة الكعبة، فطارت شرارة من جمرها في ثياب الكعبة، فاحترقت فهدموها. حتى إذا بنوها فبلغوا موضع الركن، اختصمت قريش في الركن: أى القبائل ترفعه؟ فحكّموا أوّل طالع ،فكان محمد بن عبد الله. فاقترح أن يُمسك سيد كل قبيلة بطَرَف من أطراف الثوب،الذى به الحجر الأسود، ثم أخذه فوضعه بيده الشريفة، فدَعَوْه الأمين قبل نزول الوحى عليه، فكانوا لا ينحرون جَزوراً إلا التمسوه، فيدعو لهم فيها. وعلّق ابن كثير قائلاً: هذا سياق حسن، وهو من سِيَر الزهرى، لكن الغرابة فيه أنه جعل النبى ﷺ قد بلغ الحُلُمَ لِتَوّه. والمشهور أن هذا كان ورسول الله ابن ٣٥ سنة، وهو ما نَصّ عليه ابن إسحاق[(٤)].

ثانياً - في السيرة:

أ- روى يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة: أن أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة يراها مثل: فَلَق الصبح، ثم حُبّب إليه الخلاء بغار حِراء. وأحداث نزول الوحى عليه بـ (اقرأ)، ووصف مشاعر الفزع التى اجتاحت رسول الله ﷺ، وموقف زوجه خديجة منه، وطمأنتها له بقولها: والله، لا يُخزيك الله أبداً، وعَدّدتْ له مناقبه: يحمل

(١) سورة الصّافات: الآية ١٠٧.

(٢) تاريخ الطبرى: ١/ ٢٦٨.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٣٩-٢٤٠، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ١/ ٢٤٩.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٢/ ٣٠٠.

الكَلّ، وَيكسِب المعدوم، ويَقْرِي الضيف، ويُعين على نوائب الحق. وذهابها معه إلى ورقة بن نوفل، وتبشيره له بالرسالة، ونزول الناموس الأعظم (جبريل) عليه، وتمنى لو كان حيّاً، إذ يخرجه قومه حتى ينصره، إلى آخر هذه الوقائع الأولى المرتبطة ببداية الوحى(١).

ب- وروى يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب بسنده إلى رسول الله ﷺ: أنه سمع صوتاً من السماء، فنظر، فإذا جبريل جالس على كرسيه بين السماء والأرض، ففَرّ الرسول ﷺ، وذهب إلى بيته يقول: زَمِّلُوني، دَثِّروني. فنزل من سورة المدثر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾(٢). ثم تتابع الوحى(٣).

جـ- وعن جهود الرسول ﷺ في دعوة العرب في أسواقهم ومواسمهم: فيروى الطبرى عن بحر بن نصر الخولانى، عن ابن وهب بسنده إلى عمرو بن عَبْسة، قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو نازل بعكاظ، وقلت له: من يتبعك على هذا الأمر؟ قال الرسول: رجلان: حُرّ، وعبد (أبو بكر، وبلال). قال: فأسلمتُ، وكنتُ أظن نفسى بمنزلة رُبْع الإسلام(٤) (فاعتبر نفسه رابع أربعة أسلموا).

د- ذكر يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن مالك قال: كان الأنصار ليلة العقبة (يقصد الثانية) سبعين رجلاً، وكان نقباؤهم اثنى عشر نقيباً: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس(٥).

هـ- روى ابن وهب، عن ابن جريج: أن مبدأ التاريخ كان من هجرة رسول الله ﷺ. وقد رجّح ابن عساكر ذلك، وصوّبه(٦).

و- وذكر الطبرى(٧)، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب ،عن سعيد بن عبد الرحمن الجُمَحى: أنه قد بلغته أول خطبة للنبى ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة في بنى سالم بن عمرو بن عوف، وفيها حمد الله وأثنى عليه، وأوصاهم بتقوى الله في السر

---

(١) روى ذلك من طريق آخر البخارى في (صحيحه، طبعة: عالم الكتب)، باب (بيان كيفية الوحى): ١/ ٣-٥ (رقم٣). وذكر الرواية بطريقها المذكور عن ابن وهب: الطبرى في (تاريخه): ٢/ ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) سورة المدّثر: الآيات ١-٥.

(٣) أخرجه البخارى في (صحيحه، ط.عالم الكتب)، باب (بيان كيفية الوحى): ١/ ٥. وذكرها الطبرى في (تاريخه): ٢/ ٣٠٦.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٣١٥.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف) ٣/ ١٦٢.

(٦) تاريخ دمشق (ط.المنجد): ١/ ٣٢.

(٧) تاريخ الطبرى ٢/ ٣٩٤-٣٩٦. ونقلها عنه ابن كثير في (البداية والنهاية، ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٢١٣.

والعلانية، وحذّرهم من سخط الله وغضبه، وأمرهم بالجهاد واتباع الحق، وإصلاح ما بينهم وبين الله؛ حتى يصلح ما بينهم وبين الناس، وأمرهم بذكر الله وبالعمل لما بعد الموت. وعلّق ابن كثير بأن هذه الخطبة وردت هنا بطريق مرسلة، تقويها طريق أخرى مرسلة مثلها(١).

ز- وذكر يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن ابن يزيد: أن رسول الله ﷺ ظل يستقبل بيت المقدس في صلاته بالمدينة ١٦ شهراً، ثم تغامز اليهود عليه وتلامزوا، فقالوا: لا يعرف له قبلة، لولا قبلتنا. فنظر الرسول إلى السماء يبغى تحويل القبلة، فنزل قوله (تعالى): ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾(٢).

ح- وعن غزوة بدر:

قال ابن وهب: حدثنى حُيَيّ بن عبد الله بسنده إلى النبى ﷺ: أنه خرج يوم بدر ومعه ٣١٥ من المقاتلة، كما خرج طالوت. وأن الرسول ﷺ دعا الله حين خرج، فقال: " اللَّهُمَّ، إِنَّهُمْ حُفَاةٌ فَاحْمِلْهُمْ. اللَّهُمَّ، إِنَّهُمْ عُرَاةٌ فَاكْسُهُمْ. اللَّهُمَّ، إِنَّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ ". ففتح الله لهم، فانقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتسوا، وشبعوا(٣).

ويؤيد ضعف إمكانات جيش المسلمين قبل غزوة بدر ما رواه ابن وهب بسنده إلى ابن عباس: أن علياً قال له في غزوة بدر: ما كان معنا إلا فَرَسَان: واحد للزبير، وآخر للمقداد بن الأسود(٤).

ط- حول ظروف الخروج إلى غزوة أحد:

يروى ابن وهب، عن أبى الزناد بسنده إلى ابن عباس: أن الرسول ﷺ كان من رأيه يوم أحد أن يقيم بالمدينة، فيقاتل المشركين فيها، بينما رأى أناس لم يشهدوا بدراً أن يخرجوا للقتال؛ ليحوزوا الفضيلة كأهل بدر، وألحّوا على الرسول ﷺ حتى لبس درعه، ثم ندموا على إلحاحهم، وقالوا: أقِمْ يا رسول الله، فالرأى رأيك. فقال: لا يجوز أن يضع نبى أداته بعد أن لبسها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. وتفاصيل الرواية مطوّلة حول رؤيا رآها الرسول ﷺ، وكانت تنذر بهزيمة المسلمين، إلى آخر وقائع الغزوة(٥). وروى ابن وهب، عن يونس، عن الزهرى: أن المسلمين قاتلوا بعد فرار ٧٠٠ منافق(٦).

(١) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٢١٤.
(٢) تاريخ الطبرى ٢/ ٤١٧. وما نزل من القرآن موجود فى: سورة البقرة (جزء من الآية ١٤٤).
(٣) تاريخ الإسلام، للذهبى (مجلد المغازى بتحقيق: حمدان) ص٥٦.
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٢٦٠.
(٥) المصدر السابق: ٤/ ١١-١٢.
(٦) المصدر السابق: ٤/ ١٣. تجدر الإشارة إلى أن أبا سعيد الخدرى اسمه (سعد)، وكان صغيراً في =

ى- وعرض ابن وهب موقفاً بطوليّاً - في غزوة أحد - رواه عمرو بن الحارث بسنده: أن والد أبى سعيد الخدرى، لمّا جُرح النبى ﷺ يوم أحد، مَصَّ جُرْحَه حتى أنقاه، فلاَح أبيضَ. فقيل له: مُجَّه. قال: لا، والله لا أمجه أبداً. ثم أدبر، فقاتل، فقال النبى ﷺ: " مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنظُرْ إِلَى هذا ". فاستشهد[1].

ك- بايع المسلمون النبى ﷺ يوم الحديبية، وكان عمر بن الخطاب آخذاً بيد الرسول ﷺ تحت الشجرة، إلا المنافق الجَدَ بن قيس الأنصارى، الذى اختبأ تحت بطن بعيره. قال جابر :بايعناه على ألاّ نَفِرّ، ولم نبايع على الموت.(رواه يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب بسنده إلى جابر بن عبد الله)[2].

ل- وروى ابن وهب، عن حيوة بن شريح بسنده إلى جابر بن عبد الله: أن سرية خرجت في غزوة خيبر، فأخذوا راعياً معه غنم يرعاها، فجاءوا به إلى رسول الله ﷺ، فكلّمه. فأسلم الرجل، لكنه قال: لكن الغنم أمانة، وهى للناس الشاة والشاتان. فأمره الرسول أن يرمى وجوهها ببعض الحصى، فعادت كل شاة إلى بيت أهلها، ودخل الراعى القتال في خيبر، فأصابه سهم، فقُتل. وشهد الرسول له بحسن الإيمان، وأنه من أهل الجنة[3].

م- روى ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة بعد القتال، وترك مَنْ ترك من أهلها على الجلاء بعد القتال. وقال الزهرى: خَمّس رسول الله ﷺ خيبر، ثم قسم سائرها على مَنْ شهدها. ويعلّق ابن كثير على قول الزهرى: فيه نظر؛ لأن الصحيح أن خيبر جميعها لم تُقسم، وإنما قسم نصفها بين الناس. واحتج مالك بذلك ومَنْ تابعه على أن الإمام مُخيّر في الأراضى المفتوحة إن شاء قسمها، وإن شاء أرصدها لمصالح المسلمين، وإن شاء قسم البعض ورصد البعض لما ينويه في الحاجيات والمصالح[4].

ن- وذكر ابن وهب، عن يحيى بن أيوب بسنده إلى ابن عباس ﷺ: أن رسول الله ﷺ قسم لمائتى فرس يوم خيبر سهمين سهمين[5].

= غزوة أحد. واختلف في سنة وفاته (ولعلها سنة ٧٤هـ). راجع (الإصابة) لابن حجر جـ٣ صـ٧٨-٨٠. ووالده المشار إليه في المتن هو الصحابى (مالك بن سنان الأنصارى). راجع ترجمته في (المصدر السابق) ٥/ ٧٢٧-٧٢٨.

(١) تاريخ الإسلام، للذهبى (مجلد المغازى): صـ١٥٥.

(٢) تاريخ الطبرى ٢/ ٦٣٢.

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبى (مجلد المغازى) صـ٣٤٧-٣٤٨، والبداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٤/ ١٩١.

(٤) المصدر السابق: ٤/ ٢٠١.

(٥) تاريخ الإسلام للذهبى (مجلد المغازى): صـ٣٥٤.

س- وروى عن أسامة بن زيد الليثى، عن نافع، عن ابن عمر قال: لمّا فُتحت خيبر سألَتْ يهودُ رسولَ الله ﷺ أن يُقرهم على أن يعملوا على النصف مما خرج منها. فقال رسول الله ﷺ: " أُقِرُّكُمْ فِيهَا عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا " . فكانوا على ذلك. وكان التمر يُقسم على السُّهْمان (أصحاب الأسهم) من نصف خيبر، ويأخذ الرسول الخمس. وكان أطعم كل امرأة من أزواجه من الخُمْس مائة وَسْق من تمر، وعشرين وَسْقاً من شعير[١].

ع- وروى ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن ابن المسيب، عن أبى هريرة: أن الرسول والمسلمين ناموا وهم في طريق عودتهم من خيبر، ووكل الرسول إلى بلال أن يوقظهم لصلاة الفجر، لكنه نام، فاستيقظ المسلمون على حر الشمس، فصلوا الصبح بعد طلوعها، وقال الرسول ﷺ: "مَنْ نَسِىَ صَلاَةً، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا؛ فَإِنَّ اللهَ-تَعَالَى-يَقُولُ: "وأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى"[٢].

ف- مقام الرسول ﷺ بمكة بعد الفتح:

ذكر ابن حجر[٣] بإسناده عن ابن وهب، عن ابن أبى الزناد، عن أبيه، عن عروة: أنه كتب إلى الوليد بن عبد الملك: أما بعد، فإنك كتبتَ إلىّ تسألنى عن قصة الفتح، فذكرتُ لك وقتها. فأقام - عندئذ - رسول الله ﷺ بمكة نصف شهر، ولم يزد على ذلك، حتى أتاه أن هوازن وثَقيفاً قد نزلوا حُنَيْناً، يريدون القتال تحت رئاسة عوف بن مالك.

ص- وعن غزوة حنين ذكر ابن وهب في (جامعه)[٤]:

أن المسلمين هُزموا في البداية، ثم جمع الرسول صفوفهم بعد أن أمر العباس بالنداء على الفارّين: يا لَلأنصار، ثم يا لَلْخزرج. وكانوا صُبُراً عند الحرب، والرسول منطلق على بغلته البيضاء يقول لمّا اشتد القتالَ: (الآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ " . وفى النهاية انتصر المسلمون، وحُسمت نتائج المعركة لصالحهم. وبعدها قدم وفد هوازن،

(١) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف) ٤/ ٢٠٠، وأخرجه أبو داود في (سننه)، كتاب (الخراج والإمارة والفيء) ٣/ ٤٠٩-٤١٠ (رقم ٣٠٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في (صحيحه)، كتاب (المساجد ومواضع الصلاة) باب (قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجل قضائها): ١/ ٤٧١ (حديث ٦٨٠)، وأبو داود في (سننه) في موضع واحد ورد فى: كتاب (الصلاة) باب (من نام عن الصلاة أن نسيها): ١/ ٣٠٢ رقم (٤٣٥). وجزء من الآية المذكور من (سورة طه: آخر الآية ١٤).

(٣) فتح البارى ٨/ ٢٧. وأورد الطبرى في (تاريخه) ٣/ ٥٥ بإسناده إلى هشام بن عروة، عن عروة: أن المكاتبة كانت بين عبد الملك بن مروان وعروة، وموضوعها هو دور خالد بن الوليد يوم الفتح. أما رواية ابن حجر، فقد أوردها الطبرى صـ٥٦ مبدوءة بصيغة: حُدِّثْتُ. وفى نهايتها مدة مُكْث رسول الله ﷺ في مكة قبل غزوة حنين.

(٤) القسم الثانى منه: صـ١٥٣-١٥٥.

وخيّرهم الرسول بين أموالهم وسباياهم، ثم مَنّ عليهم برد الكُلّ إليهم. ويذكر ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب: أن رسول الله ﷺ أعطى يومها صفوانَ بن أمية مائة من النَّعَم، ثم مائة. فما بَرِح يعطيه، حتى صار الرسول ﷺ أَحَبَّ الناس إليه[١].

ق- إرهاصات وفاة الرسول ﷺ:

يُحدّث الطبرى، عن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، عن ابن وهب بسنده إلى أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ جلس إلى الناس على المنبر، وقال: إن عبداً خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله. وفَطِن أبو بكر إلى أنّ ذلك يعنى: قُرْبَ أجَلِ رسول الله ﷺ، فبكى وتعجب الحاضرون من بكائه، وقوله للرسول ﷺ: نَفديك بآبائنا وأمهاتنا. فمدحه الرسول كثيراً، وأخبر أنه لا يعلم أحداً أفضل في الصحبة عنده من أبى بكر، وأمر أن تُسَدَّ جميعُ الأبواب المؤدية إلى المسجد إلا باب أبى بكر[٢].

ر- موقف العباس خلال مرض الرسول الأخير:

حدّث الطبرى، عن أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، عن يونس بن يزيد، عن الزهرى، عن ابن عباس: أن العباس أخذ بيد علىّ في مرض الرسول الأخير، وأخبره أن الرسول ﷺ يُقبض في مرضه هذا؛ فهو يعرف الموت في وجوه بنى عبد المطلب. وطلب إليه أن يسأل الرسول ﷺ: لِمَنْ يكون الأمر بعده؟ فإن كان فيهم عَرَفوا، وإنْ كان في غيرهم وَصَّى بهم خيراً. لكن عليّاً أبى أن يسأله؛ لأنهم إنْ طلبوا ذلك الأمر ولم يُعْطَوْه، مُنِعوا منه إلى الأبد[٣].

ش- وفاة الرسول ﷺ، وخاتمه الذى تركه:

روى الطبرى بالإسناد السابق، عن عروة، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ توفى عن ٦٣ سنة[٤].

ومما تركه الرسول ﷺ بعد وفاته، فيما يرويه ابن وهب، خاتَمُه ﷺ الذى تختّم به، ولبسه من بعده أبو بكر، وعمر، ثم عثمان، حتى سقط منه في بئر، فنزحها، فلم يقدر عليه[٥].

ثالثاً - في تاريخ الراشدين:

أ- روى يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن ابن

(١) المصدر السابق: صـ١٥٧.
(٢) تاريخ الطبرى ٣/ ١٩١.
(٣) المصدر السابق: ٣/ ١٩٣-١٩٤.
(٤) السابق: ٢/ ٢١٦.
(٥) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٦/ ٢-٣.

شهاب، قال: حدثني ابن المسيب قال: لمّا تُوفى أبو بكر ﷺ، أقامت عليه عائشةُ النَّوْحَ. فأقبل عمر بن الخطاب ونهاهنّ فلم يستجبن، فأمر هشام بن الوليد بالدخول، فأتاه بفَرْوة أخت أبي بكر، فعلاها عمر بالدِّرَّة، فتفرق النوح حينئذ(١).

ب- تناولنا في السيرة فعل رسول الله ﷺ في خيبر. فلمّا أراد عمر بن الخطاب ﷺ إخراج اليهود، أرسل إلى أزواج النبى ﷺ، فقال لهن: من أحب منكن أن أقسم لها مائة وَسْق، فيكون لها أصلها وأرضها وماؤها، ومن الزرع مزرعة عشرين وسقاً من شعير، فعلنا. ومن أحب أن نعزل الذى لها في الخمس - كما هو - فعلنا(٢).

جـ- روى الطبرى أن يونس بن عبد الأعلى حدثه قال: أخبرنا ابن وهب قال: حدثنا عبد الرحمن بن يزيد، عن أبيه، عن جده: أن عمر بن الخطاب ﷺ خطب الناس، فقال: " وَالَّذِى بَعَثَ مُحَمَّداً بِالْحَقِّ، لَوْ أَنَّ جَمَلاً هَلَكَ ضَيَاعاً بِشَطِّ الْفُرَاتِ، خَشِيتُ أَنْ يَسْأَلَ اللهُ عَنْهُ آلَ الْخَطَّابِ "، قال أبو زيد (وهو أسْلَم): آل الخطاب يعنى: نفسه، وما يعنى غيرها(٣).

د- وفيما يتصل بصنيع سعد بن أبى وقاص في عهد الراشدين، قال ابن وهب: أخبرنى عمرو بن الحارث، عن بكير بن عبد الله بن الأشج قال: سألت عامر ابن سعد عن قول رسول الله ﷺ لسعد بن أبى وقاص: " عَسَى أَنْ تَبْقَى، يَنْتَفِعُ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرُّ بِكَ آخَرُونَ ". فقال: أُمّر سعد على العراق، فقتل قوماً على الردة فضرَّهم، واستتاب قوماً كانوا سجعوا سجع مسيلمة الكذاب فتابوا، فانتفعوا به(٤).

هـ- ويروى الطبرى: أن يونس بن عبد الأعلى حدّثه قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنى ابن أبى ذئب، عن عباس بن الفضل مولى بنى هاشم، عن أبيه، عن جده ابن أبى رافع: أنه كان خازناً لعليّ على بيت المال، قال: فدخل يوماً وقد زُيّنت ابنته، فرأى عليها لؤلؤة من بيت المال قد كان عرفها، فقال: من أين لها هذه؟ لله عليّ أن أقطع يدها. قال: فلمّا رأيتُ جِدَّه في ذلك، قلتُ: أنا والله - يا أمير المؤمنين - زيّنتُ بها ابنة أخى، ومن أين كانت تقدر عليها، لو لم أعطها ؟! فسكت(٥).

و- وعن علاقة على بن أبى طالب بالخوارج:

قال ابن وهب: أنبأ عمرو بن الحارث، عن بُكير بن الأشج، عن بُسْر ابن سعيد، عن عُبيد الله بن أبى رافع: أن الحَروريّة لمّا خرجت على عليّ، قالوا: لا حُكْمَ إلا لله. فقال عليّ: كلمة حق أُريدَ بها باطل. وذكر عليّ أن رسول الله ﷺ وصفهم بأنهم

(١) تاريخ الطبرى ٣/ ٤٢٣.
(٢) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف): ٤/ ٢٠٠.
(٣) تاريخ الطبرى ٤/ ٢٠٢-٢٠٣.
(٤) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف): ٨/ ٧٥.
(٥) تاريخ الطبرى: ٥/ ١٥٦.

يقولون الحق بألسنتهم لا يجاوز حناجرهم، وأنهم أبغض خلق الله إليه. قال عُبيد الله: ذلك من أمرهم، وقول عليّ فيهم[(١)].

رابعاً - بعض تواريخ الصحابة والتابعين:

أ- قال ابن وهب: سمعت مالكاً يقول: كان المغيرة بن شعبة يقول: صاحب المرأة الواحدة يحيض معها، ويمرض معها، وصاحب المرأتين بين نارين تشتعلان، وصاحب الأربعة قرير العين. وكان يتزوج أربعاً معاً، ويطلقهن معاً[(٢)].

٢- قال ابن وهب: كان حنش بن عبد الله الصنعانى إذا فرغ من عَشائه وحوائجه، وأراد الصلاة من الليل، أوقد المصباح، وقرّب المصحف، وإناء فيه ماء، فإذا وجد النعاس استنشق الماء بعد تسليمه، وإذا تعايا في آية، نظر في المصحف[(٣)].

٣- قال أبو محمد عبد الله بن وهب: سبب ولاية أبى المغيرة عبد الله بن المغيرة بن أبى بردة القرشى القضاء بإفريقية، أن سليمان بن عبد الملك لما ولى الخلافة، أرسل رجلاً ثقة يجمع خراج إفريقية من عاملها عبد الله بن موسى بن نصير، وكتب إليه يأمره أن يوجه الخراج مع عشرة عدول من أهل القيروان، ويشهدوا أن هذا المال أُخذ من وجهه. فتم توجيه المال مع عشرة منهم عبد الله بن المغيرة. وسألهم سليمان: أأُخذ هذا المال من وجهه؟ قالوا: نعم. ولم يتكلم ابن المغيرة؛ ورعاً وخوفاً من الله. وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً المجلس، وحفظ ذلك عمر، وسأل عنه. وسمع عنه خيراً. فلما ولى عمر، ولاّه قضاء إفريقية، وظل حتى زمن كلثوم بن عياض، فلما ولى كلثوم استعفى من القضاء: وولى بعده عبد الرحمن بن عقبة الغفارى[(٤)].

خامساً - الأمويون:

أ- قال عبد الله بن وهب، عن الإمام مالك: قُتل يوم الحرة ٧٠٠ رجل من حملة القرآن. حسبتُ أنه قال: وكان فيهم ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ، وذلك في خلافة يزيد[(٥)].

ب- أخبرنى إبراهيم بن نَشيط: أن مروان بن الحكم أوصى ابنه عبد العزيز قائلاً له: ولا تدع المشورة فإنه لو استغنى عنها أحد استغنى بها رسول الله ﷺ[(٦)].

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبى: ٣/ ٣٥٨.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٣، والبداية والنهاية (ط.الريان): ٨/ ٥١.
(٣) رياض النفوس (ط.دار الغرب الإسلامى): ١/ ١٢١.
(٤) المصدر السابق: ١/ ١٢٧.
(٥) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٦/ ٢٣٤.
(٦) الجامع في الحديث، لابن وهب ١/ ٤٥.

جـ- قال الطبرى: توفى الوليد بن عبد الملك يوم السبت في جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ في قول جميع أهل السير. واختلف في مدة خلافته، فقال الزهرى في ذلك: ما حُدّثتُ عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عنه (أى: الزهرى): مَلَكَ الوليدُ عشر سنين إلا شهراً[١].

سادساً - في تاريخ مصر:

أ- تاريخها القديم:

١- روى ابن وهب، عن حرملة بن عمران التجيبى بسنده إلى أبى ذر أن الرسول ﷺ وصّى بأهل مصر؛ لأن لهم ذمة ورحماً[٢]. وروى ابن وهب - كذلك - عن عمرو بن الحارث بسنده إلى رسول الله ﷺ: أنه وصَّى لدى وفاته بإخراج اليهود من الجزيرة، ووصَّى بالقبط؛ فهم أعوان المسلمين[٣]. ونقل ابن وهب، عن ابن لهيعة: أن هاجر أم إسماعيل كانت من قرية أم العرب، وهى تقع أمام الفَرَما من قرى مصر[٤].

٢- وروى ابن وهب، عن جرير بن حازم، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ: أن إبراهيم وسارة دخلا أرض مصر، فحاول حاكم مصر الاعتداء على السيدة سارة؛ لشدة جمالها، لكنها صَدَّتْه، وخذله الله ونصرها عليه. فابتعد عنها مُجْبَراً، وتركها وشأنها، وأهدى إليها جاريتها هاجر[٥].

٣- وروى ابن وهب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب: أن رسول الله ﷺ أرسل حاطِبَ بن أبى بَلْتَعة إلى المقوقس عظيم مصر، الذى أكرم حاطباً، وأحسن استقبال كتاب رسول الله ﷺ، وتأدّب في الرد، وأهدى إلى الرسول كُسْوَة، وبغلة، وجاريتين[٦].

ب- فتوح مصر وأحداثها:

١- روى ابن وهب، عن ابن لهيعة: أن عمراً قدم مصر بـ ٣٥٠٠ جندى، ثلثهم من غافق، ثم أمَدَّه عمر بن الخطاب بالزبير على رأس ١٢ ألفاً[٧].

٢- روى ابن وهب، عن عبد الرحمن بن شُرَيْح بسنده: أن القبط كانوا يُعجبون من انتصار المسلمين في مصر على الروم، رغم قلتهم وكثرة الروم، فقال أحدهم: إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى يقتلوا خيرهم. فغضب عمرو بن

(١) البداية والنهاية لابن كثير (ط.مكتبة المعارف): ٦/ ٤٩٥.
(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم: صـ٢.
(٣) السابق: صـ٣.
(٤) السابق: صـ٤.
(٥) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم: صـ١٠.
(٦) السابق: صـ٤٧.
(٧) الولاة والقضاة، للكندى: صـ٨.

العاص، وكاد يمسك بالرجل لولا أن خَلّصه القبط، ثم لمّا قُتل عمر بن الخطاب ﷺ، أدرك عمرو صدق الرجل، فأرسل يطلبه ليعلم من أين له بهذا التنبؤ، فإذا به قد هلك[(١)].

٣- روى ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن يزيد بن أبي حبيب: أن هناك قرى في مصر، منها: أم دنين، كان لها عهد عند عمرو بن العاص، لكنها نقضته وساعدت الروم، فسباهم عمرو بن العاص، فلمّا علم بذلك عمر بن الخطاب، كتب إلى عمرو، يأمره أن يُخيّرهم بين الإسلام والجزية، فأَبوُا الإسلام، فردّهم إلى قراهم[(٢)].

٤- روى عن عبد الرحمن بن شُريح، عن عُبيد الله بن أبي جعفر: أن عقبة ابن عامر كتب إلى معاوية، يسأله قطعة أرض يبنى عليها منازل ومساكن. فأمر له معاوية بألف ذراع في مثلها. فقال لعقبةَ مواليه، ومَنْ عنده: انظر أرضاً تعجبك، فاختطّ بها وابْتَنِ. فقال عقبة: ليس لنا ذلك، فلهم في عهدهم ستة شروط، منها: ألا يُؤخذ من أرضهم شئ، ولا يُزاد عليهم، ولا يُكلّفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ ذراريهم، وأن يقاتل عنهم عدوهم مِنْ ورائهم[(٣)].

٥- ويروى ابن وهب روايات أخرى عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقى[(٤)]، وعبد الرحمن بن شريح[(٥)]، وداود بن عبد الله الحضرمى، كلها تفيد أنه ليس لأهل مصر عقد ولا عهد إلا أن أهل أنطابلس لهم عهد يوفى به[(٦)].

٦- روى عن ابن لهيعة: أن محمد بن أبي حذيفة استولى على مصر، وأعطى الناس أعطياتهم، فرفض أخْذَها بعضُ شيعة عثمان في مصر[(٧)].

٧- وروى عن حرملة بن عمران، أن أبا فراس مولى عمرو حدّثه أن عمراً مات ليلة الفطر سنة ٤٣هـ، وغُسّل، وصُلِّى عليه يومَ العيد[(٨)].

٨- وروى عن بكير بن مضر قال: رأيت حفص بن الوليد استسقى بالناس في إمارة هشام بن عبد الملك، فاستقبل الناس بوجهه على المنبر وخطب ودعا، ثم حوّل إلى الناس ظهره، واستقبل القبلة يدعو، وحوّل رداءه، ودعا الله، ثم حوّل وجهه إلى

---

(١) فتوح مصر وأخبارها: ص٥٩-٦٠.
(٢) فتوح مصر وأخبارها: ص٨٣، ٨٦.
(٣) السابق: ص٨٦.
(٤) السابق: ص٨٨.
(٥) السابق: ص٨٩-٩٠.
(٦) السابق: ص٨٩.
(٧) الولاة والقضاة للكندى: ص١٥.
(٨) الولاة والقضاة للكندى، ص ٣٤.

الناس، ثم نزل، فصلّى ركعتين[١].

جـ- الخِطط، والتنظيم المالي والإداري في مصر:

١- روى ابن وهب، عن يحيى بن أزهر بسنده: أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب: إنّا اختططنا لك داراً عند المسجد الجامع. فكتب له عمر: أنَّى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر؟!.وأمر بجَعْلها سوقاً للمسلمين[٢].

٢- وروى عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله قال: شهد عبد الله بن عمر فتح مصر، واختطّ بها دار البِرْكة بركة الرقيق. قال: فوهبتُها لمعاوية؛ رجاء أن يُثيبني عنها، فلم يفعل حتى مات، فهو في حِلّ[٣].

٣- وروى ابن وهب، عن ابن لهيعة: أن الديوان - زمن معاوية - كان أربعين ألفاً، منهم: أربعة آلاف في مائتين مائتين، فكان إنما يُحْمَل إلى معاوية ٦٠٠ ألف فَضْلَ أعطيات الجند[٤].

٤- وذكر ابن وهب ما كتب به عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد، ومنهم: عمرو بن العاص: ألا يضربوا الجزية إلى على مَنْ جرت عليه المَواسى، وذكر لكل إقليم مقدار الجزية المطلوبة، ومقدار ما يكفى الأقاليم المختلفة من القمح، والشعير، والزيت، والكساء، وخلافه. ونهى أن تُضْرَب الجزية على النساء والصبيان[٥].

٥- وروى عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب: أن عمر بن الخطاب يأخذ ممن صالحه من المعاهَدين ما سمّى على نفسه، لا يضع من ذلك شيئاً، ولا يزيد عليه. ومن نزل منهم على الجزية، ولم يُسَمّ شيئاً يؤديه، نظر عمر في أمره، فإذا احتاجوا خَفّفَ عنهم، وإن استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم[٦].

٦- روى ابن وهب، عن حيوة بن شريح بسنده: أن عمر بن الخطاب أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد، يتقدمون إلى الرعيّة: أن عطاءهم قائم، وأن رزق عيالهم سائل، فلا يزرعون ولا يُزارعون. قال ابن وهب: فأخبرني شَريك بن عبد الرحمن المرادي قال: بلغنا أن شَريك بن سُمَيّ الغُطَيْفي أتى إلى عمرو يشكو قلة العطاء، ويسأله أن يأذن له بالزرع، فأجابه عمرو أنه لا يقوى على ذلك، ثم بلغ عمراً أنه زرع دون إذن. فلمّا بلغ ذلك عمر بن الخطاب، استدعى شريكاً إلى المدينة، وكاد يفتك به لولا توبته وتراجعه،فقُبل ذلك منه[٧].

(١) السابق: صـ٨٢-٨٣.
(٢) فتوح مصر وأخبارها: ٩٢.
(٣) السابق: نفسه.
(٤) السابق: صـ١٥٢.
(٥) فتوح مصر وأخبارها: صـ١٥٢.
(٦) السابق: صـ١٥٣.
(٧) السابق: صـ١٦٢.

د- فتوح مصر في إفريقيّة:

١- ورد في (تاريخ خليفة) عن ابن وهب: أن عمرو بن العاص أتى لَبْدَة بعد فتح الإسكندرية، وهى من أرض أطرابلس، فافتتحها، ثم رجع سنة ٢٤هـ(١).

٢- وحول غزوة إفريقية ونزول وادى القيروان، وإخراج السباع منه، رأى ابن وهب أن قائد هذه الغزوة هو الصحابى: عقبة بن عامر. ولكن غيره يقولون: لا، بل عقبة بن نافع هو الذى قادها. ومعلوم أن عقبة بن عامر صحابى، وابن نافع لا صحبة له. أما الليث، فقال: بلغنا أن عقبة بن عامر غزا قبل ذلك إفريقية(٢).

٣- ونقل ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب: أن الناس كانوا قبل تولِّى أبى المهاجر دينار إفريقية سنة ٥١هـ يغزونها، ثم يقفلون منها إلى الفسطاط. وأوّل مَنْ أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار، وأقام بها الشتاء والصيف، واتخذها منزلاً. وكان مسلمة بن مخلد هو الذى عقد له على الجيش الذى خرج معه إلى إفريقية، فلم يزالوا بها حتى قُتل ابن الزبير، فخرجوا منها(٣).

سادساً - الملامح العامة لمنهج ابن وهب التاريخى:

أ- المفهوم الشامل للسيرة النبوية:

لقد تناول ابن وهب - في المقتطفات التى نقلتها من بقايا كتابه في التاريخ - أحداث السيرة في شمول واستيعاب بالمقارنة بما تبقى من مروياته من تاريخ الراشدين والأمويين. فلم يكتف ابن وهب بمجرد سرد أحداث السيرة، وإنما ركّز على نواحٍ جديدة فيها، مثل: الاتفاقات التى عقدها الرسول ﷺ مع خصوم الإسلام (كاتفاقه مع يهود خيبر)، واهتم ببدء الوحى وأثره النفسى في رسول الله ﷺ، والاهتمام ببيان صفاته الخُلُقية على لسان السيدة خديجة ؓ. كما اهتم ببيان بدء التاريخ الهجرى، وعرض صوراً من بطولات المسلمين خلال المعارك الإسلامية المختلفة (والد أبى سعيد الخدرى، والغلام الذى استشهد في خيبر). وهكذا، كان ابن وهب يعد كل حدث لرسول الله ﷺ، وما تعلق به داخلاً في إطار السيرة.

ب- القرآن والحديث مصدران مهمان لكتابة التاريخ الإسلامى:

اعتمد ابن وهب على القرآن في دعم تناوله للأحداث التاريخية، فربط بين ما حدث للرسول بعد نزول الوحى عليه، وما نزل من قرآن مرتبط بتلك الحادثة (فى الآيات الأولى من سورة: العلق، والمدثر). وكذلك عندما تناول موضوع تحويل القبلة، وغمز ولمز اليهود للمسلمين، ذكر آية سورة البقرة الخاصة بتحويل القبلة.

---

(١) فتوح مصر وأخبارها: صـ١٥٢.

(٢) طبقات علماء إفريقية، لأبى العرب: صـ٥٩.

(٣) فتوح مصر وأخبارها: صـ١٩٧.

أما الحديث فقد كان له نصيب كبير في أحداث السيرة؛ لأن السيرة تصف مواقف وأفعال رسول الله ﷺ. فالحديث مصدر ثرىّ وعميق لكتابة تاريخ السيرة النبوية. وقد رأينا كثيراً من المرويات المرفوعة إلى رسول الله ﷺ، كما ورد في غزوة بدر، وأحد، وحنين، وغيرها.

جـ- غلبة المرويات التاريخية ذات الصبغة الفقهية:

ابن وهب باعتباره فقيهاً - في الأصل - كان يُركّز على الأحداث التاريخية بخلفياتها وزواياها الفقهية، مثل: تركيزه على تفاصيل اتفاق رسول الله ﷺ مع يهود خيبر، وكيفية توزيع الغنائم، ونصيب زوجات الرسول منها. كما ركّز على تفاصيل أحكام الجزية في مصر، ونصيب الفرد من الحبوب والزيت وغيرها في الأمصار المختلفة، ومقدار ما حمل من خراج للخلافة. وهذه كلها موضوعات اقتصادية حضارية، اهتم بها مؤرخو مصر مبكراً، فتفوقوا على مؤرخى المدارس الأخرى في تلك الفترة، اللهم ما ورد عن أبى يوسف (ت ١٨٢هـ) في كتابه التاريخى الفقهى الاقتصادى (الخراج). كما وردت لدى ابن وهب رواية هى مدخل مهم لموضوع حضارى مهم، وهو: تساؤل العباس عمن له الأمر بعد رسول الله ﷺ، فهى تشير إلى نوع من الاهتمام المبكر بنظام الحكم الإسلامى.ولو عثرنا على روايات أخرى تنضم لهذه الرواية لدى مؤرخى مصر،لاستطعنا وضع أيدينا على هذا الموضوع المهم.

د- تنوع مروياته في تاريخ ما قبل الإسلام، وحسن تدقيقه في اختيار معظم هذه المرويات:

فمن الروايات الصحيحة التى أوردها في ذلك الشأن:

ارتباط فضائل يوم الجمعة بخلق آدم ؑ، وأحداث حياته، وما يتعلق بالناس جميعاً، فهو يوم تقوم فيه الساعة. ومما يحمد لابن وهب إدراكه الصحيح أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، كما يزعم أهل الكتاب. كما أحسن عندما عرض رواية دلّت على عظم مكانة الرسول بين قومه ﷺ قبل بعثته (حادثة وضع الحجر الأسود).

هـ- اعتماده على الوثائق التاريخية المهمة:

وضح ذلك في رواية أول خطبة، خطبها رسول الله ﷺ في يوم الجمعة بالمدينة بعد أن هاجر إليها من مكة، وكذلك خطبة عمر التى تدل على منهجه العادل في الحكم. وما كتبه عمر بن الخطاب إلى عمال الأقاليم المختلفة (ومنهم: عمرو بن العاص) بخصوص الجزية، وعهود أهل البلاد المفتوحة، إلى جانب ما قرّره عمر بمنع جند الإسلام من الانشغال بالمزارعة؛ كى يتفرغوا للجهاد في سبيل الله.

و- بعض هفوات وقع فيها:

١- الرواية التى استفتت فيها المرأة عبدَ الله بن عمر، وابنَ عباس عن نذرها بأن تذبح ابنها عند الكعبة رواية أشك في صحتها. فبالرغم من صحة ووثاقة رجال الإسناد

بها، إلا أننى أتوقف طويلاً أمام المتن بها. فلا يمكن أن يستدل ابن عباس في فتواه بفعل، قام به عبد المطلب في الجاهلية، في القصة الطويلة التى ساقها عن نجاته بابنه عبد الله من الذبح، فأعمال الجاهلية ليست مصدراً للإفتاء في الإسلام. كما أن السؤال لم يكن ليتوقف فيه عبد الله بن عمر وهو الفقيه العظيم، حتى يأتى مروان بن الحكم ليقرر فيه رأياً. ولا أدرى كيف زَلّ ابن وهب في هذه المسألة الواضحة، فروى هذه الرواية المشكوك فيها، وهو الفقيه المالكى العظيم!

٢- عدم الدقة أحياناً:

وذلك لمسناه في بعض الروايات، مثل: حديثه عن رسول الله ﷺ، عندما وضع الحجر الأسود بيديه، بما يوهم أن الرسول يومها كان قد تجاوز الحُلُمَ بقليل. فالمعروف - كما قال ابن كثير - أن ذلك الحدث تَمّ والرسول كان ابن ٣٥ سنة. وكذلك الرواية التى يذكر فيها عمر بن عبسة أنه رابع أربعة في الإسلام غير صحيحة، فأين خديجة، وعثمان بن عفان وزيد بن حارثة، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم من الأوّلين السابقين في الإسلام.ثم إن الدعوة كانت سرّيَة في السنوات الثلاث الأوَل، فلم يكن الرسول ﷺ يلجأ للدعوة في الأسواق في تلك الفترة المبكرة؛إذ لم يؤذن له فيها بعدُ بأن يصدع بالأمر.

٣- وجود بعض الاضطراب في عدد من مرويات ابن وهب:

وذلك يتضح في تحديده فتح الإسكندرية الثانى بسنة ٢٢هـ،كما ورد فى تاريخ خليفة[(١)]. وقد يُرَدّ على هذا بأن الخطأ ربما يكون من خليفة بن خياط؛ لأن ابن وهب لم يصرح بوقت وقوع هذا الفتح، وخليفة هو الذى وضعه في تاريخه تحت أحداث هذه السنة. ثم لعل مقصد ابن وهب أن هذا هو الفتح الأول؛ بدليل أنه ذكر - بعد ذلك - أن الإسكندرية فُتحت عنوة في عهد عثمان ابن عفان[(٢)].ورغم أن هذا التعليل صحيح ووجيه، إلا أن عدم ذكر ابن وهب توقيت بعض الأحداث التاريخية خطأ تاريخى لا يجوز الوقوع فيه.

ومن مظاهر الاضطراب - أيضاً - أن ابن وهب أورد رواية تفيد أن مصر فُتحت بلا عقد ولا عهد. ثم أورد رواية أخرى تفيد أن مصر لها عهد ذو شروط ستة (وذلك في رواية عقبة بن عامر السابق ذكرها)[(٣)].

---

(١) صـ١٥٢. ويلاحظ أنه أورد قبلها رواية في أحداث سنة ٢١هـ (صـ١٥١) جاء فيها: وروى ابن وهب، عن حرملة بن يحيى: أن أبا تميم حدّثه أنه شهد فتح الإسكندرية الآخر، وكان عليهم عمرو بن العاص. وهذا خلط للأمور وقع فيه خليفة بن خياط.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم صـ١٧٨.

(٣) وذلك في آثار ابن وهب التاريخية السابق عرضها.

ز- موارده التاريخية:

اعتمد ابن وهب في النصوص التاريخية، التى أوردتها له على موارد داخلية وموارد خارجية.

أما الموارد الداخلية:

فقد استقى مادته التاريخية عن طريق علماء مصر :عبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد، وحرملة بن عمران التجيبى.

أما الموارد الخارجية:

فقد اعتمد فيها على يونس بن يزيد الأيلى، وابن جريج المكى. والحقيقة أنه نقل معظم مروياته - حتى فيما يتصل بتاريخ مصر - عن يونس ابن يزيد الأيْلى[1]. فمروياته بشأن المرأة المستفتية، وحادثة رفع الحجر الأسود، وبدء نزل الوحى، وأحداث خيبر، ووفاة أبى بكر، وموقف المقوقس من كتاب الرسول ﷺ، الذى أرسله إليه مع حاطب بن أبى بلتعة، وخِطّة ابن عمر التى اختطها في مصر، وفى الأسس العامة التى أقام عليها عمر تعامله مع أهل البلاد المفتوحة. كل هاتيك الموضوعات اقتبسها ابن وهب من يونس ابن يزيد الأيلى.

وأخيراً، يلاحظ أن كثيراً من المرويات، التى نقلت عن ابن وهب - خاصة ما نقله الطبرى عنه - إنما أخذها يونس بن عبد الأعلى[2]، وابن أخيه أحمد بن عبد الرحمن بن وهب.

---

(١) يونس بن يزيد بن أبى النِّجاد الأيلى. هو أبو يزيد، مولى معاوية بن أبى سفيان. روى عن هشام بن عروة، وعكرمة، ونافع مولى ابن عمر، والزهرى. روى عنه: عمرو بن الحارث، وابن أخيه عنبسة بن خالد بن يزيد الأيلى، والليث، والأوزاعى، وابن وهب، وابن المبارك. وهو من أثبت الناس في الزهرى، ووثقه أحمد. وكان الزهرى إذا قدم أيلة، نزل عليه. وقال القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر: زعموا أنه توفى في صعيد مصر سنة ١٥٩هـ (تهذيب التهذيب ١١/ ٣٩٥-٣٩٧).

(٢) يونس بن عبد الأعلى بن موسى الصدفى. أبو موسى المصرى. روى عن: ابن عيينة، وابن وهب، والوليد بن مسلم، وغيرهم. وممن روى عنه: مسلم، والنسائى، وابن ماجة. عظّم العلماء شأنه، ووَثّقوه. ولد ١٧٠هـ، وتوفى ٢٦٤هـ. (المصدر السابق ١١/ ٣٨٧-٣٨٨).

الباب الخامس

دور مؤرخى القبط

فــي كتابة تاريخ مصر

تقديم

أحاول خلال الصفحات القادمة إبراز جهد القبط، وما جادت به قريحتهم التاريخية من مؤلفات في مجال التاريخ خلال الفترة المذكورة. وقد رأيتُ تقسيم هذا الباب إلى الفصول الآتية:

الفصل الأول - الظروف السياسية والدينية في مصر وأثرها في الأوضاع الثقافية قبل الإسلام:

وفيه يتم إبراز الظروف السياسية وتقلبات الصراع الدينى، التى مرّت بها مصر في عصور ما قبل الإسلام؛ حتى تكون هذه الظروف بمنزلة الأرضية السياسية، التى نُكوّن من خلالها رؤية عامة صائبة لحقيقة تلك العصور بما فيها العصر، الذى عاشه أبرز مؤرخى القبط في تلك الفترة يوحنا النَّقْيوسى، ثم نبين - بعد ذلك - أثر وانعكاس هذه الظروف على الثقافة بعامة، وحركة التاريخ لدى مؤرخى القبط سلباً وإيجاباً.

الفصل الثانى - يوحنا النقيوسى: حياته، وكتابه:

وفيه تتم دراسة المؤرخ الوحيد الذى نعرفه من القبط في تلك الفترة[1]، وهو يوحنا النقيوسى، من خلال الترجمة له، والتعريف بموطنه (نَقْيوس)، ومحاولة تلمس معالم شخصيته وصفاته، وثقافته من خلال كتابه. ثم أقوم بالتعريف بكتابه، وأهميته، ومناقشة قضية اللغة الأصلية التى كُتب بها، والمراحل التى مر بها كتابه عبر العصور المختلفة، حتى بدا في صورته الأخيرة التى درستُه من خلالها. ثم أذكر الموضوعات العامة التى تناولها من خلال كتابه في مراحله التاريخية المختلفة التى تناولها، وأرّخ لها.

الفصل الثالث - منهج يوحنا النقيوسى في الكتابة التاريخية:

وفيه أقوم بعرض الملامح العامة لمنهجه التاريخى، مع ذكر الشواهد والنماذج

---

(١) ذكر بتلر في كتابه: (فتح العرب لمصر) هامش ٢ صـ١٦٤: أن هناك ترجمة عن (صمويل القلمونى) بقلم مؤرخ مجهول، يرجع تاريخها إلى ما قبل موت قيرس (المقوقس ت ٦٤٢م). ولمّا كان صمويل توفى ٦٣٩م، فذلك يعنى أن الترجمة كُتبت أوائل سنة ٦٤٠م، قبل انتصار العرب الحاسم في مصر. وهذه الترجمة تهتم بإيراد الفظائع التى ارتكبها قيرس ضد الأقباط في مصر. ومعنى ما تقدم أن هناك مؤرخين آخرين غير يوحنا النقيوسى، لكننا لم نسمع بهم، ولم تصل إلينا مؤلفاتهم، ولعل يوحنا أشهرهم وأبرزهم، وواحد من أقدمهم، بالإضافة إلى تميُّزه عنهم بوصول مؤلَّفه التاريخي إلينا.

التاريخية الدالة عليها، مع التعليق عندما تقتضى الظروف ذلك.

الفصل الرابع والأخير - الموازنة بين النقيوسى والمؤرخين المسلمين في مصر:

وهو فصل قصير موجز مركز على اعتبار أنه يمثل خلاصة وعصارة العلاقة بين مؤرخينا والنقيوسى، حيث أقوم بالربط بين ملامح منهجه التاريخى، وملامح مناهج مؤرخينا المسلمين السابق تناولهم، عن طريق عرض موازنة منهجية بينهم، تبرز عناصر الاتفاق والاختلاف بينهم وبينه.

الفصل الأول

الظروف السياسية والدينية في مصر
وأثرها في الأوضاع الثقافية قبل الإسلام

١- الأحوال السياسية والصراعات الدينية:

أ- لعل من أهم أحداث التاريخ أن المسيحية ظهرت في عصر الإمبراطورية الرومانية (٢٧ ق.م - ٤٧٦م عندما سقطت في روما بالغرب)، وكان ظهورها - في البداية - ضعيفاً يكتنفه كثير من الغموض. ويرجح وصولها إلى مصر منذ عهد مبكر جداً[١]. وسواء انتشرت المسيحية في مصر على يد القديس مرقص سارية من روما، أم ظهرت عن طريق دعاتها المبشرين بها من موطنها الأصلى في فلسطين وسوريا مع حركة التجارة والجيوش برّاً وبحراً، فإن مصر - على كل حال - وُجد بها نشاط وكتابات مسيحية على جانب كبير من الأهمية في القرن الثانى الميلادى، بالرغم من تعرض المسيحيين لأعمال التعقب والبطش والاضطهاد الرومانى الوثنى؛ مما دفعهم إلى العمل في الخفاء في كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية عامة، وفى مصر خاصة[٢].

ب- كانت الإسكندرية مركز الحركة المسيحية في مصر، ودخلت في صراع مع أقطاب الوثنية بالجامعة القديمة هناك، وتعرض زعماؤها للتنكيل والبطش. وعلى رأسهم: كليمنت الذى وُلد في أثينا أواسط القرن الثانى الميلادى، ثم أتى إلى الإسكندرية وتنصّر بها، ثم اضطر إلى الرحيل لفلسطين، هرباً من اضطهاد الإمبراطور سفيروس سنة ٢٠٣م. وولى الرياسة بعده على المسيحيين في مصر أوريجين، وهو أعظم مفكرى المسيحية في عصره، إذ كان قد نشأ بالإسكندرية على المسيحية، ومات

(١) بدليل مجئ العائلة المقدسة لسيدنا المسيح إلى مصر؛ فراراً من اضطهاد اليهود بفلسطين لها، ومحاولة ملكهم قتله. (المسيحية والحضارة العربية)، للدكتور جورج شحاته قنواتى صـ٣٣.

(٢) مقال: (حول نشأة المسيحية في مصر)، للدكتور مصطفى العبادى، نشره في مجلة (المجلة)، العدد ٨١، سبتمبر ١٩٦٣م، صـ٣٨.

أبوه في الاضطهاد السابق، وهو ابن ١٧ سنة، وظل في منصبه الرئاسى حتى ٢٣٢م. وكانت له دراساته حول الكتاب المقدس، وكانت له محاوراته حول الأقانيم الثلاثة (الأب، والابن، والروح القدس). ثم اضطر إلى الرحيل لأنطاكية؛ بسبب خلافه الفلسفى مع الأسقف ديمتريوس. ونشر المسيحية هناك، وظل مقيماً بأنطاكية، حتى توفى بها سنة ٢٥٣م.

وهكذا، كانت الإسكندرية مركز الجماعات المسيحية المحلية، وحلقة الاتصال مع العالم الخارجى[١].

جـ- وقد كان المصريون يعيشون - في ظل الإمبراطورية الرومانية الوثنية - حياة شقية يغلب عليها التوتر الدائم، وشدة السخط على الساسة؛ مما أدى إلى سياسة العنف المضاد، إلى جانب تفشى الأمراض الاجتماعية الخطيرة الناشئة عن الفساد السياسى القائم؛ من الإفراط في التراخى والسلبية، والمغالاة في الحِدّة والتعامل العنيف، والاستخفاف بقيم الحياة الإنسانية. وقد واجهتهم الإمبراطورية بشدة العقوبات وقسوتها إلى الحد، الذى وصل إلى تقطيع الأطراف الآدمية دون رحمة ولا شفقة[٢].

وبالرغم من أن مصر كانت مصدر حلول عملية كثيرة لساسة الإمبراطورية الرومانية، من خلال ما تقدمه من قمح تطعم به الأفواه الجائعة في روما[٣]، فإن حكامها لم يرحموا الفلاح المصرى، الذى يقدم زهرات القمح الجنيّة، فأثقلوا كاهله بالضرائب المتعددة، ودفعوه إلى عمليات هروب فردى وجماعى؛ نتيجة الأعباء المتزايدة عليه من الضرائب والديون المتكاثرة، فكان الفلاح يَفِرّ إلى قرى بعيدة لا يعرفه فيها أحد، أو يغوص بين الناس في زحام المدن الكبرى، أو يلجأ إلى الاختباء في الفيافى والصحراوات الشاسعات[٤].

ولا شك أن الأهمية المتزايدة لإقليم مصر هى التى دفعت الإمبراطورية للوقوف في وجه المسيحية، فلعلها - إلى جانب مخالفتها لدين الدولة الرسمى - تدفع الناس لمقاومة الظلم. فما كان من الحكام بها إلا أن زادوا من حجم الاضطهادات في القرن الثالث الميلادى، وبالتحديد في منتصفه، حين قام ديكيوس الرومانى بمحاولة إبادة المسيحيين على مستوى الإمبراطورية كلها بما فيها مصر؛ مما أدى إلى نوع من الانقسام بين المصريين ما بين متحمل للاضطهاد، وثابت على الحق مهما كلّفه ذلك، وما بين متظاهر بالوثنية؛ نجاة بنفسه من الموت المحقق.

---

(١) مقال: (حول نشأة المسيحية في مصر)، للدكتور مصطفى العبادى، المنشورة في مجلة (المجلة العدد ٨١، سبتمبر ١٩٦٣ (صـ٤٠).

(٢) الإمبراطورية البيزنطية، لنورمان بينز (تعريب: حسين مؤنس، ومحمود يوسف زايد) صـ٢٤-٢٥.

(٣) الإمبراطورية البيزنطية، لنورمان بينز (تعريب: حسين مؤنس، ومحمود يوسف زايد) صـ١٢٩.

(٤) تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسى والحضارى، للدكتور سيد الناصرى: صـ١٦.

وقد بلغت المظالم وحركة الاضطهاد ذروتها في عهد دقلديانوس[(١)]، الذى تأبّى المسيحيون عليه، ورفضوا تقديم القرابين لآلهته، فما كان منه إلا أن مَثّل بهم، وارتكب في حقهم أفظع الجرائم. وما زالت الكنيسة القبطية - حتى الآن - تستخدم تقويمها القبطى بدءاً من سنة ٢٨٤م التى اعتلى فيها عرش الإمبراطورية، رغم أن اضطهاده الفعلى بدأ قرب أواخر حكمه (سنة ٢٩٩م)[(٢)].

د- وتبدأ الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) على يد الإمبراطور (قسطنطين ت ٣٣٧م)، الذى أسس مدينة القسطنطينية سنة ٣٣٠م، واتخذها عاصمة لبلاده، وقبلها كان قد أصدر مرسوم التسامح الدينى سنة ٣١١م، وفيه اعترف بالمسيحية كديانة داخل الإمبراطورية[(٣)]. وهكذا، بدأ المسيحيون عصراً جديداً - بعد تنصر قسطنطين - استراحوا خلاله من اضطهاد قياصرة الرومان، وبدأوا يأمنون على أنفسهم وحرية ديانتهم، خاصة أن قسطنطين بنى الكنائس، وعيّن المسيحيين في المناصب بدل الوثنيين، وقامت أمه هيلانة بكثير من أعمال البر والخير، وتوجهت إلى القدس؛ للتبرك بزيارة الأماكن المقدسة هناك، كما أنها عثرت على الصليب الخاص بالمسيح ﷺ[(٤)].

هـ-لكن المسيحيين لم يلبثوا أن دخلوا في صراع طائفى مذهبى، شوّه ديانتهم، وحرّف عقيدتهم، وأجّج نيران العداوة والبغضاء والخصومة فيما بينهم. ولعل سبب هذا الصراع الدينى الداخلى هو الاختلاف حول طبيعة المسيح ﷺ[(٥)]، خاصة ما

(١) جندى فلاح في الأصل، نجح في اعتلاء عرش الإمبراطورية، وولى حكمها منفرداً من سنة ٢٨٤-٢٨٦م، ثم وضع لها نظاماً جديداً للحكم، فجعل لها امبراطورين، لكل منهما قيصر يعاونه في الحكم، ويحل محله عند اعتزال الحكم أو الوفاة. وقد حكم بالاشتراك مع مكسيميان من (٢٨٦-٢٩٣م)، ثم معه بالإضافة إلى القيصرين المساعدين من سنة ٢٩٣-٣٠٥م، (الهلينية في مصر) لإدريس بل. ترجمة: زكى على صـ٢٠٠.

(٢) مقال: (حول نشأة المسيحية في مصر) للدكتور مصطفى العبادى صـ٤١، وكتاب: (المسيحية والحضارة العربية) للدكتور قنواتى صـ٦٦-٦٧، وتاريخ الإمبراطورية الرومانية، للدكتور الناصرى صـ١٦.

(٣) المسيحية والحضارة العربية، للدكتور قنواتى: صـ٣٣.

(٤) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى (من الترجمة العربية للدكتور عمر صابر عبد الجليل)، ط١-عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٠م)، صـ١٠١-١٠٢.

(٥) وحقيقة هذا الخلاف ترجع إلى تأثير الديانة المسيحية - منذ البداية - بما كان يصطرع في الإسكندرية من آراء وأفكار ومذاهب فلسفية، طُبعت بالطابع الرومانى. ومن أعلامها: فيلون، وأفلوطين. ونشأت من ذلك مدرسة (الأدريّة)، التى تقوم على إنكار الدين الوثنى القديم، والإيمان بفكرة إلهيّة عليا، تتمثل فيها المثل الرفيعة دون تقيد بدين معين (فهذه الحركة نوع من الفلسفة الدينية التى استمدت من الأديان جوهرها في الإيمان بفكرة الهيئة، وأخذت من الفلسفة الجانب الفلسفى في الوصول إلى المعرفة الإلهية الناتجة عن التأمل في ذات الإله كما يتصورونها). وكانت هذه المدرسة أقدم ظهوراً من المسيحية، وكانت ممهدة لها، ونشأت لتضارب الديانات الوثنية القديمة. =

نشب من خلاف بين كنيسة الإسكندرية ويمثّلها (آريوس)، وكنيسة القسطنطينية ويمثلها (أثناسيوس)؛ مما دفع الملك قسطنطين إلى دعوة البطاركة والأساقفة في جميع البلدان، فاجتمعوا في نيقية سنة ٣٢٥م، وهم مختلفو الآراء والمذاهب. وقد سمع الملك مقالة كل طائفة ممن يمثّلونها، وقرر تفضيل رأى كنيسة القسطنطينية المخالف لرأى الإسكندرية، ووافقه على ذلك ٣١٨ أُسْقُفَاً، وقرروا ألوهية المسيح، وأنه من جوهر الله، ذاته قديمة بقدمه، وأنه لا يعتريه تغير ولا تحول. وقرروا لعن آريوس وتحريمه، ومنعه من دخول الكنيسة بالإسكندرية[١].

و- وتجدد الصراع والخلاف والاضطهاد؛ مما دفع الملك تيودوسيوس (٣٧٩-٣٩٥م)، الذى أعلن المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية، أن يعقد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م؛ ليرد به على (مقدونيوس) بطريرك الكنيسة المصرية بالإسكندرية، والذى سَرَتْ مقولته بين الناس، إذ كان يرى أن الروح القدس (عيسى) ليس بإله، وأنه مخلوق مصنوع. فكان هذا المجمع؛ للتأكيد على ما قيل في نيقية من قبل[٢].

ز- ثم وقع خلاف عَقَدى آخر؛ نتيجة مقالة نسطور بطريرك القسطنطينية، الذى أعلن أنه لا يؤمن بأن القديسة العذراء ولدت الإله عيسى، بل سماها والدة المسيح، جاعلاً للمسيح طبيعتين؛ مما أدى إلى عقد مجمع آخر في أفسس في عهد تيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠م) سنة ٤٣١م، رُفض فيه كلام نسطور، وتم قطعه[٣]. (لعنه، وطرده من منصبه).

ح- ووصل الخلاف المذهبى إلى قمته في مجمع خلقيدونية[٤] سنة ٤٥١م في عهد الملك مرقيانوس (٤٥٠-٤٥٧م)، إذ حرم أساقفة المجمع ديوسقورس بابا كنيسة الإسكندرية؛ لدفاعه عن مذهب الطبيعة الواحدة، وتم نفيه عن مصر، ومات بمنفاه سنة ٤٥٥م.

= وقد صارعت المسيحية عند ظهورها، فأزاحتها المسيحية من طريقها باعتبارها ديناً سماوياً، إلا أنها تركت في المسيحية أثرين مهمين:

١- قوة الروحانية وغلبتها على الديانة المسيحية، وظهر ذلك في صورة اللجوء إلى الأديرة، وحركة الرهبنة التى عُرفت بها المسيحية بعد ذلك.

٢- شجعت هذه المدرسة زعماء رجال الدين المسيحيين في ق٢ - ق٤م على إعادة التفكير في أسس العقيدة المسيحية لتحديدها؛ لأن المسيحيين الأوائل انشغلوا بحماسهم الدينى في انتظار عودة المسيح، دون التفكير في جوهر عقيدتهم. (مقال: حول نشأة المسيحية في مصر: للدكتور العبادى ص٣٩-٤٠).

(١) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، لسعيد بن بطريق: ١/ ١٢٣ وما بعدها.

(٢) السابق: ١/ ١٤٤-١٤٥.

(٣) تاريخ يوحنا النقيوسى ص١٢٦، وتاريخ ابن بطريق ١/ ١٥٥-١٥٦.

(٤) مدينة صغيرة تقع تجاه القسطنطينية على الشاطئ الشرقى (المسيحية والحضارة العربية للدكتور قنواتى) ص٣٢.

وعيّنت الكنيسة البيزنطية في القسطنطينية بطريركاً ملكانياً على الإسكندرية، بينما اختار المصريون يعقوبياً على مذهبهم، فطورد وعُزل(١). ومن يوم هذا المجمع قطع أقباط مصر علاقاتهم بالكنيسة البيزنطية(٢).

وبعد كل هاتيك المجامع، يمكن أن نحصر الخلاف المذهبى في الإمبراطورية البيزنطية في هذين الاتجاهين:(٣)

الأول - يمثله الملكانيون (حزب الدولة البيزنطية):

وشعارهم ازدواج طبيعة المسيح. فهو - عندهم - ذو طبيعتين منفصلتين لا طبيعة واحدة. فالألوهية طبيعة وحدها، والناسوت طبيعة وحده. ويلعن أصحاب هذا المذهب ويضطهدون كل مَنْ يخالفهم في هذا الرأى من أمثال: نسطور، وديوسقورس بطريرك الإسكندرية الذى نُفى إلى فلسطين.

الثانى - يمثله اليعاقبة (معظم أهل مصر من القبط)(٤) :

ويقولون: إن المسيح ذو طبيعة واحدة هى الإلهية، وتكونت فيها طبيعته البشرية، بالضبط مثل: قطرة الخل تقع في بحر عميق لا قرار له.

ونخلص من هذه الأحداث والصراعات السابقة إلى مجموعة الحقائق المهمة الآتية:

١- أن الدين ورجاله كانوا يسيطرون في هذه العصور على شئون الحكم، وأن الإمبراطور كان يسير وراء رجال الدين المقربين إليه، ويعتقد أن وحدة الدولة الدينية

---

(١) تاريخ ابن بطريق ١/ ١٧٩ وما بعدها، والمسيحية والحضارة العربية، لقنواتى ص٣٥.

(٢) من المعلوم أن المسيحية انتشرت في الشرق أوّلاً، وكان معظم شهدائها في الدفاع عنها ضد الوثنية من مكافحى الشرق. فلما اتسع نطاقها ونفوذها، وأضحت الدين الرسمى للإمبراطورية؛ سقطت الوثنية وتركزت الديانة المسيحية في خمس بطريركيات: القسطنطينية، والإسكندرية، والقدس، وأنطاكية (وكلها بالشرق)، والخامسة في روما بالغرب. وظهرت بعد ذلك قيادات كنسية أخرى. ومن الواضح أن مدرسة الإسكندرية لها دورها الذى تحدّت فيه القسطنطينية؛ إذ قادت حملة الخلاف معها والصراع ضدها، خاصة بعد مجمع خلقيدونية، واختطت لنفسها طريقاً آخر، بل عُرفت كنيسة الإسكندرية بالأرثوذكسية، وتحمل أقباط مصر عبء الحفاظ على مبادئهم وعقائدهم، فى مقابل مذهب الدولة الملكانى الرسمى المغاير لهم.

(٣) فتح العرب لمصر، لبتلر: ١/ ٢٧-٢٨، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لأبى الحسن الندوى ٢٨-٢٩، وتاريخ الإمبراطورية الرومانية، للدكتور الناصرى ص٦٦.

(٤) من المعروف أن شعب مصر أخلاط من الأمم إلا أن جمهرتهم كانت من القبط، وأن ناسها اختلطوا؛ لكثرة من تداول ملك مصر من الأمم، مثل: العماليق، واليونان، والرومان. فخفيت أنسابهم، فانتسبوا إلى موضعهم. وكانوا في الماضى صابئة، ثم تنصروا، ثم دخل معظمهم الإسلام بعد الفتح. وكان للمصريين الأقدمين عناية بالعلوم كالرياضيات، والكِمياء، وغيرها (أبجد العلوم، للقنوجى ١/ ١٧٣-١٧٤).

والمذهبية تحت قيادته تساعد على استقرار الأوضاع بها. ولذلك عُقدت المجامع السابقة التى رأيناها، لكنها أسفرت عن مزيد من الخلاف والعداء، والصراع والانقسام.

٢- أن الأحوال السياسية تأثرت تأثراً كبيراً بالخلاف الدينى، وبرز ذلك واضحاً في صراع المصريين والرومان؛ بسبب الاختلاف في المذهب العقدى أشد من خلافهم بسبب الجنس. وقد كان القبط يستبشعون القول بازدواج طبيعة المسيح، ويحاربونه حرباً هوجاء. ويقول بتلر واصفاً إياها: كانت حرباً شعواء يصعب تصورها، أو إدراك كُنْهها في قوم يعقلون بَلْهَ يؤمنون بالإنجيل[(١)].

٣- أن الصراع لمّا احتدم، اعتبرت الإمبراطورية المذهب المعادى لها - والسائد في كثير من الولايات - خروجاً على القانون يُحارب، وتدينه المجامع وتعاقب القائلين به. وقد أدى ذلك إلى تذمر أتباع هذا المذهب خاصة في مصر والشام، وحدثت مواجهات عنيفة بينهم وبين السلطات الحاكمة؛ مما كان أحد الأسباب الرئيسية المساعدة على انتصارات العرب العسكرية المدهشة فيما بعد[(٢)]. وقد حاول هرقل (٦١٠-٦٤١م) أن يوحد الطوائف المسيحية المتناحرة، وأن يوفّق بين اليعاقبة (أهل مصر الخوارج)، والملكانيين (مذهب الجماعة)، فأمر بامتناع الناس عن الخوض في الكلام على كُنه المسيح، وعمّا إذا كانت له صفة واحدة أو صفتان، على أن يشهدوا أن له إرادة واحدة، أو قضاء واحداً[(٣)]. وبالطبع لم يعجب هذا القهر وذاك التميع غير المفهوم قبط مصر، فرفضوا ذلك، فأرسل إليهم هرقلُ قيرس (المقوقس)؛ ليحكم مصر بصفة دنيوية دينية من الإسكندرية، فسام الناس سوء العذاب من (٦٣١-٦٤١م) في عشر سنوات، سمّاها بتلر (سنوات الاضطهاد الأعظم)[(٤)]؛ مما هيّأ الجو لقبول الإسلام ومقدم المسلمين.

٢- أثر الأحوال السياسية والدينية في الوضع الثقافي في مصر في هذه العصور:

أ- كانت الإسكندرية - قديماً - مدينة مُتْحَفِيّة، فيها يعيش الفلاسفة حياة النقد والثقافة العريضة، ثم تحولت إلى مركز مزج بين الدين والفلسفة، فغدتْ مجتمعاً شاملاً جامعاً للمذاهب الفلسفية والطوائف الدينية. وفيها التقت آراء الشرق والغرب، فأنجبت بها عقائد ونظماً دينية من علم اليونان، وخيالات وأساطير الشرق[(٥)].

(١) فتح العرب لمصر: ١/ ٢٨.
(٢) الإمبراطورية البيزنطية، لنورمان بينز (ترجمة: حسين مؤنس، ومحمود يوسف زايد): صـ٣٥٧، ٣٧٦.
(٣) فتح العرب لمصر، لبتلر: ١/ ١٢٠-١٢٢.
(٤) عرض تفاصيل هذه السنوات العشر، وهرب بطريرك القبط بنيامين خلالها، وما حَلّ بالقبط فيها من تنكيل، بتلر في كتابه، (فتح العرب لمصر): (الفصل الثالث عشر): ١/ ١٤٩-١٧١.
(٥) فجر الإسلام، لأحمد أمين: صـ١٢٦.

ب- ذبلت مدرسة الإسكندرية واضمحلتْ في العصر الرومانى في مصر (٣٠-٦٤٢م)، واضطهد أهلها وحرقت كتبهم[١]، وذلك بعد الاصطدام العنيف بين الرومانية الوثنية والمسيحية، ثم خلال الصراعات المذهبية. وغدت اللغة اليونانية - لغة الحكم منذ أيام البطالمة - لغة العلم في مصر، وتأثرت القبطية - وهى لغة الشعب - باليونانية في حروف وألفاظ كثيرة، وسارتا في طريق متوازٍ. وكانت الدروس الدينية تُلْقَى باليونانية، وكانت هى اللغة الرسمية للبلاد، وبها يصدر الوالى الرومانى نشراته للمصريين، يبين فيها كيفية حكمة للبلاد، وكان الولاة يُعَظِّمون بوضع لقب يونانى يضاف إلى أسمائهم. لكن أهل الصعيد - خاصة - أحجموا عن هذه اللغة، فلم تنتشر بينهم انتشارها في الوجه البحرى، أو المدن الكبرى[٢].

جـ- ظهرت في مصر حركة واسعة في الأدب والعلم والفن في مدينة الإسكندرية. وعاشت هذه الحركة طوال العصر البطلمى (٣٠٦ ق.م- ٣٠ م)، وكانت مصر أثناءه في مقدمة بلدان العالم في الأدب[٣].

د- وبالرغم من دخول المسيحية وانتشارها في مصر، فإن رجال الدين المسيحى كانت لهم نظرة ضيقة الأفق إلى العلوم. فيذكر أحد الباحثين[٤] : أنهم كانوا ينظرون إلى العلم نظرة اتهام وريبة، فقد حدث في القرن الرابع الميلادى أن اتُّهم طبيب بالكفر، عندما ساد الطاعون القسطنطينية، وأعلن الطبيب أن انتشار الوباء يرجع إلى الظروف الصحية السيئة بين كثير من العمال، الذين يعملون تحت الأرض؛ مما عرضهم للهلاك. وقد أعلنت الكنيسة عندما مات هذا الطبيب بعد إصابته بالعدوى من مرضاه وهو يعالجهم، أن هلاكه كان عقوبة كفره وزندقته.

هـ- في القرنين السادس والسابع الميلاديين نَعِمَتْ مصر بوجود كثير من العلماء والأطباء بها، بالإضافة إلى مَنْ وفد منهم من الشام بعد غزو الفرس لها، بالإضافة إلى رقى شأن اللغة القبطية وتطورها، وسيادتها على حساب اليونانية. وقد أحياها علماء الدين في مصر، فكتبوا بها مواعظهم ودراساتهم، وصَلَّوْا بها في كنائسهم بدل اليونانية خاصة في القرن السادس الميلادى. وهكذا، جرى الدين في عروق المصريين، وتعلّقوا به، فقويت مدرستهم اللاهوتية على حساب المدرسة الفلسفية الوثنية اليونانية التى زال أمرها في ق ٥م[٥]. وهكذا - أيضاً - اعتبرت اللغة اليونانية من بقايا الوثنية الرومانية، فتُدووِلَتْ في الكنائس الملكانية فقط. أما اليعاقبة، فضعف شأن اللغة

(١) ضحى الإسلام، لأحمد أمين: ١/ ٢٦٣.
(٢) في الأدب المصرى الإسلامى، لمحمد كامل حسين صـ٢٦.
(٣) ضحى الإسلام، لأحمد أمين: ١/ ٢٦٠.
(٤) نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية صـ١٦-١٨.
(٥) في الأدب المصرى الإسلامى، لمحمد كامل حسين: صـ١٠.

اليونانية لديهم شيئاً ما[١].

و- بالإضافة إلى ما مضى من الإسهام اللغوى القبطى في المؤلفات، قام جماعة من الرهبان بترجمة ونسخ عدد كبير من الكتب والأسفار، منها: ترجمة العهد الجديد لثلاث لهجات قبطية، كما ترجموا جميع الطقوس الدينية، وكتبوا تراجم البطاركة والشهداء، وألّفوا كتباً في التاريخ العام[٢].

ز- ومن ناحية أخرى، يرى أحدهم[٣] أن ثقافة القبط القومية تجلّتْ في أدبهم، ويرى أن اللغة القبطية سادت منذ أواخر العصر البطلمى حتى الإسلامى، وأنها سادت الشعب والكنيسة، والدولة معاً[٤]، ويرى - كذلك - أن أثر هذا التطور

ظهر في الفنون، مثل: الزخارف، والرسوم، والرموز المسيحية في الأقمشة والأخشاب، وأن الفن القبطى أخذ يُعبّر عنه في مظاهره الدينية من خلال مظاهر البيئة، وطبيعة الحياة المصرية.

ح- وأخيراً، فإن الدكتور قنواتى يرى أن حركة التغريق لم تنجح إلا لدى قلة من

---

(١) المرجع السابق: صـ٢٧.

(٢) تاريخ الأمة القبطية، لبوتشر: ٢/ ١٧. ذكر ذلك محمد كامل حسين في كتاب: (فى الأدب المصرى الإسلامى) صـ١٠.

(٣) المسيحية والحضارة العربية، للدكتور قنواتى: صـ٣٥.

(٤) أعتقد أن ذلك من قبيل المبالغة، إذ كيف تسود القبطيةُ الدولةَ، وقد كانت الدواوين تتعامل باليونانية ؟! ويرى محمد كامل حسين في كتابه: (فى الأدب المصرى الإسلامى): (صـ٢٩-٣٠): أن المصادر التى ذكرت أن العرب نقلوا الدواوين في مصر من القبطية إلى العربية واهمة؛ لأن الوثائق الموجودة عن تلك الفترة كتب بالعربية واليونانية. فاليونانية - إذن - هى لغة الدواوين في مصر والشام. ويعلل الباحث وهم هذه المصادر بأن بعض موظفى الدواوين كان من الأقباط، فظن المؤرخون أن القبطية كانت اللغة الرسمية للبلاد. وتذكر الدكتورة سيدة كاشف في حديثها عن التعريب في كتاب: (عبد العزيز بن مروان) صـ١٤٣: أنه لا يعقل أن يسود العرب أمور مصر سياسياً وحربياً، ثم يكونون - في وادٍ آخر - بعيدين عن أهل البلاد. وفى صـ١٤٤ تقول: إن عبد الملك بن مروان بدأ يصبغ الدولة بالصبغة العربية بالاعتماد على موظفين عرب، أو على بعض أهل البلاد المتقنين للعربية. وتقول في صـ١٤٥: إن تعريب الدواوين في مصر بدأ سنة ٨٧هـ على يد عبد الله ابن عبد الملك والى مصر في عهد الوليد، وإن الوثائق تدل على أن الحكومة ظلت تستخدم العربية واليونانية مدة طويلة، على حين كانت السلطات المحلية في الريف تكتب - كثيراً - بالقبطية. وهناك وثائق ذات لغتين: عربية، ويونانية تعود إلى ق ٢هـ، بل هناك إيصال بدفع الضرائب يرجع إلى سنة ٢٤٦هـ عليه كتابة قبطية. وأنا أعتقد أن في هذه الحقائق ردّاً على محمد كامل حسين في زعمه أن اليونانية كانت لغة الدواوين فقط. ولا يحق اتهام مصادرنا بالوهم، فلعل التعامل كان من سكان الوجه القبلى - وهم قليلو التأثر باليونانية، شديدو الاعتداد بلغتهم - كان بالقبطية. وعلى كل، فهذه الوثائق لا تجزم بشئ قطعى، وإنما تدل على أن سيادة العرب لا تعنى أن المجتمع كله صار عربياً، وإنما الطابع السائد والغالب عليه غدا عربياً.

المثقفين بالمدن خاصة الإسكندرية، وأن الإغريقية كانت لغة الدواوين الحكومية، لكن الشعب تكلم القبطية، وأن التأليف لم يقتصر على المواضيع الدينية، بل تناول مواضيع أدبية ولغوية[١].

(١) المسيحية والحضارة العربية، للدكتور قنواتي: صـ٣٦.

الفصل الثاني

يوحنا النقيوسى: حياته، وكتابه

بعد أن تعرضنا للظروف السياسية والدينية والثقافية العامة، التى طبعت الإمبراطورية الرومانية بعامة، وولاية مصر بخاصة في فترات ما قبل الفتح الإسلامى، وبيّنّا سمات ذلك العصر، الذى ينتمى إلى مؤخرته المؤرخ القبطى يوحنا النقيوسى، حان الوقت للتعريف بهذا المؤرخ، وبمراحل حياته التى مر بها، وسماته الشخصية، وذلك على النحو الآتى:

١- حول مولده ووفاته(*):

لا ندرى شيئاً عن ميلاد هذا المؤرخ، ولا عن طفولته ونشأته الأولى، ولا عن علومه التى تلقّاها، ولا سنة وفاته تحديداً. ومن هنا - ومن خلال المادة القليلة والمعلومات الضئيلة عنه - أحاول أن أقترب من بعض الحقائق المتصلة به. والذى يترجح لدينا أنه ولد وعاش في مصر (فهو مهتم بتاريخها إلى أقصى الحدود)، وقضى فترة طويلة من عمره خلال النصف الثانى من ق ٧م/ ق ١هـ، ولعل حياته امتدت إلى مطالع ق ٨م/ ق ٢هـ. وإن أول أخباره التى نعرفها عنه تقع في الفترة الممتدة فيما بين سنة (٦٦١- ٦٧٧م= حوالى ٤١-٥٨هـ)، وآخر أخباره تنقطع عنا - فيما يبدو - سنة ٧٠١م (حوالى ٨٢هـ). ولمّا كان زوتنبرج[1] قد ذكر - ولا أدرى مصدره الذى رجع

(*) المعلومات المتوفرة عن حياة هذا المؤرخ القبطى قاصرة ونادرة. وقد اعتمدت في تعريفى به، وترجمتى له على عدد من المصادر والمراجع هى: سير الآباء البطاركة، لساويرس بن المقفع (تحقيق: أقتس): ٢/ ٢٠، ٢٢، ٣٣، ٣٤، ٣٦-٣٩ وغيرها، ومقدمة المستشرق الفرنسى زوتنبرج التى كتبها بالفرنسية، في بداية ترجمته لكتاب يوحنا من الحبشية إلى الفرنسية صـ٥ وما بعدها (ط.باريس ١٨٨٣م)، وما كتبه جراف بالألمانية عن يوحنا النقيوسى في كتاب: (الأدب العربى المسيحى): ١/ ٤٧٠ (ترجمة رقم ١٣٦) و(تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى صـ٢١-٢٨، وأخيراً: ترجمة مختصرة ليوحنا النقيوسى مكتوبة بالألمانية وردت في كتاب: (قاموس علم اللاهوت) ليوسف هيفر، وغيره: ٥/ ١٠٦٧.

(١) Zotenberg ; L'introduction de Chronique de Jean , eveque de Nikiou , p. 6.

إليه - أن يوحنا النقيوسى لمّا عُيّن مديراً للأديرة سنة ٦٩٤م (حوالى ٧٥هـ) كان يبلغ من العمر ٦٦عاماً؛ فإن ذلك يعنى: أنه ولد حوالى سنة ٦٢٨م (حوالى سنة ٧هـ) إن لم يكن قبلها. فيكون - بذلك - قد عاصر الفتح العربى الإسلامى لمصر والذى بدأ بغزو العريش في ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩م (حوالى أواخر ١٨هـ) على ما حَدّده بتلر[١].

٢- موطنه:

إن لقب يوحنا الذى عُرف به، وهو (النقيوسى) يفيد أنه ينتمى إلى بلدة (نَقْيوس)[٢]. ويذكر أحد الباحثين[٣] أن اسمها بالرومية: نِقْيُوس، واليونانية: نِقْيُو، وبالقبطية: بشاتى[٤]، وباللاتينية: نيقياتانيوس Niciatanus وبالعربية: نَقْيُوس. وفى نص المخطوط الحبشى لكتاب يوحنا ورد اسم هذه البلدة بأكثر من شكل: نَقْيوس، ونِقْيوس، وأبساى، وأبسادى (ولعلها صور محرفة من صنع الناسخ).

وفى محاولة لتحديد مكان هذه البلدة يقول الباحث محمد رمزى[٥]: إن (نقيوس) كانت عاصمة لقسم Prosopite وهو اسم رومى ورد باسم Prosopis، الذى عرف - بعد الفتح الإسلامى لمصر - بجزيرة بنى نصر. ولمّا خربت نقيوس، خلفتها مدينة تسمى (أبيار)، وكانت عاصمة لهذا القسم بدءاً من العصر الفاطمى، حتى أُلغى هذا التقسيم في عصر محمد على في بداية ق ١٩م. ويعد الجزء الشمالى من هذا القسم الإدارى، بما فيه (أبيار)، بالإضافة إلى موقع (نقيوس) المندثر تابعيْن لمركز كفر الزيات في محافظة الغربية[٦].

ويثير أحد الباحثين[٧] ملاحظة وهى: أن بالمنوفية الحالية ناحية باسم (إِبْشَادى) تابعة لمركز تلا[٨]، ويقول: وزُعم أن هذا الاسم ينطبق على الاسم القبطى لمدينة (نقيوس)، إلا أن كل الدارسين استبعدوا ذلك، وذهبوا إلى أن نقيوس - كما يذكر

---

(١) فتح العرب لمصر: ١/ ٤٠ (جداول الأحداث التاريخية).

(٢) ذكر بتلر فى: (المرجع السابق): ١/ ٣٧: أنه آثر استعمال لفظ (نِيكْيُو Nikiou) وهو لفظ يونانى قبطى، رغم أنه صورة تكاد تكون ميتة اليوم. وفضّله على (نقيوس)، وهى الصورة العربية لاسم تلك المدينة؛ لأن اللفظ اليونانى كان هو المستعمل عند الفتح. فكأن بتلر يستخدم الكلمات بالصورة، التى تتناسب مع الفترة التى يؤرخ لها.

(٣) تاريخ يوحنا النقيوسى، لعمر صابر عبد الجليل: صـ١.

(٤) ذكر يوحنا النقيوسى في تاريخه (المترجم إلى العربية) صـ٦٢: أن مدينة أبساى المعروفة هى نقيوس، ولعلها (بشاتى) هذه، لكنها حرفت في المخطوطة إلى (أبساى).

(٥) القاموس الجغرافى: القسم الأول صـ٤٦٣-٤٦٤.

(٦) المرجع السابق: القسم الأول صـ٢١٣.

(٧) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى، لعمر صابر: صـ٢٢.

(٨) القاموس الجغرافى، لمحمد رمزى: القسم الثانى، الجزء الثانى: صـ١٧١.

محمد رمزى[١] - خربت، وحَلّت محلها - اليوم - منطقة زاوية رَزين، أو زاوية البقلى بمركز منوف بالمنوفية. ولكن الدكتور عمر صابر[٢] يَرُدّ ذلك القول ويستبعده كذلك؛ لأن محمد رمزى نفسه عندما ترجم لزاوية رزين أشار إلى أن اسمها الأصلى كان (شبرالون)[٣]، وهو ما لا ينطبق على أيٍّ من أسمائها القبطية القديمة.

ويخلص الدكتور عمر صابر[٤] إلى القول بأن من المحتمل أن المكان الحقيقى لنقيوس كان في منطقة أبيار، أو مِنْية أبيار، بكفر الزيات بالغربية، وكلتاهما كانتا تابعتين لإقليم المنوفية في عهد الاحتلال الفرنسى لمصر (١٧٩٨-١٨٠١م)، ثم تبعتا مديرية الغربية منذ عصر محمد على[٥]. واستدل على قوة هذا الاحتمال بأن الباحث محمد رمزى قال في كلامه عن (أبشاده): اندثرت وكانت مساكنها واقعة بحوض أبشادى بأراضى ناحية منية أبيار وبناحية الحداد، وكلها في مركز كفر الزيات بمديرية الغربية، وتوزع زمام أبشاده على النواحى المذكورة. وهذه غير أبشاده التى بمركز (تلا) بمديرية المنوفية[٦].

وأود في نهاية هذا الأخذ والرد المطوّل حول موقع نقيوس، أن أضيف ما قاله بتلر عنها، فهو قول يمتاز بالتحديد الدقيق والوصف البليغ، الذى يبين أهمية هذه المدينة، فيقول ما يلى:

أ- هناك ترعة قديمة تسمى بـ (الفرعونية) تمر بمنوف، وعند التقائها بالفرع الغربى للنيل توجد جزيرة أو موقع اسمه (تبشير) أمامه جزيرة هى (نقيوس)[٧].

ب- نقيوس مدينة عظيمة ذات شان عظيم، وهى أحد معاقل الدين المسيحى في مصر، وكانت مقر أحد كبار رجال الدين من الأقباط (لعله يقصد يوحنا النقيوسى)، إذ كان الناس بها وبغيرها لا يزالون متمسكين بعقيدتهم رغم الاضطهاد، وإن خرج بعضهم عنها تقيّة. ومدينة نقيوس ذات شأن كبير، فهى حصن قوى على الشاطئ الشرقى لفرع النيل، الذى هو فرع رشيد، على مسيرة يوم من حصن بابليون، وعلى مسيرة ساعتين من منوف. وهى مدينة قديمة بها الآثار الجليلة من أيام الفراعنة، ولها مكانة حربية في حفظ الطريق بين حصن بابليون والإسكندرية[٨].

---

(١) المرجع السابق: القسم الأول صـ٤٦٣-٤٦٤.

(٢) تاريخ يوحنا، لعمر صابر: صـ٢٢-٢٣.

(٣) القاموس الجغرافى، لمحمد رمزى: القسم الثانى، الجزء الثانى صـ٢١٧ .

(٤) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى: صـ٢٣.

(٥) عمر طوسون: أطلس تاريخى لأسفل الأرض (الوجه البحرى) من ق ١هـ (ق ٧م) إلى سنة ١٣٥٣هـ: صـ٨، ١٠.

(٦) القاموس الجغرافى: القسم الأول صـ٣.

(٧) فتح العرب لمصر: هامش صـ١٦ بالجزء الأول صـ٢٣، وهامش ١ صـ٧٥: وهو ما رجحه بتلر.

(٨) فتح العرب لمصر: ١/٢٤٦، ٢٤٩.

٣- مناصبه:

١- لا شك أن المعارف الدينية والأدبية والتاريخية ليوحنا النقيوسى قد أهَّلَته لأن يختاره البطريرك[(١)] أغاثون (٦٦١-٦٧٧م = ٤١-٥٨هـ)، وهو البطريرك رقم ٣٩ من بطاركة الكرسى السكندرى، أُسْقُفّاً[(٢)] على مدينة نقيوس[(٣)].

٢- كانت ليوحنا النقيوسى مكانة طيبة بين رجال الكنيسة القبطية في مصر؛ إذ كان له دور بارز لعبه في عهد بابوات الإسكندرية: يوحنا الثالث (السمنودى) وهو البطريرك رقم ٤٠ في الكنيسة القبطية بالإسكندرية (٦٧٧-٦٨٦م = ٥٨-٦٧هـ)، وإسحاق (البطريرك رقم ٤١): (٦٨٦-٦٨٩م = ٦٧-٧٠هـ)، والبطريرك رقم ٤٢: سيمون الأول (٦٨٩-٧٠١م = ٧٠ - ٨٢هـ)[(٤)]، وذلك على النحو الآتى:

---

(١) البطريرك: هو أسقف المجموعات الكبيرة من الكنائس (وهى كنائس روما، وأنطاكية، والإسكندرية، وبيت المقدس). وجدير بالذكر أن الجاثَليق هو: لقب تلقب به كبير أساقفة الكنائس الخارجة عن نفوذ الإمبراطورية الرومانية. وكان هرقل يطلقه في رسائله على أسقف قرطاجنة (المسيحية والحضارة العربية، للدكتور قنواتى: صـ١٥-١٦). ولابن خلدون تعريف مشابه إذ يقول: البَطْرَك هو صاحب الدين والمقيم لمراسمه، وهو نائب المسيح، ويبعث من ينوب عنه إلى أمم النصرانية البعيدة (مقدمة ابن خلدون: ٢/ ٦٥٩).

(٢) الأسقف: هو نائب البطرك. ويجمع على (أساقفة). وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب الأعظم؛ تعظيماً له. ثم حدث اشتباه في الاسم، فميّزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم، فسموه (البابا) أى: أبو الآباء. وظهر هذا اللقب أول مرة في مصر، ثم نُقل إلى صاحب الكرسى الأعظم في روما؛ لأنه يقوم مقام بطرس الرسول هناك. ويضيف ابن خلدون قائلاً: إن القسيس خلاف الأسقف؛ فالقسيس هو الإمام الذى يصلى بهم، ويفتيهم في دينهم. (المقدمة لابن خلدون: ٢/ ٦٥٩-٦٦٠).

(٣) مقدمة تاريخ يوحنا النقيوسى (بالعربية) صـ٤٢، وبدأها بما يدل - صراحة - على أنه أسقف نقيوس، إذ يقول: الأب القديس يوحنا أسقف نقيوس جامع هذا الكتاب.

Zotenberg , L'introduction de chronique de Jean , eveque de Nikiou , P. 5.

(٤) ذكر الدكتور عمر صابر في (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى) صـ٢١: أن البطريرك أغاثون توفى ٦٦٧م. وفى صـ٢٤: توفى سيمون الأول سنة ٧٠٧م. ولا شك أن ذلك من قبيل الوهم المطبعى. وعلى كل حال، فيبدو أن تواريخ ولاية ووفيات هؤلاء البطاركة غير متفق عليها. وقد أثبتُّ في المتن تواريخ ولايتهم ووفياتهم من أقدم المصادر عناية بذلك، ممثَّلة في كتاب: (سير الآباء البطاركة) لساويرس بن المقفع في الجزء الثانى، في بداية حديثه عن هؤلاء البطاركة .وبالعودة إلى (فتح العرب لمصر) لبتلر: ١/ ٤١ (جداول الأحداث التاريخية) - وهو كتاب معروف بدقته، وتحقيق مؤلفه في التواريخ - ألفيناه يأتى بالشهر والسنة - وأحياناً باليوم الذى ولى، أو مات فيه البطاركة المذكورون وغيرهم. والحق أننا لا نعرف كيف أمكنه تحديد ذلك، وما مصدره، خاصة أنه يختلف عما أورده ساويرس في كتابه، مما يجعلنا في حيرة من أمرنا بإزاء الترجيح بينهما. وعلى كل، فهاك تواريخ بتلر كما أوردها: (البطرك أجاثو (أغاثون): ولى يناير ٦٦٢م، وتوفى ٣ أكتوبر ٦٨٠م - البطرك حنا السمنودى: ولى في أكتوبر ٦٨٠، وتوفى ٢٧ نوفمبر ٦٨٩م - البطرك إسحاق: ولى ٤ ديسمبر ٦٩٠، وتوفى ٥ نوفمبر ٦٩٣م - والبطرك سيمون: ولى في يناير ٦٩٤، وتوفى ١٨ يوليه ٧٠١م).

أ- ورد ذكر يوحنا النقيوسى للمرة الأولى أثناء تناول ساويرس بن المقفع[(١)] لسيرة البطريرك يوحنا السمنودى (رقم ٤٠)، إذ كان يوحنا النقيوسى ضمن أساقفة قليلين ذهبوا لزيارة البطريرك المريض. وهذا يدل على عظم مكانة يوحنا النقيوسى لا باعتباره أسقف نقيوس فحسب، وإنما باعتباره رئيساً لأساقفة مصر العليا (الصعيد)، ذلك المنصب الرفيع الذى اختاره له ذلك البطريرك المريض[(٢)]؛ مما يدل على رفعة مكانته بين رجال الكنيسة القبطية، وحسن صلته ودنوه من الرجل الكنسى اليعقوبى الأول في مصر آنذاك.

ب- ويذكر كل من ساويرس[(٣)]، وجراف[(٤)] : أن الأساقفة اجتمعوا بعد وفاة البطريرك يوحنا الثالث، وكان على رأس المتشاورين يوحنا النقيوسى، وذلك من أجل انتخاب بطريرك جديد؛ مما يدل على أنه من أهل الرأى والشورى في ذلك الأمر الجليل.

جـ- وبالفعل كان ليوحنا النقيوسى دوره الحاسم في الانتخاب الفعلى للبطريرك إسحاق (رقم ٤١)، إذ رفض والى مصر المسلم عبد العزيز بن مروان الموافقة على انتخاب جِرْجه أسقف سَخا بطريركاً، واشتد الخلاف حول هذا الأمر، فجاء يوحنا النقيوسى من الإسكندرية، حيث كانت تُجرى المشاورات، إلى الفسطاط ممثلاً لأساقفة مصر العليا، مصطحباً معه (غريغريوس) أسقف القيس الذى مثّل مصر السفلى، بموافقة إسحاق لعرض أمر اختياره بطريركاً، على عبد العزيز بن مروان، الذى اقتنع بهذا العرض، ووافقه على ذلك الترشيح[(٥)].

د- وعرف فيه البطريرك سيمون الأول (رقم ٤٢) الفضل وحسن التدبير (حتى لُقّب بالبارّ المدبِّر)، ولمس في يوحنا - كذلك - الخبرة الطويلة بالرهبان[(٦)]، وتقلبهم وقوانينهم، فقام بتكليفه تدبير أديرة وادى هُبَيْب (وادى النطرون)، وإدارة شئونها، وذلك سنة ٦٩٤م، ولعله - يومها - كان طاعناً في السن (حوالى السادسة والستين من عمره)، ولكنه - فيما يبدو - تعدّى حدود سلطته المخوّلة له، وذلك عندما عاقب راهباً، أخطأ في حق راهبة عذرية في وادى هبيب، واعتدى عليها بعد إخراجها من دَيْرها، فضربه يوحنا ضرباً موجعاً وأدّبه، فمات الراهب - بعد أيام - متأثراً بعقوبته.

(١) سير الآباء البطاركة لساويرس بن المقفع (تحقيق: أقتس): ٢/ ٢٠، وسمّاه (أبا حَنّا)، وسماه في مواضع تالية (يوحنا).

(٢) Zotenberg , L'introduction de chronique de Jean , eveque de Nikiou , p , 5.

(٣) سير الآباء البطاركة، لساويرس بن المقفع (تحقيق: أقتس): ٢/ ٢٢.

(٤) Graf : Geschichte Der christlichen Arabischen literatur , Text I , die seite 470 , die Zohe I36.

(٥) Zotenberg , p. 5.

(٦) جمع راهب، وهو الذى انقطع واختلى للعبادة (وأغلب الخلوة في الأديرة والصوامع). (مقدمة ابن خلدون: ٢/ ٦٦٠).

استعظم ذلك الرهبان، وقلقوا له. فلمّا شاع الخبر، اجتمع الأساقفة في مصر سرّاً، وسألوا يوحنا عما حدث، فأقَرّ بضرب الراهب، فعزلوه لتخطيه حد الواجب في أدب الراهب، وقالوا ليوحنا: لستَ في حِلّ من الدُّنُوّ إلى شئ من آلة الهيكل من الآن، بل تأخذ السراير كراهب. وهذا يعني: أنهم عزلوه من منصبه السامي ومكانته العالية، وأعادوه مجرد راهب في الدير؛ عقاباً له كِفاء ما ارتكب في حق الراهب الآثم. ورفض يوحنا ذلك الظلم والعزل الذى وقع عليه، بينما كان يعتقد أنه كان يقوم بواجبه في تأديب الراهب المعتدى، وأعلن رفضه ذلك مخاطباً الشعب (أي: عامة الأساقفة)، وقال: كما قطعتمونى ظلماً، فإن الرب الإله الذى أعرف اسمه، يجعلكم جميعاً أساقفة غرباء عن كراسيكم إلى تمام الزمان، الذى حكمتم علىّ فيه. وهو يقصد أن يجازيهم الرب سوءاً؛ نتيجة حكمهم الظالم عليه، وأن يتعرضوا للعزل من مناصبهم الكنسية كما عزلوه ظلماً وعدواناً. وعلى كل، فإنهم لم يهتزوا أمام دعوته تلك، وأنفذوا قرار عزله، وأقاموا بدلاً منه (مينا) من دير (أبى مقار)(١).

ويذكر أحد الباحثين(٢) - نقلاً عن كامل صالح نخلة -(٣) أن انعقاد مجمع الأساقفة، الذى عُزل بموجبه يوحنا سنة ٦٩٨م، يعد أول المجامع التى عقدت لمحاكمة أسقف، ولم يكن للبطريرك دخل فيه. والحق أن هذا شئ عجيب وغريب، وهو صمت المصادر والمراجع عن موقف البطريرك من هذه المحاكمة، التى تمت لشخصية دينية كبيرة كيوحنا النقيوسى؛ إذ لا يُعقل أن يتم ذلك في غيبة منه، ودون إقرار رجل الدين الأول في مصر!.

وعلى كل حال، فيبدو أن مدة عزل يوحنا النقيوسى استمرت ثلاث سنوات؛ بدليل ما ذكره ساويرس عندما أوحى في نصّ تالٍ بأن الله استجاب لدعاء يوحنا على الأساقفة الذين عزلوه، فذاقوا من الكأس نفسه، إذ شكاهم بعض الأقباط لعبد العزيز بن مروان(٤)، فأصدر أوامره باستدعاء ٦٤ أُسقفاً إلى الفسطاط، ويبدو أنه عزلهم مدة ثلاث سنوات، ثم أعادهم إلى مناصبهم بعد ذلك(٥). كما تعرض البطريرك سيمون للخطر، عندما وشى به بعض الناس لدى عبد العزيز بن مروان، بخصوص أسقف هندى وفد إليه، وفُهمت وفادته خطأ، وظُنّ به شرّاً، لكن البطريرك أثبت لعبد العزيز براءة ساحته مما رُمى به من تآمر(٦).

(١) سير الآباء البطاركة، لساويرس بن المقفع ٢/ ٣٣-٣٤ ، Zotenberg , p.5.
(٢) الدكتور عمر صابر في (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى): صـ٢٦.
(٣) في مجلة (صهيون): صـ١٢.
(٤) سير الآباء البطاركة، لساويرس بن المقفع (تحقيق: أقتس): ٢/ ٣٤.
(٥) المصدر السابق: ٢/ ٤٢.
(٦) وصل إلى مسامع عبد العزيز بن مروان تردُّد قس هندى على البطريرك سيمون، فظن أنهما يضمران =

ولم يرد ذكر يوحنا النقيوسى بعد ذلك، فلعله اعتزل الحياة العامة بعد تجربته الأليمة السابقة. والراجح أنه لم يُعَمَّر بعدها طويلاً.

٤- صفاته:

وقد حاولت التعرف على سمات هذه الشخصية الدينية التاريخية، وذلك من خلال أحداث حياته من جهة، ومن بين سطور تاريخ يوحنا نفسه. وقد خرجت بعدد من الملامح العامة لشخصية يوحنا على النحو التالى:

أ- تواضعه، وذكاؤه:

ويظهر تواضعه من خلال المقدمة، التى كتبها لتاريخه (المترجم إلى العربية)، إذ إنه بعد أن أوضح أن كتابة التاريخ متعبة مضنية، وتحتاج إلى فحص وتمحيص، واختيار للمادة المعروضة، ذكر أنه يُقِرّ - بعد ذلك كله - بعجزه وقصوره في النهاية(١). أما ذكاؤه وفطنته وكياسته، فنلمحها من خلال خاتمة تاريخه، وفيها: حمد الرب على النجاة من أعداء المسيحيين من الوثنيين، وكذا حمده على أن نجّاهم من المخالفين في المذهب (الرومان الملكانيين) .ثم يذكر- بعد ذلك - وبذكاء ودهاء ومداراة - حال القبط اليعاقبة، وهو واحد من كبار رجال مذهبهم، تحت الحكم العربى الإسلامى، وهو بطبيعة الحال لا يريد ذلك الحكم ويتمنى زواله(٢)، لكنه يكتفى بالتلميح بدل التصريح، فيقول: نرجو أن يعيننا الرب على حمل المتاعب (أى: متاعب الخضوع للمخالفين في العقيدة من المسلمين)، راجين ملكوته وميراثه(٣). (لعله يتمنى أن: يحكموا مصر بدل هؤلاء المسلمين، ويَحْظَوْا بالنعيم في الآخرة).

ب- ثقافته:

من الواضح أن يوحنا النقيوسى يتمتع بمعارف دينية، وأدبية، وتاريخية، ولغوية واسعة. وذلك بَيِّنٌ من خلال اعتماده على الكتاب المقدس في أحداث بدء الخلق، ومن خلال معلوماته الثَّرِّية عن الأوليَّات (أول من استخدم المحراث، أو صنع السلاح،

= الشر للمسلمين، ثم تبين الحق وهو أن الرجل الهندى يريد قَسّاً مسيحياً إلى بلاده، فبرئت ساحة البطريرك من التهمة. (سير الآباء البطاركة (تحقيق: أفتس): ٢/ ٣٦-٣٩، ٤١-٤٢. وأعتقد أنه رجل دين مسيحى من الحبشة لا الهند، فالحبشة قريبة من مصر وهى مسيحية منذ قديم، ولم يكن للمسلمين سيطرة عليها. ومن هنا كان كل خوف عبد العزيز من احتمال وجود تآمر مسيحى (مصرى حبشى) ضد المسلمين. ومما يقوى هذا الرأى أن القدماء كانوا يخلطون بين الهند والحبشة (كما سنرى في تاريخ يوحنا بعد ذلك)، فلعل ساويرس وقع في الخطأ نفسه.

(١) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى (بالعربية): صـ٤٢.

(٢) ولا يعنى ذلك - في الحقيقة - ظلم المسلمين ولا سوء حكمهم، لكن نظرة يوحنا تنبع من تعصبه الدينى الشديد، باعتباره من رءوس القبط الأرثوذكس في مصر.

(٣) تاريخ يوحنا (بالعربية): صـ٢٢٢.

وغير ذلك) مما يزخر به التاريخ المصرى القديم، إلى جانب إدراكه الواسع لتعاقب الحكام المختلفين على حكم مصر عبر العصور المختلفة. كما أبرز معرفة واسعة عريضة بالتاريخ السياسى والدينى والحضارى للإمبراطورية الرومانية، وتطورات الصراع الدينى، ثم المذهبى عبر العصور.

أما معارفه اللغوية، فلها مظاهر عديدة، منها: إجادته للغة اليونانية إلى جانب القبطية، كما سنرى بعد ذلك. كما حفل تاريخه بتحليلات لغوية رائعة تدل على إتقانه اللغة العبرية؛ مما يدل على إلمامه بالثقافة اليهودية، ومصادرها التاريخية، مثل: تاريخ اليهود ليوسف الحكيم[١]. ومن تحليلاته اللغوية:

١- وصفه أحد الملوك بأنه مَلَكى صادق. أى: مَلِك البِرّ[٢].

٢- وقوله: مدينة صيون، وهى (ساليم)، وتفسير اسمها بلغة العبرانيين: مدينة السلام[٣].

٣- تحليله أصل كلمة (عبرانيين)، التى سُمّى بها اليهود، فذكر أنها نسبة إلى (عبور)، الذى جاء من نسله إبراهيم. وهو لم ينضم إلى الأشرار الذين انحرفوا عن الرب، ونجا من اضطراب لسانه عندما اضطربت ألسنتهم. وجاء قوم - من بعده - حافظوا على كلام الملائكة الذى تحدث به آدم، فسُمُّوا بالعبرانيين، وكلامهم بالعبرى[٤].

جـ- شخصية يوحنا بين الروحانية المسرفة والتعصب البغيض:

فهناك صفات امتاز بها يوحنا، تنبع من مفاهيمه الدينية ورؤيته النابعة من طبيعة حياته ونشأته وفكره العقدىّ، منها:

١- قوته وشدته في تطبيق القوانين الكنسية على الرهبان، وعدم تهاونه في ذلك ولو أفضى إلى الموت، كما رأينا في عقابه لأحد الرهبان المخطئين في حق إحدى الراهبات. ولذا اعتبر عزله من قبيل الظلم، وقام بالاعتراض عليه، والدعاء على ظالميه، فاستجاب الله له.

٢- تساميه فوق العلاقة الزوجية، ونأيه بنفسه عن الزواج، باعتباره أحد أساقفة المسيحية. وكان يعتبر ذلك طهراً وعذرية وعفافاً. ومن هنا كانت شدته وعنفه مع الراهب الزانى، وكان إعجابه وحماسه ونظرته الجليلة إلى مَنْ يسلكون هذا السبيل، سبيل الترفع عن الاتصال الجنسى، فقال عن أحد الكهنة، الذين حكموا مصر قديماً،

(١) تاريخ يوحنا بالعربية: صـ٥٧.
(٢) المصدر السابق: صـ٥٦.
(٣) المصدر السابق: صـ٥٧.
(٤) المصدر السابق: صـ٥٨.

ويدعى سيدوس: مات في عذريته وعفّته[١]. أي: لم يتزوج، ولم يَزْن. وكذلك قوله عن الملك العادل تيودوسيوس (٣٧٨-٣٩٥م) وعن زوجته الملكة، لمّا تنبأ القديسون له بأنه لن ينجب ولداً يخلفه، وأن ذلك في مصلحته؛ لأن عصره سيتلوه أحداث شريرة، ولو كان له ولد، فسيقع في الشر والخسران، قال يوحنا عنهما: " وتجنّبا جميعاً الاتصال في النوم، وعاشا في وفاق وطهارة لائقة "[٢].

٣- تعصبه الدينى البغيض:

يصب يوحنا جام غضبه على الوثنيين الرومان، الذين عادَوُا المسيحية واضطهدوها، وأفرط في ذكر فظائعهم بصورة تكاد تنفطر لها القلوب خاصة في عهد دقلديانوس[٣]. وإذا كان ذلك مقبولاً ومستساغاً فيما يتصل بالوثنيين، فإنه قد لا يكون مستساغاً، عندما ينظر إلى المسيحيين المخالفين له في المذهب نظرة عداء سافر، فأمطرهم بوابل من السباب، والاتهام بالكفر والزندقة، والمروق من المسيحية، واعتبر أن الأرثوذكسية، التى يتبعها هى الحق وحدها، وامتدح أتباعها، وأن ما عداها من الكنائس والمذاهب على باطل[٤]. ولعل ذلك الموقف كان لتعرضه هو وأتباع مذهبه للاضطهاد من قبل الملكانيين الحاكمين، إلا أن ذلك الشعور يَشى بفرط تعصبه لمذهبه الدينى.

د- طبيعة نظرته إلى الحياة الدنيا، ونظرته إلى سنن الله الكونية في بقاء الشعوب وعلاقتها بالحكام:

فهو يرى أن معاداة الملوك الصالحين من عباد الله تُودى بالملوك، كما حدث للملك يوستنيانوس[٥] (المعروف بجستنيان ٥٢٧-٥٦٥م). ويرى أن الدنيا ليست مستقرّاً للصالحين، فهى تعب ونَصَب كلها، وأن الموت (الانتقال إلى عالم المجد العلوى) هو الراحة الحقة. لذا قال عن الإمبراطور طيباريوس الثانى (٥٧٨-٥٨٢م): استراح بسلام في العام الثالث من حكمه. (أي: مات).

وأخيراً، فقد كانت ليوحنا نظرة فلسفية ملخصها: أن عصيان الشعوب يفقدها حكامها التقاة. ولذا قال عن الملك طيباريوس السابق: كانت أيامه محدودة، ولم يكونوا (الشعب) جديرين بملك مُحِبّ للإله مثله[٦].

(١) تاريخ يوحنا (بالعربية): ص٥٧.
(٢) المصدر السابق: ١٣٠-١٣١.
(٣) المصدر السابق: ص٩١، وما بعدها.
(٤) المصدر السابق: ص٩٨، ١٠٣، ١١١، ١١٣، وغيرها.
(٥) تاريخ يوحنا (بالعربية): ص١٥٥.
(٦) المصدر السابق: ص١٥٥.

وهكذا، كان يوحنا النقيوسى انعكاساً لعصره، ومرآة لما حفل به ذلك العصر من أحداث جسام على رأسها: الصراع المذهبى البغيض.

التعريف بكتاب يوحنا النقيوسى:
توقيت ظهوره، ولغته، وأهميته، وجهود نشره:

١- بالنسبة لتوقيت تاليفه، واللغة التى وُضع بها:

أ- مضى زمن طويل لا يقل عن القرنين، حتى غَدت الأغلبية في البلاد المفتوحة من المسلمين. وحتى ذلك الحين ظلت الصلة بين شعوب البلاد المفتوحة وبين ثقافتها ولغتها موجودة، وإن ضعفت - تدريجيّاً - بانتشار الإسلام ولغته العربية. وفى مصر أخذت تتلاشى الثقافة القبطية: لغة، وكتابة في مصر قبيل الإسلام وبعده، بحيث نجد شُحّاً شبه كامل في الشخصيات والثقافة القبطية[(١)]، وحيث ظهر عدد محدود من رجالاتها .وقد يكون هناك غيرهم، لكن المصادر لم تحتفظ لنا بهم، بالإضافة إلى اهتمام المؤرخين المسلمين بما يخص تاريخهم ونتاج علمائهم، وإهمالهم الكامل لمؤرخى القبط.

ب- وكان الرهبان والزهاد في صوامعهم في كل مكان بالصحارى والجبال بعيدين عن العاصمة وما فيها من حياة العلم، يكتبون باللغة القبطية رسائل في خلافاتهم الدينية، وتراجم لحياة بطارقتهم، لكنهم لم يكتبوا حوادث التاريخ إلا قليلاً[(٢)].

جـ- ومن هؤلاء الذين اهتموا بتاريخ مصر المؤرخ القبطى يوحنا النقيوسى، الذى كتب (تاريخه) في ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر(٦٥-٨٦هـ)، وإن بعضه كُتب باليونانية، والبعض الآخر كان بالقبطية[(٣)]. ويذكر محمد كامل حسين أنه - للأسف - لم يبق من مؤلفات القبط في التاريخ العام إلا اليسير. ولعل أهمها (كتاب تاريخ يوحنا النقيوسى)، الذى كتبه أواخر ق ٧م/ ق ١هـ، وأنه لم يبق منه إلا الترجمة الحبشية لجزء منه[(٤)].

ويضيف بتلر أن يوحنا النقيوسى كتب كتابه هذا أواخر ق ٧م[(٥)]، وبالتحديد بعد

---

(١) يقول شاكر مصطفى: (فى التاريخ العربى والمؤرخون) ٢/ ٤١٢: إن هناك شُحّاً كاملاً في الشخصيات الثقافية القبطية، بحيث لم يظهر - بعد الفتح الإسلامى - من اسم لامع فيها. والحق أن هذه مبالغة. صحيح أن مؤرخى القبط كانوا قلة بعد الفتح، لكنهم لم يندثروا كلية؛ بدليل وجود يوحنا النقيوسى الذى نحن بصدد دراسته.

(٢) فتح العرب لمصر، لبتلر: ١/ ٨٥.

(٣) المسيحية والحضارة العربية، للدكتور قنواتي: صـ٣٥.

(٤) في الأدب المصرى الإسلامى: صـ١٠-١١.

(٥) فتح العرب لمصر: ١/ ٨٥ وذلك يتفق مع اهتمام بتلر بتحديد التواريخ المهمة للبطاركة، الذين =

الفتح بـ ٥٠ عاماً، وأنه كان لا يتورع عن وصف الإسلام بأشنع الأوصاف، ويتهم مَنْ دخلوا فيه بأشد التُّهَم(١).

حول لغة النص الأصلي:

أ- يقول جراف في كتابه:(٢) إن يوحنا النقيوسى كتب تاريخه في جزئه الأول المتصل بتاريخ مصر القديم، مع التركيز على تاريخ الإمبراطورية الرومانية، كتبه باليونانية. أما الجزء الأخير منه - الخاص بالفتح الإسلامى لمصر فكتبه بالقبطية. ويُفَسَّر ذلك بأن يوحنا - كصاحب منصب كَنَسِىّ كبير - لم يكن ليستطيع أن يكتب تاريخ الكون لإخوانه في الدين باللغة الرومانية المكروهة لديهم. وبعد أن يوافقه زوتنبرج على هذا الازدواج اللغوى في كتاب يوحنا، يذكر أن الاستعمال المتعاقب للغتين مختلفتين في النص الواحد تقليد، سبق أن اتُّبع في الكتاب المقدس، إذ يُشرح ويُفسر من واقع الروايات التاريخية المحلية المستخلصة - أساساً - من المصادر اليونانية(٣).

وعلى كل، فلعل يوحنا النقيوسى لمّا كان قد استخلص أحداث الإمبراطورية من مصادر يونانية، آثر كتابة أحداثها بلغتها نفسها (اليونانية)، بينما كتب تاريخ الفتح الإسلامى لمصر - وهو معاصر لأحداثه - بلغته القبطية المفضّلة، التى تهم عصره ومواطنيه. ومما يدعم هذا المفهوم المزدوج في لغة النص الأصلية ما يذكره بتلر(٤) من أن يوحنا أكثر من استعمال الأسماء المصرية القديمة (مثل: أون: عين شمس، وغيرها). وهذا يؤكد أنه كتب هذا الجزء من ديوانه الأصلى بالقبطية. (يقصد: جزء الفتح العربى لمصر).

ب- ويذكر الباحث الدكتور عمر صابر: أن هناك آراء ترى أن النص الأصلى كتبه يوحنا كله باليونانية، والبعض يرى أن الكتاب كله كُتب بالقبطية(٥). ويُرْدِف معلقاً: ولم يذكر أىّ من هذه الآراء أن يوحنا كتب كتابه - أصلاً - بالعربية. ويرى أن عدم وجود قرائن قوية على أنه كُتب بغير العربية، تجعل احتمال كونه كُتب - أساساً - بالعربية جائزاً.

ج- ويخرج الباحث نفسه برأى جديد مفاده: أن هناك قرائن تاريخية وشواهد لغوية

= عاصرهم يوحنا، خاصة البطريرك ٤١ (إسحاق)، الذى ولى سنة ٦٩٠م، والذى شارك يوحنا النقيوسى في ترشيحه، وقدّمه لعبد العزيز بن مروان؛ لأن تحديد ذلك ساعد - بالفعل - على تحديد التاريخ، الذى كتب يوحنا فيه كتابه (المرجع السابق: ٢/ ٤٩١).

(١) السابق: ٢/ ٣٨٦-٣٨٧.

(٢) Graf , geschichte Der Christlichen Arabischen literatur Text I , die seite 470 , Zohe I36.

(٣) Zotenberg, p. 6-7.

(٤) فتح العرب لمصر ١/ ٢٢.

(٥) تفاصيل تلك الآراء بمراجعها ذكرها فى: (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى): ص٢٢٩-٢٣٠.

في نص يوحنا النقيوسى، تشهد بجواز كتابة النص الأصلى بالعربية، وهى كالآتى:

١- الصلات العربية المصرية - منذ زمن قديم - تعود إلى عصور سحيقة قبل الإسلام(١). وسبق أن أشرت إلى بعضها في (الفصل الرابع من الباب الأول). وعلى كل، فالعربية مألوفة في مصر منذ قديم، ولعل الفتح الإسلامى، ومعاملة المسلمين الطيبة للقبط، وإجراءات الدفع بالعربية إلى المقام الأول(٢)، أدى إلى إجادة بعض القبط لها، ولا بأس أن يكون يوحنا ممن أجادها، وكتب كتابه بها.

٢- والدليل الثانى على رأى الباحث ينبع من واقع دراسته للنص الحبشى لكتاب يوحنا، إذ لاحظ وجود تأثيرات لغوية عربية في النص الحبشى، وذلك على مستوى الألفاظ(٣)، وأسماء الأعلام والبُلْدان(٤)، والأساليب(٥).

٣- ويخلص الباحث من ذلك إلى أن النص يُرجح أنه كُتب - أساساً - بالعربية، وأن المترجم الحبشى نقله عن العربية مباشرة. ولو كان المترجم ترجمه عن لغة وسيطة لأشار إلى ذلك، فقد كان النسّاخ يحرضون على ذلك، فما بالنا بالمترجم. هذا إلى جانب أن قراءة نص مَرّت عليه ترجمتان لا بد أن يعمه الاضطراب وعدم السياق، وهو ما لا يتضح كثيراً في النص الحالى(٦).

وبالرغم مما أورده الباحث من أدله ؛ يُعضّد بها رأيه الجديد المتفرد، إلا أننى أرى أنه لا يترجح رأى محدد قاطع في هذا الموضوع؛ إذ يمكن الرد على أدلة الباحث التاريخية بأن ذلك لا يوصل إلى تأليف كتاب كامل بالعربية في ذلك الوقت المبكر، ثم إنه كان يكتب كتابه لأتباع دينه ومذهبه، ولو كان هو متعرّباً لغة، فهم ليسوا كذلك، فكيف يخاطبهم بما لا يعرفون ؟! وليس معنى وجود تعريب في مصر سنة ٨٧هـ، ووثائق بها سطور بالعربية، ترجع إلى سنة ٢٢هـ (٦٤٢م)، أو أواخر ق ١هـ، أن اللغة العربية سادت وصارت لغة تأليف، فذلك تأخّر - كما هو معلوم - إلى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) على يد سعيد بن بطريق، وساويرس بن المقفع القبطيين. كما أن عدم ذكر المترجم لذلك ليس مقنعاً في التدليل على أصل النص العربى. وأما الاضطراب الذى يُذْكَر أنه غير كثير، فهو على العكس من ذلك، ويؤدى إلى عدم

(١) فَصّل القول في ذلك د.عمر صابر في (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى - قسم الدراسة) ص٢٣١-٢٣٧.

(٢) من هذه الإجراءات: التجاوب والامتزاج، وتعريب الدواوين ٨٧هـ في عصر الوليد على يد عبد الله بن عبد الملك في مصر، إلى جانب حسن المعاملة، واختلاط المسلمين بأهل البلاد المفتوحة. (ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب، للدكتور العدوى ص٨-٩).

(٣) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى (قسم الدراسة) ص٢٣٨-٢٤٣.

(٤) المرجع السابق: ص٢٤٥-٢٤٩.

(٥) السابق: ص٢٤٩-٢٦٠.

(٦) وستظهر نماذج على ذلك في دراسة الملامح العامة لمنهج يوحنا التاريخى.

الفهم في أجزاء عديدة من النص كما يذكر الباحث نفسه[(١)] ؛ نظراً لتعدد ترجمات النص[(٢)]، واختلاف مستوى المترجمين. أما الأدلة اللغوية التى ساقها، فهى - رغم منطقيتها - فإنها لا تمنع من أن تكون لغة النص الأصلى بالقبطية، وتكون القبطية تأثرت بالعربية من خلال الاحتكاك الدائم بينهما.

وأخيراً، فطالما كان النص الأصلى مفقوداً[(٣)]، فإننا لا نستطيع الترجيح بين هاتيك الآراء كلها، فكلها مجرد احتمالات جائزة على تفاوت بينها.

٢- أهمية كتاب تاريخ يوحنا النقيوسى:

أ- أن كاتبه ومؤلفه أورد فيه أخباراً مفصّلة، وأحاط بكثير من أحداث تاريخ مصر خلاله؛ نظراً لسعة اطلاعه وعلمه بالأخبار، كما أنه ليس بين وضعه كتابه وبين فتح العرب لمصر إلا ٥٠ عاماً[(٤)].

ب- أن كتابه يُعَدّ حجة ووثيقة نفيسة، احتفظت لنا ببعض الأحداث المحلية عن التاريخ القديم في مصر بأساطيره وفراعينه وآلهته، كما أن به بيانات صحيحة ومؤكدة عن القصور، الذى عانته الإمبراطورية البيزنطية الشرقية، وعلى الأخص الثورات والصراعات والاضطرابات الدينية بها كجذور عميقة، فسّرت سهولة فتح العرب لمصر، وهزائم الإمبراطورية المتتالية. هذا إلى جانب انفراده - دون المصادر البيزنطية الأخرى - بتفاصيل أحداث مهمة عن الصراع بين فوكاس وهرقل على زعامة الإمبراطورية الشرقية، حتى تم للأخير النصر في مراحل حاسمة جرت أحداثها على أرض مصر[(٥)].

جـ- للكتاب أهميته الجغرافية الكبيرة لمصر القديمة، إذ أورد كثيراً من أسماء البلدان المصرية، سواء المندثرة أم التى تغيرت أسماؤها مع ذكر أخبارها، ودورها الذى لعبته في الأحداث التاريخية المرتبطة بها[(٦)].

د- معاصرته لأحداث الفتح الإسلامى لمصر، فهو يتكلم عليها باعتباره شاهد عيان لأحداثها، مما يجعله مصدراً موثوقاً به[(٧)] في أحيان كثيرة، ما تخلى عن التعصب

(١) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى (قسم الدراسة): صـ٢٦٢.
(٢) وسنرى - قريباً - جهود نشر كتاب يوحنا بلغات عدة.
(٣) ذكر بتلر في هامش ١ صـ٢٥ من مقدمة كتابه: (فتح العرب لمصر): أن إميلنو ذكر أن النسخة العربية موجودة في أعماق إقليم من أقاليم مصر. وقد علق بتلر على ذلك - ونحن نوافقه - بأن كلام إميلنو لا يجلو ظلمة، ولا يوضح أمراً.
(٤) فتح العرب لمصر، لبتلر: ٢/ ٣٦٩.
(٥) Zotenberg , p. 6.
(٦) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى، (مقدمة المترجم) صـ٦.
(٧) مقدمة بتلر لكتابه: (فتح العرب لمصر): ١/ ٢٤، Goṣef Hofer and Kal Rahner , Lexikon fuR Theologie und Kirche , Text 5, de seite I067.

الدينى البغيض. ينضاف إلى ذلك أنه يعبر عن رأى وطبيعة نظرة رجل الدين المسيحى القيادى للأحداث التاريخية؛ مما يعطى أبعاداً جديدة في الدرس والتحليل والنظر.

٣- المراحل التى مر بها كتاب يوحنا في سبيل نشره بين الناس:

أ- كتب يوحنا النقيوسى تاريخه - على الأرجح - في جزئه الأول باليونانية، وفى جزئه الأخير عن الفتح العربى لمصر باللغة القبطية. ويبدو أنه تُرجم - بعد ذلك - إلى العربية في زمن متقدم جدّاً (لعله في عهد عبد العزيز بن مروان). وعلى أساس تلك الترجمة العربية نُقل الكتاب إلى اللغة الحبشية[(١)]، بواسطة عالم حبشى مجهول الاسم (سنة ٩٨٠هـ - ١٦٢٠م)، وساعده على إتمامها راهب وشماس إنجيلى مصرى يدعى جبرائيل، ومعه مساعد له[(٢)].

ب- نُشرت فقرات ملخصة من النص الحبشى - لأول مرة مع ترجمة فرنسية لها - في المجلة الآسيوية ١٨٧٧-١٨٧٩م[(٣)].

جـ- ثم نُشر النص الحبشى كاملاً مع ترجمة كاملة له من الحبشية إلى الفرنسية، على يد المستشرق الفرنسى زوتنبرج في باريس ١٨٨٣م[(٤)]، وذلك بعنوان: تاريخ يوحنا أسقف نقيوس Chronique , de jean , eveque de Nikiou

د- ثم قام العالم الإنجليزى تشارلز Charles بترجمة نص زوتنبرج الحبشى المنشور إلى اللغة الإنجليزية، وذلك في لندن سنة ١٩١٦، وحاول خلالها تجنُّب عيوب موجودة في بعض نواحى ترجمة زوتنبرج، وكذا في بعض نواحى حسبانه للتواريخ[(٥)]. ونشر بعنوان: The chronicle of john , Bishop of Nikiu.

هـ- ثم جاء كامل صالح نخلة، وترجم إلى العربية مختارات من تاريخ يوحنا

---

(١) مقدمة بتلر لكتابه: (فتح العرب لمصر): ١/ ٢٤. وأضاف أنها النسخة الوحيدة الباقية.

(٢) Zotenberg , P.6 . وبدليل قول المترجم في خاتمة ترجمته الكتاب صـ ٢١٣: تمت الترجمة ٩٨٠هـ، وترجم باهتمام كبير من العربية إلى الجعزية على يد الدياقون غبريال المصرى بن الشهيد يوحنا القليوبى بأمر من أثناسيوس رئيس جيوش إثيوبيا، وبأمر الملكة مريم سنا.

(٣) أورد عمر صابر مراحل، وجهود نشر المخطوطة في مقدمة مترجم (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى): صـ٧.

(٤) وقد اطلعتُ على هذه الترجمة، في نسخة نادرة محفوظة في مكتب مدير المركز الفرنسيسكانى للدراسات الشرقية المسيحية، الكائن برقم ١٢ ش الخليج المصرى بالموسكى.

(٥) مقدمة (فتح العرب لمصر) لبتلر: ١/ ٢٥. وللأسف لم أستطع الوقوف على هذه الترجمة في المركز الفرنسيسكانى، ولا في مكتبة معهد الآداب الشرقية (دار الآباء الدومينيكين، الكائن برقم ١ ش الطرابيشى المتفرع من ميدان الجيش بالقاهرة)، ولا في فهارس الكتب الأجنبية بدار الكتب بالكورنيش، ولا في المكتبة المركزية بجامعة القاهرة.

النقيوسى، نقلاً عن الترجمة الفرنسية، التى قام بها زوتنبرج[١].

و- أخيراً، وفقنى الله ﷻ بإرشاد من أمين مكتبة معهد الآداب الشرقية إلى السؤال لدى أحد معيدى قسم اللغات الشرقية وآدابها، بآداب القاهرة، الذى أبلغنى بدوره بأن الدكتور عمر صابر أحمد عبد الجليل كانت أطروحته للماجستير بعنوان: (مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسى) ترجمة ودراسة لغوية ١٩٨١م. وفى هذه الرسالة أورد الباحث النص الحبشى المخطوط في مجلد كامل. وقام في المجلد الآخر بإيراد نص الترجمة العربية عن النص الحبشى مقارنة بترجمتى زوتنبرج وتشارلز، إلى جانب تعليقات مهمة على الأحداث في الهوامش، بالإضافة إلى ترجمة للمؤلف، وتعريف بمنهجه، ودراسة الظواهر اللغوية في نصه مقارنة بين اللغة العربية والحبشية. وقد أفدتُ إفادة تامّة من هذا العمل العلمى الجيد، وعليه كان معتمدى في دراستى لهذا الكتاب، وتحليلى التاريخى له[٢].

رابعاً - الموضوعات التى شملها تاريخ يوحنا النقيوسى:

أ- الاستفتاح، والتقديم:

بدأ المؤلف كتابه مستفتحاً بقوله: باسم الرب الرحيم الكريم[٣]. ثم أورد مقدمة قصيرة، عرض فيها هدف كتابه، ومصادره بعامة، وجهده المبذول فيه[٤].

ب- تاريخ مصر القديم حتى ميلاد المسيح[٥]:

وفى هذا الجزء من تاريخه العام تحدّث عن بداية الخلق، وأبناء آدم وحواء الأوائل، وبدايات الأشياء وأولياتها اختراعاً، مثل: أوّل من اخترع آلات الحرب، وأول مَنْ بنى المدن، وأول مدينة استخدمت المحراث، وتعلمت زرع القمح، وما إلى ذلك. وخلال ذلك كان يتحدث عن إنجازات الملوك الحضارية من تشييد بناء وسَنّ قوانين، ووضع تشريعات، وغير ذلك. كما تناول بالحديث المصريين القدماء والإغريق، وعباداتهم وأعمالهم، حتى يصل إلى الحديث عن بنى إسرائيل مع سيدنا موسى عليه السلام وخروجهم من مصر، وخروج فرعون في إثرهم، وملابسات هذا الخروج

(١) ونشر ذلك في مجلة صهيون عدد ٧، ٨ (السنة الرابعة والخمسون) يوليو- أغسطس ١٩٤٨م (ذكر ذلك د. عمر صابر في (مقدمة ترجمته تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى) صـ٧.

(٢) كان هذا عندما كنت بصدد إعداد أطروحتى للماجستير، ولكن بعد طباعة رسالة الباحث المذكور في كتاب، قمت بذكر الإحالات وفقاً للنص المطبوع.

(٣) وهى أقرب ما تكون من البسملة. والغريب أنه لم يذكر قولتهم المشهورة: باسم الأب، والابن، والروح القدس إله واحد آمين.

(٤) تاريخ يوحنا بالعربية: صـ٤٢.

(٥) وذلك في الأبواب من الأول حتى نهاية السادس عشر من (المصدر السابق) صـ٤٣-٨١.

وظروفه، وما نتج عنه من غرق فرعون وجيشه. وتناول - بعد ذلك - الصراع الفارسى المصرى قبل الميلاد حتى مقدم الإسكندر الأكبر وهزيمته دارا الفارسى، وانتصاراته، وفتوحاته، وامتلاكه العالم كله. وتعرض لشئ من تاريخ البطالمة في مصر، وركّز على صلة يوليوس قيصر الرومانى بكليوباترا في مصر، واهتم - كذلك - بوصف الإسكندرية في ذلك العصر.

جـ- تاريخ المسيحية في مصر حتى الفتح الإسلامى (*):

وفى هذا الجزء اهتم بأعمال كليوباترا في مصر، وسيطرتها عليها، ثم اندحارها، وانتهاء العصر البطلمى في مصر، وقيام الدولة الرومانية بعدها. وألقى الضوء الخفيف السريع على ميلاد السيد المسيح ﷺ، وأفاض في ذكر الاضطهادات، التى لقيها أتباع المسيحية على أيدى ملوك الرومان الوثنيين، خاصة فترة حكم الإمبراطور دقلديانوس. وركّز يوحنا على ذكر أفعاله القبيحة بأنصار المسيحية من النفاق والاضطهاد والظلم، وتهديد وتخريب الإسكندرية، وغير ذلك من شنائعه وفظائعه، التى صَبّ خلالها العذاب على النصارى صَبّاً. واهتم - في المقابل - بأوصاف الإمبراطور قسطنطين، الذى على يديه قامت الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية)، وتنصره، واهتمامه ببناء الكنائس، ثم استعراض أحوال الإمبراطورية بعده، وإعلان المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية بعد ذلك، ثم خلافات مذهبية بين طوائف وكنائس النصارى المختلفة، وظهور حركات الآريوسية، ثم النساطرة، ثم الانشقاق إلى يعاقبة وملكانية، وتجدد الاضطهادات؛ بسبب الخلاف حول طبيعة سيدنا المسيح ﷺ، وأثر ذلك في الأوضاع في مصر بالذات.

وأخيراً، ركّز على عصر هرقل وصراعه الدائر بينه وبين فوكاس (فوقا) على زعامة الإمبراطورية البيزنطية، حتى انتهى بانتصار هرقل.

د- المرحلة الأخيرة من الكتاب (وصف فتح مصر الإسلامى)(**):

وهذا الجزء من الكتاب هو أوجز أجزائه وأقصرها، إذ يبلغ أقل من ربع حجمه الكلى تقريباً. وفيه يعرض لأحداث الفتح مغفلاً ما كان في مراحله الأولى، بادئاً بأحداث محاصرة حصن بابليون، وموقعة عين شمس، ومجئ الإمداد إلى عمرو بن العاص، وفتح الفيوم، مع تركيز يوحنا على بيان ضعف نفوس قادة الروم وخَوَر عزائمهم، وانقسامهم وانهزامهم من الداخل، باعتبارها أسباباً رئيسية لتمكن العرب منهم. ويبرز يوحنا المسلمين في صورة شنيعة كأنهم وحوش كاسرة مفترسة، تنقضّ على فريستها المستضعفة، كما يصب لعناته وسبابه على أولئك النفر من القبط الذين

(*) ويبدأ من الباب ١٧ إلى الباب ٤٥ (صـ٨٢-١٨٧) من (تاريخ يوحنا) بالعربية.

(**) ويبدأ من الباب ٤٦ إلى ٥٧ (نهاية الكتاب): صـ١٨٨-٢٢٥ من تاريخ (يوحنا النقيوسى).

أسلموا، وأعانوا المسلمين على إتمام فتوحاتهم. وسرد محاولات عمرو بن العاص للاستيلاء على الأقاليم الشمالية من مصر. وتناول وفاة هرقل، وأثر ذلك في زعزعة الاستقرار، وتجدد الصراع في الإمبراطورية. ثم تناول تسليم حصن بابليون، وذكر استيلاء عمرو على البلاد في طريقه إلى الإسكندرية، وحصاره الطويل لها، وما تخلل ذلك من صراعات حول قيادة الإمبراطورية، وكذا انقسام الجند، وصراع أهل الوجه البحرى في مصر. ثم عرض لصلح الإسكندرية وشروطه، وموافقة الإمبراطورية عليه، وعودة قيرس (المقوقس) قبل ذلك، وتوليه عقد الصلح بعد عَوْده. وذكر تنفيذ بنود صلح الإسكندرية، وخروج آخر القادة، والرهائن الرومان في سفينة من الإسكندرية إلى جزيرة قبرص. وبعدها سيطر المسلمون على مصر كلها، وعاد بنيامين بطريرك القبط إلى منصبه بعد غياب ١٣ سنة. وفى النهاية حمل المؤلف على العرب حملة شعواء، وأتهمهم بالظلم، وفرض الضرائب على القبط، وسَبَّ الرسولَ ﷺ سبّاً قبيحاً هو ومَنْ دخل دينه من القبط كراهب دَيْر سينا. ثم ختم كتابه بأن حمد الرب على نجاة المسيحيين من الوثنيين، ومن أعدائهم في المذهب من الملكانيين، وتمنّى لو خلّصهم وصَبَّرَهم على متاعب العرب المسلمين. وهكذا، يعد هذا الكتاب كتاباً في التاريخ العام، وكان مؤلفه ينتهز كل فرصة من خلال عرض تاريخ الكنيسة والمسيحية بعامة؛ ليسلط الأضواء على الأوضاع في مصر خاصة.

الفصل الثالث

منهج يوحنا النقيوسى في الكتابة التاريخية

تقديم في حقائق الإسهام العالمى القديم في كتابة التاريخ:

١- اتسمت كتابات التاريخ في مصر وبابل وآشور وغيرها من البلاد قديماً باستمداد مادتها من الأساطير والخرافات؛ ولذا فهى لا تُعد تاريخاً بالمفهوم الصحيح، وإنما هى حكايات الآلهة الباطلة، وهدفها الوعظ والإرشاد، ونشر الفضيلة بين الناس، وهى تخلو من النقد والتحقيق[١].

٢- تسلمت الكنيسة المسيحية سجل التاريخ بعدما تداولته أيدى المشارقة والمغاربة قديماً، وبقى في أيدى القساوسة والرهبان ألف سنة من الزمان، ومنذ تنصُّر الإمبراطور البيزنطى قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧م)، فغدا التاريخ خاضعاً للاّهوت مسخَّراً لأغراضه، مشحوناً بأخبار الخوارق والكرامات، وفقد حاسّة النظر إلى الأشياء بموضوعية، بحيث توضع في موضعها الصحيح. وجُعل بنو إسرائيل هم صدر التاريخ، ودارت حولهم الأحداث. وعلى ذلك، فتَحَوُّل التاريخ إلى رجال الدين كان يعنى محو التاريخ الصحيح من الوجود محواً دام ألف عام[٢].

٣- وعلى كل، فقد حاول بعض المؤرخين الإغريق والرومان النهوض بالتاريخ القديم. ومن هؤلاء: هيرودوت أبو التاريخ، الذى اهتم بحروب اليونان وفارس، وبوليبوس الذى اهتم بتاريخ الحضارة، وتاسيتوس الذى ركّز على المنحى الأخلاقى، وفضح تهتك الأباطرة[٣].

وأتى يوحنا النقيوسى وشمس الإمبراطورية البيزنطية توشك على الأفول من أهم معاقلها ومرتكزاتها (مصر)، فجمع بين تراث تاريخى قديم، ومعطيات أحداث تاريخية معاصرة له، هبّت ريحها على بلاده بمقدم الفتح الإسلامى إلى مصر، فكانت له ملامح

---

(١) علم التاريخ، لهرنشو (من الترجمة لعبد الحميد العبادى): ص٢٤-٢٥.

(٢) المرجع السابق: ص٣٨-٣٩.

(٣) السابق: ٢٧-٣٧.

منهجية عديدة، نذكرها كالآتى:

١- المنهجية في التقديم لمؤلَّفه التاريخى:

لم يبدأ يوحنا النقيوسى في عرض موضوعات تاريخه مباشرة، وإنما قدّم له بمقدمة[(١)] منهجية موضوعية مختصرة. فأظهر - في البداية - أنه جامع هذا الكتاب، ذاكراً صفته الدينية: (الأب القديس يوحنا أسقف نقيوس). ثم أوضح أن كتابة التاريخ متعبة مضنية؛ لأنها تحتاج إلى فحص الفصول المعروضة. وبيّن هدفه من الكتاب، ومصادره بعامة، وميزات عمله الذى تحرّى فيه أن يُكتب بأسلوب حسن، وحرص - من خلاله - على الترجمة للشخصيات والأحداث بطريقة جيدة؛ حتى يتم نفعه، ويكمل مقام الكتاب وصاحبه. وهكذا، توخى يوحنا في مقدمته أهدافاً، وعناصر منهجية منطقية، قَلّ أن نجدها في ذاك الزمان المتقدم.

٢- حسن تقسيم الكتاب إلى مجموعة من الأبواب:

بحيث يضم كل باب - تقريباً - حادثة من الحوادث التاريخية. وفَاتَه - ولعل ذلك سابق على عصره - أن يضع عنواناً لكل باب يعبر عما يعالجه من أحداث تاريخية تحته. وعلى كل، فإنه ذكر - فيما يبدو - عنواناً واحداً في أحد الأبواب[(٢)].

٣- مصادره:

وقد أشار يوحنا نفسه إليها خلال مقدمته التى قدّم بها لتاريخه، فذكر أنه جمع وصنّف كتابه هذا من خلال كتب تاريخية قديمة كثيرة، تعالج أزماناً تاريخية عديدة. ومن ثَمّ، فإنه يُنتظر من رجل دين مسيحى، ومؤرخ قبطى أرثوذكسى أن يكون قد اطّلع على ما كتبه أسلافه من أخبار تتصل، بالقرون الغابرة. ولا شك أن على رأس مصادره القديمة الكتاب المقدس ينقل عنه بطريقة مباشرة، وغير مباشرة. وفيما يتصل بالتاريخ المصرى القديم، فقد اعتمد على مصادر غامضة دون تَحَرٍّ لوجه الحقيقة فيها. وفيما يتصل بالتاريخ الرومانى السابق عليه وتاريخ الكنيسة، فلا شك أنه اعتمد على مؤرخين مسيحيين، على رأسهم :يوحنا ملالاس[(٣)]،ويوحنا الأنطاكى[(٤)]، وأيوزيبيوس[(٥)]،

---

(١) وردت صـ٤٢ من (تاريخ يوحنا النقيوسى بالعربية).

(٢) وذلك في بداية الباب رقم: ١٦ صـ٨٠، وكان نصه: (تاريخ الحكام الرومانيين الأوائل).

(٣) يعد يوحنا ملالاس (٤٩١-٥٧٨م) من المؤرخين البيزنطيين، الذين نقل عنهم يوحنا بعض أحداث من روايته. وذكر جراف في كتابه: (الأدب العربى المسيحى) بالألمانية ١/ ٤٧٠: أن يوحنا استخدم مصادر ملالاس نفسها في (تاريخه)، والتى تعرض تاريخ البشرية من بدئها حتى نهاية ق ٧م. ويعتبر ملالاس هذا من أشهر مَنْ دوّن الأحداث في ق ٦م مرتبة حسب تاريخ وقوعها. وفى تاريخه كثير من الأساطير والخرافات، لكنه مفيد في بعض رواياته. (مقدمة محقق تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى صـ١٥، هامش ١، ومراجعه).

=

وغيرهم[١]، مستبعداً كتابات الوثنيين. أما بالنسبة للأحداث التى تتلوها، فقد عاصر أحداثها يوحنا بنفسه. وما لم يعاصره، وحدث قريباً من عهده، لا شك أنه كان يطالع المصادر التى تناولتها، ويتصل بكثير من الشيوخ المعمَّرين، الذين شهدوا تلك الحوادث، مثل: أحداث سقوط فوكاس خَصْم هرقل في صراعهما على السلطة[٢].

وبعد أن تأكد لنا رجوع يوحنا في كتابه إلى مصادر عديدة قديمة وجديدة، آن لنا أن نتساءل: كيف كان يستخدم يوحنا النقيوسى مصادره هذه؟ وهل كانت له طرق يورد بها مصادره خلال سرده أحداث تاريخه؟ والجواب: نعم، كانت له وسائله في الإشارة - أحياناً - إلى هذه المصادر؛ لتوثيق بعض النواحى التاريخية الواردة في كتابه، وذلك على النحو الآتى:

أ- أحياناً لا يحدد مصدراً معيّناً مدوّناً استقى منه أحداثه، وإنما يكتفى بذكر مصدر سماعى غير محدد[٣] : ومثال ذلك: ما ذكره في (تاريخه) بصدد زلزال عظيم، تعرضت له مصر في عهد يوستنيانوس (جستنيان ٥٢٧-٥٦٥م)، أدى إلى هبوط مدن وقرى كثيرة إلى الهاوية. قال يوحنا: وعن هذا الألم ذكر آباؤنا اللاهوتيون المصريون أن سبب هذا الزلزال هو تغيير العقيدة الأرثوذكسية[٤].

= (٤) ظهر في فترة حكم هرقل (٦١٠-٦٤١م)، وله تاريخ عام يبدأ من آدم إلى سنة ٦١٠م، وهو أفضل من تاريخ ملالاس؛ إذ إنه أقل إيراداً للأساطير، وأكثر استخداماً لأفضل المصادر. (الدراسة السابقة: صـ١٥، هامش ٢).

(٥) وهو أول مؤرخ كبير للكنيسة المسيحية (٢٦٠-٣٤٠م)، وكان صديقاً لقسطنطين. ولد بفلسطين، وتقلّبت به الوظائف حتى صار أُسْقُفاً لمدينة قيصرية ٣١٤م. وله عدة مؤلفات في التاريخ واللاهوت والعقيدة، أهمها: التاريخ الكنسى، وحياة قسطنطين (وفيه يمدحه بعد موته). وكان هذا المؤرخ مثالاً لمَنْ بعده من المؤرخين، ومنهم: يوحنا النقيوسى الذى تأثر به. ومن مظاهر ذلك:

١- أن يوحنا بدأ كتابه منذ التاريخ القديم للبشرية كما في العهد القديم، وتناول بنى إسرائيل وخروجهم من مصر. وتحدث عن المسيح وديانته، والمذهب الأرثوذكسى وصراعاته. وهذا هو ما عرض له أيوزيبيوس.

٢- نظر يوحنا - كما نظر أيوزيبيوس - للمسيحيين الأتقياء نظرة إكبار وإعظام، وخلع عليهم صفات طيبة، ووصم أعداءه بالصفات القبيحة.

٣- الاهتمام بالوثائق، والرسائل، والخطب، والقرارات.

٤- وجود العنصر الغيبى المتمثل في الشيطان، مع كثرة قصص ومعجزات القديسين. (السابق: هامش ٢ صـ٢٩-٣٢، ٣٤).

(١) ذكر اعتماده على هؤلاء المؤرخين د. عمر صابر في (السابق) صـ٢٩، ٣٧-٣٨ .

(٢) فتح العرب لمصر، لبتلر: ١/ ٧.

(٣) ولعل هذا ما يشير إليه بتلر في كتابه: (فتح العرب لمصر): ١/ ٨٥ بقوله: ولا شك أن يوحنا كان يأخذ عما سبقه من المؤلفات، التى لم يبق منها شئ حتى الاسم. وأعتقد أن هذا الكلام لا يؤخذ به على إطلاقه، فهناك ما يُعرف اسمه، كما سيأتى.

(٤) تاريخ يوحنا (بالعربية): صـ١٤٥.

ب- وأحياناً ينقل عن مصدر تاريخى معروف، لكنه يفوته نسبة المادة التى يوردها إلى مصدرها، الذى نقلها عنه: مثال ذلك أنه تحدث عمن يسمى (قسطوس)، وذكر أنه حاكم مصر وإلهها اليونانى في العصر القديم، وأشار إلى أنه مخترع آلات الحرب، وكان مشتهراً بالقسوة والفظاظة[١]. ولم يُشِرْ إلى مصدر هذه المعلومات، لكن ثبت أن ذلك مأخوذ عن تاريخ يوحنا الأنطاكى[٢].

جـ- وأحياناً كان يذكر المصدر الذى نقل عنه، لكنه يغفل ذكر اسم صاحبه: ومثاله: ما ذكره عن أعمال الملك المصرى القديم أمنحوتب، وحركة البناء في عصره ونفقاتها الباهظة. ثم قال محدّداً مصدر معلوماته عنه: وقد وُجِدَ مكتوباً هكذا في الكتب بلسان المصريين، الذين نقشوه على حَجَر جدار، وأظهروه لكل مَنْ يقرأ[٣]. ويلاحظ - هنا - أن المصدر مكتوب غير محدد، مدعوم بنقش أثرى، نقشه المصريون على الحجر.

د- وأحياناً أخرى يذكر معلومات وبيانات المصدر المنقول عنه كاملة: مثل قوله عن مصدر تفسيره وشرحه لمعنى كلمة: العبرانيين، بأن ذلك ورد في كتاب يوسف الحكيم كاتب التاريخ، وبالتحديد في مقدمة كتابه: (تاريخ اليهود)[٤].

٤- البناء العامّ للرواية التاريخية في كتابه:

وأعنى به: مدى إحاطة المؤلف بكافّة الموضوعات المهمة، التى تشتمل عليها الفترات التاريخية المعالَجة في كتابه، إلى جانب الترابط الحادث بين جزئيات مادته تفصيلاً، ومدى توفر التتابع السردى التاريخى للأحداث. وإذا جئنا لنطبق ذلك ونختبره في تاريخ يوحنا؛ وجدنا ما يلى:

أوّلاً - أغفل يوحنا النقيوسى ذكر بعض الأحداث التاريخية المهمة الواقعة في نطاقه التاريخى الذى يتناوله، مثل:

١- أنه أغفل حادثاً تاريخيّاً مهمّاً في تاريخ مصر، وهو غزو الفرس لها[٥] في عهد

(١) المصدر السابق: صـ٤٤.

(٢) ذكر ذلك الباحث الدكتور عمر صابر في (السابق) صـ٤٥ (هامش ١)، نقلاً عن ترجمة تشارلز الإنجليزية لكتاب يوحنا النقيوسى صـ١٩ (رقم ١).

(٣) السابق: صـ٥٥. وكذلك ذكر صـ٤٨، وهو بصدد الكلام على الملك أبراطوس الذى آمن بالتشريع والتثليث، أن ذلك ورد في كتاب: (الحكماء المصريين).

(٤) تاريخ يوحنا بالعربية: صـ٥٧.

(٥) ونوافق -على ذلك - بتلر في (فتح العرب لمصر): ١/ ١٩٤. ويُلاحظ أن يوحنا قال في (تاريخه) صـ١٤٨: وتنازع كل أهل مدينة إسكندرية، وخرجوا إلى الفرس. فلعلها إشارة إلى خروجهم لمواجهة غزو الفرس. وبالطبع هذه إشارة غير كافية بالمرة لهذا الحدث المهم. ونحن نوافق د. عمر صابر في صـ١٤٨ (هامش١)، نقلاً عن (تشارلز)، على أن هذه العبارة غريبة في سياقها التاريخى؛ =

الإمبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠-٦٤١م)، فقد سارت جيوش الفرس إلى مصر سنة ٦١٦م، وفتحوا حصن بابليون ٦١٧م، ثم الإسكندرية ٦١٨م، ولم يتم إجلاؤهم عنها إلا سنة ٦٢٧م[١]، وذلك في إطار الحروب المستمرة بين الفرس والروم، وهى ذات خطر كبير في مجريات حوادث التاريخ.

٢- يُلاحَظ - كذلك - إغفاله الحديث المفصل عن مدينة (نقيوس) في تاريخها القديم، باعتبارها من معاقل المسيحية في مصر. واكتفى يوحنا بإشارة سريعة إليها عن اشتراكها ضد فوكاس في صراعه مع هرقل على قيادة الإمبراطورية قبيل الفتح الإسلامى[٢]. صحيح أن يوحنا اهتم بذكر الأحداث المرتبطة بفتحها على يد المسلمين بشئ من التفصيل على أساس أنها نقطة حصينة تقع على الطريق بين بابليون والإسكندرية[٣]، إلا أننا لازلنا نرى أنه لم يوفها حقها بالنظر إلى أنها بلده، ولعلها كانت مسقط رأسه، كما لا ننسى أنه كان أسقفها وزعيمها الدينى.

٣- لم يذكر يوحنا النقيوسى فترة ثلاثين عاماً من حكم هرقل للإمبراطورية البيزنطية حتى مجئ الفتح الإسلامى. ويقول بتلر: كأنَّ يداً أثيمة عمدت إلى ذلك الكتاب، فأودَتْ بكل ما فيه ذكر لحكم هرقل[٤].

٤- وكذلك أغفل المراحل الأولى التى خاضها العرب في فتح مصر[٥]، وكان تركيزه - في بداية حديثه - على حصار بابليون. بدأ الكتاب حديثه عن الفتح

العربى لمصر بقوله: إن تيودور قائد جيوش الروم في مصر، علم بهزيمة حنّا قائد فرقة الخَفَر في الفيوم، وموته. وذكر - بعد ذلك - أن جيوش الروم اجتمعت عند حصن بابليون، وأرادت لقاء العرب أوانَ الفيضان[٦]، إلى آخر هذه الأحداث.

وقد يكون إغفال يوحنا ذلك الجزء من تاريخ الفتح العربى؛ بسبب عدم حدوث صدام حقيقى قوى مع الروم خلال تلك الفترة. ولعله أراد أن يشير إلى أن بداية الحرب الحقيقية تمثّلت في حصار بابليون. وقد يكون يوحنا ذكره في نسخته الأصلية، ثم سقط من النساخ، أو بفعل الترجمات المتلاحقة المتعددة لمخطوطته.

= لأن يوحنا كان يتناول إحدى أساطير القبط في مصر في عهد يوستنيانوس، وفجأة أتى بهذه العبارة، ثم عاد إلى الأحداث المرتبطة بالأسطورة.

(١) أورد تواريخ هذه الأحداث بتلر في كتابه: (فتح العرب لمصر): ١/ ٣٩ (جداول الحوادث التاريخية).

(٢) تاريخ يوحنا النقيوسى: صـ١٧٧.

(٣) السابق: صـ٢٠٥-٢٠٦.

(٤) فتح العرب لمصر، لبتلر: ١/ ٤٠-٤١.

(٥) المرجع السابق: ١/ ١٩٤، ٢/ ٤٧٢.

(٦) تاريخ يوحنا النقيوسى (بالعربية): صـ١٨٨-١٩١ (الباب رقم ٤٦).

ثانياً - فيما يتصل بتماسك البناء الداخلي للروايات التاريخية:

فقد توزعت الكتابَ ظواهرُ عديدة ف ذلك المجال، يمكن رصدها على النحو الآتى:

١- أحياناً كنا نجد البناء محكماً، والسرد متسلسلاً:

فمثلاً: عند حديثه عن بطريرك الإسكندرية تاوفيلوس (رقم ٢٣: ولى ٣٧٦-٤٠٤م)، الذى ولى بعد أثناسيوس، تناول حياته من بدايتها بطريقة منطقية متتابعة، لا خلل ولا اضطراب فيها، وذلك من بداية إدخاله الكنيسة وتنشئته بها، وإجراءات تنصيره وهو طفل صغير، فحلقوا رأسه، ثم جُعل مع القراء مرتّلاً بالكنيسة، ثم تنشئته وتربيته كما يُنشّأ ويُربّى القديسون، ثم اطلاعه على كتب الكنيسة كلها، وحفظه إياها (وهى وحى الله على حد تعبير يوحنا)، ثم تعيينه شمّاساً، ثم ترقيته إلى ارتداء ثياب منصب الكهنة، ثم رئاسته الكهنة بالكنيسة، ثم جلوسه - بعد ذاك - على كرسى البطريركية بالإسكندرية، يدافع عن العقيدة المقدسة، ويقضى على عَبَدَة الطاغوت والتماثيل[1].

وأحياناً نجد اضطراباً في سياق الروايات التاريخية: وذلك راجع إلى عدة أسباب، منها:

أ- وجود تصحيفات عديدة في الألفاظ (من أسماء الأعلام، والبلدان)؛ مما أدّى إلى اضطراب في سياق الروايات التاريخية، ولعله من سوء نقل المترجم الحبشى عن النص العربى المفقود[2]. وذلك مثل قول يوحنا عن الملك سواكن: إنه ملك الهند، الذى قام بحكم بلاد مصر[3]. والصواب أنه (سباكون)، وأنه ملك الحبشة لا الهند[4]. وهذا من قبيل التصحيف في الأعلام، والخلط بين البلدان.

ب- الخلط بين المعلومات، والخلل في ترتيب الأحداث: ومن أمثلة ذلك من التاريخ القديم:

١- أنه - أحياناً - يحدثنا في موضوع في عدة جمل متوالية، وفجأة يأتى بجمل لا علاقة لها بالموضوع الذى يتناوله على الإطلاق، مثل: حديثه عن آلات التعذيب

(١) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى: صـ١١٥-١١٦.
(٢) المصدر السابق: (مقدمة المترجم) صـ٦، ١٤.
(٣) السابق: صـ٥٢.
(٤) التفاصيل بمراجعها في (السابق) صـ٥٢ (هامش ٣). والنماذج على ذلك عديدة؛ فمثلاً: ذكر يوحنا اسم (فليادس) على أنه أحد قادة الروم في مصر أكثر من مرة، ثم سمّاه - بعد ذلك - (أبلياس) صـ٢٠٧ (وهامش رقم ٤ بها، وصـ٢٠٨)؛ مما يعنى نوعاً من الاختلاط، يرجح أنه من الناسخ المترجم. وعبّر بتلر تعبيراً عامّاً عن الأسماء في تلك العصور، فذكر أنها في معظمها محرّفة، لكنه يذكرها كما أوردها يوحنا النقيوسى. (فتح العرب لمصر ١/ ٢٣٥ بالهامش).

والعقاب من السلاسل والقيود، ثم إذا به يقول بعدها مباشرة: " وأموالاً كثيرة، وثياباً فاخرة "[١] فما علاقتها بالتعذيب ؟!

٢- وكذلك ذكر أعمالاً لأحد القادة، ثم ذكر أنه مات، ثم عاد في الجملة التالية يذكر أنه قام بإنشاءات وأعمال جديدة، مثل: كذا وكذا. .[٢].

وتتضح ظاهرة الخلط أكثر ما تتضح - كما يقول بتلر - في الجزء الخاص بالفتح العربى لمصر، خاصة خاتمة أخبار هذا الفتح، التى اختلطت اختلاطاً عظيماً، فهى مقلوبة رأساً على عقب، بحيث لا يُستطاع إقامتها، ولا يكاد النقد يُعيد إليها سياقها[٣]. ومن أمثلة ذلك:

١- أنه في الوقت الذى كان يُنتظر أن يحدثنا فيه يوحنا عن أحداث حصار حصن بابليون ومعاهدة صلحه، وما قام به عمرو بن العاص من سيطرة على القرى والبلاد المؤدية إلى الإسكندرية، ثم أحداث صلحها، فوجئنا أنه يسبق هذا كله بحديث عن فتح بلاد الساحل الشمالى (مصر السفلى)، والذى تم خلال الهدنة التى امتدت ١١ شهراً بين العرب والروم قبل جلاء قوات الرومان عن الإسكندرية بموجب هذه الاتفاقية[٤]. ولا شك أن هذا من اضطراب الكتاب واختلاله. ويغلب على الظن أنه بفعل الناسخ، أو من سوء ترتيب النسخة الأصلية لتقادم العهد بها.

٢- كان من المنتظر أن يتناول المؤلف تنفيذ أحكام صلح الإسكندرية وما بعده، بعد أن تناول أحداث فتح الساحل الشمالى، التى كانت خلال هدنة خروج الروم من الإسكندرية، لكن الارتباك والتناقض في الترتيب جعلا المؤلف يحدثنا - فجأة - عن حزن هرقل على موت حنا قائد كتيبة الخفر[٥]، الذى كان قد ذكره في بداية حديثه عن محاولات المسلمين فتح حصن بابليون[٦]. ويواصل يوحنا النقيوسى عرضه المهتز المتهرّئ للأحداث (والذى لا يمكن أن يكون منه، وإنما من المترجم الحبشى)، فنُفاجأ به يحدّثنا عن مسير عمرو بن العاص إلى الإسكندرية، واستيلائه على كِرْيَوْن في طريقه إليها، وفشل المسلمين في دخول الإسكندرية، وقذف الروم لهم بالأحجار من أعلى الحصن بها[٧]. وذلك كله بعد أن حدثّنا - من قبل - عن فتوحات، تمّت أثناء فترة الهدنة المنعقدة مع الرومان.

(١) تاريخ يوحنا النقيوسى (بالعربية): صـ١٧٥.
(٢) المصدر السابق: صـ١٦٥. وتوجد أمثلة أخرى يتكلم فيها على شخص معيّن في مكان معيّن، ثم يتناول - دون مناسبة - شخصاً ومكاناً آخرَيْن (صـ٨٥-٨٧).
(٣) مقدمة فتح العرب لمصر، لبتلر: ١/ ٢٤.
(٤) تاريخ يوحنا النقيوسى (بالعربية): صـ١٩٨، وما بعدها (الباب رقم ٥٠).
(٥) تاريخ يوحنا النقيوسى (بالعربية): صـ٢٠١، وما بعدها (الباب رقم ٥١).
(٦) السابق: صـ١٨٨.
(٧) السابق: صـ٢٠٧.

جـ- الاستطراد المُخِلّ أثناء عرض الأحداث: ومن الأمثلة على ذلك:

١- إسرافه في تتبع تفاصيل أخبار الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة الإمبراطور قسطنطين بن هرقل[١]، فقطع علينا تسلسل وامتداد أخبار المسلمين في مصر بعد فتح أطرابلس، وبيان كيفية إدارتهم للبلاد.

٢- انتقاله أثناء الحديث الطويل المُمِلّ عن الإمبراطورية إلى استطرادات أخرى مطّولة لا داعى لها[٢] عن تفاصيل عقيدته الدينية بطريقة ممجوجة، قطع سياق الحديث عن أحوال مصر المالية والإدارية تحت حكم العرب. والملاحظ - فعلاً - أن استطراداته العَقَدية متشعبة ومتغلغلة في كافّة أرجاء مخطوطته.

٣- شروحه اللغوية التى يقطع بها سياق رواياته التاريخية: وخير مثال على ذلك:

أنه عندما كان يترجم للإمبراطور الرومانى الغربى: يوليوس قيصر (٣١ ق.م - ١٤م)، وذكر ميلاده، انتهز الفرصة لاستعراض معلوماته اللغوية، فذكر أن أمه ماتت وهى حامل، فشَقُّوا بطنها وأخرجوه حَيًّا؛ ولذا سموه قيصر. ولفظ قيصر معناه: ممزَّق، ومقطوع، ومفصول[٣]. ثم استأنف يوحنا بعد ذلك حديثه عن هذا القيصر، وحياته، وأعماله.

٥- طرق العرض التاريخى وأساليبه:

تنوعّت طرق عرض يوحنا النقيوسى لمادته التاريخية في كتابه، وذلك على النحو الآتى:

١- أحياناً كان يميل إلى ذكر التفاصيل، والبلوغ بالأحداث التاريخية إلى نهاية الشوط ومنتهاه، مثل: عدم اكتفائه بعرض مصير فرعون وجيشه في ملاحقته ومتابعته موسى ومَنْ معه، وإنما ذكر تفاصيل أكثر عن الموقف بعد الغرق، فذكر أن مَنْ كان في مصر من المصريين بعد ذلك، انحرفت عبادتهم وانقسمت وتنوعت، فمنهم مَنْ عبد الشياطين وترك الله، ومنهم من سجد للبقرة أو للثور، أو للكلب. وهكذا تعددت آلهتهم، وسجدوا لما صنعت أيديهم، فكانوا كالملائكة التى عَصَتْ على حد تعبير يوحنا[٤]. ومن قبيل التفصيل الحسن للأحداث - كذلك - وصف يوحنا النقيوسى الدقيق المفصّل لخطة عمرو بن العاص في حصار حصن بابليون[٥]، وكذلك حسن عرضه لنتائج انتصارات المسلمين في نقيوس والإسكندرية[٦].

(١) السابق: صـ٢١٥-٢١٨.

(٢) تاريخ يوحنا النقيوسى (بالعربية): صـ٢١٧.

(٣) المصدر السابق: صـ٨٠.

(٤) تاريخ يوحنا النقيوسى (بالعربية): صـ٨١. ولا شك أن هذا التعبير منه غير صحيح، فالملائكة " لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أمرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ". (سورة التحريم: جزء من الآية ٦).

(٥) تاريخ يوحنا النقيوسى (بالعربية): صـ١٩٣.

(٦) السابق: صـ١٩٦.

٢- أحياناً كان - رغم التفاصيل الكثيرة - يتصف النص بالغموض والإبهام؛ لعدم تعريفه بجزئيات مهمة فيه، وعدم وضوح مدلول العبارات بدرجة كافية. ومثال ذلك قول يوحنا في (تاريخه). وأنا أخبركم - باختصار - بما كان عليه الأقدمون: أهل فيوم. ثم يذكر استعدادات الروم لحفظ المدينة والدفاع عنها. ويتحدث عن المسلمين، فيقول: ثم سار المسلمون إلى الصحراء، وأخذوا كثيراً من الخراف والظباء من الجبل. ولم يعرف أهل مصر هذا. وجاء كل الجنود الذين كانوا عند شاطئ البحر مع يوحنا، ولم يستطيعوا أن يأتوا في هذا الوقت إلى مدينة فيوم.

وسمع تاودوسيوس الحاكم بمجئ الإسماعيليين، وكان يسير من مكان إلى مكان؛ ليرى ما سيكون من هؤلاء الأعداء.وتحدث بعد ذلك عن قتل العرب لرئيس الجند يوحنا ومَنْ معه،وأنهم كانوا قد اختبئوا من العرب، لكن أرمياس أخبر قادة الإسلام بأمر جماعة الروم هذه،فقبض هؤلاء عليهم وقتلوهم[١].

وبنظرة واحدة إلى هذا المقطع من كتاب يوحنا، نلحظ - رغم التفاصيل المتتابعة التى يذكرها - أن بها نواحى عديدة من الغموض كالآتى:

أ- يصرح يوحنا - هنا - بأنه سوف يشرح حال الفيوم وأهلها، وهم يدافعون عنها ضد العرب باختصار. وهذه الكلمة خادعة وغامضة؛ إذ إن ما سيذكره إن هو إلا تفصيل لِمَا أجمله من قبل[٢] عند إخباره عن مقتل يوحنا هذا، وما ذكره من حزن القادة عليه. ولعل يوحنا يقصد بكلمة (إجمال) - هنا - أنه إجمال بالنظر لما لديه من مادة متكاثرة حول هذا الموضوع.

ب- وقوله: ولم يعرف أهل مصر هذا، فيه شئ من الغموض، ولعل معناه: لم يعرف القبط في مصر أن العرب استاقوا الخراف والظباء من الجبل. وما دلالة وأهمية هذا؟ وما نتيجة عدم المعرفة هذه ؟!

جـ- الإسماعيليون. ولم يوضح مَنْ هم ؟! ويقصد: العرب نسبة إلى جدهم إسماعيل عليه السلام.

د- قوله: لم يستطيعوا المجئ إلى فيوم. مَنْ هم؟ العرب أو الروم؟ لعله يقصد كليهما، فالعرب لم يقووا على دخولها، وجزء من الروم لم يقدر على الرجوع إليها؛ لمحاصرة العرب لها. فكل مشغول بالآخر.

هـ- وفى متابعة القائد تاودوسيوس للموقف قال عنه: يسير من مكان إلى مكان. ولم يحدد لنا أى مكان يقصد، وعلى أى نحو كانت متابعته - كقائد - ومراقبته للموقف العسكرى القائم بين قواته وبين العرب.

---

(١) السابق: صـ١٨٩-١٩١.

(٢) تاريخ يوحنا النقيوسي (بالعربية) صـ١٨٨.

و- مَنْ هو أرمياس هذا؟ إنه لم يسبق ذكره في الكتاب، ولم يسبق التعريف به. وهذا ديدنه في ذكر كثير من الأسماء دون توضيح ماهيتها، ولا مكانها الذى تشغله بوضوح! لكن يترجح من الحدث أنه ممن أسلم من الروم، وقام بإرشاد العرب إلى أماكن المختبئين.

٣- وأحياناً كان عرضه المجمل يؤدى إلى نوع من الغموض والنقص:

مثل: اختزاله بعض التفاصيل المهمة، وعدم وقوفه أمامها؛ مما يجعل إجماله في غير محله، ويدفع إلى التساؤل. ومن ذلك تصريحه بوجود نزاع بين تيودور (القائد العام للروم في مصر، والسادة (بقية القادة)[(١)]، ثم لا يشرح لنا منابع هذا النزاع، ولا أسبابه الدامية رغم أهمية معرفة ذلك في ظل المواجهة الطاحنة مع العرب[(٢)].

٤- وأخيراً، كان يوحنا النقيوسى يستخدم - كثيراً - أسلوباً خطابياً: تزداد نبراته علواً عند تناول موضوعات بعينها، مثل:

الحديث عن اضطهادات القبط التى حلّت بهم قديماً، ونصر المسيح لأتباعه[(٣)]. وعندما يصب لعناته على أعداء المسيح بعامة، وأعداء المذهب اليعقوبى،

الذى ينتحله المؤلف بخاصة[(٤)]، وكذلك عندما يتناول ما حَلّ بالروم من هزائم، علا على إثرها نجم العرب في مصر[(٥)].

٦- الجمع بين الحوادث والتراجم في تاريخ يوحنا النقيوسى:

لا يُعَدّ تاريخ يوحنا مقصوراً على سرد الأحداث التاريخية فقط، وإنما أضاف إليها تراجم لشخصيات مهمة من وجهة نظره، وذات تأثير قوى في الأحداث. وكانت له طريقته ومنهجه في إيراد هذه التراجم كالآتى:

أ- اهتم يوحنا بتراجم ملوك الرومان[(٦)]، وإن كانت تراجمه لهم موجزة غالباً، ومشيراً من خلالها إلى أحداث عصرهم المرتبطة بمصر، مركزاً على موقفهم من المسيحية، مورداً أعمالهم وإنشاءاتهم في مصر. وكان - أحياناً - يذكر عُمْرَ الملك

---

(١) تاريخ يوحنا النقيوسى (بالعربية): صـ١٩٢. ويذكر بتلر في (فتح العرب لمصر): ١٩٨/١: أن السبب هو إيقاع تيودوسيوس (حاكم الإقليم الذى فيه الفيوم)، وأنستاسيوس (حاكم الإسكندرية) بين هرقل (الإمبراطور)، وتيودور (القائد العام للروم في مصر)، وإبلاغه هرقل أن تيودور هو سبب قتل القائد حنا، الذى حزن هرقل؛ لأجل فقده كثيراً.

(٢) أمثلة الغموض والإبهام في تاريخ يوحنا كثيرة، مثل: صـ١٩٩، ٢١٠، وغيرها.

(٣) المصدر السابق: صـ٩٥-٩٦، ٩٨، ١٠٠-١٠١، ١٠٥، ١٠٨، ١١٠.

(٤) تاريخ يوحنا النقيوسى (بالعربية): صـ٩٤-٩٦، ١٠٦-١٠٧، ١٣٦-١٣٧، ١٤٥، ١٥٣-١٥٤، ٢٠٢-٢٠٣، ٢١٨.

(٥) السابق: صـ٢١٢-٢١٣.

(٦) وذلك بدءاً من الباب العشرين في (تاريخ يوحنا النقيوسى): صـ٩٠، وما بعدها.

عند وفاته، وفى أى عام من أعوام حكمه مات.

ب- ويهتم - كذلك - بالحديث عن مدى عدالة هذا الملك، وموقفه من فرض الضرائب على الناس، ومنجزاته التشريعية، والتعميرية في مصر[(١)].

ويتناول - أيضاً - مَنْ يخلفه من بعده. وكان لا يحدد - أحياناً - مصدر الترجمة، فيدعه غامضاً غير محدد، فيقول: حكى عنه المؤرخون[(٢)].

ج- وأحياناً يذكر داخل الأحداث العامة الرئيسية تراجم ثانوية لبعض الأشخاص، مثل: ترجمته المختصرة عن المترجِم والبطريق، اللذين سجلا عقد الصلح بين يوستنيانوس والفرس[(٣)].

د- الاهتمام بمواصفات القادة من الناحيتين البدنية والقدرات العسكرية:

إذ يصف (لونديوس) أحد قادة الرومان الفاشلين في مواجهة العرب في مصر بأنه بدين، لا يعرف شئون الحرب[(٤)]. وهذا يدل على اعتماد الحرب زمانهم - وكل زمان - على اللياقة البدنية العالية، وإتقان الفن العسكرى.

هـ- الاهتمام بوصف النواحى النفسية لقادة الروم عند الحديث عنهم ولو بطريق التلميح:

بعد أن صرّح بوجود نزاع بين القادة الرومان في مصر، أضاف إلى ذلك ما يفيد أنهم كانوا - إلى جانب تشرذمهم وتفرقهم - مستخفّين بمقدرة العرب الحربية، غير مستعدين ولا آبهين بها. ودليل ذلك قوله: وكان تيودوسيوس وأنستاسيوس كلاهما قدم إلى مدينة (أون) = عين شمس) ممتطِين فرسيْن مع كثير من المشاة؛ لمحاربة عمرو والإسلام[(٥)].

٧- المبالغة في وصف العقوبات، والتوسع في استخدام الأساطير والنبوءات في كتاب يوحنا:

أ- ومن هذه المبالغات الكبيرة الإغراق في ذكر العقوبات في ذلك العصر. ومن ذلك الذى يعمر به كتاب يوحنا:

ما يتصل بالمرأة الفيلسوفة الوثنية الساحرة المعروفة باسم أنباديا (٣٧٠-٤١٥م)، التى جذبت الناس، وساعدها اليهود على إغراق الناس في الانحراف عن عقيدتهم

---

(١) من الأعمال الحضارية التى اهتم بذكرها يوحنا في (تاريخه): جهود معمارية للملوك القدامى (صـ٥٢-٥٣)، وأعمال القائد الرومانى (أرسطوماكوس) في عهد هرقل بالقسطنطينية، مثل: شق قنوات المياه، وصهاريج المياه النحاسية، وغيرها (صـ١٥٩).

(٢) تاريخ يوحنا: صـ٩٠.

(٣) السابق: صـ١٥٢.

(٤) السابق: صـ١٩١.

(٥) السابق: صـ١٩٢.

المسيحية الأرثوذكسية. فكان أن قُبض عليها، وعوقبت بنزع ملابسها، وسحبها في شوارع المدينة حتى ماتت، ثم أحرقوا جسدها بالنار(١).

وكذلك الحديث عن فوكاس والفظائع، التى اقترفها ضد المدنيين في أنطاكية أثناء صراعه مع هرقل على عرش الإمبراطورية. وتنوعت العقوبات بين: الخنق، والإحراق بالنار، والإغراق في الماء، والرمى للسباع، والقتل بالسيف، وإلحاق الشر بالرهبان ودير العذارى. ومَنْ تساهل معه اكتفى بنفيه مدى الحياة(٢)، إلى جانب أدوات التعذيب الكثيرة من السلاسل والقيود، وغيرها(٣). وبعد أن سقط فوكاس وانهزم قُبض عليه، وذاق من العذاب ألواناً، إذ قطعوا مذاكيره، وسلخوا جلده إلى ساقيه، للعار الذى ألحقه بإحدى الكريمات، ثم أُحرق جسده وذَرّوا رماده للريح؛ كراهية من الناس له(٤).

ويُعلِّق بتلر على التمثيل بأجساد الموتى، وما في هذا العصر من فظائع العقوبات بقوله: ولم يكن هذا عيب هرقل، لكنه عيب العصر كله(٥).

ب- وكان للأساطير والخرافات وما يُسمى بالكرامات مكان واسع في تاريخ يوحنا: ومن أمثلة ذلك:

ما ذكره عن عصر (أندريانوس الرومانى، وهو الإمبراطور تراجان ٩٨-١١٧م)، والاضطهادات التى تعرّضت لها المسيحية أيامه فاهتم بإيراد كرامات القديسين والقديسات الذين واجهوا التعذيب بالثبات والصبر الجميل، كأولئك القديسات اللاتى أُلقين في النار حتى احترقن، ثم جُمع التراب الذى كان فوق أجسادهن ووضع في الحمّام، فكان كل مَنْ يغتسل في هذا الحمام يسقط، حين يشم الدخان المتصاعد من هذا التراب المقدس(٦). وكان يوحنا النقيوسى لا يتورع عن ذكر الخرافات(٧) دون

---

(١) تاريخ يوحنا النقيوسى (بالعربية): صـ١٢٧-١٣٠.
(٢) السابق: صـ١٧١.
(٣) السابق: صـ١٧٥.
(٤) السابق: صـ١٨٧.
(٥) فتح العرب لمصر: ١/ ٣٧.
(٦) تاريخ يوحنا: صـ٨٥-٨٦.
(٧) ومن ذلك قول يوحنا في (تاريخه) صـ٢٠١: وكان الناس يقولون: مات هرقل بسبب ختم الدينار الذهب بصور ثلاثة ملوك: إحداها - صورته، والاثنتان - صورتا ابنيه: واحد من الجهة اليمنى، والآخر من اليسرى. ولم يجدوا مكاناً يكتبون فيه اسم مملكة الروم. وبعد موت هرقل طمسوا الصور الثلاث (فكأن ذلك فأل سيئ بموته). ومن الخرافات التى ذكرها متصلة بالمسيحية: أسطورة مِنْديل وزنّار المسيح، الذى ظهر كعمل مخيف وعظيم جدّاً، وغريب إلى حد بعيد بالإسكندرية، إذْ كان ذلك المنديل والزِنار (الذى تزنّر به المسيح عندما غسل أقدام مريديه) في بيت مملوك ليهودى داخلَ صندوق نحاسى مغلق، أعطاه إياه قريب له. وكان هذا اليهودى إذا مسّه يريد فتحه، نزلت نار تريد إحراق مَنْ يريد فتحه. وكان يسمع كلام الملائكة ترتل لمن صُلب فوق الصليب: إن الرب مَلَكَ =

تعليق ما اتصلت بالإمبراطورية البيزنطية، وإن كان يعترض على بعضها - أحياناً - خاصة إذا كانت الخرافة بعيدة عن مجال إثبات قدرة وعظمة المسيح وأتباعه[١].

جـ- وكان للنبوءات دورها الكبير في تشكيل عقلية رجال الدين المسيحى، وكان المؤرخون منهم يستخدمونها - كيوحنا النقيوسى - في تواريخهم، مثل: نبوءة تاوفيلوس بانتصار هرقل على فوكاس[٢]، ومثل: نبوءة موت قيرس (المقوقس)، وعدم تصديق الناس لمجمع الكنيسة والرهبان، ثم تحققها بعد ذلك[٣].

٨- معلومات جديدة أضافها يوحنا في تاريخه، ولعلها مما انفرد به:

أ- ما ذكره عن وقوع الإسكندر الأكبر في الأسر على يد الملكة الحبشية كنداكة، لمّا دخل بلادها متنكراً في ثوب جاسوس مختلطاً ببقية الجواسيس، لكنها عرفته وأسرته، فوعدها خيراً وتزوجها، فخضعت بلادها له[٤].

ب- أن بعض اليهود في مصر أعان المسلمين، وأرشدهم أثناء حركة فتوحهم لها[٥]. وهو ما لم تذكره المصادر القديمة، والمراجع الحديثة فيما أعلم[٦].

جـ- حقيقة وجود نوع من الخلاف والصراع بين قادة الرومان في مصر؛ مما أدى إلى انقسامهم[٧]. وتفاصيل الصراعات في الإمبراطورية، وانعكاس ذلك على انهيار موقف الروم في مصر[٨]، إلى جانب انقسام أهل مصر أنفسهم بين تأييد العرب وتأييد الروم، وخلافاتهم الداخلية الحادّة، وصراعاتهم المذهبية الدامية في الإسكندرية، وغيرها[٩].

= المجد. فأخبر اليهوديُّ وأهْلُه البطريكَ (طيماوتاوس السكندرى) فتوجّه - في الحال - هو ومَنْ معه حاملين صلباناً، وأناجيل، ومباخر، ومصابيح شمع مضيئة. وفى الحال فتحوا الصندوق، وأخذوا ما به في إجلال وتعظيم، وأحضروا المنديل والزنار إلى مسكن بطريركيته، واحتفظوا بها في كنيسة بالإسكندرية. يقول يوحنا: وغطاء صندوق النحاس الذى كان به المنديل والزنار نزل مَلَكٌ من السماء، وأغلقه إلى اليوم. (تاريخ مصر ليوحنا): صـ١٤٧.

(١) السابق: صـ١٦٧. وعلّق يوحنا عليها قائلاً: وهؤلاء كذبة، ولا دليل على كلامهم.

(٢) السابق: صـ١٨٠.

(٣) السابق: صـ٢١١، ٢١٤: وذلك عندما قرأ المرتّلون في يوم عيد القيامة، الذى عاد فيه قيرس إلى الإسكندرية قُدّاساً غير مناسب، فعُدّ ذلك فألاً سيّئاً، تنبئوا بسببه أن قيرس لن يشهد مثل هذا العيد في العام القابل.

(٤) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى (بالعربية): صـ٧٨-٧٩.

(٥) السابق: صـ٢٠٦.

(٦) فالمشهور أن بعض القبط هم الذين ساعدوا العرب في فتوحهم.

(٧) السابق: صـ٢٠٧.

(٨) السابق: صـ٢١٠، ٢١٤.

(٩) السابق: صـ٢٠٧-٢٠٨.

٩- الاهتمام بالإحصاء، واستخدام الوثائق:

أ- فيما يختص بالإحصاء:

اهتم يوحنا النقيوسى في بعض مواطن تاريخه بما تَمّ من إحصاء لأعداد المصريين في عهد الفرس؛ لأجل حصر الضرائب المطلوبة، فبلغوا ٥٠٠ ألف نسمة بعد عودة أسرى المصريين من بلاد الفرس(١).

وكذلك اهتم يوحنا بإحصاء عدد الناجين من معارك حصن بابليون بين العرب والروم، فذكر - تحديداً - أنهم ٣٠٠ فرد من الجنود، تمكنوا من الفرار إلى داخل الحصن، وأغلقوا الباب عليهم، ثم لمّا وجدوا القتل يتهددهم، انتهزوا فرصة تمكنوا خلالها من الفرار في السفن إلى نقيوس، وهم في حزن شديد(٢).

ب- وبالنسبة للوثائق:

ذكر يوحنا نص رسالة أرسلها الملك جوفيانوس (٣٦٣-٣٦٤م) بعد انتصاره على الفرس إلى القديس أثناسيوس الحوارى بطريرك الإسكندرية، يدعوه فيها للعود إلى مدينة الإسكندرية ثانية؛ فقد تم انتصار الروم على الفرس، مظهراً له إعجابه بسيرته، وحكمته وفضائله الصادقة، واهتماماته الطيبة بعمل المسيح، (له المحبة). وخاطبه الملك قائلاً في بقية رسالته: أيها المشرّع الكبير، نريد أن تتقبل كل المتاعب والمصائب التى أصابتك، فقد اعتبرتَها لا شئ، وسرتَ في أثر العقيدة الأرثوذكسية حتى النهاية، وادّخرتَ جهادك لمن بعدك، وربطتهم بالعقيدة والعمل الصالح. ثم طلب إليه أن يصلى للرب من أجلهم، ومن أجل مملكتهم، فهم يُعوِّلون على النجاة بصلاته، وسينالون العون من الرب العلىّ بابتهال لسانه الطاهر المقدس؛ لأنه لسان متحدث بروح القدس. وأردف قائلاً: نريد أن تنير للشعب بنور المسيح، وتقضى على الأصنام أعداء الرب، وعلى شكوك الآريوسيين الذين نفيناهم؛ لتنجو بصلاتك(٣).

وهكذا، بدأ اهتمام يوحنا بإيراد تفاصيل الوثيقة لاعتبارات دينية، على رأسها: إبراز مكانة البطريرك في نظر الملوك.

١٠- مدى وجود الحس الزمنى والمكانى في تاريخ يوحنا:

ونقصد بذلك مدى قدرته كمؤرخ على تحديد زمن وقوع الحوادث التاريخية، وإدراك جغرافية المكان الذى تشهده الأحداث. والحق أن يوحنا أورد كثيراً من الأحداث التى وقعت في مناطق شتى، ولم يكن يحدد زمن وقوعها، أو يحدد بطريقة

---

(١) السابق: صـ٧٣.
(٢) تاريخ يوحنا (بالعربية): صـ١٩٣-١٩٤.
(٣) السابق: صـ١١٧.

واضحة مكان الحدث، لكنه في الوقت نفسه كان يهتم - أحياناً - بكلا الجانبين الزمانى والمكانى. وتفصيل ذلك كالآتى:

١- بالنسبة للتحديد الزمانى:

أ- اهتم يوحنا بتحديد زمان ومكان وظروف مولد السيد المسيح ﷺ، فقال: ولد في العام الثانى والأربعين من حكم أغسطس سيدنا ومُخلّصنا يسوع بالجسد في بيت لحم في يهوذا. وهو في السماء إله بحق. له المجد. ولد في الأيام التى صدر الأمر فيها بأن كل العالم يجب أن يُسجَّل (يُحْصَى كل مَنْ تحت حكم الإمبراطورية الرومانية)؛ لأداء الضرائب(١).

ب- اهتمامه بتوقيت حدوث الزلزال العظيم، الذى وقع في عهد الملك يوستنيانوس، واحتفال المصريين بذكراه كل عام في السابع عشر من شهر طقمت(٢).

جـ- حدّد توقيت الاستيلاء على جزيرة نقيوس بدقة ملحوظة، فقال: استولى المسلمون عليها في يوم الأحد الثامن عشر من شهر جنبوت(٣) في الخامس عشر من الدورة(٤).

د- في أحداث فتح بلاد الساحل الشمالى في مصر، ذكر يوحنا بعض معارك المسلمين هناك، بأنها كانت في الشهر الخامس عشر القمرى(٥).

هـ- تحديده وقت وفاة هرقل بعد مرضه بالحُمّى، وذلك في العام الحادى والثلاثين من حكمه في شهر يكابيت عند المصريين(٦).

و- تحديده وفاة قيرس (المقوقس)(٧) قبل انتهاء هدنة صلح الإسكندرية، إذ بعد وفاته بفترة انتهت الهدنة، وانسحب بقيّة الرومان بجنودهم(٨). كما حدد موعد ولاية

---

(١) تاريخ يوحنا (بالعربية): صـ٨٣-٨٤.

(٢) السابق: صـ١٤٤-١٤٥. وذكر د. عمر صابر بهامش ٢ من صـ١٤٥: أنه شهر حبشى يبدأ في ٢٨/٩، ويقابله شهر (بابه) من الشهور الشتوية القبطية.

(٣) هو الشهر التاسع من الشهور الحبشية، ويقابله الثامن من مايو (ذكره د. عمر صابر بهامش ٢ صـ٢٠٦)، نقلاً عن كتاب: Charles , P. I88. N. 2

(٤) يقابل هذا أنها فتحت في ١٣ مايو سنة ٦٤١م. (فتح العرب لمصر لبتلر: ٢/ ٤٧٤ (فى الملحق الرابع).

(٥) تاريخ يوحنا: صـ١٩٨. ولا أدرى ماذا يقصد بهذا بالضبط. ولعله يعنى أنها تمّت في الشهر الخامس عشر من الشهور العربية من قدوم العرب إلى مصر فاتحين.

(٦) شهر يكابيت هو الشهر الإثيوبى السادس، ويقابله ٧ فبراير. (هامش ٢ صـ٢٠١ بتاريخ يوحنا، نقله الباحث عمر صابر عن كتاب تشارلز صـ١٨٤ رقم ٣). وحدّد بتلر وفاة هرقل في ١١ فبراير ٦٤١م قبل فتح حصن بابليون بشهرين (فتح العرب لمصر: ١/ ٢٦١ بالهامش).

(٧) توفى ٢١/٣/ ٦٤٢م (ذكره بتلر في كتابه بجدول الأحداث التاريخية): ١/ ٤٠.

(٨) تاريخ يوحنا: صـ٢١٨-٢١٩.

البطريرك بطرس، الذى ولى شئون الكنيسة بعد قيرس، بأن ذلك كان بعد عيد الصليب في العشرين من حملى من عيد القديس تيودور الشهيد، وفيه أجلسوه على كرسى البطريركية[١]. وفي العشرين من شهر مسكرم[٢]، قام تيودور مع الجنود والرؤساء، وغادروا مصر نهائيّاً، وساروا إلى جزيرة قبرص، وتركوا الإسكندرية[٣].

٢- التحديد المكانى:

أ- أحياناً كان يوحى للقارئ بأنه غير قادر على التصوير الجغرافى والتحديد المكانى، الذى تجرى عليه الأحداث، فمثلاً: أثناء وصفه عمليات الفتح الإسلامى، وبعد ذكره مدينة ذات النهرين (التى لا نعرف ماهيتها)، واصل تجهيله الجغرافى، فذكر أن العرب ساروا بعد ذلك إلى مدن أخرى؛ ليحاربوها[٤]. هكذا، دون تحديد أو توضيح لهذه المدن، وتعريف بمكانها.

ب- وإن كان ذلك لا يمنع أحياناً من أنه كان يحدد المكان، ويشرحه كقوله عن موقعة (عين شمس)، فيذكر أنها هى (أون)، والتى كانت أعلى الجبل[٥]؛ مما يدل على أن اسم (عين شمس) مستحدث استحدثه العرب تقريباً.

١١- بعض الأخطاء التاريخية:

أ- قول النقيوسى: إن العرب لم يعرفوا مدينة مصر قبلاً[٦]. وأعتقد أن هذا القول غير دقيق، فقد كانوا يحاصرون حصن بابليون بها، فكيف لا يعرفونها ؟!

ب- وذكر يوحنا: أن عمرو بن العاص أرسل رسالة إلى عمر بن الخطاب ﷺ وهو بفلسطين؛ ليرسل إليه إمداداً وهو محاصر حصن بابليون[٧]؛ ليتمكن من مجابهة الروم وفتحه. ويغلب على الظن أن عمر بن الخطاب كان بالمدينة لا بفلسطين؛ لأنه عاد إلى المدينة بعد فتح بيت المقدس.

(١) المصدر السابق: صـ٢١٨ (هامش رقم ٤) صـ٢١٩. وشهر حملى يقابل ٢٦ يوليه. وذكر بتلر: أن بطرس ولى منصبه في ١٤/ ٧/ ٦٤٢م (فتح العرب لمصر بجداول الحوادث التاريخية ١/ ٤١).

(٢) يبدأ هذا الشهر في ١٠ سبتمبر (ذكره د. عمر صابر في هامش ١ صـ٢١٩ من تاريخ يوحنا نقلاً عن تشارلز في كتابه صـ٢٠٠ رقم ٢).

(٣) المصدر السابق: صـ٢١٩. وذكر بتلر في جدول حوادث التاريخ في (فتح العرب لمصر) ١/ ٤٠: أنهم غادروا مصر ١٧/ ٩/ ٦٤٢م.

(٤) تاريخ يوحنا: صـ١٩٩.

(٥) السابق: صـ١٩٣.

(٦) السابق: صـ١٩٢.

(٧) تاريخ يوحنا: صـ١٩٣.

١٢- مدى القدرة على تفسير وتعليل الأحداث:

أثبت يوحنا النقيوسى أن لديه قدرة لا بأس بها بالنسبة لعصره الذى عاشه، على أن يكون مؤرخاً ذا حضور وتفاعل مع الأحداث التاريخية، وأنه له مقدرة على إبداء رأيه فيها وتعليقه عليها، وذلك كله من منظوره الشخصى، وروحه الدينى، وطبيعة نظرته الدينية إلى الأشياء.

وقد تنوع مسلكه التعليلى للأحداث على النحو الآتى:

١- تعليلات قدرية دينية:

يوحنا يدافع - مثلاً - عن بنى إسرائيل، الذين خرجوا مع موسى ﷺ، عندما أخذوا أموال المصريين معهم لدى خروجهم قائلاً: إن ذلك كان برضاً وعدل من الله؛ لأن بنى إسرائيل أخذوا هذه الأموال عوضاً عن الأعمال الشاقّة التى كلّفوهم بها سلفاً دون توقف[١].

وكذلك نسبته انتصار المصريين على المعتدين على بلادهم الوافدين من المدن الخمسة (لعلها برقة)، إلى الله الذى يصنع كل شئ[٢]. ولا شك أن الله هو حقيقة الحقائق كلها، لكن مجرد الاكتفاء من المؤرخ بالوقوف عند التعليل القدرى وفقط أمر غير مقبول تاريخياً، ويجب أن يُعنّى ذهنه في معرفة الأسباب المادية الأخرى الفاعلة، والظروف المحيطة بالحدث التاريخى المحرّكة له بأمر الله (تعالى).

وكذلك تعليله ووصفه ما حَلّ بأعداء المسيح من أدواء وأمراض بأن هذا نتيجة عصيانهم للمسيح، فهو عقاب إلهى له، كما علّل ما وقع للمؤمنين من الاضطهادات والتنكيل بأنه كان لجهد الشيطان الشرير الذى يسئ - دوماً - إلى المؤمنين[٣].

وإذا وقعت في مصر فيضانات، علّل ذلك بأنه من غضب الرب، وأنها لا تُدْرَأُ إلا بالابتهال والصلوات[٤].

وإذا وقعت فرقة بعد توحد، وخلاف وشقاق بعد اجتماع والتئام، علّل ذلك بأنه بسبب تدخل الشيطان بينهم، وإفساد توحدهم. لكنه عاد واستدرك، فذكر أن العداء بين أهل الشرق والمسيحيين في مصر إنما يعود إلى خلاف بين رجال الدين في (القسطنطينية، والإسكندرية)[٥]. وإذا انحلّت عُرَى الحكم والسيطرة والقوة في عهد ملك من الملوك أو حاكم من الحكام؛ فإنه يعلل فساد الحكم من وجهة نظر دينية

(١) المصدر السابق: صـ٦١.
(٢) السابق: صـ٦٣.
(٣) تاريخ يوحنا: صـ٩٦، ١٠٧.
(٤) السابق: صـ١١٩.
(٥) السابق: صـ١٢١، ٢٠٧.

بحتة، كالتطلع إلى شهوات المال، والنهب، والاستيلاء المحرم على ممتلكات الآخرين، إلى جانب خِصال رذيلة يتدنّى إليها الحاكم وبها يتصف، مثل: الكِبْر، والزهو، والخُيَلاء[١]. ولم يكن ذلك وقفاً على أحداث التاريخ القديم، ونظرة يوحنا التأملية فيه، وإنما امتد-كذلك- إلى قسم فتوح مصر في عهد المسلمين كالآتى:

١- علّل هزائم الروم المتوالية، وانهيار دفاعاتهم، وانقسام قادتهم على أنفسهم أمام العرب بقوله: " إن هذا كان من الرب "[٢]. أى: كأنه يريد أن يقول: إن الذى حَلّ بالإمبراطورية كان عقاباً من الله لهم على ما اقترفته أيديهم في حق القبط المستضعفين من الأرثوذكس قبل ذلك.

٢- والشئ نفسه يستخدم في التعليق على أحداث ضياع حصن بابليون، إذ يسند ذلك إلى الله الذى يعاقب الرومان وغيرهم من أعداء المذهب الأرثوذكسى، وبسبب عصيان الآريوسيين المنحرفين، الذين فعلوا بالقبط الأرثوذكس ما لم يفعله الوثنيون والبربر (يقصد: العرب) بهم[٣].

٢- تعليلات منطقية عقلية:

وذلك يقع من المؤلف على فترات متباعدة وعلى استحياء. ومن دلائل ذلك في فترة ما قبل الفتح الإسلامى لمصر:

أ- تعليل يوحنا تخريب نبوخذ نصر البابلى لممتلكات اليهود ومدنهم: أنه كان جبّاراً امتلك العالم كله[٤]، فهو يتصرف فيه كما يحلو له.

ب- وفسّر الهجمات التى تعرضت لها مصر من أعدائها قبل الإسلام، بأن ذلك يرجع إلى أن أرضها حسنة جدّاً بعون الله[٥]. فكأن مطامع الأعداء في غناها وثرواتها دفعتهم إلى ذلك الاعتداء.

جـ- الأسباب العقلية والمادية المفصّلة، التى أوردها وفسّر بها انتصار نقيطا قائد جيوش هرقل على فوكاس عدوه ومنافسه على زعامة الإمبراطورية[٦].

ومن دلائل ذلك في أخبار فتوح مصر:

أ- تعليل تحصن الروم في حصن بابليون، وانتظارهم عودة تبودور قائدهم بجيوشه لقتال المسلمين سريعاً، وذلك قبل أن يرتفع ماء النهر (يفيض النيل)، ويبدأ الناس

---

(١) السابق: صـ١٥٦-١٥٧.
(٢) تاريخ يوحنا صـ١٩٠.
(٣) السابق: صـ٢٠٤.
(٤) السابق: صـ٦٦.
(٥) السابق: صـ٧٤.
(٦) تاريخ يوحنا: صـ١٨٠-١٨١.

زراعتهم، فعندها لا يستطيعون الحرب؛ حتى لا تتلف زروعهم، ويموتوا هم والصغار، وحتى لا يهلك الحيوان(١).

ب- تعليله فشل عمرو بن العاص في محاولاته الأولى للسيطرة على المدن الساحلية الشمالية؛ لأن المياه كانت حاجزاً، ولم تستطع أفراس العرب أن تدخل في غمارها، فالمياه تحيط بهذه المدن؛ مما اضطرهم لتركها مؤقتاً، وعادوا إلى بوصير فحصّنوها هى والطرق، التى استولوا عليها من قبل(٢).

جـ- تعليلاته المنطقية لهزائم الرومان خلال فتوحات المسلمين لمصر، خاصة فتح نقيوس وما تلاه من المدن، فيشير إلى فساد الحكام ومعاقرتهم الخمر، حيث وجدهم المسلمون غارقين في سكرهم، وكانوا من أقارب تيودور القائد العام لقوات الرومان في مصر(٣)؛ مما يدل على الشللية في تولية المناصب، وفساد أسس الاختيار لها. هذا إلى جانب ما ذكره في مواضع أخرى خلال حروب المسلمين حول بابليون والإسكندرية من الصراعات الدامية بين قادة الروم، وثورات أهل الوجه البحرى من القبط، والسلام الذى لا يكاد ينعقد حتى ينشب صراع آخر في مكان آخر خاصة في الإسكندرية(٤).

ويلاحظ أن يوحنا لم يكن التعليل والتعليق على الأحداث ديدنه في كافّة ما ذكر من روايات، فقد كان - أحياناً - يكتفى بالسرد دون تعليل كافٍ في مواضع أحوج ما تكون إلى الدرس والتحليل. ومن ذلك:

عجزه عن معرفة أسرار الصراعات والخلافات المستمرة بين الأحزاب المتناحرة في الإسكندرية وغيرها من أقاليم مصر، واكتفاؤه بشمّاعة الخلاف الدينى العقدى(٥)، رغم أن هناك - ولا شك - أسباباً مادية مهمة، ترتبط بهذا الصراع والعداء المستحكم، الذى يَسّر للعرب الانتصار على الرومان.

٣- قدرته على الربط بين الأحداث التاريخية المتناظرة:

وهو نوع من الربط بين أحداث التاريخ المتعددة عبر مراحل زمنية مختلفة؛ لوجود تشابه بينها من وجهة نظر المؤرخ. فمثلاً:

شبّه يوحنا ما حدث من ظلام ساد القسطنطينية من الصباح حتى المساء، لمّا ولى مرقيانوس الإمبراطورية (٤٥٠-٤٥٧م)، حتى فزع الناس وبكوا، وظنوا نهاية العالم قد

---

(١) السابق: صـ١٩١.
(٢) السابق: صـ١٩٧.
(٣) السابق: صـ٢٠٥-٢٠٦.
(٤) تاريخ يوحنا: صـ٢٠٧، وما بعدها.
(٥) السابق: صـ٢٠٩، وما بعدها.

دنت، شَبّه ذلك بما حدث في مصر أيام موسى عليه السلام[١].

وأحب أن أنبه إلى أن مؤرخنا يوحنا النقيوسى لم يكن - دوماً - موفّقاً في ذلك الربط؛ لانفكاك الجهة بين الأحداث التى يربط بينها كما يقول المناطقة. ومثال ذلك:

أنه جعل حفر خليج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب واشتراك القبط في ذلك، كتسخير فرعون لبنى إسرائيل، وظلمه الفظيع لهم. وأن ما حَلّ بالمسيحيين من عقاب على أيدى المسلمين إنما هو لخطاياهم. وهو - بعد ذلك- يأمل في نصرة المسيح ضد أعداء الصليب (العرب)[٢]. وعلى المنوال نفسه زعم يوحنا أن الفظائع التى ارتكبها المسلمون في نقيوس لمّا فتحوها، تشبه ما فعلوه في قيسارية بفلسطين[٣]. وكأن العرب قوم سفاحون!

١٣- تحيزه وتعصبه الدينى الفظيع، وبعده عن الإنصاف:

والحق أن شخصية يوحنا النقيوسى رجل الدين المسيحى الأرثوذكسى المتعصب تنعكس وتتضح في كل صفحة من صفحات كتابه تقريباً، فهو يصب جام غضبه على كل مخالفيه - وإن لم يكونوا من مناوئيه - في العقيدة بدءاً بالرومان الوثنيين، ومروراً بالمسيحيين المخالفين في المذهب، وانتهاء بالعرب المسلمين الفاتحين. وهو في سبيل ذلك لا يتورع عن المغالطات التاريخية الفاحشة، والافتئات على الحقائق التاريخية دون مواربة.

هذا، وقد اتخذ تحيزه المرفوض، وبعده عن الحَيْدَة والنزاهة والموضوعية عدة صور وأشكال على امتداد كتابه، نركزها في النقاط الآتية:

١- فيما يتصل بتاريخ ما قبل الإسلام في مصر:

أ- التوسع والمبالغة في عرض اضطهادات المسيحية بعامة، ومذهبه الأرثوذكسى بخاصة:

وقد عرضنا لجانب من هذه الاضطهادات فيما مضى. ويمكن أن نضيف إليها - هنا - فظائع دقلديانوس واضطهاداته للمسيحية في مصر[٤]. وقد كال له يوحنا ما قدر عليه من السباب والشتائم: من النفاق الدينى، والاضطهاد للمؤمنين، وأنه الظالم الأكبر الذى اجتمع فيه كل الظُّلَمة، وأنه وأعوانه أحرقوا كل شئ، وأن جنده وموظفيه سفّاحون آكلون للحوم البشر، إلى غير ذلك من المبالغات[٥].

(١) تاريخ يوحنا: صـ١٣٤.

(٢) السابق: صـ٢١٣.

(٣) السابق: صـ٢٠٦.

(٤) أفرد يوحنا لهذه الاضطهادات صفحات طوالاً في (تاريخه)، منها: إفراده الباب الحادى والعشرين الذى يعد من أطول أبواب الكتاب في معظمه لعرض هذه الاضطهادات (صـ٩١-١١٠).

(٥) السابق: صـ٩١-٩٢.

وبلغ من مغالطات يوحنا وتعصبه لمذهبه الأرثوذكسى، أن جعل صراع المسيحيين المؤمنين بمذهبه ضد دقلديانوس صاحب المذهب المسيحى المعادى، صراعاً بين المؤمنين والكفار، رغم أن الأرثوذكسية كمذهب مسيحى لم تكن قد ظهرت بعدُ؛ إذ إنها ظهرت بعد انتهاء الاضطهادات، ونشوء الجدل حول طبيعة المسيح، ﷺ(١).

وكذلك ما ذكره يوحنا عن الآثار الدموية لمجمع خلقيدونية على الأرثوذكس في مصر، إذ قرر المصريون صحة الإيمان بالطبيعة الواحدة للمسيح، ونتج عن ذلك صدام مسلح بين الطرفين، وقع فيه ضحايا كثيرون. ووقف يوحنا يناصر بنى مذهبه، حتى بعد أن قتلوا الحاكم البطريرك المعيّن من قِبَل خلقيدونية(٢).

ب- المبالغة في وصف فضائل المسيحيين، والتناقضات العقدية الواضحة:

تحركت روح التعصب والمغالطة في نفس يوحنا النقيوسى، فبالغ في إبراز فضائل المسيحيين، ولو كان ذلك على حساب المعروف من حقائق التاريخ. فقد أبرز عقاب الرب الذى أنزل فوق رأس دقلديانوس الظالم، وتغيّرت حاله، وفسد عقله ،وهام على وجهه في جزيرة نائية، حيث لقيه بعض المسيحيين الذين فروا من عسفه وجوره، فأحسنوا إليه لمّا علموا بمرضه، وفَقْده منصبه(٣). وقد أغرق يوحنا وأسرف في وصف ما حَلّ بعقل دقلديانوس وذاكرته مما تتقزز من سماعه النفوس، وتتقيأ من ترداده، ثم ما ناله من بؤس وذل، لمّا رفضوا إعادته إلى الحكم، وانتهى به الأمر إلى إصابته بالعمى، ثم الموت(٤).

أما التناقضات العقدية الواضحة، التى تبرز تناقض عقيدة يوحنا، ناهيك عن فسادها - وهو مالا نناقشه هنا - فهى كالآتى:

١- جعل المسيح عيسى هو الإله والمخلّص لهم من كل سوء، والشافى من المرض(٥)، وجعله معبوداً يعبده المسيحيون(٦)، وجعله ملك الملوك وسيد الأسياد(٧).

٢- تحدث عن قدرة سيدهم يسوع المسيح، وجعله ابناً للرب، وجعله المعبود

(١) أورد ذلك د. عمر صابر في (السابق) صـ٩٣ (هامش ٢).
(٢) تاريخ يوحنا صـ١٣٥-١٣٦.
(٣) المصدر السابق: صـ٩٤.
(٤) السابق: صـ٩٥. وعلّق د. عمر صابر في هامش ٤ من صـ٩٤-٩٥، قائلاً: إن ذلك يناقض المعروف من المصادر من أن دقلديانوس هو الذى اعتزل العرش سنة ٣٠٥م بعد مُضىّ عشرين عاماً، حدّدها لنفسه في الحكم، وحَلّ محله إمبراطوران مساعدان برغبته.
(٥) تاريخ يوحنا: صـ٩٥-٩٦.
(٦) السابق: صـ٩٨.
(٧) السابق: صـ١٠٠.

بحق، وخلع عليه أوصافاً إلهية: فهو الذى عليه يتوكلون، وهو صانع المعجزات وحده[١].

وهكذا، جعله ربّاً، وابناً للرب في آنٍ! وهذا نوع من الخبل والخطل، والاضطراب في الفكر، والانحراف الخطير في العقيدة.

٣- له اعتقاد خاص في قضية جسد المسيح، نقله عن آبائه هو: أن جسد المسيح لم يكن فاسداً قبل يوم القيامة، وجعله يتقبل الألم بإرادته حتى الموت، وأنه بعد القيامة كان غير ميت وغير متألم[٢].

٢- فيما يتصل بتاريخ مصر بعد مجئ الإسلام إليها:

أ- في متابعة يوحنا النقيوسى نتائج معركة عين شمس، ذكر هروب القائد الرومانى دومنديانوس وفراره ليلاً من بُوَيْط إلى نقيوس. ونتيجة لذلك دخل المسلمون الفيوم وبويط بسهولة، ثم أراقوا دماً غزيراً[٣]. وهذا - كما هو واضح من النص - محض افتراء على المسلمين؛ لأن المنطق يؤكد خلاف ما ذكر؛ إذ كان دخول العرب هاتين المدينتين سهلاً ودون مقاومة، والجيش فَرّ أمامهم، فلِمَ تكون - إذن - إراقة الدماء ؟! إنه يحاول أن يصفهم ويصورهم على أنهم سفّاحون؛ بدافع كرهه العقدى لهم.

ب- ادعاء يوحنا أن عمراً سخّر القبط، وبعض قادة الروم لخدمة المسلمين، بل أسر بعضهم ووضعهم في الأغلال والقيود، بالإضافة إلى اتهامه عمراً بنهب الأموال، وفرض الضرائب الباهظة على الناس[٤]. ويتجاوز كل الحدود، فيصف عمراً بأنه مُفترس. ولا يسلم منه الذين أسلموا من المصريين، ويجعلهم جاحدين عقيدة المسيحية، وينسب إلى عمرو أنه استولى على كل أموال المسيحيين الفارّين. ولا شك أن كل هذه الاتهامات لا دليل عليها. وهى مما ينفرد به يوحنا؛ مما يدل على تحيزه وافتئاته. وكل ذلك بدافع من عدائه العقدى، الذى تأجّج عندما علم أن المسلمين يُسَمُّون المسيحيين عبيدَ المسيح (أعداءَ الله)[٥].

ويحاول يوحنا النقيوسى أن يعالج الجرح الغائر في قلبه إزاء مَنْ أسلم من المسيحيين بأن يزعم أن منهم مَنْ عاد، وأناب واعترف بخطئه، فضرب على ذلك مثالَيْن:

رجل يدعى (كلادجى) من الرومان، قدم إليه (تيودور) القائد العام، وأمره أن يعود

(١) السابق: صـ١٠٨-١٠٩.

(٢) السابق: صـ١٥٤.

(٣) تاريخ يوحنا: صـ١٩٣-١٩٤. والعجيب أن بتلر أيّده في دعواه الكاذبة تلك فى: (فتح العرب لمصر): ١/٢٠٦.

(٤) تاريخ يوحنا: ١٩٥-١٩٦.

(٥) السابق: صـ١٩٧.

إليهم، ويبدو أنه هدّده بقتل أمه وزوجته المختبئتين في الإسكندرية، ويبدو - كذلك - أنه كان من رجالهم ذوى المكانة لديهم؛ بدليل حرص تيودور على مقابلته بنفسه. والظاهر لنا أنه خضع للتهديد، بل أعطى تيودور مالاً كثيراً[١]؛ لئلا ينفذ وعيده بقتل أمه وزوجته. وبالفعل فَرّ من المسلمين ليلاً إلى نقيوس، وانضم إلى القائد دومنديانوس الرومانى. أما الرجل الآخر وهو سبنديس الرومانى، فقد ثاب إلى رشده، وعاد إلى المسيحية. وكان سبب تركه لها وانضمامه إلى المسلمين، أن والى دمياط الرومانى يوحنا ضربه على وجهه، ولم يراع سابقته، ولا خدماته للروم، ولا تقدم سنّه[٢].

جـ- كذلك تبدو سخرية يوحنا ولمزه العرب المسلمين، واتهامهم بالجهل بطريقة غير مباشرة، فذكر بعد استيلاء عمرو على حصن بابليون أنه قام بربط السفن عند الحصن، الذى صار به[٣]. فكأن السفن دواب تربط إشارة إلى عدم علمهم بالسفن والبحر، وطريقة استخدامه في الحروب.

د- ويواصل يوحنا إسهابه عن مظاهر الظلم الإسلامى المزعوم للمصريين، مما لا أساس له من الصحة، وانفرد به دون سواه، فيزعم أن عمرو بن العاص أبقى على رجل اسمه (ميناس) في منصبه، كان معيّناً من قبل الملك هرقل على الوجه البحرى، ويصفه بأنه كان عنيد القلب قاسيه، يكره المصريين جداً. كما أبقى على رجل آخر يسمى سينودا في الريف، وثالث اسمه: فيليكانوس في الفيوم. وهؤلاء الثلاثة يحبون الوثنيين ويكرهون المسيحيين، ويضطرونهم إلى حمل الطعام للعرب، وكذا حمل العسل واللبن والفاكهة والكراث، والقيام بأعمال أخرى كثيرة دون توقف. وكانوا يفعلون ذلك كله بدافع الخوف والرعب منهم[٤]. بل إن يوحنا يَعُدّ ما قام به عمرو من إصلاحات في الإسكندرية وغيرها من قبيل الظلم الواقع على المصريين[٥].

---

(١) وهذا دليل على أنه عاد لحظيرة الجيش الرومانى عن خوف وهلع، لا عن اقتناع وندم. وتلك حجة نسوقها من كلام يوحنا نفسه.

(٢) تاريخ يوحنا: صـ١٩٧، وفتح العرب لمصر، لبتلر: ١/ ٢٣٥. وللأسف يؤيد بتلر يوحنا في تحيز عجيب، ويزعم أن مساعدة القبط للعرب محدودة، ولغرض خاص، وليست عامة، ودافعها هو الخوف والرعب من بطش العرب (المرجع السابق ١/ ٢٠٧ وهامشها). ويمكن الرد على ما مثّل به يوحنا، ووافق عليه بتلر، أن الرجلين المذكورَيْن من الروم، وليسا من القبط. فهما مثالان لا يؤيدان ما زعماه، وذُكرا في غير محلهما. وأعتقد أن إسلام عدد من القبط ومعاونتهم للعرب أمر طبيعى بعد كل النزاعات والصراعات التى وصفها يوحنا نفسه.

(٣) تاريخ يوحنا: صـ٢٠٥.

(٤) السابق: صـ٢١٢-٢١٣، وفتح العرب لمصر لبتلر ٢/ ٣١٤-٣١٥. ويذكر بتلر في هامش ٤ صـ٣١٤: أنه ثبت من مجموعة أوراق للبردى أن فيلوخينوس حاكم الفيوم كان يجمع الضرائب من الفيوم، ويؤديها إلى خارجة في حصن بابليون. ويدلل بذلك على دقة يوحنا. وأقول: ولكن ذلك لا يدل على ظلم العرب؛ لأن مقدار الجزية والمبالغة فيها لم توردها تلك الوثائق.

(٥) تاريخ يوحنا: صـ٢١٣ .، وفتح العرب لمصر لبتلر: ١/ ٣١٠.

ومن أعظم ما يدل على تجنّيه وافتئاته وشديد عداوته للمسلمين، أنه ذكر أن قيرس (المقوقس) كان في حزن وأسف لِما حَلّ ببلد مصر على أيدى العرب المسلمين. والسؤال - هاهنا - وأين ما سبّبه قيرس للقبط من قبلُ، من الاضطهاد والتدمير والتقتيل ؟! لا شك أنها روح التعصب لقيرس ضد المسلمين، وللأرثوذكس ضد الخلقيدونيين، التى أعمتْ بصيرة يوحنا عن رؤية الحق والخير الإسلامى، بحيث جعل العرب أشد وأغلظ من قيرس. ولدرجة أنه لقّب العرب بالبربر[١]، مدّعياً همجيتهم ونقضهم مواثيقهم !

هـ- ولم يكتف بهذه المغالطة الفاحشة، بل زعم أن المسلمين لمّا استولوا على مصر كلها، ضاعفوا الجزية على القبط، وجعلوها ثلاثة أمثال ما كان عليهم من ضرائب أيام الرومان![٢]. وزعم أن الإسكندرية افتقرت، وهرب أغنياؤها؛ بسبب ضرائب العرب الباهظة[٣].

وفى النهاية، أحب أن أثير نقطة أُنصف فيها هذا الرجل رغم عدم إنصافه العرب المسلمين. هذه النقطة تتمثل في نصوص وردت بعد ذلك في كتابه تناقض - تماماً - ما سبق أن اتهم به العرب المسلمين. ومن هذه النصوص قوله:

" وكان عمرو يَقْوَى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التى حددها (إذاً لم ينقض عهده معهم)، ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس (إذاً لم ينهب، ولم يسلب الأموال)، ولم يرتكب شيئاً ما: سلباً، أو نهباً، وحافظ عليها طوال الأيام[٤]".

وهذا النص يجعلنا في حيرة من أمرنا، ويدفعنا إلى القول بأن قائله لا يمكن أن يكون هو قائل الروايات السابقة الظالمة. ويأتى السؤال المحير: كيف كلاهما ورد في تاريخه ؟! فيأتى الجواب: لعل عبارات التجنى الصارخة من فعل المترجم الحبشى؛ إذ لا يُعقل وقوع هذا التناقض الشديد غير المعقول من يوحنا في كتابه. ويزداد شكّنا في صحة نسبة التجنى إلى يوحنا، عندما تأتى نصوص أخرى بعد ذلك، تزعم أن القبط قدّموا أولادهم مقابل ما عليهم من ضرائب للعرب؛ لنفاد أموالهم، وفقرهم المدقع. وتزداد الشكوك أكثر وأكثر عندما تبلغ عبارات في الكتاب المنتهى في الوقاحة، وعندما تذم هذه العبارات، وتشتم من دخلوا الإسلام من القبط مثل: يوحنا راهب دير سينا، حيث يَصِمه بأنه خلقيدونى، بل يتعدّى ذلك إلى سَبّ النبى محمد ﷺ[٥]. وهذه

(١) تاريخ يوحنا: صـ٢١٤.
(٢) السابق: صـ٢١٢.
(٣) السابق: صـ٢١٨.
(٤) السابق: صـ٢٢٠.
(٥) فقد وصفه بالحيوانية، والعياذ بالله تعالى (تاريخ يوحنا: صـ٢٢٢). ولا يسعنا في مواجهة هذه البذاءة إلا أن نقول: " كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ". (سورة الكهف: من الآية ٥).

الوقاحة تجعلنا نميل إلى أن هذه العبارة التى تَسُبّ النبى بالذات ليست من عبارات يوحنا، وإنما هى مقحمة من يد حاقد موتور سواء كان ناسخاً، أم مترجماً. أما عبارات ذَمّ من أسلم من القبط، فهذه يمكن أن تصدر من يوحنا لتعصبه السالف ذكره، لكنه - على كل حال - تعصب لا يتجاوز حدود الأدب مع الأنبياء، ومع خاتمهم بالذات، خاصة أن الكتاب - كما سبق وقلتُ - تُرجم في عصر عبد العزيز بن مروان - تقريباً - إلى العربية(١)، ويستحيل أن يمر عليه هذا الكلام القبيح، أو يجرؤ يوحنا على قوله، وإنما هو دس وتحريف متأخر، لعله من المترجم الحبشى.

وهكذا نستطيع القول: إن الولاء كان - أساساً - للعقيدة الدينية، وكانت أمور الدين في (ق ٧م - ق ١هـ) أكبر خطراً لدى الناس من أمور السياسة، فكان الدين - لا الجنس، ولا الحزبية - هو الذى يحركهم، ومن الدين - بالأخص - يحركهم المذهب العقدى.

ومن هنا نحن مع بتلر، وهو يعترف قائلاً: إن الرجال ذوى الميول الدينية القوية (ويقصد من القبط) تجعلهم ميولهم - تلك - غير أمناء في رواياتهم(٢). وهذا حق صريح لا شك فيه، وتعصُّبُ يوحنا، وحقد مترجم كتابه خير شاهد على صدق ذلك.

---

(١) ومما يرجح هذا ويقويه أن يوحنا النقيوسى كان معاصراً لعبد العزيز بن مروان، وقد بلغ في عهده مكانة تؤهله من وضع هذا المؤلف الجامع، كما أن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان كان مهتمًا بترجمة كتب النصارى إلى العربية، وعلى رأسها: الكتاب المقدس عن طريق صديقه الشماس بنيامين (سير الآباء البطاركة) لساويرس بن المقفع (تحقيق أقتس: ٢/ ٥١). فلا يبعد أن يكون كتاب يوحنا ترجم في هذه الآونة للاطمئنان على ما يقوله عن العرب. ومن هنا فما فيه من تجاوزات، أعتقد أنها من صنع المترجم الحبشى؛ لأن يوحنا لا يجرؤ على إساءة الأدب مع المسلمين ونبى الإسلام، وهو يعلم أن الكتاب سيُترجم إلى العربية.

(٢) فتح العرب لمصر: ١/ ٤١.

الفصل الرابع

الموازنة بين النقيوسى والمؤرخين المسلمين في مصر

الهدف من وراء ذلك معرفة مدى وجود تأثير وتأثر متبادل إن وجد، وكذلك نقاط الاتفاق والاختلاف بين الفريقين.

ويمكن أن نوازن بين المدرستين من خلال النقاط التالية:

أ- قلة عدد المؤرخين الذين نعرفهم للقبط في هذه الفترة:

فلا نعرف ممن بقى منهم سوى يوحنا النقيوسى، وهو من طبقة رجال الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، واستخدم لغة مخالفة لما يعرفه العرب؛ مما أدى إلى ترجمات عديدة لكتابه أدّت إلى نوع من الخلط والتداخل فيه، مما أوجد تناقضاً واضطراباً في عدة مواضع منه. أما مؤرخونا المسلمون - في هذين القرنين - فهم متوافرون كما رأينا، إلى جانب أن كتاباتهم التاريخية كُتبت بلغتهم الأصلية (العربية). وهم، إن كانت مؤلفاتهم فقدت في معظمها، إلا أن بقاياها تكاد تخلو من تناقض كتاب يوحنا النقيوسى، وخلطه المرير.

ب- من حيث المصادر التى اعتمدوها:

فكل من الفريقين اعتمد على مصادر تناسب موضوعه، الذى يتناوله (فكان الكتاب المقدس، ومؤلفات الأقدمين والمعاصرين، إلى جانب الروايات الشفهية من معاصرى أحداث الفتح الإسلامى هى مصادر يوحنا في كتابه).

أما مؤرخو المسلمين، فقد استمدوا مادتهم من الحديث النبوى الشريف، ومن قبل آيات القرآن الكريم، وما فيها من أحداث سيرة الرسول ﷺ، إلى جانب مؤلفات من سبقهم من المؤرخين المصريين المسلمين وغيرهم .لكن الملاحظ أن مؤرخينا أكثر وثاقة في مؤلفاتهم؛ لأنها قائمة على أساس الإسناد، وهو والمتن كانا أساس نقد الأخبار التاريخية. وتلك ميزة تفوق بها مؤرخونا على يوحنا وغيره ممن لا يملكون تلك الدرجة العظيمة من توثيق معلوماتهم. كما أنهم لا يداومون على ذكر مصادر

مروياتهم، وأحياناً لا نجد مصدراً لموادهم، وفى الأغلب تصل إلى مجرد فروض ترجيحية[١].

جـ- من حيث الموضوعات:

اهتم يوحنا النقيوسى بموضوعات التاريخ القديم، ثم المسيحى، ثم أحداث فتح مصر على أيدى المسلمين. وكانت اهتمامات مؤرخينا المسلمين منصبة على السيرة والمغازى، وشئ من أحداث تاريخ ما قبل الإسلام، وعصر الراشدين، وشئ من تاريخ الأمويين. وقد مالت كتابات القبط التاريخية ميلاً نحو الدين أكثر من مؤرخينا؛ لأن التاريخ عند مؤرخى الكنيسة - بالذات - هو عملية تاريخية جزء من عملية كونية، المشتركون الأساسيون فيها: الله، والإنسان (فهى ملحمة سماوية ممتدة منذ الخليقة حتى الانفصام النهائى بين الخير والشر يوم القيامة[٢].

د- من حيث استخدام التوقيت لضبط الأحداث التاريخية:

بالرغم من استخدام يوحنا للتوقيت في عدد من الأحداث البارزة المهمة، مثل: مولد المسيح، ووفاة هرقل، وغيرها، إلا أن ذلك لم يكن ديدنه في معالجة كافّة الأحداث التاريخية المختلفة. وإن جاز لنا أن نلتمس له العذر بخصوص أحداث التاريخ القديم (قبل ميلاد المسيح ﷺ)، فإن أحداث ما بعد الميلاد مما يتصل بأخبار أباطرة الرومان، ثم أحداث فتح العرب لمصر، نجدها معرّاة في معظمها من التوقيت. وأعتقد أن يوحنا لو كان أعطى اهتماماً لهذا الأمر، لأمكننا إعادة ترتيب أحداث هذا الجزء الأخير من الكتاب، وإزالة ما به من خلط وتداخل واضطراب، لكنه لم يفعل، فصعَّب علينا مهمة ترتيب الأحداث وتقويمها. بينما الأمر أفضل بكثير في جانب المؤرخين المصريين المسلمين، فقد ضبطوا وقائع التاريخ الإسلامى في معظمها بالسنين والشهور والأيام. وهو ضابط انفردوا به - كما انفردوا بالإسناد كما مَرّ - عن بقية مؤرخى العالم من اليونان والرومان والقبط. ولا ريب أن ضبط الأحداث زمنيًا في تاريخنا أدّى إلى تسلسل الأحداث وانتظامها؛ مما جعل مؤرخينا يتفادون الاختلاط بين العصور والأحداث والشخصيات، الذى وقع فيه الآخرون ممن لم يدركوا التوقيت لأحداث التاريخ قبل ١٥٩٧م[٣].

هـ- من حيث التأثير والتأثر:

سبق أن أوضحت أن تاريخنا مستقل في نشأته، وأنه لم يستمد مناهجه ولا

---

(١) دراسات عن المؤرخين العرب، لمارجليوث (ترجمة: حسين نصار): صـ٣٢.

(٢) مقدمة: (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى)، لعمر صابر: صـ٢٩.

(٣) علم التاريخ، لهرنشو (فصل في إلمامة بالتاريخ عند العرب، للمترجم عبد الحميد العبادى): صـ٦٦ - ٦٧.

موضوعاته من تواريخ أجنبية سابقة عليه، خاصة في هذه الفترة المبكرة (ق١، ٢هـ = ق٧، ٨م). كما أن موضوعاته إسلامية في السيرة والمغازى والراشدين، وغيرها من أحداث الإسلام الأولى(١). أما بالنسبة للصفحات التى كانوا يعالجون فيها تاريخ ما قبل الإسلام، فأعتقد أن مؤرخينا نقلوها عن مصادر إسلامية، نقلتها بدورها عن بعض مسلمى أهل الكتاب، كما رأينا فيما مضى.وأعتقد أن حاجز اللغة من جهة، والاختلاف العقدى من جهة أخرى فى هذين القرنين المبكرين منعا من الأخذ عن يوحنا وأمثاله. ومن خلال ما استعرضنا من آثارهم التاريخية ومقارنتها بما ورد عن يوحنا بشأن (فتح مصر) وغيره من الموضوعات(٢)، تبيّن لنا أن مؤرخينا لم يأخذوا عنه شيئاً لا في التاريخ المصرى القديم، ولا في أحداث الفتح العربى؛ لأن مصادرهم وأسانيدهم إسلامية صرفة، ولم يكن تاريخنا امتداداً لتاريخ قديم، لكنه نما بطريقة طبيعية، توائم ثقافتنا ومتطلبات مجتمعاتنا(٣).

و- من حيث غرض التاريخ:

فقد رأينا أن غرض التاريخ لدى مؤرخينا في مصر كان أخلاقيّاً وعظيًّا، إلى جانب أنه خدم في أهداف إدارية وتنظيمية ومالية. لكنه وقف غرضه لدى النقيوسى عن الحدود الأخلاقية العامة كجمع الفضائل من خلال الأحداث وسير الصالحين، وتَرْك ذكرى صالحة بعد الممات(٤). إلى جانب استخدامه لأجل استنهاض همم القبط في مصر من خلال عرض جهود أسلافهم عبر الزمان؛ حتى تتحقق لهم - كما يريدون - نصرة المسيح(٥).

ز- من حيث الحياد والنزاهة في عرض الحقائق التاريخية:

أعتقد أنه كان لمؤرخينا باع كبير لا يُطاوَل في هذا المضمار؛ بدليل أنهم كانوا يوردون الروايات التاريخية المتعددة ذات الأسانيد المختلفة؛ لأجل عرض وجهات النظر ذات الزوايا المتعددة، تاركين للقارئ حرية التأمل والتفكر دون أن يُملوا عليه إرادتهم، أو يختاروا هم له، أو ينحازوا على حساب الحق، أو يُغطّوا على الأخطاء في تاريخ المسلمين، وإنما كانوا يعرضون لهزائمهم - كما يعرضون لانتصاراتهم - في أُحُد وحُنَيْن - مثلاً - دون مواربة. أما يوحنا، فاعتبر نفسه ممثّلاً للعقيدة الصحيحة

---

(١) ضحى الإسلام، لأحمد أمين: ٢/ ٣٥٩، والتاريخ العربى والمؤرخون لشاكر مصطفى ١/ ٨٥، ١٠٢.

(٢) ستتم - بإذن الله - مقارنات تفصيلية في مراحل الفتح، وحقائقه عند دراسة كتاب (ابن عبد الحكم) في كتاب لاحق، إن شاء الله.

(٣) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى: ١/ ٨٥.

(٤) تاريخ يوحنا: صـ٤٢.

(٥) السابق: صـ٢٢٢.

وحده، وأن كل مخالف له من الوثنيين، أو المسيحيين، أو المسلمين أعداء للرب. فعاطفته الدينية المتطرفة لم تترك له حرية التفكير السليم، أو الحكم على أعمال منافسيه في تجرد ونزاهة وعدل وإنصاف. لقد رأيناه يتجنّى على المسلمين، ويصفهم بأوصاف لا تليق، مع تناقض هذه الصفات (مما رجّحنا أنه من فعل المترجم الحبشى). كما ينسب إلى المسلمين ما هم منه برءاء بشهادة آخرين(١).

ح- مدى القدرة على تصوير وكتابة الصراعات الداخلية:

أعترف أن يوحنا ظهر بصورة أكثر صراحة من مؤرخينا، وهو يعرض تفاصيل صراعات الكنيسة الطائفية والمذهبية، وآراء كل فريق وأثر الصراع في الانقسام الحادث في المجتمع المصرى. وكان - وهو يعرض ذلك كله - يحرص على إبرازه دون تحرُّج ولا تأثم. وكان هدفه من ذلك إظهار تميّز وتفوق مذهبه اليعقوبى، وإن لم ينجح في التدليل المقنع على ذلك؛ بسبب تحيزه وتعصبه له.

أما مؤرخونا المصريون المسلمون، وبخصوص أحداث فتنة عثمان وعلىّ، فإننا نُحس أنهم لم يكتبوا حلقاتها كلها، ولم يفصّلوا القول فيها، ولم يخوضوا - من خلال بقايا كتبهم - طويلاً في ذلك الموضوع. ولكنهم اكتفوا بروايات عامة تتصل بحال مصر وموقفها من الأحداث من خلال تصرفات حزبَىْ علىّ وعثمان على أرضها، وكل ذلك بطريقة مجملة. ولعل ضياع كتب مؤرخينا، وصعوبة الكتابة في هذه الفتنة؛ لأنها تمس حياة الصحابة الأجلاء، جعل أحداث هذه الفترة على هذا النحو في كتابات مؤرخينا.

ط- وأخيراً: مدى النجاح في كتابة التاريخ المعاصر:

يعد تاريخ يوحنا النقيوسى مثلاً فريداً، جمع فيه صاحبه بين التاريخ القديم (ما قبل

(١) مثل: ساويرس بن المقفع في (سير الآباء البطاركة): ٢/ ٢٤، إذ أورد عظيم تسامح عبد العزيز بن مروان مع القبط، ودعوته لهم إلى حلوان، وسماحه لهم بإقامة منشآت كنسية، وأديرة لهم بها. وذكر صـ٧١-٧٢: أن عمر بن عبد العزيز أسقط الجزية عمن أسلم من القبط، وأنه كان عادلاً، لكنه عاد وذمّه مشبّهاً إياه بالدجال؛ لأنه (خَصّ المسلمين بتولى الوظائف في مصر، واستغنى عن خدمات القبط، وهكذا، كان هؤلاء متأرجحين يحكّمون الهوى في تقويم أوضاع الحكم الإسلامى. ولذا لا يُنتظر منهم إنصاف، وإن أفلتتْ بعض عباراته منهم، فسرعان ما يخلطونه بالتحيز الواضح. والخلاصة: أن المسلمين لم يكونوا ليظلموا هؤلاء. وإن وجدت حوادث عنف وشدة وعقوبات في التعامل معهم، فلا بد أن تُبحث أسبابها؛ حتى نكون منصفين في أحكامنا. فقد وُقّع حَدّ الحِرابة على بعض القبط في مصر في عهد عمر بن عبد العزيز؛ لأن هؤلاء النفر كانوا قُطّاع طريق (تفسير الطبرى لسورة المائدة: الآية ٣٣، جـ١٠ صـ٢٧٢ أثر رقم ١١٧٨١-ط.أحمد شاكر). وقام - من قبل - عمرو بن العاص بمصادرة مال رجل قبطى، لا على سبيل النهب والسلب، وإنما عقوبة له على تجسسه على المسلمين، وإطلاع الروم على عوراتهم (مواطن الضعف لديهم). (البداية والنهاية لابن كثير - ط.مكتبة المعارف - ٧/ ٣١٦).

المسيحية، وما بعدها حتى قدوم العرب إلى مصر)، والتاريخ المعاصر (أحداث فتوح مصر على يد المسلمين، والتى شهدها يوحنا بنفسه، ونقل بعضها عن شهود عِيان لم يحددهم). وقد لمسنا عدم إنصافه في أوصاف وسرد أحداث الفتح، مضطرباً متناقضاً (ورجّحنا أن ذلك الاضطراب من صنع المترجم الحبشى).

أمّا مؤرخونا، فإن مَنْ عاصر منهم أحداث السيرة، وفتوح الراشدين - مثلاً - (من الصحابة، وكبار التابعين)، فقد نقلوا ذلك بأمانة، ووثاقة تامة دونما تَجَنٍّ ولا تزييف، ولا كذب، ولا ادّعاء. لكن ينبغى أن يقال: إن ذلك كان في حدود وأُطُر ضيّقة، فلم نجد مَنْ فصّل أحداث فتح مصر إسلاميّاً، وكان ممن عاصر تلك الأحداث وشهدها، على النحو الذى فصّل به يوحنا تلك الأحداث التى عاصرها. ومن هنا تأتى أهمية كتاب يوحنا، وخطورة الدور الذى لعبه، والحلقة التى يمثّلها، لكن مع الحذر في دراسته وعند قراءته.

الباب السادس والأخير

الموازنة بين مدرسة التاريخ المصرية
والمدارس التاريخية الأخرى

الموازنة بين مدرسة التاريخ المصرية والمدارس التاريخية الأخرى

استعرضنا - فيما مضى - حركة التاريخ والمؤرخين في المدارس التاريخية الإسلامية المختلفة، وعلى رأسها مدرسة مصر، التي فصّلتُ القول فيها في الصفحات السابقة. وهناك حاجة ماسّة لدراسة عدد من القضايا المنهجية المهمة المرتبطة بالدراسات التاريخية في هذين القرنين، وسوف تقفنا هذه القضايا على نظرة مركّزة، تجمع شتات ما مضى من معلومات، وتضعها في قالب فكرى قائم على الموازنة، التى أرجو أن يكون بها شئ من الدقة والاستيعاب. وكل ذلك يستهدف الوصول إلى وضع اللبنات الأولى في مراحل تطور نظرية التاريخ والمؤرخين في مصر مقارنة بالمدارس التاريخية الأخرى.

وهاكم عناصر هذه الموازنة:

أوّلاً - من حيث النشأة، والموضوعات ذات الأهمية:

لقد اتفقت مدرسة مصر مع المدارس التاريخية الأخرى في أن نشأة التاريخ الإسلامى بها كانت موافقة لعصر الصحابة ﷺ، فهم الذين نقلوا إلينا سُنّة رسول الله ﷺ من أقوال، وأفعال وصفات، وتقريرات، ونقلوا ما دَقّ وعَظُم من سيرته ﷺ في أحاديث يروونها عنه. ومن هنا كان التشوف والتشوق لمعرفة سيرته ﷺ دافعاً لأن تهتم مدرسة مصر في عهد الصحابة ومَنْ بعدهم من العلماء برواية سيرته ﷺ. صحيح أن الصحابة في مصر لم يكونوا بالكثرة، التى عُرفت بها بلاد الحجاز، أو العراق، أو الشام، كما أن معارف مدرسة مصر الخاصة بالسيرة، لم تكن على مستوى معارف مدرسة الحجاز مثلاً، لكن ذلك لا يمنع من القول بأن السيرة النبوية كانت موضع اهتمام المؤرخين المصريين. وقد رأينا أنها كانت قاسماً مشتركاً في موضوعاتهم، التى اهتموا بالتأليف فيها، وذلك من خلال بقايا نتاجهم التاريخى. رأينا ذلك عند الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ويزيد بن أبى حبيب، وابن لهيعة، والليث، وغيرهم. كما ظهرت بوادر الاهتمام بتاريخ ما قبل الإسلام من أنبياء وغيرهم كمدخل طبيعى لتناول السيرة.

وكذلك اهتمت مصر بتاريخ الخلفاء الراشدين، وما تم في عهودهم من فتوحات في الشام والعراق وإفريقية، وما قاموا به من تنظيمات إدارية وأعمال حضارية وغيرها، وإن كانت المادة المتبقية في ذلك الشأن أقل من السيرة، وأقل من اهتمامات مدرسة العراق بذلك الأمر.

وركّزت مدرسة مصر الإسلامية على تاريخ مصر المحلى وأحداث فتوحها، وما إذا كانت فُتحت صلحاً أو عَنْوة، وتفاصيل خِططها، وأخبار شئونها المالية، ودورها في بسط النفوذ على إفريقية وأخبار ولاتها وقضاتها، وذلك مما تميّز به مؤرخوها عن غيرهم من مؤرخى المدارس الأخرى. وسبق ذلك - ولا شك - بعض اهتمام ببعض نواحٍ، ترتبط بتاريخ مصر القديم كمدخل لتاريخها الإسلامى العريق.

وهكذا، نستطيع أن نقول: إن مصر كان لها دور طيّب في مجال التاريخ الإسلامى، وإنها طرقتْ الموضوعات المهمة التى طرقتها مدارس التاريخ الأخرى، وأنها لم تتأخر في نشوئها عن غيرها من المدارس. ومن هنا لا يصلح ما يذكره أحد الباحثين من أن مصر لم يُسجّل لها نشاط تاريخى خلال فترة القرون الثلاثة الهجرية الأولى[١].

وأحب أن أُشير - في هذه القضية - إلى نقطتين:

النقطة الأولى - أن مصر مرت خلال هذه الفترة بمرحلتين:

الأولى - وتشمل القرن الأول الهجرى تقريباً، وفيه كان الاهتمام منصباً على السيرة النبوية.

الثانية - توسع وتبلور الاهتمام بالسيرة، إلى جانب ظهور الاهتمام بالموضوعات التاريخية الأخرى خاصة ما يتصل بمصر، وتتركز هذه المرحلة في النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى على يد ابن لهيعة، والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب.

النقطة الثانية - أن مصر - كغيرها من المدارس التاريخية الأخرى - استوحتْ عناصر تاريخها من الإسلام، ومصادره، وأحداثه ونظمه الجديدة، فهى نشأة عربية إسلامية بحتة، لم تتأثر مصر خلالها بثقافات أهل البلاد من القبط، ولا حكامها من الروم، اللهم إلا في نقاط محدودة بعيدة عن أحداث تاريخها الإسلامى، لعل الرواة والأخباريين نقلوها عما شاع على ألسن القبط من حديث عن بعض وقائع تاريخ مصر القديم، وأخبار علاقتها بالفرس والروم قبل الإسلام مثلاً.

ثانياً - من حيث العلاقات المتبادلة بين مدرسة التاريخ والمدارس الأخرى:

وقد سبق أن رأينا - معاً - أن مصر لم تكن جزيرة منعزلة، ولا بلداً منغلقاً على ذاته منعدم الصلة بغيره من أقاليم الدولة الإسلامية، وإنما ساعد الاتصال والالتحام بين العلماء، وحركة الحِلّ والترحال بين الأقاليم على، تحقيق التلاقح الفكرى، والاندماج والتبادل الثقافى بين علماء الأمة. وقد لمسنا في عرضنا لعدد من مؤرخى مصر أن الصلات لم تنقطع بينهم وبين أىّ من أقاليم الدولة الإسلامية[٢]، فها هو أبو قَبيل ينقل

(١) التاريخ العربى والمؤرخون، للدكتور شاكر مصطفى: ١/ ٨٥.

(٢) يوجد استعراض طيّب لصلات العلماء المصريين بعلماء الأمة في مقال: (مع الرعيل الأول) لمحب الدين الخطيب في مجلة الأزهر مج٢٥ جـ٩ ص٩٩٥-٩٩٧ (عدد رمضان ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م).

عن أخباريي اليمن وقاصّها تُبيع بن عامر الحميرى. ورأينا يزيد بن أبى حبيب وصلته ومكاتباته مع الزهرى عالم المدينة وصاحب المغازى المشهورة، وكذلك صلته بابن إسحاق، وعبد الحميد بن جعفر الأنصارى تأثيراً، وتأثراً. ورأينا - كذلك - صلة ابن لهيعة بكل من: أبى الأسود راوى مغازى عروة بن الزبير، والوليد بن مسلم الدمشقى عالم الشام المعروف. ولا ننسى الليث بن سعد ورواياته التاريخية عن مؤرخى المدينة، مثل: عُقَيْل بن خالد، وسعيد المقبرى، وهشام بن عروة. وعالم مكة أبى الزبير المكى، وصلته - كذلك - بالوليد بن مسلم. وأخيراً، علاقة ابن وهب بيونس بن يزيد الأيلى، وابن أبى الزناد، وغيرهما.

هذه الصلات والعلاقات الواسعة بين مؤرخى مصر وغيرهم، يُلاحظ عليها أنها تركزت في صلاتهم بالحجاز خاصة مدرسة المدينة. وهذا أمر طبيعى، فالمدينة مهجر رسول الله ﷺ، وشهدت أعظم أحداث حياته، وبها صحابته الذين يعرفون وقائع حياته، وعنهم نقل التابعون. ولا شك أن مصر كانت تلميذة وناقلة عن مدرسة الحجاز غالباً، وإن نقل بعض مؤرخى المدينة عن مؤرخى مصر (كنقل محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبى حبيب كما رأينا). أما صلة مدرسة مصر بالشام، فتركزت في التأثير في مؤرخ الشام الشهير الوليد بن مسلم الدمشقى.

وبالنسبة لمدرسة العراق، فلم يكن هناك أثر - يُذْكَر - متبادل بين المدرستين، وربما كان ذلك الاتصال موجوداً، لكن آثاره الدالّة عليه قد فُقدت.

ولعل بُعْدَ المسافة بين البلدين من جهة، واغتناء مدرسة مصر بالحجاز من جهة أخرى دفعا إلى ذلك التباعد بين المدرستين في هذه المرحلة. ولو كان هناك اتصال بينهما، لأفادت مصر من مؤرخى العراق ذوى الاهتمامات التاريخية المتعددة، خاصة الواقدى الذى أقام شطراً من حياته الحافلة بالعراق حتى وفاته. فلعله لو وجدت هذه الاتصالات، لأفاد منه مؤرخونا خاصة في مجال الطبقات والمغازى.

ويذكر أحدهم[1] أن الهيثم بن عدى[2] قد ملأ التاريخ والأدب بأخباره وقصصه ونوادره، وأنه كان له أثره في مصر، وذكر أنه جاء إليها، ونزل بها، وحدّث فيها كما روى السمعانى. والحق أنى رجعت إلى (الأنساب)[3] للسمعانى؛ للتحقق من ذلك

(١) هو الأستاذ أحمد أمين فى: (ضحى الإسلام): ٢/ ٣٥٧.

(٢) هو أبو عبد الرحمن، الهيثم بن عدىّ الطائى، العلاّمة الأخبارى الكوفى المؤرخ. روى عن هشام بن عروة، وابن أبى ليلى، وابن أبى عَروبة، وسواهم. وروى عنه محمد بن سعد، وعلى بن عمرو الأنصارى، وغيرهما. وهو من بابة الواقدى، وإن سكت عنه البعض، وكذّبه وتركه علماء الحديث، إلا أنه كان من علماء الناس بالسير، وأيام الناس، وأخبار العرب. توفى بالعراق سنة ٢٠٧هـ عن حوالى ٩٣ سنة. (الأنساب للسمعانى ٩/ ٢٥-٢٦، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٦/ ١٠٦، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ١٠٣-١٠٤).

(٣) ٩/ ٢٥-٢٦.

القول، ونظرت في ترجمة الهيثم، فعلمت أن أباه من واسط، وأنه ولد بالكوفة وبها نشأ، ثم انتقل إلى بغداد، وسكنها، ومات بها. ولم أجد ذكراً لنزوله إلى مصر. والشئ نفسه وجدته في (الفهرست)[١] لابن النديم، وفى (معجم الأدباء)[٢] لياقوت، وأشار إلى تأليفه تاريخاً على السنين، ووضعه كتاباً في (الطبقات). وأشار ابن كثير[٣] إلى أن له كتاباً عن الخوارج، من أحسن ما صنّف في ذلك. لكننا - للأسف الشديد - لا نستطيع القول بأنه نزل مصر، أو أن له صلة ما بمؤرخيها، فذلك ما لم يُنَصّ عليه في المصادر التى رجعت إليها؛ مما يرجح انعدام الصلة بينه وبين مؤرخينا، خاصة أننا لا نلمح أى تأثير تاريخى له في بقايا المرويات التاريخية في مصر الإسلامية.

وجدير بالذكر أن علاقات مدرسة مصر التاريخية امتد أثرها العظيم إلى الشمال الإفريقى والأندلس؛ بسبب موقع مصر الجغرافى المميز باعتبارها حلقة وصل بين الخلافة وهذه الأقاليم البعيدة. وقد قدم علماء هذه البلاد إلى الشرق خاصة مصر، وتتلمذوا على أيدى محدّثى مصر وفقهائها ومؤرخيها، كما أن علماء وتابعى مصر خرجوا في فتوحات إفريقية والأندلس، فقصوا هناك ما لديهم من سير ومغازٍ وأخبار فتوح، ثم عادوا إلى مصر يحدّثون بأخبار تلك البلاد، واصفين غزواتهم وفتوحاتهم هناك. ومن أبرز تابعى مصر الذين خرجوا إلى إفريقيّة والأندلس: موسى بن نصير، وعُلَىّ بن رباح[٤]، والحُبُلىّ[٥]، وحنش الصنعانى، وغيرهم ممن تتلمذ الأندلسيون على أيديهم، وأخذوا عنهم الأخبار والتاريخ[٦].

---

(١) صـ١١٢-١١٣ (ط.طهران).

(٢) ١٩/ ٣١٠، وما بعدها.

(٣) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف) لابن كثير: ٧/ ٣٠٧.

(٤) عُلَىّ بن رَبَاح بن قَصِير بن قَشِيب. أبو موسى اللخمى المصرى. كان من كبار علماء التابعين، وله وفادة على معاوية، وكان بالشام لمّا مات عثمان. شهد ذات الصوارى، وفُقدت عينه فيها سنة ٣٤هـ، مع عبد الله بن سعد. وكان ذا مكانة عند عبد العزيز بن مروان والى مصر، وهو الذى زَفّ ابنته أُمّ البنين إلى الشام، حتى تم عُرْسها على الوليد، ثم تغير عليه عبد العزيز، فأغزاه إلى إفريقية، فرابط بها حتى مات سنة ١١٤، أو ١١٧هـ، بعد أن عُمِّرَ طويلاً. سمع من عمرو بن العاص، وعقبة بن عامر، وأبى هريرة، وابن عمرو، وغيرهم. وروى عنه: ابنه موسى (٩٠-١٦٣هـ بالإسكندرية)، ويزيد بن أبى حبيب، وحميد بن هانئ، وغيرهم. (سير أعلام النبلاء: ٥/ ١٠١-١٠٢).

(٥) هو عبد الله بن يزيد المعافرى. أبو عبد الرحمن الحبلى المصرى. أرسله عمر بن عبد العزيز؛ ليفقه الناس بإفريقية، فمات هناك، ودفن بباب تونس سنة ١٠٠هـ. عِداده في المصريين، وروى عنه أهلها، مثل: حُميد بن هانئ، وزهرة بن معبد، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقى، وغيرهم. وروى عن: ابن عمرو، وعقبة بن عامر، وجابر، وسواهم (طبقات ابن سعد، ط.ليدن، ٧/ ٢/ ٢٠٠، والثقات لابن حبان ٥/ ٥١، والأنساب للسمعانى ٤/ ٥٣-٥٤، وقال: ينسب إلى قبيلة بنى الحُبُلى من قبائل اليمن) - وتهذيب الأنساب لابن الأثير ١/ ٣٣٧، وتهذيب التهذيب لابن حجر ٦/ ٧٤).

(٦) مقال: (مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسى)، للدكتور محمود على مكى، بصحيفة المعهد =

ويرى الباحثون أن السمة العامة اللافتة للنظر في كتابات الأندلسيين هى الخلط بين التاريخ الحقيقى وبين الخيال والأساطير والقصص ونسبة الأحداث والوقائع إلى أمور خارقة، وأن المصريين هم الذين أصّلوا هذه النظرة لديهم، فهم أول مَنْ وضع الأساس للتاريخ الأندلسى[١]. ويرى أحد الباحثين أنه لا مجال لنفى وجود القصص والأساطير في التاريخ الإسلامى بالأندلس، لكن مصادرها ليست كلها شرقية، وإنما يرجع بعضها إلى مصادر محلية إسبانية[٢].

وقد رأينا أن ابن لهيعة، والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب كانوا ممن اهتم بمرويات هؤلاء التابعين عن إفريقية والأندلس، حتى إن ما عُرض من معلومات في (فتوح مصر والمغرب) كان يرجع إلى هؤلاء المؤرخين. كما أن ما بقى من كتاب عبد الملك بن حبيب الإلبيرى[٣]، وهو أول مؤرخ أندلسى، يَدين في كثير من جزئياته إلى المؤرخ المصرى عبد الله بن وهب[٤].

ثالثاً وأخيراً - من حيث الخطوط العامة لعلاقة التاريخ بغيره من العلوم:

والحق أن هذه القضية من الأهمية بمكان، ذلكم أنها تعنى القيام بدراسة منهجية جديدة توضح أن علم التاريخ لم يكن بمعزل عن تطورات الحركة الثقافية في مصر الإسلامية خلال هذين القرنين المبكرين. فالعلوم تؤثر وتتأثر فيما بينها في الموضوعات والمناهج. وأضيف إلى ذلك أننى - هنا - لا أقتصر على توضيح هذه الصلات داخل مدرسة مصر وحدها، وإنما أقوم بموازنة ذلك كله بوضع علم التاريخ وصلته بالعلوم الأخرى في المدارس والأقاليم المناظرة والمعاصرة، التى لها علاقات تأثير، أو تأثر، أو كليهما مع مصر، في علم ما من العلوم موضع المقارنة.

ويمكن أن أحدد هذه القضية الكبرى - بالتفصيل - من خلال الأفكار الآتية:

١- علاقة التاريخ العامة بالعلوم الأخرى:

أ- من المعلوم أن علم التاريخ من العلوم السيادية ذات الصلة العميقة المتشعبة

= المصرى للدراسات الإسلامية في مدريد، مج٥، سنة ١٩٥٧م، (ص٣٢٨).

(١) السابق: ص٣٢٩.

(٢) مقال: (نشأة التاريخ الإسلامى في الأندلس: عبد الملك بن حبيب أول مؤرخ أندلسى)، للدكتور عبد الله جمال الدين، في مجلة الندوة التاريخية، مج ٣ ص٨٥.

(٣) قرطبى أندلسى مالكى. أحد الأعلام.ولد بعد ١٧٠هـ في حياة مالك،ورحل للحج ٢١٠هـ، وأخذ عن بعض أصحاب مالك والليث ،وأخذ على أسد بن موسى، وأصبغ ابن الفرج المصريين. توفى ٢٣٨هـ (سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٠٢، وما بعدها).

(٤) في الجزء الذى نشره د. محمود مكى في (صحيفة المعهد المصرى) بعنوان: (باب استفتاح الأندلس): ص٢٢١، ٢٢٥ - ٢٢٦.

مع العلوم الأخرى، خاصة العلوم العربية والإسلامية. فمثلاً: التاريخ هو الذى يحفظ لنا مواد علوم القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، واللغة، والأدب. وذلك من خلال التأريخ لهذه العلوم، وبيان مراحل تطورها، والموضوعات التى اهتمت بها، والقضايا التى أثارتها، ووجهات النظر المختلفة وبواعثها التاريخية، والعلماء في كل فرع من فروعها، وتراجمهم، ومنجزاتهم العلمية. وكى تتضح الصورة أكثر من ذلك أقول: إن كتابة تاريخ القراءات، أو التفسير، أو الحديث، أو الفقه، وغير ذلك من العلوم، سواء كان ذلك في مصر، أم في خارجها من الأقطار الأخرى، هو عمل من صميم علم التاريخ، بغض النظر عن جزئيات وتفاصيل هذه العلوم، ومناهجها الخاصة بها. وهكذا، يتضح اتساع وخطورة ذلك العلم، وأهمية العاملين به.

وإذا ضيّقنا الدائرة أكثر من ذلك، قلنا: إن العلاقة العامة هذه تزداد وضوحاً في الرؤية، ورسوخاً في الذهن، إذا كان العالم الواحد يجمع بين ثقافات عصره المتعددة، وذلك ينطبق أكثر ما ينطبق على فترة هذين القرنين موضع الدراسة في هذا الباب، إذ لم يكن العلماء يعرفون التخصص في علم من العلوم، وإن اشتهروا وبرعوا في بعضها دون البعض الآخر. ففى مصر وجدنا ابن عمرو، وعقبة بن عامر الصحابيين الجليلين بها، كان لهما دورهما المؤثر في علم القراءات، وعلم التفسير، وكان لهما إسهامهما الواضح في رواية حديث الرسول ﷺ في مصر، كما كانا يمثلان عُمُد المدرسة الفقهية في مصر الإسلامية. وطبيعى أن تكون لهما صلة قوية باللغة والأدب خاصة عُقْبة، الذى سبق أن بيّنا أنه كان فصيحاً راوية للشعر. ثم هما بعد ذلك كله - خاصة ابن عمرو - من أسس مدرسة التاريخ في مصر. ولا يقف ذلك عند عصر الصحابة، وإنما يمكن أن ينسحب على ما تلا عصرهم من عصور، فذلك ينطبق على أعلام مدرسة التاريخ في مصر، إذ جمعوا بين شتات الثقافة العربية والإسلامية في عصرهم. وعلى رأس هؤلاء: يزيد بن أبى حبيب، وابن لهيعة، والليث.

ب- ولا تقف هذه السمة عند حدود مصر، وإنما هى تنطبق بعض الانطباق على المدارس الأخرى. فمثلاً: يتكرر اسما عكرمة ومجاهد، وهما ممثلان للمدرسة المكية في القراءات، والتفسير، والحديث في مدرسة الحجاز. ونجد اسم الزهرى يتكرر في الحديث، والفقه، والتاريخ (المغازى) في مدرسة المدينة الحجازية. ونجد اسم الواقدى - وهو مشترك بين مدرسة المدينة والعراق - يتردد في مجال الحديث والفقه، والتاريخ الإسلامى (سيرة، ومغازٍ، وفتوح). ويتردد اسم (عبد الرحمن بن غنم الأشعرى) وهو من مدرسة الشام عند الكلام على الحديث، والفقه، والتاريخ. وكذلك اسم أبى إسحاق الفزارى في السير، والحديث. والوليد بن مسلم في الحديث، والتاريخ. والأوزاعى في الحديث، والفقه، والتاريخ. وهكذا، كان التاريخ هو الأرضية المشتركة والواصلة التى تصل بين العلوم العربية والإسلامية.

جـ- ولا بد أن نلاحظ - أخيراً - أن الصلة بين التاريخ والعلوم العربية والإسلامية

متفاوتة قرباً وبعداً، واتصالاً مباشراً وغير مباشر مع هذه العلوم، فهو لا يتصل بها كلها بدرجة واحدة. وهذا شئ طبيعى وبدهى، فصلة التاريخ بالحديث - مثلاً - هى أعمقها وألصقها جميعاً، ثم يأتى بعد ذلك التفسير والفقه. بينما تبدو العلاقة بين التاريخ والقراءات واللغة والأدب شاحبة باهتة غير مباشرة(١).

٢- علاقة التاريخ الخاصة بالعلوم الأخرى:

وهذه تنصب على العلوم ذات الصلة الواضحة مع التاريخ، وهى:

أ- علاقة التاريخ بالتفسير:

من حيث الموضوعات:

اهتم المفسرون في مصر بتفسير بعض آيات القرآن العظيم، وذلك فيما احتفظ لنا به كل من: عطاء بن دينار من تفسير (سعيد بن جبير الكوفى)، وما احتفظ لنا به ابن وهب، من تفسير (عبد الرحمن بن زيد المدنى)، وكذلك ما احتفظ لنا به عبد الله بن صالح المصرى من تفسير ابن عباس صاحب المدرسة المكية. وما أُثر من أحاديث رويت عن النبى ﷺ في تفسير بعض الآيات، ذكرها لنا بعض الصحابة في مصر، مثل: أبى هريرة، أو ما اجتهد في تفسيره البعض اجتهاداً يتفق مع ما أُثر عن النبى ﷺ، مثل: عقبة بن عامر.

وكذلك اشترك التاريخ والتفسير في مصر في موضوع المغازى، إذ وردت آيات في القرآن ارتبطت بأحداث تاريخية كبعض الغزوات، وسبل إعداد القوة ضد أعداء الله

(١) علوم اللغة والأدب لها صلتها بالتاريخ. فمثلاً: الشعر ديوان العرب، ومنه يمكن استخلاص عدد من الأحداث التاريخية ما صحّت نسبته إلى قائليه، وعُرفت ظروفه المقولة فيه. فكتب السيرة بها عدد من الأشعار التى ارتبطت بالأحداث، وربما كان الشعر والاحتفاظ به سبباً في الاحتفاظ بكثير من الأخبار التاريخية المرتبطة به. كما أن بعض اللغويين كانت لهم اهتمامات تاريخية، قاموا بنقد الشعر وتمييز صحيحه من موضوعه، وجمع بعضهم في كتبه مواد تاريخية أولية، وكان ذلك في العراق على يد أبى عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى (ت ٢١١هـ)، وهو تلميذ أبى عمرو بن العلاء صاحب الكتب التاريخية اللغوية. (التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى ١/ ٦٦، وبحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، للدورى ص٣٩-٤٨، ١٢٦).
وأحب أن أشير إلى أن اللغويين لمّا جمعوا اللغة ودوّنوها لم يتحروا الأسانيد الصحيحة المقطوع بتوثيقها وصحتها، البعيدة عن شبهة الفساد، فحامت الشبهات حول كثير من الشواهد اللغوية الشعرية المجموعة، كما أن الحفاظ على السند إزاء الألفاظ اللغوية، التى لا حصر لها في اشتقاق كل لفظ أمر صعب المنال. فالبعض يدقق عمن يأخذ، فمثلاً: (إذا قال سيبويه: حدثنى مَنْ أثق به، فهو أبو زيد الأنصارى). (سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٥٢). لكن البعض ينقل عن صحف لا نَقْط ولا شكل بها، فيكثر التصحيف. وعلى ذلك، لم يكن الاهتمام والتدقيق في تدوين اللغة والشعر على مستوى ما جرى للحديث؛ لأنه دين وتشريع. (عرض هذه القضية أحمد أمين في ضحى الإسلام ٢/ ٣١٨).

والدين، وعلاقة المسلمين باليهود. وكذلك ما اشترك فيه العِلْمان فيما يتصل بأحوال الأمم السابقة، وغير ذلك مما تناوله مؤرخو مصر من موضوعات. وكذلك ما أورده مؤرخو المدينة كابن شهاب، وموسى بن عقبة وغيرهما، وكذلك اهتمامات مدرسة العراق ممثَّلة في الواقدى، وغيره. إذاً الموضوعات المشتركة بين التاريخ والتفسير في مصر والحجاز والعراق هى: تاريخ الأمم السابقة، وبعض المغازى، وعلاقة المسلمين باليهود وغيرهم من أهل الكتاب. ومن ثم، كانت هناك علاقة بين التاريخ والتفسير في مصر، وبين التفسير والتاريخ في كل من الحجاز والعراق؛ لاحتفاظ مصر بتفاسير هاتين المدرستين، وبينهما وبين التاريخ موضوعات مشتركة.

من حيث المنهج:

فإن العلاقة بين التاريخ والتفسير في مصر منهجيّاً شديدة الشبه بنظيرتها لدى المدارس الأخرى؛ نظراً لأن إسهام المصريين في مجال التفسير اقتصر على مجرد حفظ ما أبدعه مفسرو المدارس الأخرى في مكة، والمدينة، والعراق.

فمن النواحى المنهجية:

نجد أن كلاً من: التاريخ، والتفسير اعتمد على النقل والرواية[١] (وذلك في التفسير بالمأثور)، من خلال الأسانيد التى توصل القارئ إلى صاحب الرواية التاريخية أو التفسيرية الأصلى، سواء كان هو النبى ﷺ، أم مَنْ دونه.

كما اهتم بعض المفسرين بأسباب النزول كابن زيد المدنى الذى نقل ابن وهب المصرى تفسيره، وتلك علاقة منهجية بين التاريخ والتفسير؛ إذ يستخدم المفسر الحقائق والظروف التاريخية المحيطة بالآية عند نزولها؛ كى يستعين بها على تفسيرها، وفك غموضها.

وكذلك كانت البساطة في العرض والوجازة فيه طبيعة التفسير في تلك الأقاليم، مع عدم تدخل المفسّر برأيه إلا قليلاً، وذلك هو الحال في الروايات التاريخية، وإن كانت أطول من الروايات التفسيرية غالباً.

وفى نهاية الحديث عن العلاقة بين التفسير والتاريخ من الناحية المنهجية نلاحظ ما يلى:

أوّلاً - أن التاريخ والتفسير في مصر - كما هما في الأقاليم الأخرى - دخل في منهج عرضهما الطابع القصصى الأسطورى الذى يُعرف بالإسرائيليات، وإن كان ذلك في التاريخ أكثر منه في التفاسير المبكرة في تلك الفترة المتقدمة، إذ كانت الإسرائيليات تظهر في التفاسير على استحياء، ربما ساعد عليه حرص هؤلاء المفسرين على البساطة والسهولة والوجازة في التعبير، وعدم الاحتكاك الكافى بأهل الكتاب، أو للحرص على

(١) دكتوراه: (الطبرى المفسر): للسيد أحمد خليل ص٧٩.

خلو التفاسير الأولى - قدر الإمكان - من الخرافات.

ثانياً - أن التفاسير الموضوعة والمزيّفة المنسوبة زوراً إلى ابن عباس كثيرة في مكة، وكذلك نسب في مصر إلى عبد الغنى بن سعيد الثقفى (ت ٢٢٩هـ) تفسير مزور. وعلى هذا، فقد عانت مصر من ذلك كما عانت بعض المدارس الأخرى من ظاهرة الوضع على التفاسير[(١)].

ب- علاقة التاريخ بالفقه:

من حيث الموضوعات:

هناك موضوعات مشتركة قائمة بين التاريخ والفقه في مصر وخارج مصر (خاصة مدرسة الحجاز ذات العلاقات الأصيلة والوطيدة مع مصر في مجال الفقه). فقد كان الفقهاء يتلمسون ما في أحداث سيرة الرسول ﷺ، وما كان يترتب على غزواته من مغانم، وينظرون في كيفية توزيع الرسول لها بين صحابته؛ كي يعرفوا فقهيات ذلك، ويُقَعّدوا بناء عليه القواعد والأسس الفقهية. وكذلك ما كان يقع من الرسول ﷺ في حياته كلها من أقوال وأفعال في مجال العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية، وغيرها من أحداث تؤثر في حياة المسلمين. كان الفقهاء يقومون بتجميع أدلتهم التى يبرهنون بها على ما يذهبون إليه من مذاهب من خلال ما تورده الروايات التاريخية في كتب الحديث والسيرة. وكذلك كانت أحداث الفتوح التى قامت بعد وفاة الرسول ﷺ، والتى اجتهد خلالها الخلفاء الراشدون، خاصة عمر بن الخطاب ﷺ بانى الدولة الإسلامية، ومن بعده عثمان قبل الفتنة، فمن خلال اجتهاداتهم في تقدير الجزية والخراج على أهل البلاد المفتوحة، استمد الفقهاء أقوالهم ومذاهبهم[(٢)]. ومن هنا

---

(١) ويذكر ابن خلدون في مقدمته (ط.الدكتور وافى): ٣/ ١٠٣١-١٠٣٢، وأحمد أمين في (فجر الإسلام) ص٢٠١-٢٠٢: أن مفسرينا تساهلوا في النقل عن أهل الكتاب، ولم يتحروا وجه الصواب فيما ينقلونه، فعمر التفسير بالغث والثمين، والصحيح والسقيم. ومعلوم أن ابن عباس ترجمان القرآن قال: " كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِى أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْدَثُ، تَقْرَأُونَهُ مَحْضاً لَمْ يُشَبْ. وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا كِتَابَ اللهِ وَغَيَّرُوهُ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِم الْكِتَابَ، وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً؟ أَلاَ يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ لاَ، وَاللهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلاً يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِى أُنْزِل عَلَيْكُمْ! " (ورد ذلك في صحيح البخارى، كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة) باب (قول النبىﷺ): لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء): ٦/ ٢٦٧٩-٢٦٨٠ (رقم ٦٩٢٩)، وورد كذلك في كتاب (الشهادات) باب (لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة): ٢/ ٩٥٣ (رقم ٢٥٣٩).

(٢) وقد كان على رأس المشتركين في حركة الفتوح في الأندلس محدّثون وفقهاء مصريون (مثل: عُلَىّ بن رباح، وابنه: موسى بن عُلَىّ بن رباح)، اهتموا بنقل قصص الفتوح إلى هناك، وكان لهم أعظم الفضل في وضع أسس التشريع الإسلامى هناك بناء على أحداث التاريخ. (مقال د. محمود مكى فى: صحيفة المعهد المصرى في مدريد: مج ٥ ص٣٢٨، ١٩٥٧م).

ظهرت كتب تاريخية فقهيّة حضارية (كالخراج) لأبى يوسف، (والأموال) لابن سلام. وهكذا، كانت النظم المالية والإدارية والسياسية، والعلاقات الاجتماعية مع غير المسلمين تقوم - أساساً - على جذور عميقة، لا يتم تفسير وجودها إلا في ظل علم التاريخ(١).

وكذلك من الموضوعات المشتركة بين التاريخ والفقه ما يصدر عن القضاة من أحكام قضائية مؤسسة على قواعد فقهية قائمة على أساس ما يدور بين الناس من خلافات في المجتمع، كانت زاداً لتلك الفتاوى والأحكام الفقهية في مجال العبادات والمعاملات، والأحوال الشخصية.

وكذلك من صلات التاريخ بالفقه ما يذكره خليفة بن خياط(٢) من أن التاريخ هو الذى يقوم - أساساً - على التحديد الزمنى، وتعيين المواقيت، والذى به أدرك الناس كثيراً من أمور الفقه والعبادة، كأمر الصوم والحج، وانقضاء عِدَد النساء، ومحل ديون الناس.

وقد رأينا - فيما مضى - أن يزيد بن أبى حبيب مؤرخ مصر كان - في الوقت نفسه - هو أول مَنْ علّم المصريين الحلال والحرام، وأن مروياته التاريخية اصطبغت بالصبغة الفقهية، ورأينا تنوع موارده الفقهية وعلى رأسها: الزهرى. وكذلك عُبيد الله بن أبى جعفر، الذى اعتمد على نتاج الأحكام القضائية. ورأينا الليث بن سعد وابن لهيعة وآراءهما، التى تتصل بأهل الكتاب، واعتمادهما - فيما قيل - على فتاوى وعمل الصحابة في مصر. حتى إن علماء مصر ومؤرخيها ممن توجهوا إلى إفريقية كالحُبُلىّ وحَنَش الصنعانى، وغيرهما كانوا مزوّدين بعلم الفقه، ولهم ميول فقهية مالكية.

من حيث المنهج:

١- اعتمد فقهاء مصر المؤرخون - كفقهاء المدينة - على التحرى والاستيثاق، وذلك شأن الثقات من مؤرخيها وفقهائها من أمثال: عبد الله بن عمرو، وعقبة بن عامر، ويزيد بن أبى حبيب.

٢- اعتمد فقهاء مصر ومؤرخوها - كفقهاء المدينة - على السنّة المطهرة. ومعلوم أن السنّة منبعها يتركز في المدينة على يد مالك، ومن هنا كان فقهاء المدينة من أمثال: عروة، والقاسم بن محمد، والزهرى يعتمدون على الحديث في المقام الأول بعد القرآن، وكذلك كان مؤرخا مصر وفقيهاها: ابن لهيعة، والليث بن سعد.

٣- هناك اختلاف بين مدرسة مصر والمدينة في بعض المسائل الفقهية في العبادات والأحوال الشخصية، نشأت عن اختلاف ظروف الحياة في مصر، والعرف السائد بها

(١) التاريخ العربى والمؤرخون، لشاكر مصطفى ١/ ٦٤.
(٢) تاريخ خليفة بن خياط: ص٤٩.

عن المدينة؛ مما أدى إلى شئ من الاختلاف بين مالك والليث، مثل: عدم تسليم الليث بالاحتجاج بعملِ أهل المدينة، واختلافه مع مالك في الجمع بين الصلاتين في الليلة المَطيرة، استناداً إلى أن الصحابة في مصر لم يفعلوه بها ولا بغيرها رغم شدة مطر الشام مثلاً. وكذا اكتفوا بالمدينة بيمين صاحب الحق مع وجود شاهد، بخلاف مصر التى أوجبت شاهدين، ربما لتفشى الصدق والأمانة في المدينة عنه في مصر. إذاً مراعاة الظروف والأحوال الاجتماعية وطبائع أهل كل بلد - وهذا كله من صميم التاريخ - يؤثر في النواحى الفقهية تأثيراً مباشراً.

جـ- العلاقة بين التاريخ والحديث:

وهذه هى بيت القصيد كما يقولون؛ لأن الحديث له تأثيراته وانعكاساته العريضة على مختلف فروع المعرفة العربية والإسلامية، فهو بغزارة ميادينه، وتعدد مجالاته، منبع طيب للتشريع الفقهى، والتفسير القرآنى، وهو نموذج عالٍ من الفصاحة والبلاغة يحاكيه كل أديب ولغوى. بل كان الحديث هو القاسم الثقافى المشترك بين علماء المسلمين، فقلّما تجد مؤرخاً، أو فقيهاً، أو لغوياً إلا وتجده - بالضرورة - من المهتمين برواية الحديث[1].

ويمكن أن نحدد نقاط هذه الصلة وتلك العلاقة في النقاط الآتية:

١- من حيث النشأة، والموضوع، والمنهج:

إذا سألنا: أيهما أسبق وجوداً: الحديث أم التاريخ؟ فإن المتبادر إلى الذهن، والذى يجمع عليه الباحثون أن الحديث النبوى الشريف أسبق من التاريخ وجوداً، فأقوال النبى ﷺ، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته، التى رويت عنه سبقت - ولا شك - اهتمام المسلمين بأولى نواحى التاريخ، وأعنى بها: مبدأ توقيت الأحداث. فقد اقترح المسلمون - كما علمنا - أن يبدأ تاريخ الإسلام والمسلمين من هجرة النبى ﷺ إلى المدينة، وتم ذلك في عهد عمر بن الخطاب ﷺ. ولا شك أن الحديث أقدم من التاريخ وأسبق من اختراع توقيت الأحداث إسلامياً، وكذا هو أقدم من محاولات إفراد أحداث السيرة بمؤلفات تقتصر عليها بهذا المنظور. وقد علمنا اهتمام المسلمين بالسنّة، وتدوينهم لها وجمعهم إياها، وكان يدخل في هذه الأحاديث ما يتصل بسيرته ومغازيه ﷺ وهى من صلب تاريخه، فيكون التاريخ - بذلك - نشأ في حِضْن الحديث النبوى الشريف، إذ خُصّصت أبواب لتاريخ الرسول ﷺ داخل كتب السنّة، ثم بدأ التاريخ يستقل بموضوعاته شيئاً فشيئاً، حتى اختصت كتب مستقلة بأحداث المغازى والسير. ولعل أقدمها مغازى عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ)، وأشهرها مغازى ابن إسحاق

(١) وخير دليل على ذلك أن مؤرخى مدرسة مصر الإسلامية الذين درستهم من قبل كانوا - بالضرورة - من المحدّثين.

(ت ١٥١هـ)[١].

ويرى الدكتور جواد على[٢] أن التشابه في الرواية بين الحديث والتاريخ جعل الباحثين يقولون: التاريخ وليد الحديث، أو وليد السيرة والمغازى. ويقول: إن هذا الرأى لا يستند إلى حجّة، وإن تشابههما في طريقة الرواية لا يدل على تفرع التاريخ من الحديث، فالتاريخ قديم قدم الحديث، والناس دوّنوا الحوادث وتاريخ الماضين، بل كان للخلفاء اهتمام وعناية بالتاريخ كالحديث، وأنه قد دُوّنت - قديماً - كتب في التاريخ، لكنها ضاعت.

والحق أن كلام الدكتور جواد على منطقى ووجيه، لكنه فيه يربط بين التاريخ بصفة عامّة (ولو كان تاريخ العرب الأقدمين) وبين الحديث النبوى الشريف. بينما نظر أصحاب الرأى الأول إلى العلاقة من حيث النشوء بين التاريخ الإسلامى (هكذا بالتحديد)، وبين الحديث النبوى الشريف. وأنا أعتقد أن محاولة الفصل بين التاريخ والحديث من حيث الموضوعات التى يتناولها كل علم، فيه شئ من التعسف، فكلاهما متسق ومتصل بالآخر اتصالاً وثيقاً لا فكاك منه؛ بدليل أن الأحاديث التى تذكر حكماً من أحكام الإسلام، أو توجيهاً من توجيهاته، كثيراً ما يرتبط ذلك ويقترن بالظروف التى قيل فيها هذا الحكم، أو تذكر الأحداث التاريخية التى صاحبت ذاك التوجيه، وهذا نوع من التاريخ بكل تأكيد[٣].

وبخصوص المنهج وطريقة العرض في كلا العِلْمَيْن، فكلاهما تُسبق رواياته بالإسناد، فهما يشتركان في ذلك الأسلوب، وإن أخذه المؤرخون عن المحدّثين، فهم أول من اقترحوه للحديث النبوى الشريف. وهذا الإسناد - لا شك - له عدة مزايا[٤] للتاريخ، منها:

أ- أن الأسانيد تمدنا بمصادر المعلومات التى تذكرها الروايات التاريخية؛ مما جعل مؤرخينا يمتازون عمن سواهم من مؤرخى المسيحيين، الذين انشغلوا -نتيجة عدم التوثيق لديهم - بالبحث عن مصادر الكتاب المقدس، ولم يعثروا عليها.

(١) فجر الإسلام، لأحمد أمين: صـ٢٢٣ ،وضحى الإسلام، لأحمد أمين ٢/ ٣١٩-٣٢٠، وبحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، للدورى صـ٢٠، ورسالة ماجستير (الطبرى ومنهجه في التاريخ)، لعلى بكر حسن: صـ٢٨٣-٢٨٤.

(٢) مقال: (موارد تاريخ الطبرى) في مجلة المجمع العلمى العراقى جـ١ صـ١٥٧- ١٥٨، ١٩٥٠م.

(٣) ومن هنا، فإن قول الدكتورة سيدة كاشف في بحثها في كتاب: (دراسات عن ابن عبد الحكم صـ٢٧: إن هناك اختلافاً بين التاريخ والحديث في الهدف ونوع الروايات التى اهتم بها كل منهما. فالحديث يروى المبادئ الفقهية أو الخلقية، والتاريخ يركّز على سرد الحوادث. هذا الكلام الذى تقوله الباحثة أعتقد أنه من باب ذكر ما يغلب عليهما، لكن الأدق أنه لا يوجد هذا الفصل الحاسم بينهما، فمن الممكن جداً أن تقترن المبادئ بالأحداث التاريخية كما ذكرتُ أعلاه.

(٤) الطبرى ومنهجه في التاريخ: رسالة ماجستير لعلى بكر حسن صـ٣١٥، ٣١٧ .

ب- أن الإسناد رفع مكانة الأخباريين، ووضعهم في مكانة لا بأس بها، اكتسبوها باتباعهم مناهج المحدّثين، فاعتُرف بعلم التاريخ، واعتُرف بهم كمؤرخين.

جـ- أن الحرص على إيراد الأسانيد المختلفة للأحداث[١] أعطى الفرصة لاستقصاء كافة وجهات النظر في الموضوع المعيّن؛ مما جعل تحت أيدينا ثروة تاريخية هائلة.

وقد طعن البعض في قيمة الأسانيد، وشككوا فيها، وذكروا لها عيوباً، منها:[٢].

١- خضوع معظم العلوم النقلية لنقد السند دون المتن، وهذا إن صَحّ في الحديث - فهو لا يصح في الأدب ولا في التاريخ، ففيها يُقَوّم النص من متنه. ولي على ذلك تعليق وهو: أن العلماء نقدوا المتن واهتموا به - وإن كان ذلك قليلاً جداً - ولم يقفوا عند حدود السند، بل إن لم يصح المتن لا يُنظر في السند أصلاً. يستوى في ذلك الحديث وغيره من العلوم، التى نهجت نهجه في ذكر الأسانيد.

٢- فتحت الأسانيد الباب واسعاً للدسّ والتحريف عن طريق اصطناع أسانيد صحيحة، تُركّب على متون محرّفة غير مستقيمة.

والرد: أن ذلك ليس عيب الإسناد، وإنما عيب أولئك الذين ينخدعون بالزائف منه، ويكتفون بمجرد مطالعة السند فحسب، دون أن يعتمدوا القرائن الأخرى في نقد الروايات وتمحيصها.

٣- الحرص على السند أدّى إلى إغفال ذكر مصادر المرويات. والحق أن أسماء الرواة الذين تغمر بهم المرويات هى - في الواقع - مصادر هذه المرويات، فيُنظر في مؤلّفات هؤلاء الرواة، فيكون أقدمهم هو صاحب المصدر الأساسى، الذى نقل عنه بقية الرواة واحداً بعد الآخر. لكن المشكلة الحقيقية - في نظرى - هى أن هناك رواة لهم أكثر من مؤلَّف، وفى هذه الحالة فإن عدم تحديد المصدر الذى نقل عنه صاحب الرواية، وورد فيه ذلك النص، يمثّل مشكلة أمام التوثيق والتحقيق، ومعرفة مناهج

---

(١) لجأ بعض كُتّاب السيرة الأوائل، وعلى رأسهم: الزهرى (ت ١٢٤هـ) إلى طريقة متطورة في الإسناد، إذ يأتى بالروايات ذات المصادر المتعددة، ثم يوفّق بينها ويدمجها في رواية واحدة مع مراعاة تسلسل الأحداث، مع ذكر مصادره في بداية الرواية، وذلك فيما عُرف بالإسناد الجمعى. وهو يهدف إلى تجنّب إيراد الأسانيد المتعددة للرواية الواحدة طبقاً لطريقة المحدّثين؛ لأن هذا يُجزّئ الحادثة ويمزّق أشلاءها إلى نُتَف متناثرات. (مقال: موارد تاريخ الطبرى، لجواد على، بمجلة المجمع العلمى العراقى جـ١ صـ١٥٤ سنة ١٩٥٠م). وقد كان الواقدى (ت ٢٠٧هـ) يذكر مصادره أول كتابه (المغازى)، ويلجأ - أحياناً - للإسناد الجمعى. ولم تعرف مدرسة مصر التاريخية من خلال ما بقى لنا من آثارها خلال هذين القرنين سوى طريق المحدّثين. ولا شك أن طريقة الإسناد الجمعى لم يكن مرضياً عنها من المحدّثين، واحتجّوا على ابن إسحاق في سيرته؛ للجوئه إلى ذلك خلالها، فيحدّث عن جماعة بالحديث الواحد. ولا يفصل كلام ذا من كلام ذا (تهذيب التهذيب لابن حجر ٣٨/٩).

(٢) ماجستير (الطبرى ومنهجه في التاريخ) لعلى بكر حسن: صـ٣١١-٣١٢.

المؤلفين في تآليفهم المختلفة، هذا إن كان المصدر - بالفعل - موجوداً غير مفقود.

هذا، وقد وقف بعض الباحثين المعاصرين من الإسناد التاريخي موقفاً رافضاً ناقداً له على طول الخط، فرأى أن الأسانيد التاريخية تكرار ضائع، لا لزوم له(١). ويعلّل ذلك بأن الرواية التاريخية المسندة لا تكفى في نقل الحقيقة التاريخية؛ لأنها لا تحمل من الحقيقة إلا صداها دون أن تحيط بظروفها، وذلك لضعف الذاكرة الإنسانية(٢).

وفى الحقيقة أن هذا الرفض لا مبرر له، فالأسانيد ليست تكراراً ضائعاً، لكنها وسيلة فعّالة، وطريقة من الطرق الصائبة، التى لا يتطرق شكّ إلى قيمتها؛ لضمان صحة النصوص. وصدق مارجليوث عندما قال: حُقّ للمسلمين أن يفخروا بهذه الأسانيد(٣). لقد علمنا أن كل رواية مسندة تضيف جديداً لما سبقها، وتعطى مصادر جديدة ثَرَّة، تدعم الرواية التاريخية الأخرى، ثم إنها في متنها - غالباً - تعطى إضافة جديدة، أو تفاصيل أكثر.

أما ما يدّعيه من ظلال الشك في قدرة الذاكرة، فذلك نابع من ظنه أن الروايات التاريخية كانت تُروى شفاهاً، وأنه لم تكن ثمة مصادر مؤلفة مدونة. والحق أن ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة، وسبق أن دحض ذلك العلماء تماماً.

وأخيراً، فلعل كلمات الدكتور فتحى عثمان خير ختام لهذه الفكرة، إذ يبين فعالية وأهمية الإسناد التاريخى حين يقول: إن التحقيق التاريخى صعب؛ نتيجة ما لحق الروايات من تزييف. والحكم على الرواة يحتاج إلى صبر ومعاناة؛ نظراً لاختلاف الأنظار إليهم. وقد آثر مؤرخونا ألا يختصروا لنا الطريق اختصاراً مُخِلاً، ويتبينوا ما ترجح لديهم من نصوص وآراء يتحملون هم مسئوليتها، وكان بوسعهم لو فعلوا هذا، وكان في مُكْنَتهم، أن يسوقوا لنا رواية واحدة، نحكم من خلالها على مؤلِّف واحد بدل هذا الخليط من الرواة، لكنهم - وحسناً فعلوا - أرادوا أن يجعلوا الإسناد ميزة، فهو أقسط عند الله وأقوم للشهادة، وأدنى ألا ترتابوا، حتى يُجْبَذَ الرواة، ويُساقوا لمحكمة العلم حتى قيام الساعة(٤). عندها تتسع أفق البحث التاريخى ولا تضيق، وتكون هناك فرص عديدة لإعمال الفكر، والعقل في التأليف التاريخى.

٢- من حيث أثر التاريخ في علم الحديث: ويتضح ذلك الأثر في نقطتين مهمتين:

أولاهما - أنه عن طريق معرفة الأحداث التاريخية وتوثيق وتحقيق تواريخ وقوعها وترتيبها الزمنى، يمكن أن نفيد في معرفة (الناسخ، والمنسوخ)، سواء في القرآن، أم

(١) مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى، للدكتور عبد المنعم ماجد: ص٣٨.

(٢) المرجع السابق: ص٣٤-٣٥.

(٣) دراسات عن المؤرخين العرب (ترجمة: حسين نصار): ص٣٢.

(٤) أضواء على التاريخ الإسلامى: ص١٣٥.

في الحديث الشريف. وإذا كانت كتب التفسير عُنيت بناسخ ومنسوخ القرآن، فإن الناسخ والمنسوخ في الحديث[١] من الصعوبة بمكان، فهو أعيا الفقهاء، وأتعبهم معرفته، وكانت للشافعى فيه قدم راسخة[٢]. ويلعب التاريخ في تحديده وبيانه دوراً أساسيّاً، فندرك عن طريقه: أىّ الحديثين تأخّر عن الآخر، فنعرف آخر التشريعات، التى تَرَكَنا عليها رسولُ الله ﷺ، فتترسخ - بناء عليه - قواعد من الفقه وأحكامه في دنيا الناس.

ثانيتهما - يفيد التاريخ - كذلك - في معرفة تراجم ودقائق حياة رواة الحديث النبوى الشريف ورحلاتهم، ومواليدهم ووفياتهم، ولقائهم ببعضهم البعض، وهذا يفيد في معرفة الوضّاعين والكذّابين منهم. وعبّر عن تلك الأهمية عالمان أدركا مداها، فعبّرا عنها في نصين اثنين بأخصر عبارة وأوجزها:

قال سفيان الثورى: " لمّا استعمل الرواةُ الكذبَ، استعملنا لهم التاريخ "[٣].

وقال حسان بن زيد: " لم يُسْتَعَنْ على الكذّابين بمثل التاريخ "[٤].

٣- من حيث العلاقة بين قواعد النقد الحديثى، ومناهج النقد التاريخى (من الناحية النظرية):

أ- إذا كانت الرواية الحديثية المتصلة الإسناد ذات الرواة الثقات مقدمة على التى سقط منها رواة، أو ضُعّف فيها رواة؛ فالتاريخ قد تأثر بذلك، فتُقدم فيه الرواية المتصلة على المنقطعة، والموثوق رجالها على الضعيف رجالها[٥]، ما صَحّ المتن، وصدقت الواقعة.

ب- يجب أن نلاحظ-جيداً-أن المتن سواء كان في الرواية الحديثية، أم كان في الرواية التاريخية، حظى باهتمام كبير من المحدّثين والمؤرخين على سواء.

وفى الوقت الذى كان فيه المحدّثون يدققون في إيراد الأسانيد، كان الحرص متفاوتاً حسب المتن. فإذا كان متن الحديث يتصل بالشرائع وأحكام الحلال والحرام، أو ذات الله وصفاته، بلغ التدقيق الغاية والمنتهى، بينما لو كان المتن الحديثى متصلاً

(١) تحت يدى كتاب بعنوان: (الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار) للإمام الحافظ العلاّمة أبى بكر محمد بن موسى الحازمى الهمَذانى (٥٤٨-٥٨٤هـ)، وهو خير نموذج لأثر التاريخ، وأهميته بالنسبة لعلم الحديث.

(٢) مقدمة ابن خلدون (ط د.وافى): ٣/ ١٠٣٣.

(٣) تاريخ دمشق (ط.المنجد) ١/ ٤٥.

(٤) الإعلان بالتوبيخ (ط.دار الكتب العلمية)، للسخاوى ص٢٢.

(٥) وهذا يتطلب عناية برجال الإسناد، واستعمال الدقة والتمحيص لأخبارهم؛ لأنهم عرضة لتأثير الرغبات، والميول الحزبية، والعصبيات القبلية، وغيرها. (بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب للدورى: ص٥٨).

بالترغيب والترهيب - مثلاً - فالتدقيق في الأسانيد يقلّ، بل إنهم اصطلحوا على قبول العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال(١). ويوضح تلك الفكرة أكثر ابنُ أبى حاتم، إذ يرى أن من رواة الحديث من هو صدوق ورع، ولكنه مغفّل يغلب عليه الوهم والسهو والغلط، فأهل الجرح والتعديل يكتبون من حديثه ما اتصل بالترغيب والترهيب والزهد والآداب، وإن رفضوا الاحتجاج به - كما قلنا - في الحلال والحرام(٢). وهو ما يوافقه عليه عبد الله بن المبارك، حين يجيز رواية الضعيف فيما اتصل بأدب أو موعظة، أو زهد، أو نحوه(٣).

هذه النظرة المزدوجة إلى الرواية الحديثية، والتى تحددها طبيعة المتن، وُجدت بصورة أو بأخرى في التاريخ. ولنا أن نقرر - عامّةً - أن الأسانيد في علم التاريخ، أو في المواد اللغوية - مثلاً - لم تكن بالدقة التى عليها الأسانيد الحديثية؛ نظراً لأهمية الأخير التشريعية(٤). ثم ندلف من هذا الإقرار العامّ إلى نوع من التميز الخاص، فنقول: إن الاهتمام بإسناد الروايات التاريخية يشتد ويتزايد إذا تعرضت للفتن التى حدثت زمن الصحابة، أو ارتبطت بالعقائد أو بالأحكام الفقهية، بينما يجوز للمؤرخ في تاريخه أن يروى قولاً ضعيفاً في باب (الترغيب، والترهيب، والاعتبار) مع التنبيه على ضعفه، ولا يجوز ذلك في ذات الله، أو في صفاته، أو في الأحكام(٥).

ولا نستطيع أن نغادر هذه الجزئية دون التعرض لقولتين مشهورتين مفيدتين في هذا الصدد تنضافان لما نقلناه سلفاً عن ابن أبى حاتم:

أولاهما - مقولة الإمام المحدّث أحمد بن حنبل: ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازى، والتفسير، والملاحم(٦). ومعنى هذه العبارة: أن الغالب على كتب المغازى، وروايات الأخبار في كتب التفسير، وأخبار الفتن والملاحم أنها لا يُدَقَّق في أسانيدها؛

(١) فتاوى ابن تيمية (قسم الأحاديث): ١٨/ ٦٥-٦٦. وللشيخ أحمد شاكر رأى وجيه في هذا الشأن، فهو يرى أنه لا فرق بين الأحكام وبين فضائل الأعمال، ونحوها. فلا يجوز في أى منها الأخذ بالرواية الضعيفة، بل لا حجة لأحد إلا بما صح من حديث رسول الله، أو حُكِمَ له بالحسن. أما ما قاله ابن حنبل، وغيره من التشديد في رواية أحاديث الحلال والحرام، والتساهل في رواية أحاديث الفضائل ونحوها، فقصدهم - فيما يُرَجِّح، والله أعلم - أن التساهل إنما هو في الأخذ بالحديث الحسن، الذى لم يصل إلى درجة الصحة. فالاصطلاح لم يكن استقر في عهدهم بعدُ ولا اتضح، بل كان أكثرهم يصفون الحديث إما بالصحة، أو بالضعف فقط (تعليقه صـ٧٦ من كتاب: الباعث الحثيث، لابن كثير).

(٢) تقدمة المعرفة: صـ٦-٧.

(٣) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم: ١/ ١/ ٣٠-٣١.

(٤) بحوث في تاريخ السنّة المشرّفة، للدكتور العمرى: صـ٥٧.

(٥) المختصر في علم التاريخ، للكافيجى (نُشر داخل علم التاريخ عند المسلمين لرونتال): صـ٣٣٧، وبحوث في تاريخ السنّة المشرّفة، للعمرى صـ٢٠٦-٢٠٧ .

(٦) فتاوى ابن تيمية (مبحث في مقدمة التفسير): ١٣/ ٣٤٦.

وأن الغالب عليها الأسانيد المرسلة، أو أنها خالية من الأسانيد، مما جعل درجة توثيقها أقل من مرويات الحديث.

ثانيتهما - مقولة الإمام ابن حجر الذى أضاف فيها إلى ما سبق (روايات كتب الفضائل)، أى: ما رُوى من أحاديث عن فضائل المدن، والبلدان، والشعوب المختلفة. ويقول: هذه أودية الأحاديث الضعيفة والموضوعة. فالعمدة في المغازى على مثل الواقدى. وفى التفسير على مثل: مقاتل والكلبى، وكذا في الملاحم والإسرائيليات. أما الفضائل، فلا تُحصى الأحاديث الموضوعة فيها لأهل البيت، وللشيخين، ولمعاوية. .. إلخ[(١)].

جـ- هناك أصل يجب أن يعرف جيداً، فهو نافع في الجزم بكثير من المنقولات في الحديث والتفسير والمغازى، وما ينقل من أقوال الناس وأفعالهم (أحداث التاريخ) وغير ذلك، حيت تتعدد طرق الروايات بما لا يُشك في تواطؤ على كذب وذلك عندما تتفق الأحداث، فيُعلم - قطعاً - أنها صادقة وحَقّ في الجملة، ولو كان فيها كذب ما اتفقوا في كل هاتيك التفاصيل. بالضبط كما ينتفى الكذب فيما لو صدقتْ واجتمعت الروايات على رواية قصيدة كاملة طويلة، فالكذب - هنا - أبعد؛ إذ يبعد اتفاقهم على الكذب في كل هذه الأبيات الشعرية، في حين لو اتفق على بيت واحد، فربما تطرق إليه الكذب[(٢)].

د- لا يجب اعتبار الإسناد التاريخى هو الحكم الأول والأخير على مدى صدق الرواية التاريخية، بالضبط كما هو الحال في الرواة الحديثية، وكذا في الأدب واللغة وغيرها، بل يجب ملاحظة نوعية الأخبار، التى يوردها كل راوية من الرواة، ومقارنتها مع مزاجه، وأسلوب حياته، فلا يكفى الوقوف عند حد الإسناد وحده، بل تُعمل العقل في النقد الداخلى للمرويات، إلى جانب النقد الخارجى للإسناد[(٣)].

٤- من حيث العلاقة بين قواعد النقد الحديثى ومناهج النقد التاريخى (من الناحية التطبيقية):

سبق أن تناولنا قضية (الوضع) في (الفصل الثانى من الباب الأول)، وذكرنا جهود العلماء خلال القرنين: الأول، والثانى الهجريين في مواجهة الوضّاعين والكذّابين في

(١) لسان الميزان لابن حجر ١/١٣.

(٢) فتاوى ابن تيمية (مبحث مقدمة التفسير): ١٣/٣٤٧-٣٤٩.

(٣) كتاب (الطبرى)، للدكتور الحوفى صـ٢٠٤. وأضاف أن مشاهدة الحدث ومعاصرته ربما دفعت إلى تعاطف الراوى الثقة مع شئ ما. وربما خُدع المؤرخ، أو لم يتحقق من النص، فلا بد من العودة إلى الوثائق الأصلية. ومقال: (تأثير علم الحديث في علم التاريخ عند المسلمين) لبشار عواد (فى مجلة الأقلام البغدادية جـ٥ - ١٩٦٥) صـ٢٧، ومقال: (رأى في المنهج النقدى التاريخى) للدكتور جعفر آل ياسين صـ٦١-٦٢ (مجلة الأقلام البغدادية جـ٧-١٩٦٥).

حديث رسول الله ﷺ. وبالمثل تعرض التاريخ لتزييف وتحوير ودَسّ للخرافات والأساطير والإسرائيليات، وذلك على أيدى (القُصّاص)[1]. ومن هنا وجب أن ندرس النقاط الآتية:

التعريف بالقُصّاص في أقاليم الدولة الإسلامية بعامة، وفى مصر الإسلامية بخاصة، مع بيان أثرهم في التاريخ:

أ- القَصّ وأثره في التاريخ في الدولة الإسلامية بعامة:

تطالعنا بعض الأسماء ذات الرنين الخاص في مجال القص. ومن هؤلاء: عطاء بن يسار المدنى القَصّاص[2] (ت ١٠٣هـ)، ووهب بن منبه اليمنى القاص[3] (ت ١١٠هـ)، وصالح بن بشير المُرّى القاص بالبصرة[4] (ت ١٧٣هـ)، وعُبيد بن عُمير الليثى[5]، وكان أول من قص في مكة، وكان يجلس إلى عبد الله بن عمر.

وهناك - أيضاً - أبو حذيفة إسحاق بن بشر البخارى: وهو قصاص تالف ضعيف، له كتاب (المبتدأ)، وفيه بلايا وموضوعات. توفى ٢٠٦هـ[6].

(١) استخدمت أصل مادة (القَصّ، والوعظ)، و(التذكير) في القرآن والسّنة. ففى القرآن: " فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " (الأعراف: جزء من الآية ١٧٦). " يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِينَ ". (النور: ١٧). " وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ " الذاريات: ٥٥. وفى السنّة: أن رسول الله ﷺ في حديث العِرْباض بن سارية قال وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ " مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ " الحديث. (أخرجه أحمد في (مسنده) ٤/ ١٢٧.
وكان الرسول وخلفاؤه الراشدون وعّاظاً مذكّرين، وخطباء يوجهون الناس إلى الخير. وكان عبد اله بن رَواحة يَقصّ في حياة الرسول ﷺ. (القصّاص والمذكّرين)، لابن الجوزى ص٧٠-٧١.
ويقال: إن تميماً الدارى (ت ٤٠هـ) من أول مَنْ قَصّ في عهد عمر بن الخطاب بعد إلحاح طويل، فكان يوجّه الناس ، ويعظهم بكرة وعشيّاً، وكان يقص قائماً. (تاريخ ابن عساكر ١٠/ ٤٨٠، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٧). وطلب إليه عمر أن يقص قبل خروج عمر إلى الجمعة، وزاده عثمان ابن عفان يوماً آخر (المصدر السابق ٢/ ٤٤٨).
ونخلص إلى التعريفات الآتية:
القاصّ: هو الذى يتبع القصة الماضية بالحكاية عنها، والشرح لها. ويغلب عليه قصص الأقدمين، ولا يُذَمّ لنفسه، ففيه عبرة وعظة لمزدجر.
الواعظ: يذكر للناس ما يخوفهم ويعظهم؛ ليرق القلب.
المذكّر: يعرّف الناس نعم الله عليهم، ويحثهم على شكرها، ويحذرهم المخالفة.
(القصاص والمذكرين، لابن الجوزى ص٦٦-٦٧).

(٢) طبقات القراء، لابن الجوزى ١/ ٥١٣.

(٣) المغنى في الضعفاء للذهبى: ٢/ ٧٢٧.

(٤) ميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٢٨٩، والوافى بالوفيات للصفدى ١٦/ ٢٥٢.

(٥) البيان والتبيُن، للجاحظ ١/ ٣٦٧.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٩/ ٤٧٧-٤٧٩.

وهناك مطر الورّاق الخراسانى، نزيل البصرة. وكان يتقن كتابة المصاحف، ويعد من القصاص العالمين الزاهدين الصادقين، وإن ضَعّف حديثَه بعضُ المحدّثين[١].

ومن الكوفة يطالعنا القاص محمد بن صَبيح العِجْلى الكوفى (المشهور بابن السمّاك)، ومواعظه لهارون الرشيد كثيرة ومشهورة، تُبكى القلوب والعيون معاً (ت ١٨٣هـ)[٢].

والخلاصة بعد عرض أسماء وبلدان بعض القصاص:

١- أن بعض القصاص كانوا يقومون بالواجب الأصيل لهم كالوعظ والتوجيه والإرشاد دون تحريف ولا تزوير، ومنهم: ابن السماك، وكذلك مطر الوراق، إلى جانب أفاضل القصاص والوعاظ من العلماء العاملين، مثل: الحسن البصرى[٣]، ومُطَرِّف بن عبد الله[٤]، ومالك بن دينار[٥].

٢- أن البعض الآخر منهم كان معروفاً بالوضع والكذب. ولعل المدرسة اليمنية برئاسة ابن سلام، وكعب الأحْبار الذى أقام بالشام، ووهب بن منبه، ترجع إليها كثير من الخرافات، والأساطير والإسرائيليات في روايات التاريخ. ولا شك أن لهؤلاء القصاص دورهم في حركة التاريخ في تلك الأقاليم. وإن نظرة واحدة في مقدمة سيرة ابن إسحاق، أو في كتب الفتوح المتعددة للواقدى، أو بقايا كتب محمد بن السائب الكلبى (ت ١٤٦هـ)، أو مرويات أبى مخنف وغيرهم، تُرينا أثر هذه الإسرائيليات والأقاصيص في مرويات تاريخنا الإسلامى، إلى جانب النزعات القبلية العصبية، والميول والأهواء السياسية لدى بعض القصاص فيما يتصل بالفتن والمنازعات. وبعد هذا كله، يواجه الباحثون المعاصرون صعوبات شديدة في فصل ما هو صحيح عما هو زائف من الروايات سقيم.

ب- القصص والقصاص في مصر:

بدأ القصص والوعظ الطيب في عصر الصحابة ﷺ، إذ كانوا يوجهون الناس، ويرشدونهم إلى تعاليم الله، وسنّة رسوله ﷺ. وبالطبع كانوا يتحرون الصدق والأمانة في القول، فقصصهم من النوع المحمود لا المذموم. فها هو عقبة بن عامر كان يقص (يروى) في مصر بعض ما قاله النبىُ ﷺ فرآه الصحابى أبو موسى الغافقى (مالك بن عبادة)، فعقّب على عقبة قائلاً: إن صاحبكم هذا عاقل، أو هالك. ثم ذكّر عقبة - وهكذا كان بعضهم يوصى بعضاً ويذّكره - بما قاله النبى ﷺ في حجة الوداع، وتَوَعُّده

(١) السابق: ٥/ ٤٥٢-٤٥٣.
(٢) السابق: ٨/ ٣٢٨-٣٢٩.
(٣) القصاص، والمذكرين، لابن الجوزى ص١٢٤-١٢٥.
(٤) السابق: ص١٢٤.
(٥) السابق: ص١٢٩.

مَنْ يكذب عليه بأن يتبوأ مقعده من النار[١].

ثم أتت-بعد ذلك-أجيال من القصاص، يأتي على رأسهم: سُلَيْم بن عِتْر، وابن حُجَيْرة، وموسى بن وردان، وخير بن نُعَيْم، وأبو قَبيل، وعبد الرحمن ابن شُريح المَعافرى(ت ١٦٧هـ)، وغيرهم. وهاك تعريفاً موجزاً ببعضهم:

أ- سُلَيْم بن عِتْر[٢]:

هو أبو سلمة التُّجيبى المصرى. إمام فقيه قاضٍ بمصر، وقاصّ وواعظ، وعابد لُقّب بالناسك؛ لشدة نُسُكه وتَألُّهه. حضر خطبة عمر بن الخطاب بالجابية، وروى عنه. كما روى عن علىّ، وأبى الدرداء (واعظ الشام، وقاصّها)، وغيرهم. وتتلمذ على يديه في مصر: عُلَىّ ابن رباح، وأبو قبيل، وغيرهما. كان على درجة من الصلاح والتقوى، حتى قيل: إنه كان يقرأ القرآن ثلاثاً في كل يوم، وذلك فيما يرويه ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد[٣]. وكان سليم ثقة. ولى قضاء مصر في عهد معاوية من سنة ٤٠-٦٠هـ[٤]. وقد اعتاد أن يقص على الناس بالمسجد وهو قائم، وكان من المواظبين على قيام الليل. فقد سئل حنش بن عبد الله الصنعانى (ت ١٠٠هـ) عن قوله (تعالى): ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[٥]، فقال: هذه صفة الحُبُلى، وسليم بن عتر[٦]. وقد كانت لسليم مكانته الطيبة، وصلاته الحسنة مع أبى هريرة ﷺ، إذ يروى عُلَىّ بن رباح أن سُلَيْماً قال له: إذا لقيتَ أبا هريرة، فأقرئه السلام، وأبلغه أنى دعوتُ له ولأمه. فأبلغه عُلَىّ بذلك. فردّ أبو هريرة: أنا دعوتُ له، ولأمه كذلك[٧]. توفى ٧٥هـ.

ب- عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى:

قاضى مصر وقاصها. ولى القضاء على مصر حوالى ١٢ سنة، حتى وفاته سنة

(١) فتوح مصر وأخبارها: صـ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) ترجم له ابن الجوزى فى: (صفة الصفوة) ٤/ ٣٠٩، والعبر للذهبى ١/ ٦٣، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٣١-١٣٣، والوافى بالوفيات، للصفدى: ١٥/ ٣٣٥-٣٣٦.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٤/ ١٣٣. ولا شك أن هذه مبالغة في حرصه على تلاوة كتاب الله. فذلك لا يتأتى، وإن فُرض جدلاً أنه يمكن حدوثه ففيه مخالفة للسنّة، إذ لا يُقرأ القرآن في أقل من سبع ليالٍ؛ حتى يعقله القارئ. ولا شك أن كثيراً من أخبار الزهاد والعباد فيها مبالغات عديدة، منها ما روى عن ذلك الزاهد العابد وقد ورد في (المصدر نفسه، وفى الصفحة نفسها) عن سليم ما يصعب تصديقه، فقيل: إنه دخل غاراً بالإسكندرية، فظل يتعبد به ٧ أيام بلا طعام ولا شراب. وهذا ضد طبائع الأشياء !

(٤) فتوح مصر: ٢٣١، والولاة والقضاة: ٣٠٤.

(٥) سورة الذاريات: الآية ١٧.

(٦) الولاة والقضاة: صـ٣٠٧.

(٧) المصدر السابق: صـ٣٠٨.

٨٣هـ[١]. ومن كلماته الجوامع: القاضى إذا قضى بالهوى، احتجب الله عنه واستتر[٢]. وكان عبد العزيز بن مروان يعطيه في السنة ألف دينار، تأتى عليه السنة الأخرى، ولا شئ منها معه[٣].وكان ابن حجيرة مهتمّاً برواية الحديث، فروى عن أبى ذر، وابن عمر، وغيرهما[٤]. وكان لعبد الرحمن بن حجيرة ابن يسمى عبد الله، وكان يروى الحديث عن أبيه، وعن أبى هريرة كذلك. ويرويه عنه عبد الله بن الوليد المدنى[٥].

جـ- موسى بن وَرْدان (*):

إمام واعظ، مولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح. روى عن أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى، وجابر، وأنس بن مالك.وروى عنه: الليث، وابن لهيعة، وضِمام بن إسماعيل(آخرهم رواية عنه)، وغيرهم.وثقه أبو داود، بينما ضعّفه ابن معين. وكان موسى بن وردان ذا تجارة وثروة.توفى سنة ١١٧هـ.

د- خَيْر[٦] بن نُعَيْم الحضرمى(**):

روى عن عبد الله بن هُبيرة، وأبى الزبير، وعطاء، وغيرهم. وروى عنه: عمرو بن الحارث، وابن لهيعة، والليث، ويزيد بن أبى حبيب، وسعيد بن أبى أيوب، وغيرهم. وثّقه النسائى، وابن حبان، وغيرهما. ولى قضاء مصر وبرقة، وذكره الكندى في القضاة مرتين: ١٢٠-١٢٨هـ[٧]، ١٣٣-١٣٥هـ[٨]. وقال ضِمام بن إسماعيل، عن

---

(١) الولاة والقضاة: صـ٣٢٠.

(٢) المصدر السابق: صـ٣١٨.

(٣) العبر للذهبى: ١/ ٧١، والكاشف، للذهبى (ط.دار الكتب الحديثة): مج١ جـ٢ صـ١٦١: جعل وفاته سنة ٨٠هـ.

(٤) من الملاحظ أنه روى أربعة أحاديث من ثمانية، ذكرها ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) من حوالى عشرين حديثاً، رواها المصريون عن أبى هريرة في مصر. (فتوح مصر: صـ٢٨١-٢٨٢). وكذلك حَوَتْ (تحفة الأشراف)، للمِزّى في (جـ٦ صـ٣٥٦ وبعدها)، كثيراً من مرويات ابن حجيرة، عن عبد الله بن عمرو.

(٥) الثقات لابن حبان: ٧/ ٣٧.

(*) ترجم له: ابن أبى حاتم في (الجرح والتعديل): ٤/ ١/ ١٦٥-١٦٦، وسير أعلام النبلاء ٥/ ١٠٧-١٠٨.

(٦) سمّاه دكتور شاكر مصطفى (جبراً). (التاريخ العربى والمؤرخون) جـ٢ صـ١٥٤. وهذا من باب التصحيف.

(**) ممن ترجم له: ابن حبان في الثقات: ٦/ ٢٧٧، والمزى في (تهذيب الكمال): ٨/ ٣٧٢، وما بعدها، والذهبى في (الكاشف، طبعة: دار الكتب الحديثة): مج١ جـ١ صـ٢٨٦، وابن حجر في (تهذيب التهذيب): ٣/ ١٥٥.

(٧) الولاة والقضاة: صـ٣٤٨-٣٥٢.

(٨) المصدر السابق: صـ٣٥٥-٣٥٦.

يزيد بن أبى حبيب: ما أدركت من قضاة مصر أفقه منه. وأخرج له مسلم حديثاً، كما أخرج له أبو داود، والنسائى. توفى ١٣٧هـ.

جـ- القصّاص الوافدون إلى مصر:

١- يعقوب بن مجاهد:

مولى بنى مخزوم، وقاصّ بالمدينة. ويبدو أنه أتى إلى مصر وأقام بها فترة، وتوفى بالإسكندرية. روى عن عبادة بن الوليد، والقاسم بن محمد، وسواهما. وروى عنه: يحيى بن أيوب المصرى، والقطّان، وغيرهما. ذكر ابن أبى حاتم: أنه لا بأس به(١).

٢- عبد الله بن بَجير اليمانى الصنعانى القاص:

وثقه العلماء، وكان يتقن ما يسمع. أدركه بكر بن مضر، وابن لهيعة. غزا المغرب في عهد معاوية(٢).

٣- تُبيع بن عامر الحميرى، (ابن امرأة كعب الأحبار ت ١٠١هـ):

وسبقت ترجمته من قبل(٣). وقد نقل ابن عبد الحكم عنه روايات، تتصل بالإسرائيليات.

٤- منصور بن عمار الواعظ الخراسانى:

وقيل: البصرى. وكان عديم النظر في الموعظة والتذكير. وروى عن الليث، وابن لهيعة، ولم يكن في الحديث متضلعاً. تَنقّل يعظ الناس بين العراق والشام ومصر، وهو من العباد الزاهدين المتألّهين الصادقين. حضر الليث بن سعد مواعظه في مصر، فأعجبه، وبعث إليه بألف دينار، يحفظ بها حكمته(٤).

د- أثر حركة القَص في التاريخ في مصر:

والحق أن تأثير القصاص في حركة التاريخ في مصر محدود، وذلك من خلال ما احتفظ لنا به ابن عبد الحكم في كتابه: (فتوح مصر). وهذا التأثير يقتصر على موضوعات مرتبطة بتاريخ مصر القديم. ولعل ابن عبد الحكم قد أبقى من تراثهم، وانتقى من قصصهم هذا الذى عثرنا عليه، واطمأن هو إلى صحته، بينما رأى البحث التاريخى المعاصر أنه من قبيل القصص، والإسرائيليات.وربما كان قَصّاصو مصر

(١) الجرح والتعديل، لابن أبى حاتم: ٤/ ٢/ ٢١٥.
(٢) الجرح والتعديل مج٢ قسم ٢ ص١٥، وميزان الاعتدال للذهبى ٢/ ٣٩٥.
(٣) وذلك في الفصل الأول من الباب الثالث (ابن عمرو، وأبو قبيل).
(٤) حلية الأولياء لأبى نعيم: ٧/ ٣٢٠-٣٢١، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٩٣-٩٥ .

يتحرون في مروياتهم التاريخية، ولعل اشتغال معظمهم برواية الحديث[١]، وتولى منصب القضاء - كما رأينا - أضفى عليهم صفة التحقيق والتوثيق، وإعمال العقل والمنطق. وربما كان تعبدهم وزهدهم وتألههم أدّى إلى تورعهم عن الإتيان، أو الإغراق في إيراد الروايات التاريخية، التي تعتمد على إسرائيليات، أو قصص محرّف مدسوس لا أصل له. وبالتطبيق على عدد من قصاص مصر وجدت ما يلي:

١- لم ترد عن سليم بن عتر، وخير بن نعيم مرويات تاريخية، نلمح منها أو نشتم منها رائحة القصص.

٢- نقل القاصّ واهب بن عبد الله المعافرى، عن ابن عمرو رواية فيها تمجيد وتعظيم لنهر النيل، وجعله مقدّماً على أنهار الدنيا، وأنها ما وُجِدَتْ إلا لخدمته، وما تُدِرّ مياهها إلا لتكمل مياهه[٢]. وهى رواية غير علمية، وفيها رائحة القصص.

٣- ورد نصّ واحد عن عبد الرحمن بن حجيرة، وفيه مبالغة شديدة، وانعدام للمنطقية، عندما بالغ في أوصاف العماليق في مصر[٣] قبل الإسلام.

٤- أما أبو قبيل، فقد رأينا غلبة الاهتمام عنده بالفتن والملاحم والغيبيات، وقد درسناه فيما مضى[٤].

٥- أما عبد الرحمن بن شريح، فقد وردت عنه رواية من جنس مرويات أبى قبيل، ومضمونها أن رجلاً قبطيّاً تنبأ بانفراط عقد المسلمين بعد مقتل عمر بن الخطاب[٥].

٦- وقد كان لكعب الأحبار، وابن امرأته تبيع بن عامر الحميرى روايات مباشرة في كتاب (فتوح مصر)، ويلاحظ أنها ترتبط بأحداث ما قبل الإسلام، ودارت حول موضوعات، منها: إيمان السحرة بموسى[٦]. ومما رُوى عن كعب: أن يعقوب أقام في مصر ١٦ سنة ثم توفى، وأوصى أن يدهنوه بالمُرّ والصبر، ثم ينقلوا عظامه في التابوت إلى فلسطين[٧]، وإساءة أهل مصر لبنى إسرائيل بعد موت يوسف[٨]. وما روى عن وجود خمسة مساجد بالإسكندرية، مثل: مسجد ذى القرنين، ومسجد الخضر[٩]،

(١) وهذا لون من ألوان الصلة الوثيقة بين القصص والحديث، فقد كان القصاص رواة للحديث لذاته، ويعتمدون عليه في ترويج قصصهم. ونوافق الدكتور أبا سعدة في رسالته للدكتوراه عن (الحركة العلمية في جامع عمرو في مصر في ق ١، ٢هـ) صـ٢٢١-٢٢٢، حيث قال: إن الحديث لم يُقْبَل عليه لأجل القصص، بل أُقبل عليه لذاته؛ بدليل أن كثيراً من المحدّثين لم يكونوا قُصّاصاً.

(٢) فتوح مصر: صـ١٤٩.

(٣) السابق: صـ١٣.

(٤) في الفصل الأول من الباب الثالث (ابن عمرو، وأبو قبيل).

(٥) فتوح مصر: صـ٥٩.

(٦) السابق: صـ٥.

(٧) السابق: صـ١٨.

(٨) السابق: صـ١٩.

(٩) السابق: صـ٤١.

وعودة أهل مصر الذين كانوا مع موسى بعد غرق فرعون إلى كهوف الجبال متزهدين مترهبين، وأن الرهبانية ابتُدِعَتْ بعد ذلك في عهد عيسى[(١)]. وقول تبيع: لا يدرك أحد من حضرموت الدجال[(٢)].

وهكذا، اتضح لنا أن تأثيرهم لم يكن في تاريخ مصر الإسلامى[(٣)]، وأن مروياتهم إنما كانت متصلة بتاريخ ما قبل الإسلام بها، وبعضها يصح كإيمان السحرة بموسى، وبعضها يُستنكر كوجود مسجد لذى القرنين وللخضر بالإسكندرية، وبعضها غيبى لا أدرى إن كان يؤيده قَصّ صحيح أو لا، وهو مقولة تبيع بموت أهل حضرموت جميعاً قبل ظهور الدجال!.

هـ- خصائص حركة القص في مصر:

١- إذا كان القصص قديماً كان يعنى: العلم والتذكير بالله، ومعرفة الفرائض، وذلك على عهد رسول الله وصحابته؛ فإن نشوب الفتن بين عليّ ومعاوية أعطى له بعداً رسميّاً جديداً، فيُرْوَى أن عليّاً لمّا رجع من صفين دعا على مَنْ خالفه، فبلغ ذلك معاوية، فعيّن مَنْ يقص، وجعلهم يدعون له بعد صلاة العصر والعشاء[(٤)]. ومن هنا وُجد نوعان من القصص في مصر، كما يقول الليث بن سعد[(٥)] هما:

أ- قصص الخاصّة (سياسى):

أحدثه معاوية بن أبى سفيان[(٦)]، وضَمّه إلى منصب القضاء كما فعل مع ابن حجيرة وغيره، وصار على هَدْيه الأمويون من بعد، وصار منصباً رسميّاً تُحدّد له الأعطيات. وكان هدف معاوية منه في مصر أن يظل الحزب المؤيد له متغلّباً على حزب العلويين.

ب- قصص العامة: وهو اجتماع الناس على قاصّ يذكّرهم، ويعظهم.

---

(١) السابق: صـ٤٤.

(٢) السابق: صـ١٢٥.

(٣) هذا الحكم في حدود القدر الذى سُقْتُه من القصاص، ولا ينسحب عليهم جميعاً، فلا شك أن لغير مَنْ ذكرتُ منهم مرويات غير مقبولة، تتصل بأحداث مصر الإسلامية، وسيأتى الكلام عليهم في (وذلك في كتاب لاحق، بإذن الله). تحليل النصوص التاريخية الواردة في (فتوح مصر) لابن عبد الحكم، ومقارنتها بغيرها.

(٤) الخطط للمقريزى ٢/ ٢٥٣.

(٥) المصدر السابق: نفسه.

(٦) القصاص والمذكرين لابن الجوزى: صـ٧٨. والحق أن معاوية كان يحرص على تجميع الأنصار حوله، وكان من أسلحته الفعّالة عمل القصاص. ويذكر ابن وهب فى (الجامع) ١/ ٨٨، وابن الجوزى في (القصاص والمذكرين) صـ٨٣-٨٤: أن كعب الأحبار كان يقص في إمارة معاوية، فسمع أن عوف بن مالك يروى حديثاً يقول: القصاص ثلاثة: أمير، أو مأمور، أو محتال. فمكث لا يقص سنة، ثم رأى معاوية أن يفيد من قصصه، فأمره أن يقص في أهل الشام.

ومن الطبيعى أن تكون للحكام الأمويين السيطرة الكاملة على بعض القصاص يُملون عليهم إرادتهم فيلقّنونهم ما يريدون أن ينقلوه إلى الناس، وربما كان فيه دسّ وتحريف لخدمة أهدافهم. فيُروى أن أبا الهيثم، سليمان بن عمر كان قاصّ الجماعة في مصر في عصر بنى أمية، وقد أتى إليها يلتمس الرزق والمعاش. فلمّا عزله العباسيون، بعدُ، اشتد ذلك عليه، وقال قولاً يعبّر به عن أنه كان ألعوبة الأمويين، إذ قال: لِمَ تعزلوننى ؟! إنما أنا قاصّ. فإن قلتم: زِدْ في قصصك زدتُ، أو قَصِّرْ قَصَّرْتُ[(١)].

٢- أن هناك اتجاهاً عامّاً محذّراً من القصص والقصاص، خاصة إذا وُجد انحراف في مادة القص التاريخية.وقد عبّر عن هذا الاتجاه في مصر(صِلَة ابن الحارث الغِفارى)، لمّا وجد سليم بن عتر قائماً يقص، فقال له: "وَاللهِ،مَا تَرَكْنَا عَهْدَ نَبِيِّنَا، وَ لاَ قَطَّعْنَا أَرْحَامَنَا،حَتَّى قُمْتَ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا"[(٢)]. فلعله سمع روايات محرفة شغلت الناس عن السنّة، وزادت في الفتنة والقطيعة، فقال هذا الكلام. بينما وجدنا اتجاهاً آخر أُثر عن ابن عمرو، فيه مدح لسليم بن عتر لمّا كان يقص، فذكر ابن عمرو أن ملكيْن كانا يعينانه، وهاجمه لمّا ولى القضاء بأن معه شيطانين يُزيغانه[(٣)]. وأعتقد أن الأمر ليس على إطلاقه الذى يُفهم من ظاهر هذه العبارات، وإنما هو الحرص الشديد الذى دفع صلة بن الحارث لأن يقول ما قال، وهو ذاته الذى دفع ابن عمرو للهجوم على تولى منصب القضاء؛ لِمَا فيه من مزالق ومَهاوٍ كثيرة.

ويبدو أن التحرز من القصص كان شائعاً لدى علماء مصر، فيذكر أحدهم[(٤)]: أن الليث لمّا ذكر نوعى القصص السابقيْن لم يُعَقّب وقد سئل عنهما، وأشار هذا الباحث إلى أن الليث أشار ضِمْناً إلى أن النوعين بدعة تُلْهى عن التفكير في الأمور الجُلّى، التى تتعرض لها حياة المجتمع ،وأَخَصُّها الحكم الشرعى وتطبيقه. ولا أدرى من أين أتى بهذا الفهم الضمنى، ومن أين استنبطه ما دام الليث لم يُعقّب! وأعتقد أن الأمر لا يحتاج إلى تعقيب، فما كان من القصص غير مُحَرِّف للحقائق، ولا مُزَيِّف للنصوص، ويهدف إلى الوعظ والتذكير الصحيح، فهو مقبول ومطلوب، ولا شائبة فيه على الإطلاق. وما لم يكن كذلك فلا. وهذا الاتجاه الأصيل لدى المخلصين الحريصين على الحقائق التاريخية في مصر وغيرها، فقد أُثر عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرسل حرسه يتتبعون القصاص المنحرفين، يخرجونهم من المسجد[(٥)]، وفى الوقت نفسه يشجع المخلصين على القَصّ الهادف؛ بدليل أنه عيّن الجُلاح أبا كثير مولاه (ت

(١) المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/ ٤٣٦.
(٢) فتوح مصر: ٢٣٢، ٣١٤، والولاة والقضاة: صـ٣٠٣-٣٠٤.
(٣) فتوح مصر: صـ٢٣٥.
(٤) الدكتور السيد أحمد خليل في (الليث بن سعد فقيه مصر): صـ١٠١.
(٥) الجامع في الحديث لابن وهب: ١/ ٨٨-٨٩.

١٢٠هـ) قَصاصّاً بالإسكندرية[١].

٣- كان عامة القصاص مطعوناً فيهم من المحدّثين، وإن كانوا زهّاداً عابدين صالحين. أما مصر، فلها وضع خاص مميز، تمثّل في أن القَصّ بها كان ذا طابع رسمي، إذ كانت الدولة الأموية تُعيّن القاص. ويرى الدكتور أبو سعدة[٢] أن قصاص مصر جميعاً نابهون، نبرئهم من رواية الكذب والأساطير وتزييف التاريخ، فالدولة تشرف عليه وهو خاضع لها، والقاصّ يُعيّنه الوالى أو الخليفة. كما أن قصاصى مصر لم يكونوا تلامذة لا لكعب، ولا لوهب، وأنهم ظلوا على ورعهم وصدقهم حتى نهاية العقد الثالث من القرن الثانى الهجرى (نهاية الدولة الأموية تقريباً)، وأنهم يماثلون الحسن البصرى ونظراءه في الأقاليم الأخرى، وأن العباسيين لم يهتموا بالقصص في مصر، فدخله بعد ذلك المُقْحَمون، خاصّة أن المخلصين لم يُخلّفوا فيه كتباً وتلاميذ، بل كانت مواعظهم تُلْقَى شفاهاً. والحق أن بعضاً من كلامه يحتاج إلى تعليق؛ لأن إشراف الدولة على القص لم يكن حافظاً له من الإسرائيليات، بل ربما سخّرته الدولة الأموية لصالحها. أما قوله: إن قصاص مصر ليسوا تلامذة لكعب الأحبار، ولا لوهب بن منبه فهو غير صحيح، فقد رأينا أثر كعب الأحبْار، وابن امرأته تُبيع بن عامر، المباشرَ في عدد من مرويات كتاب (فتوح مصر). كما أن القصاص - وإن خَفَتَ الاهتمام الرسمى بهم. فإن ذلك لا يعنى انتهاء القصاص الورعين، فعبد الرحمن بن شُريح (ت ١٦٧هـ) المعافرى الإسكندرانى كان قاصّاً عابداً زاهداً بعيداً عن الشبهات. تلقى على أبى قبيل، وموسى بن وردان[٣]. فإشراف الدولة أو عدمه ليس شرطاً لصلاح القصاص أو لفسادهم، وإنما المهم شخصية، وعلم، وهدف، وإخلاص القاصّ قبل كل شئ[٤].

٤- يترتب على ما سبق أن القصص التاريخى جمع بين الخرافة والتاريخ، وارتبطت أخباره بتاريخ الماضين، وأنه عمر بالإسرائيليات، ونُقل بطريقة شفهية غالباً، وعُرف بالفتن والملاحم[٥]، وإن كان ذلك في مصر أقل منه في الأقاليم الأخرى، التى استشرى فيها دور القصاص، خاصة اليمن والعراق، فكانوا من أكبر عوامل تحريف

(١) الوافى بالوفيات للصفدى ١١/ ١٧٧-١٧٨.

(٢) (الحركة العلمية في جامع عمرو في مصر في ق١، ٢هـ) رسالة دكتوراه لأبى سعدة صـ٣٦٢-٣٦٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٨٢.

(٤) بدليل أن ابن عمرو كان يقص بالشام في عهد مبكر (مصنّف عبد الرزاق: ١١/ ٣٧٦-٣٧٧). (ربما كان ذلك أيام معاوية)، ولا نتوقع من ابن عمرو إلا كل توجيه خيّر، وإن كان ينقل عن أهل الكتاب أخبار الفتن والملاحم.

(٥) التاريخ العربى والمؤرخون لشاكر مصطفى ٢/ ١٤١-١٤٢.

الأخبار التاريخية، والتشيع للآراء المذهبية، فانخدع بهم بعض المؤرخين(١). ولذا وجب التحقق من نصوص القصاص(٢)، فيستبعد منها ما به خلل وحشو، واختراع يناقض الحقائق التاريخية.

و- وأخيراً - نماذج تطبيقية لحدود تطبيق قواعد النقد الحديثي على مرويات التاريخ:

والحقيقة أن هذه القضية تضع الأمور في نصابها الصحيح، فهناك علماء محدّثون ومؤرخون كانوا محل شد وجذب، وقيل وقال، من علماء الجرح والتعديل. فهل نطبق عليهم كمؤرخين مقاييس المحدّثين؟ إننا لو فعلنا ذلك لجرّحناهم مؤرخين، ولرفضنا معظم مصادر التاريخ المؤلّفة فيه، ولفقدنا بذلك تراثنا التاريخي في معظم جوانبه، ولانقطعت صلة حاضرنا بماضينا، فأظلم مستقبلنا، وشعرنا بفقدان الهُوِيَّة والاغتراب الشديد. ينضاف إلى ذلك أن مقاييس الجرح والتعديل كانت لرجال الحديث، ولم تكن للمؤرخين. ولذا وجب أن نفرق بين الشخص الواحد مؤرخاً، وبين كونه محدّثاً، ووجب أن يكون تطبيق علوم الجرح والتعديل على المؤرخين في حدود معقولة، فلا تهمل مقاييس الجرح والتعديل كلية، ولا تطبق كلها على إطلاقها، وإنما نتخذ طريقاً وسطاً، يُجعل بين ذلك قواماً. بمعنى: أن ندرس المتن أوّلاً، فإن لم يتعارض مع شرع ولا عقل ولا منطق قبلناه، وإن تعارض مع القرائن والحقائق التاريخية رفضناه، وربما دعمنا رفضنا بتضعيف رجال إسناده إن كانوا ضعافاً. وعلى كل، فهناك عالمان تنازعهما الحديث والتاريخ هما: محمد بن إسحاق، وعبد الله بن لهيعة، فهما نموذجان صالحان للتطبيق؛ فحولهما خلاف كبير بين نقاد الرجال. وهاك كلمة عن كل منهما:

١- محمد بن إسحاق:

انقسم حوله رجال الجرح والتعديل ما بين مُجَرِّح ومُعَدِّل(٣)، لكن إمامته في المغازي يكاد يُجمع عليها العلماء. قال الزهري، وقد سئل عن مغازي ابن إسحاق، فقال: أعلم الناس بها (أي: بالمغازي). وقال المؤرخ عاصم بن عمر بن قتادة المدني: لا يزال الناس في علمٍ ما بقي ابن إسحاق(٤).

وقال الشافعي: (من أراد أن يتبحر في المغازي، فهو عيال على ابن

(١) مقدمة ابن خلدون (ط: د.وافي): ١/ ٣٢٨.

(٢) نوادر الأصول لابن الأثير ٢/ ٥٧٣-٥٧٤.

(٣) وردت أقوال كثيرة للمعدلين والمجرحين له. وعلى رأس المجرحين: مالك بن أنس، وهشام بن عروة (وذلك في تهذيب التهذيب لابن حجر ٩/ ٣٤ وما بعدها).

(٤) عبارتا الزهري، وعاصم بن عمرو وردتا في: (سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٦، وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٦).

إسحاق)[١] وقول الطبرى عنه: من أهل العلم بالمغازى - مغازى رسول الله ﷺ - وأيام العرب، وأخبارهم، وأنسابهم، وراوية لأشعارهم، كثير الحديث، غزير العلم، طَلاَّبَه له، مُقَدَّم في العلم بكل ذلك، ثقة[٢]. لكن الأمانة تقتضينا أن نذكر توقف البعض فيما ينقله ابن إسحاق في روايات بدء الخلق، كما يؤخذ عليه تتبعه غزوات الرسول من أولاد اليهود الذين أسلموا، وحفظوا قصة خيبر وغيرها، وإن كان يتتبع هذا منهم من غير أن يحتج بهم[٣]. فلعله كان لمجرد العلم بالشئ، وإثبات ما سمع من روايات من مصادر مختلفة في الموضوع الواحد.

وهكذا، فرّق السلف بين الرجل مؤرخاً ومحدّثاً. ولو نظرنا في مسلك ابن كثير مع ابن إسحاق ذى العلم المزدوج (الحديثى، والتاريخى)، لوجدناه يعتمده مؤرخاً في كثير من المواضع من (البداية والنهاية)، خاصة فيما يتعلق بأخبارها ما قبل الإسلام والمغازى والسير؛ مما يدل على أن النظرة المتواضعة إلى ابن إسحاق محدّثاً - رغم أنها مختلف في صحتها - لم تؤثر في مكانته مؤرخاً. فقد كان ابن كثير يوافقه في معالجاته للسيرة، وفى ترتيب أحداثها[٤]، وكثيراً ما لقبّه بالإمام في أكثر من موضع، ومدحه وأثنى عليه، واعتبره إماماً في المغازى غير مُدافَع في ذلك[٥].

٢- ابن لهيعة:

وهو مختلف فيه كذلك - محدّثاً - كما بينْتُ ذلك تفصيلا[٦]، إلا أن الذهبى - علامة الحديث والتاريخ - تعامل معه في كتابه: (المغازى) على أنه مؤرخ، بطريقة تجمع بين المنهج الحديثى والتاريخى. فنحن نعلم أن ابن لهيعة نقل المغازى عن أبى الأسود، الذى نقلها بدوره عن عروة بن الزبير. ونعلم- كذلك-أن موسى بن عقبه نقل مغازيه عن الزهرى، الذى نقل معظمها عن عروة ابن الزبير. ونظراً لما أثير حول ابن لهيعة محدّثاً، وجدنا الذهبى يَعْتَدّ بالرواية التى ترد في مغازى (موسى بن عقبة، عن الزهرى) أولاً، على اعتبار أنها موثقة من العلماء حديثاً وتاريخاً، وأخذاً بمبدأ السلامة ثم يذكر أن ابن لهيعة روى الرواية نفسها بنحو ذلك[٧]، أو يقول: قال ابن لهيعة كذا، ورواه موسى ابن عقبة واللفظ له (أى: لفظ الرواية التى يذكرها الذهبى، إنما هو

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٦، والبداية والنهاية ٣/ ٩٥.

(٢) المنتخب في ذيل المذيل، للطبرى صـ٦٥٤.

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر ٩/ ٣٩. وقد رَدّ الذهبى على هذا الطعن، فقال: إن هذا تشنيع على ابن إسحاق، ولعله حمل عن أهل الذمة مُتَرَخِّصاً بحديث: (حَدِّثوا عن بنى إسرائيل، ولا حرج). (سير أعلام النبلاء ٧/ ٥٣).

(٤) البداية والنهاية (ط.مكتبة المعارف): ٣/ ٩٥.

(٥) السابق: ٣/ ٣١٤، ٤/ ٦٣، ١٤٩.

(٦) راجع دراستى له محدثاً في (الفصل الثانى من الباب الأول).

(٧) تاريخ الإسلام للذهبى (مجلد المغازى) صـ٨٣، ٣٤٧، ٤٢٨، وغيرها.

لموسى بن عقبه، يُقدِّم على ابن لهيعة رغم أن مضمون الرواية لديهما واحد). . وأحياناً كان يقدم رواية ابن لهيعة على رواية موسى[(١)]، وأحياناً كان يفرد بالذكر رواية ابن لهيعة[(٢)]، ربما لعدم وجود مرويّ عن موسى في هذا الشأن. إذاً هو منهج متنوع يقوم على النظر في المتن ومقارنة النصوص، ويبرهن على أن مقاييس العِلْمين مختلفة[(٣)]، وإن جاز تكاملهما معاً.

٣- ويضيف خليفة بن خياط (ت ٢٣٠هـ) بُعْداً جديداً لهذه القضية المهمة، فكان - كما يذكر محقق تاريخه -[(٤)] يلتزم الإسناد بدقة في الحديث، ويتساهل في الأخبار والأنساب؛ لأهمية وخطورة الحديث. أما في التاريخ، فنقل عن المراسيل والمقاطيع من روايات ابن الكلبي والواقدي (وهما مجروحان ومتروكان من المحدّثين، لكنهما إمامان في التاريخ). واهتم خليفة بالسيرة وأسانيدها، وإن كان جَمْع الأسانيد لديه يتعارض مع دقة السند، لكنه اعتمد على المصادر الموثقة فقط. واتجه خليفة اتجاهاً آخر في كتابه: (الطبقات)، فتساهل فيه، واكتفى بذكر مصادره في أوّله؛ لأنه يعلم أن التساهل في كتاب مادتُه الأنساب وسِنُو الوفيات مقبول؛ لأن مجال الأهواء فيه قليل، بينما التحريف والتلاعب يَقْوَى في الأخبار المهمة ذات الصلة بالعقيدة والتشريع، فهذه ينبغي التحقق منها، والتدقيق فيها سنداً ومتناً.

وهكذا، يمكن القول بأن خليفة بن خياط في: (تاريخه)، و(طبقاته)، والذهبي في: (مغازيه)، وابن كثير في: (البداية والنهاية) قد أرسوا الأسس النقدية التاريخية، من خلال واقع عملي تطبيقي، بيّنوا من خلاله مدى صلة النقد التاريخي الواقعية بالنقد الحديثي. ولعلنا - في المستقبل - بعد دراسة وتوثيق، وإعادة نشر وتحقيق مصادرنا التاريخية نخرج بعلم (جرح وتعديل رواة التاريخ)؛ كي نضارع وننافس به علم (الرجال) في الحديث.

---

(١) السابق: صـ٥٢٦، ٥٥٤، وغيرها.

(٢) السابق: صـ٤٢٣ (في حديث هرقل لأبي سفيان)، صـ٤٩٥ (في دعاء الرسول لأهل الطائف لمّا رحل عنهم)، وغيرها.

(٣) ومن هنا لا نرى داعياً لتداخل النقد الحديثي مع التاريخي في ذهن أحمد أمين في (فجر الإسلام) صـ١٩١؛ إذ لم يفرق بين طبيعة كُلّ.نلمح هذا من قوله عن ابن لهيعة: إن كثيراً من المحدّثين يثق به.وللأسف فكثير من حوادث بلدنا-مصر-رواها، وكان عمدتها،بل ولي قضاءها ٩ سنوات! والذي يبدو أن أحمد أمين كأنما يتحسر على نسبة أخبار تاريخ مصر في معظمها إلى ابن لهيعة، فتكون مشكوكاً في صحتها؛ نتيجة تضعيف كثير من المحدّثين له، بل لعله عجب من توليه القضاء وهو بهذا الضعف الحديثي. والحق أن أحمد أمين لم يدرس ابن لهيعة محدّثاً ليعرف مدى صحة رأي مَنْ ضعّفه، ولم يدرسه مؤرخاً؛ حتى يتبين منزلته في عالم التاريخ، كما لم يدرسه قاضياً فقيهاً؛ ليرى براعة فهمه القضائي.

(٤) تاريخ خليفة (دراسة د. العمري في مقدمته): صـ١٤-١٦.

٥- أخيراً - مكانة التاريخ بين العلوم في القرنين: الأول، والثانى الهجريين في الدولة الإسلامية بعامة، وفى مصر بخاصة:

أ- من حيث النظرة إليه وإلى المشتغلين به:

من المعلوم أن التاريخ الإسلامى في كل العصور وثيق الارتباط بالتطور العام للحركة الفكرية الإسلامية. ويُفهم دوره الحاسم في التربية الإسلامية من خلال وضعه ضمن النطاق العام للثقافة الإسلامية(١). ورغم أن هذا الدور ريادى مهم، إلا أن المجتمع كان ينظر إلى المحدّث نظرة أفضل وأشرف من المؤرخ، واعتبروا المحدّث أسمى منزلة من الأخبارى(٢)؛ لشرف الحديث، ولأن الأخبار - خاصة قديمها - مظنّة التلفيق والاختلاق(٣). بل إن المحدّث كان إذا اهتم بالأخبار التاريخية ضعّفوه كما حدث لابن إسحاق، لمّا نقل الأخبار عن أهل العلم الأول (أهل الكتاب)، بل كان لا يُستحسن للفقيه أن يتوفر على طلب الأخبار(٤).

لقد ذَمّ التاريخَ أناسٌ كثيرون، احتقروا التواريخ وازدَروْها، ونَحَوْا باللائمة على كُتّابه جميعاً، وطالبوا بالإعراض عن تلك الكتب وإلقائها، دون أن يفرقوا بين الغثّ والثمين، وذلك لظنهم أن غاية التاريخ القصص والأخبار، ونهاية المعرفة في كتبه الأحاديث والأسمار(٥)، وأنه به كثير من الخرافات، فقد دخل فيه مَنْ ليس من أهله، ومَنْ لا مؤهل له من القصاص وغيرهم(٦). زعم آخرون أن كتب التاريخ بها معلومات سبق أن دُوِّنَتْ، فلا فائدة منها ومن كتابتها. ويَرُدّ السخاوى بأن التاريخ - في الجملة -

(١) علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال (من الترجمة العربية لصالح أحمد العلى): صـ٤٥.

(٢) وليس ذلك مما ينفرد به التاريخ، بل شاركته علوم اللغة والأدب وغيرها. فقد كانت علوم القرآن والسنة تتمتع بكل الإكبار والاحترام دون سواها من العلوم. فقد اهتموا - مثلاً - بأسانيد الحديث، وأهملوا وتساهلوا في أسانيد اللغة والتاريخ؛ بحجة عدم التطويل. بل إن الواحد منهم كان إذا ألّف في التاريخ، والتفسير - مثلاً - يدقق في التفسير نسبيّاً، ويبدى رأيه ويعلق أحياناً، بما لا يُوازِى أو يُدانِى ما يفعله في التاريخ. والطبرى في تفسيره وتاريخه مثال حيّ على ذلك. (المحدّثون في مصر، لأحمد عمر هاشم صـ٧٧-٧٨).

(٣) علم التاريخ لهرنشو (فصل عن تاريخ العرب بقلم المترجم) صـ٥٧.

(٤) وفيات الأعيان ٦/ ٣٨٢-٣٨٣. وفيه أورد ابن خلكان قصة وقعت بين أبى يوسف وأبى حنيفة، عاب فيها الأخير على الأول اهتمامه بالمغازى، والسير، والأخبار، وأيام العرب، بل إنه سخر منه. ورَدّ عليه أبو يوسف بما أفحمه، وأسكته.

(٥) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى (ط.دار الكتب العلمية): صـ٩٢.

(٦) مقدمة ابن خلدون (ط.د.وافى): ١/ ٣٢٠: ولا يعنى هذا مشاركة ابن خلدون في الحَطّ من شأن التاريخ والمؤرخين، بل أورد هذا الكلام في هجومه على من أساءوا إلى التاريخ، ودخلوا مجاله، وهم ليسوا أهلاً للتصدى لذلك العلم العميق، كما عبّر ابن خلدون نفسه.

كغيره من العلوم، في كلام علمائه الخمير والعفين، والسعيد مَنْ عُدّت غلطاته، وما اشتدتْ سقطاته، فكل إنسان سوى ما استدركوا يؤخذ من كلامه ويُترك، وهى الدنيا لا يكمل فيها شئ، ولا يخلو مُصَنَّف من نَشْر وطَىّ، وحَقٌّ على الله ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه، وليس المعنى إعدامُه وإتلافَه، وإنما نَقْص فيه[(١)].

وإذا كان ما مضى عبارة عن نظرة الأقدمين للتاريخ ولرجاله، فقد كان لبعض المعاصرين آراؤهم كذلك. ففى الوقت الذى يرى فيه أحدهم[(٢)] أن التاريخ بدأ أخباراً وأقاصيص، ولم يكن علماً منضبطاً، وكانت مكانة الأخباريين فيه (كأبى قبيل، وعبيد الله بن أبى جعفر في مصر مثلاً)، وهم الذين لا يهبطون لمروجى الخرافات، ولا ينهضون لمكانة الرواة الثقات، لا تغرى أهل العلم بالعكوف عليه وضبطه ونقده، وسارت الحركة العلمية نحو ما هو أَوْثَق وأَجْدَى، فاتجهوا إلى الحديث وأهملوا التاريخ. في الوقت الذى وجدنا فيه الرأى السابق، نرى باحثاً آخر[(٣)] يزعم أن التاريخ اعتُبِر منذ البداية علماً[(٤)]، وكان القائمون عليه يؤكدون على تمحيص الروايات ونقدها من حيث الإسناد؛ لأن الروايات والأخبار عرضة لتأثير الرغبات والميول الحزبية والعصبية.

والحق أن هذا الرأى الأخير مبالغ فيه، فنحن لا نحس من خلال ما عرضنا من مؤرخى القرنين: الأول، والثانى الهجريين، أنهم كانوا يصرحون بانتقاء السند، ولم نكد نحس بحضور شخصياتهم وتعليقاتهم إلا نادراً، كما رأينا.

والخلاصة:

أننا يجب أن نعترف بأن مكانة المؤرخ كانت دون مكانة المحدّث في ذلك الوقت، أو بالأدق نقول: إن دقة العالم عندما يصنّف في التاريخ تَقِلّ عن دقته وعنايته عندما يروى، ويؤلف في الحديث. وهذا الإهمال في نقد وتمحيص روايات التاريخ، هو

---

(١) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى (ط.دار الكتب العلمية) ص١١١-١١٢. وجدير بالذكر أن الدكتور حسين مؤنس اعترض على السخاوى، وتعريفة التاريخ بأنه مجرد معرفة الوقت، وأنه جعله علماً فرعيّاً مساعداً للحديث، فعدّه بذلك علماً ثانويّاً، بل نقد أسلوبه كله في كتابه: (الإعلان)، واتهمه بالرداءة، وعدم التماسك، وأن السخاوى لم يعرف كيف ينصف المؤرخين؛ لأنه ليس مؤرخاً، ولم تكن لديه الملكة الحقّة، التى بها يدرك حقيقة وطبيعة التاريخ، وإن استدرك مُثْنياً عليه أنه جمع لنا في (الإعلان) طائفة من أجمل ما قالت العرب في التاريخ، وأبرز خلاصة القيمة التعليمية للتاريخ. (مقال: التاريخ والمؤرخون) في مجلة (عالم الفكر)، المجلد الخامس، العدد الأول، سنة ١٩٧٤م، صـ٥٥-٥٨.

(٢) هو الدكتور فتحى عثمان في كتابه: (أضواء على التاريخ الإسلامى) صـ١٣٢-١٣٣ .

(٣) هو الدكتور عبد العزيز الدورى فى: (بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب) صـ٥٨.

(٤) ذكر الباحث في هامش صـ٥٨: أنه استعمل كلمة (علم) هنا مقابلة لكمة (رأى). فلعله يقصد: أن التاريخ علم نصوص وروايات، لا مجرد آراء تُطلق بدافع الأهواء.

الذى أزرَى بذلك العلم، وحَطّ من شأن القائمين عليه، على الرغم من أن منهج المحدِّث الناقد هو منهج المؤرخ الباحث المدقق. فالمحدِّث يبدأ من الحديث المتداوَل يفحصه وينتهى - إن صح سنداً ومتناً - إلى تصحيحه، فهو يتخذ مساراً معاكساً لاتجاه الزمان، وهو ما يماثل المنهج الاستردادى في التاريخ، أى: الاستعانة بما يورد من روايات في الواقع للحكم على صحة ما ينسب للماضى؛ لأن استعادة الماضى الحقيقية غير ممكنة، فالرسول ﷺ، أو الرواة السابقون للأحداث غير موجودين، وبالتالى لا نستطيع مراجعتهم والاستيثاق منهم[١]. بل إن شروط المحدث هى شروط المؤرخ[٢]؛ بدليل أننا نجد أن كبار المحدّثين هم - في الوقت ذاته - كبار المؤرخين، وبراعتهم كمؤرخين نشأت من براعتهم محدّثين، من أمثال: الذهبى، والنووى، والمقريزى، وابن حجر، وغيرهم[٣]. فلو أن العلماء وهم يبحثون في التاريخ لم يكتفوا بالسرد والنقل لكل ما يُروى، وإنما أضافوا لذلك نقداً وتمحيصاً، لنهضوا بمكانة التاريخ بين العلوم، وبمكانة المؤرخ بين العلماء.

ب- من حيث الغرض، والفائدة، والتراث التاريخى الموجود:

لا نعتقد أن مؤرخى هذين القرنين المبكرين كانوا يدركون أن التاريخ كان علماً بالمعنى الصحيح، وأنه هو: الاستقصاء، والبحث، وطلب الحقيقة[٤]. فذلك ما لم يُدرك إلا حديثاً، وإنما كانوا ينظرون إليه على أنه أخبار الماضين، يأخذها الأحياء للعظة

---

(١) محاضرات في علم التاريخ، للدكتور حسنين محمد ربيع ص٢٨.

(٢) من العدالة مع الضبط التام الناشئ عنه مزيد من الإتقان والتحرى، سيما ما يُرَى في كلام الجهلة فيما يتصل بتاريخ الأنبياء. فلا يُقبل من حوادث وملاحم الأوائل، ومما ورد في الكتب القديمة كالتى تُنسب إلى دانيال، ولا يصلح من كتب الملاحم والفتن إلا اليسير، مما اتصل إسناده برسول الله ﷺ. والمؤرخ كالمحدّث ينبغى أن يكون ديّناً خيرّاً، فلا مدح ولا مداهنة، فهما قد يخرجانه عن حد النزاهة والموضوعية. وكذلك تُشترط العدالة في الحكم على الأحداث، ورجالها، فمعرفة أقدار الناس مهمة. فمن كَثُرَتْ محاسنه على عيوبه وُهب نقصه لفضله، فلا يكتفى المؤرخ والمحدّث كلاهما بما اشتهر نقله من الطعن في الأشخاص أو الرواة. (الإعلان بالتوبيخ للسخاوى، ط. دار الكتب العلمية): ص١١٤-١١٧، ١٢١، ١٢٦. ويضيف د. حسنين ربيع: أن التشابه والتطابق بين المحدّث والمؤرخ، والحديث والتاريخ، لا يعنى التطابق وتَوَحُّدَ المنهج بينهما؛ لأن المؤرخ لا يقف عند حد تصحيح الواقعة، كما يقف المحدّث عند حد التأكد من صحة الحديث. فالمؤرخ يقطع بعد ذلك أشواطاً وآماداً طويلة معقدة في الربط والتحليل والتركيب للجوانب الحضارية المختلفة في الأخبار التاريخية بما لا يفعله المحدّث (محاضرات في علم التاريخ ص٣٩). وهذا حق وصحيح، وإن كان مؤرخو هذه الفترة (ق ١، ٢هـ) لا يقوون على ذلك، فتلك مهمة المؤرخ والباحث المعاصر بالدرجة الأولى الآن. وإنصافاً أقول: إن الفقيه يأخذ نص الحديث، ويفعل به من الدرس والمقارنة والاستنباط ما يشبه عمل المؤرخ الحديث.

(٣) مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى، لمحمد عبد الله عنان: ص٣٥.

(٤) علم التاريخ لهرنشو (فصل تاريخ العرب) ص١٠.

وللعبرة وللإفادة. فهم-إذن-لم يؤلفوا فيه لمجرد التسلية والإلهاء، وإنما على اعتبار أنه مجموعة من الأحداث التى وقعت في الماضى، يعتبرون بها ويتعظون في الحاضر، وإن لم يهتموا اهتماماً واضحاً ومفصّلاً بالأحداث الحاضرة، فلم يدونوها كاملة، ولم يصرحوا بأهميتها لمستقبل أيامهم(١).

فتوسع هؤلاء المؤرخون في رواية الحديث وسردها، وخلطوا الصالح منها بالطالح، وخَلّفوا ثروة هائلة من الروايات التاريخية. وقد رأينا أن مؤرخى مصر كلهم - تقريباً في تلك الفترة - كانت لهم مؤلفات في التاريخ خاصة الليث ابن سعد، الذى صرّحت المصادر بمؤلفه التاريخى، إلا أن الملاحظ أنها جميعاً فُقدتْ. والحال نفسه في المدارس الأخرى، إلا أنها بقى منها سيرة ابن هشام، ومغازى الواقدى، إلى جانب ما بقى من مؤلفات فُقدت للشعبى، والأوزاعى، والوليد بن مسلم، وأبى مَعْشَر، وسواهم. والحق أن بقايا هذه الكتب، وهى متناثرة في مصادر التاريخ المتأخرة، تفيد أنهم كانت لهم مصنّفات لا بأس بها من حيث الكَمّ(٢)، إلا أننا حُرِمْنا من وجودها كاملة على هيئتها الأولى. ويلاحظ أن هؤلاء المؤرخين، ومن خلال ما بقى لهم من تراث تاريخى، ومن خلال طبيعة نظرتهم إلى غرض التاريخ وفائدته، كانوا يشتركون معاً في مجموعة من المعايب، التى انتُقِدوا بسببها(٣)، منها:

١- ضعف ملكة النقد عامة:

فلا نكاد نلمح لهم وجوداً إلا نادراً (كما رأينا عند الليث مثلاً). ولا أعتقد أن ذلك يعود إلى طبيعة العقلية العربية القاصرة في فهم العلاقة بين السبب والمسبِّب كما يقول بعضهم(٤)، متغنين بتفوق العقلية اليونانية، وإنما السبب - كما قلت - نابع من طبيعة نظرتهم، واكتفائهم بالسرد والنقل، تاركين مَنْ بعدَهم للفحص والنقد؛ إذ لم يجدوا وقتاً لهما معاً. وحسناً فعلوا؛ لأنهم عرضوا لنا وجهات النظر المختلفة، وتركوا لنا حرية البحث والتحرّى والتقصّى.

---

(١) (صناعة التاريخ): مقال لمحمود عواد حسين في مجلة (عالم الفكر) مج٥ ع١، صـ١١٦.

(٢) ومن ثم لا أجد دليلاً يستند إليه زَعْم الدكتور شاكر مصطفى القائل: إن التأليف التاريخى في ق ١، ٢هـ كثير، ولكن المؤلَّف الواحد عبارة عن رسالة، لا تتجاوز بضع ورقات (التاريخ العربى والمؤرخون ١/ ٢٩٣).

(٣) أورد هذه الأسباب مترجم (علم التاريخ) لهرنشو، الدكتور عبد الحميد العبادى في فصله عن: (تاريخ العرب) صـ٦٩، وأحمد أمين فى(ضحى الإسلام)٢/ ٣٥٩-٣٦٠.

(٤) أحمد أمين في (فجر الإسلام) صـ٣٩-٤٠، ووافقه على ذلك الزعم من وجهة نظر النقد الأدبى لشعر العرب الدكتور محمد طاهر درويش في كتابه: (فى النقد الأدبى عند العرب إلى نهاية ق ٣هـ) دار المعارف (١٩٧٩): صـ٤٨-٥١. لكنْ رَدّ على دَعاوَى هؤلاء، وغيرهم: الدكتور محمد كمال جعفر، والدكتور حسن الشافعى في كتابهما: (فى الفلسفة: مدخل وتاريخ). لقد رَدّا ادعاءات تفوق العقلية اليونانية على العربية صـ١٠٣-١٠٨، وما بعدها.

٢- عدم القدرة على النفاذ إلى أعماق الأحداث لتعليلها، واستكناه مخبوئها وأسرارها: لقد اكتفوا - أحياناً - بنَغْمة قَدَرية للتفسير والشرح.

٣- قَصْر التاريخ على الأفراد، والحروب والسياسة في أبسط صورها:

والحقيقة أن مفهوم السيرة كان واسعاً شاملاً لدى مؤرخينا في مصر وفى غيرها، إلا أن ذلك لا ينفى أننا لا نجد تفاصيل الحياة اليومية، وصورة المجتمع الإسلامى ككل من خلال كتب السيرة أو التاريخ، وإن كان يمكن تجميعها من ثنايا كتب الحديث؛ إذ اعتبرها هؤلاء حديثاً لا تاريخاً.

جـ- وأخيراً، من حيث قدرة المؤرخين في هذين القرنين على كتابة التاريخ المعاصر:

والحقيقة أن هذه القضية من القضايا المتعثرة في تاريخنا الإسلامى، خاصة القرنين الأولَيْن منه، فالمواد التاريخية التى عثرنا عليها من بقايا مؤلفاتهم لا تُجَلِّى هذه النقطة، وإنما تَدَعُنا وقد استحالت القضية إلى ظلال باهتة، وعلى الشفاه تساؤلات حائرة، وفى الذهن علامات استفهام لا تزال قائمة. لقد اهتم مؤرخو هذين القرنين - كما رأينا - بالسيرة، وببعض نواحى حكم الراشدين، وبقليل من الأمور المتصلة بعصر الأمويين. صحيح أننا رأينا بعض الصحابة كابن عمرو - مثلاً - في مصر يروى ما عاصره من أحداث في عصر النبوة، وفى عصر الراشدين من خلال ما شاهد من أحداث الفتوحات الكبرى، التى اشترك فيها، لكننا لا نرى من خلال بقايا كتبهم ما يمكن أن نسميه تاريخاً معاصراً، أى: سجلاً لما حدث - مثلاً - في عصر الراشدين كاملاً، خاصة أحداث الفتنة التى شهدها ابن عمرو، أو ما يتصل بفترة حكم الأمويين كاملة وقد عاصرها كل من: أبى قبيل، ويزيد، وعبيد الله مؤرخى مصر. ولذا يصعب علينا أن نبرهن - عمليّاً - على مساهمة المؤرخين في تلك الفترة في تحريك المجتمع عن طريق التاريخ، ولا نستطيع أن ندرك - بالتحديد - مدى إسهامهم في الواقع الفعلى المُعاش، ولا نستطيع أن ندرك - بيقين - مدى شجاعتهم أو نزاهتهم في نقد حكامهم المعاصرين من خلال إسقاطات التاريخ الماضى، وَوصْله بالتاريخ المعاصر لهم، كما أننا - للأسف - لا ندرك مدى قدرة هؤلاء على صنع الحاضر، ورسم المستقبل من خلال كتاباتهم التاريخية. ربما كان لهم إسهام ما، لكننا - للأسف - فقدنا أدلة وبراهين ذلك الإسهام بفقدان مؤلفاتهم التاريخية.

لقد لمسنا - فيما مضى - مواقف وقفها بعض المؤرخين في مصر تجاه بعض أحداث عصرهم، كموقف عبد الله بن عمرو من مبايعة يزيد بن معاوية، وتعليق يزيد بن أبى حبيب على ما شاع في المجتمع المصرى آنذاك، وهو تحت الحكم الأموى، من عيون تتجسس على الناس لحساب الولاة. وهناك تعليق لليث بن سعد بصوت سمعه

مَنْ بجواره على خطبة الوالى الغَشوم موسى بن مصعب[١]، لكنها لا تَعْدو حَدّها الذى صدرت فيه، ووقتها الذى خرجت خلاله، وهى تعليقات فردية سلبية، لا نلمح فيها الأثر الإصلاحى الشامل، الذى يمكن للمؤرخ المسلم أن يقوم به في مجتمعه.

وإذا انتقلنا - الآن - إلى المدارس الأخرى؛ لنرى موقفها من تلك القضية، فإننا لا نعلم عن عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ) أكثر من أنه اهتم بمغازى رسول الله ﷺ، رغم أنه عاصر أحداثاً جِساماً، فلم نر له تسجيلاً لشئ منها، وإنما اكتفى باتخاذ موقف سلبى تجاه الحكم الأموى، رواه لنا ابن سعد[٢]، وفيه: أن عروة اجتمع مع علىّ بن حسين بن علىّ في مؤخرة مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة يوماً بعد صلاة العشاء، وتحدّثا عن جَوْر بنى أمية، ومقامهما بينهم لا يقدران على التغيير، ولا يقويان عليه، وأظهرا خوفهما من عقاب الله لهما، ثم انتهى الأمر بأن اتفقا على الخروج بعيداً عن المدينة، يعلنان أنهما ساخطان على ذلك الظلم، لعلهما يَسْلَمان من عقاب الله، إنْ حَلّ ببنى أمية. وأقول: إذا كان التغيير الفعلى فوق طاقتهما، ألم يفكرا - وبالأحرى عروة - في تدوين هذا الجور ؟!

لا شك أن جماهير الناس - يومها - كانوا ينظرون إلى هؤلاء المؤرخين، ويتطلعون إليهم؛ ليُشبعوا نهمهم في معرفة ما يدور حولهم ومعارضته، لكن يبدو أن غياب هؤلاء عن الساح - على الأقل فيما وصل إلينا حتى الآن من نصوص - أعطى الفرصة لتدخل القصص والقصاصين في أركان الحياة الثقافية في مصر وفى غيرها، فاستمع الناس إلى حكايات القصاص وخرافاتهم، وأخبار الماضين وأيام العرب وقبائلهم قبل الإسلام، تُصاغ بطريقة معينة لتحقيق أغراض محددة[٣].

وهكذا، جلس الأميون إلى القصاص يأخذون عنهم، ولعل المثقفين كانوا يطالعون المؤلفات التى نفتقدها نحن اليوم. وعلى كل، فالقصص الموجود في مقدمات السيرة أقل تحريفاً مما ورد في أخبار الفتوحات الكثيرة وكتبها المتعددة التى تُنسب للواقدى مثلاً[٤].

---

(١) يروى سعيد بن أبى مريم: أنه سمع الليث يقول، وموسى بن مصعب والى مصر (١٦٧- وقتل ١٦٨هـ) يخطب الناس، وكان ظلوماً غشوماً، فمر بآية: " إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُها ". (سورة الكهف: جزء من الآية ٢٩)، فقال الليث: اللهم، لا تمقتنا. (أى: لا تنزل علينا سخطك؛ نتيجة ظلم هذا الظالم، وعدم قدرتنا على دفعه باليد، واللسان جهرة). (الولاة والقضاة ص١٢٨). ولا شك أن في عصر الليث - على مكانته في المجتمع التى عرفناها - ما لا يقدر على تغييره. ولا شك أنه وغيره رووا السنة النبوية، وربطوا الشرع بحياتهم ما استطاعوا، إلا أنهم ربما لم يسجلوا أحداث تاريخهم المعاصر؛ لانشغالهم بالحديث والفقه.

(٢) طبقات ابن سعد (ط.ليدن): ٥/ ١٣٥.

(٣) (مصر الإسلامية: مقوماتها العربية، ورسالتها الحضارية)، للدكتور العدوى ص٢٤٥.

(٤) علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال (الترجمة العربية) ص٢٥٧، ٢٦٠. وإن كنت أعتقد أن أساطير بدء الخلق فيها خرافات كثيرة.

وبخلاف التعليقات والمواقف الجزئية، التى ألمحنا إلى بعضها، اتضح أننا لا نقوى على تكوين تصور واضح لمدى مساهمة المؤرخين في تدوين الأحداث المعاصرة. ويبدو أن نشاط القصاص من جهة، وتَوْقَ هؤلاء المؤرخين للحديث والفقه - على حساب التاريخ - حال دون تكوين هذا التاريخ المعاصر، على أهميته وخطورته.

إن في الأقاليم الأخرى أسماء لبعض الكتب يبدو أن أصحابها ألَّفُوا في التاريخ المعاصر كعوانة بن الحكم، والهيثم بن عدى، إلا أن كتبهما في عِداد المفقودات، حتى إننا عندما نجد حاكماً من الحكام كالمنصور - مثلاً - يطلب إلى ابن إسحاق أن يكتب له تاريخاً من آدم إلى عصره، نجد ابن إسحاق - في النهاية - لا يقوى إلا على تنفيذ شطر ضئيل من ذلك كله، فلا يترك لنا إلا كتابه في السيرة(١) من خلال تصرف ابن هشام فيه.

رغم أن الصورة غامضة على النحو الذى بَيّنتُ، إلا أن الصدق والأمانة يسوقاننى- وإحقاقاً للحق - إلى التنويه بعمل قام به أبو معشر المدنى(٢)، مؤرخ المدينة، الذى ربما كان بمنزلة بادرة أمل لا بأس بها - إن وُجِدَتْ بقايا محاولته، ووجدتْ مَنْ يجمعها جمعاً شاملاً - في ضرب مثل واضح على كتابة التاريخ المعاصر في هذه الفترة. فأبو معشر - إلى جانب مغازيه-(٣)أعَدّ تاريخاً حَوْليّاً لحوادث العصر الإسلامى، وصل به إلى قُبيل وفاته بقليل (عام ١٧٠هـ)(٤). وكان آخر حادث اقتبسه الطبرى من هذا التاريخ المفقود هو وفاة الخليفة موسى الهادى، ليلة الجمعة للنصف من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠هـ(٥). ويبدو أن هذا التاريخ بدأه صاحبه - كعادة مؤرخى

---

(١) تاريخ التراث العربى، لسزكين (ط.الهيئة العامة): ١/ ٤٦٠.

(٢) هو نَجيح بن عبد الرحمن السِّندى ثم المدنى، مولى بنى هاشم. كان مُكاتَباً لا مرأة مخزومية، فأدَّى فعُتِق. وهو إمام محدّث صاحب المغازى. حدث عنه: الليث، وعبد الله بن صالح، وهُشَيْم الواسطى. كما حدّث عنه بمغازيه: ابنه محمد، فهو من خاتمة مَنْ روى عنه. وكان ابن حنبل يرضاه، ويقول: بصير بالمغازى. وذكروا أن المهدى أشخصه معه من المدينة إلى العراق، وأمر له بألف دينار سنة ١٦٠هـ. وقال له: تحضرنا تُفَقّه مَنْ حولنا. توفى ببغداد سنة ١٧٠هـ. (طبقات ابن سعد، ط.ليدن): ٥/ ٣٠٩، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٤/ ١/٤٩٣، ٤٩٥، وميزان الاعتدال للذهبى: ٤/ ٢٤٦ وبعدها، والكاشف للذهبى (ط.دار الكتب الحديثة): جـ٣ مج ٢/ ١٩٩، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٤٣٥ وبعدها، ومرآة الجنان لليافعى: ١/ ٣٥٩).

(٣) الفهرست لابن النديم صـ١٠٥.

(٤) المغازى الأولى ومؤلفوها، لهوروفتس (ترجمة حسين نصار): صـ١٠٠. وذكر سزكين في (تاريخ التراث العربى) ١/ ٤٦٦-٤٦٧: أن له كتاب المغازى، ووصل قسم منه في مغازى الواقدى، ولدى ابن سعد في (طبقاته)، والطبرى في (تاريخه). وله كذلك (تاريخ الخلفاء)، أفاد منه الطبرى كثيراً، فلعله تاريخ حولى.

(٥) تاريخ الطبرى ٨/ ٢١٣ (بصيغة: قال أبو معشر. ثم ذكر نص الرواية، ثم أورد سندها: حدثنا بذلك أحمد بن ثابت، عمن ذكره، عن إسحاق). فالطبرى نقل عنه بواسطة.

ذلك العصر - بالحديث عن بدء الخلق، وتاريخ الأنبياء قبل الإسلام؛ بدليل نقل عبد الله بن صالح المصرى - كاتب الليث بن سعد - عنه روايات تتصل بخلق السموات والأرض والجبال، وآدم. وفيها رائحة الإسرائيليات، وهذا أمر طبيعى فهى تنتهى إلى عبد الله بن سلام(١).

وعلى كل، فأعود إلى القول بأن فهم مؤرخينا للتاريخ وطبيعة غرضه، وهو مجرد الوقوف على الأحوال الماضية، وأن فائدته هى العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن؛ لِيُحْتَرَز من أمثال ما نُقل من المَضَارّ، ويُستجلب نظائرها من المنافع(٢). لعل ذلك كان من الأسباب الرئيسية التى أدّت إلى إهمال التاريخ المعاصر، رغم أن مؤرخينا لو فكّروا قليلاً، لوجدوا ضرورة كتابته؛ لأنه بالنسبة لمن بعدهم يُعَدّ تاريخاً ماضياً مفيداً. وهكذا تتواصل الأجيال، وتُفيد من تجارب الأمة كلها عبر مختلف عصورها. إلى جانب هذا السبب لعل هناك أسباباً أخرى قعدتْ بهم عن كتابه التاريخ المعاصر، منها: أن الاهتمام بالعلوم والثقافات الأخرى طغى على ذلك، واستنفد جهدهم ووقتهم، إلى جانب عدم وجود وثائق تعينهم في حينها على كتابة أحداث عصرهم، وتلك آفتنا في العصر الحديث، فبينما أوردوا لنا وثائق عن تاريخ ما مضى فيما يتعلق بالفتوح وغيرها، عجزوا عن ذلك فيما حضر، وكأن الكتابة عن عصور مضتْ أسهل بكثير من الكتابة عن شئون عصور معاصرة تَلَتْ.

وهكذا، وضعنا نهاية للحركة التاريخية: مؤرخيها، ومنجزاتهم، ومناهجهم، ومصادرهم، وتأثيرهم وتأثرهم خلال هذين القرنين على أرض مصر بشقيها: الإسلامى، والقبطى. وحان الوقت لنُسْدِل الستار خفيفاً شَفيفاً على هذه المرحلة الأولى من مراحل تطور علم التاريخ في الدولة الإسلامية بعامة، وفى مصر بخاصة؛ لنستقبل مرحلة جديدة على طريق التطور في ذلك العلم، وذلك على أيدى مؤرخى القرن الثالث الهجرى، ومن خلال عميدهم المؤرخ المصرى: ابن عبد الحكم. وهذا موضع الكتاب التالى، إن شاء الله.

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٤٧، ٥٤-٥٥.

(٢) أبجد العلوم، للقنوجى: ٢/ ١٣٨.

الخاتمة

(خاتمة)

عرضنا - في الأبواب السابقة - تفاصيل عديدة عن: (معالم الثقافة الإسلامية في القرنين الأولين من الهجرة)، بعد أن أرسينا الأرضية السياسية، التى تأثرت بها، ونشأت في رحابها العلوم العربية والإسلامية في الفترة الزمنية المذكورة. ويمكن الخروج بالنتائج المركزة الآتية:

أولاً - ازدهرت قراءة القرآن وإقراؤه في عهد الصحابة، وعلى أيديهم أخذ كثير من التابعين ومن بعدهم. وكانت للقراء شخصياتهم المتميزة ومكانتهم السامية في المجتمع. وقد مرت مدارس القراءات بمراحل: القراءة الحرة، ومرحلة الاختيار، ثم مرحلة الاستقلال. ومن أشهر القراءات التى ظهرت في تلك الفترة: قراءة نافع، وقراءة وَرْش. وكانت هناك صلات علمية وثيقة بين قراء مصر، والحجاز، والشام من خلال الرحلات العلمية المزدهرة آنذاك.

ومَرّ التفسير - أيضاً - بعدة مراحل، فكان على هيئة روايات حديثية متفرقة، رواها الصحابة عن رسول الله ﷺ، وبعدها ظهرت تفاسير ذاتية مبسطة للصحابة. وفى عهد التابعين لعب عكرمة، ومجاهد تلميذا ابن عباس دوراً مهمّاً في بث علم أستاذهما في الآفاق. وفى مرحلة التصنيف تبدّت علاقات مصر بالأقاليم الإسلامية الأخرى، فاحتفظ لنا عطاء بن دينار الهُذَلى المصرى بـ(تفسير سعيد بن جبير الكوفى)، ونقل عبد الله بن وهب المصرى (تفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدنى)، وكذا نقل كاتب الليث بن سعد (عبد الله بن صالح المصرى) تفسير ابن عباس المكى (بأصح طرق التفسير عنه.

ثانياً - عالجنا في فصل (الحديث النبوى) كثيراً من القضايا المهمة بالتفصيل، مثل: تدوين الحديث النبوى، ومراحله مركزين على محاولات تجميع الحديث النبوى الشريف، وأهم التصانيف التى دبجها علماء العراق والحجاز. وسلطنا الأضواء على قضية (الوضع): جذورها التاريخية، ودوافعها، ونتائجها، وجهود نقاد الحديث في الأقاليم الإسلامية المختلفة للتصدى للوضاعين، وظهور الاهتمام بالأسانيد، ومصطلحات تحمل الأحاديث، والجرح والتعديل، ودراسة المتون. وأبرزنا العلاقات المتبادلة بين محدّثى الولايات الإسلامية المختلفة، ونصيب كل إقليم من الدراسات الحديثية، وظهر لنا دور مصر الجيد، الذى لا يقل عن دور ما عداها من الأقاليم الأخرى.

ثالثاً - تعرضت الدراسة لأبرز فقهاء مصر من أمثال: عبد الله ابن عمرو بن العاص، وعقبة بن عامر الجهنى (فى عهد الصحابة). وتم تسليط الأضواء على أبرز الفقهاء في العصور التالية، ونماذج من آرائهم الفقهية ومؤلفاتهم. وقد ظهر أن الصلة وثيقة بين مصر والحجاز في ذلك المجال (خاصة بين الليث بن سعد، وعبد الرحمن بن القاسم، وعبد الله بن وهب المصريين، وفقيه دار الهجرة (مالك بن أنس).

رابعاً - رصدت الدراسة - في إيجاز - أبرز ملامح الإسهام اللغوى والأدبى في مصر الإسلامية، مقارنة بالأقاليم الأخرى. وظهر أن إقليم العراق أكثر الأقاليم اهتماماً بالتصنيف اللغوى والتقعيدى. وجارت مدرسة مصر المدارس الأخرى في المجال الأدبى (شعره، ونثره)، وتأثر أدباؤها بالأحداث الجارية على أرضها، وكتبوا في أغراض الشعر المختلفة، وتعرضوا للعديد من الأجناس الأدبية المختلفة.

خامساً - في مجال التاريخ: درسنا عدداً من المباحث التمهيدية المهمة، منها: المعنى اللغوى، والاصطلاحى للفظة (التاريخ)، ووضع التقويم الهجرى، والدوافع التى شجعت المسلمين على تدوين تاريخهم الإسلامى، ومراحل تدوينه، وصلته بتاريخ العرب قبل الإسلام.

وتمت دراسة عدد من مؤرخى الأقاليم الإسلامية المختلفة؛ ففى الحجاز درسنا عدداً من مؤرخيه في عصر الصحابة والتابعين، ومن بعدهم. ومن أبرزهم: موسى بن عقبة، والواقدى (مع التركيز على السمات المنهجية لكل مؤرخ منهم على حدة، ثم ذكر السمات العامة لمؤرخى الحجاز).

وفى مدرسة العراق التاريخية: ظهر مؤرخون من أمثال: الشعبى، وأبى مخنف، وسيف بن عمر. وظهر من السمات العامة لتلك المدرسة اهتمامها بالموضوعات الشائكة المتصلة بالردة، والفتن الواقعة بين المسلمين.

وفى مدرسة الشام: ظهر مؤرخون من أمثال: عوانة بن الحكم الكلبى، والأوزاعى. واتضح تفوقها في مجال السير والمغازى، والفتوح. والسِّيَر.

وفى مدرسة اليمن: ظهر كعب الأحبار، وابن سلام، ووهب بن منبه، وغيرهم. واتضح اهتمام أعلام هذه المدرسة التاريخية بموضوعات (بدء الخلق، والتاريخ الأسطورى القديم، وأحداث ما قبل الإسلام). واستمد عدد من مؤرخيها - عند معالجة السير والمغازى - مادة ليست قليلة من الإسرائيليات، التى تحتاج إلى تنقيح، ونقد، وتمحيص.

سادساً - سمات مدرسة التاريخ المصرية في القرنين: الأول، والثانى الهجريين:

١- من حيث شخصيات المؤرخين، وثقافاتهم، ومنزلتهم الاجتماعية:

نعمت مصر بعدد من المؤرخين المصريين في هذه الفترة. ويأتى على رأسهم: عبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو قبيل، وعبيد الله بن أبى جعفر، وعبد الله بن لهيعة،

والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب. وفى الجانب القبطى وجدنا (يوحنا النقيوسى) ممثلاً للمدرسة القبطية آنذاك.

وقد كان المؤرخون المصريون المسلمون يتسمون بصفات خلقية وعقلية طيبة. وينضاف إلى ذلك رقى ثقافاتهم، وغزارة علومهم، وتنوع معارفهم. لقد ألموا بعلوم العصر من قراءات وتفسير، وحديث وفقه، ولغة، وأدب، وتاريخ. لكنهم برزوا في بعض العلوم أكثر من البعض الآخر، فابن عمرو برع في رواية أحاديث رسول الله ﷺ. وأبو قبيل، وعبيد الله بن أبى جعفر برعا في الأخبار، والفتن والملاحم. ويزيد بن أبى حبيب بَزّ أقرانه في علم (الفقه)، وإليه ينسب تفقيه المصريين، ونقلهم إلى معرفة الحلال والحرام. وبرع عبد الله بن لهيعة في رواية الأحاديث النبوية، والأخبار التاريخية. وعُرف الليث بن سعد عالماً موسوعيّاً، لكنه يغلب عليه الفقه والحديث، إلى جانب التاريخ الإسلامى. وعبد الله بن وهب مشهور ومعروف في الأوساط الفقهية المصرية والحجازية بأنه الفقيه المصرى، تلميذ إمام دار الهجرة المقرب إليه الملازم له، الوارث علمه (علم مالك بن أنس).

وقد حظى هؤلاء المؤرخون بمكانة طيبة في المجتمع المصرى، فكان للصحابى الجليل ابن عمرو مكانته العليا (لصحبته، وعلمه، وسنه)، وكان ينوب عن أبيه في مصر، ووليها بعد وفاته قليلاً، وكانت له مشاركاته المتعددة في أحداث عصره المختلفة، وكان له رأيه الصريح في خلافة يزيد بن معاوية (لولا التهديد باستخدام القوة معه).

وكان يزيد بن أبى حبيب خفيف الظل، مرحاً، ذا فكاهة ساخرة، ونقد لاذع للظلمة من الولاة، وكان جمعه بين التاريخ والفقه دافعاً إلى ارتقاء فكره وعقله، وعلو منزلته بين الناس.

أما ابن لهيعة، فقد كان من أسرة بها العلماء كثيرون متوافرون، وكان عَقِبه - من بعده كذلك - في مناصب رفيعة في ولاية مصر الإسلامية. وقد ولاه المنصور القضاء (١٥٥-١٦٤هـ)، وكان أول قاضٍ مصرى، يولى من قبل الخلافة مباشرة.

أما الليث بن سعد، فحدث عنه ولا حرج، فقد كانت منزلته الاجتماعية تفوق مكانة الوالى والقاضى معاً، رغم أنه - في الراجح - لم يَلِ منصباً، وحاول المنصور إغراءه بمنصب القضاء، لكنه أبى (وسكت عنه المنصور، ولم يتعرض له بسوء). وكان ذا كلمة نافذة على العوام والعلماء والخلفاء، وكان بمكنته عزل القضاة (كما حدث مع القاضى الحنفى إسماعيل بن اليسع الكندى).

أما المؤرخ المصرى القبطى (يوحنا النقيوسى)، فقد كان يتمتع بمجموعة من الصفات (كالتواضع، والذكاء، والزهد في الدنيا، والتأرجح بين الروحانية المسرفة والتعصب البغيض). وجمع بين ثقافات غزيرة متنوعة (معارف دينية، وأدبية،

وتاريخية، ولغوية واسعة) وقد أهلته هذه الثقافة العريضة - خاصة في مجال اللاهوت - لأن يكون أحد كبار رجالات الدين المسيحى الأرثوذكسى في مصر، فولى الأسقفية، وولى إدارة شئون الأديرة والرهبان في مصر.

٢- من حيث مؤلفاتهم التاريخية، وموضوعاتها:

لم يخلف لنا ابن عمرو كتاباً مصنفاً في التاريخ في تلك المرحلة المبكرة، وإنما ترك صحيفة (الصادقة)، وبها أحاديثه التى رواها عن النبى ﷺ، وكتبها من فمه الشريف بلا واسطة. إلى جانب تجميع مروياته الأخرى عن العديد من الأحداث العامة والخاصة في مصر.

واكتفى أبو قبيل، وعبيد الله برواية بعض الأحداث التاريخية، التى يغلب عليها طابع الفتن والملاحم، وبعض الأساطير، والأخبار التاريخية القديمة. وكان يزيد بن أبى حبيب ذا مؤلَّف تاريخى مفقود، جمع فيه أخباراً عن فتوح مصر، وولاية عمرو بن العاص عليها. وبجانب ذلك له مادة، تتصل بمغازى رسول الله ﷺ.

وكانت لابن لهيعة مؤلفات تاريخية عديدة، تتلاءم مع غزارة علمه ومروياته، لكنها في عداد المفقودات. وبالنسبة لليث بن سعد، فإن المصادر تؤكد أن له كتاباً مصنفاً في (التاريخ)، نقله تلميذ ابن بكير عنه، لكنه غير موجود. وبالنسبة لابن وهب، فله (الجامع في الحديث)، وقد نشر منه جزء، وهو عبارة عن أحاديث نبوية، وآثار، يمكن أن يكون مصدراً من مصادر سيرة رسول الله ﷺ.

أما الموضوعات العامة التى شغلت المؤرخين المسلمين في هذه الفترة، فهى تدور حول (أحداث ما قبل الإسلام، وتاريخ السيرة النبوية، وقليل من تاريخ الراشدين، وبعض الملاحم والفتن والتنبؤات، وأحداث فتح مصر وأخبارها بعد الفتح، وأحداث الفتنة بها، وبعض روايات عن الخطط، وتاريخ القضاة، والتنظيمات المالية والإدارية في مصر، وشئ من فتوح إفريقية والنوبة).

وفيما يتعلق بالمؤرخ القبطى (يوحنا النقيوسى)، فله كتاب عن (تاريخ مصر)، اهتم فيه بموضوعات ثلاثة:

١- تاريخ مصر القديم حتى ميلاد المسيح.

٢- تاريخ المسيحية في مصر حتى الفتح الإسلامى.

٣- وصف فتح مصر الإسلامى.

٣- من حيث القدرة على الفهم الشامل المستوعب لحقائق التاريخ، وأغراضه، وفوائده:

وهذه سمة شائعة لدى معظم المؤرخين المسلمين في هذين القرنين. وقد تبين لنا من خلال بقايا مؤلفاتهم التاريخية، واستعراض الموضوعات الدالة عليها، أنهم كانوا

يدركون أن التاريخ ليس مجرد أقاصيص وحكايات، بل يهتم بالنواحى السياسية، ويؤرخ للنظام الإدارى والمالى والقضائى، ويتناول الخطط. ويبرز - إلى جانب ذلك كله - جوانب اجتماعية، وصوراً لها انعكاسات نفسية مهمة، نستشف منها أن هؤلاء المؤرخين كانوا يجعلون من التاريخ شعاعاً من الماضى ينير الحاضر والمستقبل بما فيه من عظات بالغات، ودروس نافعات، ونقد غير مباشر لحكام زمانهم عن طريق إسقاطات من الماضى على الحاضر.

وقف يوحنا النقيوسى تاريخه - كما صرح - على هدف أراد تحقيقه، وهو جمع الفضائل من خلال الأحداث، وسير الصالحين، ثم ترك ذكرى صالحة طيبة بعد الممات. وكان يهدف من وراء تاريخه - أيضاً - إلى العظة والعبرة، واستنهاض همة القبط في مصر، من خلال عرض جهاد أسلافهم الدينى عبر الزمان، كى تتحقق لهم - كما يزعمون - نصرة المسيح.

٤- من حيث أسلوب عرض الأحداث التاريخية:

حرص المؤرخون المصريون المسلمون على ذكر أسانيد مروياتهم التاريخية كنوع من توثيق المادة التاريخية الملائمة لثقافتهم الدينية (خاصة الحديثية)؛ إذ الأسانيد هى التى تعبر عن موارد هذه المرويات، ومصادر هاتيك المعلومات. واستخدم مؤرخونا كذلك أسلوب الإيجاز في بعض الأحداث، والتفصيل في بعضها الآخر (كما رأينا ذلك في مرويات عبد الله بن عمرو في أحداث السيرة النبوية). وكان أبو قبيل يستخدم جملاً قصيرة مسجوعة في روايات، غلب عليها الطابع القصصى. وإلى جانب ما مضى كنا نجد - أحياناً - في مرويات ابن عمرو، وابن لهيعة، والليث بعض الروايات ذات الطابع الأسطورى.

أما يوحنا النقيوسى، فلم يختلف أسلوبه كثيراً عن أسلوب مؤرخينا في العرض التاريخى (باستثناء الإسناد الذى لم يكن يعرفه سوى المؤرخين المسلمين). لقد استخدم طريقة ذكر التفاصيل الكاملة لبعض الأحداث التاريخية، حتى يصل بها إلى منتهى الشوط ومداه (كما في قصة غرق فرعون موسى، وجيشه). وأحياناً كان عرضه التاريخى يتصف بالغموض؛ نتيجة الإيجاز الشديد، أو التفصيل الذى لا يوضح الجزئيات. وأحياناً كثيرة كان أسلوبه يتسم بالنبرة الخطابية، واللهجة الحماسية العالية.

٥- من حيث مصادر التاريخ الإسلامى لديهم:

فيما يخص مؤرخينا المسلمين، اعتمدوا على القرآن الكريم في بعض مواقف المنافقين، وما سرده القرآن عن غزوات (بدر، وأحد، والأحزاب، وحنين، وغيرها). فكان القرآن مصدراً مهمًا للسيرة النبوية. وكانت أحاديث الرسول ﷺ التى رواها ابن عمرو، أو نقلها يزيد بن أبى حبيب، وابن لهيعة، والليث من المصادر الثرية لأحداث السير والمغازى أيضاً. كما اهتم مؤرخونا بمصدر جديد هو (المشاهدة)، فنقل إلينا ابن

عمرو من أحداث السيرة، والراشدين، وفتنة صفين (وكلها كان لها شاهداً وحاضراً)؛ مما جعل مروياته موثقه باعتباره شاهد عيان. وكذلك ما نقله عن (فتوح مصر)، وما نقله عنها يزيد بن أبى حبيب، وابن لهيعة، والليث في مروياته ترجع إلى كبار الصحابة (ونقلها عنهم تابعون حضروا وقائع الفتح أيضاً). ومن المصادر التى نقل عنها مؤرخونا (الإسرائيليات)، التى استقوها من كتب أهل الكتاب. وهذا موجود لدى ابن عمرو الذى كان يجيد السريانية، ويكثر من مطالعة كتبهم، وهو موجود كذلك لدى أبى قبيل. وبعض هذه الروايات صحيح، وأكثرها خرافات وأساطير.

أما يوحنا النقيوسى، فكان يعتمد على مصادر تناسب موضوعات كتابه، فنقل عن الكتاب المقدس، ومؤلفات الأقدمين والمعاصرين، إلى جانب الروايات الشفهية التى استمع إليها ممن عاصر أحداث الفتح الإسلامى لمصر، بالإضافة إلى معاينته ومشاهدته هو شخصيّاً لبعض هذه الأحداث؛ مما يجعله مصدراً تاريخيّاً موثوقاً به، ما تخلى عن تعصبه الدينى البغيض.

٦- من حيث القدرة على إيراد الإحصاءات، والحرص على توقيت الأحداث التاريخية:

وذلك أمر لمسناه لدى بعض المؤرخين المصريين المسلمين فيما تبقى من كتبهم التاريخية (فعرض ابن لهيعة لإحصاءات القتلى الشهداء في بعض مغازى رسول الله ﷺ في أحُد خاصة)، وحرص ابن لهيعة - كذلك - على ذكر توقيت عدد من الأحداث التاريخية المتصلة بالفتوح (فى إفريقية، والنوبة، وغيرهما). كما كان الليث بن سعد حريصاً على ذكر تواريخ الأحداث التاريخية بدقة وعناية. وقد حفظوا لنا - بذلك - تاريخنا من الخلط والاضطراب والتداخل، فضبطوا وقائع الأحداث، وسهلوا أمر تقويمها، والحكم عليها.

أما يوحنا النقيوسى، فإنه - على الرغم من استخدامه التوقيت في عدد من الأحداث البارزة المهمة، كوفاة هرقل ومن قبله ميلاد المسيح - إلا أنه لم يُعْنَ بالتوقيت في كثير من الأحداث الأخرى، خاصة ما ذكره عن الفتح الإسلامى لمصر؛ مما أدى إلى اضطراب السياق التاريخى لديه، وصعوبة مهمة ترتيب أحداثه وتقويمها.

وبخصوص الإحصاء، فقد عنى به يوحنا في بعض الأحيان (وذلك فيما عرض في التاريخ المصرى القديم عندما ذكر عدد المصريين في عهد الفرس؛ لأجل تحصيل الضرائب منهم، وكذلك ذِكْره أعداد الناجين من الروم في معارك حصن بابليون).

٧- مدى اتضاح شخصية المؤرخين:

وهذه قضية من القضايا المهمة، التى طالما ظُلم فيها المؤرخون الأقدمون، فأزرى بهم وبعلمهم، الذى يخلو من النقد والتحليل، والربط، والشرح، والتعليق، وغير ذلك مما يحقق له مكانة بين العلوم الأخرى. وقد ثبت - حتى مع هؤلاء المؤرخين الأولين

- أن هذا الاتهام باطل من أساسه؛ فلهذا العلم مناهجه، ولمؤرخيه حضورهم، وقد ثبت - حتى من البقية القليلة من مؤلفاتهم - نماذج فيها القدرة على التعليل وإيراد معلومات تاريخية جديدة (كالليث بن سعد مثلاً)، والربط بين الظواهر التاريخية في الماضى والحاضر، والتعليق (ولو كان موجزاً قصيراً) على بعض الأحداث، والقدرة على الترجيح أحياناً. ولمسنا لديه الدقة في إيراد الروايات التاريخية، والصدق، والتزام الحيده في إيراد الأحداث، سواء كانت للمسلمين، أم عليهم كأحداث غزوة أحد، وهزيمة حنين في البداية، والفتنة الكبرى. وهذه المنهجية وذاك الحضور موجود لدى مؤرخينا المسلمين عامة، وبنسب متفاوتة (ويتركز وجوده في مؤرخى ق ٢ هـ: ابن لهيعة، والليث بن سعد). وبالنسبة ليوحنا النقيوسى، فقد أثبت قدرة طيبة على تفسير وتعليل الأحداث التاريخية بقدر ما سمح به زمانه، الذى عايشه مستخدماً في ذلك التعليل القدرى الدينى، والتعليقات المنطقية العقلية، والربط بين الأحداث التاريخية المتناظرة. ويؤخذ على يوحنا تحيزه وتعصبه الدينى لمذهبه المسيحى اليعقوبى؛ مما أبعده عن الحيدة والنزاهة، والصدق الواجب في معالجة بعض الأحداث، والتى وعرضها في كتابه. وأشهد أن الرجل تميز على مؤرخينا المسلمين في عرض جوانب الصراع الداخلى بين الطوائف المسيحية المتناظرة، بخلاف مؤرخينا المسلمين المصريين - على الأقل فيما بقى من تراثهم التاريخى - الذين لم يتعرضوا بالقدر الواجب - فيما نعلم - لمعالجة الفتنة والخلاف بين الصحابة، ولم يعرضوا بصراحة للحروب التى دارت رحاها بينهم، فظل إسهام مؤرخينا المصريين في ذلك المجال شبه مجهول بالكلية.

٨- مدى القدرة على كتابة التاريخ المعاصر:

إن من عاصر من مؤرخينا أحداث السيرة وفتوح الراشدين (وذلك منحصر في عبد الله بن عمرو بن العاص) نقل ذلك بأمانة ووثاقه تامة دون تحيز ولا افتئات ولا ادعاء. أما في (تاريخ مصر وفتوحها)، فلم نجد أيًا منهم فسر وفصّل أحداث تلك الفتوح على نحو متكامل. ويتفوق يوحنا النقيوسى على مؤرخينا في هذا المجال؛ إذ لم يكتف بتاريخ مصر القديم، وإنما عرض أحداث فتوح مصر كما عاصرها، ونقلها عمن عاصرها (وإن كنا نأخذ عليه عدم إنصاف المسلمين، والميل مع العصبية والهوى).

٩- وأخيراً - علاقات التأثير والتأثر التاريخى في ق١، ق٢:

وقد ظهرت مدرسة مصر التاريخية فيهما كمدرسة تقف على قدمين قويتين، تطاول المدارس التاريخية الأخرى، وتزاحمها في ميدان التاريخ الإسلامى. ولم تكن مدرسة مصر منعزلة عن هذه المدارس؛ فقد كان لمؤرخيها علاقات وصلات وطيدة مع مدرستى: الحجاز، ثم الشام على وجه الخصوص. ورأينا صلات (يزيد بن أبى حبيب) بعلماء الحجاز من أمثال: الزهرى، وعبد الحميد بن جعفر الأنصارى، ومحمد بن إسحاق. بل إن ابن إسحاق كثيراً ما تتلمذ على يزيد، ونقل عنه بعض أحداث السيرة

ذاتها. وكذلك كان لابن لهيعة صلاته العميقة بمدرسة المدينة (فى مجال السيرة)، عندما نقل كثيراً من أحداثها عن (أبى الأسود، عن عروة بن الزبير). وكانت له صلاته بمدرسة الشام (عندما نقل عنه الوليد بن مسلم بعض الأحداث التاريخية). وكانت لليث بن سعد صلاته مع كل من: الزهرى، وهشام بن عروة، وأبى الزبير المكى، وعقيل بن خالد. وكانت لابن وهب علاقاته مع يونس بن يزيد الأيلى.

وهكذا، اهتم المؤرخون المصريون المسلمون بعلاقات التأثير والتأثر التاريخى مع مدارس التاريخ الأخرى (فنقلوا عن مدرسة الحجاز السيرة، بينما كانوا أساتذة في تاريخ بلدهم مصر).

وكان لعلم التاريخ على أيدى هؤلاء المؤرخين صلاته الواسعة بالعلوم الأخرى كالحديث والفقه على وجه الخصوص. وقد رأينا أن ثقافة مؤرخينا الحديثية نضحت على علم التاريخ في منهج الإسناد الذى اتبعه، وفى اتخاذه مصدراً من مصادر التاريخ الإسلامى. ورأينا - أيضاً - أن التكوين الفقهى لكل من: (يزيد بن أبى حبيب)، و(عبيد الله بن أبى جعفر)، و(الليث بن سعد)، و(عبد الله بن وهب) قد لَوّن المدرسة المصرية التاريخية باللون الفقهى، فعمرت آثارهم التاريخية ببصمات فقهية، وبأحداث لها زوايا فقهية، وبمناقشات تدور حول تكييف الأحداث التاريخية تكييفاً فقهيّاً. وقد ظهرت في هذه الفترة قواعد النقد التاريخى النظرية والتطبيقية، وكان لها طابعها الخاص بها، والمميز لها عن قواعد النقد الحديثى.

أما يوحنا النقيوسى، فلم يكن له تأثير في مؤرخينا المسلمين، ولم يتأثر بهم كذلك. وهذا أمر طبيعى أمام حاجز اللغة والعقيدة المختلفة، وتوجيهات مؤرخينا لاستقاء مادتهم التاريخية من الموارد الإسلامية الصرفة النابعة من تراثنا وثقافتنا الإسلامية (فتاريخنا نشأ مستقلاً، وليس امتداداً لتاريخ قديم بعيد عن الإسلام، وأصوله الأولى).

ملاحق الكتاب

(ملحق رقم ١)

شجرة نسب (عبد الله بن عمرو بن العاص)

↓

العاص بن وائل السهمى (توفى كافراً حوالى السنة العاشرة من البعثة)

↓

عمرو بن العاص بن وائل السهمى (توفى سنة ٤٣هـ)

↓

ابنـاه:

↓ عبد الله بن عمرو بن العاص ابن وائل السهمى (ت٦٥هـ)

↓ محمد بن عمرو بن العاص ابن وائل السهمى

↓

ابنه:

↓

محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص (مات في حياة والده)

↓

ابنه:

↓

شُعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٨٠هـ)

↓

ابناه:

↓ عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص (توفى سنة ١١٨ هـ بالطائف)

↓ عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص

ملحق رقم (٢)

شجرة نسب آل أبى بكر بن حزم

↓

عمرو بن حزم (توفى بعد سنة ٥٠ هـ)

↓

محمد بن عمرو بن حزم (توفى سنة ٦٣هـ)

↓

أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم (توفى سنة ١١٧هـ، أو سنة ١٢٠هـ)

ولـــداه

↓ عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم (توفى سنة ١٣٠ ، أو ١٣٥هـ)

↓ محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم (توفى سنة ١٣٢هـ)

↓

ولـــده:

↓

عبد الملك بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم

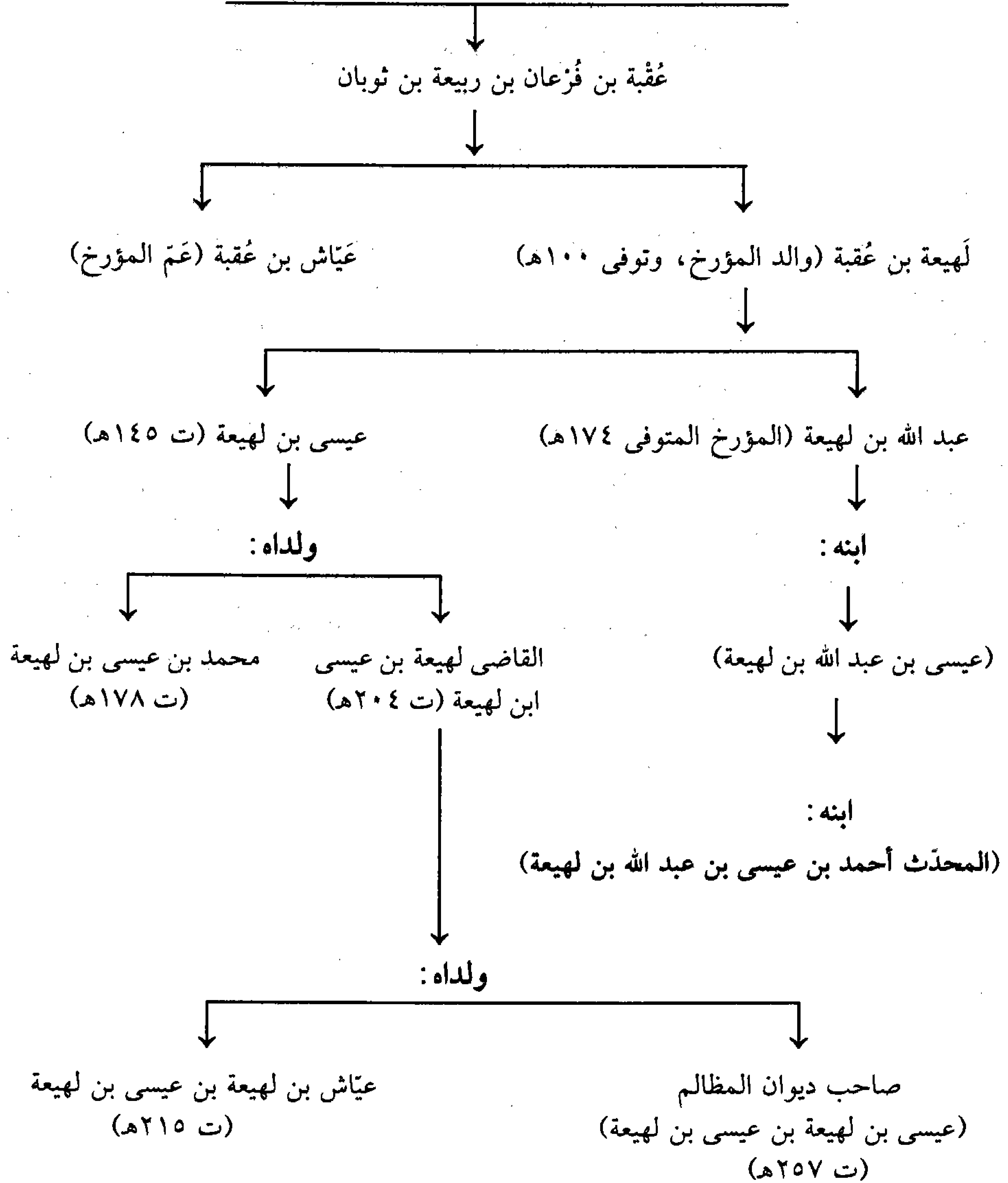
(المشهور بالقاضى عبد الملك بن محمد الحَزْمى)

(من رجال القرن الثانى الهجرى. ولى قضاء مصر سنة ١٧٠هـ ،

وعُزل سنة ١٧٤هـ، ومات ببغداد ١٧٦هـ)

(ملحق رقم ٣)

شجرة نسب المؤرخ المصرى (عبد الله بن لَهِيعة)



(ملحق رقم ٤)

الليث بن سعد الفقيه والمؤرخ المصرى يكتب إلى والى الثغور بشأن أهل قبرص(*):

" وحدثنى بعض أهل العلم من الشاميين: وأبو عُبيد القاسم بن سَلاَّم، قالوا: أحدث أهل قبرص حدثاً في ولاية عبد الملك بن صالح بن علىّ بن عبد الله بن عبّاس الثغورَ، فأراد نقض صلحهم، والفقهاء متوافرون. فكتب إلى الليث بن سعد، ومالك بن أنس، وسفيان بن عُيَيْنة، وموسى بن أعْيَن، وإسماعيل بن عَيّاش، ويحيى بن حمزة، وأبى إسحاق الفَزارىّ، ومَخْلَد بن الحسين في أمرهم، فأجابوه. وكان فيما كتب به الليث بن سعد: أن أهل قبرص قوم لم نَزَلْ نتهمهم بغش أهل الإسلام، ومناصحة أعداء الله (الروم)، وقد قال الله (تعالى): ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾(١) ولم يقل: لا تنبذ إليهم، حتى تستيقن خيانتهم. وإنى أرى أن تنبذَ إليهم، ويُنظروا سنة يأتمرون، فمن أحَبَّ منهم اللحاق ببلاد المسلمين على أن يكون ذمّة يؤدى الخراج قبلتَ ذلك منه، ومن أراد أن ينتحى إلى بلاد الروم فعل، ومن أراد المقام بقبرص على الحرب أقام، فكانوا عدوّاً يُقاتَلون ويُغْزَوْن؛ فإن في إنظار سَنَةٍ قطعاً لحجتهم، ووفاء بعهدهم ".

(*) فتوح البلدان، للبلاذرى (طبعة: أنيس الطباع): صـ٢١١-٢١٢.
(١) سورة الأنفال: من الآية ٥٨.

نصوص ووثائق

(من الوثائق الفقهية)

(ملحق رقم ٥)

(نص رسالة الليث بن سعد إلى مالك بن أنس)(*)

" سلام عليك، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو. أما بعدُ، عافانا الله وإياك، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة. قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يَسُرُّنى، فأدام الله ذلك لكم، وأتمّهُ بالعون على شكره والزيادة من إحسانه. وذكرتَ نظرَكَ في الكتب التى بعثتُ بها إليك، وإقامتَك إياها، وختمَكَ عليها بخاتمك. وقد أتتنا فجزاك الله عما قدّمتَ منها خيراً، فإنها كُتُب انتهت إلينا عنك، فأحببتُ أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها، وذكرتَ أنه قد أنشطك ما كتبتُ إليك فيه من تقويم ما أتانى عنك إلى ابتدائى بالنصيحة، ورجوتَ أن يكون لها عندى موضع، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلاً، إلا لأنى لم أذاكرك مثل هذا، وأنه بلغك أنى أُفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وأنى يحق علىّ الخوف على نفسى لاعتماد مَنْ قِبَلى على ما أفتيتُهم به، وأن الناس تبع لأهل المدينة، التى إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن. وقد أصبتَ بالذى كتبتَ به من ذلك، إن شاء الله (تعالى)، ووقع منى بالموقع الذى تحب، وما أجد أحداً يُنسب إليه العلم أكرهَ لشواذّ الفُتْيا، ولا أشدَّ تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مضوا، ولا آخَذَ لفُتْياهم - فيما اتفقوا عليه - منى. والحمد لله رب العالمين، لا شريك له.

وأما ما ذكرتَ من مقام رسول الله ﷺ بالمدينة، ونزول القرآن بها عليه بين ظهرَىْ أصحابه وما علّمهم الله منه، وأن الناس صاروا به تبعاً لهم فيه، فكما ذكرتَ.

وأما ما ذكرتَ من قول الله (تعالى): ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

(*) أعلام الموقّعين عن رب العالّمين، لابن القيم الجوزية (الطبعة المنيرية) ٣/ ٧٢-٧٧.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾[(١)]، فإن كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله؛ ابتغاءَ مرضات الله. فجنّدوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس، فأظهروا بين ظَهْرانِيهم كتابَ الله، وسُنّةَ نبيّه، ولم يكتموهم شيئاً علموه. وكان في كل جند منهم طائفة يعلّمون لله كتابَ الله وسنة نبيه، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنّة، وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيّعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم، بل يكتبون في الأمر اليسير لإقامة الدين، والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه، فلم يتركوا أمراً فسّره القرآن، أو عَمِلَ به النبى ﷺ، أو ائتمروا فيه بعده إلا علّموهموه.

فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله ﷺ بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمان، ولم يزالوا عليه حتى قُبضوا لم يأمروهم بغيره؛ فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يُحْدِثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم، مع أن أصحاب رسول الله ﷺ قد اختلفوا بعدُ في الفتيا في أشياء كثيرة، ولولا أنى قد عرفتُ أن قد علمتَها كتبتُ بها إليك. ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله ﷺ؛ سعيد بن المسيّب، ونظراؤه أشَدَّ الاختلاف.

ثم اختلف الذين كانوا بعدهم، فحَضَرْتُهم بالمدينة وغيرها، ورأسهم - يومئذ - ابن شهاب، وربيعة بن أبى عبد الرحمن. وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفتُ وحضرتُ وسمعتُ قولَك فيه، وقولَ ذوى الرأى من أهل المدينة (يحيى بن سعيد، وعُبيد الله بن عمر، وكثير بن فرقد، وغيرهم كثير ممن هو أَسَنّ منه حتى اضطرك ما كرهتَ من ذلك إلى فراق مجلسه). وذاكرتُك أنت، وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب عليه ربيعة من ذلك، فكنتما من الموافقين فيما أنكرتُ، تكرهان منه ما أكرهه. ومع ذلك - بحمد الله - عند ربيعة خيرٌ كثير، وعقل أصيلٌ، ولسان بليغ مستبين، وطريقة حسنة في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامّةً ولنا خاصّةً. رحمه الله، وغفر له، وجزاه بأحسنَ مِنْ عَمَلِه.

وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه، وإذا كاتَبَه بعضنا. فربما كتب إليه في الشئ الواحد - على فضل رأيه وعلمه - بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضاً، ولا يشعر بالذى مضى من رأيه في ذلك. فهذا الذى يدعونى إلى تَرْك ما أنكرتَ تركى إياه. وقد عرفتَ - أيضاً - عيب إنكارى إياه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلةَ المطر؛ ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله، لم يجمع منهم إمامٌ - قَطُّ - في ليلة مطر، وفيهم: أبو عبيدة بن الجراح، وخالدُ بن الوليد، ويزيد بن أبى سفيان، وعمرو ابن العاص، ومعاذ بن جبل. وقد بلغَنا أن رسول الله ﷺ

---

(١) التوبة: الآية رقم ١٠٠.

قال: " وأَعْلَمَكُم بالْحَلاَلِ وَالْحَرَام مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ " . ويُقَال: " يَأْتِي مُعَاذٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الْعُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ "[1]. وَشُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةٍ، وَأَبُو الدَّرْدَاءِ، وَبِلاَلُ بْنُ رَبَاحٍ. وكان أبو ذر بمصر، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص.

وبحمص سبعون من أهل بدر، وبأجناد المسلمين كلها. وبالعراق ابن مسعود، وحُذَيْفَة بن اليَمَان، وعمران بن حُصين. ونزلها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب - كرم الله وجه في الجنة - سنين، وكان معه من أصحاب رسول الله ﷺ، فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط.

ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق، وقد عرفتُ أنه لم يزل يُقْضَى بالمدينة به، ولم يَقْضِ به أصحابُ رسول الله ﷺ بالشام، وبحمص، ولا بمصر، ولا بالعراق، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ. ثم ولى عمر بن عبد العزيز وكان كما قد علمتَ في إحياء السنن، والجِدّ في إقامة الدين، والإصابة في الرأى، والعلم بما مضى من أمر الناس. فكتب إليه زُرَيْق بن الحَكَم: إنك كنتَ تقضى بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد، ويمين صاحب الحق. فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: إنّا كنا نقضى بذلك بالمدينة، فوجدنا أهل الشام على غير ذلك، فلا نقضى إلا بشهادة رجلين عَدْلين، أو رجل وامرأتين. ولم يجمع بين العشاء والمغرب - قط - ليلةَ المطر، والمطر يُسَكَبُ عليه في منزله، الذى كان فيه بخُناصِرَة[2] ساكناً.

ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون في صَدُقات النساء، أنها متى شاءت أن تتكلم في مؤخَّر صَداقها، تكلمت فدفع إليها. وقد وافق أهلُ العراق أهلَ المدينة على ذلك، وأهلُ الشام، وأهلُ مصر، ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا مَنْ بعدهم لا مرأة بصداقها المؤخَّر، إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق، فتقوم على حقها.

ومن ذلك قولهم في الإيلاء: إنه لا يكون عليه طلاق حتى يُوقَف، وإن مرّت الأربعة الأشهر. وقد حدثنى نافع، عن عبد الله بن عمر، وهو الذى كان يُرْوَى عنه ذلك التوقف بعد الأشهر: أنه كان يقول في الإيلاء الذى ذكر الله في كتابه: لا يحل للمُوَلِّى إذا بلغ الأجل، إلا أن يفئ كما أمر الله، أو يعزم الطلاق، وأنتم تقولون: إنْ لبث بعد الأربعة الأشهر، التى سمى الله في كتابه ولم يوقف، لم يكن عليه طلاق. وقد بلغنا أن عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وقَبيصة بن ذُؤيب، وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قالوا في الإيلاء: إذا مضت الأربعة الأشهر، فهى تطليقة بائنة. وقال سعيد بن المُسَيِّب، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وابن شهاب: إذا مضت

(١) أى: يتقدم بخطوة، أو بدرجة. (لسان العرب، مادة: ر.ت.و) جـ٣ صـ١٥٧٩.

(٢) بُليدة من أعمال حلب، تُحاذى قِنَّسْرين نحو البادية. (معجم البلدان، ط.دار الكتب العلمية) جـ٢ صـ٤٤٦.

الأربعة الأشهر، فهى تطليقة، وله الرجعة في العدة.

ومن ذلك أن زيد بن ثابت كان يقول: إذا مَلّك الرجل امرأته - فاختارت زوجها - فهى تطليقة، وإن طلّقتْ نفسها ثلاثاً فهى تطليقة. وقضى بذلك عبد الملك بن مروان، وكان ربيعة بن عبد الرحمن يقوله. وقد كان الناس يجتمعون على أنها إن اختارت زوجها لم يكن له فيه طلاق، وإن اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة، وإن طلّقتْ نفسها ثلاثاً بانَتْ منه، ولم تَحِلّ له حتى تنكح زوجاً غيره، فيدخل بها ثم يموت أو يطلقها، إلا أن يَرُدَّ عليها في مجلسه، فيقول: إنما ملكتُكِ واحدة. فيُستحلف، ويُخَلّى بينه وبين امرأته. ومن ذلك أن عبد الله بن مسعود كان يقول: أيُّما رجل تزوج أمة ثم اشتراها زوجها، فاشتراؤه إياها ثلاث تطليقات، وكان ربيعة يقول ذلك. وإن تزوجت المرأة الحرة عبداً فاشترته، فمثل ذلك.

وقد بُلِّغْنا عنكم شيئاً من الفتيا مستكرهاً، وقد كنتُ كتبتُ إليك في بعضها فلم تجبنى في كتابى، فتخوفتُ أن تكون استثقلتَ ذلك، فتركتُ الكتاب إليك في شئ مما أنكرتُ، وفيما أوردتَ فيه على رأيك. وذلك أنه بلغنى أنك أمرتَ زفَر بن عاصم الهلالى، حين أراد أن يستسقى، أن يقدم الصلاة قبل الخطبة، فأعظمتُ ذلك؛ لأن الخطبة والاستسقاء كهيئة يوم الجمعة، إلا أن الإمام إذا دنا من الخطبة فدعا، حوَّل رداءه، ثم نزل فصلّى. وقد استسقى عمر ابن عبد العزيز، وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وغيرهما. فكلهم يقدم الخطبة والدعاء قبل الصلاة. فاستهتر الناسُ كلهم فِعْلَ زفر بن عاصم من ذلك، واستنكروه.

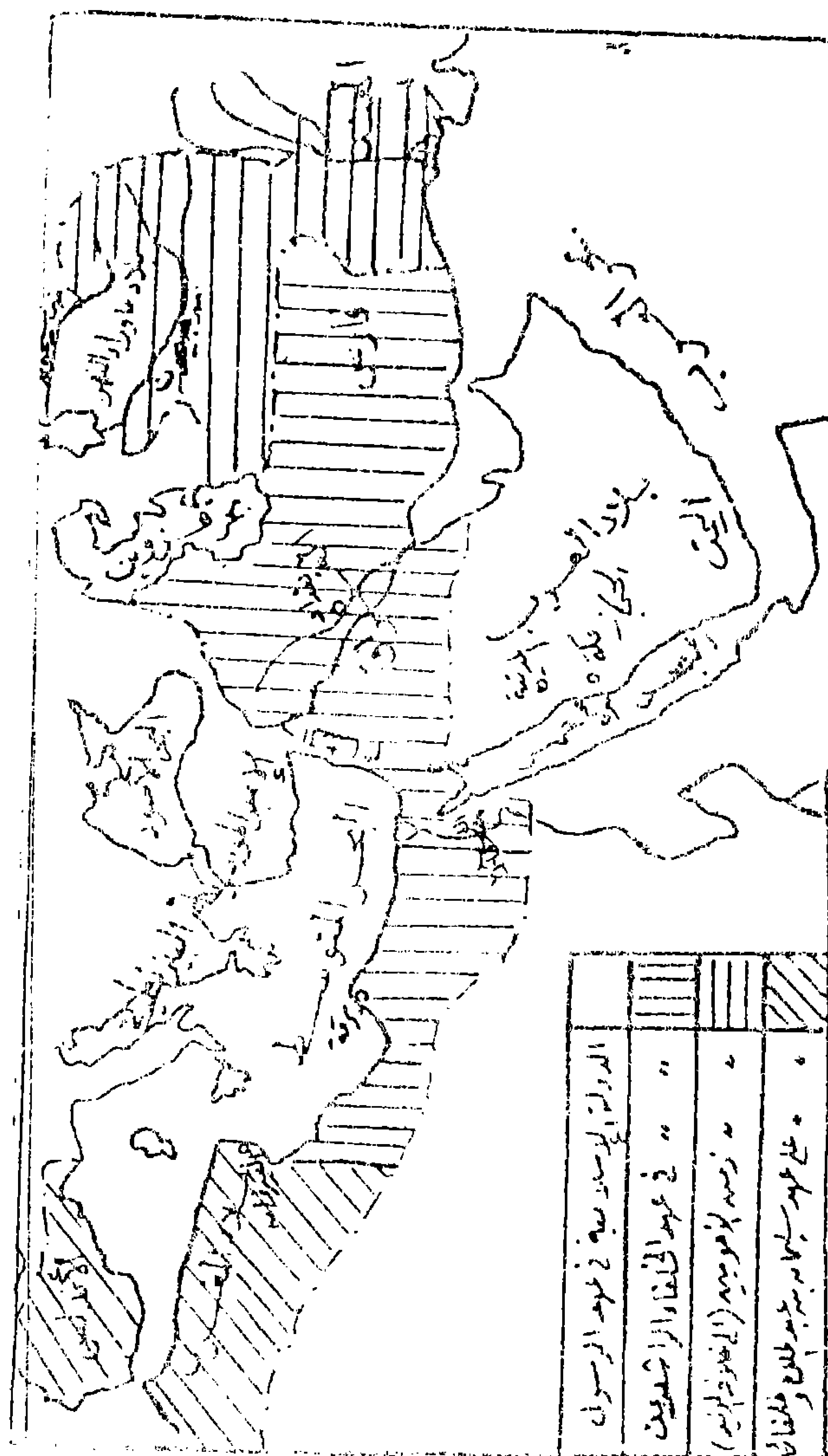
ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول في الخليطين في المال: إنه لا تجب عليهما الصدقة، حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة. وفى كتاب عمر بن الخطاب: أنه يجب عليهما الصدقة ويترادّانِ بالسويّة، وقد كان ذلك يُعمل به في ولاية عمر بن عبد العزيز قبلكم وغيره، والذى حدثنا به يحيى ابن سعيد، ولم يكن بدون أفاضل العلماء في زمانه، فرحمه الله وغفر له، وجعل الجنّة مصيره.

ومن ذلك أنه بلغنى أنك تقول: إذا أفلس الرجل، وقد باعه رجل سلعة، فتقاضى طائفة من ثمنها، أو أنفق المشترى طائفة منها، أنه يأخذ ما وجد من متاعه، وكان الناس على أن البائع إذا تقاضى من ثمنها شيئاً، أو أنفق المشترى منها شيئاً، فليست بعينها.

ومن ذلك أنك تذكر أن النبى ﷺ لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد، والناس كلهم يحدّثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين، ومنعه الفرس الثالث. والأمة كلهم على هذا الحديث (أهل الشام، وأهل مصر، وأهل العراق، وأهل إفريقية)، لا يختلف فيه اثنان؛ فلم يكن ينبغى لك - وإن كنتَ سمعتَه من رجل مَرْضىّ - أن تخالف الأمة أجمعين. وقد تركتُ أشياء كثيرة من أشباه هذا.

وأنا أحب توفيق الله إياك، وطول بقائك؛ لِمَا أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك مع استئناسى بمكانك، وإن نأتِ الدار فهذه منزلتك عندى ورأيى فيك، فاستيقِنْه، ولا تتركِ الكتابَ إلىّ بخبرك، وحالِك، وحال ولدك وأهلك، وحاجة إن كانت لك أو لأحد يُوصَل بك، فإنى أُسَرّ بذلك. كتبتُ إليكِ ونحن صالحون مُعَافَوْن، والحمد لله. نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا، وتمام ما أنعم به علينا. والسلام عليك ورحمة الله ".

ملحق رقم ٦



خريطة مراكز الحياة الثقافية فى الدولة الإسلامية فى القرنين الأولين من الهجرة

قوائم المصادر والمراجع

منهج في عرض قوائم المصادر والمراجع

١- بدأت بالقرآن الكريم كمصدر أساسى ومهم، يأتى على رأس مصادر هذا الكتاب.

٢- ثنيت بالمخطوطات، ورتبتها - كما سأرتب ما بعدها - ترتيباً هجائيّاً حسب عنوان المخطوطة.

٣- ثم عرضت المصادر (الكتب القديمة) بالترتيب السابق نفسه، مع ملاحظة ما يلى:

أ- إسقاط (ال) من الترتيب، واعتبار (ابن) في ترتيب الكتب.

ب- إذا عُرف الكتاب باسم اشتهر به، كنت أعتبره عند الترتيب، وأردفه بالاسم الكامل له. فمثلاً: " تاريخ الطبرى " كنت أضعه في حرف (التاء) متأخراً، رغم أن الاسم الحقيقى له (تاريخ الرسل والملوك)، يجعله في حرف (التاء متقدماً).

جـ- ذكرت الاسم الصحيح لكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ، وهو (البيان والتبيُّن). وهى معلومة استقتها من حديث إذاعى، لعله من أواخر ما أدلى به الأستاذ المرحوم (عبد السلام هارون) محقق الكتاب (ت ١٩٨٨م) إذ قال في برنامج (شخصيات إسلامية وراء الميكروفون) بإذاعة القرآن الكريم بتاريخ: ٢/ ٧/ ١٩٨٧م ما يلى: إنه توصل - أخيراً - إلى نسخة تعد أصح نسخ الكتاب، وفيها عنوان الكتاب: (البيان والتبيّن). ورجح أن يكون هو الاسم الصحيح؛ لأن العنوان المشهور عبارة عن كلمتين مترادفتين. أما العنوان الجديد الراجح فمعناه مختلف؛ إذ البيان يعنى: الفصاحة. والتبين يعنى: النقد.

د- حرصت على ذكر أسم المؤلفين كاملة بتواريخ مواليدهم، ووفياتهم ما أمكن.

هـ- حرصت على ذكر اسم مؤلف (كشف الظنون) بطريقة صائبة (حاجّ خليفة). أما ما اشتهر من تسميته: (حاجى خليفة)، فهذا نطق خاص بإخواننا الأتراك، فينبغى أن يظل خاصّاً لهم. (الموجز في مراجع التراجم والبلدان، والمصنفات وتعريفات العلوم) د.محمود محمد الطناحى (نشر: مكتبة الخانجى. ط١، ١٩٨٥م). صـ٩٩ (هامش ١).

و- حرصت على بيان طبعات الكتاب الواحد عند استخدام أكثر من طبعة له.

ز- حرصت على ذكر بيانات الكتب الواردة في الكتاب، بدءاً من المقدمة إلى الخاتمة بقدر الإمكان.

٤- ثم عرضت المراجع، والرسائل الجامعة، والدوريات، ودوائر المعارف، والموسوعات والببليوجرافيا، وأحاديث إذاعية استقت منها مادة، أو معلومة جديدة. وأخيراً، عرضت قوائم المراجع الأجنبية.

قوائم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

أولاً - المخطوطات:

٢- **(تهذيب الكمال في معرفة أسماء الرجال)**، للحافظ المتقن جمال الدين أبى الحجاج يوسف المِزّىّ (٦٥٤-٧٤٢هـ). نسخة مصورة عن النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية. وقام بتصويرها، ونشر الصورة في ثلاثة مجلدات دار المأمون للتراث بدمشق وبيروت، ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م.

٣- **(الكنى والأسماء)**، للإمام أبى الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى (٢٠٤-٢٦١هـ). مخطوط مصور عن النسخة المخطوطة بخزانة المكتبة الظاهرية بدمشق. دار الفكر ١٩٨٤م.

ثانياً - المصادر:

حرف (الألف)

٤- **(الإتقان في علوم القرآن)**، للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٨٤٩-٩١١هـ). الطبعة الثالثة، نشر وتوزيع: مكتبة دار التراث بالقاهرة ١٩٨٥م. حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٥- **(الإحسان بترتيب صحيح ابن حِبّان)**، لعلاء الدين على بن بلبان الفارسى (ت ٧٣٩هـ). الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية (بيروت) ١٩٨٧م. قدم له، وضبط نصه: كمال يوسف الحوت.

٦- **(أحوال الرجال)**، لأبى إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى (ت ٢٥٩هـ) الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م. تحقيق وتعليق: السيد صبحى البدرى السامرائى.

٧- **(آداب الشافعى ومناقبه)**، لأبى محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى (٢٤٠-٣٢٧هـ). نشر: مكتبة التراث الإسلامى - حلب، ١٩٥٣م. قدم له، وحققه أصله، وعلق عليه: عبد الغنى عبد الخالق.

٨- **(الإرشاد في معرفة علماء الحديث)**، للحافظ أبى يعلى الخليل بن عبد الله بن

أحمد بن الخليل الخليلي القزويني (٣٦٧-٤٤٦هـ). الطبعة الأولى، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض ١٩٨٩م. دراسة، وتحقيق، وتخريج: دكتور محمد سعيد بن عمر إدريس.

٩- **(الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار مما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار)**، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ). نشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٣٩١-١٣٩٣هـ / ١٩٧١-١٩٧٣م. تحقيق: علي النجدي ناصف.

١٠- **(الاستيعاب في معرفة الأصحاب)**، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ). طبع، ونشر: مكتبة نهضة مصر ومطبعتها - الفجالة، د.ت.حققه: علي محمد البجاوي.

١١- **(أسد الغابة في معرفة الصحابة)**، لعز الدين بن الأثير، أبي الحسن علي بن محمد الجزري (٥٥٥-٦٣٠هـ). طبعة كتاب الشعب ١٩٧٠-١٩٧٣م. تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور، ومحمود عبد الوهاب فايد.

١٢- **(أسماء المدلّسين)**، لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ). الطبعة الأولى، دار الصحوة للنشر بحلوان ١٩٨٦م. حققه: د.محمد زينهم محمد عزب.

١٣- **(الإصابة في تمييز الصحابة)**، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ). دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة ١٩٧٠-١٩٧٢م. حقق أصوله، وضبط أعلامه، ووضع فهارسه: علي محمد البجاوي.

١٤- **(إصلاح غلط المحدّثين)**، للخَطّابي البُسْتي (ت ٣٨٨هـ). الطبعة الأولى، دار المأمون للتراث (دمشق - بيروت ١٩٨٧م). دراسة، وتحقيق: د.محمد علي عبد الكريم الرديني. وتوجد طبعة أخرى (الطبعة الثانية) من (مؤسسة الرسالة) ببيروت ١٩٨٥م. تحقيق: د.حاتم صالح الضامن.

١٥- **(أعلام الموقّعين عن رب العالمين)**، لشمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر (المعروف بابن قيم الجوزية ت ٧٥١هـ). مطبعة النهضة الحديثة. نشر: مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٦٨م. راجعه، وقدم له، وعلق عليه: طه عبد الرءوف سعد. وهناك طبعة أخرى هي (الطبعة المنيرية)، د.ت.

١٦- **(الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ)**، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ). دار الكتب العلمية - بيروت (د.ت). حققه، وعلّق عليه بالإنجليزية: فرانز روزنثال. وترجم التعليقات والمقدمة، وأشرف على نشر النص: د.صالح أحمد العلي.

١٧- **(الأغانى)**، لأبى الفرج الأصفهانى (٢٨٤-٣٥٦هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت.

١٨- **(الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب)** للأمير الحافظ ابن ماكولا على بن هبة الله بن على بن جعفر (٤٢٢-٤٧٥هـ). الطبعة الثانية، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند ١٩٦٢-١٩٦٦م. تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى، ونايف العباس.

١٩- **(الإلماع إلى معرفة أصول الرواية، وتقييد السماع)**، للقاضى عياض بن موسى اليحصبى (٤٧٩-٥٤٤هـ). الطبعة الثانية. الناشر: دار التراث بالقاهرة، والمكتبة العتيقة بتونس، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م. حققه: السيد أحمد صقر.

٢٠- **(إنباه الرواه على أنباه النحاه)**، للوزير جمال الدين أبى الحسن على ابن يوسف القِفْطى (ت ٦٤٦هـ)، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م. تحقيق: محمد أبى الفضل إبراهيم.

٢١- **(الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء: مالك، والشافعى، وأبى حنيفة ﷺ، وذكر عيون من أخبارهم، وأخبار أصحابهم؛ للتعريف بجلالة أقدارهم)**، للإمام الحافظ أبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى (ت ٤٦٣هـ). دار الكتب العلمية - بيروت (لبنان). د.ت.

٢٢- **(الأنساب)**، للإمام أبى سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى السمعانى (ت ٥٦٢هـ - ١١٦٦م). الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م. عنى بتصحيحه، والتعليق عليه: الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى (أمين مكتبة الحرم المكى).

٢٣- **(أنساب الأشراف)**، لأبى العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى (ت ٢٧٩هـ). طبع الجزء الخامس منه بعناية المستشرق (غويتاين) بالقدس ١٩٦٣م، وطبع القسم الثانى من الجزء الرابع منه بعناية (ماكس شلوسنجر) بالقدس ١٩٣٨م.

(حرف الباء)

٢٤- **(البدء والتاريخ)**، للمطهر بن طاهر المَقْدِسى (ت ٣٥٥هـ) (المنسوب تأليفه إلى أبى زيد أحمد بن سهل البلخى). مطبعة برترند. نشر: أرنست لرو- باريس ١٨٩٩-١٩١٩م.

٢٥- **(البداية والنهاية)**، لأبى الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البُصْرَوىّ الدمشقى (٧٠١-٧٧٤هـ). نشر: مكتبة المعارف - بيروت ١٩٦٦م. وهناك طبعة خرجت حديثاً، الطبعة الأولى، نشر: دار الريان للتراث ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م. دقّقَ أصوله وحققه: د.أحمد أبو ملحِم، ود.على نجيب عطوى، وغيرهما.

٢٦- (بقى بن مخلد القرطبى ت ٢٧٦هـ)، ومقدمة مسنده (عدد ما لكل واحد من الصحابة من الحديث). الطبعة الأولى، بساط - بيروت ١٩٨٤م. دراسة، وتحقيق: د.أكرم ضياء العمرى.

٢٧- (بيان خطأ من أخطأ على الشافعى)، للإمام أبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى (ت ٤٥٨هـ). الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة (بيروت) ١٩٨٣م. تحقيق، وتقديم: د.الشريف نايف الدعيس (وهى رسالته للماجستير المقدمة لجامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة).

٢٨- (البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمغرب)، لابن عَذَارِى المَرّاكشى (توفى حوالى نهاية ق ٧هـ)، الطبعة الثالثة، دار الثقافة ببيروت، ضمن سلسلة (المكتبة الأندلسية) رقم (٢٢)، ١٩٨٣م. تحقيق، ومراجعة: ج.س كولان، أ.ليفى بروفنسال.

٢٩- (البيان والتبيُن)، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ). الطبعة الأولى، مطبعة: لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م. تحقيق، وشرح: عبد السلام هارون.

(حرف التاء)

٣٠- (تاريخ العروس من جواهر القاموس)، للسيد محمد مرتضى الحسينى الزَّبيدى (ت ١٢٠٥هـ). الناشر: دار ليبيا للنشر والتوزيع - بنغازى، د.ت.

٣١- (التاريخ)، ليحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ). ط١ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م. وهو في الأصل رسالة دكتوراه (يحيى بن معين وكتابه في التاريخ) دراسة، وترتيب، وتحقيق: د.أحمد محمد نور سيف.

٣٢- (تاريخ أبى زُرْعَة الدمشقى) للحافظ عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصرى (ت ٢٨١هـ). نشر: مجمع اللغة العربية بدمشق، د.ت. دراسة، وتحقيق: شكر الله بن نعمة الله القوجانى.

٣٣- (تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام)، أو (التاريخ الكبير)، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى (٧٤٨هـ). مطبعة المدنى، ومطبعة القدس - القاهرة (مشروع إحياء التراث الإسلامى)، د.ت. عنى بتحقيق النص، وتحرير الحواشى: حسام الدين القدسى. وهناك مجلد من (تاريخ الإسلام) بعنوان: (المغازى)، الطبعة الأولى. الناشرون: دار الكتب الإسلامية، ودار الكتاب المصرى بالقاهرة، ودار الكتاب اللبنانى - بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م. حققه، وقدمه له، وأعد فهارسه: محمد محمود حمدان.

٣٤- (تاريخ أسماء الثقات ممن نُقل عنهم العلم)، لأبى حفص عمر بن أحمد بن

عثمان (المعروف بابن شاهين ٢٩٧-٣٨٥هـ). الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت. حققه، وعلق عليه: د.عبد المعطى أمين قلعجى ١٩٨٦م.

٣٥- **(تاريخ بغداد، أو مدينة السلام)**، للحافظ أبى بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادى (ت ٤٦٣هـ - ١٠٧٠م). دار الكتب العلمية - بيروت، د.ت.

٣٦- **(تاريخ الثقات)**، للإمام الحافظ أحمد بن عبد الله بن صالح، أبو الحسن العجلى الكوفى (١٨٢-٢٦١هـ)، بترتيب الحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى (ت ٨٠٧هـ)، وتضمينات الحافظ ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ). الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م. وثق أصوله، وخرّج حديثه، وعلق عليه: د.عبد المعطى قلعجى.

٣٦ أ- **(تاريخ الخلفاء)**، لجلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ). الطبعة الأولى، مطبعة السعادة في مصر. الناشر: المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد.

٣٧- **(تاريخ خليفة بن خياط)**، لأبى عمرو خليفة بن خياط الليثى العُصْفُرىّ (١٦٠-٢٤٠هـ). الطبعة الثانية، دار القلم (دمشق - بيروت)، ومؤسسة الرسالة (بيروت)، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م. تحقيق: د.أكرم ضياء العمرى.

٣٨- **(تاريخ الدارمى)** المسمّى (تاريخ عثمان بن سعيد الدارمى المتوفى ٢٨٠هـ)، عن أبى زكريا يحيى معين (١٥٨-٢٣٣هـ) في (تجريح الرواة وتعديلهم). دار المأمون للتراث (دمشق - بيروت) ١٩٨٠م. تحقيق: د.أحمد محمد نور سيف.

٣٩- **(تاريخ دمشق)**، لأبى القاسم بن عساكر على بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله (ت ٥٧١هـ) جـ١، جـ٢، جـ١٠ من مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ١٩٥١م. تحقيق: د.صلاح الدين المنجد.

- **وكذلك طبعة عن القسم الأول من (السيرة النبوية)** من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدار الفكر بدمشق. ١٩٨٤ تحقيق: نشاط غزاوى.

٤٠- **(تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام)**، لحمزة بن الحسن الأصفهانى (توفى في ق٤ هـ). منشورات: دار مكتبة الحياة - بيروت. د.ت.

٤١- **(التاريخ الصغير)** للإمام الحافظ أبى عبد الله، محمد بن إسماعيل البخارى (ت ٢٥٦هـ). الطبعة الأولى، نشر: دار الوعى بحلب، ومكتبة دار التراث بالقاهرة، ودار الطباعة الحديثة بالقاهرة ١٩٧٦-١٩٧٧م. تحقيق: محمود إبراهيم زايد.

٤٢- **(تاريخ الطبرى)** المسمّى (تاريخ الرسل والملوك)، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤-٣١٠هـ). الطبعة الخامسة، دار المعارف ١٩٨٧م. تحقيق: محمد أبى الفضل إبراهيم.

٤٣- **(تاريخ علماء الأندلس)**، لابن الفَرَضِى، أبى الوليد عبد الله بن محمد ابن يوسف الأزدى الحافظ (ت ٤٠٣هـ). نشرته الدار المصرية للتأليف والترجمة، ضمن سلسلة (تراثنا) في (المكتبة الأندلسية رقم ٢)، ١٩٦٦م.

٤٤- **(تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم)**. للمفضل بن محمد بن مِسْعَر التَّنوخى (ت ٤٤٢هـ). الطبعة الأولى، هجر للطباعة والنشر ١٩٩٢م. تحقيق :د.عبد الفتاح محمد الحلو.

٤٥- **(التاريخ الكبير)**، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجُعْفى البخارى (ت ٢٥٦هـ). الطبعة الأولى، مطبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٦١هـ. عنى بتصحيحه، وتعليق الحواشى المفيدة: الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليمانى، وغيره.

٤٦- **(التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق)**، للبطريرك أفيتشيوس المكنّى بـ (سعيد بن بِطْريق ت ٣٢٨هـ). طبع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٥م.

٤٧- **(تاريخ الموصل)**، للشيخ أبى زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدى (ت ٣٣٤ / ٩٤٥م). مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر (طبع بإشراف لجنة إحياء التراث الإسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م. تحقيق: د.على حبيبة.

٤٨- **تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى (رؤية قبطية للفتح الإسلامى)**. الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠٠٠م. ترجمة، ودراسة تاريخية، ولغوية: د.عمر صابر أحمد عبد الجليل.

٤٩- **(التبصرة والتذكرة)**، أو (شرح ألفية العراقى، لناظمها العراقى ت ٨٠٦هـ). تصحيح، وتعليق، وفهرسة: محمد بن الحسين العراقى الحسينى (أمين الخزانة القروية بالمغرب، ومدرس بكلية القرويين). دار الكتب العلمية - بيروت، د.ت.

٥٠- **(تبصير المنتبه بتحرير المشتبه)**، لابن حجر العسقلانى (٧٧٣-٨٥٢هـ). مطبعة دار القومية العربية للطباعة. الناشر: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر. تحقيق: محمد على النجار. مراجعة: على محمد البجاوى ١٩٦٤م.

٥١- **(تجريد أسماء الصحابة)**، للذهبى (٦٧٣-٧٤٨هـ). نشر: شرف الدين الكُتُبى وأولاده. بومباى الهند ١٩٦٩م.

٥٢- **(تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف)**، للمِزّى (ت ٧٤٢هـ). الطبعة الأولى، الدار القيمة - بومباى الهند ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م. تحقيق، وتخريج: عبد الصمد شرف الدين.

٥٣- **(التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة)**، لشمس الدين السخاوى (٨٣١-٩٠٢هـ). دار نشر الثقافة - القاهرة ١٩٨٠م. عنى بطبعه، ونشره: أسعد طرابزونى الحسينى.

٥٤- **(تدريب الراوى في شرح تقريب النواوى)**، لخاتمة الحفاظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٨٤٩-٩١١هـ). الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. حققه، وراجع أصوله: عبد الوهاب عبد اللطيف.

٥٥- **(تذكرة الحفاظ)**، للإمام الذهبى (ت ٧٤٨هـ). طبع ونشر، دار الفكر العربى. تصحيح: عبد الرحمن بن يحيى المعلمى ١٣٧٤هـ/ ١٩٧٤م. وتوجد طبعة أخرى هى (طبعة دار إحياء التراث العربى)، د.ت.

٥٦- **(تراجم رجال روى محمد بن إسحاق رئيس أهل المغازى عنهم)**، للذهبى. طبع في مدينة ليدن، بمطبعة بريل. نشر: المستشرق الألمانى أوجست فيشر، ١٨٩٠م.

٥٧- **(ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك)**، للقاضى عياض، أبى الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السَّبْتىَ (ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م). منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٥م. تحقيق: د.أحمد بكير محمود.

٥٨- **(الترغيب والترهيب من الحديث الشريف)**، للإمام الحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى (ت ٦٥٦هـ). الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٦م. ضبط أحاديثه، وعلّق عليه: مصطفى محمد عمارة.

٥٩- **(تصحيفات المحدّثين)**، لأبى أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى (ت ٣٨٢هـ). الطبعة الأولى، المطبعة العربية الحديثة بالقاهرة، ١٩٨٢م. دراسة، وتحقيق: محمود أحمد مِيرَة (بالجامعة الإسلامية بالمدينة).

٦٠- **(التعديل والتجريح لمن خَرَّج له البخارى في الجامع الصحيح)**، لأبى الوليد سليمان بن خلف الباجى (ت ٤٧٤هـ). الطبعة الأولى، دار اللواء للنشر والتوزيع بالرياض ١٩٨٦م. تحقيق، ونشر، ودراسة: د.أبو لبابة حسين.

٦١- **(تعظيم قدر الصلاة)**، للإمام محمد بن نصر المروزى (ت ٣٩٤هـ). الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. الناشر: مكتبة الدار بالمدينة المنورة. حققه، وعلّق عليه، وخرّج أحاديثه وآثاره: د.عبد الرحمن بن عبد الجبار الفِرِيوائى.

٦٢- **(تفسير الطبرى، أو جامع البيان عن تأويل آى القرآن)**، لأبى جعفر محمد ابن جرير الطبرى (٢٢٤-٣١٠هـ). الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م. حققه، وعلق حواشيه: محمود محمد شاكر. وراجع، وخرج أحاديثه: أحمد محمد شاكر. وتوجد طبعة أخرى عن (دار الفكر) غير محققة.

٦٣- **(تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل)**، لعبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ). الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٩٥٢م. تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمى.

٦٤- **(تقريب التهذيب)**. لخاتمة الحفاظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى (٧٧٣-

٨٥٢هـ). دار المعرفة (بيروت). حققه، وعلق عليه، وقدم له: عبد الوهاب عبد اللطيف.

٦٥- **(تقييد العلم)**، للخطيب البغدادى (٣٩٢-٤٦٣هـ). الطبعة الثانية، نشر: دار إحياء السنة النبوية ١٩٧٤م. حققه، وعلق عليه: يوسف العش.

٦٦- **(تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير)**، للإمام عبد الرحمن بن الجوزى (٥٠٨-٥٩٧هـ) = (١١١٤-١٢٠٤م). المطبعة النموذجية بالقاهرة ١٩٧٥م. عنيت بنسخه، وتحقيقه، وضبطه، وإخراجه: مكتبة الآداب بالقاهرة.

٦٧- **(تهذيب الأسماء واللغات)**، لأبى زكريا محيى الدين بن شرف النووى (ت ٦٧٦هـ). عنيت بنشره، وتصحيحه، والتعليق عليه، ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية.

٦٨- **(تهذيب التهذيب)**، للعلاّمة شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ). الطبعة الأولى، دار الفكر للطبع والنشر والتوزيع ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٦٩- **(تهذيب الكمال في أسماء الرجال)**، لجمال الدين أبى الحجاج يوسف المِزّىّ (٦٥٤-٧٤٢هـ). الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. حققه، وضبط نصه، وعلّق عليه: د.بشار عواد معروف.

٧٠- **(توالى التأسيس في مناقب محمد بن إدريس)** لابن حجر. ط١-م.الأميرية ببولاق، ١٣٠١هـ.

(حرف الثاء)

٧١- **(الثقات)**، للإمام الحافظ محمد بن حِبّان بن أحمد، أبى حاتم التميمى البُسْتى (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند، ١٩٧٣-١٩٨٣م.

(حرف الجيم)

٧٢- **(جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغى في روايته وحمله)**، للإمام المجتهد المحدث، أبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى الأندلسى (ت ٤٦٣هـ). دار الفكر - بيروت (د.ت).

٧٣- **(جامع التحصيل في أحكام المراسيل)**، للحافظ صلاح الدين أبى سعيد خليل بن كيكلدى العلائى (٦٩٤-٧٦١هـ). العراق (وزارة الأوقاف)، سلسلة إحياء التراث الإسلامى (رقم ٣٢)، ١٩٧٨م. حققه، وقدم له، وخرج أحاديثه: حمدى عبد المجيد السلفى.

٧٤- **(الجامع في الحديث)**، لعبد الله بن وهب (١٢٥-١٩٧هـ)، طبعة المعهد العلمى

الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٣٩م. تحقيق: دافيدويل.

٧٥- **(الجامع لشعب الإيمان)**، للحافظ أبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى (٣٨٤-٤٥٨هـ). الطبعة الأولى، عنى بنشره: الدار السلفية بالهند. ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م. حققه، وراجع نصوصه، وخرج أحاديثه: د.عبد العلى عبد الحميد حامد.

٧٦- **(جامع المسانيد)**، لأبى المؤيد محمد بن محمود الخوارزمى (٥٩٣هـ-٦٦٥هـ). دار الكتب العلمية - بيروت، د.ت.

٧٧- **(الجرح والتعديل)**، لأبى محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم، محمد بن إدريس بن المنذر التميمى الحنظلى الرازى (ت ٣٢٧هـ). الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - الهند، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

٧٨- **(الجمع بين رجال الصحيحين)**، للإمام أبى الفضل محمد بن طاهر بن على المقدسى (المعروف بابن القيسرانى ٤٤٨-٥٠٧هـ). الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٥هـ.

٧٩- **(جمهرة نسب قريش وأخبارها)** للزبير بن بكار (١٧٢-٢٥٦هـ). مطبعة المدنى ١٣٨١هـ. شرح، وتحقيق: محمود محمد شاكر.

٨٠- **(الجواهر المضيَّة في طبقات الحنفية)**، لمحى الدين أبى محمد عبد القادر ابن محمد القرشى الحنفى (٦٩٦-٧٧٥هـ). مطبعة عيسى الحلبى ١٩٧٨م. تحقيق: د.عبد الفتاح الحلو.

(حرف الحاء)

٨١- **(حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)** للسيوطى. ط١- دار إحياء الكتب العربية (عيسى الحلبى) ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م. حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٨٢- **(حلية الأولياء)**، لأبى نعيم الأصفهانى (ت ٤٣٠هـ). الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٦م. وتوجد طبعة مطبعة السعادة ١٩٣٢م.

٨٣- **(حياة الحيوان الكبرى)**، لكمال الدين محمد بن موسى الدَّميرىّ (٧٤٢-٨٠٨هـ)، ويليه (عجائب المخلوقات، وغرائب الموجودات)، لزكريا ابن محمد بن محمود القزوينى (٦٠٠-٦٨٢هـ). الطبعة الخامسة، طبع ونشر: مصطفى البابى الحلبى، ١٩٧٨م.

(حرف الخاء)

٨٤- **(الخِطط)** للمقريزى، وهو المسمى (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار). ط٢- الناشر: مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٧م.

٨٥- **(خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال)**، لصفى الدين أحمد بن عبد

الله الخزرجي (ولد ٩٠٠هـ، وألّف الكتاب ٩٢٣هـ). م.الفجالة الجديدة. الناشر: مكتبة القاهرة ١٩٧٢م. تحقيق: محمود عبد الوهاب فايد. تصحيح، ومراجعة: محمود غانم غيث.

(حرف الدال)

٨٦- **(دَرّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة)**، لمحمد بن على الشوكانى (ت ١٢٥٠هـ). الطبعة الأولى، المطبعة العلمية بدمشق. دار الفكر بدمشق ١٩٨٤م. تحقيق، ودراسة: د.حسين عبد الله العمرى.

٨٧- **(الدر المنثور في التفسير بالمأثور)**، للسيوطى (ت ٩١١هـ). دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت. د.ت.

٨٨- **(دول الإسلام)** للذهبى. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م. تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ومحمد مصطفى إبراهيم.

٨٩- **(الديباج المُذهَب في معرفة أعيان علماء المذهب)**، لأبى إسحاق إبراهيم بن على بن فَرْحون اليعمرى المالكى (ت ٧٩٩هـ). دار التراث للطبع والنشر ١٩٧٤م. تحقيق، وتعليق: د.محمد الأحمدى أبو النور.

٩٠- **(ديوان الضعفاء والمتروكين)** للذهبى. نشر: مكتبة النهضة الحديثة ومطبعتها في مكة المكرمة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م. تحقيق، وتعليق: حماد بن محمد الأنصارى.

(حرف الذال)

٩١- **(ذكر أخبار أصبهان)**، لأبى نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهانى (ت ٤٣٠هـ). ليدن - مطبعة بريل ١٩٣٤م.

٩٢- **(ذيل الكاشف)**، لأبى زرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقى (ت ٨٢٦هـ) الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م. دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: بوران الضناوى.

٩٣- **(ذيل ميزان الاعتدال)**، للحافظ أبى الفضل عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن المعروف بـ (العراقى) (٧٢٥-٨٠٦هـ). ط١- دار إحياء التراث الإسلامى - ١٩٨٦م. تحقيق، وتقديم: د.عبد القيوم عبد رب النبى.

(حرف الراء)

٩٤- **(رجال صحيح البخارى)**، لأبى نصر أحمد بن محمد الكُلاباذى (٣٢٣-٣٩٨هـ). ط١- دار المعرفة (بيروت) ١٩٨٧م. تحقيق: عبد الله الليثى.

٩٥- **(الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية في مناقب الليث بن سعد)**، لابن حجر ط١- م.الأميرية ببولاق ١٣٠١هـ.

٩٦- **(الرسالة)**، لمحمد بن إدريس الشافعى (١٥٠-٢٠٤هـ). ط٢-مطابع المختار الإسلامى. نشر: مكتبة دار التراث، ١٩٧٩م. تحقيق، وشرح: أحمد محمد شاكر.

٩٧- **(رفع الإصر عن قضاة مصر)** لابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ). الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٦١م (القاهرة). تحقيق: د.حامد عبد المجيد. مراجعة: إبراهيم الإبيارى.

٩٨- **(الروض المعطار في خبر الأقطار)**، لأبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى السبتى (توفى أواخر ق٩ هـ). ط٢ (مطابع هايدلبرج في بيروت). نشر: مكتبة لبنان - بيروت. ١٩٨٤م. تحقيق: د.إحسان عباس.

٩٩- **(الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة)**، للإمام يحيى بن أبى بكر العامرى اليمنى. ط٣ - مكتبة المعارف في بيروت ١٩٨٣م. أشرف على ضبطه، وتصحيحه: عمر الديراوى.

١٠٠- **(رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية)**، لأبى بكر عبد الله بن أبى عبد الله المالكى (توفى بعد ٤٥٣هـ). ط١- طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١م. قام على نشره: حسين مؤنس (الجزء الأول فقط). وتوجد طبعة أخرى كاملة (٣ مجلدات)، نشر: دار الغرب الإسلامى للطباعة والنشر - بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. تحقيق: بشير البكوش. مراجعة: محمد العروسى المطوى.

(حرف الزاى)

١٠١- **(الزهد)**، لأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ). دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٧٦م.

١٠٢- **(زَهْر الآداب وثمر الألباب)**، لأبى إسحاق إبراهيم بن على الحُصْرى القيروانى. الطبعة الأولى - دار إحياء الكتب العربية - عيسى الحلبى. ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م. تحقيق، وضبط، وشرح، فهارس: على محمد البجاوى.

(حرف السين)

١٠٣- **(السابق واللاحق في تباعد ما بين وفاة راويين عن شيخ واحد)**، للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى (ت ٤٦٣هـ). ط١، دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض ١٩٨٢م. تحقيق، ودراسة: محمد بن مطهر الزهرانى.

١٠٤- **(سنن ابن ماجة)**، للحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى (٢٠٧-٢٧٥هـ). المكتبة العلمية - بيروت. د.ت. تحقيق، وترقيم، وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقى.

١٠٥- **(سنن أبى داود، ومعها معالم السنن للخطابى بالهامش)**، لسليمان بن الأشعث

السجستاني (٢٠٢هـ - ٢٧٥هـ). ط١، دار الحديث - سوريا - (١٩٦٩م)، إعداد، وتعليق: عزت عُبيد الدعاس، وعادل السيد.

١٠٦- **(سنن الترمذى)**، لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة (٢٠٩-٢٧٩هـ). ط٢- طبع، ونشر: مصطفى الحلبى ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٨م. تحقيق، وشرح: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقى، وغيرهما.

١٠٧- **(سنن الدارقطنى)**، لعلى بن عمر الدارقطنى (٣٠٦-٣٨٥هـ). دار المحاسن للطباعة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م. عنى بالتصحيح، والتنسيق، والتحقيق، والترقيم: السيد عبد الله هاشم المدنى.

١٠٨- **(السنن الكبرى)**، للحافظ أبى بكر أحمد بن الحسين بن على البيهقى (ت ٤٥٨هـ) - دار المعرفة (بيروت)، د.ت.

١٠٩- **(السنن المأثورة)** للإمام الشافعى برواية أبى جعفر الطحاوى الحنفى، عن خاله (المزنى تلميذ الشافعى). دار المعرفة - بيروت. توثيق، وتخريج، وفهرسة، وتعليق: د.عبد المعطى أمين قلعجى. د.ت.

١١٠- **(سنن النسائى ت ٣٠٣هـ)** بشرح السيوطى (ت ٩١١هـ)، وحاشية الإمام السِّندى (ت ١١٣٨هـ) ط١ - مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب. ١٩٨٦م. ترقيم، وفهارس: عبد الفتاح أبو غدة.

١١١- **(سير الآباء البطاركة)**، المعروف بـ (سير البيعة المقدسة) لساويرس ابن المقفع، باريس ١٩١٠م. تحقيق: ب .إفتس.

١١٢- **(سير أعلام النبلاء)**، للذهبى. الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م. أشرف على تحقيق الكتاب، وخرّج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط.

١١٣- **(السيرة النبوية)**، لعبد الملك بن هشام الحميرى (ت ٢١٣هـ). مطبعة: مصطفى الحلبى بمصر ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م. تحقيق، وضبط، وشرح، وفهارس: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى. وتوجد طبعة أخرى (تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد) مطبعة حجازى - المكتبة التجارية ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

(حرف الشين)

١١٤- **(شذرات الذهب في أخبار من ذهب)**، لأبى الفلاح عبد الحى بن العِماد الحنبلى (١٠٣٢هـ - ١٠٨٩هـ). ط١- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ١٩٧٩م.

١١٥- **(شرح صحيح مسلم)**، لأبى زكريا يحيى بن شرف النووى الشافعى (٦٣١-٦٧٦هـ). ط١ دار القلم (بيروت) ١٩٨٧م. مراجعة: خليل الميس.

١١٦- **(شرح علل الترمذى)** لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلى (ت ٧٩٥هـ). مطبعة العانى (بغداد) ١٣٩٦هـ. تحقيق، وتعليق: السيد صبحى جاسم الحميد.

١١٧- **(شرف أصحاب الحديث)**، للخطيب البغدادى (٣٩٢-٤٦٣هـ). نشر: دار إحياء السنة النبوية ١٩٧١م. تحقيق: د.محمد سعيد خطيب أوغلى.

١١٨- **(الشعر والشعراء)**، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (٢١٣-٢٧٦هـ). ط٢- دار التراث العربى للطباعة ١٩٧٧م. تحقيق، وشرح: أحمد محمد شاكر.

(حرف الصاد)

١١٩- **(صبح الأعشى في صناعة الإنشا)**، لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م). المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٦٣م.

١٢٠- **(صحيح البخارى)**، للإمام محمد بن إسماعيل البخارى (ت ٢٥٦هـ). ط٣ - دار ابن كثير، واليمامة (بيروت) ١٩٨٧م. تخريج، وفهرسة: د.مصطفى ديب البُغَا. - وتوجد طبعة أخرى (ط.عالم الكتب) ط٤ - ١٩٨٥م (بيروت). شرح: محمد منير الدمشقى.

١٢١- **(صحيح مسلم)**، للإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى (٢٠٦-٢٦١هـ) دار إحياء التراث العربى (بيروت). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى.

١٢٢- **(صفة الصفوة)**، لجمال الدين أبى الفرج بن الجوزى (٥١٠-٥٩٧هـ) دار الوعى (حلب). توزيع: مكتبة التوعية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامى. تحقيق، وتعليق: محمود فاخورى.

(حرف الضاد)

١٢٣- **(الضعفاء)**، لأبى زرعة الرازى (ت ٢٦٤هـ) ورد داخل رسالة دكتوراه نشرت بعنوان: (أبو زرعة الرازى وجهوده في السنّة النبوية) مع تحقيق كتابه: (الضعفاء وأجوبة على أسئلة البرذعى) ١٩٨٢م. دراسة، وتحقيق: د.سعدى الهاشمى. (الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة).

١٢٤- **(الضعفاء الصغير)**، للإمام محمد بن إسماعيل البخارى (١٩٤-٢٥٦هـ)، ويليه (الضعفاء والمتروكون)، للإمام النسائى (ت ٣٠٣هـ). الطبعة الأولى، دار الوعى بحلب، محرم ١٣٩٦هـ. تحقيق: محمود إبراهيم زايد.

١٢٥- **(الضعفاء الكبير)**، لأبى جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العُقَيْلى المكى. ط١ - دار الكتب العلمية (بيروت) ١٩٨٤م. تحقيق، وتوثيق: د.عبد

المعطى أمين قلعجى.

١٢٦- **(الضعفاء والمتروكون)**، لأبى الحسن على بن عمر الدارقطنى البغدادى (ت ٣٨٥هـ). الطبعة الأولى، مكتبة المعارف بالرياض، ١٩٨٤م. دراسة، وتحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر.

(حرف الطاء)

١٢٧- **(الطبقات)**، لخليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ). ط٢ - دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض ١٩٨٢م. حققه، وقدم له: د.أكرم ضياء العمرى.

١٢٨- **(طبقات الحفاظ)**، للسيوطى. ط١- دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٣.

١٢٩- **(طبقات الحنابلة)** للقاضى أبى الحسن محمد بن القاضى أبى يعلى محمد ابن الحسين بن الفرّاء (ت ٥٢٩هـ). م.الاعتدال والترقى بدمشق ١٣٥٠هـ. تصحيح، وتعليق: أحمد عبيد.

١٣٠- **(طبقات الشافعية الكبرى)**، لتاج الدين أبى نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السُّبْكى (٧٢٧-٧٧١هـ). ط١- م. عيسى البابى الحلبى ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م. تحقيق: محمود محمد الطناحى، وعبد الفتاح محمد الحلو.

١٣١- **(طبقات علماء إفريقية وتونس)**، لأبى العرب محمد بن أحمد بن تميم القيروانى (ت ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م). المطبعة الرسمية لتونس (الدار التونسية للنشر) ١٩٦٨م. تقديم، وتحقيق: على الشابى (بالجامعة التونسية)، ونعيم حسن اليافى (بالجامعة السورية).

١٣٢- **(طبقات الفقهاء)**، لأبى إسحاق الشيرازى (٣٩٣-ت ٤٧٦هـ) ط.بغداد، ١٣٥٦هـ. وتوجد طبعة أخرى نشر: دار الرائد العربى (بيروت) ١٩٧٠م. تحقيق، وتقديم: د.إحسان عباس.

١٣٣- **(طبقات فقهاء اليمن)**، لعمر بن على بن سَمُرة الجَعْدى (ألّفه سنة ٥٨٦هـ). مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٩٥٧م. تحقيق: فؤاد سيد.

١٣٤- **(الطبقات الكبرى)**، لمحمد بن سعد كاتب الواقدى (ت ٢٣٠هـ)، طبعة دار التحرير ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، وطبعة ليدن للمستشرقين ١٣٢٢هـ، وطبعة صادر - بيروت، د.ت.

١٣٥- **(طبقات المحدّثين بأصبهان والواردين عليها)**، لأبى محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حَيّان (المعروف بأبى الشيخ الأنصارى ٢٧٤-٣٦٩هـ). ط١، مؤسسة الرسالة - (بيروت) ١٩٨٧م. دراسة، وتحقيق: عبد الغفور عبد الحق حسين.

١٣٦- **(طبقات المدلّسين)**، لابن حجر. ط١، دار الصحوة للنشر بحلوان ١٩٨٦م. تحقيق: د.محمد زينهم عزب.

١٣٧- **(طبقات المفسرين)** لشمس الدين محمد بن على بن أحمد الداودى (ت ٩٤٥هـ) ط١، م.الاستقلال الكبرى. الناشر: مكتبة وهبة، ١٩٧٢م. تحقيق: على محمد عمر.

(حرف العين)

١٣٨- **(العبر في خبر من غبر)**، للذهبى. ط١-دار الكتب العلمية (بيروت) - ١٩٨٥م. حققه، وضبط على مخطوطتين: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول.

١٣٩- **(العلل الواردة في الأحاديث النبوية)**، لأبى الحسين على بن عمر ابن أحمد بن مهدى الدارقطنى (٣٠٦-٣٨٥هـ). ط١ -دار طيبة بالرياض ١٩٨٥م. تحقيق، وتخريج: د.محفوظ الرحمن زين الله السلفى.

١٤٠- **(العلل ومعرفة الرجال)**، للإمام أحمد بن حنبل الشيبانى (١٦٤-٢٤١هـ). الطبعة الأولى، الدار السلفية بالهند ١٩٨٨م (تحقيق: د.وصى الله ابن محمد عباس). وطبعة إستانبول بتركيا ١٩٨٧م (نشر المكتبة الإسلامية) بتحقيق: د. طلعت قوج بيكيت، ود.إسماعيل جراح أوغلى.

١٤١- **(العُمدة في صناعة الشعر ونقده)**، لأبى الحسن على بن رشيق (ت ٤٦٣هـ) ط١، طبع على نفقه أمين هندية. عنى بتصحيحه أحد كبار العلماء، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م.

١٤٢- **(عوالى الليث بن سعد)**، لقاسم بن قطلوبغا (ت ٨٧٩هـ) الناشر: مكتبة دار الوفاء للنشر والتوزيع - جده ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م. تقديم، وتحقيق، وتخريج: عبد الكريم بكر الموصلى.

١٤٣- **(عيون الأنباء في طبقات الأطباء)**، لموفق الدين أبى العباس أحمد ابن القاسم بن خليفة بن يونس السَّعْدى الخزرجى المعروف بـ (أبن أبى أصيبعة) (ت ٦٦٨هـ). منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت) ١٩٦٥م. شرح، وتحقيق: د.نزار رضا.

(حرف الغين)

١٤٤- **(غاية النهاية في طبقات القراء)**، لشمس الدين أبى الخير محمد ابن محمد بن الجزَرى (ت ٨٣٣هـ). ط٣ - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٢م. عنى بنشره: ج. برجسترا.

(حرف الفاء)

١٤٥- **(فتح البارى بشرح صحيح البخارى)**، لابن حجر. دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ. مقابلة نسخة المخطوطة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز. وأخرجه،

وصححه، وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.

١٤٦- **(فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقي)**. تأليف: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ). الطبعة الثانية، مطبعة العاصمة بالمدينة المنورة. الناشر: المكتبة السلفية، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م. ضبط، وتحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان.

١٤٧- **(الفتنة ووقعة الجمل)**، لسيف بن عمر الضبي (ت ٢٠٠هـ). ط٢، دار النفائس (بيروت)، ١٩٧٧م. جمع، وتصنيف: أحمد راتب عرموش.

١٤٨- **(فتوح البلدان)**، لأحمد بن يحيى بن جابر، المعروف بـ (البلاذري) (ت ٢٧٩هـ). مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦م. تحقيق د.صلاح الدين المنجد. وطبعة دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٣م. تحقيق: رضوان محمد رضوان. وطبعة دار النشر للجامعيين - بيروت ١٩٥٧م. تحقيق: أنيس الطباع.

١٤٩- **(فتوح الشام)**، لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ). دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة - بيروت، د.ت.

١٥٠- **(فتوح مصر وأخبارها)**، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي (ت ٢٥٧هـ). طبعة في مدينة ليدن، مطبعة بريل ١٩٢٠م (صوّرته مكتبة المثنى عنها، ونشرته مصوراً ببغداد سنة ١٩٦٦م). تحقيق: شارلس توري.

١٥١- **(فضائل القرآن)**، لابن كثير (ت ٧٧٤هـ). مطبعة المنار بمصر ١٣٤٧هـ. تصحيح، وتعليق: محمد رشيد رضا.

١٥٢- **(فضائل مصر)**، لعمر بن محمد بن يوسف الكندي. مكتبة وهبة بالقاهرة، ودار الفكر (بيروت) ١٩٧١. تحقيق: د.إبراهيم أحمد العدوي، وعلي محمد عمر.

١٥٣- **(الفهرست)**، للنديم (أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالورّاق ت حوالي ٣٧٧هـ). طبعة طهران ١٩٧١م. تحقيق: رضا - تجّدد.

(حرف القاف)

١٥٤- **(القصّاص والمذكرون)**، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ). ط١ - دار أمية للنشر والتوزيع بالرياض ١٩٨٣م. تحقيق: د.قاسم السامرائي.

(حرف الكاف)

١٥٥- **(الكاشف في معرفة مَنْ له رواية في الكتب الستة)**، للإمام الذهبي (ت ٧٤٨هـ). ط١- دار الكتب الحديثة ١٩٧٢م. تحقيق، وتعليق: عزت علي عيد عطية، وموسى محمد علي الموشي. (وتوجد طبعة أخرى صدرت عن دار الكتب العلمية

- بيروت)، وهى الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. راجعها، وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر.

١٥٦- **(الكامل في التاريخ)**، لعز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى (المعروف بابن الأثير ٥٥٥-٦٣٠هـ). دار صادر - بيروت ١٩٨٢م.

١٥٧- **(الكامل في ضعفاء الرجال)**، لأبى أحمد عبد الله بن عدى الجرجانى (٢٧٧-٣٦٥هـ). دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٥م.

١٥٨- **(الكشف الحثيث عمن رمى بوضع الحديث)**، لبرهان الدين الحلبى (ت ٨٤١هـ). سلسلة إحياء التراث الإسلامى بوزارة الأوقاف والشئون الدينية بالعراق (الكتاب رقم ٥٢). مطبعة العانى - بغداد. تم إيداعه بالمكتبة الوطنية ببغداد ١٩٨٤م. حققه، وعلق عليه: صبحى السامرائى.

١٥٩- **(كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس)**، لإسماعيل بن محمد العجلونى (ت ١١٦٢هـ). نشر، وتوزيع: مكتبة التراث الإسلامى بحلب، د.ت.

١٦٠- **(كشف الظنون من أسامى الكتب والفنون)**، للعلامة المولى مصطفى بن عبد الله القسطنطنى الرومى الحنفى، الشهير بالملاّ كاتب الجَلَبى، والمعروف بـ (حاج خليفة ١٠١٧-١٠٦٧هـ)، دار الفكر ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٦١- **(الكفاية في علم الرواية)**، للخطيب البغدادى. ط١- مطبعة السعادة (دار الكتب الحديثة بالقاهرة) ١٩٧٢م. مراجعة: عبد الحليم محمد عبد الحليم، وعبد الرحمن حسن محمود.

١٦٢- **(الكنى والأسماء)**، لأبى بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابى (٢٢٤-٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٣م.

١٦٣- **(كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال)**، لعلاء الدين الهندى (ت ٩٧٥هـ). نشر، وتوزيع: مكتبة التراث الإسلامى بحلب. الطبعة الأولى، ١٩٦٩م.

١٦٤- **(الكواكب السيّارة في ترتيب الزيارة)**، لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن ناصر الدين الأنصارى (المعروف بابن الزيّات المتوفى ٨١٤هـ). أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد (د.ت).

(حرف اللام)

١٦٥- **(اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة)**، للسيوطى. ط١- المكتبة الحسينية المصرية بالأزهر، د.ت.

١٦٦- **(اللباب في تهذيب الأنساب)**، لعز الدين بن الأثير الجرزى دار. صادر- بيروت (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

١٦٧- **(لسان العرب)**، لجمال الدين بن منظور (ت ٧١١هـ). دار المعارف بمصر، د.ت. تحقيق: نخبة من العاملين بدار المعارف (عبد الله على الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلى).

١٦٨- **(لسان الميزان)**، لابن حجر. ط٢ - منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت (١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م).

(حرف الميم)

١٦٩- **(المجروحون من المحدّثين والضعفاء والمتروكين)**، لمحمد بن حِبّان بن أحمد بن أبى حاتم التميمى البُسْتى (ت ٣٥٤هـ). ط١- دار الوعى (حلب) ١٩٧٥-١٩٧٦م. (تحقيق: محمود إبراهيم زايد).

١٧٠- **(مجمع الزوائد ومنبع الفوائد)**، للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى (ت ٨٠٧هـ). مكتبة القدسى، د.ت.

١٧١- **(مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية)**، لأبى العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت ٧٢٨هـ). نشر: مكتبة ابن تيمية، د.ت. جمع، وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمى النجدى الحنبلى، وساعده ابنه محمد.

١٧٢- **(محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء)**، لأبى القاسم حسين بن محمد (المعروف بالراغب الأصفهانى). المطبعة العامرية الشرقية ١٣٢٦هـ.

١٧٣- **(المحبّر)**، لأبى جعفر محمد بن حبيب الهاشمى البغدادى (ت ٢٤٥هـ). مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م. تصحيح: د.إيلزه ليختن.

١٧٤- **(المحدّث الفاصل بين الراوى والواعى)**، للقاضى الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى (نحو ٢٦٥هـ-ت ٣٦٠هـ). ط١- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٧١م. تحقيق: د.محمد عجاج الخطيب.

١٧٥- **(مختار الصحاح)**، للإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى. الهيئة المصرية العامة للكتاب (مراجعة لجنة من مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية). عنى بترتيبه: محمود خاطر، ١٩٧٧م.

١٧٦- **(مختصر علم التاريخ)**، للكافيجى (نشر مطبوعاً ضمن مجموعة كتب أوردها روزنثال في طبعته لكتاب (علم التاريخ عند المسلمين)، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٧٧- **(المدخل إلى السنن الكبرى)**، للحافظ أبى بكر البيهقى (ت ٤٥٨هـ). الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامى بالكويت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م. دراسة، وتحقيق: د.محمد ضياء الرحمن الأعظمى.

١٧٨- **(مراتب النحويين)**، لعبد الواحد بن على (أبى الطيب اللغوى) (ت ٣٥١هـ).

ط٢، مطبعة دار الكتب المصرية. نشر: دار نهضة مصر بالفجالة، د.ت. تحقيق: محمد أبى الفضل إبراهيم.

١٧٩- **(المراسيل)**، لأبى محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى (٢٤٠-٣٢٧هـ). ط١ (مؤسسة الرسالة) ١٩٧٧م (نشر بعناية: شكر الله بن نعمة الله).

١٨٠- **(المراسيل)**، لأبى داود، سليمان بن الأشعث السجستانى (٢٠٠-٢٧٥هـ). مطابع روز اليوسف (هدية مجلة الأزهر). (رمضان ١٤٠٩هـ - ذى الحجة ١٤٠٩هـ). تحقيق، وتعليق: أحمد حسن جابر رجب.

١٨١- **(مرآة الجِنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان)**، لأبى محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان اليمنى اليافعى المكى (ت ٧٦٨هـ). ط٢- منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات (بيروت)، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

١٨٢- **(مروج الذهب ومعادن الجوهر)**، للرحالة والمؤرخ الكبير أبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى (ت ٣٤٦هـ). ط١-دار الكتاب اللبنانى - مكتبة المدرسة ١٩٨٢م. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد.

١٨٣- **(المستدرك على الصحيحين)**، لأبى عبد الله الحاكم النيسابورى (ت ٤٠٥هـ) وبذيله (التلخيص) للحافظ الذهبى. الناشر: دار الكتاب العربى (بيروت)، د.ت.

١٨٤- **(المسند)** للحُميدى (ت ٢١٩هـ) ط١(من سلسلة منشورات المجلس العلمى بالهند) ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م. حقق أصوله، وعلق عليه: حبيب الرحمن الأعظمى.

١٨٥- **(مسند أبى يعلى الموصلى)**، لأحمد بن على بن المثنى (٢١٠-٣٠٧هـ). ط١، دار المأمون للتراث بدمشق ١٩٨٤م. حققه، وخرج أحاديثه: حسين سليم أسد.

١٨٦- **(مسند أحمد بن حنبل)**، للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى (١٦٤-٢٤١هـ)، وبهامشه (منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال). طبعة غير محققة صادرة عن (دار الفكر)، د.ت.

١٨٧- **(مشاهير علماء الأمصار)**، لمحمد بن حبان البستى (ت ٣٥٤هـ). مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م. تصحيح: م.فلايشهمر.

١٨٨- **(المشتبه في الرجال)**، للذهبى. ط١- دار إحياء الكتب العربية (عيسى الحلبى)، ١٩٦٢. تحقيق: على محمد البجاوى.

١٨٩- **(المصنَّف)**، لأبى بكر عبد الرزاق بن همام الصنعانى (١٢٦-٢١١هـ) ط١ - المكتب الإسلامى - بيروت ١٩٧٠م. تحقيق، وتخريج، وتعليق: حبيب الرحمن الأعظمى.

١٩٠- **(مصنف ابن أبى شَيْبَة)**، لعبد الله بن محمد بن أبى شيبة الكوفى (ت ٢٣٥هـ) ط١- المكتبة الإمدادية في مكة ١٩٧٠-١٩٨٣م. تحقيق: حبيب الرحمن

الأعظمى، وآخرين.

١٩١- **(المعارف)**، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ). ط٢- دار المعارف بمصر ١٩٦٩م. تحقيق، وتقديم: د.ثروت عكاشة.

١٩٢- **(معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان)**، لأبى زيد عبد الرحمن ابن محمد الأنصارى الدبّاغ (٦٠٥-٦٩٦هـ). أكمله، وعلّق عليه: أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخى (ت ٨٣٩هـ). ط٢، مطبعة السنة المحمدية (الناشر: مكتبة الخانجى) ١٩٦٨م. تصحيح، وتعليق: إبراهيم شبُّوح.

١٩٣- **(معجم الأدباء)**، أو (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ). ط٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٠م. (مصورة عن طبعة دار المأمون لأحمد فريد رفاعى).

١٩٤- **(معجم البلدان)**، للإمام شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى (ت ٦٢٦هـ). دار صادر للطباعة والنشر - دار بيروت، د.ت. وتوجد طبعة أولى في (دار الكتب العلمية - بيروت)، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م. تحقيق: فريد عبد العزيز الجندى.

١٩٥- **(المعجم الكبير)**، للحافظ أبى القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى (٢٦٠-٣٦٠هـ). ط٢ - ١٣٩٦هـ. تحقيق، وتخريج: حمدى عبد المجيد السلفى.

١٩٦- **(المعرّب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم)**، لأبى منصور الجَواليقى، موهوب بن أحمد بن محمد بن الخَضِر (٤٦٥-٥٤٠هـ). ط٢ - مطبعة دار الكتب، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م. تحقيق، وشرح: أحمد محمد شاكر.

١٩٧- **(معرفة الثقات)**، لأحمد بن عبد الله بن صالح العجلى الكوفى (١٨٥-٢٦١هـ) ط١، ١٩٨٥م. دراسة، وتحقيق: عبد العليم عبد العظيم البَسْتَوى.

١٩٨- **(معرفة الرجال)**، لأبى زكريا يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ). من منشورات المجمع العلمى - بدمشق ١٩٨٥م. تحقيق: محمد كامل القصار.

١٩٩- **(معرفة علوم الحديث)**، للإمام الحاكم أبى عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ النيسابورى. ط٢ (منشورات المكتبة العلمية بالمدينة المنورة)، ١٩٧٧م. تصحيح، وتعليق: د.السيد معظم حسين وآخرين.

٢٠٠- **(معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار)**، للذهبى. ط١- دار الكتب الحديثة ١٩٦٩م. تحقيق، وفهرسة، وضبط أعلام، وتعليق: محمد سيد جاد الحق.

٢٠١- **(المعرفة والتاريخ)**، لأبى يوسف يعقوب بن سفيان الفسوى (ت ٢٧٧هـ). م.الإرشاد - بغداد ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م. تحقيق: د.أكرم ضياء العمرى.

٢٠٢- (**المعين في طبقات المحدّثين**)، للذهبى. ط١ - دار الفرقان . ١٩٨٤ تحقيق: د.همام عبد الرحيم سعيد.

٢٠٣- (**المغازى**) للواقدى، محمد بن عمر بن واقد (١٣٠-٢٠٧هـ). دار المعارف بمصر ١٩٦٤م (مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٦م). تحقيق: د.مارسدن جونس.

٢٠٤- (**مغازى رسول الله**)، لعروة بن الزبير برواية أبى الأسود عنه (٢٣-٩٤هـ). ط١ - من منشورات مكتب التربية العربى لدول الخليج (الرياض) - ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. نسخة مستخرجة جمعها وحققها، وقدم لها: د. محمد مصطفى الأعظمى.

٢٠٥- (**المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب**). أكمل تأليفه ابن سعيد الأندلسى (ت ٦٨٥هـ). (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر). مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣م. قدم له: د.زكى محمد حسن. نشر، وتحقيق، وتعليق: د.زكى محمد حسن، ود. شوقى ضيف.

٢٠٦- (**المغنى في الضعفاء**)، للذهبى. ط١، مطبعة البلاغة - دار المعارف- حلب ١٩٧١م. تحقيق، وتعليق: نور الدين عتر.

٢٠٧- (**مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**)، لأحمد بن مصطفى بن خليل (الشهير بطاش كبرى زاده ت ٩٦٨هـ) دار الكتب الحدثية بالقاهرة - ١٩٦٨م. مراجعة، وتحقيق: كامل كامل بكري، وعبد الوهاب أبو النور.

٢٠٨- (**مقدمة ابن خلدون**)، للعلاّمة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ). وهو المجلد الأول من (تاريخ العبر) لابن خلدون. ط٣، دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة بالقاهرة ١٩٨١م. نشر، وتحقيق، وضبط وشرح، وتعليق، وفهارس: د.على عبد الواحد وافى.

٢٠٩- (**مقدمة ابن الصلاح**)، لأبى عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهْرزَورى (٥٧٧-٦٤٣هـ) مطبعة دار الكتب ١٩٧٤م. توثيق، وتحقيق: د.عائشة عبد الرحمن. وتوجد طبعة أخرى نشرتها مكتبة دار الفكر ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م بتحقيق، وشرح: د.نور الدين عتر (وهى بعنوان: علوم الحديث).

٢١٠- (**مناقب الشافعى**)، لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى (٣٨٤-٤٥٨هـ). ط١- دار النصر للطباعة. تحقيق: السيد أحمد صقر.

٢١١- (**المنتخب من كتاب (ذيل المذيل)**)، لمحمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ)، أو لكاتب مجهول. ط٢، دار المعارف بمصر. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ونشر داخل ذيول تاريخ الطبرى في (مج ١١ من تاريخه).

٢١٢- (**المؤتلف والمختلف**)، للدارقطنى البغدادى (ت ٣٨٥هـ). ط١، مؤسسة جواد للطباعة والتصوير. نشر: دار الغرب الإسلامى ١٩٨٦م. دراسة، وتحقيق:

د.موفق بن عبد الله بن عبد القادر.

٢١٣- **(الموضوعات)**، لأبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى القرشى (٥١٠-٥٩٧هـ). الطبعة الأولى، مطبعة المعرفة. الناشر: محمد عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة بالسعودية، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م. ضبط، وتقديم، وتحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان.

٢١٤- **(الموطأ)**، لإمام الأئمة وعالم المدينة (مالك بن أنس ٩٣-١٧٩هـ). مطبعة دار إحياء الكتب العربية. تصحيح، وترقيم، وتخريج، وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقى.

٢١٥- **(ميزان الاعتدال في نقد الرجال)**، لأبى عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبى (ت ٧٤٨هـ). ط١ - دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى)، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م. تحقيق: على محمد البجاوى.

(حرف النون)

٢١٦- **(النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)**، لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى (٨١٣-٨٧٤هـ). طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٧٠م.

٢١٧- **(نزهة الألِبّاء في طبقات الأدباء)**، لأبى البركات كمال الدين بن عبد الرحمن بن محمد الأنبارى (٥١٣-٥٧٧هـ). مطبعة المدنى بالقاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة، د.ت. تحقيق: محمد أبى الفضل إبراهيم.

٢١٨- **(نسيم الرياض في شرح شفاء القاضى عياض)**، لأحمد شهاب الدين الخفاجى المصرى (ت ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٩م). ط١، المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٧هـ. (دار الكتاب العربى - بيروت)، د.ت.

٢١٩- **(النهاية في غريب الحديث والأثر)**، لمجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد الجزرى، ابن الأثير (٥٤٤-٦٠٦هـ). ط١، دار إحياء الكتب العربية (عيسى الحلبى) ١٩٦٣م. تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحى.

٢٢٠- **(نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول)**، لأبى عبد الله محمد الحكيم الترمذى (٢٠٥-٣٢٠هـ). ط١-دار الريان للتراث بالقاهرة ١٩٨٨م. تحقيق، وتعليق: د.أحمد عبد الرحيم السايح، ود.السيد الجميلى.

٢٢١- **(نَيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار)** للعَلاَّمة محمد بن على بن محمد الشوكانى (ت ١٢٥٠هـ) - المكتبة التوفيقية، د.ت.

(حرف الهاء)

٢٢٢- **(هَدْى السارى مقدمة فتح البارى بشرح صحيح البخارى)**، لابن حجر. دار المعرفة - بيروت، د.ت.

(حرف الواو)

٢٢٣- **(الوافى بالوفيات)**، لصلاح الدين خليل بن آيبك الصفَدى (٦٩٦-٧٦٤هـ). ط٢ (من سلسلة النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية) دار النشر فرانز شتاينر - فيسبادن بألمانيا، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م. باعتناء: هلموت ريتر.

٢٢٤- **(الوفيات)**، لأبى العباس أحمد بن حسن بن على بن الخطيب، المشهور بـ (ابن قنفذ القنسطينى ت حوالى ٨٠٩هـ). ط١- منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت)، ١٩٧١م. تحقيق، وتعليق: عادل نويهض.

٢٢٥- **(وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)**، لشمس الدين أحمد بن محمد ابن أبى بكر بن خلكان (٦٠٨-٦٨١هـ). دار الثقافة - بيروت ١٩٦٨م. تحقيق: د.إحسان عباس.

٢٢٦- **(الولاة والقضاة)**، لأبى عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى (توفى بعد ٣٥٠هـ). طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت ١٩٠٨م. تهذيب، وتصحيح: رفن جست.

ثالثاً - المراجع:

(حرف الألف)

٢٢٧- **أبجد العلوم (الوَشْئ المرقوم في بيان أحوال العلوم)**، لصديق ابن حسن القِنَّوْجى (ت ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م). توزيع دار الكتب العلمية - بيروت. أعده للطبع، ووضع فهارسه: عبد الجبار زكار.

٢٢٨- **(ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب)**، للدكتور إبراهيم أحمد العدوى. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٧م.

٢٢٩- **(أخطاء ينبغى أن تصحح في التاريخ)**: منهج كتاب التاريخ الإسلامى لماذا؟ وكيف؟ د.جمال عبد الهادى، ود.وفاء محمد رفعت. ط٢ - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، ١٩٨٩م.

٢٣٠- **(الأدب العربى في مصر من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين)** لعبد الرزاق حميدة. مطبعة لجنة البيان العربى. الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥١م.

٢٣١- **(أزمنة التاريخ الإسلامى)**، للدكتور عبد السلام الترمانينى. ط١، أشرف على

الطبع (قسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت)، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢٣٢- **(الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير)**. د.محمد بن محمد أبو شهبة. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٢٣٣- **(أصول التخريج ودراسة الأسانيد)**، للدكتور محمود الطحان. دار الكتب السلفية، ١٩٧٨م.

٢٣٤- **(أضواء على التاريخ الإسلامى)** للدكتور فتحى عثمان. دار العروبة بالقاهرة، ١٩٥٦م.

٢٣٥- **(أطلس التاريخ الإسلامى)**، للدكتور حسين مؤنس. ط١، الزهراء للإعلام العربى ١٩٨٧م.

٢٣٦- **(الأعلام)**: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. لخير الدين الزركلى - ط٦ (دار العلم للملايين- بيروت) ١٩٨٤م.

٢٣٧- **(أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامى)**. د.جمال الدين الشيال. دار المعارف بمصر ١٩٦٥م.

٢٣٨- **(الإمام الأوزاعى فقيه أهل الشام)**، لعبد العزيز سيد الأهل. (الكتاب رقم ٢٩ من سلسلة: لجنة التعريف بالإسلام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية)، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٢٣٩- **(الإمام المصرى: الليث بن سعد)**، للدكتور عبد الله محمود شحاتة. الدار القومية للطبع والنشر (سلسلة: مذاهب، وشخصيات)، ١٩٦٦م.

٢٤٠- **(الإمبراطورية البيزنطية)**، لنورمان بينز. ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠. تعريب: د.حسين مؤنس، ومحمود يوسف زايد.

٢٤١- **(إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون)**، لإسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم البابانى أصلاً، البغدادى مولداً ومسكناً (ت ١٩٢٠م)، دار الفكر ١٩٨٢م.

(حرف الباء)

٢٤٢- **(الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير)**. تأليف: أحمد محمد شاكر. الطبعة الثالثة، مكتبة دار التراث بالقاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢٤٣- **(بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب)**، للدكتور عبد العزيز الدُّورى. المطبعة الكاثوليكية (بيروت) ١٩٦٠م.

٢٤٤- **(بحوث في تاريخ السنّة المُشَرّفة)** د.أكرم ضياء العمرى. ط٣- مؤسسة الرسالة

(ساعدت على نشره جامعة بغداد)، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٢٤٥- **(بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب)**، للألوسى. المطبعة الرحمانية بمصر. ط١- ١٣١٤هـ. شرح، وتصحيح، وضبط: محمد بهجة الأثرى.

(حرف التاء)

٢٤٦- **(التاج المكللً من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول)**، للسيد أبى الطيب صديق بن حسن بن على بن لطف الله الحسينى البخارى القنوجى. (١٢٤٨-١٣٠٧هـ) = (١٨٣٢-١٨٩٠م). م.الهندية العربية ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

٢٤٧- **(تاريخ الأدب العربى)** لكارل بروكلمان (ت ١٩٥٦م). ط٢، مطابع دار المعارف بمصر ١٩٦٨م. نقله إلى العربية: د.عبد الحليم النجار.

٢٤٨- **(تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى)** د.حسن إبراهيم حسن. ط١٠- مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣م.

٢٤٩- **(تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسى والحضارى)**، للدكتور سيد على الناصرى. ط.٢ نشر: دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨٥م.

٢٥٠- **(تاريخ التراث العربى)**، للدكتور فؤاد سزكين. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م. نقله إلى العربية: د.محمود فهمى حجازى، ود. فهمى أبو الفضل. وتوجد طبعة جديدة، نشرتها جامعة محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م). نقلها إلى العربية: د. فهمى حجازى. وراجع الترجمة: د. عرفة مصطفى، ود.سعيد عبد الرحيم.

٢٥١- **(التاريخ العربى والمؤرخون)**، للدكتور شاكر مصطفى. ط١، ط٢ - دار العلم للملايين - بيروت (١٩٧٩م).

٢٥٢- **(تاريخ اللغة العربية في مصر)**، للدكتور أحمد مختار عمر. الناشر: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٢٥٣- **(التفسير والمفسرون)**، لمحمد حسين الذهبى (ت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م). مطبعة السعادة. طبع، ونشر: دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

٢٥٤- **(تيسير مصطلح الحديث)**، للدكتور محمود الطحان. دار التراث العربى ١٩٨١م.

(حرف الثاء)

٢٥٥- **(الثورات الشعبية في مصر الإسلامية)** د.حسين نصار. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر (ضمن أعداد المكتبة الثقافية عدد رقم ٢١٥)، ١٩٦٩م.

(حرف الخاء)

٢٥٦- **(الخطاطة الكتابة العربية)**. د.عبد العزيز الدالى. المطبعة العربية الحديثة. الناشر: مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٨٠م.

٢٥٧- **(الخلافة والدولة في العصر الأموى)**. تأليف: د.محمد حلمى محمد أحمد. ط٢، ومكتبة الشباب، ١٩٧٤م.

(حرف الدال)

٢٥٨- **(دراسات تاريخية في رجال الحديث)**، لعبد الحميد بخيت. ط١، مطابع الناشر العربى، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

٢٥٩- **(دراسات عن ابن عبد الحكم)**. بقلم: مجموعة من الأساتذة. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م.

٢٦٠- **(دراسات عن المؤرخين العرب)**، لمارجليوث. دار الثقافة - بيروت (د.ت). ترجمة: د.حسين نصار.

٢٦١- **(دراسات في الحديث النبوى، وتاريخ تدوينه)**. د.محمد مصطفى الأعظمى. مطابع جامعة الرياض ١٣٩٦هـ.

٢٦٢- **(دراسات لغوية)**، للدكتورعبد الصبور شاهين. مكتبة الشباب ١٩٨٤م.

(حرف الذال)

٢٦٣- **(الذهبى ومنهجه في كتابه: تاريخ الإسلام)**، للدكتور بشار عواد معروف. مطبعة عيسى الحلبى بالقاهرة ١٩٧٦م.

(حرف الراء)

٢٦٤- **(الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنّة المشرّفة)**، للإمام العلاّمة السيد الشريف محمد بن جعفر الكتّانى (ت ١٣٤٥هـ). ط٤-دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(حرف السين)

٢٦٥- **(سلسلة الأحاديث الصحيحة وشئ من فقهها وفوائدها)**، لمحمد ناصر الدين الألبانى. منشورات المكتب الإسلامى ١٣٧٨هـ.

٢٦٦- **(سلسلة التاريخ الإسلامى: عصر الراشدين)** لمحمود شاكر. ط٢- المكتب الإسلامى ١٩٨٥م.

٢٦٧- **(السنّة قبل التدوين)** للدكتور محمد عجاج الخطيب. ط١- نشر: مكتبة وهبة

بعابدين. ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

٢٦٨- **(السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامى)** د.مصطفى السباعى. ط٢-المكتب الإسلامى (بيروت - دمشق) ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(حرف الشين)

٢٦٩- **(الشافعى: حياته وعصره - آراؤه الفقهية)**، لمحمد أبى زهرة. طبع ونشر: دار الفكر العربى ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.

٢٧٠- **(شجرة النور الزكية في طبقات المالكية)**، لمحمد بن محمد مخلوف (ت ١٣٦٠هـ). الناشر: دار الكتاب العربى - بيروت. (مصورة عن ط١ السلفية ١٣٤٩هـ).

٢٧١- **(شعراء الإسكندرية في العصور الإسلامية)** لعبد العليم القبانى. في (سلسلة: مذاهب، وشخصيات)، د.ت. تقديم: د.محمد طه الحاجرى.

٢٧٢- **(شعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية٢٠-٣٥٨هـ)**. تأليف: محمد مصطفى الماحى، ومحمد عبد المنعم خفاجى. الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٠م.

(حرف الضاد)

٢٧٣- **(ضحى الإسلام)**، لأحمد أمين. ط١٠- مكتبة النهضة المصرية، د.ت.

(حرف الطاء)

٢٧٤- **(الطبرى)**، للدكتور أحمد محمد الحوفى. طبعة الهيئة المصرية العامة (من سلسلة: أعلام العرب رقم ١٣)، ١٩٦٣.

(حرف العين)

٢٧٥- **(عبد الله بن عمرو بن العاص وصحيفته الصادقة)**، لمحمد سيف الدين عليش. سلسلة أعلام العرب (رقم ١٢٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.

٢٧٦- **(عبد العزيز بن مروان)** د.سيدة كاشف. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، د.ت.

٢٧٧- **(عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية في المشرق الإسلامى)** د.ناجى معروف. ط١- مطبعة الشعب ببغداد - ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢٧٨- **(علم التاريخ)** تأليف: هرنشو. ترجمه، وعلّق حواشيه، وأضاف إليه فصلاً عن (التاريخ عند العرب): عبد الحميد العبادى. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في (سلسلة المعارف العامة) ١٩٣٧م.

٢٧٩- **(علم التاريخ عند المسلمين)** لفرانز روزنثال. ترجمة: صالح أحمد العلى (دار الكتب العلمية - بيروت).

(حرف الفاء)

٢٨٠- **(فتح العرب لمصر)**. تأليف: الفريد. ج.بتلر. الهيئة المصرية العامة للكتاب (رقم ٢٧ في سلسلة: تاريخ المصريين)، ١٩٨٩م. عرّبه: محمد فريد أبو حديد.

٢٨١- **(فجر الإسلام)**، لأحمد أمين. ط١١، مكتبة النهضة المصرية. ١٩٧٥م.

٢٨٢- **(فقه الإمام الليث بن سعد في ضوء الفقه المقارن)**، للدكتور محمود سعد. الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٨م.

٢٨٣- **(فى الأدب المصرى الإسلامى من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين)** محمد كامل حسين. مطبعة الاعتماد، د.ت.

٢٨٤- **(فى الفلسفة: مدخل وتاريخ)** د.محمد كمال جعفر، ود.حسن الشافعى. الناشر: مكتبة دار العروبة بالكويت ١٩٨١م.

٢٨٥- **(فى النقد الأدبى عند العرب إلى نهاية ق٣ هـ)**. د.محمد طاهر درويش، دار المعارف ١٩٧٩م.

(حرف القاف)

٢٨٦- **(القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م)**، تأليف: محمد رمزى. مطبعة دار الكتب ١٩٦٨م.

٢٨٧- **(القرآن وعلومه في مصر ٢٠-٣٥٨هـ)** د.عبد الله خورشيد البرى. مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٠م.

(حرف اللام)

٢٨٨- **(الليث بن سعد)**، للدكتور عبد الحليم محمود. الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة الأعلام رقم ١٣)، ١٩٧٧م.

٢٨٩- **(الليث بن سعد فقيه مصر)**، للدكتور السيد أحمد خليل. دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

(حرف الميم)

٢٩٠- **(ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟)** لأبى الحسن الندوى. ط٦ (دار الكتاب العربى - بيروت، ١٩٦٥م.

٢٩١- **(مالك: حياته وعصره، آراؤه وفقهه)**، لمحمد أبى زهرة. ملتزم الطبع والنشر: دار الفكر العربى ١٩٧٨م.

٢٩٢- **(المجتمعات الإسلامية في ق١ هـ: نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوى والأدبى)**. تأليف: شكرى فيصل. مطابع دار الكتاب العربى بمصر ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

٢٩٣- **(محاضرات في علم التاريخ ومناهجه)**. د.حسنين محمد ربيع. دار النهضة العربية، ١٩٨٤م.

٢٩٤- **(المحدّثون في مصر والأزهر ودورهم في إحياء السنّة النبوية الشريفة)** د.أحمد عمر هاشم، ود.الحسينى هاشم. نشر في (بحوث المؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، والمؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنّة)، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٢٩٥- **(مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى (مع محاضرة عن التصحيف، والتحريف)**. د.محمود محمد الطناحى. ط١-مطبعة المدنى. الناشر: مكتبة الخانجى بالقاهرة، ١٩٨٤م.

٢٩٦- **(مذاهب التفسير الإسلامى)**، للمستشرق: إجنتس جولدتسيهر. مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة. نشر: مكتبة الخانجى بمصر، والمثنى ببغداد ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م. ترجمة: د.عبد الحليم النجار.

٢٩٧- **(المسيحية والحضارة العربية)**، للأب الدكتور/ جورج شحاتة قنواتى. المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، د.ت.

٢٩٨- **(مصر الإسلامية: مقوماتها العربية، ورسالتها الحضارية)**. د.إبراهيم أحمد العدوى، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥م.

٢٩٩- **(مصر العربية الإسلامية: السياسة، والحضارة في مصر في العصر العربى الإسلامى منذ الفتح العربى إلى الفتح العثمانى)**. د.على حسنى الخربوطلى. مطبعة: لجنة البيان العربى. طبع، ونشر: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣م.

٣٠٠- **(مصر في العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى)**، للدكتور على إبراهيم حسن. ط٥- مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤م.

٣٠١- **(مصر في فجر الإسلام من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الطولونية)** د.سيدة كاشف. ط١، ١٩٤٧م.

٣٠٢- **(معجم المؤلفين: تراجم مصنفى الكتب العربية)**، لعمر رضا كحالة. الناشر: مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربى (بيروت). ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

٣٠٣- **(المعجم الوسيط)**. إعداد: مجمع اللغة العربية بالقاهرة. الطبعة الثالثة، مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية، ١٩٨٥م.

٣٠٤- **(المغازى الأولى ومؤلفوها)**. تأليف: يوسف هوروفتس. ط١ مطبعة: مصطفى الحلبى ١٩٤٩م. ترجمة: حسين نصار.

٣٠٥- **(المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام)** د.جواد على. ط٢- مكتبة النهضة - بغداد. نشر: دار العلم للملايين ١٩٧٦م.

٣٠٦- **(مقالات الكوثرى)** بقلم العلاّمة: محمد زاهد الكوثرى (ت ١٣٧١هـ)، د.ت.

٣٠٧- **(مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى، وتعريف بمصادر التاريخ الإسلامى ومنهاجه الحديث)**. د.عبد المنعم ماجد. ط٣- مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١م.

٣٠٨- **(الموجز في مراجع التراجم والبُلدان والمصنفات وتعريفات العلوم)**. للدكتور: محمود محمد الطناحى. الطبعة الأولى، مطبعة المدنى. الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٣٠٩- **(مؤرخو مصر الإسلامية، ومصادر التاريخ المصرى)**، لمحمد عبد الله عنان. ط١- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٦٩م.

٣١٠- **(موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية: السيرة النبوية العطرة وعصر الخلفاء الراشدين)**، للدكتور أحمد شلبى، والجزء الأول، ط١١، مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٤م.

(حرف النون)

٣١١- **(نشأة التدوين التاريخى عند العرب)**، للدكتور حسين نصار. مكتبة النهضة المصرية، د.ت.

٣١٢- **(نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية)**. دكتور: حسين الحاج حسن الطبعة الأولى مؤسسة الوفاء بيروت، ١٩٨٥م.

(حرف الهاء)

٣١٣- **(الهلينية في مصر بحث: في وسائل انتشارها وعوامل اضمحلالها من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى)**. تأليف: سيرهارولد إدريس بل. طبع، ونشر: دار المعارف، د.ت. ترجمة: زكى على.

رابعاً - الرسائل الجامعية:

(١) رسائل الماجستير:

٣١٤- **(الطبرى ومنهجه في التاريخ)**. على بكر حسن. رسالة ماجستير بدار العلوم ١٩٨٤م. إشراف: أ.د.إبراهيم أحمد العدوى.

٣١٥- **(العلاقات بين مصر والإدارة الحكومية في عصر الولاة من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الطولونية)**. حسن عبد الحميد جبر. رسالة ماجستير بدار العلوم ١٩٧٧م. إشراف: أ.د.محمد حلمى محمد أحمد.

(٢) رسائل دكتوراه:

٣١٦- **(حركة التعريب في مصر حتى القرن الرابع الهجرى)**. عبد العال محمد عبد العال الجبرى. رسالة دكتوراه بدار العلوم ١٩٨٧م. إشراف: أ.د.أحمد شلبى.

٣١٧- **(الحركة العلمية في جامع عمرو بن العاص في القرنين: الأول، والثانى للهجرة)** محمد جبر جبر أبو سعدة. رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية-الأزهر ١٩٧٤م. إشراف: أ.د.أحمد مجاهد مصباح.

٣١٨- **(الطبرى المفسر)**. السيد أحمد خليل. رسالة دكتوراه بآداب القاهرة ١٩٥٣م. إشراف: أمين الخولى.

٣١٩- **(مدارس مصر الفقهية في ق٣ هـ - دراسة فقهية مقارنة)**. نبيل محمد غنايم. رسالة دكتوراه بدار العلوم ١٩٧٧م. إشراف: عبد العظيم معانى.

خامساً - الدوريات:

٣٢٠- **(التاريخ والمؤرخون)**، بحث للدكتور حسين مؤنس. نشره في مجلة (عالم الفكر). المجلد الخامس، العدد الأول (أبريل - يونيه ١٩٧٤م).

٣٢١- **(تيارات الثقافة في العصر الأموى)**، للدكتور أحمد محمد الحوفى. مجلة المجلة - العدد ٨٢، أكتوبر ١٩٦٣م.

٣٢٢- **(حكاية المحرم والأشهر الحرم)**، مقال للدكتور على عبد الواحد وافى. نشره في صحيفة الأخبار القاهرية المصرية بجريدة الجمعة (٤ محرم ١٤٠٨هـ، الموافق ٢٨ أغسطس ١٩٨٧م).

٣٢٣- **(حول نشأة المسيحية في مصر)**، بحث للدكتور مصطفى العبادى. نشره في مجلة (المجلة) العدد رقم ٨١، في سبتمبر ١٩٦٣م.

٣٢٤- **(رأى في المنهج النقدى للتاريخ)**، مقال للدكتور جعفر آل ياسين. نشره في مجلة الأقلام البغدادية)، الجزء السابع (٨ شوال ١٣٨٤هـ - آذار سنة ١٩٦٥م).

٣٢٥- **(صناعة التاريخ)**، بحث للدكتور محمد عواد حسين. نشره في مجلة عالم الفكر (المجلد الخامس)، العدد الأول (أبريل - يونيه ١٩٧٤م).

٣٢٦- **(العروبة عند ابن تيمية)**، مقال لجمال الدين الألوسى. نشره في مجلة الأقلام البغدادية، الجزء الثانى، السنة الأولى (جمادى الأول ١٣٨٤هـ - تشرين الأول ١٩٦٤م).

٣٢٧- **(مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسى)**، بحث للدكتور محمود على مكى (فيه نشر لجزء من كتاب عبد الملك بن حبيب الإلبيرى بعنوان: باب استفتاح الأندلس). نشره في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الخامس،

١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

٣٢٨- **(مظاهر تأثير علم الحديث في علم التاريخ عند المسلمين)**، بحث للدكتور بشار عواد معروف. نشره في (مجلة الأقلام البغدادية) الجزء الخامس السنة الأولى، شعبان ١٣٨٤هـ/ كانون الثانى ١٩٦٥م.

٣٢٩- **(مع الرعيل الأول)**، مقال لمحب الدين الخطيب. نشره في مجلة الأزهر. المجلد الخامس والعشرون، الجزء التاسع (رمضان ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م).

٣٣٠- **(مغازى رسول الله للواقدى)**، بحث للدكتور العدوى. نشره في مجلة (تراث الإنسانية، المجلد الخامس). د.ت.

٣٣١- **(موارد تاريخ الطبرى)**، بحث للدكتور جواد على. نشره في مجلة المجمع العلمى العراقى، الجزء الأول - السنة الأولى (أيلول ١٩٥٠ م - ذو القعدة ١٣٦٩هـ).

٣٣٢- **(نشأة التاريخ الإسلامى في الأندلس: عبد الملك بن حبيب أول مؤرخ أندلسى)**، بحث للدكتور عبد الله محمد جمال الدين. نشره في (مجلة ندوة التاريخ الإسلامى بقسم التاريخ الإسلامى بدار العلوم)، المجلد الثالث (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

سادساً - دوائر المعارف:

٣٣٣- **(دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين، مترجمة إلى العربية)**: (مادة تاريخ). حررها: جب. يصدرها بالعربية عن الأصليْن الإنجليزى، الفرنسى: إبراهيم زكى خورشيد، وعبد الحميد يونس ١٩٣٣م. (راجعها من قبل وزارة المعارف: د.محمد مهدى علام).

٣٣٤- **(دائرة معارف الأعلمى)**، أو ما يسمى بـ (مقتبس الأثر، ومجدّد ما دثر). تأليف: محمد الحسين الأعلمى (ت ١٣٩٤هـ). ط١، من مطبوعات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

سابعاً - الموسوعات:

٣٣٥- **(المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى)**، للمستشرقين. نشره: ونسنك. مكتبة: بريل في مدينة ليدن، ١٩٣٦م.

٣٣٦- **(موسوعة أطراف الحديث النبوى الشريف)**. إعداد: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول. ط١- دار التراث للطباعة والنشر - بيروت. وكلاء التوزيع: دور الفكر، ودار الكتب العلمية (بيروت) ١٩٨٩م.

٣٣٧- **(موسوعة تراجم الرجال)** مخطوطة بيد الشيخ حامد إبراهيم صاحب (مكتبة المصطفى) بالدمرداش.

ثامناً - أحاديث إذاعية مهمة:

٣٣٨- حديث الأستاذ عبد السلام هارون (ت ١٩٨٨م) إلى برنامج (شخصيات إسلامية وراء الميكروفون) بإذاعة القرآن الكريم، تقديم: فوزى خليل بتاريخ ٢/ ٧/ ١٩٨٨م (وبه تصحيح لاسم كتاب البيان والتبيين).

تاسعاً - مراجع أجنبية:

دراسة بالفرنسية:

Zotenberg ; l'introduction de chronique de jean , eveque de Nikiou , Paris , 1883.

ودراستان بالألمانية:

Graf ; G'eschicnte der christlichen Arabischen literaturÛ Roma 1944.
Hofer and Kal Rahner ; Lexikon Fiir Theologie und KircheÛ Hannover , 1987.

فهرست محتويات الكتاب

البـاب الأول
العلاقات الثقافية بين مصر والأقاليـم العربية الأخرى
فى القرنين الأولين الهجريين

البـاب الثانى

التاريخ نشأته - عوامل تدوينه - مدارسه في الأقاليم الأخرى

الباب الثالث مدرسة مصر التاريخية
فى القرن الأول الهجرى (مرحلة التأسيس والبناء)

الباب الرابع

المدرسة المصرية التاريخية فى القرن الثانى الهجرى (مرحلة الانطلاق)

الباب الخامس
دور مؤرخى القبط فى كتابة تاريخ مصر